الثورة الصناعية

وآثارها الاجتماعية والقانونية

دكتور أحمد حسن البرعي

أستاذ التشريعات الاجتماعية المساعد
كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

القاهرة ـ ص.ب ١٣٠



اقــرأ باســـم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق •

اقرأ وربك الأكرم• الذى علم بالقلم• علم الانسان مالم يعلم

صدق الله العظيم •

مؤلفـات أخرى للمؤلف :

١ ـ النقابات فى النظام الاشتراكى
(رسالة دكتوراه) باللغة الفرنسية ـ جامعة Rennes بفرنسـا ـ عام ١٩٧٢ .

٢ ـ علاقات العمل الجمـاعية فى القانون المصرى المقـارن الجزء الأول : النقابات .

دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٦ .

٣ ـ علاقات العمل الجماعية فى القانون المصرى المقارن ـ الجزء الثـانى : عقـد العمل المشترك .

دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٧ .

٤ ـ الحركة التعاونية من الوجهتين التشريعية والفـكرية ـ الجـزء الأول دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٦ .

٥ ـ ملامح تطور الحركة العمالية والنقابية فى مصر حتى ١٩٥٢ القاهرة ـ مجلة القانون والاقتصاد العدد ٣ ـ ٤ ـ ا لسنة ٤٨ ـ ١٩٨٠ .

٦ ـ نظرية الالتزام فى القانون المدنى المغربى ـ الجزء الأول : العقـد . دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ ١٩٨١ .

٧ ـ نحو مولد فرع جـديد من فـروع القـانون : القـانون الاجتمـاعى « بحث تحت الطبع بمجلة القانون والاقتصاد » .

٨ ـ الانفتاح الاقتصادى وأثره على قانون العمـل فى مصر « مؤلف تحت الطبع ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة » .

الى ابنى رامى

فى عيد ميلاده الســادس

القاهرة ٢٨ / ١١ / ١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد :

اعتبارا من النصف الثاني من القرن الثامن عشر(١) عرفت البشرية حدثا جديدا وصف بأنه أهم تحول وأعظم اكتشاف عرفه البشر . وأطلق على هذا الحدث اسم « الثورة الصناعية »(٢) ، فلاول مرة فى تاريخ البشرية ،

---

(١) ويؤرخ الكتاب لهذه الفترة اعتبارا من عام ١٧٥٠ ، ولكن ذلك لا يعنى ان هذا التاريخ هو انطلاقة الثورة الصناعية ، فالتاريخ متصل ، وكل مرحلة منه تمهد للمرحلة التى تليها ، وكل مرحلة لاحقة تحمل بصمات المرحلة السابقة عليها . كل ما هناك ، انه اعتبارا من هذا التاريخ بدات المخترعات الفنية فى الصناعة تتوالى بدرجة لم يشهدها المجتمع الانسانى من قبل ، واكتملت نهائيا العوامل المكونة للنظام الراسمالى فى دول اوربا الغربية وعلى الأخص فى انجلترا .

انظر فى ذلك :

J.A. Lesourd et Cl Gerrard : Nouvelle histoire économique (le XIX siècle) A. Colin - Collec, V - Paris 1976 pp. 9 et ss.

(٢) وقد نسب اصطلاح الثورة الصناعية فى اول الأمر الى Paul Mantoux فى رسالته التى نشرها عام ١٩٠٥ عن الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر ، ولكن الكاتب نفسه نوة فيما بعد انه ليس صاحب الاصطلاح وانه قد سبقه في استخدامه العالم ارنولد توينبى في مجموعة محاضرات كان قد القاها وجمعت فيما بعد في كتاب بعنوان « قراءات في الثورة الصناعية » .

"Lectures on the industrial révolution"

وذلك عام ١٨٨٤ .

ولكن يبدو أن استخدام الاصطلاح يرجع الى تاريخ أبعد من ذلك ، فقد استخدم الاصطلاح في احدى المقالات المنشورة بمجلة Le Moniteur universel في ١٧ أغسطس ١٨٢٧ ، كما استخدم أيضا من قبل الاقتصادى Adolphe Blanqui ما بين ١٨٢٨ و ١٨٣٩ .

كذلك استخدم هذه العبارة كارل ماركس في الجزء الأول من « رأس المال » عام ١٨٦٧ حيث أعطى وصفا مفصلا لما اسماه Die indusrielle révolution كما استخدم نفس التعبير الكاتب الألمانى كارل مارلو عام ١٨٥٠ ، وجون ستيوارت ميل عام ١٨٤٨ ، وفردريك انجلز عام ١٨٤٥ .

انظر في كل ذلك P. Mantoux : La rèvolution industrielle au XVIII siècle ed Genin - Paris 1973, p. 1 p. 21 et 22, p. 66, pp. 183 et ss. et J. A. Lesourd op. cit., 1, p. 53 et ss.

تتحرر قوى الانتاج البشرى ، ويتطور النظام الاقتصادى على نحو يسمح بتعدد وتضاعف الخدمات والبضائع بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ • وبدأ الانسان يتحول من القرى الى « المدن الكبرى » ، ومن العمل اليدوى الى استخدام الآلات ، ومن المصانع « المنزلية » أو الصناعات العائلية الى المصانع الكبرى • وتوالت هجرة المزارعين من القرى الى المراكز الصناعية الكبرى ، وبدأ الصانع اليدوى يعانى من صور الانتاج الصناعى الجديد ، وشيئا فشيئا يتلاشي فى خضم طبقة العمال ، هذه الطبقة « البروليتاريا » التى ظهرت لاول مرة تحت تأثير التطورات ، وبدأت طبقة جديدة « الطبقة الرأسمالية » تحل محل طبقة السادة والاشراف فى النظام الاقطاعى •

وهكذا ، نرى انه تحت ضغط هذه التحولات ، بدات نوح كثيرة في حياة البشر تتخذ اشكالا جديدة •

وعلى الصعيد الاجتماعى ، كان أهم النتائج التى ترتبت على هذه الثورة ، تقسيم المجتمع الى طبقتين متميزتين ، طبقة الرأسماليين الصناعيين ، وطبقة العمال (البروليتاريا) ، وتركت الدراسات الاجتماعية حول الثورة الصناعية على طبيعة العلاقات التى سادت بين هاتين الطبقتين ، التى لولاهما لما أمكن لهذا التحول الهام فى تاريخ البشرية ان يتم على النحو الذى تم به • ومن هنا ما يذهب اليه أغلب الكتاب ، من القول ، أن هذا التحول ليس الا « ثورة » وعلى الأخص « ثورة صناعية » اشارة الى ان أهم معالم هذا التحول ، تمت على الصعيد « الصناعى » وفى داخل المشروع الصناعى (المصنع) ، ولعب الصراع بين طبقة أصحاب رأس المال ، وطبقة العمال ، دورا هاما فى التطور الحاصل فى المجتمع(٣) •

---

(٣) على ان بعض الكتاب ، بحق ، يحبذون عدم استخدام تعبير « الثورة الصناعية » لما يحمله من طابع الدفعة الواحدة والحدث الفجائى مما يخالف الحقيقة المعروفة في التطور التدريجى للتحول الذى حدث في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ويفضلون التعبير عنه بأنه « تطور سريع لا يقاوم » •

راجع في ذلك :

Hénré Sée : Les origines du capitalisme moderne
A. Colin - Paris 1936, pp. 151 et ss.

على أن الأمر يقتضي منا ، أن نوضح ، أن التطور الحاصل منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ليس تطورا صناعيا فحسب ، بل هو تطور للنظام الاقتصادى ككل ، المعروف ب « النظام الرأسمالى » ، والذى بدأت عوامل تكوينه تتجمع وتتبلور منذ القرن السادس عشر ، فمنذ هذا التاريخ ، بدأ تراكم رأس المال واستمر هذا التراكم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حتى التقى فى منتصف القرن الثامن عشر بالاختراعات الفنية والعلمية (وبعوامل أخرى سنقدمها فى دراستنا) ، وترتب على التقاء رأس المال بالاختراعات الفنية ، الى نشأة المشروع الصناعى(٤) ، وبالتالى لا يمكن النظر الى الثورة الصناعية ، نظرة مجردة ، بل يتعين دراستها من خلال تطور النظام الاقتصادى ككل والذى لا تعدو أن تكون الثورة الصناعية أحد جوانبه ، وان كانت « أهم هذه الجوانب »(٥) •

والواقع ، أن دراسة الثورة الصناعية ، تحتمل العديد من الجوانب ، فهذه الثورة الاقتصادية والاجتماعية ، اقتضت ظروفا سياسية وتطورات فكرية سابقة عليها ، مهدت لها واستحقت أن يطلق على مكوناتها لفظ « الفكر الرأسمالى » أو « العقلية الرأسمالية »(٦) لذلك ، فان هذه الثورة تحتمل دراسة اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو سياسية أو فكرية ، لذلك فالدراسات المتخصصة فى هذا الميدان متعددة ومتنوعة • ولكننا نعتقد ، أن دراسة الثورة الصناعية لآثارها الاجتماعية والقانونية ، تقضي منا أن نلقى الضوء على أهم العناصر التى أدت الى هذه الثورة دون اغفال لاى عنصر منها ، حتى نتمكن من اعطاء صورة متكاملة ، قدر الامكان ، للعوامل التى أوجدت النظام الرأسمالى

---

(٤) راجع في ذلك : احمد جامع : الراسمالية الناشئة •
(مكتبة التنمية والتخطيط)ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ١٤ وما بعدها •

(٥) Jean-Pierre Rioux : la révolution industrielle (1780-1880) Ed. du Seuil Paris 1179 pp. et ss.

(٦) André Piettre : Histoire économique - Editions Cujas, Paris 1973

ويعزو الكتاب ، كما سنرى بعد قليل ، هذا التحول الانسانى الضخم الى عوامل مادية ، ولكن أيضا الى عوامل معنوية أدت الى تبدل الأفكار ونشوء « الفكر الراسمالى »
Changement des mentalités et esprit capitaliste pp. 39 et ss.

ويرجع أصول هذا الفكر الى عهد النهضة ، والى عهد الاصلاح في الكنيسة ، راجع في ذلك
Seé : op. cit., Note 3, p. 59.

ككل ، وعلى الأخص ما ادى منها الى قيام الثورة الصناعية ، وما تخلف عن هذا التطور من نظام اقتصادى واجتماعى محدد ، ما زلنا نعيشه حتى يومنا هذا . لذلك فاننا نقترح تقسيم هذه الدراسة الى ثلاثة فصول ، نخصص الأول منها لدراسة العوامل التى أدت الى وقوع الثورة الصناعية ، محاولين فى ذلك الالمام بكل هذه العوامل ، الماما يكفى لالقاء الضوء على آثار هذه الثورة الصناعية من الناحية الاجتماعية (الفصل الثانى) ، لنرى فى النهاية ، ما هى انعكاسات هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية على طبيعة العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع من وجهة نظر القانون ، أو بمعنى آخر ، ما هو تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية لهذه الثورة على البنيان القانونى ؟ (الفصل الثالث) .

ولعل من المفيد ، أن نبين ، منذ المقدمة ، ما هو الهدف من اجراء هذه الدراسة : الواقع ، ان دراستنا هذه لا تنفصل عن واقعنا الاقتصادى والاجتماعى ، سواء فى مصر بصفة خاصة أو فى دول العالم الثالث ، بصفة عامة .

فمنذ الخمسينات ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، ومنذ أن بدأت دول آسيا وأفريقيا فى التحرر من الاستعمار ، انطلقت الأصوات تنادى بضرورة العمل على تطوير النظام الاقتصادى الوطنى كوسيلة لرفع مستوى معيشة المواطن وتحريره « اقتصاديا » بعد ان تم تحريره « سياسيا » . ولكن الدول النامية الحديثة التحرر ، وان اتفقت على الهدف ، فانها اختلفت فيما بينها على الأسلوب المتبع لتحقيقه ، فتأثرا بالنظم الاجتماعية السائدة والسياسية ، أخذت بعض بلدان العالم الثالث بالنظام الرأسمالى ، بينما نحا البعض الآخر تجاه المعسكر الشرقى (النظام الاشتراكى) . والنظام السياسي المتبع فى نظرنا ، لا أهمية له ، ولكن المهم هو مدى ما يستطيع هذا النظام تحقيقه من تحرر على الصعيدين السياسي والاقتصادى للمواطن ، وعلى الأخص ، مدى ما يساهم به هذا النظام فى رفع مستوى معيشة الطبقات الشعبية .

ومن هنا ، جاء اختيارنا لموضوع الثورة الصناعية ، فالمشاهد ان الدول التى وقعت فيها هذه الثورة مبكرا ، والتى عرفت باسم « الدول الصناعية »

استطاعت ، دون شك تحقيق مستوى معيشة مرتفع للطبقات الشعبية ، بحيث لم يعد سرا ان أغلب الدول النامية (بل ودول المعسكر الشرقى أيضـا) تطمع فى الوصول الى هذا المستوى ٠

ولكن الوصول الى هذا الحـد من مسـتوى المعيشـة ، لم يقع اعتباطا ، ولم يتم دون تضحيات ٠ ولهذا آثرنا دراسـة تلك العوامل التى أدت الى قيامه ، والتضـحيات التى بذلت لبلوغه ، لنتساءل فى نهاية هذه الدراسة عن امـكانية وقوع هذه « الثورة » ، مدى أمره في البلاد النامية ٠

كذلك ، فان الثورة الصناعية كانت العامل الأساسي والمباشر في ميلاد قانون العمل ، أو القانون الاجتماعى ككل ، لذلك فمن المفيد أن نقف على كيفية ميلاد هذا الفرع من فروع القانون ، حتى نتفهم العلاقة الوثيقة التى تربطه بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية ٠

والله نسأل التوفيق ٠٠

الفصل الأول

العوامل التى أدت الى قيام الثورة الصناعية

تعددت العوامل التى ساهمت فى تكوين النظام الرأسمالى ، وعلى الأخص فى قيام الثورة الصناعية ٠ ونجد أن أهم هذه العوامل ، اقتصادية ٠ ولكن حتى علماء الاقتصاد أنفسهم يسلمون ان هناك عوامل أخرى لا يمكن انكار أهميتها ساهمت بدورها فى حدوث هذا التطور ٠ فالعوامل الاقتصادية وحدها لم تكن لتكفى لاحداث التطور ، على النحو الذى حدث به ، لو لم يتبدل تفكير الناس بحيث يتفهمون هذه التطورات الحاصلة فى المجتمع ، بل وبحيث تتكون عقلية « رأسمالية » تعمل على دفع عجلة التطور ٠

لذلك ، فان دراسة العوامل الاقتصادية ، لا تكفى وحدها لاعطاء صورة متكاملة للكيفية التى تم بها تطور النظام الاقتصادى ككل ، ووقوع الثورة الصناعية على الخصوص ٠ لذلك ، فبالاضافة للعوامل الاقتصادية (المبحث الأول) سنتولى أيضا دراسة العوامل غير الاقتصادية الاجتماعية منها والفكرية والسياسية (المبحث الثانى) ٠

المبحث الأول : العوامل الاقتصادية

لعبت العوامل الاقتصادية دورا هاما فى حدوث الثورة الصناعية . فتراكم رأس المال لدى الدول الأوربية كان شرطا أساسيا لانطلاق الثورة الصناعية فيها ، حيث توافدت رؤوس الأموال اللازمة للاستثمار الصناعى (المطلب الأول) ، وخاصة في وقت توالت فيه الاختراعات الفنية والصناعية بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية (المطلب الثانى) وما كان يقتضيه ذلك من أموال لوضع هذه الاختراعات موضع التنفيذ .

كذلك ، فان هذه الثورة الصناعية لم تكن لتكتمل الا ان سبقتها ثورة زراعية فى كل البلاد التى دلفت الى عهد الصناعة (المطلب الثالث) . ثم ان تطور وسائل النقل جاء ليعزز العوامل الأخرى في أحداث هذا الانقلاب (المطلب الرابع) ، وأخيرا فان تطور البنوك واتساع نشاطها كان أيضا من العوامل الهامة التى ساعدت على توفير الأموال للمشروعات الناشئة وتقديم الائتمان اللازم لتمويل العمليات الصناعية (المطلب الخامس) .

المطلب الأول : الفتوحات الاستعمارية وتراكم رأس المال

يعتبر تراكم رؤوس الأموال عاملا أساسيا لنجاح أى نمو صناعى أو اقتصادى عموما . فرأس المال ضرورى لتمويل الدراسات والابحاث والاختراعات والابتكارات واجراء التجارب ، وهو كذلك لازم لتمويل تكاليف الانتاج وعمليات التسويق . لذلك لم يكن من الممكن أن تقوم الثورة الصناعية لو لم تتوفر البلاد الأوربية التى قامت فيها هذه الثورة على الأموال اللازمة للتمويل . ولعل أهم المصادر التى مكنت هذه الدول من توفير رؤوس الأموال اللازمة ، كانت الفتوحات الاستعمارية والاكتشافات البحرية التى حدثت ، على الأخص ، فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر ، فقد مكنت هذه الاكتشافات والفتوحات ، الدول الاستعمارية من تحقيق مكاسب ضخمة ووفرت لها رؤوس الأموال اللازمة لانطلاق الحركة الصناعية(٧) .

---

(٧) ولكن الى جانب رأس المال المتراكم من التجارة (رأس المال التجارى) فان تراكم رؤوس الأموال عامة ، في مرحلة نشأة الراسمالية ، جاء نتيجة لتراكم رؤوس الأموال الناشئة عن العمليات المالية ورؤوس الأموال العقارية (الناشئة من العقارات والأراضي) .

راجع في ذلك الدراسة الاقتصادية التى اجراها الأستاذ الدكتور / أحمد جامع - المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٤٤ وما بعدها .

وقد كانت البرتغـــال وأسبانيا أولى الأمبراطوريات الاستعمارية ، فى فجـر التطور الرأسـمالى . فمنـذ القرن الرابع عشر بـدأ البرتغـال يتغلغلون الى السـاحل الشمالى فى أفريقيا حتى تمكنوا من الاستيلاء على سبتـة عام ١٤١٥ ، وجعلوا منهـا قاعدة لانطلاق تجارتهم البحرية وفتوحاتهـم الاستعمارية .

وفى النصف لثانى من القـرن الخامس عشر ، اكتشف الملاحون البرتغاليون فى أفريقيا الرأس الأخضر وسواحل غينيـا (ساحل الذهب) ورأس الرجـاء الصالح ، وكذلك الطريق البحرى الى الهنـد حـــول أفريقيـا ، وفى الربع الأول من القرن السـادس عشر بسط البرتغاليون رقابتهم نهائيـا على السـواحل الغربية من الهند وجزئيا على سواحلها الشرقية[٨] ، وكذلك على «مالاكا» وعندما استولوا على مدينة عدن (عند المخرج من البحر الأحمر الى المحيط الهندى) وعلى مضيق هرمز (فى الخليج العربى) أغلقوا الطرق التجارية القديمة الى الاسكندرية عبر البحـر الأحمـر ومن الهند الى سوريا عبر بلاد ما بين النهرين . وكذلك استولى البرتغاليون على قسم كبير من أرخبيل الزون وأندونسيـا والبرازيل ، وكونوا أمبراطورية استعمارية واسعة الارجاء .

وفي الوقت نفسه تكونت الأمبراطورية الاسـتعمارية الأسـبانية وقد بدأ تشـكيلها حوالى عام ١٤٦٢ حين وصل كريستوف كولمبوس ، الملاح الجنـوى العامل فى خدمة ملك أسبانيا ، الى سواحل أمريكا وأعلنت جميع الأراضي التى وطأتها قدماه ممتلـكات للتـاج الأسبانى ، وسرعان ما شن الأسبان حروب فتوحات دامية فى الأراضي المستكشفة حديثا : فاسـتولوا عـام ١٥١٩ على المكسـيك الشـاسعة الغنية ، وبعد فترة وجيزة وقعت فى قبضة الأسبان بقية الأراضي فى

---

(٨) ففى عـام ١٤٨٧ تمكن البحـار البرتغالى ديـاز من الدوران حـول راس الرجاء الصـالح فاتحا هذا الطريق لأول مرة امام التجـارة مع الشرق الأقصي .

وفي عـــام ١٤٩٧ وصل فاسـكو دى جاما الى الهنـد ، واسس البحـار البرتغـالى البيـكيرك أمبراطورية برتغـالية في الهنـد بعد ضرب « كالكتا » بالقنابل ، في حين اسـتولى البحـار البرتغـالى كابرال على البرازيل في عام ١٥٠٠ باسم البرتغـال .

وفي عام ١٥١٥ اكتشف ماجلان ــ البرتغالى العامل في خدمة عاهل أسبانيا ــ الطريق الجنوبية الغربية للشرق الأقصي وأثبت اتصال المحيط الاطلسي بالمحيط الهادى وكان ذلك أول طواف بحرى حول قارة بكاملها في التاريخ .

ويلاحظ أن هذه الاكتشـافات تمت في فترة وجيزة للغـاية ، فالفارق بين أول هذه الرحـلات (رحلة ديـاز) وآخرهـا (رحلة ماجـلان) تبلغ حوالى ثلاثين عاما .

أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وجزئيا فى أمريكا الشمالية (باستثناء البرازيل التى استولى عليها البرتغاليون) ٠

ولذلك كانت البرتغال وأسبانيا تمثلان القوتين البحريتين الرئيسيتين في العالم في القرن السادس عشر لدرجة أن البابا الكسندر الثالث قسم ، بوثيقة بابوية فى ٣ ما يو ١٤٩٣ ، الأرض الجديدة التى اكتشفت والتى ستكتشف بين أسبانيا والبرتغال ٠

لقد تركت الاكتشافات الجغرافية الكبرى والفتوحات الاستعمارية آثارا اقتصادية هائلة لا يمكن انكارها ٠

ففى الأراضي التى افتتحوها (الهند وجاوا وسومطرة وملقا) أقام البرتغاليون مكاتب تجارية غدت مراكز التجارة مع السكان المحليين وسندا حربيا للمستعمرين ، وفعلوا نفس الشيء بالاشتراك مع الأسبان فى أمريكا ٠ ولكن التجارة التى كانت بين المستعمرين والأهالى لم تكن تعدو ان تكون عملية ترتكز على الابتزاز والخداع(٩) ، فهى لم تكن أكثر من مصادرة بحتة الأموال ومنتجات الأهالى الوطنيين العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ، وبفضل أعمال سطو منظمة تمكن تجار الدول الأوربية من تحقيق أرباح ضخمة تبلغ أضعاف رأس المال المستخدم فى هذه « التجارة »(١٠) ٠

فقد رافق الفتوحات الاستعمارية « نهب سافر » للشعوب المحلية ٠ فلم يكتف المستعمر بخداع الأهالى فى العمليات التجارية ، ولكنه علاوة على ذلك عمد الى استعباد الأهالى ، فقد اكتشف المستعمر ان الثروة الحقيقية لا تكمن فحسب فى المواد والتجارة التى يستجلبها من الأراضي المكتشفة والمفتوحة ، وانما أيضا فى سكان هذه البلاد ، لذلك عمد المستعمرون الى الحصول على أكبر قدر من قوة عمل السكان بعد تحويلهم الى عبيد ٠

فقد حصل الأسبان على كنوز هائلة من الشعوب التى استعمروها ، واستولوا من المدافن والمعابد على كل الكنوز التى بها ، كما استولوا على الذهب

---

(٩) جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب : غرض اقتصادى وتاريخى (تشكيلات ما قبل الراسمالية والمجتمع الراسمالى) ـ بيروت ـ ١٩٧٨ ـ ص ٤٢٢ ٠

(١٠) أنظر أحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص (٢٩) ٠

والأحجار الكريمة والفضة(١١) • ولجأ الفاتحـون الى استعبـاد الأهالى وارغامهم على العمـل فى مزارعهم ومناجمهم ، وقد نتج عن المعاملة القاسـية التى كان يلقاها الأهالى الى انخفاض عدد السـكان انخفاضا شديدا وخاصة بين الهنـود الحمر • ففى مناجم الفضـة في بوليفيـا وحدها هلك ابان سيطرة الأسبـان زهاء ثمانيـة ملايين هندى أحمر ، ولذلك شرع المستعمرون فى استبدالهم بالعبيد من افريقيا الذين كان يتولى تجـار الرقيق توريدهم الى أمريـكا وذلك بعـد اصطيادهم من أفريقيا ، كما تصطاد الحيوانات تماما وتكبيلهم بالسلاسل وسوقهم على الأقدام في صفوف طويلة الى السفن الراسية على الشاطىء الأفريقى ثم تكديسهم بعضهم فوق بعض في هذه السفن والابحار بهم في ظروف لا يكاد يصدقها عقل الى أمريكا حيث يصـل أحيـاء منهم العدد القليل فحسب(١٢) ، وقد أضافت

---

(١١) ويكفى ان نذكر في هـذا الصـدد أن كمية الذهب والفضـة الموجودة في اوربا في أوائل القرن الرابع عشر كانت لا تكفى للوفـاء باحتياجاتهـا • لكن هـذه الكمية بدات في الازدياد اعتبـارا من منتصف هذا القرن نتيجة اسـتغلال المناجم الأوربية في التيرول وبوهيميا وغيرها • وكذلك نتيجة لورود الذهب الأفريقى الذى تولت البرتغـال اسـتخراجه (٣ آلاف كيلو جرام سـنويا من عـام ١٤٩٣ حتى عام ١٥٢٠ و ٢٥٠٠ كيلو جرام من عام ١٥٢٠ الى عام ١٥٤٤) •

الا ان الزيادة الكبرى في كمية الذهب في أوربا قد حدثت منذ منتصف القرن السـادس عشر نتيجة لنهب كنوز الانـكا في بيروا واستغلال مناجم المكسيك وبيرو بواسطة أسبانيـا • وتقدر الـكمية الكلية للمعـادن الثمينة التى قدمتهـا المناجم الأمريكية الى اوربـا في الفترة من عـام ١٥٠٩ الى ١٦٦٠ بحوالى ١٨ الف طن من الفضة ومن ١٨٠ الى : ٢٠٠ الف طن من الذهب • وهذه الـكمية تمثل عشرة اضعاف تلك التى كانت موجودة في اوربا في بداية القرن الخامس عشر • ومنذ منتصف القرن السـابع عشر بدات فترة جديدة من تدفق المعـادن الثمينة على أوربا واستمرت حتى الربع الأخير من القـرن الثامن عشر ، وفيهـا استمرت كمية الذهب والفضة في الازدياد في أوربا •

وقد ترتب على تدفق المعـادن الثمينـة في أوربا ان بدات حركة ارتفـاع كبرى في الأسعار منذ بداية القـرن السـادس عشر ، حركة ظهـرت في اسبانيـا أولا بطبيعة الحال نتيجـة استغلالهـا لمستعمراتهـا في المكسيك وبيرو ثم انتقلت منهـا الى فرنسـا وبقية الدول الأوربية •

J. P. Rioux, op. cit., Note 5, pp. 40 et ss.

(١٢) ويلاحظ ان العبيد من افريقيا كانوا الأدوات الرئيسية للنشـاط الاقتصـادى الجـديد المتمثل في زراعة المحصولات الاستوائية في المسـتعمرات الأوربية في امريكا الوسطى والبرازيل وجـزر الهنـد الغربية ، فقد أدى اقامة المزارع الكبرى أن غـدت الحـاجة ماسة الى الأيدى العاملة المسترقة ، وقد عثر عليهـا المستعمرون في افريقيا بالذات ، وصارت تجـارة رئيسـية لهم ، وقد اتسـع نطاقها ابتـداء من القرن السادس عشر بالذات على يد البرتغاليين • فبحسب التقديرات التقريبيـة أقتيـد تسعمـائة الف رقيق افريقى الى أمريكا في القرن السادس عشر • اما في القـرن السـابع عشر فقد بلغ ذلك الرقم مليونين وسبعمائة الف ، وفي القرن الثامن عشر سبعة ملايين • وفي القرن التاسع عشر=

هذه المتجارة القاتلة أرباحا لا تقدر الى ثروة التجار الأوربيين ، وقال بعض الكتاب الأوربيين عن ذلك « لقد أصبحنا أغنياء لأن أجناسا بأسرها وشعوبا بأكملها قد ماتت من أجلنا ، ومن أجلنا أيضا افتقرت قارات بأكملها »(١٣) .

أما الأسبان فقد لجأوا الى طرق لا تقل ضراوة عن الطرق التى استخدمها البرتغاليون لاستنفاد خيرات المستعمرات : فقد لجأ الأسبان الى قطع طرق التجارة القديمة وأغرقوا ونهبوا السفن العربية والهندية والصينية . ومن مكاتبهم التجارية فى الهند وفى الجزر شنوا هجومات على القبائل المحلية وفرضوا عليها جزية من التوابل والحرير والسكر والتبغ وغيرها من المنتجات الاستوائية القيمة التى كان التجار البرتغاليون يبيعونها فى الأسواق الأوربية بأسعار أغلى ثلاث مرات . وكانت التجارة بين البرتغاليين والسكان المحليين ترتكز على الخداع : فمقابل توافه وسلع زهيدة القيمة ، كان المستعمرون يحصلون على قيم فعلية هائلة ويبتزون مائة بالمائة من الأرباح وأكثر من ذلك. فيقال مثلا أن فاسكودى جاما قد عاد الى لشبونة عام ١٤٩٩ ومعه حمولة من البضائع قيمتها أكثر من ستين ضعفا من تكاليف البعثة . وأن البحار الانجليزى « دارك » قد عاد ببضائع منهوبة تقدر قيمتها ما بين نصف مليون ومليون من الجنيهات مع أن نفقات الرحلة لم تتجاوز خمسة آلاف من الجنيهات(١٤) .

= اربعة ملايين ، اى ما يناهز خمسة عشر مليون نسمة في المجموع (ويقال في تقديرات أخرى عشرون مليونا) .

وكانت آلاف مؤلفة من الافارقة يلقون حتفهم أثناء الغارات التى ينظمها تجار الرقيق في القارة ، وكان أكثرهم يموت من الأمراض والتعذيب أثناء شحنهم . ويفترض انه مقابل كل رقيق كان يصل الى أمريكا كان يموت خمسة على الأقل في افريقيا او الطريق ويقدر ان تجارة الرقيق قد كلفت بالاجمال ، القارة الأفريقية ، ستين مليون نسمة .

المشاعة ، الرق ، والاقطاع ـ ترجمة جورج طرابيشى ـ دار الطليعة بيروت ـ ١٩٧٨ ص ١٣٠ .

(١٣) احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٣٠ .

(١٤) وتقدر ارباح الشركات الأوربية الاستعمارية ـ التى سنتكلم عنها بعد قليل ـ بحوالى ١٠٠٪ من راسمالها ولا تقل عن ذلك ، اما في التجارة مع افريقيا وخاصة تجارة الرقيق فقد كانت الأرباح ما بين ١٠٠ ٪ و ٣٠٠ ٪ .

احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٣١ .

ولقد أدت هذه العناصر جميعا (التبادل غير المتكافىء ، استعباد الشعوب المستعمرة ، اكتشاف مناجم الذهب والفضة والاستيلاء عليها ، نهب الثروات الموجودة لدى شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا) أدى كل ذلك الى تراكم رأس المال فى فجر عهد الانتاج الرأسمالى(١٥) ٠

وقد احتدمت المنافسة الاستعمارية والبحرية والتجارية بين أسبانيا والبرتغال ، مما دعاهما وتحاشيا للصدام الى عقد معاهدة عام ١٥٢٦ قسما بموجبها العالم من طرف الى آخر قسمين ، أحدهما من حق الأسبان السيطرة عليه والآخر للبرتغاليين وهكذا جرى أول تقسيم استعمارى للعالم ، ولكن التناقضات بين الأسبان والبرتغاليين لم تنقض ٠ لذلك ، فما أن طالعنا القرن السابع عشر حتى انتقلت السيادة فى البحار ، وفى المستعمرات ، الى دول أوربية أخرى أكثر نشاطا هى هولندا وانجلترا وفرنسا ٠

---

(١٥) ينبغي أن ننبه في هذا الصدد ، أن رأس المال التجارى كان قد بدأ في التراكم في مرحلة سابقة على الفتوحات الاستعمارية ، وعلى الأخص في المدن الايطالية ، حيث تمكنت هذه المدن ، نتيجة للحروب الصليبية ، واعادة العلاقات مع الشرق وفتح الأسواق الخارجية واعادة ممارسة التجارة الدولية وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط مع سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى ٠

فلقد تراكمت رؤوس الاموال الضخمة بأيدى تجار المدن الايطالية ، الذين مثلت نشاطاتهم نموذجا للطبيعة المتخصصة عموما للطبقة التجارية الاوربية ككل سواء تعلق الامر بتجار أوربا الشمالية او تجار البحر الأبيض المتوسط ، وسواء كانوا يعملون في نطاق أسواق اقليمية متواضعة او في تجارة سلع القرن العالمية ، ولقد استمد التجار الايطاليون وبخاصة تجار فلورنسا والبندقية باعتبارهم الأكثر نجاحا ارباحهم من التجارة في السلع الباهظة الثمن كالتوابل والمجوهرات ومنتوجات الحديد من الشرق الأوسط والاقصي والنسيج الصوفى الرفيع المستوى من الاراضي الواطئة وايطاليا الوسطى والذهب من غرب افريقيا ٠ كما انهم تعاملوا بالنقود كصيارفة للبابا والحكام الاخرين (وذلك لتمويل الحروب بالدرجة الاولى) وقام بعضهم ككبار التجار الفلامنكيين ، بتنظيم عملية توفير المواد الأولية لصناعة الأقمشة ، بالاضافة الى بيع المنتج النهائى ولكن دون ادخال أى تعديل على طبيعة العملية الانتاجية ٠ ثم اخذت منتجات اخرى فى الدخول ضمن تيار التجارة الدولية : النبيذ من الجزر الفرنسية والراين ، والحبوب والبلوط والفرو من البلطيق ، والملح من الخلجان الفرنسية ، والأملاح الطبية من البحر الأسود ، ٠٠٠

وهكذا فان التقدم الفنى لأساليب التجارة ، والقدرة على مركزة الأموال لتمويل الحكومات مع الارستقراطية العقارية (التى كانت تعانى على الدوام من نقص في الأرصدة المتداولة) بأسعار نائدة عالية ، كل ذلك أستحق ثناء بعض المؤرخين على الراسمالية التجارية في هذه الفترة ٠ ولكن هذا الثناء لا يمنع ان رؤوس اموالهم ظلت محصورة على الدوام في دائرة التداول ، ولم تتجه اطلاقا نحو الانتاج الزراعى أو الصناعى ، مما حرمها من اى دور في تطوير النظم الانتاجية او الاقتصادية ٠

انظر في ذلك خصوصا :

Seé, op. cit., note 3, pp. 12 et ss.

ففى القـرن السـابع عشر أخذت هولنـدا تشـغل مركزا لها فى عـدد الدول الاستعمارية الكبرى ، مزحزحة أسبانيـا والبرتغـال ، بل أن التجـار الفاتحين الهولنديين تسربوا الى الهنـد فى أواخر القرن السـادس عشر ، وفى عام ١٦٠٢ انشئت الشركة العـامة للهنـد الشرقية (وقد دامت حتى عام ١٧٩٨) وكانت تتمتـع بحق احتكـار التجـارة فى المحيطين الهندى والهـادى(١٦) • واستعبد الهولنديون سـكان أندونيسيا واستثمروا ثروات هـذا البـلد بوحشية ، وأبادوا عددا كبيرا من سـكان الجزر ، وأحرقوا مقادير ضخمة من المنتجـات القيمة لكى يحافظوا على الأسـعار العالية المفيدة لهم • وفي عـام ١٦٢١ أسس الهولنديون شركة الهند الغربيـة التى أخذت تقوم بعملياتها فى القارة الأمريكية •

وفي منتصف القرن السـابع عشر ، نجح الهولنديون في اقصاء البرتغاليين من القسم الجنوبى من أفريقيا وأسسوا هناك مستعمرة لهم اسـموها (أرض الرأس) كما تم نفس الشيء ، عام ١٦٥٦ فى سيلان • ولكن هولندا كانت أساسا بلدا تجاريا أقل تطورا صناعيا من انجلترا ، لذلك ففى الصراع الاستعمارى كانت الغلبة لهذه الأخيرة • نتيجة للحروب الأنجلو ــ هولندية احتل الانجليز مـكان الهولنديين في أمريكا الشمالية ، وقد وقفت الدولتان الاستعماريتان القديمتان (أسبانيـا والبرتغـال) فى طريق تشييد الأمبراطورية الاستعمارية الانجليزية ، لذلك شرعت السفن الانجليزية بعلم وتحبيذ الحكومة الانجليزية ، تهاجم بلا اعلان حرب ، السفن والقوافل البحرية الأسـبانية المسافرة من أمريكا الى أوربا وتنهبها وكان اخفاق الأسطول الشهير « الأرمادا القاهرة » الذى حطمه الأسطول الانجليزى عـام ١٥٨٨ نقطـة الذورة في المنافسة الاستعمارية البحرية بين انجلترا وأسبانيا• وسرعان ما أصبحت انجلترا سيدة البحـار • ولـكن البرجـوازية الانجليزية الناشئـة لم تكن بحاجة الى هذا اللقب الطنـان ، بقـدر ما كانت متعطشـة لتحقيق مآربهـا من ورائه • فالسـيادة في البحـر كانت الوسيلة لبسط السيادة فى البر • ونحـو مستهل القـرن السـابع عشر انتهت انجلترا من فتح « ايرلندا » الذى بدأته فى النصف الثانى من القـرن الثانى عشر • وابتداء من السنوات الثلاثين من القرن الثامن عشر ، أخذت انجلترا تنتهج سـياسة اسـتعمارية ذات

---

(١٦) وهذه الشركة هولندية ، حصلت على امتيـاز احتـكار التجـارة مع الهند لمدة ١٩ عاما ثم أصـبح هذا الامتيـاز يتجدد ، وكانت ادارة الشركة تماثل ادارة الدولة فيوجـد لهـا مديرون ومجلس ادارة من ١٧ عضوا وممثل في الهند يدير عمليات التجـارة ، ومجموعة ضخمة من الموظفين ذوى المرتبات الضخمة ، والذين ينسب اليهم ارتكاب العديد من المخالفات والتعديات •

انظـر Seé, op. cit., note 3, pp. 73 et ss.

صبغة استغلالية شـديدة ، واتسمت الحروب الاستعمارية بطابع النهب السافر • وقد رأى الانجليز ، فى فرنسـا ، عدوهم الرئيسي حيث تطورت أيضـا العلاقات الرأسمالية بسرعة •

ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انشـأت فرنسـا أمبراطورية استعمارية واستولت على كنـدا والهند الصينية وقسم من الأراضي الهنـدية وأنشـأت فرنسـا شركة الهنـد الشرقية ، وشركة السـنغال وغيرها من الشركات التى استطـاعت بواسطتهـا تحقيق ما تبتغيه من مـكاسب من وراء الفتوحات الاستعمارية •

وقد نجح الانجليز فيما بعد ، نتيجة حروبهم مع أسبانيا ، فى توسـيع ممتلكاتهم في الهند الغربية ، وتسربوا أيضا الى فلوريدا ثم أدت حروب منتصف القرن الثامن عشر (الحرب من أجل وراثة العرش النمسـاوى فى سـنوات ١٧٤٠ ـ ١٧٤٨ وحرب السـنوات السبع فى ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) الى اكتسـاب انجلترا مستعمـرات جديدة : فقـد استولت على المستعمرات الفرنسية فى كنـدا ، وعلى أراضي جـديدة فى الهند ، وقـد لعبت شركة « الهند الشرقيـة الانجليزية »(١٧) دورا هاما فى زحزحة الفرنسيين وغيرهم من الهند •

والواقع أن الاسـتعمار الانجليزى لم يختلف من حيث الاستغـلال والقساوة عن نظيره الأسبانى • ففتح البنغـال مثلا ترتب عليه نهب الخزينة البنغاليـة ، وفرض غرامات وضرائب مرتفعة على السـكان ، مع اجبار الهنـود على العمـل مجانا وتسخيرهم لصـالح الانجليز(١٨) •

---

(١٧) انشئت هذه الشركة عـام ١٦٠٠ في عهـد الملكة اليزابيت ، وفي عـام ١٦٠٥ منحت الشركة امتياز احتـكار التجـارة مع الهند والشرق الأقصي ، وهو الامتيـاز الذى جدده بصفة مؤبدة الملك جيمس الأول • ومن بين اسبـاب انشـاء هذه الشركة ما عمـد اليـهالهولنديون من رفـع سـعر الرطل من الفلفل من ثلاثة شلنـات الى ثمانية ، ممـا دفع التجـار الانجليز الى اتخـاذ قـرار بالاتجـار مباشرة مع الهنـد • وكانت الشركة في البداية عبـارة عن منظمة من التجـار المغامرين البالغ عددهم ٢١٨ عضـوا كل يتجـر لحسـابه الخـاص ، وبعد هذا اصبح كل عضو يسـاهم بقـدر معين من الأموال بالنسـبة لكل رحلة ثم تتولى الشركة الاتجـار بهـا وتوزع الأرباح بعد انتهـاء الرحلة على المسـاهمين ، كل بنسـبة ما ساهم به من امـوال وفي عـام ١٦١٤ أصبح يكتتب في راس مـال الشركة لعدة رحلات معا ، وفي عـام ١٦٥٧ حصلت الشركة على رأس مـال دائم وتقرر عـام ١٦٩٢ تحجريم الاتجـار على الأعضاء في الشركة بصفتهم الفردية •

(١٨) فمن جـراء تعسف الانجليز واسـتغلالهم البشع لموارد البـلاد وللسكان ، نشبت عام =

هذا وقد لعبت الشركات الرأسمالية دورا هاما فى استغلال المستعمرات ونهب ثروات البلاد المستعمرة ، لذلك تمتعت هذه الشركات بتأييد كبير من دولها ، فرغم كونها مؤسسات خاصة ، أمنت الأساطيل البحرية والجيوش نشاط هذه الشركات بقوة السلاح(١٩) ٠

وقد اتبعت الشركات الاستعمارية بصفة عامة سياسة نهب المستعمرات أكثر من الاتجار معها ٠ ويكفى فى هذا الصدد ، أن نشير الى أن خمسة آلاف طن من الفلفل كانت تكلف الهولنديين نتيجة لاستغلالهم للهنود حوالى ٧٥٠٠ جنيه استرلينى يبيعونها فى أوربا بحوالى مليونين ونصف من الجنيهات ثم يحصلون بهذا المبلغ على بضائع من الدول الأوربية الأخرى تضاف الى ثرواتهم بلا مقابل فى واقع الأمر نظرا لضآلة المبلغ الذى سبق أن دفعوه فى الفلفل ٠

أما تاريخ شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتاريخ اللورد كلايف فاتح الهند لحساب هذه الشركة فى تصفية ثروة الهند ونقلها الى بريطانيا بلا مقابل تقريبا طوال ما يزيد على ثلاثة قرون فقد أصبح المثل التقليدى الصارخ على بناء الاقتصاد الاستعمارى عن طريق تراكم رأس المال التجارى المنهوب من المستعمرات(٢٠) ٠ وبذلك كانت المنتوجات الاستعمارية عنصرا هاما في عملية تراكم رأس المال ،

= ١٧٧٠ مجاعة رهيبة في البنغال أدت بحياة سبعة ملايين هندى ، وبمثل هذا القدر من القسوة تصرف الاستعمار الانجليزى في باقى المقاطعات الهندية ٠

عرض اقتصادى وتاريخى ٠ المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٩ ، ص ٤٢٦ ٠

(١٩) واهم هذه الشركات كانت شركة الهند الشرقية (الهولندية) (راجع ما سبق هامش ١٦) وشركتان بريطانيتان هما شركة الهند الشرقية (راجع ما سبق هامش ١٧) والشركة الافريقية الملكية ٠ وهذه الاخيرة تأسست في عام ١٦٧٢ ومنحت حق احتكار تجارة الرقيق على الساحل الافريقي الغربي ، فكان محور نشاط الشركة الاساسي هو توريد الرقيق الى مزارع قصب السكر في مستعمرات انجلترا في أمريكا الشمالية ، حتى أن استمرار وجود مستعمرات السكر كان متوقفا على التجارة الانجليزية للرقيق ٠ وقد استطاع الانجليز تحقيق ثروات هائلة ساعدت على تراكم رؤوس الأموال لديهم من وراء هذه التجارة اللا انسانية ٠

وقد الغيت هذه الشركة بشريع من البرلمان الانجليزى عام ١٩٢١ ، بعد أن كانت قد ادت المهمة المنوطة بها ٠

ثروت انيس الاسيوطى : الصراع الطبقى وقانون التجار ، دار النهضة العربية ـ القاهرة ، ص ١١٣ ٠

(٢٠) أحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ، ٤ ، ص ٣٦ ٠

حيث كانت القيم التى ينهبها المستعمرون تساق الى الدول المستعمرة وتتحول فيها الى رؤس أموال تتمركز فى ايدى الشركات التجارية وتتولى هذه الشركات توظيفها فى الانتاج الصناعى ٠

وينبغى ان نلاحظ ، أن الاستعمار لم يطور العلاقات الرأسمالية فى البلدان المستعمرة فقد حافظ الاستعمار على طرق الاستثمار القبلية والعشائرية ، والى تثبيت النظم الاقطاعية والعبودية ٠ وترتب على ذلك أن تراكمت الأموال فى أيدى المستعمرين الأوربيين ، وكان من أهم نتائج مرحلة التراكم البدائى ، أن سوقا عالمية أخذت تتكون منذ الاكتشافات الجغرافية الكبرى ، وهذه السوق لم تكن بعد قد تشكلت نهائيا ، ولكن وجود الامبراطوريات الاستعمارية ساعد على تكوينها ، وقد اسهم استثمار المستعمرات فى اشتداد قوة الدول الرأسمالية الصناعية ، بينما توقف تطور القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية فى المستعمرات ذاتها ٠

ونحو أواخر القرن الثامن عشر ، تكشف تفوق انجلترا بكل وضوح على الدولتين الاستعماريتين الأخرين فرنسا وهولندا[٢١] ، وكذلك ، من باب أولى ، على أسبانيا والبرتغال اللتين أخذتا تتقهقران في المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، بسبب النظم الاقطاعية الاستبدادية فى هذين البلدين ٠

نتبين اذن مما سبق ، انه قد حدثت حركة كبرى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، بتراكم رأس المال التجارى أهم مصادر تراكم رأس المال فى ذلك العهد ٠ وقد كان هذا التراكم ضروريا ليستخدمه حائزوه في تمويل الاستثمار الصناعى ٠ وذلك اما عن طريق

---

(٢١) وقد أكملت بريطانيا حلقات سياستها الاستعمارية بواسطة قوانين الملاحة التى اصدرتها خلال القرن السابع عشر وأهمها القانون الصادر في سنة ١٦٥١ الذى نص على أن البضائع الواردة من آسيا وأفريقيا وأمريكا لا يمكن أن تنقل الى انجلترا الا على سفن انجليزية ، يكون أغلبية طاقمها من الانجليز ، وان البضائع الوارة من أوربا لا يمكن أن تنقل من انجلترا أو الى مستعمراتها الا على سفن انجليزية أو سفن تابعة للبلاد المنتجة لهذه البضائع ٠ وفي عام ١٦٦٠ صدر قانون آخر ينص على نقل البضائع بين انجلترا ومستعمراتها على السفن الانجليزية ٠ وقد ترتب على هذه القوانين تقوية الأسطول البريطانى واضعاف الأسطول الهولندى مما كان سببا من أهم اسباب اضمحلال السيطرة البحرية الهولندية ٠ Seé, op. cit., note 3, p. 120.

استخدام مالديهم من قيم منقولة أو بيع العقارات واستخدام اثمانها فى الحصول على الآلات المستحدثة فى صناعة القطن أو فى بناء المصانع وأفران الحديد وشراء المواد الأولية واستئجار القوة العاملة ٠

ومن هنا يتضح الدور الكبير الذى قام به تراكم رأس المال التجارى ، وهو ما يطلق عليه الرأسمالية التجارية ، كعامل لا غنى عنه من عوامل نشأة الرأسمالية الصناعية ، بحيث لم يبق لاكتمال النظام سوى استثمار رأس المال التجارى فى المشروعات الصناعية بقصد تحقيق الربح والقيام بالمزيد من تراكم رأس المال (رأس المال الصناعى فى هذه الحالة) هذا ما ستتكفل باتمامه المخترعات العلمية والفنية ، أو الثورة الصناعية ٠

المطلب الثانى : الاختراعات الفنية والصناعية

شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، تطورا هاما فى وسائل الانتاج الفنية ، تمثل أساسا فى حلول الآلة محل المجهود البشرى والحيوانى خلال العملية الانتاجية ، حتى ان Mantoux وصف هذه الفترة بقوله « ان الحدث الرئيسي فى هذه الفترة لم يكن استخدام الآلات ، وانما كان **الآلية** »(٢٢) ٠ والواقع ان هذا الوصف يعبر بصدق عن عملية التحول الفنى الحاصل خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر والذى واصل تطوره ، وما زال مستمرا ، حتى الآن ٠ فمن الخطأ ان نتصور ان منتصف القرن الثامن عشر كان بداية لاستخدام الآلات ، فقد استخدمت الآلات قبل هذا التاريخ ومنذ القرن الخامس عشر(٢٣) ٠ ومن الخطأ أيضا القول بأن فترة الاختراعات الفنية والعلمية حدثت طفرة واحدة وكانت منقطعة الصلة بما قبلها ، فمن الثابت أيضا أن العصور الوسطى شهدت ابتكارات واكتشافات ارست الأسس الأولى لأساليب الانتاج الصناعى(٢٤) ٠

---

(٢٢) Mantoux, op. cit., note 2, p. 185.

(٢٣) فقد وجد منذ نهاية القرن الخامس عشر مشروع كبير للطباعة في مدينة نورنبرج يستخدم ٢٤ آلة طباعة و ١٠٠ عامل ٠ Rioux, op. cit., note 5, p. 61.

(٢٤) مثال ذلك ، التحسينات التى ادخلت على مضخة التفريغ والتى ادت الى تسهيل العمل في المناجم على عمق بعيد بعد تفريغ الماء الموجود في باطن الأرض وما سبق ذلك من تشغيل الطاحونة الهوائية والعجلة المائية ، وما تلاه من اكتشاف الحركة الدائرية التى طبقت عمليا في صناعة الساعات وغيرها من الصناعات المماثلة ٠

ولكن المقصود بالقول ، أن الثورة الصناعية قامت على الآلية ، ان هذه الفترة عرفت تطورا هائلا وسريعا لاختراع آلات معقدة واستعمالها فى صناعات عديدة ، واستخدام القوى المحركة غير البشرية أو الحيوانية على نطاق واسع ، وبحيث أدى هذا التطور الى تغليب الانتاج الصناعى الذى يعتمد على الآلات على غيره من الأساليب الانتاجية القديمة ، وبحيث أصبح « المشروع الصناعى » هو « الوحدة الانتاجية الأساسية »(٢٥) .

ولكن هذا التطور لم يقع صدفة ، بل هو وليد التطور الاقتصادى : فكلما تضافرت عوامل اقتصادية تدفع الى زيادة الانتاج ، وتطور الاقتصاد على نحو يقتضي ضرورة تطور الانتاج أدى ذلك الى دفع الأساليب الانتاجية نحو تطور مماثل ، وبحيث تواجه الأساليب الانتاجية والحاجات الاقتصادية المتجددة(٢٦) . فتراكم رأس المال ، واتساع الأسواق الخارجية والداخلية ، وتوافر المادة الأولية ، ومصادر الطاقة ، وازدياد عدد السكان وهجرتهم نحو المدن والمراكز الصناعية ، كل ذلك يؤدى الى زيادة الطلب ووضوح الحاجة الى زيادة الانتاج فلابد أن يواكبه تطور مماثل في الأساليب الفنية للانتاج ، بحيث اذا كانت هذه الأساليب غير ملائمة ، دفعها التطور الاقتصادى الى تطور مماثل ، لتلائم الحاجات المتجددة . ولعل ذلك هو ما يفسر لنا أسباب حدوث الثورة الصناعية فى انجلترا قبل غيرها من دول أوربا . ذلك ان انجلترا بسبب كبر مساحتها وكثرة عدد سكانها ومواردها الطبيعية الوفيرة وضخامة رؤوس الأموال المتراكمة لديها من استغلالها لمستعمراتها ، كانت أصلح من أى دولة أخرى كى تبدأ فيها النهضة الصناعية : فالكمية المطلقة لرؤوس الأموال المتراكمة من النشاط التجارى والمالي والعقارى ، ومن العمل المهيىء للاشتغال بالنشاط الصناعى الجديد (نتيجة لهجرة كثير من الايرلنديين) كانت في انجلترا أكبر منها فى أى دولة أخرى ، يضاف الى ذلك ما حدث طوال القرن الثامن عشر من تطور وسائل النقل مما ساعد على تنشيط التجارة داخليا وخارجيا ،

---

(٢٥) ولا ينفى هذا بالطبع استمرار الأساليب الانتاجية القديمة لفترة طويلة من الزمن امتدت حتى اواخر القرن التاسع عشر في اكثر الدول الصناعية تقدما ، وحتى في فروع الصناعة التى تكونت فيها فعلا مشروعات تستخدم الأساليب الانتاجية الصناعية الجديدة . فمن المعروف ان بعض مظاهر النظام الانتاجى القديم تستمر قائمة فترة من الوقت حتى بعد اكتشاف اساليب انتاجية جديدة ، طبقا للقاعدة العامة في التطور المتتابع والمتتالى للانظمة الاقتصادية والاجتماعية.

(٢٦) Rioux, op. cit., note 5, pp. 61 et ss.

واتسعت السوق الداخلية والخارجية لانجلترا على نحو لم يحدث بالنسبة للدول الأخرى . كذلك اكتشفت في بريطانيا مستودعات غنية من الفحم والحديد . اضف الى هذا ان العقلية الرأسمالية نضجت مبكرا فى انجلترا بحيث اتجه رجال الأعمال الى أساليب حديثة فى تنظيم وادارة رأس المال والعمل وتنظيم الأسواق ، كل هذه العوامل تضافرت لدفع حركة الاكتشافات ولاثارة الاختراعات الفنية والعلمية وتطويرها فى انجلترا قبل غيرها من الدول الأوربية الأخرى(٢٧) .

ولقد أدت حركة الاختراعات العلمية والفنية التى أسرعت خطاها منذ منتصف القرن الثامن عشر الى استعمال الآلة فى أشكالها المختلفة فى أوجه متعددة من النشاط الانتاجي واحلال قوى ذات طبيعة ميكانيكية يمكن ايجادها صناعيا والاكثار منها بحسب الارادة محل قوى الانسان والحيوان والماء والهواء ، كمصدر للطاقة المحركة فى عملية الانتاج . ثم واصل التطور مسيرته ، مؤديا الى اكتشاف مصادر جديدة للطاقة ، كالكهرباء والمحركات بالغاز والبنزين والمحركات النفاثة والطاقة النووية والطاقة الشمسية وغيرها ، وكذلك اكتشاف مواد جديدة يمكن ايجادها صناعيا بوسائل كيمائية للاستعاضة بها عن المنتجات الطبيعية كالمطاط والحديد .

هذا ، وتجدر الاشارة ، الى أنه لا يقصد بالآلة مجرد تركيب مادى يساعد على تسهيل العمل الانسانى وتذليل الصعوبات أمامه ، فقد توصل الانسان ، منذ زمن بعيد ، الى اختراع أدوات تساعده فى عمله ، كالفأس والمطرقة والسندان ... الخ ، وانما يقصد بالآلة ، كما انتجتها وأدت اليها الاختراعات الفنية والعلمية « تركيب مادى يحتوى على أدوات تؤدى تلقائيا نفس العملية الفنية التى كان يؤديها العامل قبل اختراع الآلة » . فالأداة بدلا من أن تكون تركيبا بسيطا في يد العامل يستعمله ويوجهه بماله من مهارة فنية لاحداث عملية انتاجية معينة ، أصبحت هى نفسها يدا مستقلة تأخذ شكل جزء من تركيب أكبر وأكثر تعقيدا هو الآلة . فاذا أديرت هذه الآلة اشتغلت هذه اليد من تلقاء نفسها وأدت العملية الانتاجية التى كانت تؤديها يد الانسان بأداة مماثلة من قبل ، ويستوى في ذلك ان تدار هذه الآلة بواسطة القوى الانسانية أو أى قوة أخرى كالقوى البخارية أو الكهربائية أو غيرها .

---

(٢٧) انظر في ذلك :
Histoire générale des techniques (Publiée sous la direction de Maurice Daumas).

T I : Les origines de la civilisation Technique (1962).

T II : Les premières étapes du Machinisme (1965).

T III : L'expansion du machinisme (1968).

غير ان نظـام الانتـاج الآلى ، أو الآليــة ، لم تـكن لتنمو على نحو صحيح ، من قبل أن تأخذ الآلة البخـارية مكانتها كمصـدر للطاقة المحركة بدلا من المصادر الأوليــة الأخـرى ٠

ووفقـا لهذا التعريف فان الآلة تعـد أكثر تعقيدا من الأداة ٠ ذلك أنه لابد للآلة من ان تحتوى ذاتيا الوســائل الميكانيكية التى تحرك الأدوات المركبة لها ، وهو ما اطلق عليه ماركس « الجهـاز الموصل » أى الذى يوصل القـوة المحركة الى الآلــة ٠

وبذلك يتضح ان الآلة تؤدى الى احلال المجهود الآلى محـل المجهـود البشرى فى عملية الانتـاج : فبينما كانت الاداة « شـيئـا سلبيا » فى يـد العامل يحركها ويكيف بها الانتـاج بما توافر له من مهـارة وذكاء ، غدت الآلة « شيئا ايجابيــا » يتعين على العامل تشغيلهــا ومراقبتها ووقفها ، دون أن يتدخل فى العمل الذى تؤديه ، ولا يكون بمقدوره ان يغير سير العمليــة الانتـاجية التى تقــوم بها ٠ فهو لا يقوم بالعمــل الذى تكفلت الآلة بتأديته عنه ، لـكنه يقوم فقط بتنظيمــه وتحديد كميته(٢٨) ٠ بل ان الآلة تطورت في الآونة الأخيرة بشــكل جعل تدخل العامل فى العملية الانتـاجية سلبيا الى حد بعيد ، فقـد وصلنا الى حد من تطور الآلات جعل مهمة الانســان (العــامل) تقتصر على مجـرد رقابة الآلة للتأكد من حسن سيرها ، بحيث اذا اختل نظامها ســارع بايقافها والابلاغ عنهــا لاصلاحها ، اما فى سيرها وقيامها بالانتاج ، فلا دخل للعامل بذلك ٠ ولذا ، كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن العمل الممل أو الرتيب Le travail monotone (ou le travail a la chaine) الذى يسير يوميا على وتيرة لمدة واحدة ويجعل من الانسان مجرد « أداة » في خدمة الآلة(٢٩) ٠

---

(٢٨) في تعريف الالة وتفرقتها عن الاداة ، راجع :
B. Gille : recherches sur le problème de l'innovation
Cahier de l'I.S.E.A. série A.D. no 1 1961.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 183 et ss.

(٢٩) Friedmann : ou va la travail humain Gallimard - Paris 1950. pp. 63 et ss.

قلنا ، ان الاقتصـاد ، وعلى نحو أدق التطـور الاقتصادى ، هـو الذى يدفع عجلة الابتكار والاختراع الى الأمام ، لذلك ، فليس من المستغرب أن نجد أن أول الاختراعات والابتكارات العلمية والفنيـة الـكبرى وجدت فى نطاق صناعة الغزل والنسيج القطنية(٣٠) ، ولكن سرعان ما ظهرت الابتكارات والاكتشـافات فى نطاق الصناعات الأخـرى ، وعلى الأخص فى الصناعات المعدنية(٣١) ، وفى الطباعة(٣٢) ، وفى استخدام الطاقة وعلى الأخص اختراع الآلة البخارية(٣٣) . ونتولى في الصفحات القادمة ، استعراض أهم هذه الاختراعات والاكتشافات ، مع التركيز على اثارها فى الانتـاج .

---

(٣٠) مرت صـناعة الغزل والنسـيج بثلاث مراحل ، أولاها كانت مرحلة الصـناعة المنزليـة او « الانتـاج العائلى » حيث كان الانتـاج يتم في منزل رب العمـل بمعـاونة عائلته وعدد بسيط من العمـال ، وفي وقت لاحق نقلت الالات من المعامل العـائلية الى ابنية (مصـانع) مستقلة تقـام بالقـرب من مصادر الميـاه (باعتبارها القـوة المحركة) او المـادة الاولية . وكانت هذه المصـانع بداية المشروع الصـناعى بمعناه الحديث ، وقد تم ذلك على وجه الخصوص ، في المرحلة الثـالثة حين تم استخدام القوى المحركة ، وعلى الأخص البخـار في ادارة المغـازل الالية .

وقد كانت اهم الاختراعات في نطاق صناعة الغزل هى :

١ ـ توصل جيمس هارجريفز James Hargreaves في عام ١٧٦٥ الى ابتكار آلة غزل يدوية عرفت باسم Spinning - Jenny

٢ ـ تمكن توماس هايجز Thomas Highs عام ١٧٦٧ من اختراع آلة غزل تدار بقوة المـاء عرفت باسم الاطار المـائى Water - Frame وقد استخدمت هذه الالة بالفعل في الصناعة بواسطة رجل الاعمـال ريتشارد اكريت Richard Arkuright

٣ ـ استطاع صمويل كرمبتون Samuel crompton في عام ١٧٧٩ اختراع آلة غزل اكثر تطورا عرفت باسم البغـلة La mule Jenny

أما اهم الاختراعات في صناعة النسيج فكانت :

٤ ـ اخترع جون كاى John Kay في عام ١٧٣٣ المكوك الطائر .

٥ ـ توصل ادموند كارتريت Edmund Cartwright الى تعميم أول نول متحرك يعمل بقوة الميـاه .

٦ ـ توصل هورروكس Horrocks عام ١٨٠٣ الى اختراع آلة نسيج مبتكرة مصنوعة من الحديد فكانت أكثر تحمـلا واقل تعرضا للتلف .

راجع في كل ذلك : Mantoux, op. cit., note 2, pp. 241 et ss.

(٣١) وكانت أهم الاختراعات في هذه الصناعة هى :

٧ ـ استطاع ابراهام دربى Abraham D ما بين عام ١٧١٠ و ١٧٣٠ استخدام الفحم بدلا من الخشب في صهر الحديد .

=

البنـد الأول ـ الغـزل والنسـيج(٣٤) :

لعل أول الاختراعات وأهمها ، فى صـناعة الغـزل والنسـيج ، كانت متعلقة على وجه الخصوص ، بمرحلة « النسيج ، ونعنى بها الاختراع الذى غير من وجه هذه الصناعة ، والذى عرف باسم « المكوك الطائر "la navette volante" والذى ابتكره جون كاى عام ١٧٣٣ ٠ ولعلنا نتبين أهمية هذا الاختراع ، لو وقفنا أولا على المشكلة التى جاء لحلها ٠ وتتمثل هذه المشكلة انه فى نطاق المنسوجات ، كان عرض النسيج محكوما بطول ذراعى العامل ، فهذا الأخير يقذف المـكوك من يد الى أخرى ، وبالتالى لا يمكن أن يتجاوز النسيج عرض يديه معا ، فاذا كان لابد من الحصول على نسيج أكثر عرضا ، كان من الضرورى استخدام عاملين أو

---

٨ ـ توصل هنرى كورت Henry Cort عام ١٧٨٤ الى تصميم طريقة لمزج الاكسجين بالحديد المنصهر ، ليكسبه المرونة فيسهل تشكيله ٠

٩ ـ واخيرا في عام ١٨٧٧ استطاع الكيمائيان الانجليـزيان توماس وجلكريست Thomas et Gilchrist تصميم لنزع الفسفور من خام الحديد ، وبهذا تم احلال الصلب الرخيص على الحديد في كافة اعمال التعدين ٠

(٣٢) وفي صناعة الطباعة ايضا تطورت الأمور سريعا : ففى عام ١٨٠٠ صنعت ماكينة طباعة حديدية وفي عام ١٨١١ صنعت أول ماكينة طبع تديرها قوة البخـار ، وبعدها بقليل اخترعت ماكينة الطبع الاسطوانية ، وفي عام ١٨١٤ احتفلت جريدة التيمـز اللندنية باسـتخدام ماكينة الطبع الحديثة التى كانت تطبع الف نسخة في الساعة وفي سنة ١٨٢٧ حسنت هذه الماكينة فطبعت ٤٠٠٠ نسـخة في السـاعة ٠

(٣٣) عرفت هذه الآلة ايضا أبحاث وتجارب عديدة قبل أن تخرج الى حيز الوجود اهمها :

١ ـ منذ القرن السابع عشر قام الفرنسيـان سالومون دى كوز Salomon de caus ودنيس بابان Denis Papin ببيان فوائد استخدام البخار كطاقة محركة وأجريا العديد من التجـارب ٠

٢ ـ في عـام ١٧٠٥ توصل سافورى ونيوكومان Savery et Newcom الى اختراع مضخة تستخدم البخـار من اجل رفع المـاء من المنـاجم ٠

٣ ـ ولكن الحدث البـالغ الأهمية في هذا الميـدان وقع عـام ١٧٦٩ حينما ادخل جيمس واط James Watt تحسينات على مضخة نيوكومان ٠ بحيث امكن استخدامها في شتى الاغراض مع الاقتصـاد في الفحم المستخدم لتسييرها ٠

(٣٤)
J. P. Rioux, op. cit., note 5, pp. 61 et ss.
P. Mantoux, op. cit., note 2, pp. 193 et ss.
J.A. Lesourd, op. cit., note 1, uu. 58 et ss.

أكثر ، مما يترتب عليه مضاعفة تكاليف الانتـاج ، ومن هنا كانت أهمية اختراع جون كاى ، الذى كان عبـارة عن مكوك يقذف تلقائيـا من جانب الى آخر من آلة النسيج وذلك عن طريق جذب حبل قصير فى يد العامل ، وقد أدى هـذا المكوك ليس فقط الى اتساع عرض المنسوجات التى يمكن الحصـول عليها باستعماله ، بل أيضـا الى الاسراع فى عملية النسيج ذاتها(٣٥) ٠

منذ ذلك الحين ، حدث اختلال بين صناعتى الغزل والنسيج ، فحينما كان كل من الغـزل والنسيج يتمان بطريقة يدوية ، كانت كمية الغزل تكفى عمليـة النسيج ، وكان الانتـاج فى فرعى هذه الصناعة متوازيا بحيث كانت كمية الخيوط المغزولة في اى وقت تتوافق مع كمية المواد التى يمكن نسجبها في ذلك الوقت ، وبذلك لا تتعطل انوال لعـدم وجود الخيوط من ناحية ، ولا تتعرض المغـازل للتوقف لانهـا انتجت كمية أكبر من التى تستطيع الأنوال نسجهـا ٠

ولكن ، بعد اختراع « المـكوك الطائر » وما أدى اليه من اسراع فى عمليـة النسيج ، اختل التوازن بين عمليتى الغـزل والنسـيج ، بحيث أصبحت كمية الخيوط المغزولة لا تكفى عملية النسيج ، لأن العـامل الواحد في النسيج كان بامكانه أن ينسج بواسطة « المـكوك الطائر » ، ما ينتجـه خمسة عمـال من خيوط الغزل ٠ وقد أدى ذلك ، الى نقص فى خيوط الغزل وبالتالى الى ارتفاع أسعارها ، علاوة على ما أدى اليه من انتشـار البطالة بين صفوف عمال النسيج ٠
لذلك ، كان لابد من ايجـاد حل ، يعيـد لهـذه الصـناعة التوازن بين مرحلتيها ، ذلك انه من المعلوم أن وقـوع اختراع معين في احدى مراحل الصناعة الواحدة لابد أن يعقبه اختراعات مماثلة في باقى المراحل ، والا أدى ذلك لاختلال فى الصـناعة كلها(٣٦) ٠ لذلك ، فمنذ اختراع «المكـوك الطائر » ، بدت الحاجة ماسة الى اختراع يعيد التوازن الى عمليتى الغـزل والنسيج ، هـذا الاختراع كان لابد أن يقع في عمليـة « الغزل » ، وقد حدث بالفعل أن نشطت التجـارب في هذا المجـال ، بحيث أنه في فتـرة لا تزيد على خمسـة عشر عاما رأينـا ثلاثة اختراعات ، تقدم حلولا عملية ، لاعادة التوازن بين فرعى صناعة الغزل والنسيج ،

---

(٣٥) وقد لقى هذا الاختراع ، كغيره من الاختراعات ، مقـاومة شـديدة من جانب العمال ، نظرا لاعتقـادهم أن هذا الاختراع سيؤدى الى حرمانهم من أعمـالهم ، ولن نتعرض هنا الى رد فعل العمـال منذ الاختراعات ولكننا سنبحث ذلك فيما بعـد ٠

انظر ص وما بعدها ٠

(٣٦) Lesourd, op. cit., note 1, p. 60.

بحيث ساعدت هذه الاختراعات على الاسراع في عملية الغزل حتى تتناسب والسرعة التى اكتسبتها عملية النسيج بفضل « المكوك الطائر » ٠

ونقصد بهذه الاختراعات الثلاث[٣٧] ٠ أولا ، المغزل الذى توصل الى ابتكاره جيمى هارجريفيز ، عام ١٧٦٥ وعرف باسم « مغزل جينى » وهو عبارة عن آلة بسيطة في تركيبها وادارتها ، وتعد مرحلة وسطا بين العمل اليدوى والصناعة الآلية ، وتؤدى الى امكان ان يغزل العامل الواحد أكثر من خيط واحد فى نفس الوقت بواسطة تركيب ثمانية مغازل فى الآلة تدار جميعا بحركة واحدة من يد العامل ، مما يسمح بانتاج يعادل ١٢٠ مرة ما كان ينتجه المغزل اليدوى القديم ٠ وقد تطورت آلة هارجريفز فيما بعد فأمكن مضاعفة عدد « المغازل » التى تديرها الآلة الواحدة ، وانتشرت هذه الآلة انتشارا سريعا بحيث بلغ عدد « مغزل جينى » المستعمل عام ١٧٧٨ فى انجلترا وحدها أكثر من عشرين ألف ، أصغرها يمكنه القيام بعمل سبعة أو ثمانية من الغزالين ٠

أما الاختراع الثانى فى عملية الغزل فكان الاطار المائى Water - Frame عام ١٧٦٧ ٠ والواقع ان تحديد صاحب الاختراع هو من المسائل التى تثير الخلاف حتى الآن ٠ فالعديد من الكتاب يقررون أن « ريتشارد أركريت » كان صاحب الاختراع وانه قد حصل على أول براءة لاختراعه عام ١٧٦٩ ثم حصل على براءة أخرى بالتحسينات التى أدخلت عليها عام ١٧٧٥[٣٨] ٠

---

(٣٧) ينبغى بالطبع في هذا الصدد ان نذكر اختراع كل من جون وايت ولويس بول ، Johm Wyatt et Lewis Paul فقد حصلا على براءة اختراع لآلة قاما بصنعها عام ١٧٣٨ تمكن من الاسراع بغزل الخيوط وزيادة الكمية المغزولة بشكل ملحوظ ، ولكن يبدو أن السوق في ذلك التاريخ لم تكن مستعدة لاستقبال اختراعهما ، لذلك فرغم صنعهما بالفعل للالة وحصولهما على براءتها لم تستخدم ابدا في المصانع ٠

Mantoux, op. cit., note 2, p. 205, - Rioux, op. cit., note 5, p. 62.
Lesourd, op. cit., note 1, p. 59.

(٣٨) J. P. Rioux, op. cit., note 5, p. 63.

واسماعيل محمد هاشم : محاضرات في التطور الاقتصادى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨ ، ص ٩٤ ٠

غير ان الطريقة التى حصل بها اركريت على اختراعه وتتبع قصة حياته ، يجعلنا نشك الى حد بعيد ، مع عدد من الكتاب(٣٩) ، في ان اركريت كان صاحب الاختراع(٤٠) • ونميل الى الاعتقاد بأن صاحب اختراع الاطار المائى هو توماس هيجز • والاطار المائى كان عبارة عن آلة تستعمل الماء كقوة محركة وليس المجهود البشرى كما هى الحال مع آلة « مغزل جينى » • وقد لقى هذا الاختراع نجاحا ، ليس فقط لما أدى اليه من اسراع فى عملية الغزل ، ولكن لانه مكن ، علاوة على ذلك ، من تحسين نوع الانتاج ، فقد انتجت الآلة الجديدة خيوطا أكثر قوة من أى خيط يمكن انتاجه بواسطة عملية الغزل اليدوية • لذلك فانه بدلا من الكتان والجزء الآخر من القطن فقد أصبح من الممكن نسج منسوجات باستعمال خيوط القطن وحدها ، وانتاج خيوط لها نفس صفات خيوط القطن القوية المستوردة من الهند • وقد كانت الخيوط الجديدة مخصصة في أول الأمر

---

(٣٩) Mantoux, op. cit., note 2, p. 220 et ss.
Lesourd, op. cit., note 1, p. 59.

أحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٤ ، ص ٨١ •

(٤٠) ذلك ان ريتشارد اركريت لم يكن ، قبل ان يظهر الى العالم باختراعه المزعوم ، يمت بصلة الى عالم الاختراعات ولا حتى الى عالم الغزل والنسيج • فهو لم يكن يعمل بالغزل مثل جون كاى وهارجريفيز ، ولا مهتما بالآلات الميكانيكية مثل رايت • بل كان قبل أن يدعى اختراعه « حلاقا » بسيطا ، ثم بعد ذلك انتقل الى تجارة « الشعوز المستعارة او الباروكة » •

فقد ولد اركريت في عائلة فقيرة في Preston عام ١٧٣٢ • ثم تعلم حرفة « الحلاقة » وتزوج مرتين ، وكانت زوجته الثانية ، وهذا بيان له اهميته ، من قرية Leigh (وهى نفس القرية التى منها توماس هيجز صاحب الاختراع) ، وقد كانت زوجته الثانية تملك بعض المال مما أعطاه الفرصة ليترك « الحلاقة » ويشتغل بتجارة الشعور المستعارة • وهذا الوصف لحياة اركريت يدلنا دون شك على امكانيات الرجل • فهو لم يكن ينتمى لعالم الصناعة بأى شكل من الاشكال ولا صلة له بالغزل او النسيج ، ولم تكن معلوماته عن هذه القطاعات تتجاوز تلك المعلومات التى يحصل عليها من محادثاته مع زبائنه • كل ما هنالك ، ان اركريت كان طموحا ومتطلعا الى تكوين ثروة •

لذلك ، يجد الكتاب ، أن الظروف التى قدم فيها اركريت اختراعه كانت ظروفا بحق غامضة ، فبدون أية مقدمات ، وجدناه يتقدم ليحصل على براءة اختراعه ، دون ان يحدد المراحل التى مر بها هذا الاختراع أو يقدم أى دليل على التجارب التى أجراها ليتوصل الى اختراعه ، واكتفى بما كان يروى من قصص ، عن انه قد سمع عن اختراعه عن طريق أحد عملائه البحارة الذين وصفوا له كيف أن الصينيين يستخدمون آلة مشابهة ، او أنه استلهم فكرة اختراعه من رؤيته آلات غزل الحرير في Derly =

لصــناعة الجوارب القطنية الخــالصة فقط ، الا أن اركريت وشركاءه أنشــأوا فى عام ١٧٧٣ مصنعا للنسيج فى دربى أنتــج لأول مــرة منسوجات مصــنوعة من القطن الخالص(٤١) ٠

= على العموم ، ادعى اركريت انه قد ملأه الشغف بالآت اعتبــارا من عام ١٧٦٧ ، وقد بدأ على الفور في وضع اختراعه موضع التنفيذ ، مستعينا بميقــاتى يدعى كاى Kay وقد كان هذا الشخص هو الدليل الأكبر على ان اركريت لم يخترع الآلة كما ادعى ٠

ففى عام ١٧٨٥ رفع شــخص يدعى توماس هيجز دعــوى أمام القضــاء الانجليزى يؤكد فيها ، أنه صــاحب اختراع الاطار المــائى ، وأنه منذ عــام ١٧٦٧ كانت لديه هذه الآلة مصنعة في مسقط راسه وهو قرية Leigh ، وأنه كان قد استعان في اختراعه هذا بشخص يدعى كاى ، فهو نفس الشخص الذى استعان به أركريت في العــام التالى (١٧٦٨) في تصنيع آلته ٠ وقد روى هيجــز كيف أنه قد التقى من قبل (١٧٦٧) باركريت وحدثه عن تفاصيل اختراعه ، وابدى اركريت عــدم اهتمامه به ٠ وبالطبع فان تعرف اركريت على هيجز جــاء نتيجة لزواجه الثانى ، حيث كما سبق أن بينــا ، كانت زوجته من نفس قرية هيجز ٠ ولذلك فانه بعد أن سمع من هذا الاخير عن تفاصيل اختراعه وبعد أن عرف منه من كان يســاعده ، ذهب الى لقــاء كاى في Warrington وتدل العــلاقات التى كانت بين الرجلين على أنهمــا كانا يخفيــان معا سرا معينا فبعد لقــائهما في Warrington اتفق أركريت مع كاى على أن يقوم هذا الاخير بمساعدته ، ثم دب الخلاف بينهما بعد فترة فاتهم أركريت كاى بأنه لص وخائن للأمانة ، وفر كاى دون أن يدافع عن نفسه ولكن الاتهــام لم يحمل الى السلطات وظل مجرد محــاولة لتشويه سمعة كاى ، ربمــا قصــد اركريت منهــا الا يؤخذ بشهــادة كــاى اذا ادى الأمر للاخذ بشــهادته أو على الأقل القــاء الشك حــول هــذه الشهادة باعتبــار كــاى لصا وخائناللامانة ٠ ويبدو أن ما كان يخشاه أركريت كان صحيحا ، فقــد دعى هيجز كاى للادلاء بشهــادته وأكد أنه قد عمــل مع هيجز منــذ البداية ، ثم تعرف على أركريت الذى طلب منه أن يعاونه في صنع آلة مماثلة وقد تم ذلك بالفعل ، وحمل أركريت الآلة معــه الى Manchester

وأمام وضوح هذه الحجج أصدرت المحكمة حكمها بادانة أركريت واعتبرت أن براءة الاختراع التى حصل عليهــا أركريت غير صحيحة ٠

راجع في كل ذلك Mantoux, op. cit., note 2, pp. 229 et ss.

(٤١) ولكن أيا كان الخلاف حول مخترع آلة « الاطــار المائى » ، وما انكرناه على أركريت من صفة المخترع ، فان ذلك لا يمنــع من القول بأنه كان رجل أعمــال ناجحا ، قيل عنه أنه « أحــد مؤسسي الصــناعة الحــديثة واحد أعــلام النظــام الاقتصــادى الجديد » بفضــل صــفاته كرجل أعمــال ناجح استطاع في فترة وجيزة من الزمن (في خــلال عشر ســنوات تقريبا) أن يقيم عــددا كبيرا من المصانع نذكر منها خمسة على الأقل : عام ١٧٦٩ Nottingham
Monshester 1780, Brikacre 1778, Belper 1776, Cromford 1771.

أما الاختراع النهائى الذى أتم الثورة الصناعية في عالم « الغزل » فكان اختراع صامويل كرمبتون والذى عرف باسم « المغزل المخلط » أشارة الى أنه يجمع بين مزايا الآلتين السابقتين عليه : مغزل جينى والاطار المائى ٠ ذلك أن الخيط الذى كانت تنتجه الآلة الأولى كان رقيقا ولكنه كان ضعيفا ينقطع بسهولة، وبالعكس كان الخيط الذى تنتجه الثانية قويا ولكنه لم يكن رقيقا ، وبفضل آلة كرومبتون أصبح من السهل الحصول على خيوط غزل دقيقة وقوية فى نفس الوقت ٠

وكان هذا الاختراع هو آخر الاختراعات التى أعطت لآلة الغزل شكلها النهائى ، وخصائصها الاساسية ، القائمة حتى وقتنا هذا رغم التعديلات العديدة التى أدخلت عليها ، فما تزال آلة الغزل تحمل الطابع الذى اضفاه عليها كرمبتون ٠

ومنذ اختراع كرمبتون وقع اختلال مرة أخرى بين صناعة الغزل وصناعة النسيج ، ولكنه اختلال معاكس للاختلال الأول الذى عرفته هذه الصناعات عند اختراع المكوك الطائر ٠ ففى عام ١٧٣٣ ، ومع اختراع المكوك الطائر ، بدت صناعة الغزل متخلفة فى النسيج ، بحيث لم تكن الخيوط المغزولة تكفى حاجة مصانع النسيج ، وبحيث وجد النساجون صعوبة فى الحصول على خيوط غزل تكفيهم لمواصلة عملهم دون انقطاع ، أما مع اختراع كرمبتون فقد حدث العكس ، حيث زادت خيوط الغزل المنتجة عن طاقة النساجين وبدأت أجورهم في الارتفاع وندرتهم في الظهور ، وقد أدى الاختلال الى اضطرار الغزالين الى تصدير منتجاتهم ، مما تسبب في ارتفاع الأصوات التى تحذر من هذا العمل الذى يؤدى بالطبع الى تشجيع صناعة النسيج فى الدول المستودة لخيوط الغزل الانجليزية وخاصة فرنسا[٤٢] ٠ لقد حان الوقت اذن ، لاختراع يعيد

= اتبع فيها جميعا نظما متفوقة من الادارة وكان أو من استخدم فيها الآلة البخارية ٠ وحتى بعد صدور الحكم ضده في قضية هيجز ، فان مثل هذا الحكم لم يكن ليدمر رجلا مثل اركريت الذى واصل نشاطه في مجال الأعمال وتوفى ١٧٩٢ عن تركة تقدر بنصف مليون جنيه استرلينى ، وكان احد مصانعه في Bakewll يدر سنويا أرباحا تناهز الـ ٢٠٠٠٠ جنيه استرلينى ، في وقت كان الصناعيون من أصحاب الملايين لم يعرفوا بعد ٠

Mantoux, op. cit., note 2, p. 229.

(٤٢) Mantoux, op. cit., note 2, p. 240.

التوازن مرة أخرى بين الغزل والنسيج ، وقد وقع ذلك بفضل « ادموند كارتريت » عام ١٧٨٥ ، حين اخترع آلة عرفت باسم « النول الآلى » . ولكن هذه الآلة فى بدايتها كانت مشوبة بعيون تجعلها غير صالحة للغرض الذى أعدت من أجله (اعادة التوازن بين الغزل والنسيج) ، وخاصة أنها كانت تستلزم مجهود رجلين قويين حتى تدور بسرعة بطيئة ، وكان كارتريت أول من أدرك حاجة آلته الى تحسينات عديدة ، وبالفعل انكب على دراساته حتى استطاع أن يطور آلته بمجموعة من الابتكارات حصل بموجبها على عدة براءات اختراع(٤٣) ، وبحيث أصبحت آلته صالحة للاستخدام فى الصناعة ، فقد استطاع أن يبتكر وسيلة بواسطتها تقف الآلة تلقائيا فى كل مرة ينقطع فيها الخيط ، ويمكن أن تستخدم آلته ليس فقط لنسج الخيوط القطنية ، ولكن ، بعد ادخال تعديلات بسيطة عليها ، لنسج أى نوع من الخيوط . وقد أدخلت على هذه الآلة تحسينات متعددة بلغت حوالى ثلثمائة تحسين حتى عام ١٨٥٠ . وقد استطاع اختراع كارتريت هذا ان يعيد التوازن في صناعة النسيج(٤٤) ، واكتملت بذلك كل العناصر الأساسية اللازمة لكى تشهد هذه الصناعة (صناعة الغزل والنسيج) انتصار الصناعة الآلية كحقيقة واقعة وملموسة(٤٥) .

---

(٤٣) براءة رقم ١٥٦٥ في ٣٠ أكتوبر ١٧٨٦ ، براءة رقم ١٦١٦ في فاتح اغسطس ١٧٨٧ ، وبراءة رقم ١٦٧٦ في ١٢ نوفمبر ١٧٨٨ .

(٤٤) وتجدر الاشارة في هذا الصدد ، الى ان اختراع كارتريت لم يشذ عن القاعدة العامة في رد فعل العمال اليدويين ضد الآلة . فبعد أن انتهى كارتريت من اختراعه قام بوضعه موضع التنفيذ بموجب اتفاق مع بعض النساجين في مانشستر وهم الأخوة جريمشاو Brothers Grimshaw على انشاء مصنع نسيج ضخم يضم حوالى اربعمائة آلة نسيج كلها تدار بالبخار ، وبالفعل شيد المصنع ولكن وسط جو كراهية عنيف ، فقد توالت خطابات التهديد على أصحاب المصنع ، وبالفعل نفذ التهديد وشب حريق بالمصنع أتى على المبنى بما فيه . وطوال الفترة الممتدة من ١٧٩٢ حتى ١٨٠٠ كانت آلة كارتريت ضرورية ولكنها غير شعبية في آن واحد . الا أن منطق التطور قد تغلب في نهاية الأمر ، واحتلت هذه الآلة مكانها في صناعة النسيج منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر .

(٤٥) وليس أدل على هذا التطور ، من أن الانتاج قد تضاعف ما يناهز عشر مرات ، مع انخفاض عدد الساعات اللازمة حوالى ٢٠٪ في خلال مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمن ، كما يدل على ذلك الجدول الآتى :

البنـد الثاني ـ الصناعات المعـدنية :

واذا كانت انجلترا قـد شـهدت مولد الصـناعة الآلية ، فى نطاق الغـزل والنسيج ، فانهـا كانت أولى الدول التى شهدت أيضا ، وفى نفس الفتـرة (ولكن بصورة بطيئة بالقياس الى قطاع الصـناعات القطنية) تطورا هاما فى صناعة التعدين وعلى الأخص فى صناعة الحديد • ويعد تطور هاتين الصناعتين معـا مسألة جديرة بالاهتمام ، وذلك لاختلافهما سـواء من حيث المـادة الأوليـة المستخدمة فى كل منهما أو من حيث المراحل الانتاجية المختلفة الخاصـة بكل منهما ، مما كان يقتضي بالضرورة ألا يـكون هنـاك أى رابط بين تطـورهما • لذلك ، فان تطـور الصناعتين معا ، فى فتـرة متقاربة ، لا يمكن أن يـكون من قبيل الصدفة البحتة ، بل هناك أسـباب عميقـة هى التى ادت الى ارتبـاط التـطور الحاصل فى أحداهما بالتطور الحاصل فى الاخـرى ، « فكلاهما يمثل جزءا من نظـام واحد متـكامل »(٤٦) ، بمعنى أن هنـاك ارتبـاطا لا ينفصـم بين هاتين الصناعتين ، والدليل على ذلك ان الصـناعة الآلية وان كانت قـد وجـدت أولا فى نطـاق الصناعات القطنية على النحو السابق بيانه ، الا أن اكتمـال عناصر تطورهـا لم يكن ليتم الا بتطـور الصناعات المعدنية ، وخاصة الحديد والصلب • فهـذه الصناعة الأخيرة هى « المحور » الذى يدور حوله تطور باقى الصناعات الأخـرى ، فهى التى تتولى امداد كافة الصـناعات الأخـرى بما تحتاجه من تجهيزات ، بذلك فان أى تقـديم أو تطور فى نطاق هذه الصناعة تنعكس آثـاره على باقى فروع

= انتـاجية الصناعات القطنية في انجلترا (من ١٨٢٩ ـ الى ١٨٨٢)

السنوات	عدد الساعات	متوسط الانتاج العامل (بالوحدات
١٨٢٩ ـ ١٨٣١	١٠٠	١٠٠
١٨٤٤ ـ ١٨٤٦	٨٧	٣٧٢
١٨٥٩ ـ ١٨٦١	٨٧	٧٠٨
١٨٨٠ ـ ١٨٨٢	٨٢	٩٤٨

(الأساس ١٠٠ وحدة ـ متوسط انتـاج لاعـوام ١٨٢٩ ـ ١٨٣١)

المصـدر :

J. P. Rioux, op. cit., note 5, p. 65.

(٤٦) Mantoux, op. cit., note 2, p. 275.

الانتـاج الصناعى ، وقد عبر عن تلك الأهمية الكبرى لهذه الصناعة ، أفضل كتاب الثورة الصناعية بول مانتو ، بقوله :

« ويقدر ما تطورت صناعات التعدين ، بقـدر ما تعددت استعمالات الحديد والصلب ، بحيث أصبحت عنصرا لا غنى عنـه لمظاهر التطـور المختلفـة في المدنيـات الحديثة : فهاتان المادتان تشـكلان هياكل كافة ما يحيط بنا من منشآت ضخمة : ومن تجهيزات المصانع الكبرى ، وبفضـلها لما تمكن الانسـان من اقامة الكبارى المعدنية فوق الانهار الواسعة ، واستطاع ان يسير في البحار سفنا مكتظة بالناس بحيث تكاد تكون مدنا « عائمـة » ، كما تمكن من الربط بين القـارات المختلفة بواسطة السـكك الحديدية . لذلك ، فان قصـة تطور صناعة الحديد والصلب ، ليست قاصرة على هذا القطاع ، بل هى بحق ، قصة تطور الصناعات جميعا في مختلف القطاعات[٤٧] .

ولقد كانت انجلترا هى اولى البـلاد التى عرفت تطورا هائلا في مجـال صناعات التعدين[٤٨] حيث كانت تستورد الحديد والصلب من السـويد وألمانيا وأسبانيـا ، ولكن الوسائل البدائية المستخدمة فى صهـر الحديد لم تكن تسمح بانتاج جيد علاوة على تكاليفها العالية(٤٩) ، وقد أدى ذلك الى تأخر فى الزراعة ، نظرا لأن تطوير وسائل الزراعة يحتـاج الى العديد من الآلات المعدنيـة . لذلك كان لابد من ايجـاد وسيلة فعالة واقتصـادية لصهر الحديد : وقد جاء هـذا الاكتشـاف على يـد ابراهـام داربى (الذى كان يواصل أعمـال والده في هـذا المجـال) والذى تمكن بعد تجـارب عديدة (فى الفترة من ١٧١٠ ـ ١٧٣٠) من استخدام الفحم بدلا من الخشب فى صـهر الحديد ، بواسطة أفران خاصة ، اتسـع حجمها مع مواصلة التطور وبقدر الحاجة الى الحديد ، وبداخل الفـرن

---

(٤٧) Ibih, p. 275.

(٤٨) ولكن بصورة بطيئة بالقياس الى صـناعة الغزل والنسيج : فمن ناحية رؤوس الأموال المستخدمة فيها ، او الأيدى العـاملة ، او العـائد او الأرباح ، لم تستطع صـناعة التعدين ان تقف على قدم المسـاواة مع صناعة الغزل والنسيج الا حوالي عـام ١٨٣٠ .
J. P. Rioux, op. cit., note 5, p. 65.

(٤٩) فقد كان الخشب هو المادة المستخدمة لاحداث الاحتراق اللازم لصهر الحديد ، ممـا ترتب عليه ان كانت المصـانع تقـام الى جانب الغابات ، وقد غالت تلك المصانع في تقطيع الأشجار لدرجة صار يخشي معها من اختفاء الغابات ونقص الخشب الذى كان آنذاك يسـتخدم في صناعات أخـرى (كصناعة الموبيليـا والسفن) .
Mantoux, op. cit., note 2, p. 286.

منفـاخ قوى يحقق احتراقا كامـلا بحيث يمكن الحصول على زهـر صلب شديد التحمل ٠ ولـكن للحصول على حديد صلب ، كان لابد من ازالة الشوائب العالقة بالزهـر ، وهو ما تكفل به هنرى كـورت الذى سجل عـام ١٧٨٤ اختراعا عرف باســـم Puddlage تمكن بموجبه من تصميم فرن يمتزج فيه الأكسجين بالحديد المنصهر ، فيكتسب الحديد مرونة بحيث يسهل تشكيله ، كما يكتسب أيضـا صلابة فائقـة عند تبريده ٠ ومنـذ هذا الاختـراع ، حققت صناعة الحديد تطورا هائلا ، بحث ازداد عدد المصانع ، وازداد معها كمية الحديد المنتج ، وأصبحت هذه المصانع فى غنى عن أن تقـام بجانب الغابات ، بل اضحت تبحث عن أماكن قريبة من مناجم الفحـم ، وبدأت ظاهرة « المصانع الـكبرى » والحديثة تظهر فى نطاق صـناعة الحديد والصلب(٥٠) ٠ فقد أنشأ هنتسمان عام ١٧٥٠ ، أول مصنـع للحديد والصلب ، وتوالى بعد ذلك انشاء المصانع الكبرى للحديد والصلب ، وأهمها بالطبع مصانع دربى Darby التى بلغ انتاجها فى أواخر القرن الثامن عشر حوالى أربعة عشر ألف طن سويا ، أى ما يعادل من ثلاث الى أربع مرات انتاج انجلترا من الحديد قبل أن يحل الفحم محل الخشب فى الأفران ٠ أما مصانع الأخوة ويلكنســن Wilkinson فقد كانت تسيطر على انتـاج الحديد فى كل من بلاد السنغال ولندن وفرنسا ، وقد اشتركت مصانع Wilkinson, Darby في صـنع أول كوبرى معـدنى في العـالم عـام ١٧٧٩ (وكان طوله ٣٠ مترا وارتفاعه ١٢ مترا) فأحدث ضجة كبيرة فى انجلترا وفى العالم أجمع(٥١) ٠ وقد أقيم هـذا الكوبرى على نهـر السـفرن La Severn ليربط بين بروسلى وميدلى entre Broseley et Madeley وفى عام ١٧٨٧ نجح Wilkinson في صـــناعة أول باخـــرة من الحـديد ، وأثبت بذلك فكرته ، بعد أن قد اتهم بالجنون حينما تكلم عن امكانية صـنعها(٥٣) ٠

---

(٥٠) ويبدو أن هناك شخصا يدعى « دود ددلى Dud Dudley » كان قد توصل الى نفس الطريقة ، قبل ابراهام ، بحوالى قرن من الزمان اى حوالى عام ١٦١٩ ، غير انه لأسباب عديدة لم يتمكن من متابعة تجربته ٠

Mantoux, op. cit., note 5, pp. 219 et 292.

(٥١) Mantoux, op. cit., note 2, p. 317.

(٥٢) ويبلغ طول نهر الـ Savern ٣٣٨ كم وهو يصب في قنـاة Bristol على المحيط الأطلنطي ٠ وقد توالى بعد ذلك انشـاء الكبارى المعدنية ، بحيث اقيم ثانى كوبرى عام ١٧٩٦ في Sunderland فوق نهر Wear وكان أكثر طولا وارتفاعا من سابقه ، بحيث يسمح بمرور السفن ٠ هكذا توالى انشـاء الكبارى المعدنية ٠

(٥٣) Lesourd, op. cit., note 1, p. 149.

وقد استمرت صناعة الحديد والصلب فى التطور ، حيث استطاع الكيمائيان الانجليزيان توماس وجيلكريست وضع تصميم لنزع الفسفور من خام الحديد ، ومنذ ذلك الحين تم احلال الصلب الرخيص محل الحديد فى كافة أعمـال التعدين، وعلى الرغم من أن هذه الاختراعات والاكتشافات كانت قد جعلت من انجلتـرا الدولة الأولى من حيث انتـاج الحديد والصلب فى العـالم الا أن تعميم هـذه الاكتشافات واستخدامها فى الدول الأخرى ، مكن الولايات المتحدة الأمريكية وألمـانيا من تخطى انجلترا ، وذلك على النحو المبين فى الجدول رقم (١) ٠

جـدول رقم (١) كمية الحديد والصلب المنتجة فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوربا(٥٤)

السنة		انجلترا	ألمانيا	الولايات المتحدة الأمريكية	فرنسا	بلجيكا
٠٨٧١	انتاج الحديد الوحدة تقدر بمليون طن	٥٩٦٠	١٢٤٠	١٧١٠	١١٦٠	٥٦٠
١٨٩٠		٧٩٠٠	٤٠٣٠	١٦٠٠٠	١٧١٠	٨٢٠
١٩١٣		١٠٢٦٠	١٦٤٩٠	٣٠٩٧٠	٥١٢٠	٢٤٥٠
١٨٧٠	انتاج الصلب الوحدة تقدر بمليون طن	٢٢٠	١٣٠	٤٠	٨٠	
١٨٩٠		٣٥٨٠	٢١٠٠	٤٢٨٠	٦٧٠	٢٢٠
١٩١٣		٧٦٦٠	١٧٣٢٠	٣١٣٠٠	٤٦١٠	٢٤٣٠

(٥٤)

البنـد الثالث ـ الآلة البخـارية :

رغم أهمية الاختراعات والاكتشافات فى صناعة الغـزل والنسيج ، وفى صناعة المعـادن وعلى الأخص الحديد والصلب ، الا أن هذه الاختراعات جميعا لم يكن ممكنا أن تتم بها الثورة الصناعية على النحـو الذى تمت به لولا « الآلة البخارية » • ذلك أن استخدام قوة محركة (مصدر للطاقة) غير القـوة العضلية للانسـان ، أو القوة الحيـوانية ، يعد سمـة مميزة للصناعة الحديثة • وتعتبر الآلة البخـارية أكثر العوامل وأهمها حسما فى وقـوع الثورة الصناعية : فلولا الآلة البخـارية لمـا كان من الممكن أن ينتقل الانسـان من مرحلة المصانع اليدوية الى مرحلة المشروع الصنـاعى الحديث • وذلك أنه من الممكن أن توجد الآلات بدون الطاقة البخـارية ، ولـكن لم يكن ممكنـا بدون هذه الأخيرة ان تصـبح الآلية هى السمة المميزة للانتـاج الصناعى • فقبل الطاقة البخـارية ، كان الانسـان يستخدم كقوى محركة ، القوى العضـلية أو الحيوانية ، وفى مرحلة لاحقة استخـدم « مساقط الميـاه » كمصـدر للطاقة(٥٥) ، ولـكن ذلك كان يجبر المصانع على أن تنحصر في الأماكن القريبة من مسـاقط المياه القوية ، كما كانت هذه المساقط غير كافية لتوريد الطاقة اللازمة للصناعة ، خاصة وأن معظمها كان معرضا للضياع بسبب الحالة البدائية للفن الميكانيكى في ذلك الوقت • ومن هنا تبـرز أهمية استخدام البخـار كمصـدر للطاقة ، ومدى الانجاز الذى تحقق باكتشـاف الآلة البخـارية •

وقد كان أول من اكتشف أهمية البخـار وامكانية اسـتخدامه كمصـدر للطاقة هو الفرنسي سالمون دى كوز ـ Salomon de Caus منذ القرن السابع عشر ، ثم أكمل الفرنسي دنيس بابان Denys Papin ما بدأه الأول ، حيث قـام بابحـاث وتجـارب متعـددة على البخـار كوسـيلة للحصول على الطاقة اعتبارا من عـام ١٦٨٠ • غير ان هذه التجارب ، ظلت فى نطاق البحث العلمى ولم تلق أى تطبيق فى الحياة العلمية •

---

(٥٥) وذلك بواسطة طواحين الهواء الهولندية التى استخدمت المـاء بواسطة استعمال العجـلة المـائية في تشغيل المطاحن طوال قرون عديدة ، ثم تشغيل بعض الأعمال الصناعية البسيطة الأخرى واخصها تشغيل المطارق وادوات النفخ في صناعة الحديد ، وكما سبق القول ، فان آلة الغزل التى اخترعها توماس هيجز كانت تدار بالمـاء •

لذلك فان اختراع أول آلة بخـارية ينسب عادة الى الضـابط الانجليزى توماس سافورى Thomas Savery ، حيث لاحظ الصـعوبات التى يصادفها عمـال مناجم النحـاس بعد الوصول الى عمـق معين فى المناجـم ، من جـراء تزايد كمية الميـاه فى هذا العمق ، وكان الأسـلوب المستخم لنـزح الميـاه هو المضخات ، ولكنها كانت باهظة التكاليف علاوة على أن استخدامها لم يكن يؤدى الى الفـائدة المرجوة ٠ ومن أجل احلالها ، قام Savery ، عـام ١٦٩٨ باختراع آلته البخـارية ، وكانت عبـارة عن مضخة بسـيطة التركيب تستخـدم البخار وضغط الهواء من أجل رفع المـاء من مكان عميق الى مكان أعلى ، واستخدمت أساسا لدفـع المـاء المتزايد فى مناجم النحـاس ٠ وقد كانت هـذه المضـخة بعيـدة عن الاتقان بطبيعة الحـال ، فكانت بطيئة العمـل محدودة القـوة ، فضلا عن أنه لم يكن في الامكان التحكم في طاقـة البخار الموجودة بداخلهـا من أجل منع انفجـار خزاناتها(٥٦) ٠

لذلك ، فمـا ان اخترع نيـوكومن Newcomen ، آلته البخـارية عام ١٧٠٥ حتى انصرف النـاس عن استعمال آلة سافورى ، وكانت الآلة الجديدة عبارة عن مضخة هوائية ، تتميز بانها قد تحاشت العيـوب الموجـودة فى آلة سافـورى ٠ وقد ادخلت على آلة Newcomen عدة تحسينات(٥٧) ، ولقيت رواجاكبيرا ، حيث استعملت فى المناجم وكذلك على جوانب الانهـار والقنوات لرفع الميـاه لتغذية الخزانات والقنوات الأخـرى الأكثر ارتفاعا وامداد المدن بالمياه الصالحة للشرب(٥٨) ٠

---

(٥٦)

(٥٧) وهذه التعديلات التى ادخلت على هذه الآلة كانت التعديل الذى ابتكره هيمفرى بوتر Humphrey Potter الذى تمكن ببعض الاضافات من الاسراع بحركة المضخة بحيث أصبحت أكثر قوة من ذى قبل ، والتعديل الذى ابتكره هنرى بيجتون Henry Beighton عام ١٧١٧ والمتمثل في صمام أمن قضي نهائيا على خطر الانفجار في هذه الآلة ٠ Ibid. p. 328.

(٥٨) فمنذ ١٧١١ تكونت شركة لاستغلال اختراع Newcomen ، وقد انتشر استخدام هذه الآلة على نحو سريع ومتسع ، ليس فقط في انجلترا ولكن في أوربا عموما ٠ وقد أدى استخدام هذه الآلة لاقتصاد في الوقت والنفقات : فاخذ هذه الآلاتالمستخدمة في Griff بالقرب من Coventry كانت تقوم بعمل ٥٠ حصانا ، مع اقتصاد في النفقات يناهز ست مرات ما كان يجب انفاقه للحصول على نفس القدر من القوة المحركة ٠ وقد انتشرت هذه الآلة لدرجة أن بلغ عدد الوحدات المستخدمة منها عام ١٧١٧ في نيوكاسل Newcastle وحدها سبعين آلة ٠

وبعد أن أكتملت آلة Newcomen خصائصها الأساسية ، حوالى عام ١٧٢٠ ، ظلت تستعمل حوالى نصف قرن من الزمان دون تغيير يذكر ٠ ولكن رغم أهمية هذه الآلة ، كان يعاب عليها استهلاكها لكمية من الوقود ضخمة (نظرا لوجوب تبريد مكثف الآلة ثم تسخينه بصفة مستمرة) ، لذلك كان لابد من حل لهذه المشكلة ٠ وقد تكفل بهذا الحل جيمس وات(٥٩) James Wat الذى توصل عام ١٧٦٩ الى اختراع آلة بخارية يمكن استخدامها لا فى شكل مضخة لدفع الماء وانما فى تحريك أية آلة أخرى ، هذا فضلا فى نجاحه فى اقتصاد كميةالوقود اللازمة لاحداث هذه الطاقة المحركة بنسبة ٥٠ ٪ (٦٠) ٠ وباختراع آلةوات اتجه التفكير الى كيفية تحويل هذه الطاقة الى تشغيل كل أنواع الآلات تشغيلا مباشرا ، وقد تكفل وات بتقديم الحلول المناسبة عن طريق عدة اختراعات تكميلية لتوليد الحركة الدائرية من الآلة البخارية ، وقد تطلب الأمر مرور ثلاثين عاما من التحسينات والتعديلات والتجارب على الآلة البخارية التى اخترعها وات قبل أن تتخذ شكلها النهائى وتعتمد على قوة البخار وحده دون أى اعتماد على الضغط الهوائى ٠

---

(٥٩) ويقول الكتاب عن وات ، الذى احتل اسمه مكانا مرموقا ليس في انجلترا وحدها ولكن في العالم أجمع ، انه نوع من المخترعين مختلف عمن سبقوه ، ويقصد بذلك ، انه قد فتح باب البحث العلمى في مجال الابتكار ٠ فقبل وات كانت الاختراعات في اغلبها فنية وليست علمية ، بمعنى أن الذين قاموا بها كانوا في الغالب من الصناع المهرة الذين لا يمتلكون غير خبراتهم وتجارتهم في الصناعة ٠ وبالتالى على علم تام بحاجاتها ومتطلباتها في ذلك الوقت (فهارجريفز كان نجارا مهتما بصناعة النسيج ، وكرومبتون صاحب محل صغير يدير فيه عدة آلات نسيج يمتلكها ٠٠٠) ولكن هذا الوضع تغير مع وات ، الذى نما لديه الادراك العلمى منذ وقت مبكر (من الثالثة عشرة)حيث انكب على الدراسة وشغف بالعلم وشرع في تصميم نماذج للالات في محل والده المهندس ٠ ولما شب وات اختار مهنة صناعة الآلات والأدوات العلمية واقام في جلاسجو وقد احتضنته جامعة جلاسجو واعطته مكانا يعمل فيه بهدوء ، وكانت في مسيس الحاجة اليه ٠ وفي داخل الجامعة استطاع وات ان يتعرف بأساتذة الرياضة والطبيعة وحضر محاضراتهم وتعلم اللغات الفرنسية والالمانية والايطالية ٠

وقد وصف وات نفسه اختراعه بأنه لم يكن وليد صدفة ، انما نتيجة أبحاث عديدة ، دعمت بالمناقشات التى أجراها مع الاساتذة ، والابحاث التى أجراها في معمله على آلة نيوكومن منذ عام ١٧٦٤ ٠

Mantoux, op. cit., note 2, p.p. 329 et ss.

وبفضل آلة وات، دخلت الصناعة مرحلة من أكثر المراحل حسما فى تاريخ الثورة الصناعية ، وهى مرحلة استخدام البخار كقوة محركة للآلات : فبفضل سرعتها ، واقتصادها للوقود ، وبساطة نظامها الميكانيكى ، أمكن استخدام آلة وات ليس فقط لنزح المياه من المناجم ، ولكن أيضا لتشغيل كافة أنواع الآلات ، سواء فى نطاق صناعة الغزل والنسيج(٦١) ، أو صناعة الحديد والصلب، أو في ميدان النقل ، بظهور القاطرات البخارية والبواخر التى تسير بالبخار(٦٢) • وباختصار كانت آلة وات من أهم الاكتشافات التى ساعدت على هذا التقدم المذهل الذى شهده العالم الحديث فى جميع المجالات •

ان الآلة البخارية ، كما كتب مانتو ، لم تخلق الصناعة ، ولكنها وهبتها القوة المحركة اللازمة ، بحيث جعل البخار التطور الصناعى أمرا لابد منه ، لا يمكن الوقوف فى وجه تطوره ، وبقدر ما كانت القوى المحركة التى أعطاها البخار للصناعة ، بقدر ما كانت قوة هذه الصناعة • وقد ساعد البخار على الأخص في اعطاء التطور الصناعى نوعا من الترابط بين مختلف الفروع الانتاجية • فقبل البخار ، كان التطور يتم فى كل فرع حدة ، ودون ما رابط قوى بين مختلف الفروع ، ولكن استخدام قوة محركة « مشتركة » ربط بين كافة فروع الانتاج ، وجعل للتطور الصناعى قانونا عاما ينطبق على كافة الفروع الانتاجية ، بحيث اضحت آلة البخار وكأنها الجهاز المحرك للانتاج الصناعى في مجموعه ، كلما ازدادت سرعة هذه الآلة ازدادت سرعة التطور الصناعى بكافة فروعه الانتاجية(٦٣) •

---

(٦٠) Rioux op. cit., note 5, p. 66.

(٦١) وقد استخدمت اول آلة تعمل بالطاقة البخارية في نطاق صناعة الغزل والنسيج عام ١٧٨٥ في Papplewick بواسطة مصانع Robinson ثم توالى بعد ذلك استخدام الآلة البخارية في صناعة الغزل والنسيج ، خاصة في مقاطعتى Notingham و Warrington ، بواسطة Robert Peel عام ١٧٨٧ ، و Peter Drinkwater عام ١٧٨٩ ... الخ
Mantoux, op. cit., Note 2, p. 348.

(٦٢) وفي مجال النقل والمواصلات ، مكنت آلة وات ، من ظهور القاطرة البخارية على يد ستيفنسن الانجليزى Sobert Stephenson من وضع أول قاطرة بخارية موضع التنفيذ في انجلترا عام ١٨٢٥ ، كما نجح روبرت فولتن الامريكى Pulton عام ١٨٠٣ في تجربة أول باخرة تسير بالبخار في نهر السين •
Lesourd, op. cit., note 1, p.p. 63 et 64.

وهكذا دخلت بريطانيا ، بفضل الآلة البخارية ، عصر « التكتيك الصناعى الحديث » l'ére Paléotechnique (٦٤) ، وتبعها في هذا المجال ، اعتبارا من عام ١٨١٥ الولايات المتحدة الأمريكية ، وباقى الدول الأوربية ، وترتب على ذلك أنه أينما وجد الفحم ، صارت الصناعة ممكنة ، ومربحة ، وتضاعف الانتاج بفضل البخار عشرات المرات عما كان عليه من قبل ، لدرجة أنه فى عام ١٨٧٠ كانت الآلات التى تدار بالبخار في انجلترا ، تحقق انتاجا كان يتطلب من قبل قوة عضلية لـ ٤٠ مليون شخص . ويعطينا الجدول رقم (٢) بيانا لأهمية هذا التطور.

جدول رقم ٢ : قوة الآلات التى تعمل بالبخار في أوربا في الفترة من

١٨٤٠ – ١٨٨٨ . (مقدرة بآلاف الأحصنة)(٦٥)

الدولة	١٨٤٠	١٨٥٠	١٨٦٠	١٨٧٠	١٨٨٠	١٨٨٨
انجلترا	٣٥٠	٥٠٠	٧٠٠	٩٠٠	٢٠٠٠	٢٢٠٠
فرنسا	٣٤	٦٧	١٧٨	٣٣٦	٥٤٤	٧٩٦
ألمانيا	٢٠	٤٠	٢٠٠	٩٠٠	١٦٨٠	٢٠٠٠
النمسا	٢	٩	٣٦	١١٢	٢٥١	٤٠٠
روسيا	١٠	٣٥	٦٠	١٤٩	٢٣٧	٣٠٠
المجموع	٤٥٠	٧٢٠	١٣٥٠	٢٧٦٠	٥٢٧٠	٦٣٥٠

---

(٦٣) Mantoux, op. cit., note 2, p. 352.

(٦٤) Rioux, op. cit., note 5, p. 67.

(٦٥) Ibid, p. 67.

البنـد الرابع ـ التطـور فى الصناعات الأخرى :

لقـد كانت آلة « وات » البخارية فاتحة عهد جديد فى الصنـاعة ، عهـد توالت فيه الاختراعات القائمـة على البحث العلمى وليس الابتـكار الفنى ، فمنذ اكتشـاف وات ، بـدأت الاكتشـافات والاختراعات تتوالى ، مرتكـزة على أصـول البحث العلمى ، وما توصل اليه العلماء فى ميادين الفيزياء الحديثة ، والرياضيات ، والديناميكا الحرارية ، والذبذبة وعلم الأشعة ... الخ . ومكن التقـدم العلمى من احراز انتصـارات وتطـورات في شتى ميادين الصناعة .

ففى مجـال الـكهرباء ، كان وجودها في الطبيعة امرا معروفا منـــذ بداية القرن الثامن عشر ، بقى استعمالها صناعيا ، وهو ما تكفل به البلجيكى جرام Gramme مخترع الدينامو عام ١٨٧٢ ففتح امام استخدام الكهرباء عهـدا جديدا(٦٦) : أولا فى اضاءة المنـازل والمصانع والمؤسسات بفضل اختراع اللمبة الكهربائية بواسطة اديسون Edison عام ١٨٨١ . كما استخدمت الكهرباء من ناحية ثانية فى مجـال التلغراف الكهربائى الذى سمح بنقل الرسائل بواسطة سلك بين نقاط متباعدة(٦٧)، وكان الوسيلة الأساسية لنقل الرسائل الى مسافات بعيدة في الأعوام من ١٨٩٠ الى ١٩١٠ . ثم اختراع التليفون بواسطة جراهام بـل Graham Bell عـام ١٨٧٦ ، واسـتخدام الموجـات للبث الاذاعى بفضل Branly عام ١٨٩٠ وماركونى عام ١٨٩٠ .

---

(٦٦) والواقع ان هناك تجـارب أخرى كانت قد سبقت جرام في مجـال الكهرباء ، فقد وسع العالم الفرنسي أمبير الدراسات في مجال العلاقة بين الكهربائية والمغناطيسية عام ١٨٣٠ واسـتطاع واستطاع جوستاف بلاتيه Gustave Planté أن يصنع أول مولد كهربائى عام ١٨٥٩ ، وقد استخدم هذا المولد بعد ادخال بعض التحسينات عليه بواسطة Camille Faure انظر في هذا التطور Lesourd, op. cit., note 1, p. 162

(٦٧) فقد قال امبير بامكانية استخدام الكهرباء المغناطيسية في نقل الرسائل بواسـطة سلك بين نقـاط متباعدة : وفي عام ١٨٣٠ أنشئت مجموعات من التلغراف الكهربائى في وقت واحد في كل من انجلترا وأمريكا ، ففى بريطانيا سجل شارل وتيتسون براءة اختراع للتلغراف الكهربائى عام ١٨٣٥ ، كما سجل صامويل موريس براءة اختراعه في أمريكا لانشـاء أول خط تلغرافي تجارى في أمريكا عـام ١٨٣٧ ، ثم مرت خطوط التلغراف تحت المـاء ، مثل خط المحيط الاطلسي ، والخط الرابط بين لندن وباريس ، وتوالت بعدها الاختراعات في حقل الاتصالات التلغرافية .

وبفضل الكهرباء ، تطورت أيضـا ، صناعة جديدة ظهرت لأول مرة ، هى صناعة السينما ، ولكن هـذه الصـناعة لن يستفيد منها مخترعيها الاخوان لوميار Les fréres Lumières ، ولكن من قاموا باستغلال هذا الاكتشـاف هم الذين حصلوا على أكبر الفوائد من تحويل هذا الاكتشاف الى صناعة حديثة(٦٨) .

كما تطورت أيضـا صناعات أخرى عديدة متأثـرة فى ذلك ، بالتطور العام الحاصل فى شتى ميادين الصناعة ، فتطورت صناعة تعليب المواد الغذائية(٦٩) ، وصـناعة التصـوير(٧٠) . وصـناعة الأسلحـة النارية(٧١) ، وصـناعة المطـاط والبترول(٧٢) ... الخ .

= ففى الولايات المتحدة قامت شركات عديدة باستغلال الاكتشافات في هذه الصناعة الجـديدة كانت اهمها شركة اديسون Edisson والبيوجراف La Biographe وفي انجلترا شركة ويليـام بول William Paul ، وفي فرنسا نجمة مالياز La star de Méliès

انظر في ذلك ، ١٦٣ Le Sourd, op. cit., note 1, p. 163

(٦٨) Auge - Laribe Michel : la révolution agricole Coll l'evolution de l'humanite - A. Michel - Paris 1955

(٦٩) وقد ازدهرت صـناعة تعليب المواد الغذائية حوالى ١٨٤٠ ، ومكن لهذا التطور عوامل متعددة منهـا زيادة الخبرة ووفرة الانتـاج الزراعى ، وتحسن صناعة الاوانى والعلب المعدنية ، وشمل التعليب الثمـار الطازجة والاسماك والخضروات ، واتسع التعليب ليشمل عـام ١٨٦٠ لحم البقر والحليب ، وفي عام ١٨٥٥ اكتشفت طريقة الحليب المجفف . وصلت بعد ذلك طرق أخـرى للحفظ مثل التبريد .

(٧٠) نشأ اختراع التصوير ما بين ١٨٣٠ و ١٨٧٠ وكان في البداية مجرد تطوير لفكرة الفانوس السحرى أو لغرفة المظلمة التى كانت معروفة منذ القرن السادس عشر على الاقل ، كما كانت تطورا للتجارب التى أجريت في القرن الثامن عشر على مركبات الفضة التى تتأثر بالضوء ، ثم اخذت بعد ذلك ظهر مخترعات في عالم التصوير واخذ هذا الفن ينمو كصناعة تجارية .

(١٧) فلقد ترتب على التوسع الهائل في صناعة الصلب ، والحروب الاستعمارية ، والحروب بين البـلاد الأوربية على الحدود ، الى التعجيل بصنع بندقية الكبسولة عام ١٨٣٦ وحلت بندقية المسورة المجوفة محل بندقية الطعن وحلت الرصاصة الطويلة محل الرصاصة الكروية القديمة . وفي عام ١٨٦٢ اخترع الامريكى ريتشارد كاتلنك ، بتأثير الحرب الاهلية رشاشا يطلق ٣٥٠ طلقـة في الدقيقة ، وبهذا امتدت الثورة الصناعية الى ميدان الحرب .

(٧٢) فقد تعددت الابحاث التى كانت ترمى الى جعل المطاط اكثر صلابة ، وقـد اكتشف الانجليزى جود يير عـام ١٨٣٩ انه اذا ما سخن المطاط ومزج بالكبريت يصبح اصلب مما هو عليه في حالته الطبيعية وأكثر مرونة ، وسجل اكتشافه عام ١٨٤٤ ، ومن بعـده اخذت هذه الصناعة في التطور ومزج المطاط بمواد اخرى كالقطران والغـاز وهنا نصل الى بدء صناعة البترول ، وهى من الصناعات الحديثة الـكبرى التى تعود بدايتهـا الى ما قبل ١٨٧٠ ، حيث حصـل الاسـكتلندى جيمس يونك على أول امتياز لتكرير الزيت الخام ، وسرعان ما استخدم امتيازه بنجاح في صناعة النفط وزيوت التشحيم ثم في شمع البرافين والكيروسين .

المطلب الثالث ـ الثـورة الزراعية :

اذا كان تراكم رأس المـال والاكتشافات العلمية والفنية تعد من أهم العوامل في حـدوث الثورة الصناعية ، فان التطـور الحـاصل في القطاع الزراعى يعتبر أيضا من العوامل التى ساعدت على وقوع الانقلاب الصناعى على النحو الذى وقع به . فمن الملاحظ ، أن كل الدول التى عرفت الثـورة الصناعية اعتبارا من منتصف القرن الثامن عشر ، كانت قد عرفت من قبل تطورا هاما وملحـوظا فى قطـاع الزراعة ، تقدما بلغت درجته الى حـد ان وصـفه بعض الـكتاب ب « الثـورة الزراعية » (٦٨) ، والواقع ان الارتباط بين الثورة الصناعية والتقدم الزراعى أمر طبيعى . فمن جهة ترتب على الثورة الصناعية ، وظهور المدن الكبرى والمناطق الصناعية الضخمة ان زاد الطلب على المنتجـات الزراعية ، ممـا أدى الى ارتفـاع أثمانهـا ، ودفع ذلك المشتغلين بالزراعة الى محاولة زيادة الانتاج الزراعى بشتى الوسائل وخاصة عن طريق تطوير أساليب الزراعة ، وترتب على ذلك قيـام نظام الزراعة الرأسمالية وظهور الملكيات والمزارع الكبرى . وترتب على هذا التطور ، من جهة أخرى ، ان تم القضاء على طبقة صغار الملاك والمزارعين ، وانضم هـؤلاء لجيش الأيدى العـاملة التى نزحت الى المنـاطق الصـناعية بحثا عن العمل بعد ان ضاقت بها سبل العيش فى الأراضي الزراعية .

---

(٦٨) والواقع اننـا اسـتخدمنا هنا نفس التعبير المسـتخدم من اغلب الـكتاب ، مع تحفظ مؤداه انه لا يجب ان يفهم من ذلك أن التطورات التى اصابت الزراعة كان لهـا نفس العمق الذى اصاب الصناعة .

في الثورة الزراعية راجع على وجه الخصوص :

Michel Augé-Laribè : La révolution agricole. Coll. L'évolution de l'humanité - A. Michel. Paris 1955.

Lord Ernle : Histoire rurale de l'Angleterre - Gallimard, Paris 1952.

F. Grouzet : Agriculture et révolution industrielle — Cahiers d'histoire No 1 - 1967.

Daniel Faucher : Révolution agricole aux XVIII et XIX siècles Bulletion de la société d'histoire moderne - (Nov. Déc. 1956).

وقد تم هذا التطور ، أولا فى انجلترا ، باعتبارها أولى البلاد التى عرفت الثورة الصناعية ، حيث تمكنت طبقة كبار الملاك من القضاء على صغار الملاك والمستأجرين ، وتجمع الأرض الزراعية فى مزارع كبرى مستخدمة فى ذلك ما عرف باسم قوانين الاسيجة أو حركة الاسيجة Enclosure Aets (البند الأول) ، ولكن على الرغم مما حملته هذه القوانين من ظلم لصغار الملاك ، فانها مكنت « الرأسمالية الزراعية » من تطوير أساليب الزراعة محدثة بذلك « ثورة فى الأساليب الزراعية » مكنت بها من تحسين الانتاج وزيادة الانتاجية (**البند الثانى**) وقد ساهمت هذه الثورة الزراعية في حدوث الثورة الصناعية على النحو الذى تمت به (**البند الثالث**) ٠

البند الأول : تطور الملكية الزراعية « وحركة الاسيجة » Enclosure Acts

يقتضي الأمر هنا ، حتى نتفهم هيكل الملكية الزراعية فى انجلترا وقت وقوع الثورة الصناعية ، أن نرجع الى الوراء قليلا ، حتى القرن السادس عشر(٦٩) ٠ ففى هذا الوقت ، كانت انجلترا تعرف طبقة من صغار ملاك الأرض الزراعية ومستأجري الأراضي الذين يتوارثون حق الايجار جيلا بعد جيل ٠ هذه الطبقة كانت تعرف باسم Yeomanry ، والتى اختفت تقريبا ، بحسب تقدير الكتاب ، فى أوائل القرن التاسع عشر ٠

هذه الطبقة كانت تضم صغار ملاك الأراضي الزراعية ، والمزارعين الذين كانوا يزرعون الأرض جيلا بعد جيل باستئجارها من سيد المقاطعة ، هذه الطبقة كانت تمثل سدس السكان فى انجلترا ويتراوح دخلها السنوى بين ٤٠ و ٣٠٠ جنيه استرلينى ، مما كان يسمح لهم بمستوى معيشي معقول ، ولكن هذا الدخل،لم يكن نتيجة للنشاط الزراعى وحده، بل يرجع أيضا الى بعض النشاط الصناعى ، ففى أغلب الأحوال كانت عائلة الـ Yeoman تقوم ببعض الأنشطة غير الزراعية ، كغزل الصوف مثلا وهو ما يجعل هذه العائلات الزراعية تشبه الى

---

(٦٩) Rioux, op. cit., note 5, pp. 30 et ss.
Lesourd, op. cit., note 1, pp. 54 et ss.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 127 et ss.

اسماعيل محمد هاشم : المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٣٨ ، ص ١١٩ وما بعدها ٠
محمد عبد العزيز عجمية : الوجيز في التطور الاقتصادى ،
دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ٨٩ وما بعدها ٠

حد ما عائلات صغار المنتجين اليدويين ، فكلاهما فى درجة اجتماعية واحدة ، وكلاهما وقع فريسة الثورة الصناعية • فنظرا لأن طبقة الـ Yeomanry كانت تعتمد أساسا على انتاجها الزراعى والصناعى فى آن واحد ، فمن الطبيعى ان يكون للثورة الصناعية تأثير على هذه الطبقة ، ذلك ان الانتاج الصناعى المتطور ، ترتب عليه حرمان هذه الطبقة من الدخل الاضافى الذى كانت تحققه من النشاط اليدوى الصناعى ، فقل دخلها ، ولم يعد النشاط الزراعى وحده كافيا للوفاء باحتياجاتها ، فكان لابد لها من الهجرة ناحية المراكز الصناعية بحثا عن العمل والرزق •

على أن الثورة الصناعية ، وان كانت قد ساهمت فى القضاء على هذه الطبقة من صغار الملاك ، فان ذلك لم يكن ليحدث لولا ان أسبابا أخرى ساهمت بدورها فى القضاء على هذه الطبقة ، ونقصد بذلك على وجه الخصوص ، ما عرف فى انجلترا بحركة أو بقوانين الاسيجة Enclosure Acts • فالمتتبع للقوانين الانجليزية ، يلاحظ تزايد عدد القوانين المتعلقة « بتقسيم الأراضي وتحديدها وتسييج المزارع » بشكل مطرد منذ القرن السادس عشر(٧٠) •

---

(٧٠) فاذا كان قد صدر من هذه القوانين ثلاثة فقط خلال حكم الملكة آن ، اولها عام ١٧٠٩ ، نجد انه اعتبارا من عام ١٧١٤ الى عام ١٧٢٠ صدر سنويا على الأقل قانون بوضع الاسيجة • ثم اعتبارا من منتصف القرن السابع عشر أخذ عدد هذه القوانين يتزايد باطراد ، فصدر منها ٣٣ قانون ما بين ١٧٢٠ و ، ١٧٣٠ ، ٣٥ ما بين ١٧٣٠ و ١٧٤٠ ، ٣٨ ما بين ١٧٤٠ و ١٧٥٠ ، ١٥٦ ما بين ١٧٥٩ و ١٧٦٧ ، و ٤٢٤ من ١٧٦٩ الى ١٧٧٠ ، و ٦٤٢ من ١٧٧٠ الى ١٧٨٠ ، اما السنوات التى شهدت بحق مولد الثورة الصناعية ١٧٨٠ ـ ١٧٩٠ فقد صدر فيها ٢٨٧ قانونا للاسيجة ، وازداد العدد في الفترة من ١٧٩٠ ـ ١٨٠٠ ليصل الى ٥٠٦ قانونا ، واستمر المعدل في الارتفاع ليصل الى ٩٠٦ قانونا للاسيجة صادرة من البرلمان خلال الفترة من ١٨٠٠ ـ ١٨١٠ •
٥٠٦ قانونا ، واستمر المعدل في الارتفاع ليصل الى ٩٠٦ قانونا للاسيجة صادرة من البرلمان خلال الفترة من ١٨٠٠ ـ ١٨١٠ •

ويلاحظ ان المساحات التى شملتها هذه القوانين كانت مساحات جد متسعة ، (ففى خلال قرن ونصف من الزمن بلغت كمية الاراضي التى شملتها قوانين الاسيجة ٤٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ متر مربع موزعة على كافة انحاء المملكة البريطانية ، ولكن اذا كانت بعض المناطق في انجلترا قد اختصت دون غيرها بهذه القوانين ، فان ذلك لا يرجع لعدم المساس بالأراضي الـ Common fields في بعض المناطق =

ولكن يتسنى لنا تفهم طبيعة قوانين الاسيجة ومضمون هذه الحركة ، يتعين علينا أن تبين أولا طبيعة الأراضي التى كانت ترد عليها هذه القوانين ٠ فقد كانت هذه القوانين ترد على أراض تعرف باسم الحقول المفتوحة Open fields أو المزارع المشتركة common fields وهى عبارة عن أراض متسعة ومقسمة بين عدد من الملاك وأصحاب الحقوق الذين تختلط أراضيهم بعضهم ببعض ٠ ولكن هذه الصورة لا يجب أن تختلط بفكرة « الملكية على الشيوع » ، فهى ليست ملكية شائعة ، وانما هى ملكية فردية ، انما يتأتى الخلط من أن حدود ملك كل شخص ليست خالصة انما مختلطة بحدود ملكية الآخرين ٠ وتفسير ذلك ، اننا لو نظرنا الى الحدود الزراعية لقرية معينة فى هذا الوقت ، فلا يمكن تقسيم الأرض الزراعية بحيث يختص كل مالك بقطعة واحدة معينة الحدود ، بل تنقسم الأرض الى عدد كبير من القطع « المستطيلة » فاذا أردنا تحديد ملكية كل شخص كان له أكثر من قطعة مستطيلة مبعثرة وموزعة فى كل الزمام الزراعى للقرية ٠ Territoire du Township

فما من شخص ، يملك مجموعة من هذه القطع « متجاورة » ٠ بل واضح أن توزيع القطع المملوكة للشخص الواحد ، هو أمر متعمد ربما لتحقيق العدالة بين الجميع ، بحيث يكون من المؤكد أن يجمع الشخص بين بعض القطع الزراعية في أكثر المناطق خصوبة ، وبعض القطع في الأماكن الأقل خصوبة ٠

ولكن تقسيم الأرض ، على هذا النحو ، رغم انه كان ينبع من اعتبارات العدالة المشار اليها ، كانت له بعض العيوب : فنظرا لأن هذه القطع المستطيلة والصغيرة المتجاورة لم يكن يفصل بينها الا شريط ضيق من الحشائش ، كان يترتب عليه ان المزارع لا يمكنه أن يقوم بعمل ما في أرضه الا بالتنسيق مع الآخرين وبموافقتهم ، وترتب على ذلك أن هذه الأراضي رغم كون ملكيتها فردية ،

= بل هذه المناطق كانت قد تحولت كلها الى مزارع مسيجة منذ اواخر القرن السادس عشر ، دون ما حاجة الى تدخل البرلمان واصداره القوانين بوضع الاسيجة ٠ فقد توصل كبار الملاك في هذه المناطق اما الى شراء الاراضي من صغار الملاك بطريقة ودية ، او الى طرد المزارعين من الارض عند انتهاء أجل الايجار ٠

لم يكن من الممكن استغلالها الا بصــورة جماعية ، وهو ما كان يحــدث بالفعــل حيث كانت الأراضي الصــالحة للزراعة تقسم كلها الى ثلاثة حقول تتم زراعتهــا بطريقة دورية بدائيــة بحيث يزرع أحدها قمح ويزرع الثانى شــعير أو شوفان ، ويترك الثالث دون زراعة لترتاح الأرض En Jachere بحيث يزرع الحقــل الواحد سنتين ويترك للراحة سنة ثالثة بدون زراعة ، ويتم تنظيم زراعة المحاصيل الزراعية المختلفة بصورة تقتضي عدم زراعة نفس المحصول فى الحقل الواحد الا مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، وهو ما كان يعرف باسم نظــام الثلاثة حقــول Three fields system ، كما يوضحه الجدول رقم (٣) ٠

جــدول رقم (٣) : نظــام الثلاثة حقول(٧١)

السنوات	الحقل الأول	الحقل الثانى	الحقل الثالث
السنة الأولى	قمــح	شعير أو شوفان	دون زراعة
آلسنة الثانية	شعير أو شفان	دون زراعة	قمــح
السنة الثالثة	دون زراعة	قمــح	شعير أو شوفان

أما فيما يتعلق بحرق الأرض ، أو تسميدها أو بذرها ، فان هذه العمليــات كانت تتم أيضا بصورة جماعية ، ولــكن ذلك كله لم يــكن لينفى حق صاحب الأرض عليها ، فما أن يأتى موســم الحصــاد حتى يحصــل كل فــرد على محصول أرضــه بصــورة فردية ، ممــا يؤكد مرة أخــرى ان نظــام الحقــول المفتــوحة L'open field system ليس نظاما شيوعيــا ٠

ولكن فى الفترة ما بين الحصــاد وبذر الأرض مرة أخرى ، حين لا يوجد فى الأرض الا بعض بقايا الغــرس ، أو بعض الحشــائش المنزرعة على جوانب الأرض،

---

(٧١) Lesourd, op. cit., note 1, p. 54.

واسماعيل محمد هاشم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٣٨ ، ص ٤٣ ٠

فان تشبث كل فرد بملكيته يغدو من الأمـور غير ذات الأهمية ٠ وهنا فقط ، كان الحقل المفتـوح يأخذ أكثر من أى وقت آخـر شكل الملكية الجماعية ، حيث يصبح مكانا صالحا للرعى ، يبعث اليه ، كل من له قطعة أرض ، بمواشيه لترعى ، وهكذا ففى خـلال فترة طويلة من السنة كانت الحقول تستخدم على المشـاع من جميع الملاك ، ومن هنا جاءت تسمينها بالحقول المفتوحة أشـارة الى طريقـة استغلالها وامكانية اسـتخدامها من الكافة في بعض الفترات ، وخاصة ان نظامها لم يكن يسمح باقامة اسيجة حولها لتحديها ٠ وبذلك يمكننا أن نربط بين وجود الحقول المفتوحة L'open field systemوالملكية الصغيرة وعلى الأخص طبقـة Yeomanry فالقضـاء على الحقول المفتوحة ، كان بداية لاندثار هذه الطبقة ٠

والى جانب الحقول المفتوحة ، كانت توجد فى كل مقاطعة انجليزية أراض تعـرف باسـم ال Common Lands أو ال Waste Landes وهى عبارة عن الأراضي غير المنزرعة ، التى كانت تعتبر مالا مباحا لكل سكان المقاطعة ٠ فهـذه الأراضي ، نظرا لكونها غير مزروعة ، كانت عديمة القيمة ، ولـكن ذلك لم يمنـع سـكان المقاطعة من الاستفادة منها : فبامكانهم ارسـال مواشيهم للرعى فيهـا وهو ما عـرف بحق الرعى فى الأرض المشتركة أو المشـاعة Common of pasture أو بحق مرور المواشي فى الأرض المشتركة Right of Sheepwalk وبامكانهم قطع الأشجـار الموجودة فى هذه الأراضي والافادة منهـا اما فى بناء الأكواخ على هذه الأرض وسكنـاها ، واما للتدفئـة ، وهـو ما عرف بحق الانتفـاع بالأرض المشتركة Common of estovers فاذا وجد نهـر أو بحيرة فى هذه الأرض كان من حق السـكان اصطياد السمك منها Common of Piscary

هذه الحقوق جميعها ، كان يباشرها ، ليس فقط صـغار المـلاك أصحاب الأراضي في الحقول المفتوحة بل وأيضا كل سكان المقاطعة حتى لو لم يـكن لهـم حقوق في الأرض المفتوحة ٠

ولكن هذه الأراضي المشـتركة أو المشاعة Common Lands لم تكن في حقيقة الأمر مالا مباحا ، بل كانت ملكا لسـيد المقـاطعة The lord of the manor فهو قد تنازل عن استغلال بعض قطع الحقول المفتوحة بموجب عقـد ايجـار الى صغار المزارعين ، كما انه تسامح مع كافة سكان المقاطعة في استغلالهم وانتفاعهـم بالأرض المشتركة ، وخاصة ان هذه الأراضي كانت غير منزرعة ، اذ أنه ، نظرا لبداءة الأساليب الزراعية ، كان الناس يكتفون بزراعة الأراضي السهلة ، اما تلك التى كانت تتطلب مجهودا خاصا فكانت تترك بلا زراعة ، ولذلك كان سـيد المقاطعة يترك لأهالى مقاطعته الاستفادة من هذه الأراضي ٠

وعلى الرغم من أن استخدام هذه الأراضي ، لم يكن يتم بصورة تعطى للجميع نفس الحقوق ، وانما بدرجة تتناسب مع قدر ملكية كل منهم وحقوقه في الحقول المفتوحة L'open field (٧٢) ، فان هذا النظام كان يضمن للمعدمين والفقراء بعض الحقوق الأساسية ، كالحق في اقامة مسكن في هذه الأراضي ليحميهم من البرد ، أو ارسال بعض مواشيهم للرعى ، أو جمع الأعشاب للتدفئة ، ... الخ . حقا ان هذه الحقوق لم يكن لها سند من التشريعات ولكنها كانت مستمدة من العرف والتقاليد وقواعد « الرحمة الانسانية » ، بحيث كان يسمح لهؤلاء المعدمين ، دون أى سند قانونى ، بالاستفادة من هذه الأراضي .

وهكذا نرى ، أنه الى جانب صغار الملاك والمزارعين ، كانت هناك طبقة أخرى من المعدمين (العمال الزراعيين) تعيش على الأرض المشتركة او المشاعة Common lands وتستفيد منها بقدر ما تسمح به الأوضاع ، لتسهيل ظروف معيشتها .

من هذا العرض يتضح لنا أهمية الحقول المفتوحة Open field والأراضي المشتركة Common lands : فالمساس بنظام الـ Open field ترتب عليه القضاء على طبقة صغار الملاك والمزارعين The Yeomanry ، وتغيير لوائح الأرض المشتركة Common lands ترتب عليه تغيير معيشة العمال Les Cottagers Les Squatters و تغيرا جذريا .

ومن هنا يمكن أن نتفهم دور قوانين الاسيجة في تغيير وجه انجلترا الزراعى ، وعلى الأخص في تغيير هيكل الملكية الزراعية . فلفظ الاسيجة في حد ذاته يدل على التحول الذى حصل في الأرض الزراعية : فمن أراض غير مسيجة « الأراضي

---

(٧٢) فاستخدام اراضي الـ Common lands او الـ Waste lands لم يكن يتم بغير قيود ، فاستخدام هذه الأراضي كان يخضع لقواعد مستمدة من العرف ، ومتناسبة مع مدى ملكية المنتفعين في هذه الأراضي من الملاك في الحقول المفتوحة . فحسب ما يملك كل فرد في الحقل المفتوح Open field يمكنه ان يرسل عددا من المواشي لترعى في الأرض المشتركة ال Common lands وبذلك ، تكون الـ Common lands وسيلة لتأكيد التفاوت بين الملاك ، وتزيد الأغنياء منهم غنى على غناهم ، ولكن رغم هذا المعيار « الطبقى » في توزيع الفوائد العائدة من الاراضي المشتركة ، فقد كانت هذه الاراضي تساهم الى حد ما في تسهيل معيشة المعدمين والعمال الزراعيين .

المفتوحة والمشتركة » ستتحول الرقعة الزراعية الى أراض مسيجة ، وتتلخص العمليـة في قيـام كبار المـلاك بتجميـع الأراضي المبعثرة في الحقـول المفتوحة ، اما بشرائها من صغار الملاك ، أو بانهاء عقود الايجار التى كان يستفيد منها صغار المزارعين ، وضم هذه الأراضي بعضها الى بعض ، مع الأراضي المشتركة التى ما ان يشملها قانون وضع السياج ، حتى يمتنع على كافة سكان المقاطعة الاستفادة منها على النحو السابق ، وبضم الحقول المفتوحة الى الأراضي المشتركة تحت يد مالك واحد ، يقوم هذا الأخير باحاطتها بالسياج ، كدليل على وحدتها وملكيتها لشخص واحد يمارس عليها ، وحده ، كافة الحقوق · ولقد كان من السهل على كبار الملاك استصدار القوانين المتعلقة بوضع الاسيجة ، وخاصة لو عرفنا ان البرلمان كان واقعا تحت سيطرة هؤلاء الملاك · والواقع ان حركة الاسيجة هذه لم تعرف فقط ابـان الثورة الصناعية ، بل هى تعود ، كما سبق القول ، الى القرن السادس عشر ، فمنذ نهايته وأوائل القرن السابع عشر ، عمت الشكوى من الظلم الفادح الذى يحيق بالفلاحين والمزارعين من جراء حركة الاسيجة ، وخاصة أن هذه القوانين كان قد صحبها تحول من الزراعة الى الرعى ، فترتب عليه أن الأراضي التى كانت تعج بمئات بل بآلاف المزارعين وتعتبر مصدر رزق لهم ، والذين سلبت ملكيتهم بموجب هذه القوانين ، تحولت هذه الأراضي الى مراعى ، حين اكتشف كبار الملاك أن بيـع صوف الخـراف يحقق عائدا أكبر من زراعة الأرض ، فترتب على ذلك تشريد مئات المزارعين ، والقضاء على مصدر رزقهم(٧٣) · وقد استمرت حركة الاسـيجة طوال القرن السادس عشر ، وترتب عليها اختفاء طبقة صغار الملاك والمزارعين ، وتحول الاراضي من زراعية الى مراعى ، وعلى الرغم من استمرار مقاومة المتضررين

---

(٧٣) وقد تعددت الكتابات وارتفعت الأصوات بالشكوى من جراء هذا التحول ، فقال البعض « هنا حيث كان يقطن المئات من المزارعين ، لم يعد الا راع واحد وكلبه » ، كما قال البعض الآخر أنه في الريف الانجليزى « اكلت الخرفان الناس » ، ولذلك تعددت المحاولات للقضاء على هذه الظاهرة ، فمنذ عـام ١٥١٤ توالت القوانين التى تحـاول اعادة التـوازن الى الريف الانجليزى بين المراعى والمزارع ، وتمنع تدمير بيوت الفلاحين ، وتحـاول المحافظة على الملكيات الصغيرة في حدود ٢٠٠٠ متر مربع ، الا أن هذه القوانين رغم تعدادها وتكرارها في السنوات ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٥ ، ١٥٥٢ ، كانت ضعيفة الاثر ولم تنجح في القضاء على ظاهرة وضع الاسيجة ·

Mantoux, op. cit., note 2, p. 147.

من هذه القوانين(٧٤) ، فان حركة الاسيجة لم تتوقف طوال القرن السابع عشر ، واستمرت حتى أوائل القرن الثامن عشر ، واستكملت هذه الحركة اركانها فشملت كل أراضي انجلترا(٧٥) ، بحيث قدر عدد القوانين الصادرة عن البرلمان بوضع الاسيجة في الفترة من ١٧٣٠ الى ١٨٢٠ بخمسة آلاف قانون • وترتب عليها آثار اجتماعية واقتصادية بالغة الأهمية •

فلقد ترتب على حركة الاسيجة ، حرمان كافة سكان المقاطعة ، سواء في ذلك صغار الملاك من طبقة الـ Yeomany أو المعدمين من الـ Squatters أو الـ Cottagers من المزيا التى كانوا يتمتعون بها ، فحرمت الطبقة الأولى من قطع الأرض التى كانت تمتلكها في الأراضي المفتوحة ، كما حرمت أيضا من الحقوق التى كانت تمارسها على الأرض المشاع ، كرعى أغنامها فيها أو الصيد فيها ، كما حرمت أيضا طبقة العمال الزراعيين من الاستفادة من الأرض المشاع • وترتب على كل ذلك ، أن اختلت دخول هذه الطبقات ومستوى معيشتها ، بحيث اضطرت اما للعمل لدى كبار الملاك الزراعيين ، كعمال زراعيين ، أو هجرت الأرض متجهة الى المناطق الصناعية الجديدة بحثا عن العمل والرزق ، وبذلك أدى الانقلاب الزراعى ، الى وضع أيد عاملة في خدمة المصانع ، فساهم التطور الحاصل في نطاق الزراعة ، في توفير أحد العناصر اللازمة لاتمام الثورة الصناعية •

---

(٧٤) فاعتبارا من عام ١٥٤٩ توالت الانتفاضات الجماهيرية اعتراضا على قوانين الاسيجة ، وفي هذا العام حدث ان قتل ثلاثة آلاف وخمسمائة من المتظاهرين ، وشنق زعيمهم روبرت كت Robert Kett • وكتب أحدهم يقول « ان هذه الاسيجة سوف تؤدى الى ضياعنا ، اننا لم نعد نجد أراض لزراعتها ، فكل الاراضي تحولت الى مراعى ، فقد رايت بعينى ، على مدى سبع سنوات ، كل الأراضي التى من حولنا وقد تحولت الى مراعى للخرفان والماشية ، وحيث كانت تعيش اربعون عائلة على قطعة من الأرض ، غدت هذه القطعة ملكا لرجل واحد ولمواشيه • »

راجع في ذلك :

H.J. Mabakkuk : La disparition du paysan anglais - Annales (économies, société, civilisation) A. Colin - juillet-aout 1965. pp. 649-683.

E.J. Mobsbawm : Les soulèvements de la campagne anglaise (1795-1850). A. Colin - Janvier févier 1968. pp. 9 — 30.

كذلك ، أدت حركة الاسيجة ، الى نمو الملكيات الزراعية الكبيرة ، والى التفاوت الضخم في توزيع الملكية الزراعية في انجلترا ، وقد ظلت هذه الظاهرة دون تغيير يذكر منذ أواخر القرن الماضي (١٨٩٥) حتى منتصف القرن الحالى (١٩٥٧) ، حيث نجد ان حوالى ١ / ٥ عدد المزارع تبلغ مساحتها مائة فدان فأكثر ، كما ان هناك ١ / ٥ عدد الملاك يستحوذون على ٧٠ ٪ من الأراضي الزراعية ، بينما لا يمتلك أكثر من ٢ / ٣ عدد الملاك سوى ١٥ ٪ فقط من اجمالى المساحة المزروعة[٧٥] . ولعل من الأسباب التى ساعدت على نمو الملكيات الزراعية الكبرى في انجلترا ، نظام الارث الذى يجعل من الابن الأكبر الوارث الوحيد ، وهو ما يحول دون تفتيت الملكيات الضخمة عن طريق تقسيمها بين الورثة ، وأيضا العمل بنظام « الارث الموقوف » الذى يحرم الوارث من امكانية التصرف فيما يؤول اليه ميراثا ، مما ترتب عليه انتقال الملكيات من جيل الى جيل دون أن نتعرض الى نقص أو تفتيت ، وذلك على عكس ما حدث في الدول الأخرى[٧٦] .

---

(٧٥) ورغم كثرة المحاولات التى بذلتها الحكومة الانجليزية للتخفيف من هذا التفاوت الكبير في توزيع الملكية الزراعية فقد استمرت الغلبة للملكيات والمزارع الكبيرة ، وكان الفشل هو مصير قوانين الحيازات الصغيرة Small holdings acts في سنوات ١٨٩٢ ، ١٩٠٨ . كما لم تنجح ضرائب الدخول والتركات في التقليل من حدة هذه الظاهرة ، بل حدث العكس ، حيث لجأ صغار الفلاحين ، أمام فداحة عبء هذه الضرائب ، الى التخلص من ملكيتاتهم الصغيرة وبيعها الى كبار المزارعين .

اسماعيل هاشم ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٣٨ ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٧٦) فهيكل الملكية الزراعية في فرنسا يختلف عنه في انجلترا ، فبينما تقوم الزراعة في انجلترا على أساس المزارع الكبيرة تقوم الزراعة الفرنسية مستندة الى المزارع الصغيرة والفلاح الصغير . ويرجع ذلك الى ان الطبقة الارستقراطية في معظم دول اوربا ـ وعلى الأخص في فرنسا ـ كانوا يتركون ضياعهم واراضيهم ليستغلها المستاجرون ويختارون العمل في الشؤون السياسية او السلك الدبلوماسي او القوات المسلحة ، وترتب على ذلك نتيجة لارتفاع الأسعار في المدن وحاجة النبلاء الى النقود ، قيامهم ببيع اراضيهم الى المستاجرين من صغار المزارعين ، لذلك نجد انه في عام ١٧٨٩ كانت حوالى خمس الأرض المزروعة مملوكة لمن يزرعونها ، وبعد الثورة ، ونتيجة لمطالبات الفلاحين بالغاء الالتزامات الواقعة على عاتقهم نحو طبقة الاشراف ، زاد عدد ملاك الأراضي من صغار المزارعين بحيث قام التنظيم الزراعى في فرنسا على قاعدة عريضة من الملاك ، بعكس الاطبيعة الارستقراطية التى كانت السمة المميزة للتنظيم الزراعى الانجليزى ، فبينما كان يوجد في انجلترا حوالى مليون مالك ، كان في فرنسا خمسة او ستة ملايين من صغار الملاك ، معظمهم ٩٧ ٪ منهم لا يملك أكثر من ١١٠٠ أكر (الاكر هو وحدة قياس انجليزى = ٥٠ آر Are ، والآر بدوره يساوى ١٠ م ٢ ، أى أن =

البند الثاني ـ تطور وسائل وفنون الانتاج الزراعى :

لقد ترتب على الثورة الصناعية ، ازدياد الطلب على المنتجات الزراعية • فالمناطق الصناعية الجديدة ، وسكانها الذين نتزايد اعدادهم باطراد ، يطلبون المزيد من المواد الغذائية ، وعلى الأخص المواد الزراعية ، واقتضي الأمر ضرورة مسايرة الزراعة للتطور الصناعى ، وذلك باتبـاع وسائل انتاجية جديدة ، على غـرار الوسائل الحديثة المستخدمة في الصناعة ، كى يتمكن القطاع الزراعى من مواجهة الاحتياجات البشرية المتزايدة •

لقد كانت الوسائل الانتاجية ونظم الانتاج الزراعى بدائية ، تعتمد أساسا على نظـام الثلاثة حقـول[٧٧] L'assolement triennal وكانت المحصولات الرئيسية هى الحبوب ، أما المحصولات الجدرية Plantes a racines فكانت قليلة ، وبالنسبة لتربية المواشي كان الانتاج ضعيفا ، مما نجم عنه نقص في الأسمدة الطبيعية ، وضعف الانتاج الزراعى بحيث لم تكن انتاجية الهكتار تتجاوز خمسة قناطير ، وخاصة ان الادوات المستخدمة في الزراعة كانت قديمة ومستهلكة •

= الاكر = ٥٠٠ م ٢) • ونتيجة لانتشار المزارع الصغيرة يقل الاعتماد في ممارسة الأعمال الزراعية على العمال الزراعيين ، لذلك فمقابل ٥ أو ٦ ملايين مالك ، كان عدد الزراعيين لا يتجاوز ٥ر٣ مليون عامل • ولا يعنى ذلك أن نظام الملكيات الكبيرة قد اختفى نهائيا من فرنسا ، فلا زالت هنـاك مناطق باكملها تقوم الزراعة فيها على أساس من المزارع الكبيرة ، ولكن المقصود بهذا العرض هو القول ان المـالك الصغير وقطع الأرض الصغيرة هى عماد التنظيم الزراعى في فرنسا •

أما في المـانيا ، فاختلفت نظـم الملكية الزراعية في المقاطعات الشرقية عنها في المقاطعات الغربية • فالمقاطعات الشرقية تسمت على أساس المزارع الكبرى ، محتذية النمط الانجليزى في الانتـاج ، وغالبا ما كانت هذه الملكيات الواسعة تزرع عن طريق السخرة ، أما المقاطعات الغربية (الواقعة غرب نهر الألب) فقد انتشرت فيها المزارع الصغيرة ، على غرار النظام الفرنسي •

راجع في ذلك :

M. Bloch : Les caractères originaux de l'histoire rurale francaise (2 vol). A. Colin - Paris 1956.

M. Morineau : Y a-t-il eu une révolution agricole en France au XVIII siècle ? - A.E.S.C. Avril-juin 1968 pp. 299-326.

J. Droz (et collaborateurs) Histoire de l'Allemagne contemporaine. (T I et II). - Matier 1970.

(٧٧) راجع ما سبق ، ص ٥٣ وما بعدها •

لذلك ، فان تقدم وسائل الانتاج الزراعى تمثلت أساسا في القضاء على نظام الحقول الثلاثة والقضاء على فكرة بقاء الأرض دورة زراعية بدون انتاج ، وأصبح الأسلوب الجديد يعتمد على زراعة الأرض بصفة مستمرة مع تغيير أنواع المحاصيل، وكذلك ادخال النباتات الجذرية والهوائية للتغلب على عقبة نقص الأسمدة الطبيعية ، كما تمثل هذا التطور أيضا في مرحلة متقدمة في اكتشاف واستخدام السماد الصناعى ، وتحسين وسائل الصرف واستخدام الآلات البخارية في الزراعة ٠

ويرجع الفضل في تطوير أساليب وفنون الزراعة ، الى مجموعة من «الرواد» في هذا المجال ، هؤلاء الرواد كانوا مزيجا من كبار الملاك ، والخبراء الزراعيين والاقتصاديين ، الذين استطاعوا بفضل تجاربهم وكتاباتهم ، احداث « ثورة » في عالم الزراعة ٠

ولعل أول هؤلاء كان جيترو تول[٧٧] (١٦٧٤ - ١٧٤٠) Jeturo Tull وكان من كبار الملاك في Mount Prosperous بمقاطعة Berkshire ، وقد قام بعدة أبحاث في مجال الزراعة تمكن على أثرها من نشر كتاب يتضمن ما انتهى اليه من نتائج وذلك عام ١٧٣١ ، والواقع ان كتاباته لم تكن قائمة على مجرد البحث النظرى ، بل هى حصيلة ما وقف عليه شخصيا من تجارب زراعية في كل من فرنسا وهولندا والمانيا ، وقام بتطبيق هذه النظريات بصورة مستمرة ونبذ طريقة الحقل الثلاثى ، حتى لا تترك الأرض دورة زراعية غير منتجة ٠ ولكنه نبه الى ضرورة تغيير أنواع المحاصيل مع حرث الأرض بعمق وتقليبها بما يسمح بتهويتها ، وقد عنى بوجه خاص بانتقاء البذور كما اخترع آلة ميكانيكية للبذر ٠

ومن أشهر رواد الزراعة في انجلترا أيضا اللورد تاوناساند[٧٨] (١٦٧٤ - ١٧٣٨) Charles Touonshend الذى كان سفيرا لانجلترا في هولندا ولكنه

---

(٧٧) Mantoux, op. cit., note1, p. 55.
Lesourd, op. cit., note 1, p. 55.
Rioux, op. cit., note 5, p. 31.

(٧٨) Mantoux, op. cit., note 2, p. 152.
Rioux, op. cit., note 5, p. 31.
Lesourd, op. cit., note 1, p. 56.

ترك العمل الديبلوماسي ليتفـرغ لزراعة أرضه متبعا الأساليب والطرق التى وقف عليها في البلاد الواطئة ، وعلى الرغم من كثرة المستنقعات في أرضه الواقعة في Rainham بمقاطعة Norfolk فقد استطاع في خلال سنوات قليلة أن يحولها الى أرض زراعية ذات انتاجية عالية ، تقوم على أساس أربع دورات زراعية متتالية وتنتج محاصيل متنوعة (علف ، قمح ، شعير أوشـوفان) دون أن تترك الأرض دورة كاملة دون انتاج ، وكان تاونشاند من أوائل من تنبهوا الى أهمية تربية المواشي باعتبارها مصدرا للأسمدة الطبيعية ، كما انها مصدر للحوم ولمنتجات الألبان •

وتجدر أيضا في هذا المجال الاشارة الى روبرت باكويل (١٧٢٥ ـ ١٧٩٥) Robert Bakewell الذى يعد أيضا من رواد الزراعة وتربية الماشية ، وصاحب المزرعة النموذجية في Dishley بمقاطعة Leicester حيث كان الزوار يرتادون مزرعته للاطلاع على الأساليب الحديثة التى ابتدعها في تربية الماشية ، ومدى ما توصل اليه من تقدم في حفر قنوات الصرف ، وبذر البذور بواسطة الآلات ، مما مكنه من رفع انتاجيتـه سواء في المحاصيل أو في اللحـوم ومنتجات الألبان(٧٩) •

وهكذا نجد أن بداية عصر الصناعة ، صاحبه اكتشاف الأساليب الزراعية الحديثة ، فكان لابد من تعميم هذه الأساليب ونشرها ، وهو ما تكفل به ارثريونج (١٧٤١ ـ ١٨٢٠) Arthur Young الذى أخذ يجوب المزارع في كافة المملكة البريطانية ، ليسجل التجارب الجديدة التى يراها ، والنتائج التى حققتها ، والعقبات التى ثارت أمامها ، كما قام عام ١٧٨٩ برحلة الى فرنسا بقصد الاطلاع على النظم الزراعية فيها ، وقد استطاع المساهمة في نشر هذه التجارب بواسطة المجلة الزراعية التى أصدرها اعتبارا من عام ١٧٨٤ ، واستطاع المساهمة في تطوير التجارب الزراعية بفضل المؤسسة العملية التى انشأها عام ١٧٩٣ بقصد تشجيع التجارب والدرسات الزراعية •

---

(٧٩) فعلى سبيل المثـال ، كانت المواشي المبـاعة في سوق Smithfield تبلغ الوزن الآتى ـ بالنسـبة للابقـار كان الوزن المتوسط ١٨٥ كجم ، والعجل ٢٥ كجم والخراف ١٩ كجم ، ولـكن الوسائل الحديثة التى استخدمها باكويل مكنته من رفع هذه الاوزان بالترتيب الى ٤٠٠ كجم ، ٧٥ كجم ، ٤٠ كجم • كما ان سلالات عديدة ذات شهرة من المواشي كسلالة Dishely وسلالة Durhan يرجع الفضل في اكتشافها الى باكويل •

Mantoux, op. cit., note 2, p. 155.

والواقع ان هذه المجموعة من الرواد[٨٠] ، اذ استطاعت أن تطور أساليب وفنون الزراعة ، فان ذلك لا يرجع فقط الى اجتهادها ومثابرتها ، وانما أيضا الى اعتمادها على ما هيأته الثورة الصناعية من وسائل حديثة أمكن استخدامها في عالم الزراعة . فلقد أدى التقدم العلمى الى احلال الآلات الزراعية محل العديد من الأيدى العاملة التى هاجرت من الريف الى المدن ، وقد ترتب على ادخال الآلية في الزراعة امكانية زراعة مساحات أكبر بمجهود بشرى أقل .

كذلك ، فقد سمح التقدم العلمى ، باكتشاف واستخدام الأسمدة الصناعية، فقل بذلك اعتماد الفلاحين على الحيوانات لامدادهم بالأسمدة الطبيعية ، وأصبح في الامكان الاعتماد على الأسمدة الصناعية في تسميد الأرض الزراعية ، كذلك تخصصت بعض المزارع كلية في تربية وتسمين الحيوانات للافادة من تنمية الثروة الحيوانية ، وهو ما أدى الى ارتفاع مستوى الانتاجية في كلا النوعين من المزارع .

وأخيرا ، بفضل التقدم العلمى ، أمكن استخدام الأنابيب ، الجوفية لتحسين وسائل الصرف ، ويرجع الفضل في اكتشاف هذه الطريقة الى فلاح اسكتلندى يدعى دينستون Deanston حيث اكتشف الاضرار التى تتعرض لها المحاصيل الزراعية مع بقاء مستوى المياه مرتفعا في الأرض بعد الرى[٨١] .

ولقد ترتب على تقدم وسائل الانتاج وتطور الفن الزراعى ، ازدياد ملحوظ في الانتاجية الزراعية ، ففى الفترة من ١٧٠٠ الى ١٧٥٠ تضاعف الانتاج الزراعى، بنسبة ٢٥ ٪ لكل[٨٢] ، كما تضاعفت انتاجية الأرض ذاتها وزادت قيمتها أربعة أضعاف في الفترة من ١٧٣٠ الى ١٧٦٠[٨٣] .

---

(٨٠) وينبغى الاشارة هنا الى أن الاسماء التى اوردناها ، لم تكن على سبيل الحصر ، فهناك أسماء اخرى لعبت دورا لا ينكر في هذا المجال ، منها على سبيل المثال ايضا توماس كوك Thomas Cofle الذى اسس عام ١٧٧٦ مزرعته في Holkham فقدرت حينذاك بمبلغ الفى جنيه استرلينى ، ولكنه استطاع أن يرفع بانتاجها لدرجة انه عند وفاته حوالى ١٨٠٠ قدرت مزرعته بعشرين الف جنيه استرلينى . كما تجدر الاشارة ايضا للعديد من ملاك الاراضي الزراعية الذين استطاعوا بفضل استخدام الاساليب الحديثة مضاعفة انتاج مزارعهم أكثر من أربعة أضعاف ومنها مثلا :

Le Marquis de Rockingham a Wentuworth, le duc de Bedford a Wobum. Lord Egremont a Petuvorth, Lord Clare dans L'Essex...

انظر : Mantoux, op. cit., note 2, p. 154.

(٨١) اسماعيل هاشم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٣٨ ، ص ١١٣ .

(٨٢) Rioux, op. cit., note 5, p. 31.

(٨٣) Mantoux, op. cit. note 2, p. 149 et ss.

البند الثالث ـ العلاقة بين الثورة الصناعية والثورة الزراعية :

اذا كنا قد تناولنا الثورة الزراعية في انجلترا باعتبارها البلد الرائد في الثورة الصناعية ، فان التطور يؤكد لنـا حقيقة مؤداها انه ما من دولة دلفت الى عهد الصناعة الا وكان قطاعها الزراعي قد عرف من قبل تطورا هائلا : ففى السويد والبلاد الواطئة ، شرعت الحكومة اعتبارا من ١٧١٥ في تقديم يد العون للمزارعين وحثهم على اتباع الأسـاليب الزراعية الحديثة المستخدمة في انجلترا . كذلك عرفت فرنسا بدورهاتقدما ملحوظا في الانتاج الزراعى استطاع ان يسجله العالم ارثر يونج حين قام برحلته الشهيرة الى فرنسا للاطلاع على النظم الزراعية بها عام ١٧٨٩[٨٤] . وكذلك المانيا ، فقد سبق الثورة الصناعية فيها تقدم ملحوظ في الميدان الزراعى[٨٥] .

هذا التلازم بين التطور الحاصل في القطاع الزراعى ،وفي القطاع الصناعى، يدعونا للبحث عن العلاقة بينهما ، وقد حاول العديد من الكتاب تفسير هذا التلازم ، وكان ماركس أول من نبه الى النتائج المترتبة على حركة الاسـيجة ، وما تؤدى اليه من لفظ سكان الريف ناحية المناطق الصناعية ، وما يترتب على ذلك من توفير جيش من الأيدى العاملة في خدمة الصناعة الناشئة ، هذه الأيدى غير المتخصصة والواقعة تحت ضغط الحاجة ستشكل بحسب ماركس الأصـول الاولى لطبقـة البروليتاريا ، ففى رأى ماركس ، آن « مصادرة ملكية صغار المنتجين الزراعيين ، والقضاء على المنتج الصغير ، كانت الخطوة الأولى لتوفير الأيدى العاملة اللازمة

---

(٨٤) فقد استطاع ارثر ان يطلع على كيفية تطور الفنون والأساليب الانتاجية في فرنسا في ذلك الوقت بفضل مجموعة من كبار الملاك الزراعيين والخبراء في هذا المجـال ، منهم Rochefoucauld ناحية Lancourt و Trubully ناحية La Fleche ومراعى due de Choiseuf ناحية Chanteloup والتجارب التى اجراها العـالم Duhamel du Monceau بالقرب من Pithurers على ان شيوع الأساليب الانتاجية الجديدة واستخدامها على نطاق واسع لم يبدا في فرنسا الا حوالى ١٨٣٠ ، لذلك يقـدر المؤرخون ان هذه بداية انطلاق الثورة الزراعية في فرنسا .

Rioux, op. cit., note 5, p. 33.

(٨٥) Lescurd, op. cit., note 1, p. 56.

للثورة الصناعية وللتمييز بين قوة العمل من جهة ورأس المال من جهة أخرى[٨٦] • ولقد أكدت أغلب الابحاث المنصبة على الثورة الصناعية هذا المعنى ، وأكدت هذه الابحاث ان التلازم بين التطور الصناعى والتطور الصناعى ، هو أمر طبيعى حتمته أمور ثلاثة[٨٧] •

أولا : ان كل المجتمعات التى قامت فيها ثورة صناعية ، كان لابد أن تحدث فيها ثورة زراعية سابقة على ثورتها الصناعية[٨٨] •

ذلك أن الثورة الصناعية ، تتطلب زيادة في الأيدى العاملة ، ولا يمكن للقطاع الصناعى أن يجد هذه الزيادة المنشودة الا في القطاع الزراعى الذى يكون (قبل الثورة الصناعية) مستوعبا لما يقرب من ثلاثة أرباع الأيدى العاملة في المجتمع • وحتى يتسنى لهذه الأيدى العاملة التوافد ناحية المراكز الصناعية ، فلابد من حدوث تقدم ملحوظ في الفن الانتاجى الزراعى يسمح بمضاعفة الانتاج رغم انخفاض عدد الأيدى العاملة ، حتى يتمكن القطاع الزراعى من الوفاء بالاحتياجات المتزايدة الى المواد الزراعية من قبل الاعداد المتزايدة من الناس في المناطق الصناعية • لذلك ، كان لابد من حدوث « ثورة » في الزراعة والا تعرضت هذه المجتمعات لنقص شديد في المواد الزراعية كنتيجة لنقص الأيدى العاملة الزراعية ، وكذلك لتزايد عدد السكان في المناطق الصناعية كنتيجة للتوسع الديمغرافي الذى عرفته هذه المجتمعات ابان الثورة الصناعية[٨٩] ، وبذلك يتضح لنا ، أن الثورة الزراعية كانت شرطا لابد منه Condition sine qua non لانطلاق الثورة الصناعية ،

---

(٨٦) Rioux. op. cit., note 5, p. 33.

(٨٧) انظر في ذلك خاصة :

W. W. Rostow : Les étapes de la croissance économique - Coll. Points. éd. Le Seuil - Paris 1970.

P. Bairoch : Révolution industrielle et sous devetoppement S.E.D.E.S. 3 éd. Paris 1969.

(٨٨) وليس أدل على ذلك من أن روسيا ، قد فشلت في تحقيق رغبتها في الدخول الى عصر الصناعة الحديثة عام ١٨٩٠ • فقد كانت الزراعة في روسيا ، رغم الغاء نظام الرقيق عام ١٨٦٧ ، في حالة متاخرة ولم تعرف روسيا « انطلاقتها الصناعية » الا حوالى عام ١٩١٤ في عهد Stolypine حيث كانت الزراعة قد تطورت في روسيا الى درجة ساعدت على تطوير الانتاج الصناعى •

كما أن الثورة الصناعية كانت لازمة لاستمرار الثـورة الزراعية لأن الانتـاج الزراعى لم يكن لينمو بالشكل الذى حدث فعلا اذا لم تكن هناك أسواق خلقتهـا الأحياء الصناعية الناشئة بما ضمنته من اعداد كبيرة من العمال المستهلكين[٩٠] ٠

ثانيـا : ساهمت الثورة الزراعية أيضا في تطور الصناعة ، ليس فقط لأنها ساعدت على مدها بالأيدى العاملة اللازمة ، ومد هؤلاء العمال بالغذاء اللازم ، ولكن أيضا لأن الأموال المتراكمة عن الاستغلال الزراعى (رأس المال العقارى) كان لابد أن يتحول جزء منها الى الاستثمار في القطاعات الاقتصادية الجـديدة (القطاع الصناعى) ٠ وهكذا ، كان من الضرورى أن تسبق الثورة الزراعية ، الثورة الصناعية ، فبالثورة الزراعية يزداد الانتاج الزراعى ، ويسمح الانتاج المتضاعف بمواجهة عدد السكان المتزايد ، هذا التزايد في عدد السكان يكفل توفير الأيدى العاملة اللازمة للعمل في المشروعات الصناعية الجديدة ، كما أن زيادة الانتاج وزيادة دخول الملاك الزراعى ، يسمح بتراكم رأس المـال واستغلاله في القطاع الصـناعى[٩١] ٠

ثالثـا : ويتمثل الجانب الثالث من التلازم الحتمى بين الزراعة والصناعة في تطويرهما ، الى ما يؤدى اليه تطور كل قطـاع من تزايد الطلب على منتجات القطاع الآخر ٠

فقد رأينا أن تطور الصناعة ، أدى لتزايد الطلب على المنتجات الزراعية ، والعكس صحيح أيضا ، فقد ترتب على تطور أساليب الانتاج الزراعى ، ازدياد الطلب بشكل ملحوظ على المنتجات الصناعية وخاصة قطاع الحديد والصلب ، حيث ازداد الطلب على الآلات الزراعية ، بحيث ان كمية الحديد المستخدمة في الصناعة تضاعفت في انجلترا في الفترة من ١٧٢٠ الى ١٧٨٠ ٠

كذلك ، فان ازدياد عدد السكان سيؤدى بدوره الى فشل الصناعة البدائية في مواجهة احتياجات الاعداد المتزايدة من الناس ، وخاصة في نطاق صناعة الغـزل والنسيج ، مما سيؤدى أيضا الى تطور هذه الصناعة تطورا ملموسا ، وسيساعد

(٩٠) احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٥٨ ٠

(٩١) احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها ٠

على ذلك التطور الحاصل في قطاع الحديد والصلب ، حيث سيتمكن من مد صناعة الغزل والنسيج باحتياجاتها من الآلات الحديثة ٠

ومن هذا العرض نرى ، أن هنـاك تلازما بين الثورة الصـناعية والثورة الزراعية ، وأن الثورة الزراعية كان لابد أن تسبق الثورة الصناعية وتمهد لها ، كذلك فان استمرار تطـور القطـاع الزراعى ارتبط باستمرار تطـور القطاع الصناعى[٩٢] ٠

---

(٩٢) على انه رغم وضوح العلاقة بين الثورة الزراعية والثورة الصناعية على هذا النحو ، فان نظريات Bairoch و Rostow المشار اليها في المتن لم تسلم من النقد ، وعلى الأخص من قبل العالم الاقتصادى Francois Crouzet في كتابته وعلى الأخص :

1 — "Agriculture et révolution industrielle. Quelques réflexions" Cahier d'histoire No 1 - 1967 pp. 67 et ss.

2 — La formation du capital en Grande-Bretagne pendant la révolution industrielle, 2 conféerence économique (Aix 1962) éd. Mouton - Pairs 1965 T. I. pp. 589-642.

فهو يندب على هذه النظريات اولا ، ضعفها من حيث الاستناد الى احصائيات دقيقة ، علاوة على انه ينكر ان الثورة الزراعية استطاعت ان تمـد الثورة الصـناعية بما يلزمها من أيد عاملة ، ورؤوس أموال ، واسواق ٠ فهو يقرر ان المصانع لم تستفد بالأيدى العـاملة من الريف ، الا بعد فترة طويلة من بداية التصنيع ، اما فيما يتعلق برؤوس الأموال ، فهو يلاحظ ان رؤوس الأمـوال التجـارية كانت أكثر فائدة للتطور الصناعى وكانت من الكفاية هى ورؤوس الأموال المـالية بحيث لم يكن القطـاع الصناعى بحاجة لرأس المـال المتراكم في الزراعة ٠ اما فيما يتعلق بازدياد الطلب على الحديد ، فقـد كان نتيجة لازدياد الطلب على صنع البواخر الحديدية أكثر منه على الآلات الزراعية ، فهذه الآلات كان من الممكن تصنيعها حتى بواسطة المشروعات الصناعية الصغيرة ، اما فيما يتعلق بتزايد الطلب على النسيج ، فكان نتيجة لفتح اسـواق خارجية في المستعمرات اكثر من تزايد الطلب في الداخل ٠ ويؤكد crouzet نظرته بقوله ان فرنسا وهى لم تكن بعد قـد استكملت عناصر ثورتهـا الزراعية عام ١٨٤٠ عرفت تطورا هاما وملحوظا في القطاع الصناعى ٠

على أننـا لا يمكن أن نسلم بوجهة النظر هـذه ، فمما لا شك فيه ، ان الثورة الزراعية كانت من العوامل الهامة في قيام الثورة الصـناعية ، حقيقة أنهـا لم تكن وحدها كافية لقيـام هـذه الثورة ولكنها كانت احد العوامل التى تضافرت في احداث هذه الثورة الصناعية ٠

Rioux, op. cit., note 5. pp. 39 et 40.

المطلب الرابع ـ تطور وسائل النقل(٩٣) :

اذا كانت الثورة الصناعية قد خطت أولى خطواتها في ميادين الغزل والنسيج ، والحديد والصلب ، فان الاختراعات والاكتشافات التى أدت الى التطور الهائل في هذه القطاعات لم يكن من الممكن أن تستمر الا اذا كان في الامكان ضمان سرعة توزيع المنتجات ، وخلق حاجات استهلاكية متجددة ، وفتح أسواق جديدة ٠

فاستمرار الثورة الصناعية ، كان يستلزم سرعة توزيع المنتجات ، نظرا لما يترتب على ذلك ، من خفض تكاليف الانتاج ، وسرعة تداول رأس المال ، وزيادة الأرباح ٠ وحتى يتسنى تحقيق ذلك ، كان لابد من وقوع « ثورة » أيضا في عالم النقل تساعد على تحقيق سرعة توزيع وتداول المنتجات الصناعية ، وتقرب ما بين المنتج والمستهلك ٠

فقبل الثورة الصناعية ، كان النقل ، سواء في ذلك نقل الركاب أو البضائع، يعتمد أساسا على القوة الحيوانية (الحصان والحمار والبغال ٠٠٠) أو على القوة الطبيعية كالرياح بالنسبة للمراكب الشراعية ، أو الممرات المائية كالأنهار والقنوات ٠

ولكن هذه الوسائل (البدائية) كانت غير مريحة ، بطيئة ، مكلفة ، وغير آمنة ٠ فبواسطة أفضل العربات وأحسن الجياد وباستخدام أحسن الطرق كان متوسط المسافة التى تقطعها العربات يتراوح من ١٥ الى ٢٠ كم في الساعة ،

---

(٩٣) — Ch. Dolfuss, E. Geoffroy et Baudry de saunier Histoire de la locomotion terrestre - Rev. l'illustration - Paris 1935 (2 vol.).

— G. Toudouze (et autres) : Histoire de la Marine - Rev. l'illustration Paris 1935 (1 vol.).

L. M. Jouffroy : l'Ere du Rail - A. Colin - Paris 1953.

M. Lévy - Leboyer : Chemins de fer et croissance économique "exemple américain" A.E.S.C. - Mai-juin 1966 pp. 362-640.

M. Cavaillès : La route francaise, son histoire, sa géographie A. Colin Paris 1946.

وكانت السافة بين باريس وليون في فرنسا تقطع في مدة تتراوح ما بين خمسة وستة أيام . في حين كانت المسافة ما بين باريس ومارسيليا تستلزم ١٨٥ ساعة. أما بالنسبة للملاحة البحرية ، فكانت المسافة ما بين ليفربول ونيويورك بواسطة مركب شراعى تستلزم شهرين كاملين ، أما بين الهافر وريودى جانيرو فتستلزم ثلاثة أشهر . ثم ان هذه المواصلات كانت باهظة السعر ، فالرحلة ما بين باريس وتولوز بفرنسا كانت تتطلب ما يعادل أجر ثلاثة آلاف ساعة عمل بالنسبة للعامل . هذا بالاضافة الى المخاطر التى كان يتعرض لها مستخدمو هذه الوسائل البدائية : فحوادث الغرق كانت كثيرة دون أن يكون لدى المراكب من أدوات الانقاذ ما يكفل الحد من هذه الحوادث . أما بالنسبة للطرق البرية فان قطع الطرق ، والحوادث ، وانعدام وسائل الراحة كانت كفيلة بالقضاء على كل أمل للاستفادة من طرق النقل البرى بطريقة فعالة ، وخاصة ان الطرق البرية كانت في معظمها غير ممهدة ولا مرصوفة (٩٤) .

ولقد كان ذلك بالطبع عائقا أمام التطور الصناعى ، وما يقتضيه من ضمان سرعة انتقال البضائع والأشخاص . لذلك كان لابد أن تحدث « ثورة » في عالم النقل . ولكن هذه الثورة لم تحدث طفرة واحدة ، بل وقعت على مراحل متعددة .

ففى المرحلة الأولى (١٧٥٠ — ١٨٢٠) حاول النظام الرأسمالى ، تطوير الوسائل القائمة والاستفادة منها الى أقصي الحدود . لذلك ، شرعت كل من انجلترا وفرنسا في تطوير شبكة الطرق البرية لديها ، بزيادتها والعمل على تمهيدها ورصفها ، وبانشاء شركات كبيرة متخصصة في النقل ، تتولى نقل المسافرين والبضائع في عربات أكثر تجهيزا وأكثر قوة من ذى قبل .

ففى فرنسا كان ترودان Trudaine (٩٥) أول من أشرف على توسيع شبكة الطرق البرية ورصفها بالحجارة مستخدما في ذلك أسلوب الرصف الذى ابتدعه مهندس الطرق تريزاجية Traesaguet كذلك الأمر في انجلترا ،

---

(٩٤) ففرنسا مثلا ، كانت تعتبر خلال القرن الثامن عشر من البلاد المتقدمة في هذا المجال بالنسبة لباقى دول القارة ، باعتبار أنها كانت قد مهدت ورصفت ما يتراوح بين ٨ و ١٠ آلاف كيلو متر من الطرق البرية .

Lesourd, op. cit., note 1, p. 62.

(٩٥) ويعتبر Trudaine اول مدير للطرق والكبارى في فرنسا ، وهو الذى انشا مدرسة « الطرق والكبارى » عام ١٧٤٧ ، كما انشا أول هيئة لمهندسي الطرق والكبارى عام ١٧٥٠ .

حيث عملت الحكومة على توسيع شبكة الطرق وتمهيدها ورصفها بالحجارة متبعة في ذلك الأسلوب الذى ابتدعه ماك آدم Mac Adam ، وكان استخدام اغلب هذه الطرق بمقابل رسوم انتفاع وليس بالمجان ٠

وقد ترتب على حركة توسيع الطرق البرية ، وزيادتها ، ورصفها ، تقدم ملحوظ ونتائج ايجابية في عالم النقل : فاذا كان الذهاب من لندن الى أيدنبورج يقتضي عشرة أيام عام ١٧٥٠ وثلاثة أيام ونصف للوصول من لندن الى مانشستر ، فان المسافة من لندن الى أيدنبورج لم تعد تستلزم عام ١٨٣٠ سوى ٤٥ ساعة ، ومن لندن الى مانشستر سوى ٢٠ ساعة ، بواسطة عربات آمنة وسريعة ، متوفرة على قدر لا بأس به من وسائل الراحة ٠

وفي فرنسا حصل تطور مماثل ، فقد استطاعت شركة «لافيت» Laffitte أن تربط ما بين باريس وليون في مدة ٥٥ ساعة عام ١٨٤٨ ، بينما كانت نفس المسافة تقطع في ١٠٠ ساعة على الأقل عام ١٨١٥ ٠ أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد استطاعت شركة ماجور آند وودل Majors and Waddll أن تربط بين المسيسبي وكاليفورنيا في ٢٥ يوما ، واستطاعت شركة بوني اكسبريس Poney Express أن تخفض المدة ، الى عشرة أيام فقط عام ١٨٦٠(٦٦) ٠

ولكن ، وعلى الرغم من هذا التطور ، ظلت شبكة الطرق البرية عاجزة عن الربط بين مراكز الانتاج والأسواق ، لذلك كان لابد من الاستعانة بشبكة أخرى غير شبكة الطرق البرية ، وعلى الأخص شبكة الطرق المائية ٠ فقد اكتسبت وسائل الملاحة النهرية أهمية خاصة منذ وقوع الثورة الصناعية وحتى ١٨٣٠ ٠

فالملاحة النهرية ، كانت وسيلة لنقل الركاب ، ولكنها لم تكن وسيلة فعالة ، فالمراكب آنذاك كانت شراعية تسير بقوة الريح ، او تسحب بالحبال من على الشواطىء سواء بقوة العضلات البشرية أو بقوة الحيوان (السحب بواسطة الجياد) ، ولم تكن سرعتها تتجاوز خمسة كيلو مترات في الساعة ، مع ضرورة التوقف ليلا ، والتوقف نهارا للراحة مرات عديدة ٠

---

(٦٦) Rioux, op. cit., note 5, pp. 72 et 73.

ولذلك ، فان المرات المائية كانت تستخدم أساسا لنقل البضائع وخاصة البضائع الثقيلة كالخشب (الذى كان غالبا ينقل بتعويمه في اتجاه مجرى النهر) والفحم ، وعموما المواد غير القابلة للتلف • وعلى الرغم من الرسوم التى كان يتقاضاها ملاك الأراضي على جانبى النهر للسماح بمرور المراكب ، فان ذلك لم يمنع أصحابها من تحقيق أرباح طائلة كانت تمكنهم من استرداد ثمن المراكب في وقت وجيز •لذلك ، فما أن وقعت الثورة الصناعية ، حتى تضاعفت حركة حفر القنوات واستخدام الممرات المائية بصورة ملحوظة ، بحيث أصبحت كافة المناطق الصناعية تقريبا محاطة بقنوات وأنهار تسهل عملية نقل المنتجات منها وتمدها بالمواد الأولية والفحم •

ففى انجلترا ، احيطت المناطق الصناعية بشبكة من الممرات المائية هائلة منذ الثلث الثاني من القرن الثامن عشر • وعلى الأخص في مناطق استخراج الفحم في وسط انجلترا وفي ميدلاند Midland ولانكشير Lancashire • كذلك الأمر بالنسبة لبلجيكا التى كانت تتمتع بانهارها الهادئة والقنوات التى تم حفرها من Mons الى Conde عام ١٨١٨ ومن Charleroi الى Bruxelles عام ١٨٢٧ • اما فرنسا فقد تم حفر قنوات عديدة بها للربط بين أنهارها المختلفة وعلى الأخص بيز Le Rhin - Le Rhone - La Marne - L'Aisne (٩٧) بحيث بلغت مسافة الممرات الصالحة للملاحة بفضل هذه القنوات حوالى ١٠ آلاف كليو متر بالاضافة للمسافات الصالحة للملاحة في أنهار اللوار

---

(٩٧) ونهر الـ Aisne الفرنسي يقع في شمال فرنسا وتوجد منابع في منطقة l'Arghe الفرنسية ويبلغ طوله ٢٨٠ كيلو متر ويصب في مقاطعة الـ Oise أكثر المقاطعات الفرنسية تصنيعا واستخداما للايدى العاملة • ويبلغ طول المسافة الصالحة للملاحة منه ١١٧ كيلو مترا •

اما نهر الـ Marne فتوجد منابعه في مقاطعة Langres ويبلغ طوله ٥٢٥ كيلو مترا اغلبها صارت صالحة بفضل القنوات التي حفرت والتي ربطت بينه وبين نهر Rhone من جهة وبينهه وبين نهر الـ Saone من جهة اخرى •

واما نهر الـ Rhein فهو يربط بين فرنسا وسويسرا ويبلغ طوله ٨١٢ كيلو مترا منها ٥٢٢ في فرنسا وحدها ، وتواجه الملاحة البحرية فيه بعض الصعوبات ، أولا بسبب سرعة المياة فيه ، وثانيا نظرا لاختلاف اتساعه فهو يضيق في بعض المناطق ويتسع في مناطق اخرى •

اما نهر الـ Rhin (ويقال له بالالمانية نهر الـ Rhein فهو احد اطول انهار اوربا الغربية (١٢٩٨ كيلو مترا) ، وينبع من سويسرا ويخترق فرنسا من مقاطعة الـ Jura ، ويقطع فرنسا الى الاراضي الالمانية حيث يصل حتى بون ويستمر في مساره الى البلاد الواطئة حتى يصب في بحر الشمال •

والسين والرون La Seine - La loire - La Rhome ونفس الظاهرة تكررت في ألمانيا حيث استخدمت القنوات المائية للربط بين أنهار l'Elhe. l'Oder. le Rhein • وفي الولايات المتحدة الأمريكية استخد نهر المسيسبى Mississipi ، والبحيرات الكبرى وتم حفر عدة قنوات أشهرها قناة Erie عام ١٨٢٤ في الـ Ohio وقناة Hudson في الـ Erie عام ١٨٣٣ ، بحيث سمحت هذه الممرات بالربط بين الأسواق المتسعة في الولايات المتحدة الأمريكية والموانى البحرية فيها وخاصة في نيويورك وأورليان الجديدة •

ولكن تطوير الطرق التقليدية ، البرية والمائية ، لم يكن كافيا لمواجهة « متطلبات » التطور الصناعى وزيادة الانتاج ، وساد الشعور بأن هناك « هوة أو ثغرة » ما بين الانتاج المتزايد من المصنوعات القطنية ومن الحديد والصلب ، وبين ما تتيحه وسائل النقل من امكانية تداول وتوزيع هذه المنتجات • لذلك ، فان تحسين وسائل النقل القائمة لم يكن كافيا ، بل كان لابد من التطوير والتجديد في هذا المجال • وتلك كانت المرحلة الثانية من مراحل التطور في عالم النقل ، وتقع في الفترة ما بين ١٨٢٥ و ١٨٥٠ ويطلق عليها مرحلة الاختراعات في عالم النقل •

ففى نطاق النقل باستخدام الملاحة البحرية والنهرية ، تعددت المحاولات لاستخدام قوة البخار في تسيير المراكب ، وترجع أولى تلك المحاولات الى الفرنسيين دنيس بابان Denis Papin وجوفرى دابان Jouffroy d'Abbans اللذين قاما منذ القرن الثامن عشر بمحاولات لم يكتب لها النجاح ، واستدعى الأمر الانتظار حتى أتى الفرنسي Fulton ففشل مرة في تسيير مركبة البخارى في نهر السين عام ١٨٠٣ ، ولكنه نجح في تحقيق ذلك المرة الثانية في نهر الـ Hudson بأمريكا عام ١٨٠٧ ، فكان ذلك ايذانا ببدء الرحلات المنظمة بواسطة المراكب البخارية ، فافتتح أول خط منتظم بين جلاسجو وبلفاست Glasgow a Belfast عام ١٨١٨ ، وفي عام ١٨٢٢ تم تسيير أول خط ملاحى يربط بين لندن وباريس بواسطة أول مركب حديدى يسير بالبخار • واستكملت السفينة البخارية تطورها حوالى عام ١٨٣٠ بحيث أصبحت وسيلة النقل الشائعة سواء في البحار أم الانهار الداخلية والقنوات •

ففى البحار، وبعد أن كانت السفن الخشبية ذات الشراع، تتطلب ٤٠ يوما لعبور الأطلنطى ، سريعا ما حلت محلها مراكب أمريكية وبريطانية قادرة على قطع المسافة من نيويورك الى انجلترا في فترة لا تتجاوز أربعة عشر يوما ، هذه المراكب

ساعدت على نقل المنتجات الزراعية من المستعمرات في الشرق الأقصى ، وخاصة الشاى الى أروبا عبر رأس الرجاء الصالح ٠

ولكن سريعا ما تبين أن المحرك البخارى القائم على عجلة ذات ريش ان كان يصلح لاستخدامه في الأنهار فانه لا يصلح وحده لمواجهة الملاحة البحرية ، لذلك ظلت الأشرعة تساعد في عملية دفع السفينة ولكن استخدام المحرك البخارى ساعد بالطبع على تخفيض المدد اللازمة للرحلات : فبينما كان يلزم لعبور الأطلنطى فترة ٣٧ يوما عام ١٨٣٣ ٠ انخفضت هذه المدة بفضل التقدم في صناعة السفن البخارية الى ثلاثة عشر يوما فحسب ٠

وسرعان ما حل المحرك المروحى محل العجلة ذات الريش في السفن ، وقد وصل الى هذه الفكرة في وقت واحد تقريبا كل من الانجليزى بيتيت سميث Petitt Smith والفرنسي فردريك سوفاج Frederic Sauvage (الذى سجل براءة اختراعه عام ١٨٣٢) والسويدى أريكسون J. Ericsson غير أن هذا الاختراع لم يعمم الا حوالى ١٨٥٥ ٠ كذلك فان استخدام الحديد في صناعة السفن ساعد كثيرا على تقدم سبل الملاحة البحرية ، وقد رأينا أن أول باخرة صنعت عام ١٨٢٢ ، وفي عام ١٨٣٨ سير الانجليز الباخرتين الشهيرتين Great Britain و Great Wester وكانت حمولة الأولى ٣٦٨١ طنا والثانية ١٣٤٠ طنا ، وبذلك بدأ عهد نقل البضائع بالسفن[٩٨] على نطاق واسع ، مما سمح بفتح الأسواق وبسرعة تدفق المنتجات ونشأت العديد من الشركات[٩٩] التى تخصصت في النقل الدولى ، وبدأت الموانى تتطور وتستخدم الآلات الحديثة في الشحن والتفريغ على غرار ميناء ليفربول ، ومما ساعد على تطور التجارة الدولية حفر قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وما أدت اليه من اختصار المسافة بين أوربا والشرق الأقصى الى النصف ، وقد أدى ذلك كله الى انخفاض سعر الشحن بدرجة ملحوظة : فبينما كان نقل طن من البضائع بين Anvers (بلجيكا) الى نيويورك يتكلف ٨٠ فرنكا عام ١٨٢٠ ، انخفض

---

(٩٨) Lesourd, ou. cit., note 1, p. 64.

(٩٩) مثال شركة British India وشركة La Cunard
Hamburg-Amerika, Cie Général transatlantique

ثمن الشحن الى ٢٠ فرنكا عام ١٨٥٠ • (١٠٠) وبذلك يتضح أن الملاحة البحرية والنهرية كانت قد استطاعت أن تحقق نقلا للبضائع بسعر مناسب ، وساعدت على نقل المنتجات الصناعية وفتح الأسواق لها ناحية المستعمرات ، كما ساعدت على نقل المواد الأولية من المستعمرات ناحية البلدان الصناعية •

على أنه ، بينما كانت الملاحة البحرية والنهرية في تطور مستمر ، كانت السكك الحديدية لا تنبىء بأى مستقبل في عالم النقل • فالسكك الحديدية (القضبان الحديدية) لم تكن لها من أهمية عملية الا في المناجم حيث استخدمت لجر عربات عليها تحمل ما يستخرج من المناجم • اذ لوحظ أن جر العربات على « قضبان حديدية » يساعد على سرعة حركة العربات لأنه يقلل من مقاومة العجلات• فكانت العربات في بداية الأمر تصنع من الخشب ، ثم من الحديد ، وتستخدم القوة العضلية للانسان لدفعها • وفي هذا النطاق ، أى نطاق العربات المستخدمة في نقل المواد المستخرجة من المناجم ، تم استخدام أول قاطرة بخارية عام ١٨١٥ وكانت من تصميم ستيفنسن الانجليزى Robert Stephenson • ولكن استخدام القاطرة البخارية كوسيلة من وسائل النقل لم يحدث الا عام ١٨٢٥ على خط Darlington-Stockton الذى لم يتجاوز طوله ١٣ كيلو مترا • وقد استطاع الفرنسي Marc Seguin ادخال بعض التحسينات على « قاطرة ستيفنسن »(١٠١) وبدأ منذ ذلك التاريخ بناء السكك الحديدية في أوربا بصورة مطردة • فكان ان بنى خط سانت اتيان اندرزيو
Sain-Etienne - Andrézieux
عام ١٨٢٣ ، وليون ـ سانت اتين lyon - Sainte - Etienne (١٨٢٦) ثم خط ليفربول مانسشتر Liverpool - Manchester (١٨٣٠) • وقد ترتب على انشاء هذا الخط الأخير وما حققه من نجاح في ، اندفاع بناء السكك الحديدية في أوربيا ،

---

(١٠٠) Rioux, op. cit., note 5, p. 74.

(١٠١) والواقع أن الروسي Tcherepanov ، والامريكى Balduvin كانا قد توصلا في نفس الفترة تقريبا الى اختراع « القاطرة البخارية » الا ان اسماء ستيفنسن وسيجان كانا أكثر شهرة في عالم السكك الحديدية ، فالأول كان صاحب السبق في وضع مقياس لعرض السكك الحديدية عرض (القبضان) بمقياس قدره ١٫٤٣٥ م (أى حوالى ٤ اقدام وثمانية أعشار وصف) بدلا من العرض القديم وهو ٣ أقدام فقط ، اما الثانى فكان صاحب فكرة وضع « فلنكات حشبية » اسفل الخط الحديدى ، وهو صاحب اول مؤلف في « فن بناء السكك الحديدية » •

حيث قامت العديد من الشركات الخاصة ، ببناء مراحل من السكك الحديدية دون أى تنسيق بينها ، ولكن المسافات التى غطتها السكك الحديدية أخذت تزداد شيئا فشيئا ، فمن ٨٠٠ كيلو متر عام ١٨٤٠ في انجلترا ، يزداد طول السكك ليبلغ عام ١٨٥٠ ، ١٠٫٥٠٠ كيلو متر ٠ وكباقى فروع الصناعة ، كانت انجلترا أيضا سباقة في هذا المضمار ، بحيث صارت انجلترا هى المصنع والمصدر للسكك الحديدية ، وللقاطرات ٠ وقد كانت بلجيكا من اسبق الدول (بعد انجلترا طبعا) في بناء السكك الحديدية معتمدة في ذلك على استيرادها من انجلترا ، حيث قامت بانشاء أول خط لها ما بين بروكسل — مالين Bruxelles - Malines ١٨٣٥ ٠ وفي نفس العام انشأت المانيا أول خط حديدى لها Nuremberg - Furth وبلغ طول السكك الحديدية في ألمانيا ٥٨٠٠ كيلو متر عام ١٨٥٠ ٠

أما في فرنسا ، فكانت حركة انشاء السكك الحديدية بطيئة نسبيا ، ذلك ان الحكومة اعتمدت في انشائها على رأس المال الخاص ، بينما كان هذا الاخير مترددا ٠ ولكن ، شيئا فشيئا حين اتضح لرأس المال الخاص ، ما يؤدى اليه انشاء السكك الحديدية من بلوغ أسواق جديدة ، وتخفيض أسعار النقل ، ومن ثم سعر التكلفة مع امكانية بيع منتجات أكثر وفي وقت أسرع ، بدأت حركة انشاء السكك الحديدية برأس مال خاص ٠ ففى عام ١٨٣٧ قام بعض أصحاب البنوك في باريس Rothschild, Pereire d'Eichtal, Bartholony. بتمويل انشاء خط Parks-Rouen, Paris - Versailles, Paris - Saint-Germain, Paris - Orléans عام ١٨٤٣ ٠ ولكن أمام هذا التقدم البطىء صدر في فرنسا قانون ١١ يونيو ١٨٤٢ بوضع خطة شاملة وعامة لبناء السكك الحديدية ، تتحمل الدولة في هذا المشروع أغلب النفقات قبل أن تعهد باستغلاله الى الشركات الخاصة ، وبفضل هذا المشروع استطاعت فرنسا أن تستكمل عام ١٨٥٠ ما يقرب من ٣ آلاف كيلو متر من السكك الحديدية ٠

اما في ايطاليا ، والمجر والنمسا ، فقد تم بناء بعض السكك الحديدية ابتداء من العواصم ، ولكن الى مسافات بسيطة ٠ وفي روسيا ، انفقت الدولة نفقات طائلة لبناء خط سان بترسبورج — موسكو Saint-Petersbourg - Moscou عام ١٨٥١ ولكن اجمالى خطوط السكك الحديدية فيها لم يتجاوز حينذاك ٦٧٠ كيلو متر ٠

اما أمريكا ، فكانت من أسرع الدول في بنـاء خطوطهـا الحـديدية ، حيث استطاعت حتى عام ١٨٥٠ انشاء ما يقرب من ١٤٫٥٠٠ كيلو متر ٠

وهكذا تطورت وسائل النقل تطورا هائلا حوالى نصف القرن التاسع عشر ، بما سمح للقطاع الزراعى بتصريف منتجاته في أسواق جديدة وبيع محصولاته من المواد السريعة التلف ، كما سمح تقـدم وسائل النقل بمد المـدن المختلفة بما تحتاجه من تموين والقضاء على الأزمات في هذا المجـال ، وسمحت أيضا بتركيز المشروعات الصناعية دون خـوف من نقص الطاقة (الفحم) لأن الوسائل المتقدمة في النقـل تسمح بوصول الفحم الى المصانـع بانتظام وبسعر مناسب ، كما يؤدى تطـور وسائل النقل الى سرعة تبادل المراسلات والخطابات ٠وبالنسبة للركاب ، انخفضت أسـعار السفر الى النصف تقريبا ، كما ان السكك الحديدية تطلبت كميات متزايدة من الحديد والخشب للانشاءات ، ومن الفحم لمـد القاطرات بالطاقة الـلازمة ٠ وأخيرا سيؤدى انشاء السكك الحديدية الى خلق مهنـة جديدة هى مهـنة العاملين بالسكك الحديدية Les cheminots ، الذين بلـغ عددهم حوالى ٥٠ ألفا في انجلترا وحدها عام ١٨٥٠ ٠

وتبين لنا الجـداول الآتية ، مدى تطور حركة انشـاء السكك الحديدية في العالم (جـدول رقـم ٤) وما حققته الثورة في عالم النقل من توفير الوقت (جـدول رقم ٥) ومن امكانية مضاعفة كمية البضائع (جدول رقم ٦) ومن تخفيض لأسعار النقل (جدول رقم ٧) ٠

جدول رقم ٤ ـ تطور حركة انشاء السكك الحديدية في العـالم في الفترة من ١٨٥٠ ـ ١٩١٣ بالكيلو متر[١٠٢] ٠

البلدان أو القارة	١٨٥٠	١٨٧٠	١٩٠٠	١٩١٣
أوروبـا	٢٣٫٥٠٠	١٠٤٫٠٠٠	٢٨٢٫٠٠٠	٣٥٩٫٠٠٠
المملكة المتحـدة	١٠٫٥٠٠	٢٤٫٥٠٠	٣٣٫٠٠٠	٣٨٫٠٠٠
ألمـانيا	٦٫٠٠٠	١٩٫٥٠٠	٤٣٫٠٠٠	٦١٫٠٠٠
فـرنسـا	٣٫٠٠٠	١٧٫٥٠٠	٣٦٫٥٠٠	٤٩٫٥٠٠
روسـيا	١٫٠٠٠	١٠٫٥٠٠	٥٠٫٠٠٠	٦٥٫٠٠٠
أمريكا الشـمالية	١٤٫٨٠٠	٩٠٫٠٠٠	٣٥٧٫٠٠٠	٤٥٧٫٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	ـ	٣٫٠٠٠	٤٢٫٠٠٠	١٠٧٫٠٠٠
أسـيا	ـ	٨٫٤٠٠	٦٠٫٠٠٠	١٠٨٫٠٠٠
أفريقيـا	ـ	١٫٨٠٠	٢٠٫٠٠٠	٤٤٫٠٠٠
استراليـا	٤٠	١٫٨٠٠	٢٤٫٠٠٠	٣٥٫٠٠٠

(١٠٢) RIOUX, Op. Cit., Note 5, P. 80.

جدول رقم ٥ ـ تخفيض الوقت اللازم للرحلات في فرنسا (بواسطة الطرق البرية والسكك الحديدية) :

الرحلة	الوقت اللازم للقيام بها (بالساعات)								طول المسافة (بالكيلو مترات)		
	١٦٥٠	١٧٨٢	١٨١٤	١٨٣٤	١٨٥٤	١٨٨٧	١٨٩٧	١٩٧١	جوا	بالطريق البرى	بالسكك الحديدية
باريس ـ الهافر	٩٧	٥٢	٣١	١٧	٥ر١٥	٤ر١٠	٣ر١٥	١ر٤٩	١٨٠	٢٢٣	٢٢٨
باريس ـ كاليه	١٢٣	٦٠	٤٠	٢٦	٦ر٤٠	٤ر٣٢	٣ر٤٢	٢ر٥٩	٢٣٠	٢٩٣	٢٩٩
باريس ـ ليل	١٠٥	٤٢	٣٤	٢٢	٤ر٥٠	٣ر٥٠	٣ر١٥	١ر٥٥	٢٠٠	٢١٩	٢٥٨
باريس ـ ستر اسبورج	٢١٨	١٠٦	٧٠	٤٧	١٠ر٤٠	٨ر٤٩	٧ر٢٠	٣ر٤٧	٣٩٥	٤٥٨	٥٠٤
باريس ـ جنيف	٢٤٥	١٥٨	٧٥	٤٨	١٩ر٥١	١١ر٣٠	١٠ر٢٢	٥ر٣٠	٤١٠	٥٠٦	٦٠٤
باريس ـ نيس	٤٣٨	٢٢١	١٤٠	٩٨	٦٥ر٣٠	١٨ر٢٤	١٦ر٢٠	٩ر٠٥	٦٩٠	٩٣٣	١٠٨٨
باريس ـ مارسليا	٣٥٩	١٨٤	١١٢	٨٠	٣٨ر٢٠	١٣ر٥٨	١٢	٦ر٣٥	٦٦٠	٧٨٤	٨٦٣
باريس ـ تولوز	٣٣٠	١٩٨	١٠٤	٧٠	٣١ر١٥	١٥ر١٣	١٢ر٠٥	٥ر٥٦	٥٩٠	٦٧٩	٧١٣
باريس ـ بايرن	٣٥٨	٢٠٠	١١٦	٦٤	٢٧ر٢٥	١١ر٥٢	١١	٥ر٥١	٦٦٠	٧٤١	٧٨٠
باريس ـ نانت	١٧٢	٩٠	٥٦	٢٧	٩ر٣٣	٧ر٢٣	٧ر٢٣	٣ر١٨	٣٤٠	٣٩٥	٣٩٦
باريس ـ براست	٢٧٠	١٧٥	٨٧	٦١	٣٦	١٣ر٣١	١١ر١٤	٥ر٣٢	٥١٠	٥٩٠	٦٢٢

Lesourd, op. cit., note 1, p. 91.

جدول رقم ٦ ـ اهمية السكك الحديدية في الحياة الاقتصادية لاحدى المقاطعات الفرنسية (مقاطعة كروز La Creuse) (١٠٤)

السنة	كمية الأسمدة التي استوردتها المقاطعة (بالطن)	كمية المواشي التي صدرتها (بعدد الرؤوس)	كمية البطاطس والحبوب التي صدرتها (بالطن)
١٨٦٦	٦ر٤٠٠	٦٣ر٧٠٠	١ر١٠٠
١٨٨٨	٤٩ر٠٠٠	١١١ر٠٠٠	١٣ر٦٠٠
١٩٠٦	٨٦ر٠٠٠	١٨٦ر٠٠٠	٧٢ر٠٠٠

جدول رقم ٧ ـ مدى مساهمة التطور في عالم النقل في تخفيض أسعار النقل : (ثمن الرحلة من باريس الى تولوز ما بين ١٧٢٥ و ١٩٥٥) بالفرنك الفرنسي (١٠٥) •

	السنة	الثمن بالفرنك	الثمن الحقيقي بحسب أجر العامل في الساعة
عربة يجرها حصانان وتسع شخصين مسافرين بالاضافة لسائق	١٧٢٥ـ١٧٥٥	٣٩٧ر١٥	٤٩٦٠
	١٧٥٦ـ١٧٩٠	٣٤٢	٣٨٠٠
	١٧٩٨ـ١٨٤٠	٣٤٠	٢٠٠٠
	١٨٤٠	٣٤١	١٧٩٠
عربة ذات أربعة جياد وتسع ثلاثة مسافرين بالاضافة الى كمية كبيرة من الحقائب ، وبها سائق أو اثنان •	١٧٢٥ـ١٧٥٥	٥٣٠	٦٦٢٠
	١٧٥٦ـ١٧٩٠	٤٥٦	٥٠٦٠
	١٧٩٨ـ١٨٤٠	٤٧٩	٢٨٢٠
	١٨٤٠	٤٨٢	٢٥٤٠
عربة ذات أربعة جياد تسع أربعة مسافرين ، بالاضافة الى حقائبهم والى سائقين •	١٧٢٥ـ١٧٥٥	٧٦٤	٩٥٨٠
	١٧٥٦ـ١٧٩٠	٦٧١	٧٤٦٠
	١٧٩٨ـ١٨٤٠	٦١٤	٣٦١٠
	١٨٤٠	٦٣٤	٣٣٤٠
النقل بالسكك الحديدية (الدرجة الثالثة) •	١٨٤١	٤١ر٣٥	٢٣٠
	١٨٧١	٤٨ر٥٠	٢٢٠
	١٩١٠	٣٥	١٠٦
	١٩٥٥	٤٤٦٠	٢٧

---

(١٠٤) A. Demangeon : Géographie de la France (économique et humaine A. Colin, T. II V. I.

(١٠٥) J. Fourastié, Documents pour l'histoire et la théorie des prix, T I

المطلب الخامس - تطور أعمال البنوك :

لم يكن النظام الاقتصادى الجديد ، بحاجة فقط ، الى الاختراعات والاكتشافات ووسائل النقل ، بل وأيضا الى الأموال اللازمة للاستثمار وتنظيم عمليات الائتمان ٠ وقد رأينا من قبل(١٠٦) ، ان رؤوس الأموال كانت قد تراكمت في أوربا ، وخصوصا بفضل الفتوحات الاستعمارية واستغلال الدول المستعمرة ، لذلك ، كان الأمر يتطلب ، على وجه الدقة ، توجيه تلك الأموال الى القطاع الاقتصادي الجديد (قطاع الصناعة) ، وتمويل العمليات الاستثمارية في هذا القطاع ٠ تلك كانت بالطبع مهمة البنوك(١٠٧) ٠

---

(١٠٦) راجع ما سبق ، ص ١٦ وما بعدها ٠

(١٠٧) بالنسبة لتطور البنوك ، راجع على وجه الخصوص :

M. Lévy - Leboyer : Les banques européennes et l'industrialisation internationale dans la première moitié du XIX siècle P.U.F. Paris 1964.

Gaéton Pirou : Le Crédit (T. I. Vol. 4 du Traité d'economie politique de G. Firou et M. Byé) - Sirey - Paris 1943.

David S. Landes : "Vieille Banque et nouvelle Banque" Revue d'histoire moderne 1956.- No. 3 - p. 204.

Rapports entre systèmes bancaires et entreprises industrielles dans la croissance européène au XIX siècle. Colloques internationaux du C.NR..S. (sciences humaines).

"Lindustrialisation en Europe au XIX siècle" Cartographie et typologie.

Lyon (7-10 Octobre 1970). - Publié sous la direction de "P. Léon, F. Crouzet et Cascon" - éd. du C.N.R.S. - Pairs 1972 pp. 125 et ss.

بالنسبة لتطور البنوك في انجلترا :

G.'M. Clapham : The Bank of England, a history - 2 Tome - 2 éd. Cambridge 1964.

A. Dauphin Meunier : La Banque (Allemagne Angleterre France) Gallimard Pairs 1935.

Bertrand Gille : La Banque et le crédit en France (de 1815 a 1848) P.U.F. Paris 1959.

بالنسبة لتطور البنوك في فرنسا :

J. Bouvier : Un siècle de banque francaise, les contraintes de l'Etat et les incertitudes des Marchés - Hachette - Paris 1973.

على ان البنوك ، في بداية الثورة الصناعية ، لم تستطع ان تجارى التطور الحاصل في هذا القطاع الاقتصادى الجديد . فقبل بداية القرن التاسع عشر ، كانت القروض محدودة للغاية . ذلك ، ان تحريم الكنيسة للقروض بفائدة أو الربا (حوالى عام ٢٠٠ ميلادى على يد القديس كليمنت الاسكندرى) ، وصيرورة هذا التحريم مذهبا رسميا للكنيسة ، كان قد ترك أثره على أعمال البنوك حتى القرن الحادى عشر ، حين أخذ الناس يتحايلون على هذا التحريم سواء بطريق غير مباشر (كبيع الوفاء أو الشركة) أو بصورة صريحة(١٠٨) ، وأخذت حركة الاقراض بفائدة تعود وتنتشر وخاصة على يد الجماعات اليهودية والتجار الايطاليين، في كافة أنحاء أوربا ، واشتهرت بعض العائلات بقيامها بعمليات « تجارة النقود » كعائلة كور Coeur في فرنسا في القرن الخامس عشر ، وعائلة فوجر Figger بالمانيا ، وعائلة ميدسي Medicis بفرنسا .

ومع بداية القرن السابع عشر ، بدأت حركة انشاء البنوك فأنشيء بنك أمستردام Banque d'Amesterdam عام ١٦٠٩ ، وبنك انجلترا La Banque d'Angleterre عام ١٦٩٤ وبنك فرنسا La Banque de France في أواخر القرن الثامن عشر ، ولكن هذه البنوك ، لم تكن تقوم بوظائف البنوك في الوقت الحالى ، فهى تختلف عن البنوك الحديثة من ناحيتين :

الأولى : انها كانت في أغلب الأحوال ، بنوك ودائع ، لا تقوم بالاقراض الا للاشخاص المعروفين لديها شخصيا (وهم حفنة قليلة) ، ولم تكن تقوم بعمليات الاقراض وخصم الأوراق التجارية بصورة معتادة كما تفعل البنوك في الوقت الحالى .

الثانيــة : ان هذه البنوك لم تكن تستثمر أموالها في عمليات التجارة أو الصناعة ، انما كانت تكتفى باقراض الدول أو الملوك(١٠٩) .

---

(١٠٨) انظر فيما بعد ص ١١١ وما بعدها .

(١٠٩) والواقع أنه في أوائل القرن التاسع عشر ، كان لكل دولة كبرى « بنك وطنى » والى جانب مجموعة من البنوك الخاصة التى كانت تمول عمليات التجارة ولكن في نطاق للغاية وبحرص بالغ .

فمن البنوك الوطنية ، انشا كما سبق القول بنك انجلترا ، ثم انشا Nederlandsche عام (١٨١٤) في البلاد الواطئة ليحل محل بنك امستردام . وبنك سان شارل في مدريد Saint - Charles ، والبنك الوطنى النمساوى Banque nationale d'Autriche عام ١٨١٧ ، وبنك فرنسا عام ١٨٠٠ وكانت أغلب تلك البنوك تهتم أساسا بالقيام بالعمليات اللازمة للدولة (اقراض ، طرح سندات القروض العامة ..) وتتمتع من ثم بحماية الدولة .

فالبنوك ، حتى أوائل القرن التاسع عشر ، كانت في أغلبها بنوكا خاصة (أو عائلية) ، تقتصر دائرة عملائها على الأشخاص المعروفين لديهم بصفة شخصية، وأغلبهم من كبار التجار الذين تتولى خصم الأوراق المالية لفائدتهم ، ويقومون بايداع اموالهم لديها .

ولكن التطور الاقتصادى ، كان يستلزم التوسع في عمليات البنوك ، بحيث لا تقتصر على ايداع الأموال وخصم الأوراق التجارية فحسب [110] ، بل ولتشمل أيضا الاقراض والضمان ، وطرح الأسهم والسندات وضمانها ، بل وحتى المشاركة في انشاء المشروعات الصناعية .

كل هذه العمليات ، كانت تستلزم « أنواعا جديدة من البنوك » يمكنها ليس فقط قبول ودائع كبار التجار ، بل وحتى ودائع صغار المدخرين ، بحيث تصبح وظيفة البنوك « جمع هذه المدخرات البسيطة والمبعثرة » وتوجيهها ناحية الصناعات الناشئة ليتسنى مد هذا القطاع الاقتصادى بالأموال اللازمة له . فالتحول المنشود، كان يرمى الى تحويل البنوك من مؤسسات ارستقراطية قاصرة على التعامل مع كبار التجار ، الى مؤسسات شعبية ، بمعنى أن تعاملها لا يكون قاصرا على فئة معينة ، بل تفتح أبوابها أمام أكبر عدد ممكن من الجمهور بقصد تجميع مدخراتهم وتحويلها الى القطاع الاقتصادى الجديد . لقد كان الأمر يتطلب « ثورة » في عالم البنوك ، على غرار الثورات الحاصلة في القطاعات الأخرى . وقد وقعت هذه الثورة ، وتطورت البنوك تطورا ملحوظا في الفترة من ١٨٥٠ ــ ١٨٨٠ ، وتنوعت البنوك »[111] .

= أما البنوك الخاصة ، فكانت في اغلبها ملكا لعائلات غنية ، تمتلك رؤوس اموال ضخمة ، وتعتمد على وتعتمد على نفوذ سياسي قوى : ففى كولونيا وفرانكفورت ، كانت عائلات Rothschild, Bleichroder, Hambo, Schroeder, Baring, Lazard والجدير بالذكر،أن بعض العائلات كانت تعمل في اكثر من دولة اوربية، منها مثلا عائلة Rothschild التى انتشر خمسة من أبنائها في خمس بلاد أوربية : ماير مشيل (الأب) في فرانكفورت ،ثم أبناؤه الأربعة سالومون Salomon في فيينا ، وشارل في نابولى ، وناثان في لندن وجيمس في باريس ، Lesourd, op. cit., note 1, p. 186.

(١١٠) بالاضافة لبعض العمليات الأخرى ، التى لم تكن تتصل بالاستثمار ، كتغيير العملات الأجنبية ، واصدار سندات تؤدى قيمتها لحاملها نقدا عند تقديمها (العملة الائتمانية La monnaie fudiciaire) وتوظيف السندات في البورصة .

(١١١) وقد قال هذه العبارة Jacques Lafitte وهو احد رجال المال الفرنسيين الذى ولد في بايون Bayonne بفرنسا عام ١٧٦٧ ، ولعب دورا هاما في ثورة ١٨٣٠ وشكل أول وزارة في النظام الملكى الفرنسي الذى أقيم بعد الثورة المذكورة .

فاعتبارا من عام ١٨٥٠ ، بدأت حركة تكوين البنـوك الكبرى ، التى تختلف عن سابقتها اختلافا جذريا ، سـواء من حيث الحجـم (بحيث كان البنك ينشيء العديد من الفروع في كافة الانحـاء حتى يصل الى متناول صغار المدخرين) ، أو من حيث أسلوب العمل (بحيث حرصت هذه البنوك على تقـديم أكبر قدر من الخدمات لعملائها بقصد تشجيعهم على التعامل معها واجتذاب مدخراتهم)(١١٢) ٠

وبدأت هذه البنـوك ، في تقديـم القـروض الطويلة الأجل الى القطـاع الاقتصادى الجديد ٠ ولكن هذه القروض كانت في البداية « عمليات استثنائية » نظرا لأن البنـوك لم تكن تقبل الودائع الا لأجل قصير ، فـلم يكن بامكانها منح قروض طويلة الأجل الا من رأس مالها الخاص ، أو من الاحتياطى الذى يتكون لديها ٠ وكانت هذه القروض طويلة الأجل تمنـح اما للحكومات ، أو للمشروعات الصناعية ، أو تتم في شكل مشاركة من البنـك في رأس مـال المشروع ٠

والواقع انه لا يمكن اعطاء شكل موحد للبنوك التى كانت تمارس القروض طويلة الأجل في أوربا ، فكل دولة كان لها تنظيمهـا « البنكى » بشـكل يختلف عن الدول الأخرى ، ولكن يمكن بصفة عامة التمييز بين نوعين من هذه البنـوك : اما النوع الأول فهى البنوك التى انشئت خصيصا لتشجيع بنـاء السكك الحديدية والمشروعات الصنـاعية ، والتى كانت تحصل على الأمـوال اللازمة لهذه القروض بواسطة الاقتراض من جماهير المدخرين ، أو من العمليات الجـارية للبنوك ، كالودائع وخصم الأوراق التجـارية(١١٣) ٠٠٠ الخ ٠ اما النوع الثانى من البنوك ، فكان البنوك التى تخصصت في قبول الودائع وخصم الأوراق التجارية(١١٤) ، ولكن هذه البنوك سريعا ما أغرتها عمليات الاقراض لأجل قصير ، ثم مع تطـور أعمـال البنـوك والتطور الاقتصادى عموما ، أخذت هذه البنـوك تدخل في عمليات الاستثمار الصنـاعى مباشرة ، بحيث لا تمنح قروضا طويلة الأجل فحسب ، بل في

---

(١١٢) فعلاوة على اذونات الصرف ، والشيكات التى كانت تصدرها هذه البنوك لعملائها الجدد، «كانت تقدم لهم الخزائن الحديدية المؤجرة ٠ وتقرضهم بضمان الاسهم والفوائد والبضائع ٠ وتقـدم القروض للمضاربين في البورصة لآجال قصيرة ، وتتولى خصم الاوراق التجارية ٠٠ الخ » ٠
Lesourd. op. cit., note 1, p. 188.

(١١٣) ومثالها بنك الـ Société génerale في بلجيكا ، ومجموعة البنـوك العقارية التى اسسهـا الاخوان Pereire في فرنسا ، وبنك الـ Krédit Anstalt في فيينـا ، وبنوك التسليف الصناعى في المـانيـا Banques de crédit industriel .

(١١٤) ومثالها الـ Société génerale في فرنسا ، والكريدى ليونيه Crédit Lyonnais وبنـك Quatre D بالمـانيا ٠

الغالب ، تشارك مباشرة في اقامة مشاريع صناعية ، فما ان يحقق المشروع نجاحا ، حتى يقوم البنك بتحويل حصته الى اسهم ويتولى بيع جزء منها اما لعملائه أو للجمهور ، ويحتفظ البنك بالجزء الباقي من الأسهم ، فيضمن بذلك المشاركة في ادارة المشروع الصناعي • كذلك فان هذا النوع الثاني من البنوك ، كان يتولى عمليات اقراض الدولة التابع لها ، أو يشترك في تمويل القروض العامة المطروحة من دول أجنبية •

وكما سبق أن قلنا ، فان تطور البنوك في الدول الصناعية ، لم يتم على وتيرة واحدة أو على شكل واحد ، لذلك يتعين دراسة تطور البنوك ، في أهم تلك البلاد ، كل على حدة •

البند الأول ـ تطور البنوك في انجلترا :

وكما كان لانجلترا السبق في عالم الاكتشافات والنقل والزراعة ، كان لها أيضا السبق في عالم البنوك والبورصة • فقد نجحت انجلترا في اختراع كل شيء « من الآلة البخارية حتى شبكة المؤسسات البنكية المتطورة »(١١٥) •

فلقد ظل بنك انجلترا ، يقوم وحده بأغلب العمليات البنكية من قبول الودائع وخصم الأوراق التجارية ، والاقراض (الى جانب بيوت الأموال الخاصة أو العائلية) حتى عام ١٨٢٦ حين أباح البرلمان انشاء بنوك ايداع على شكل شركات مساهمة Les joints stocke Banks بشرط ان تعمل تعمل هذه البنوك على بعد ٦٥ ميلا من لندن ، ولكن هذا الحظر سرعان ما أزيل عام ١٨٨٣ ، بحيث صار بالامكان انشاء بنوك أخرى داخل لندن ، الى جانب بنك انجلترا : لذلك ، وصل عدد البنوك في انجلترا عام ١٨٨٤ ، ١٠٥ بنوك منها خمسة بنوك في لندن وحدها ، واستطاعت هذه البنوك الجديدة في وقت قصير ان تستوعب كل البنوك الخاصة ، ووصل عدد البنوك في انجلترا عام ١٩١٤ الى ٦٢ بنكا لها ١٧٨٢ فرعا في كافة أنحاء المملكة •

---

(١١٥) Lesourd, op. cit., note I, p. 190.

وكانت هذه البنوك الجديدة مقسمة الى أربع مجموعات ٠

المجموعة الأولى : وهى التى عرفت باسم The joint stock Banks ومن بينها أكبر خمسة بنوك في انجلترا وهى (١٨٢٦) National and Provincial Midland (١٨٣٦) - Westminster (١٨٣٤) Llyods (١٨٦٥) Barclays وقد تخصصت هذه المجموعة في قبول الودائع تحت الطلب ، والودائع لاجل قصير، وكان البنك يحتفظ بنسبة من هذه الودائع في حالة سيولة دائمة (١٠ ٪) ، ويخصص الباقى للقروض قصيرة الأجل ، ولم تكن هذه البنوك تشارك مباشرة في الاستثمارات الصناعية ، ولكنها كانت تعمل كوسيط في اصدار أسهم المشروعات الصناعية ٠

اما المجموعة الثانية Les Bill Brochers et les Discount Houses فهذه البنوك كانت تتولى على وجه الخصوص ، خصم الأوراق التجارية ، ثم تعيد خصمها لدى بنوك المجموعة الأولى ٠ وينبغى التفرقة في داخل هذه المجموعة الثانية بين نوعين : الأولى وهى البنوك التى تعمل برؤوس أموال شخصية أو عائلية مثل (١٨١٩) Cunliffe son and Co. Hohler and Co. (١٨٢٠) ٠ اما النوع الثانى ، فهى البنوك التى قامت على شكل شركات مساهمة مثل Alexander Discount, National Discount, Union Discout,

وعلى الرغم من أن الفارق بين سعر الخصم ، واعادة الخصم ، كان فارقا ضعيفا ، الا أن هذه البنوك استطاعت تكوين أرباح ضخمة ٠

اما المجموعة الثالثة Les Merchant Bankers et les Acceptant houses فكانت من بنوك الأعمال ، بحيث كانت تتولى ، نيابة عن المشروعات الصناعية مناقشة شروط القروض وفوائدها ، وتتدخل كضامنة لهذه القروض ، وقد ساعدها على ذلك طيب سمعتها ٠

وكانت هذه البنوك تشارك في اصدار السندات الخاصة بالقروض العامة والقروض اللازمة لانشاء السكك الحديدية ، كما كانت هى نفسها تشارك احيانا في التمويل المباشر لبعض المشروعات الصناعية سواء في انجلترا أو في الخارج ٠

اما المجموعة الرابعة ، Les Colonial et Foreign Banks فكان نشاطها منصبا على وجه الخصوص في خارج انجلترا ، سواء في المستعمرات الانجليزية بصفة خاصة أو في البلاد الأجنبية بصفة عامة ٠

والواقع ان الصناعة الانجليزية ، كانت تتطور على نحو مطرد ، مرتكزة في تطورها على سوق دولية واسعة ، بحيث كان يندر ان تكون هذه الصناعات في حاجة الى قروض طويلة الأجل • وعلى الرغم من ذلك ، تكونت بعض « البيوت المالية » التى لم تكن بنوكا بالمعنى الدقيق ، وانما كان أصحابها رجال أعمال مضاربين ، يتولون توجيه أموالهم ناحية الاستثمارات المجدية في البلاد البعيدة ، كمناجم الذهب والماس ، أو المحصولات الزراعية ذات العائد المرتفع •

وقد ظل سوق الأوراق المالية في لندن أنشط الأسواق العالمية وأشهرها حتى عام ١٩١٤ ، معتمدا في ذلك على أربعة عناصر :

١ ــ جدية البنوك ومؤسسات الإقراض في إنجلترا •

٢ ــ شبكة من العملاء المنتشرين في كل ارجاء العالم يمكنهم امداد البنوك بالمعلومات الدقيقة والشاملة حول امكانيات تطور صناعة من الصناعات ، أو عائد استغلال أحد المناجم ، أو مدى النجاح المنتظر لاحدى شركات النقل ٠٠ الخ •

٣ ــ السرعة التى كان يتم بها منح القرض ، على الرغم من التحريات الدقيقة التى كانت تجرى قبل منحه •

٤ ــ توافد الأموال الأجنبية باطراد على البنوك الانجليزية وبورصة لندن نتيجة لأن هذه الأموال سريعا ما كانت تجد توظيفا مثمرا ذا عائد مرتفع ومضمون •

ولقد ترتب على ذلك ، وفرة في الأموال السائلة زادت عن حاجة الاستثمار بانجلترا ، لذلك سرعان ما وجهتها البنوك الانجليزية الى الخارج ، في أوربا أولا ، ثم في كافة أنحاء العالم اعتبارا من ١٨٥٠ ، بحيث كان جزء من هذه الأموال يوظف في المشروعات ذات العائد السريع والمضمون في بعض الأقاليم والمستعمرات التابعة لانجلترا ، كالسكك الحديدية والصناعات المعدنية في كندا ، والسكك الحديدية وصناعات القطن والجات وزراعة الشاى في الهند ،واستغلال مناجم الذهب والماس في جنوب أفريقيا • أما الجزء الآخر من هذه الأموال ، فاستثمر في بلاد كانت الشركات الانجليزية تساهم في استغلال مواردها : كشركات السكك الحديدية في البرازيل والارجنتين ، وفي تركيا وأفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومناجم المعادن في ماليزيا وبوليفيا ، وحقول البترول في المكسيك وروسيا ، ورومانيا ايران(١١٦) •

---

(١١٦) Ibid, p. 192.

البنـد الثـاني ـ تطور البنـوك في فرنسـا :

وفي فرنسـا ايضا ، يمكن القول انه قد وقع نوع من التخصص في اعمال البنوك ، ابان تطورها لمسايرة الثورة الصناعية • وتنقسم البنـوك الفرنسية في هذا الصدد الى مجموعتين رئيسيتين • اما المجموعة الأولى ، فهي مجموعة بنوك الأعمـال Les banques d'affaires وتقوم البنوك في هذه المجموعة بعمليـات استثمار مباشر في القطاعات الاقتصادية الجديدة ، أو في التجارة • سواء في ذلك في المشروعات الوطنية (داخل فرنسا) او خارجها ، كمشروعات السكك الحديدية ومشروعات الكهرباء ، والبترول •• الخ • والواقع أن هذه المجموعة من البنوك ، كانت مرتعـا لمضـاربات كبيرة ، انتهت بالكثير منها الى الافلاس ، وكانت قصص تكوينها وانقضـائها تثير الدهشـة الى درجة أوحت الى الـكاتب اميـل زولا Emile Zola قصته الشهيرة النقود L'Agrent [١١٧] ولعل اشهر هذه البنوك

---

(١١٧) ولعل من اهم هذه القصص هى قصة عائلة Les Pereire فرب هذه الأسرة Jacob Rodrigues Pereira (١٧١٥ ـ ١٧٨٠) كان يهوديا برتغاليا عاش في فرنسا في عهد لويس السـادس عشر ، وعمل مترجمـا لدى الملك • وقد نشـا ابنه اسحاق Isaac في مدينة Bordeaux عند عم من اعمـامه ، وعمل مندوب تامين ، ولكنه توفى تاركا وراءه ثلاثة ابنـاء هم : Jacob Emile (١٨٠٠ ـ ١٨٧٥) Mardochée Thélèphe (١٨٠٣) ، و Isaac (١٨٠٦ـ١٨٨٠) وقد اتجه الاول والثالث الى العمل في باريس ، فاشتركا في البداية في عدة مشروعات صناعية ، خاصة في السكك الحديدية ونجحا على الاخص في تكوين شركة Saint-Germain للسكك الحديدية •

وقد اتجه الاخوان لانشاء بنـك يسـاهم في تدعيم مشروعاتهـم الصناعية ولكنهم لم يـكونوا يمتلكون اموالا كافية لذلك ، لذلك فقد شرعا منذ ١٨٥١ في تكوين بنك على شكل شركة مساهمة يتكون راسمالها من ٤٠ الف سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك (سرعان ما اشتريت هذه الاسهم وتضاعفت قيمتها في البورصة) ، وقد عرف البنك باسم Société générale de credit Mobilier وسرعان ما اتسعت اعمال البنك (رغم معارضة روتشيلد وبنك فرنسـا) : وشملت في فرنسـا : المشاركة في السكك الحديدية ، وفي شركة الغـاز بباريس ، وشركة الاوتوبيسات بباريس آيضـا ، الخ ، كما حاول الاخوان Pereire مد نشاطهم خارج فرنسا ، ولكن محاربة روتشيلد لهم ، لم تمكنهم الا من تحقيق نجـاح جزئى في كل من اسبانيـا وايطاليـا حيث نجحـا في انشـاء فـروع لبنكهما ببـاريس • ولكن نشـاطهما لم يكتب له الاستمرار لانه في عام ١٨٦٣ أفلس احـد البنوك التابعة لهم La Société Immobilière فلجا الى بنك فرنسا لطلب قرض ، ولكن هذا الاخير أجبرهـم على الاعتـزال وعهـد الى مصف بتصفيـة أعمالهـم عام ١٨٦٣ •

Lesourd, op. cit., 1, p. 125.

كان بنك باريس والبلاد الواطئة • La Banque de Paris et des Pays-Bas
وكان هــذا البنك يركز نشــاطه في مجــال الصــناعات الجــديدة ، ويقوم بتوظيف أمواله فيها ، كصناعات الكاوتشوك ، والبترول ، والصناعات الكيمائية ، ومحطات توليد الكهرباء ، ومحطات الاذاعة • وكذلك بنك الاتحــاد الباريسي (١٩٠٤) La Banque de l'Union Parisienne الذى كان يستثمر على وجه الخصوص خارج فرنسا ، في المشروعات الصناعية أيضا ، كمشروعات السكك الحــديدية في بوينس ـ ايرس ، وبنك الرهونات الفرنسي الأرجنتيني (١٩٠٥) Banque hypotécaire Franco-Agrentine وشــركة ترامــواى شنغهــاى (١٩٠٦) ، وصــندوق التنمية العقــارية والصنــاعية في البــرازيل (١٩٠٩) ••• الخ(١١٨) •

اما المجموعة الثانية من البنوك ، فكانت بنوك الاقراض Les établissements de crédit التى سرعان ما اتضحت الحاجة اليها ، نظرا لما سبق قوله ، من ان المجموعة الأولى من البنوك ، كانت في الغالب « تضارب » ، مما جعل رجــال الصناعة يستشعرون الحاجة الى بنوك تقوم بتقديم الخــدمات اليهم ، وتمدهم برءوس الأموال اللازمة للاستثمار •

ولعل أول هذه البنوك كان بنك التسليف التجارى والصناعى Le crédit industriel et commercial والذى كان الهــدف من انشــائه تشــجيع الاستثمارات الصناعية والتجارية ، وتم انشاؤه على شكل شركة مساهمة وكان أقرب ما يكون للبنوك الانجليزية المعروفة باسم The joint stock Bank ثم أنشيء بنك الكريدى ليونيه عام ١٨٦٣ Le Crédit Lyonnais وقــد أنشيء لتلبيــة طلبــات المشروعات الصــناعية من قروض في منطقــة ليون سانت ـ اتيين Lyon - Saint-Etienne ثم أنشيء بنك الـ Société génerale عــام ١٨٦٤ من اجل تشجيع الاستثمارات التجارية والصناعية في فرنسا ، ولكنه لم يقصر نشاطه على داخل فرنسا ، بل امتد نشاطه الى خارجها ، وخاصة في روسيا بواسطة فرعه (بنك الشمال Banque du Nord)(١١٩) •

---

(١١٨) ومن ضمن مجموعة هذه البنــوك أيضا ، بنــك l'Union Générale وهــو بنك ذو نزعة دينية كاثوليــكية ، انشــأه مهنــدس فرنسي كان يعمــل بالسكك الحديدية بالنمســا ويدعى Eugène Bontoux وقد انشا هذا البنك عــام ١٨٧٨ ، وقد اتسعت اعمــال البنك ، بسرعة ، وخاصة للمكانة التى كان يحتلها اغلب عملائه ، وقــام بانشاء العــديد من الفــروع له في فرنســا ، كمــا شــارك في انشاء شركات للسكك الحديدية تابعة لفرنسا • ولكن رغم اتســاع اعماله ، فان العديد منهــا كانت تقوم حوله الشــبهات حتى انه لم يســتطع نتيجة لذلك ، شراء اسهمه في البورصة منعا من تدهورها ، وتوقــف عن الدفع عام ١٨٨١ وقبض على مؤسسه Bantoux وترتب عليه الاضرار بالعديد من صغار المدخرين الكاثوليك •
Lesourd, op. cit., note 1, p. 196.

(١١٩) Ibid. pp. 197 et 198 .

البنـد الثـالث ـ تطور البنـوك في باقي دول القـارة :

كما سبق القول ، فان البنوك وعملياتها ، تطورت في أوربا على نحو مختلف، من دولة الى أخرى • فاذا كنا قد رأينا ، في انجلترا وفرنسا ، نشأة مجموعات من البنوك المتخصصة ، فالأمر لم يكن كذلك في باقي دول القارة • فقد أطلق على البنوك التى أنشأت في باقي دول القـارة (في وقت متأخر نسـبيا) Universalen Bank أى بنك كل الأعمـال Banque à tout faire وقد عملت البنوك هـذه على القيام بكل العمليات اللازمة لتمويل القطاع الاقتصادى الجديد ، وقامت البنوك على هذا النحو في كل من ألمانيا ، والسويد، والنمسا ، والمجر، وسويسرا وروسيا•

ففى ألمانيا ، قامت روابط وثيقة بين هذه البنوك الجديدة ، وبين رجـال الصناعة ، بحيث بدأت هذه البنوك في أول الأمر تمد الصناعات الناشئة بقروض قصيرة الأجل ، ثم سرعان ما تحولت الى القروض متوسطة الأجل • وتجاوز الأمر ذلك الحد حين بدأت البنوك تصدر أسهما للمشروعات الجديدة بضمانها ، واما أن تبيعها للجمهور أو تحتفظ بها لنفسها (أى يشارك البنك في المشروع الصناعى) ، بحيث ان رجـال البنوك صار أغلبهـم أعضاء في مجال ادارات المشروعات الصناعية والمنجمية • فقد اتضح من التطـور الاقتصـادى ، ان بيـوت المـال القديمـة Mendelssohn. Bleichnoder, Rotschild في المانيا لم يكن بامكانها الخروج من نطاق القروض العامة قليلة المخاطر ، الى نطاق الاستثمارات الصناعية ، وأمام عجزها ، بدأ انشاء البنوك التى تقوم بكل العمليات اللازمة لتطور الصناعة • ففى عـام ١٨٥٥ ، أنشيء أول أكبر أربعـة بنـوك في ألمـانيا ، والتى أطلق عليهـا "Les quatre D" وهى Darmstadter Bank (١٨٥٥) Diskontogesellschaft (١٨٥٦) و Deutsche Bank (١٨٧٠) وأخيرا Dresdner Bank (١٨٧٢) وقد حققت هذه البنوك نجاحا كبيرا واستطاعت جذب مدخرات العملاء بتقديمها فائدة مرتفعة على المدخرات ، أكبر من تلك التى كانت تقـدمها بنوك انجلتـرا وفرنسا ، واستطاعت هذه البنوك نتيجة لذلك ، تقديم مساعدات مالية ضخمة لمشروعات صناعية هامة[١٢٠] •

---

(١٢٠) كانت نسـبة الفـائدة التى تقدمهـا هـذه البنـوك تتراوح بين ٢ ٪ (للودائع تحت الطلب) و ٢٫٥٠ ٪ (للودائع باجل لمدة شهر على الاقل) و ٢٫٥٠ ٪ (لودائع لمـدة ثلاثة اشهر على الأقل) وقد سـاهم بنك Deutsche في مشروعات السكك الحديدية في تركيا وشركة الترام في اسطنبول • اما بنـك Diskontogesellschaft فقـد شارك في مشروعات السكك الحديدية في المانيا ، و فنزويلا والصين ، والنمسـا والمجـر •

اما بالنسبة للنمسا والمجر ، فحتى عام ١٨٥٥ ، لم يكن فيها سوى بعض البنوك الخاصة التابعة لعائلات غنية مثل Funstenberg. Schwarzemberg أو بعض رجال الصناعة الذين كانوا يقومون بعمليات البنوك • وفي سنة ١٨٥٥ ، أنشيء أول بنك من البنوك النمساوية الكبرى ، بمساعدة Rothschild بقصد منع عائلة Preire من مد نشاطها الى النمسا • ولكن سوق الأموال النمساوية ، ستعرف اضطرابا شديدا وخاصة بعد انهيار بورصة فيينا في ٩ مايو ١٨٧٣ ، وافلاس بنك Lunderbank (عام ١٨٨٤) ، مما سيجعل رجال المال يحجمون عن تقديم القروض للمشروعات الصناعية • ولكن النشاط البنكى سيجدد مرة أخرى في النمسا والمجر اثر انشاء البنك النمساوى المجرى (١٨٩٢) وقيام الحكومة بتخفيض مديونيتها ، مما سيعيد بعض الثقة ويجدد نشاط البنوك في الاقراض[121] •

= والواقع أن البنوك الالمانية تميزت بانها اعطت دفعة قوية للمشروعات الصناعية ، بحيث انصبت اولى اهتمامات البنوك الكبرى الالمانية وخاصة Les quatres D على الاستثمار الصناعى ، وبالمشاركة المباشرة في هذه المشروعات • بحيث ان اغلب رجال البنوك كانوا اعضاء في مجلس ادارة اغلب المشروعات الصناعية الكبرى • كما يوضح ذلك الجدول الآتى : (جدول رقم ٨) •

اسم البنك	عدد المقاعد التي يحتلها رجال البنوك الألمان في مجال ادارات المشروعات الصناعية الكبرى	
Darmstadter Bank	١١٧	١٤
Deutshe Bank	١٣٥	٢٤
Dresdener Bank	١٠٨	١٢
Dishonto gesellschaft	١٣٣	١٠
Berlinerhandelogesellschaft	١٠٧	١٦
Shaafhausensche Bankverein	١٤٣	٦
المجموع	٧٤٣	٨٢

---

(١٢١) انظر Lesourd, op. cit., note 1, p. 200.
Bernard Michel : Banques et Banquiers en Autriche au début du XX siècle.
Presses de la Fondation nationale des sciences politiqués - Paris 1976

أما بالنسبة للسويد وسويسرا ، فقد أنشئت أيضا بها بنوك حديثة ساعدت على تمـــويل المشروعات الصـــــناعية بهـــا : ففى الســــويد أنشي بنك Stokholms Enskilda Bank (١٨٥٦) وفي سويسرا أنشــى بنــك Banque fédérale de Berne (١٨٦٣) وقد ساهما في مد المشروعات الصناعية ، بالقروض اللازمة ٠

البند الرابع ـ تطور البنوك في كل من اليابان والولايات المتحـدة الأمريكية :

يمكن ان نتناول هذين البلدين ، من حيث تطور البنوك فيهما ، معا في دراسة واحدة ، نظرا لأن كليهما ، عرف تنظيما للبنوك مختلف تماما عن تنظيم البنـوك في أوربا ٠

فحتى عهد Meiji لم تكن اليابان بحاجة الى أكثر من التجـار الذين يمارسون اقــراض بالربا ، كما في كل أنحاء آسيا آنذاك ٠ ولكن كانت هناك طبقة في اليابان من الاثرياء ، امكنها ان تمول أول قرض حكومى قامت بطرحه حكومة اليابان عام ١٨٧٣ ، من أجل قيام الحكومة بالتجهيزات الاولية اللازمة للصناعة (طرق ، سكك حديدية ٠٠٠ الخ) ٠ ومن بعد ١٨٧٣ ، صار القرض الحكومى يتجدد سنويا ، ويخصص في أغلبه لبنـاء السكك الحديدية ٠

ولكن اعتبارا من عام ١٨٨٠ صار ملحوظا نقص رؤوس الأمـوال اللازمـة للصناعة ، وغياب البنوك الحديثة ، فقد كان لابد من أجل جذب المدخرات الخاصة الى المؤسســات من منظمة تقبل الودائع وتقوم بمنـح القروض اللازمة للقطاع الصناعي ٠ وقد قام بهـذه المهمة في البداية ، صـندوق توفير البريد في اليابان Le Caisse d'Epargne postale اعتبارا من عام ١٨٧٤ (حيث كانت فروعه منتشرة في كافة أنحـاء اليابان وبلغ عددها حوالى ٢٨٠٠ مكتب في ١٨٩٠) ، والى جانبه كانت بعض بنـوك الادخـار الخاصة تعمل أيضا على تجميع المدخرات (وقد بلغ عددها ٦٧٠ عام ١٩٠٠) والى جانب بنك اليابان (الحكومى) انشأت حكومة اليابان عام ١٨٨٠ بنـك La Yokohama Speci Bank الذى تخصص في المعاملات المالية مع الدول الأجنبية ، كما انشأت أيضا عام ١٨٩٦ بنك الرهن العقارى الذى كان يعقد القروض طويلة الاجـل La Banque hypothécaire بضمان العقـارات ، من أجـل تنشيط القطاعين الصناعى والتجـارى ، في عام

١٩٠٠ انشـأ البنك الصـناعى الذى تخصص في مد المشروعات الصناعية بالقروض طويلة الاجـل وبضمان الأسهم والسندات ٠

وهكذا يتضح ان تنظيم البنوك في اليابان كان تنظيما مركزيا ، وهو عكس تنظيم البنـوك في الولايات المتحدة الأمريكية ، فحتى عام ١٩١٣ تاريخ انشـاء The Federal reserve system لم يكن للولايات المتحـدة بنك مركزى ، بل اكثر من ذلك ، لم يكن في استطاعة بنوك الولايات المتحـدة الأمريكية ان تقبل أو تخصم كميالات المصدرين والمستـوردين الأمريكيين ، وكان يتعين على هؤلاء اللجـوء الى البنـوك الانجليزية ، مما يدلنـا على مدى خضوع الولايات المتحـدة للسيطرة التجارية لبريطانيا طوال القرن التاسع عشر ٠

وحتى عام ١٨٦٣ لم يكن هناك بنك فيدرالى واحد في الولايات المتحـدة ، مما دفع الى اصدار قانون « البنك الوطنى » National Bank Act من أجل تشجيع انشاء البنوك الوطنية ، التى يمكنها بفروعها ونطاق أعمالها ، ان تمتـد ليشـمل نشاطها كل أنحاء الدولة ، وترتب على ذلك ان وجد في الولايات المتحدة ثلاثة أنواع من البنوك ٠

أولا : البنوك الوطنية The National Banks وكان أولها The first National Bank وبلغ عددها ٦٩٠٠ عام ١٩١٣ ، وكانت تقـوم بكافة الأعمال المصرفية ، في فروعها المتعددة ٠

ثانيـا : بنوك الولايات The State Banks ، التى ازداد عددها بشكل ملحوظ وباطراد ، فمن ١٤٤٦ عام ١٨٦٣ ارتفع عددها الى ١١٫٠٠٠ عام ١٩١٣ ٠

ثالثـا : البنوك الخاصة The Trust Companies et Private Banks

وهى في الغالب بنوك محلية أو بنوك « أحياء » تقـوم بعمليات تحويل العمـلات الأجنبية ، وخصم الأوراق التجـارية ، وبعضها من بنوك الأعمال وثيقة الصـلة بالمصالح والأعمال التجارية والصناعية ، مثـال ذلك بنوك J.P. Morgan. Kaht et Loeb. Spencer, Speyer الذين لعبوا دورا هاما في اغلب المفاوضات والصفقات التى أدت الى انشاء الترست أو الكارتل في مختلف فروع الصناعة ٠

والواقع أن انشاء البنوك المحلية وبنوك الأحياء يرجع الى التسهيلات التى منحت بموجب قانون Currency Act عام ١٩٠٠ ، حيث كان يكفى توفير مبلغ ٢٥ ألف دولار لانشاء بنك في المدن الصغيرة ، وضعف هذا المبلغ لانشاء بنك في المدن الكبرى ٠

المبحث الثاني ـ العوامل الاجتماعية والفكرية والسياسية :

استعرضنا في المبحث السابق ، العوامل « الاقتصادية » التى أدت الى وقوع الثورة الصناعية • وهذه العوامل ، دون أدنى شك ، تعتبر ذات أهمية قصوى ، ولكنها وحدها لم تكن كافية لقيام الثورة الصناعية • فالى جانبها كان لابد من عوامل أخرى « غير اقتصادية » تساعد على وقوع هذا الانقلاب التاريخى ، ونقصد بها على الأخص ، العوامل الفكرية والسياسية والدينية والاجتماعية ، فهى بدورها ذات أهمية قصوى ، بحيث كان لابد ان تلتقى بالعوامل الاقتصادية ، لاحداث الثورة الصناعية[١٢٢] •

فوقوع الثورة الصناعية ، على النحو الذى وقعت به ، كان يقتضي التقاء مجموعتين من العوامل : العوامل الاقتصادية ، والعوامل الفكرية والسياسية والاجتماعية ، بحيث تساهم هذه المجموعة الأخيرة في خلق فكر جديد وعقلية جديدة يمكنها استيعاب الأحداث والوقائع الاقتصادية الجديدة ، والعمل على تطويرها ، وهو ما لم يكن ممكنا الا اذا حدث تحول في الأفكار وتبدلت العقلية البشرية عما كانت عليه في ظل النظام الاقطاعى •

هذه العقلية الجديدة ، كان لابد من ان تغير نظرتها للثروة واستخدام النقود ، وعلى الأخص طرق استعمالها وقيمتها الاجتماعية • هذه العقلية الجديدة، هى ما اصطلح الكتاب على تسميته بـ « العقلية الرأسمالية » • هذه العقلية « الجديدة » ، هى التى مكنت من استغلال الاحداث الاقتصادية ، في احداث الثورة الصناعية ، ولذلك يصف البعض النظام الرأسمالى بأنه « مجموعة » من

---

(١٢٢) راجع في هذا الصدد :

L. Epztein : l'économie et la morale aux début du capitalisme industriel en France et en Grande-Bretagne - A. Colin - Paris 1966.

J. Lower : Les idées et moeurs au siècle de l'optimisme (184-1914) Flammarion - Paris 1969.

Maurice Niveau : Histoire des faits économiques contemporains Themis "Sciences économiques" P.U.P. Paris 1976.

Henri Denis : Histoire de la pensée économique Thémis "Sciences économique" - 5 éd. Paris 1977.

العوامل الذهنية والفكرية والأخلاقية التى تعطى الأولوية ، دون جدال للعائد من استخدام « رأس المال »(١٢٣) .

هذه المقدمة ، تحتمل الاسترسال في بيان مضمونها ، وهذا هو موضوع المبحث الثانى من هذا الفصل ، ولكن قبل ان نشرع في بيان خطة البحث ، نود ابداء ملاحظتين أساسيتين ، فيما يتعلق بالعوامل « المعنوية » التى أدت الى حصول الثورة الصناعية .

اما **الملاحظة الأولى** ، فهى مالفت نظر الكتاب من وقوع الثورة الصناعية اولا في تلك البلاد التى استطاعت في وقت مبكر القضاء على الأمية لديها (او بالاصح تخفيض نسبة الأمية بين أفراد الشعب الى أكبر حد) . فهذه الملاحظة توضح لنا حقيقة أساسية . ألا وهى ان العبرة في تقدم الشعوب ليست بعدد جامعاتها ولا معاهدها العليا والمتخصصة ، (فهذه المؤسسات لا تهم الا نسبة ضئيلة من الناس) ، ولكن العبرة الحقيقية في تقدم الأمم تتوقف على الوسائل المتاحة لجعل التعليم في متناول أيدى القاعدة العريضة من الشعب ، أى ما يعرف بـ « تعليم الجماهير L'instruction de masse » وعلى الأخص ، تعليم القراءة والكتابة ومحو الأمية ، فهذا النوع من التعليم هو الذى يمكن الأفراد من الاطلاع ويفتح أمامهم آفاقا جديدة ، وبقدر ما يسمح لهم ، بالاطلاع على المجلات والجرائد والكتب المختلفة ، يتيح لهم القدرة على التفكير وفرصة الابداع والاختراع . ولعل قولنا هذا ليس مبالغا فيه ، اذا نظرنا إلى موجة الاختراعات التى شهدتها السنين الاولى للثورة الصناعية ، فاغلب هذه الاختراعات لم تقم على أسس ودراسات علمية متخصصة في معاهد فنية أو مؤسسات جامعية ، ولكنها جاءت من لدن صناع مهرة لا يمتلكون غير قدراتهم في الصناعة ، ومقدرتهم على القراءة والكتابة التى أتاحت لهم فرصة الوقوف على التجارت والأسس العلمية التى قامت عليها مخترعاتهم(١٢٤) .

ولعل هذه الملاحظة الأولية ، تفسر لنا « جزئيا » تقدم انجلترا وفرنسا سبقهم في المجال الصناعى : فقد استطاعت الأولى ، منذ مطلع القرن الثامن عشر أن تخفض نسبة الأميين لديها الى أقل من ٦٠ ٪ ، ولحقت بها فرنسا حوالى عام ١٧٨٠ . وهو ما يفسر لنا أيضا تاخر بعض البلاد الأوربية الأخرى مثل

---

(١٢٣) A Piettre, op. cit., note 6, p. 39.

واحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ١٨ .

(١٢٤) راجع ما سبق ص ٣٠ وما بعدها .

ايطاليا وأسبانيا وروسيا ، حيث لم تستطع هـذه البـلاد الوصول الى تحقيق سياسة « التعليم الالزامى » الا في أواخر القرن التاسع عشر(١٢٥) ٠

اما الملاحظة الثانية فمؤداها ، ان التيار الفكرى الذى سبق وعاصر الثورة الصناعية ، كان منصبا في مجمله على تحرير الانسان من العوائق الدينية والفكرية والسياسية التى كانت تكبله وتخضعه لمجموعة من القيود تطغى على حرية تفكيره وعلى حريته الشخصية ، فتمثلت عناصر الثورة الفكرية في تحقيق هذه الحريات المفقودة : حرية العقيدة وحرية الفكر ، وحرية العمـل ، والحريات الشـخصية والسياسية بصفة عامة ٠

بمعنى آخـر ، تمثلت الثورة الفـكرية الجديدة بكل أبعـادها ، في تحقيق « الحرية الفردية » وجعل الفـرد ، نتيجة لذلك ، هو محـور « المجتمع الجديد » و « الأفكار الجديدة » ٠

وقد كان هذا الاتجـاه ، تحـولا كبيرا في الأفـكار السـائدة ، وعلى كافة المستويات : فعلى الصعيد الفلسفى ، سيصبح الفرد هو « معيار الحقيقة » ولا تعدو هذه النظرية الفلسفية ان تـكون أحياء لفلسفة السفسطائيين اليونان : « الانسـان هو معيار كل شيء » l'homme est la mesure de touts وهى في الوقت نفسه تمهيد للمذهب الفردى في العصور الحديثة « كل انسان يرى الحقيقة بطريقته الذاتية » ٠ فالفلاسفة الجدد يرفضون الافكار القديمة ، القائمة على أساس ان الحقيقة واحدة بالنسبة للجميع ، ويقررون أن الحقيقة مسألة شخصية ، تتوقف على آراء الفـرد واعتقـاده الفردى ٠ ولهذه الفلسـفية « الفـــردية » انعكاسها على الصعيد السياسي ، فطالما رفضت فكرة « الحقيقة المطلقة » واصبح من حق كل فرد ان يرى الحقيقة بنفسه ، يكون له أيضا الحق في التعبير عن هذه الحقيقة بحسب ما يراها ، أى يكون له « حرية التعبير » ، وما يترتب عليها من أن تصبح المجتمعات والافكار السائدة فيها محلا للمناقشة والنقـد ٠

هـذه « الفردية » الفلسفية والسـياسية ، كان لابد ان تنعكس حتى على الصعيد الاقتصادى ٠ فالقيمة الحقيقية للاشياء لن تعود الى ذاتيتها ، فالقيمة الـذاتية Valeur - qualité ستحل محلها قيمة أخرى للشيء ، نابعة من مـدى « الطلب عليه » فتحدد قيمة الأشياء بمدى الطلب عليها Valeur - désir ، بحيث يصبح « الأفراد » المستهلكون هم الذين يتحكمون في تحديد قيمة الأشياء ٠

وحتى على نطاق الأفكار الدينية ، ستتأكد هذه النظرة الفردية ٠ فحركة الاصلاح الدينى وعلى الأخص حركة جون كالفان Jean Calvin ساعدت على تأكيد معنى الفردية ، حيث أكد كالفان ان مصير كل انسان مقدر سلفا من قبل الرب ، الأمر الذى يعنى « تفريد » العاطفة الدينية (الايمـان) وفصلها عن أى احالة خارجية (الشروح) والسماح لكل فرد بتفسير النصوص المقدسة طبقـا

---

(١٢٥) Rioux. op. cit., note 5, p. 50.

لضميره ، والقول بأن نجاة كل فرد انما تكمن في الاعتقـاد الذى يحمله ، وهو ما يعنى تمجيد الفرد واعلاء شأنه الى حد لم يعرفه من قبل ٠

وهكذا تضافرت كل العوامل الفكرية والسـياسية والفلسفية والاقتصادية لتأكيد المذهب الفردى(١٢٦) ٠

هذه « الفردية » كانت المحور الأساسي ، الذى دارت حوله الأنظمة الاقتصادية في العصر الصناعى ، فالنظام الاقتصادى الرأسمالى كان قوامه « الحافز الفردى » ، ولم يكن من الممكن لهذا الحافز ان ينطلق ، ليبنى النظام الاقتصادى الجـديد لولا مكانة الفرد في المجتمع ، وصيرورة الفرد هو مركز اهتمام النظام ومحور كل الافكار الجديدة(١٢٧) ٠

وبذلك ، بزغ الى الوجـود عصر « المصلحة ونهمها الى تحقيق الربح وتراكم رأس المـال » ٠

---

(١٢٦) ولذلك ، يمكننـا أن نتبين بسهـولة ، الارتبـاط بين التيـارات الفكرية السياسيـة والفلسفية والاقتصادية ، اذا ما استعرضنا أهم المؤلفات في هذه المجالات ، اعتبارا من عام ١٧٤٨ ، حيث نلاحظ توازيا بين المؤلفات السياسية والفلسفية من جهة ، والاقتصادية من جهة أخرى ، هذا التوازى يسير بنـا نحو الحرية الفردية والليبرالية الاقتصادية ٠

١٧٥٠ : Cantillon : essai sur le commerce.	١٧٤٨ : Montesquieu esprit des lois
1) Articles dans l'Encyclopédie (Fermiers, Grains) ... 2) Tableau économique	١٧٥١ : Commencement de l'Encyclopédie
١٧٧٦ : Adam Smith : La richesse des nations Condillac : Traité sur le commerce et le gouvernement	١٧٧٢ : J. J. Rousseau : Contrat social
١٧٩٨ : Malthus : essai sur la population ١٨٠٤ : J. B. Say : Traité d'Economie politique ١٨١٧ : Ricardo : Principes de léconomie et de l'impot.	١٧٩٧ : Concordet : le tableau du progrès humain.
١٨٤٨ : Stuart mill : Principes - etc.	١٨٣٠-١٨٣٢ : A. Comte : Cours de philosophie positive
١٨٥٠ : Bastiat : Harmonies économiques.	١٨٤٥: Renan : avenir de la sciece
المصدر : A, Pittré, op. cit.,note 6, pp. 69 et 70.	

هذه الصورة وان القت الكثير من التساؤلات حول مدى توافقها و « القواعد الأخلاقية » ، كما كان ينكر عليها بحق كارل ماركس ، الا اننا لا يمكننا ان نتردد للحظة حول تقدير ضرورتها وأهميتها في بناء النظام الاقتصادى الجديد ، اذ لولا هذه « الانانية » ولولا هـذا « الحافز الفردى » لما امكن للنظام الاقتصادى الجديد ان يوالى تطوره ٠

يتضح لنا مما سبق ، ان مجموعة من العوامل « المعنوية » ساهمت في خلق العقلية الرأسمالية ، واحداث الثورة الصناعية ، وسنتولى دراسة هذه العوامل ، بالتفصيل ، واحدا تلو الآخر ٠

فنبدأ أولا بما وقع من تطور في عهد النهضة وما ساهمت به هذه الفترة من جذب الانتباه والفضول الى الظواهر المادية والفنية والطبيعية ، فاعتبرت بحق مقدمة « علمية وفنية » لعصر الثورة الصناعية ٠ (**المطلب الأول**) هذه النهضة تجلت أكثر ما تجلت في « شكل حب عميق للحياة » ، وما ترتب عليه من الدعوة الى الرخاء المادى والثروة ٠ ولكن هذه الافكار الجديدة التى جاءت لتحارب الأفكار الاقطاعية القائمة على التقشف واخضاع أوجه النشاط المادى لقواعد اخلاقية ودينية صارمة ، لم يكن من الممكن لها ان تنتصر لولا ان سارت حركة الاصلاح الدينى في نفس الاتجاه ، بحيث ساعدت هذه الحركة الدينية على تغير النظرة الى العمل والربح (**المطلب الثانى**) ٠

---

(١٢٧) وقد أكد العديد من الكتاب اهمية الحافز الفردى في النظام الاقتصادى الجديد ٠ فكتب Bentham عام ١٧٨٩ يؤكد « ان العامل الذى يجب الاعتماد عليه هو العامل الاقوى تاثيرا والدائم ، والمستمر ، والعام بالنسبة لكل الاشخاص ، هذا العامل هو الحافز الفردى ٠ ان اى نظام اقتصادى قائم على غير هذا العامل ، انما يقوم على رمال متحركة ٠
Le motif sur lequel on doit le plus compter est celui dont l'influence est *la* plus puissante, *la* plus continue, *la* plus uniforme, *la* plus durable et la plus générale : ce motif est l'intérêt personnel. Un système économique fondé sur toute autre base repose sur du sable mouvant."

وكتب Mac Culloch يقول « ما من شعور في الانسان يمكنه ان يقوى عزيمته ويشحذ ذكاؤه الا الشعور بالمصلحة الفردية ، فهذا الشعور يلقى بالحماس لدى أبسط الناس ٠ »
"Nul sentiment dans l'homme ne tient son intelligence éveillé autant que l'intérêt personnel. Il donne l'esprit aux plus simples".
L.E. psztein, op. cit., note 122, pp. 57 et 61.

هذه الاخلاقيات الجديدة ، لم يكن من الممكن لها ان تنتصر الا اذا وجدت المناخ السياسي الملائم ، فقد جدت مجموعة من العناصر السياسية ساعدت على ازدهار الأفكار والاخلاقيات الجديدة ، ونعني على الأخص بذلك ، ازدهار مبدأ « القوميات »(**المطلب الثالث**) .

هذه التحولات ، على الصعيد الفكري ، والاخلاقي والديني والسياسي ، انعكست كذلك على صعيد الافكار الاقتصادية ، فكان ان ظهرت الى الوجود المذاهب الليبرالية الاقتصادية لتؤكد في النطاق الاقتصادي ، ما انتهى اليه المفكرون في ميادين العلوم الانسانية الاخرى ، من ضرورة تحرير الفرد واطلاق العنان للحافز الفردي (**المطلب الرابع**) .

ولكن هذا العرض ، للعوامل الفكرية ، لا يكتمل الا باضافة عامل اجتماعي مهم ، له أثره الذي لا ينكر في أحداث الثورة الصناعية ، الا وهو زيادة عدد السكان (**المطلب الخامس**) .

المطلب الأول ـ عصر النهضة : أثره في التمهيد للثورة الصناعية (١٢٨) :

يعتبر عصر النهضة ، هو مرحلة الإنتقال بأوربا من العصور الوسطى ، الى العصر الحديث • والواقع ان عصر النهضة يعتبر بداية عهد جديد في تاريخ أوربا ، انتقل به الناس من « ظلمات » القرون الوسطى الى عالم جديد يسوده أفكار جديدة فتحت أمام أوربا أبواب التقدم • فالنهضة هي « تفتح عجيب للحياة بأشكالها المختلفة » وهي « تدفق من الحيوية آثار البشرية الأوربية فتبدلت على أثره حضارة أوربا بأكملها »(١٢٩) •

---

(١٢٨) عن عصر النهضة الأوربية راجع باللغة الفرنسية :

Rouland Mousnier : Le XVI et XVII siècles - T. IV : de l'histoire générale des civilisations - P.U.F. Paris 1967.

Jean Babelon : La renaissance artistique, scientifique et littéraire Civilisations, peuples et mondes. "la renaissance" — Publié sous la direction de Roland Mousnier — Lidis Paris 1966—1978.

وباللغة العربيـة انظر :

ـ زينب عصمت راشد واحمد عبد الرحيم مصطفى •

« اصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الاوربية الى الثورة الفرنسية »

كتاب مترجم ـ مراجعة « عزت عبد الكريم » • دار المعارف ـ القاهرة • ١٩٦٢

ـ عبد الرحمن زكي : حضارة عصر النهضة (مؤلف مترجم)

مؤسسة فرانكلين للطبـاعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦١ •

ـ محمد بدران : النهضة الاوربية •

كتاب مترجم ـ تاليف سيدني دارك ـ القاهرة ١٩٤١ •

ـ عبد الحميد البطريق : تاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينـا •

ـ الموسوعة التاريخية الحديثة ـ دار الفكر الحديث ـ لبنان ١٩٦٨ •

(١٢٩) Histoire générale des civilisations (T. IV) op. cit., note 128. pp. 14 et ss.

Jean Babelon, op. cit., note 128. pp. 14 et ss.

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٧٥ وما بعدها •

عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٤ وما بعدها •

والواقع ، ان العصور الوسطى ليست منقطعة الصلة تماما بالعصور الحديثة، فالتاريخ متصل(١٣٠) ، ولكن هذا التقسيم انما تأتى من التحول الملحوظ الذى أحدثه انبثاق العصر الحديث بما حمل من نهضة وتقدم في الاذهان ، بحيث اعتبر « عصر النهضة » دليل الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة(١٣١) ، وتمثلت النهضة أساسا في رغبة التخلص من الأفكار القديمة التى كانت تكبل الانسان . ويقتضي تفهم عصر النهضة ان نستعرض بايجاز الأفكار السائدة في العصور الوسطى ، لنبين ماهية المقصود بعصر النهضة ، ثم نستعرض التحولات التى حدثت في هذا العصر على نطاق العلوم والآداب والفنون .

البند الأول ـ الافكار السائدة في العصور الوسطى :

باستعراض الأفكار السائدة في القرون الوسطى ، يتضح لنا ان مدى التقدم الذى حققه الفكر الأوربى في عصر النهضة ، فاهتمام أوربا بالعلوم والآداب، لم ير النور الا في خلال القرن الثانى عشر ، حيث بدأ الاتصال بين حضارة الشرق والغرب وبدأ عصر الترجمة ، حيث ترجمت علوم اليونان عن العرب وتأثر المجتمع بالفلسفة اليونانية القديمة . ولكنهم في تلك الفترة كانوا يدرسون العلوم كما وردت دون اثباتها علميا ، وهذا هو الفارق الأول بين عقلية العصور

---

(١٣٠) وهذا التقسيم في الواقع انما قصد به تسهيل عرض التاريخ وتعليمه ، وهو لا ينطبق مع الواقع الا من بعيد ، لأن تاريخ البشرية مستمر ، لا يقف عند حد ، بل هو سائر في طريقه ، كالماء الجارى الدائم الجريان .

وتشمل العصور الوسطى الفترة التى بدات بسقوط الدولة الرومانية الغربية على أيدى البرابرة بعد منتصف القرن الخامس الميلادى واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر . (وهو تحديد تقريبى) ومن خلال تلك القرون حدثت تغيرات هامة في المجتمع الاوربى . واول هذه التغيرات هي تلك التى حدثت بسبب محاولة رجال العصور الوسطى اصلاح ما افسدته غزوات البرابرة والعمل على استقرار الاموال بعدما حدث من فوضي وارتباك ، فكان عليهم ان يخرجوا اوربا من هذا المعترك الصاخب ليصلوا بها الى حياة هادئة نسبيا .

عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٣ وما بعدها .

(١٣١) والواقع ان استخدام اصطلاح عصر النهضة يرجع في اصله الى كل من Michelet عام ١٨٥٥ و Burkhardt عام ١٨٦٠ ومن بعدهم استخدم المؤرخون اصطلاح عصر النهضة للدلالة على فترة من التاريخ الحديث تتميز بخصائص محددة وتفرق بين الحالة الفكرية التى كانت سائدة في العصور الوسيطة والعصور الحديثة .

Histoire générale des civilisations T. IV. op. cit., note 128, p. 14 et s.

الحديثة : فأهل العصور الوسطى كانوا يأخذون العلوم على علاتها وشعارهم في ذلك «اعتقد لأفهم» ، أما عندما أشرفت العصور الوسطى على الانتهاء، فقد سادت الفكرة القائلة بأنه « لا يجوز الاعتقاد في شيء قبل فهمه » ٠ وعلى ذلك بدأت العقول تتحرر ، واتجه الناس الى نقد ما كان شائعا في العصور الوسطى حتى في الدين نفسه : فقد وجد من ينقد الكنيسة ، فظهر الهراطقة الذين تعرضوا لتعاليم الكنيسة بالنقد ، ونمت روح النقد هذه في أوائل العصر الحديث ، ونتج عنها حركة الاصلاح الدينى البروتستانتى ٠

اما الفارق الثانى في الحياة الفكرية بين العصور الوسطى ، ومطلع العصور الحديثة ، فيتمثل في الدور الذى لعبته الكنيسة في الحياة الثقافية والعلمية : ففى العصور الوسطى ، كانت الكنيسة وحدها هى ملاذ الثقافة والتعليم ، ولذلك أصطبغت الثقافة في العصور الوسطى بالصبغة الدينية ٠ فقد كان العلماء في تلك العصور هم أنفسهم رجال الدين ، وما يقوله رجال الدين حينئذ يتقبله الناس ، وما يرفضونه يرفضه الجميع ، وكل تعاليمهم مسلم بها لا تقبل النقض ولا تحتمل الجدل ٠

وحتى الجامعات التى أنشئت في أواخر العصور الوسطى ، كان يغلب عليها الطابع الدينى ، فالبابوات هم الذين اصدروا قرارات بانشائها ومدها بالمال والتسهيلات ، وكان طابع الدراسات فيها دينيا ٠

ولقد ترتب على تسلط الكنيسة على أوجه الثقافة والعلم ، ان تميزت الأخلاق بالتقشف والسلبية واخضاع أوجه النشاط المادية لقواعد اخلاقية ودينية صارمة واحتقار الثروات ووضع الفرد في تدرج طبقى جامد ٠ لذلك ، فان المثل الاعلى في حركة النهضة قد تمثل في تحرير الفرد والدعوة الى بذل أقصى طاقة ممكنة في أعمال التجارة والمال والنجاح فيها والبحث عن الثروة والرخاء المادى من أجل « الاستمتاع بالحياة » ٠

البند الثانى ـ مفهوم « النهضة » :

حضارة النهضة La renaissance ، هى في ترجمتها الحرفية تعنى « البعث الجديد » أو « الولادة الجديدة » وهى تدين باسمها لايمان « الانسانيين» بأنهم « يبعثون » الحياة في الحضارة اليونانية الرومانية ٠

والنهضة صنيعة نمو البورجوازية والرأسمالية والملكية المطلقة : ظهرت بادىء ذى بدء في العصر الوسيط في المدن التى تشكل بناؤها الاقتصادى والاجتماعى على أساس رأسمالى ونمت ظواهرها الأدبية والفنية والعلمية في أوساط المتمولين الذين أثروا بالتجارة والصناعة والمصارف ، وفي ظل الملوك المستبدين الذين استطاعوا فرض مجتمع جديد قائم على التوسع الاقتصادى ، وجلبوا المال بالضرائب والقروض واقاموا حاشية ضخمة . فالنهضة اذن هى ثمرة « البلاطات والأكاديميات والحلقات والصالونات » .

لذلك ، كان من الطبيعى ان تظهر حركة النهضة في بدايتها في المدن الايطالية الغنية ، وذلك قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وان تنقل هذه النهضة من ايطاليا الى باقى دول أوربا[١٣٢] .

فقد تفتحت مظاهر النهضة ونمت في مدن ايطاليا التجارية الكبرى في فلورنسا حيث انطلقت حركة النهضة حول أسرة آل ميدتشي[١٣٣] Les Mèdicis وغيرها من اسر التجار وأصحاب البنوك التى كانت تنافسها الجاه وتعقد الاجتماعات الأدبية وتنشيء الاكاديميات ، وكذلك بدت معالم هذه النهضة في البندقية بلد الارستقراطية التجارية ، وفي ميلانو حول أسرة سنورزا ، وفي العديد من المدن الايطالية الأخرى .

---

(١٣٢) وقد استدعى انتقال مظاهر النهضة الى باقى دول اوربا وقتا ليس بقصير ، فانجلترا مثلا لم تظهر بها آثار النهضة الا في الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، ونظرا لانتقال النهضة من ايطاليا الى غيرها من الدول الاوربية في بطء شديد فقد طال عصر النهضة من اوائل القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر ، بل ان أثرها لم يظهر في بعض الدول الاوربية الا في اوائل القرن السابع عشر .

(١٣٣) وقد تمكنت اسرة مديتشي من الاستيلاء على الحكم في فلورنسا في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، عندما تمكن احد رؤسائها « كوزيمودى مديتشي » عام ١٤٣٤ ان يقوم بثورة ضد الحاكم ويؤسس جمهورية توالى على حكمها رؤساء من تلك الاسرة .

وكان اشهر من حكم من اسرة ميدتشي هو لورنزودى مديتشي (١٤٦٩ — ١٤٩٢) الذى كان ملقبا بلورنزو الفاخر ، الذى طار صيته في انحاء أوربا ، واشتهر بانه راعى النهضة الفنية . فقد كان شاعرا يحب الشعر ويجمع من حوله الشعراء والفلاسفة والفنانين . وبلغت فلورنسا في عهده قمة مجدها وشهرتها في الادب والفن .

... ولقد كانت النهضة في هذه المدن مسألة طبيعية ، ذلك ان ايطاليا كانت الوسيط التجارى بين الشرق والغرب[١٣٤] ، واستطاع التجار الايطاليون نتيجة لذلك ان يحققوا أرباحا طائلة ويكونوا ثروات ضخمة مكنتهم من اقراض البابوات والأمراء ما يحتاجون اليه من المال ، فلما كثرت الأموال بين أيدى التجار ، ازدادوا تعلقا بالترف والرفاهية ، وصاروا يتبارون في اقتناء انفس ما تخرجه أيدى الفنانين من تحف فنية ، مما شجع أهل الفن على الاستزادة من استغلال مواهبهم وابتكار المزيد من روائع الفنون ، وعلى الأخص تلك الرسوم النادرة التى رسموها بالزيت تمثل صورا بشرية تنطق ملامحها بمختلف الانفعالات وضعت على أسس أكثر واقعية ومطابقة الحقيقة ، وكانوا يستعينون في احكامها ببعض العلوم التى تقدمت في عصر النهضة كالرياضيات التى تعينهم على حساب قواعد الرسم المنظور وعلم التشريح ، فجاءت صورهم تكاد تنطق بالحياة ، حتى أصبح تعبيرها عن الأشخاص يكاد يكون تصويرا للواقع ، ويفوق كثيرا ما كانت عليه فنون الرسم من قبل .

لقد حاول التجار والأمراء في المدن الايطالية ، ان يخلعوا على حياة القصور والبلاطات كل « رونق وأبهة وجمال » فتجلى فيها البذخ والذوق والرفاه ، وكانت اللذة هدفا وغاية ، بحيث يقضي الوقت فيها بالأعياد والمآدب والحفلات والرقص والموسيقى والألعاب والمساجلات ... »[١٣٥] .

---

(١٣٤) فقد تكونت في المدن الساحلية الايطالية (مثل بيزا وجنوا والبندقية) شركات تجارية كانت سفنها تبحر الى الاسكندرية ويافا وعكا والقسطنطينية لجلب البضائع الشرقية من حرير الاصباغ والتوابل والرقيق الذى لم يكن محرما في الاسواق الغربية ، ثم كان الايطاليون ينقلون الاصباغ والتوابل والدقيق الذى لم يكن محرما في الاسواق الغربية . ثم كان الايطاليون ينقلون بضائعهم عبر جبال الالب الى فرنسا والمانيا ، ومنذ القرن الرابع عشر عندما تقدمت الملاحة عبر البحار كان الايطاليون ينقلون بضاعتهم عبر مضيق جبل طارق الى انجلترا والبلاد الواقعة على سواحل بحر الشمال .

وقد تمكن الإيطاليون بذلك من تكوين ثروات طائلة ، سواء في تلك المدن الساحلية أو للمدن القريبة من ممرات الالب ، لأن تلك الممرات ساعدتها على نشر تجارتها في اوربا .

(١٣٥) نور الدين حاطوم ، المرجع السبق الاشارة اليه هامش ١٢٨ ، ص ٧٩ ، وعبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٢٨ ، ص ١٠ وما بعدها .

ولقد كانت احدى مظاهر النهضة ، وأهم هذه المظاهر ، هي فكرة احياء التراث القديم أو كما سماها المؤرخون حركة « أحياء العلوم »(١٣٦) .

وقد عرف المشتغلون بهـذه الدراسات باسم الانسانيين Doctrine des humanistes de la Renaissance لأنهم كانو يهتمون بدارسة الانسـان نفسه ، وهو ما يعتبر شيئا جديدا في التاريخ البشري ، فقـد تناست العصـور الوسطى انسانية الانسان ، واهتمت فقط بصفاء روحه وقربه من الله ومن هنـا تفشت أفكار التقشف والصوم واذلال الجسد ، وتجلى ذلك بأوضح معانيه في ظهور الرهبنة ، ولم يجـد الفن له منطلقا في تلك العصور أو الاهتمام بالانسان في الادب أو الفنون .

ولقد اتخذت عبارة « الانسانيين » ، معنيين :

أما المعنى الأول ، وهو المعنى الواسع ، فيقصد به كل من تبنى المثل الأعلى للنهضة وشغف بالآداب والفنون القديمة ، اما المعنى الثاني ، وهو المعنى الضيق ، فيقصد به أناس مثقفون منبثقون عن البورجوازية ، كنسيون ، اساتذة جامعات ، أطباء وموظفون ، يعبرون عن نزعة المجتمع ويجهزونه بأدواته الفكرية ، ويدخلون في حماية الأمراء ويتقاضون رواتبهم منهم ويقومون بالدعاية لهم(١٣٧) .

---

(١٣٦) وقد ظهرت تلك الحركة في القرنين الاخيرين من فترة الانتقـال اى من عام ١٣٠٠ الى عـام ١٥٠٠ ، حيث اخذ المثقفـون في المدن يهتمـون بالتنقيب عن الآثار والمخلفات الأدبية اليونانيـة والرومانية القديمة ويحاولون دراستها والاستفادة منها .

وقد ظهرت حركة الانسانيين أول ما ظهرت في ايطاليا ، ومنها انتشرت في مـدن اوربا وخاصة في المدن الفرنسية والالمانية والهولندية .

Jean Babelon : la renaissance artistiques op. cit., note 128, pp. 14 et ss. et A. Piettre : op. cit., note 6, p. 40.

Histoire générale des civilisations, op. cit., note 128, pp. 44 et ss.

(١٣٧) والواقع ان الانسـانيين كانوا « رسل العالم القديم » يزعمون احياءه ، ويحاولون ان يبعثوه كعلماء ومؤرخين ، ويفهمونه بذاته ويتذوقون جماله الاغريقي ، وينفذون منه الى اسباب وجوده ، لقـد كان القـديم وسيـلة بالنسبة لهؤلاء الانسانيين ، لأنهم يريدون حيـاة أخـرى غير حيـاة العصر الوسـيط . واذا احبـوا القـديم فلانهم الفوا بغيتهـم . ولقد بلغ من حبهم الحيـاة ، واهتمـامهم بـ « الانسـان » ، ان صوروا انسان عصر النهضة على نحو مخالف لتصويرهم للانسـان قبل عصر النهضة . فانسـان عصر النهضة في نظرهم يجب ان يـكون معتدا وواثقا بنفسه وبقدرته على التغيير وتحقيق مثله العليـا ، كما انه فنـان وفيلسوف ، اخلاقي وسياسي ، محب للاطلاع باحث عن الشهرة بالابداع في أدبه وفنـه .

وقد اعتمدت حركة أحياء العلوم على دراسة المخطوطات الاغريقية واللاتينية التى بحثوا عنهـا في الكنائس والأديرة في شبـه الجزيرة الايطاليـة وفي الولايات الألمانية وغيرهما ، واهتم حكام الولايات الايطالية بايفاد باحثين ينقبون عنهـا ويشترونها ، وتنافسوا في سبيل الحصول على أكبر قدر ممكن من هذه المخطوطات .

ولكن حركة « الانسانيين » ، كما قلنا ، لم تكن الا أحد مظاهر النهضة ، التى تجلت مظاهرها الأخرى في ميادين الآداب والعلوم والفنون .

البنـد الثالث ـ النهضة الأدبية والعلمية والفنية :

(أ) **النهضة الأدبية** : ازدهرت الآداب منذ بداية عصر النهضة ، وكانت ترتكز على تقليد القدامى في كتابة القصـائد الغنائية ورسـائل الحب وتدبيج الملاحم والمآسي والمراثى والهجاء والاهتمام بجمـال الأسلوب وانتقاء الألفاظ . ومع ما أدخله كتاب النهضة من تعابير مأخوذة عن اللاتينية والأغريقية الا أنهم كانوا الى جانب ذلك يبتكرون ويضيفون على انتاجهم مسحة جديدة تميزت بها النهضـة الأدبية .

وتميزت هذه الآداب بأنها كتبت لتدخل السرور والاعجاب والتسلية على القارىء ولم تهتم بتعليمه أو وعظه ، ولاقى المسرح اهتماما كبيرا من أدباء النهضـة ، حيث أخذت الملهاة والمأساة تقومان مقام المسرحيات الدينية التى كانت من سمات الأدب في العصور الوسطى ، فكانت أكثر واقعية وأكثر التقـاء بالعواطف الحقيقية للانسـان .

وهكذا أصبحت الآداب قومية ، يعبر بها الأديب عن شخصيته وشخصية شعبه ، وقد بز الأدباء الايطاليون غيرهم من أدباء الشعوب الأخرى وتفوقوا عليهم في التعبير عن عاطفة الفن والبحث عن الجمال(١٣٨) .

= وكان الانسانيون يعبرون عن افكارهم باللغة اللاتينية ، وترفعوا عن الكتابة بالايطالية باعتبار ان اللغات القومية في نظرهم لم تـكن صـالحة للتعبير عن الأفكار الدقيقة ، وقد سـار على هذا النهج الكتاب الاولون لعصر النهضة امثال دانتي وبوكاشايو .

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٢٨ ، ص ٨٠ ، وعبد الحميد البطريق، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٢٨ ، ص ٢٠ .

(١٣٨) اما في فرنسا فقـد كانت عناية الادبـاء موجهة نحـو الابداع في النثر وتجلى ذلك في القصص والمذكرات والتحليل الخلقى والنفسي . وفي انجلترا ظهر المسرح المتنوع المليء بالمغـامرات والمغـامرات ، وتحليل الانسـان في خلقه وطبـاعه ، وفي اسبـانيا اهتم الادباء بعواطف الفروسيـة وأبرزوا المثل العليـا التى يتحلى بهـا الفـارس .
Histoire générale des civilisations, op. cit., note 128, pp. 196 et ss. et 254 et ss. et 299 et ss.

(ب) **النهضة الفنية** : تجلت روح النهضة باجلى مظاهرها ومعانيها في الفنون الجميلة ، وكانت ايطاليا مهد النهضة التى بدأت فيها مبكرة منذ القرن الخامس عشر ، ثم تطورت عندما بدأ الاهتمام ببعث الفن الكلاسيكى القديم وذلك في الثلث الأول من القرن السادس عشر ، حيث كشف عدد من الفنانين النقاب عن جمال الآثار القديمة واخذوا في محاكاتها في الروح والتعبير ، ولكنهم تميزوا ، في الوقت نفسه ، بالخلق والابداع ، وعبروا عن عواطفهم الشخصية ، حتى يمثل انتاجهم الفنى شخصيتهم المستقلة وروح العصر الذى يعيشون فيه ، وكان الموضوع الأساسي في الفن أيضا (كما في حركة العلوم والآداب) الانسان نفسه : والاهتمام بابراز قوته وسيطرته ومتعته ، بحيث لم يعد الفن نسخا آليا لقالب معين تفرضه سلطة الكنيسة ، وانما أصبح تعبيرا حرا في عقلية الفنان وعبقريته .

وقد لعبت المدن الايطالية دورها في سبيل تقدم الفنون ، لأنها كانت مركزا للحياة الفنية ، يتنافس حكامها على الظهور بمظهر رعاة الفنون ومالكى أكبر وأفخر مجموعة من النفائس الفنية الثمينة ، وكانت روما بطبيعتها على رأس المدن الايطالية التى أعلت الفن ورعت الفنانين ، فلها من تاريخها وآثارها ومجدها القديم ما جعل فنان النهضة ينهل من وحى الماضي وفكر الحاضر لكى يقتبس ويبتكر(١٣٩) .

وقد تميزت أعمال فنانى عهد النهضة بروح انسانية دنيوية ، بحيث كانت الرغبة في الكمال الفنى هى الاساس ، ثم يأتى التعبير الدينى على هامشها ،

---

(١٣٩) وقد ساعد الكثير من البابوات على ازدهار النضة الفنية في روما وتشجيع كبار الفنانين على اتخاذ روما محرابا لفنونهم ، فشيدت كنيسة القديس بطرس حيث تعاقب على تزيينها وزخرفتها كبار المعماريين والرسامين والنحاتين امثال المعمارى برامانته Bramant ، والرسام رفائيل وميشيل انجلو .

ومن اشهر البابوات الذين استدعوا اولئك الفنانين البابا جول الثانى (١٥٠٤ - ١٥١٣) والبابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) من أسرة مديتشي وفي عهديهما تم تزيين قصر الفاتيكان الذى تجلى فيه ابداع ما لدى رجال الفن من نبوغ وعبقرية وخيال .

ولم تقتصر رعاية الفنون على روما ، بل كانت ميلانو مهدا آخر لنشاط النهضة الفنية ، وكذلك حملت فلورنسا لواء النهضة وخاصة في عهد لورنزودى مديتشي الذى كان قصره بمثابة اكاديمية فنية ، حيث كان يؤمه عدد من الفنانين مهدوا الطريق امام نوابغ الفن في القرن السادس عشر .

Histoire générale des civilisations, T. IV, op. cit., note 128 pp. 64 et ss.

لذلك اهتموا بتوضيح العواطف الانسانية المختلفة بدلا من التزمت في اضفاء الجلال والتدين والمهابة على صور الأشخاص ٠

والواقع ان دراسة تطور الفن في ايطاليا ، وتصوير النهضة الفنية ، تقتضي دراسة حياة وانتاج أهم فناني هذا العصر[١٤٠] ، وان كان عدد الفنانين في عهد النهضة أكثر من ان يحصي ، فان أكثرهم شهرة كانوا : ليوناردو دافينشي[١٤١] (١٤٥٢ — ١٥١٩) Leonard de Vinci ومشيل أنجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤)[١٤٢] Michel-Ange ورافائيل (١٤٨٣ — ١٥٢٠)[١٤٣] Raphael (Raffaello Santi

---

(١٤٠) وتخرج هذه الدراسة في الواقع عن نطاق بحثنا ، فكل ما اردناه من دراسة عصر النهضة هو اثبات ما ادت اليه هذه النهضة من اذكاء روح الفردية ، مساهمة بذلك في تطوير الراسمالية الصناعية ٠ ولذلك نحيل بالنسبة لهؤلاء الفنانين الى الكتب المتخصصة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

Histoire générale des civilisations, T. IV, op. cit., note 128, pp. 27 et ss.
Civilisations, peuples, et mondes, "La renaissances", op. cit., note 128 pp. 14 et ss.

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه ١٢٨ ، ص ١٠١ وما بعدها ٠

عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٢٨ ، ص ٢٣ وما بعدها ٠

(١٤١) ولد ليوناردو في قرية فينشي بالقرب من فلورنسا عام ١٤٥٢ واليها ينتسب ٠ وقد كان ليوناردو بحق عالما ، برع في العديد من فروع العلم كالرسم والنحت والتصوير والتشريح وقد تنقل بين فلورنسا وميلانو ، قبل أن ينتقل الى فرنسا حيث مات عام ١٥١٩ ٠ ومن أشهر لوحاته : عذراء جروتو والعشاء الاخير ، والجيوكوندا (الموناليزا) ٠ وقد كرس آخر أيامه للدراسات العلمية ، فكان يكتب بلا انقطاع ويجمع في دفاتره نتائج تفكيره ودراساته ، وقد ترك من بعده كتابات ضخمة ضمنها الابحاث العلمية التي قام بها في حياته ، تعد بحق موسوعة علمية قيمة ٠

(١٤٢) Michelanglo Buonarroti ، رسام ونحات ومعمارى ، وشاعر ولد في Capresse بتوسكانيا بالقرب من فلورنسا أيضا ، وأهم آثاره في الرسم والنحت : تمثال موسي والاسيرين ، ورسم قبة سان بيير في روما ، وتمثال العذراء مع المسيح ، وقيامه بنحت ورسم سقف كنيسة سيستين (خلال اربع سنوات ونصف ظل فيها مستلقيا على ظهره) فكان عمله اعجوبة من اعاجيب الفن في التاريخ ٠ وله آثار اخرى في النحت كتمثال داوود العظيم المنحوت من الرخام والذى نصب امام قصر الامارة في فلورنسا ٠

(١٤٣) وقد ولد في اربينو Urbino ، ويعتبر ثالث الثلاثة الكبار لعمالقة الفن ٠ وقد تعلم من بيروجينو Pérugin ادراك الابعاد ، ومن ليوناردو أساليب توزيع الضوء والظل ، ومن ميشيل انجلو دراسة الجسد الانساني ، ولكنه فاق اساتذته في توزيع الألوان ٠ أهم أعماله الفنية مدرسة اثينا ، والسر المقدس ، اللذان تزينان قاعات الفاتيكان ٠

(ج) **النهضة العلمية** : كانت الحياة العلمية في العصور الوسطى مقيدة بقيود الكنيسة ، وبذلك كانت الكشوف العلمية نادرة ولم يستطع المشتغلون بالعلم أن يفكروا بطريقة فردية ، بل كانوا يعتقدون فيما قاله أسلافهم ، واضعين نصب أعينهم تطابق العلم بما ترضي عنه الكنيسة ، بينما كان بعض البابوات يحاربون أى دراسة حرة اذا لم تتماشي مع الدراسات الدينية .

على أن اتصال الأوربيين ، وعلى رأسهم الايطاليون ، بالحضارة الاسلامية منذ القرن الحادى عشر ساعد أوربا على ان تبدأ طفرة علمية هامة في القرن الثالث عشر ،وقد غزت الحضارة الاسلامية أوربا من خلال وصول العرب الى أسبانيا وجزيرة صقلية ، ومن خلال الحروب الصليبية ونزوح طلاب العلم من غرب أوربا الى مراكز الحضارة الاسلامية . وكانت تلك الاتصالات بداية لظهور التفكير العلمى الحر ، فقد كان العرب قد نهلوا من التراث الأغريقى ، فدرسوه ونقدوه وصححوه واضافوا اليه من نتائج أبحاثهم واكتشافاتهم .

ولم تكن تلك البداية نهضة علمية حقيقية ، انما كانت بذورا ترعرعت من القرن السادس عشر وبلغت أوجها في القرن السابع عشر وقد ساعدت الحركة الانسانية على ظهور النهضة العلمية ، فقد كان معظم علماء النهضة ينتمون الى تلك المدرسة ، ويهتمون بتحقيق النظريات العلمية ووصف ظواهر الطبيعة وصفا جديدا قائما على الملاحظة والعلوم الرياضية .

ففى علم الفلك ، ظهرت نظرية الفلكى كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣) Nicolas Copernic التى محت الفكرة القديمة بأن الأرض ثابتة والشمس والكواكب تدور حولها ، وأثبتت بما لا يدع مجالا للشك ان للأرض أن حركة دائرية كسائر الكواكب وانها تدور حول الشمس[١٤٤] كذلك شهد القرن السادس أيضا نهضة في علم الطبيعة (الفيزياء[١٤٥] والرياضيات[١٤٦] ، والطب ، والعلوم التجريبية[١٤٧] ، وعلم التشريح « الفيسيولوجيا »[١٤٨] .

---

(١٤٤) Histoire générale des civilisations, T. IV, pp. 54 et ss.

(١٤٥) ويعتبر جاليليو جاليلى (١٥٦٤ - ١٦٤٢) Galileo Gailiel هو مؤسس علم الفيزياء الحديثة في القرن السابع عشر . وهو عالم من علماء الطبيعة والفلك ، ولد في بيزا بايطاليا ، ويعتبر من مؤسسي المدرسة التجريبية ، وقد اكتشف قوانين حركة بندول الساعة ، وسقوط الاجسام ، كما اكتشف قوانين عدم الحركة ، وتوالى السرعة .

وقد كان أول من اكتشف « الميكروسكوب » الذي مازال يحمل اسمه الآن ، كاشفا بذلك عن تحركات النجوم ، ولكن هذا الاكتشاف كلفه محاربة الكنيسة له ، وارغامه على عدم تدريس =

وبالجملة ، فان عصر النهضة يعتبر عصر تحرر وانتقال من قيود العصور الوسطى ، وفيه أصبحت التجارب العلمية شرطا أساسيا لتثبيت قواعد العلم الصحيح ووضع النظريات في مستوى القوانين العامة • ولعل مما يميز العلم والعلوم في هذه المرحلة ، ليس فقط مدى ما وصلت اليه من تقدم بالقياس الى المرحلة التاريخية السابقة عليها ، ولكن أيضا ما أصبحت ترمي اليه المعرفة من اعطاء الانسان القوة اللازمة للتغلب على الطبيعة وتذليله لها هذه الفكرة التى عبر عنها بوضوح فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) Francis Bacon حين كتب في كتابه الشهير "Novum organum"

"Potentia et scientia in idem coincidunt"

أى ان « العلم والقوة لا ينفصمان » ، وهكذا تخلف فكرة « العلم للمعرفة » السائدة في العصور الوسطى ، فكرة جديدة مؤداها « العلم للسيطرة » • وهذه هى نفس الفكرة التى راودت ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) Rene Descartes في محاضرات عن منهج البحث Discours sur la methode عام ١٦٣٦ ، حين كان يتطلب ان يكون العلم وسيلة بين يدى الانسان « يتسلط بها على الطبيعة ويتملكها » •

= هذا الاكتشاف لطلابه • ولكن عند عودته الى فرنسا ، نشر عام ١٦٣٢ كل الحقائق العلمية المتعلقة باختراعه ، فصدر عليه الحكم باعتباره خارجا عن الديانة من قبل الكنيسة (١٦٣٣) •

Histoire générale des civilisations, op. cit., note 128 pp. 26 et ss.

(١٤٦) وفي نفس الوقت تقريبا كان الجهاز الرياضي آخذا في التكامل • فقد اكتشف الايطالى تارتاليا (١٤٩٩ ـ ١٥٥٧) Niccolo Fontana Tartaglia حل المعادلات المكعبية ، وطبق علم الرياضيات على العلوم العسكرية والمدفعية • ومن بعده وضع كاردان (Geralamo Cardan Cardano) نظرية المعادلات وفكرة عن حساب الاحتمالات ، واما الفلاماندى ستيفن (١٥٤٨ ـ ١٦٢٠) (Simonde Bruges) Stevin فقد اناب الكسور العشرية عوضا عن الستينية عام ١٥٨٥ ونشر جداول لحساب الفوائد المركبة والبسيطة ، وكانت لديه فكرة عن تحليل القوى وتوازى القوى •

Histoire générale des civilisations, T. IV : pp. 34 et ss.

(١٤٧) ففى هذه الفترة أيضا نمت علوم الكائنات الحية ، وظهرت ترجمة جالينوس اللاتينية عام ١٤٩٠ ثم طبعت نصوص جالينوس وهيبوقراط الاغريقية عام ١٥٢٦ و ١٥٣٦ •

ولكن الاوبئة الكبرى التى انتشرت في القرن السادس عشر ، دعت الى الملاحظة والتجربة دون الاعتماد على الاساتذة ، وهو ما مهد لظهور المدرسة التجريبية •

(١٤٨) وفي نطاق علم التشريح كان فيزال (١٥١٤ ـ ١٥٦٤) André Vesale هو من أعطى الصدمة الاولى بالتقاط الجثث وتشريحها وفي كتابه «تركيب الجسم البشرى» هاجم جالينوس =

وهكذا يتضح لنا أهمية عصر النهضة ، كمقدمة فنية وعلمية للثورة الصناعية ، فاعتبارا من القرن الرابع عشر ، حتى القرن السابع عشر حدث انعطاف كبير في ارتقاء العلوم . فخلافا للقصائد الدينية ، بدأت الدراسات تستند الى التجربة والمخبر ، واستطاعت الاكتشافات العلمية ان توطد أقدامها عبر صراع شرس ضد التصورات الاقطاعية والمحرمات الدينية ، وطفقت تتكون فلسفة جديدة أثرت في جميع ابعاد الحياة الاخلاقية والروحية ، من علم وأدب وفنون[١٥٠] .

لقد أطلق رواد عصر النهضة على تيارهم الايديولوجى اسم « المذهب الانسانى » ، فدلوا بذلك على انهم قد ارادوا الاشادة بالطابع العلمانى للحضارة الجديدة ، وتخلصها من قيود الاقطاع والكنيسة ، وبان « الانسان » الفرد كان يمثل بالنسبة لهذه النهضة ، القيمة الحقيقية .

ولكن هذه الثورة في التفكير والفن والآداب ، لم يكن ليكتب لهـا النجاح الا بتجرد العقول بالفعل من سيطرة الكنيسة ، وهو ما تكفلت به حركة الاصـلاح الدينى .

المطلب الثـانى ـ الاصـلاح الدينى :

لحركة الاصلاح الدينى أبعاد تتجاوز نطاق هذا البحث ، لذلك ، فلن نخوض في أسباب حركة الاصلاح ومظاهرها وتطورها ، فهذه الحركة قصد بها أساسـا اصـلاح الـكنيسة الكاثوليكية بعد ان كانت قد تجاوزت كل الحدود في ابتزازها لأموال الناس ، وبلغ هذا الابتزاز اوجه فيما عرف ببيع « صكوك الغفران » ، مما ترتب عليه ان توالت حركات المقاومة للكنيسة وتعددت مظاهرها[١٥١] .

= هجوما شـديدا . واكتشف الاسبـانى سرفيه (١٥١١ ـ ١٥٥٣) Michel Servet دوران الدم الصغير .

Histoire générale des civilisations. op. cit., note 126 p. 31 et ss.

(١٤٩) A. Piettre : op. cit., note 6, p. 40.

(١٥٠) والواقع ان عصر النهضة عرف أيضا ازدهارا للعلوم الاجتماعية والسياسية ، وخاصة في أيطاليا بعد ان تحرر الفكر فظهرت مفاهيم جديدة للانسان فظهر مفكرون درسوا اصـول الحـكم والسياسة والاجتماع ، اشهرهم ماكيافيلى ، الذى سنرجىء الكلام عنه الى حين بحث الافكار السياسية التى ساعدت على نمو الفكر الراسمالى ووقوع الثورة الصناعية .

(١٥١) والواقع أن حركة الاصلاح الدينى لها أبعاد روحية تخرج عن نطـاق بحثنا . ولفهـم هذه الابعاد يتعين ملاحظـة الحـالة التى كانت عليهـا الكنيسة في أواخر القرن الخامس عشر . فقد =

ولكن الذى يعنينا هنا ليس حركة الاصلاح في مجملها ، وانما فقط بعض جوانب هذه الحركة وعلى الأخص ، تلك الجوانب التى مهدت لظهور « الفكر الرأسمالى » • ففى هذا الصدد ، نجد الكتاب ، يربطون منذ قديم الزمان ، بين « البروتستانتية » و « النظام الرأسمالى »(١٥٢) ويعتبرون أن « كالفن » المصلح الدينى قد ساهم بأفكاره في تحرير القوى الانتاجية البشرية من الخرافات القديمة التى فرضتها عليهم تعاليم الكنيسة في العصور الوسطى ، وأعطى اشارة الانطلاق للفكر الرأسمالى •

لذلك ، فاننا سنقف عند جوانب الاصلاح الدينى التى تتصل ببحثنا هذا ، وعلى وجه دقيق عند افكار كالفن وحده ، (دون لوثر) ، المتصلة بنشأة الفكر الرأسمالى(١٥٣) •

= نشأ لدى الاوساط الدينية قناعة ترمي الى ضرورة اصلاح أصول الحكم والادارة في الكنيسة وفي طرق التثقيف الدينى سواء عن الاكليروس او عند المؤمنين • وكانت هذه الفكرة تدور حول نزعتين مختلفتين : الاولى مؤداها الاهتمام بمعالجة مساوىء الكنيسة ، والاخرى خاصة بتقوية الثقافة الدينية :

قد دارت أغلب حركات الثورة ضد الكنيسة الروحانية حول مسائل ثلاث :

١ — ان يكون من حق كل انسان ان يقوم بتفسير النصوص المقدسة وفقا لضميره •

٢ — أن يكون لجماعة « الاكليروس » طابع عالمى غير قاصر على روما •

٣ — ان نص الانجيل وحده هو الذى يعول عليه في التعاليم الدينية •

والواقع ان هذه الحركة ضد الكنيسة لم تأت من عدم ، بل كانت رد فعل ضد تصرفات البابوات الذين كان كل همهم جمع أكبر قسط من المال ، كي يستطيعوا تأمين نفقات بلاطهم الذى كان يعد أفخم بلاط في أوربا ، وهو ما يفسر فداحة الضرائب التى يفرضها البابوات والتجارة بالمناصب الدينية وبيع صكوك الغفران •

هذا وقد ساعدت حركة « الانسانيين » (سبق أن تكلمنا عنها في عصر النهضة) على تعضيد حركة الاصلاح ، فقد ظهر بين صفوفها أول من قام بالدراسة الانتقادية في النظم الدينية واصولها في تفسير الكتاب المقدس •

راجع في كل ذلك :

Jean Delumeau : Naisance et affirmation de la réforme de l'histoire et SES problèmes. P.U.F. Paris 1973. pp. 49. et ss.

(١٥٢) فلقد ربط بوسابيه (١٦٢٧ — ١٧٠٤) Pacques Benique Bosstiet (الكاهن والكاتب الفرنسي) في كتابه Histoire des variations des eglises protestantes بين البروتستانتية والرأسمالية ، منذ عام ١٦٨٨ •

وما زال النقاش حول هذا الموضوع محتدما حتى أيامنا هذه • فقد عاد Max Weber في أوائل هذا القرن فأحيا هذا النقاش في رسالته الشهيرة = "l'éthique protestante et l'esprit du capitalisme"

وفي هذا الصدد ، سندرس أولا المبادىء الاقتصادية العامة لدى كالفن ثم نرى كيف نقلها الى عالم التجارة والصناعة وكيف كان أول من اباح القرض بفائدة (البند الأول) ثم ندرس بعد ذلك كيف استطاع « البيورتيان » الاستفادة من أفكار كالفن بل وتعميقها بحيث ساعدت أفكارهم بدورها على تأكيد « الفكر الرأسمالى » (البند الثانى) .

البند الأول ـ كالفن والفكر الرأسمالى (١٥٤) :

يختلف كالفن في أفكاره الاقتصادية والدنيوية عن لوثر تمام الاختلاف حيث يعتبر كالفن تقدميا بالنسبة للوثر . فقد نشأ هذا الاخير قرويا راهبا ، بعيدا عن أمور العالم ، ولا يخرج من نطاق العائلة ، ولذا فهو يكره حياة الأعمال والمصالح

= فكان ان وجد من عارضه في هذه النظريات ، وهناك من سانده الرأى ، في ان البروتستانتية كانت مقدمة لابد منها لاحياء الفكر الراسمالى .

(١٥٣) فالواقع انه اذا تكلمنا عن الاصلاح الدينى ، وجب ان نذكر مارتن لوثر ، باعتباره اول المصلحين الدينيين . ولكننا لن نتعرض له ، على اعتبار انه فيما يتعلق باثر حركته الدينية على النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، بالمقارنة مع حركة كالفن ، يمكن القول ، دون تردد ، أنه من هذه الزاوية لم تكن هناك حركة اصلاح واحدة ، كانا في الحقيقة حركتين اختلفت آثار كل منهما الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فبالنسبة للوثر فانه فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادى والفردى ، كان تقليديا ، فجاءت أفكاره منسجمة مع الافكار التى سادت في العصر الاقطاعى ، فالمسيحى يتعين عليه ان يظل في نطاق منطقته وأن يعيش تحت حماية السلطة والا يحاول بمبادرة فردية ان يتخطى درجات السلم الاجتماعى ، ويحرم عليه أيضا تشغيل امواله في قرض بفائدة ، ويتعين عليه أن يعيش من عمله وأن يقنع بالأقل . وبذلك لم تكن افكار لوثر ، فيما يتعلق بالنشاط الفردى والاقتصادى ، مختلفة كثيرا عن افكار الكنيسة الكاثوليكية ، لذلك نجده لا يشجع الربح ولا القرض بفائدة ، ولا الاعمال الاقتصادية والمالية ، ولعل ذلك يرجع أساسا لاختلاف البيئة التى نشأ فيها لوثر ، عن تلك التى نشأ فيها كالفن ، مما جعل الاول بعيدا عن الحياة الاقتصادية والمالية ، فلم يتنبه ـ مثله في ذلك الكنيسة الكاثوليكية ـ الى متطلبات العصر الجديد .

بالنسبة لافكار لوثر انظر :

Jean Delumeau. op. cit., note 151, pp. 79 et ss.

وأيضا : عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٧٠ .

(١٥٤) والواقع ان أول من قام بالربط بين « البروتستانتية والرأسمالية » كان ماكس ويبر في رسالته التى اشرنا اليها من قبل (هامش ١٥١) ولكن افكار ماكس ويبر لم تسلم من النقد بحيث ظهرت نظريات حديثة تنفى هذه الصلة التى أقامها ويبر ، انظر في كل ذلك :

Max Weber : léthique protestante et l'esprit du capitalisme "Tome : 1° partie : Etudes de sociologie de la réligion" "Traduit de l'allemend par Jacques chavy" - Plon - Paris 1967 (2 édion).

= J. Freund : Sociologie de Max Weber - P. U. F. Paris 1966

والبنوك ورجال المـال ، وصاحب المصرف في نظره مراب(١٥٥) ٠ أما كالفن فقـد نشأ وتربى في وسط الأعمال والمـال وادرك أثر الثورة الاقتصادية التى حدثت في القرن السادس عشر ٠ كذلك كان كالفن « انسانيا » يعرف ان النظم والاوضاع تختلف حسب البلاد والعصور ، وان الحظر المفروض على اليهود لا مسوغ له عند مسيحى عصره ، وأن التجارة والصناعة لا يمكن ان يقوما بدون القرض بفائدة، وان المال ليس أقل قيمة من أى شكل من أشكال الغنى كالأطيان والعقارات وغيرها٠

J. Pradès : la sociotogie de la religion chez Max Kezer "essai é'ana- = lyse et de critique de la méthode". - Louvain. Nauwelaerts. 1966.
J.M. Vincent : Le capitalisme selon Weber "l'homme et la socièté" No 4 Avril-Juin 1967. pp. 61-77.
A. Biéler : la pensèe économique et sociale de Calvin - Librairie ée l'université, Genève 1959.
A. Fanfani : Calloicesimo protestantesimo nella formazione storica del capitalismo - Vita e pensiero, Milano 1934.
C. Lefort : Capitalisme et religion au XVI siècle Temps modernes. Avril 1952. pp. 1892-1906.
H. Sée : dans quelle mesure puritains et juifs ont-ils contribué au progrès du capitalisme moderne ? - Revue historique, 155. Mai-Aout, 1927.
R.H. Tawnay : la religion et l'essor du capitalisme - Marcet Reivère. Paris 1951.
ومن الكتب التى عرضت مقتطفات من الآراء المعارضة لـ Weber
Philippe Bernaré : Protestantisme et capitalisme - A. Colin, collec. V2. Paris 1970.

(١٥٥) ويمكن القول مع القائلين ، ان لوثر قد حارب المظاهر الاولى للراسمالية ، لذلك لم يتردد الفيلسـوف في اعتبـار الاصلاح الديني رد فعل اقطاعى ضد حركة النهضة ، وحركة اعادت الانسـان الى الوراء لقرنين او ثلاثة ٠ ويرى بعض الكتاب الاخرين ان افـكار لوثر قد حققت الحلم الكاثوليكى في المدينة المنظمة تحت رعاية الدين ، لأن الحركة اللوثرية قد ظلت من الناحية السياسية خاضعة للسلطة الارستقراطية وللملكية المطلقة ومن الناحية الاقتصادية ظلت مخلصة للافـكار التى سـادت في العصر الاقطـاعى ٠

والواقع ان اللوثرية كانت لا تقل « تجمدا » عن الكنيسة الكاثوليكية ، فقد كان لـوثر يصر على ان لكل انسـان مكانة اجتماعية لا يجب ان يتخطاها ، ويجب ان يقنع بمصيره مهما كان فيه من ظلم وحيف ، فمثلا ، الى الفلاحين الذين ارسلوا اليه يشـكون حالهم مع السـادة الاقطاعيين ، رد لوثر عليهم قائلا (في ابريل ١٥٢٥) : ان الذى سيرفع السيف سيكون مصيره المـوت بالسيف ، فمهما كان سادتكم أشرارا او غير عادلين ، فليس هنـاك أى مبرر للثورة ضدهم ٠
"Celui qui se servira du glaive périra par le glaive; meme si les princes sont méchants et injustes, rien n'autorise a se révolter contre eux"

لذلك ، فان القيم الاخلاقية عند كالفن تختلف عنها عند لوثر . فالاخلاق « الكالفينية » تختلف عن الزهد المسيحي المعروف ، ويمكن للانسان وفقا لتعاليم كالفن ان يمتلك ويتكسب ويتمتع بالحياة ، فالذى يحرمه الله ليس الاستعمال ، ولكن « اساءة الاستعمال » .

ونستعرض فيما يلى ، سريعا ، الخطوط الرئيسية لأفكار كالفن(١٥٦) .

(أ) المبادىء الاقتصادية العامة (١٥٧) :

يرى كالفن ، ان الله سبحانه وتعالى ، اراد للناس جميعا على الأرض ، الرخاء والرفاهية ، فاذا ما وجد بين النـاس تفاوت في الثروة ، فان هذا التفاوت

= بل الاعجب من ذلك ، انه حين اشتدت المعارك بين الفلاحين الثوار ، وبين السادة الاقطاعيين نجده يقول للاقطاعيين « فلتقطع رقابهم (يقصد الفلاحين) لانه اذا هاجمك كلب مجنون فلا بد من قتله والا تتلك » .

"Qu'on les étrangle, le chien fou qui se jette sur vous, il faut le tuer, sinon il vous tuera" - Jean Delumeau, op. cit. note 150. p. 99.

(١٥٦) ولد جون كالفن John calvin عام ١٥٠٩ في بلدة نويون بالقرب من باريس ، والتحق بجامعة باريس ليدرس علم اللاهوت . وعندما كان في الرابعة والعشرين من عمره تفتحت بصيرته على معان جديدة في الدين المسيحى ، فدرس آراء المصلحين الذين كان مارتن لوثر على رأسهم وهياه استعداده لقيادة حركة اصلاح جديدة ، واعتزل وظيفته الدينية (مايو ١٥٣٤) وغادر فرنسا بسبب اضطهاد الملك فرانسوا الاول للبروتستنت واخذ يتنقل بين عدة مدن الى أن استقر به المقام في سويسرا عام ١٥٥٦ وهناك اصدر كتابه المشهور بعنوان : تنظيمات الدين المسيحى Institutes of christian religion وهو خلاصة من التعاليم البروتستنتية

وقد انتشرت بين عدة كبير من سكان المجر وبوهيميا الكلفينية باعتبار البروتستانتية وسيلة لمناهضة حكم آل همبرج ، وكذلك انتشرت في بولندة ، وفي فرنسا حيث اصبح « الهيجونوت » وهم بروتستنت فرنسا من انصار كلفن وفي الاراضي الواطئة (بلجيكا وهولندة) ووصلت الكلفينية الى اسكتلندا وانجلترا . كذلك انتقلت الكالفينية الى امريكا الشمالية عن طريق « البيورتيان » الذين اعتنقوا افكار كالفن .

وقد توفى كالفن في جنيف بسويسرا عام ١٥٦٤ .

(١٥٧) J. Delumeau, op cit, note 151, pp. 314 et ss.
M. Weber, op cit, note 154, pp. 67 et ss. et 161 et ss.
Ph. Besnard, op cit, note 154, pp. 208 et ss. et 285 et ss.
R. Mousnier, op cit, note 128, pp. 77 et ss.

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ١٨١ .

عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٨٩ .

لم يقصد به الا ان يكون هناك تبادل بين الموسر والمعسر ، يتمثل فيما ينبغى ان يتحلى به القادرون من رحمة وشفقة ، وما يقع على عاتقهم من واجب الاحسان ، بحيث ان قيامهم بهذا الواجب يؤدى الى التقليل من الفوارق بين الطبقات ، ويحقق نوعا من « العدالة » بين الناس ، ويوجد ـ الى حد ما ـ قدرا من التوازن الاقتصادى بين الطبقـات .

ولكن المشاهد ، ان هذا التوازن « الذى اراده الله سبحانه وتعالى » لم يتحقق بالفعل على الأرض ، ويرجع ذلك الى ثلاث أسباب :

أما السبب الأول فهو تكالب الاغنياء على اكتناز الاموال وتخزينها دون استثمارها : فلو ان الاغنياء لم يكنزوا الاموال لتبدلت الاحوال ، خاصة لو اتبعوا التعاليم الالهية ، فالله لم يضع بين أيديهم هذه الاموال لـ « تكديسها » وانما لـ « تداولها » ، وبذلك فان كالفن يحرم « كنز الأموال وتخزينها » لانها تؤدى الى عرقلة النظام الاقتصادى الذى اراده الله ، ومن هنا تتضح أولى مساهمات كالفن في خلق العقلية الرأسمالية ، حيث يحث أصحاب الثروات على استخدامها بدلا من تخزينها .

اما السبب الثانى ، فهو في نظر كالفن « الظلم الاجتماعى » ، ذلك ان التخزين غير المشروع للمال يؤدى الى النظر للفقير نظرة احتقار ، لذلك فان كالفن يحرم أى تفرقة اجتماعية تقوم على أساس الثروة .

أما السبب الثالث والأخير فهو المضاربات غير المشروعة ، التى يلجأ اليها أصحاب المال للاغتناء السريع ، وهى غير مشروعة بدورها ، لانها في النهاية تقع على عاتق الفقراء .

ولكن أهم ما يلفت النظر لدى كالفن ، هو ما يذهب اليه من تمجيد العمل الفردى ، والتركيز على ان هذا العمل الذى يقوم به الانسان انما هو دليل على الاختيار الالهى ، بحيث يتعين على كل شخص كى يعرف ما اذا كان مختارا ام لا أن ينمى طاقاته وان يبذلها كلها في اتقان عمله او حرفته لانه لو توصل الى النجاح فيها فان هذا هو الدليل على انه مختار فعلا وان عمله ، او النجاح في عمله ، دليل على شموله بالعناية الالهية : فخدمة الله واجبة في العمل الذى خصصه لكل انسان، ومهما يكن هذا العمل فانه ينبغى القيام به على وجه يرضي الله .

(ب) كالفن والحياة التجارية والصناعية(١٥٨) :

يرى كالفن ان التعاون الاقتصادى والتبادل بين الناس ، والتجارة ، ليست الا المظاهر الخارجية « للتضامن الروحى » بين الناس جميعا • فالتجارة هى من « أعمال الخير » التى أراد الله أن تعم آثارها وتشمل كافة الناس في الارض ، لذلك ، فان « الغش » في التجارة والاعمال ، لا يمثل فقط خروجا على القواعد الاخلاقية ، بل يعد أيضا انتهاكا للحرمات المقدسة ، لانه يعد خروجا على تعاليم الدين ، وسرقة لـ « خيرات الله » التى اختص بها عباده أجمعين •

لذلك ، يرى كالفن ، ان الدولة ملزمة بالاشراف على عملية التبادل والمعاملات بين الناس ، ومن ان هذه العمليات تتم وفقا للارادة الالهية ، وذلك بوضع نظم قانونية محددة للعقود ، ولوسائل التجارة من وزن ، وقياس ، ونقد ••• الخ •

وينبغى على الدولة ان تحارب كل محاولة لـ « تخزين وتكديس » الاموال او للمضاربات غير المشروعة • لذلك ، نجد السلطات في جنيف عام ١٥٣٧ تتدخل وتقف في مواجهة الطوائف المهنية وما ترمى اليه هذه الطوائف من فرض نوع من الاحتكار على المهن • فلقد انشأت السلطات المدنية في جنيف مجالس مهمتها (بعد الاستماع الى بعض أعضاء المهنة) اعطاء التصريح بمزاولة المهنة لكل من ترى اللجنة احقيتهم في ذلك ، دون الالتزام بالمصاريف ولا المراسيم التى كانت تفرضها الطائفة • بل ، ان القضاة كان لهم الحق في التدخل لتحديد أسعار بعض السلع والحد من المغالاة في الأرباح •

(ج) كالفن والقرض بفائدة :

تعتبر آراء كالفن في هذا الصدد ، خطوة حاسمة في تاريخ الغرب الاقتصادى، ونقطة هامة من نقط التحول في النظام الاقتصادى ككل • ولكن اذا كانت آراء كالفن بصدد اباحة القروض بفائدة تجعل منه أحد « انصار الرأسمالية » ، فانه ينبغى التفرقة بين كالفن « أحد مبدعى النظام الرأسمالى » وكالفن الاخلاقى الذى يحترم الانسان ويدعو الى العدل والاحسان ، أو بمعنى آخر ، ينبغى التمييز بين أنواع القروض من حيث امكانية الحصول بموجبها على فائدة • ففى هذا الصدد ، يفرق كالفن بين نوعين من القروض :

---

(١٥٨) J. Imbert et H. Legohérel : Histoire économique (des origines a 1789) - Science économique, Thémis, P.U.F. 2 éd). Paris 1970 pp. 321 et ss.

١ ـ القروض المجانية (قروض الاستهلاك) (١٥٩) :

ان النقـود ، في نظر كالفن ، هى وسـيلة وضعها الله في خـدمة عباده كى يتداولوا ، فيما بينهم وبواسطتها ، الاموال والبضائع • فالنقود اذن هى ثمرة كفاح وعمل الناس ، لذلك فهى لا ينبغى ان ينظر اليها باحتقار (كما تريد ذلك المذاهب المسيحية التى تأخذ بفلسفة الزهد والتقشف) ولا يجب أيضا ان تكون محلا لتكديس وتخزين كما تدعو الى ذلك الافكار الفردية الانانية المتطرفة •

لذلك ، فان القرض بلا مقابل ، هو عمل طبيعى يقوم به من ادرك ان امواله ليست « ملكا خاصا » له ، ولكنها وديعة أودعها الله لديه لكى يساعد الآخرين • لذلك ، فان القروض التى تعطى لأغراض استهلاكية لابد ان تكون دائما مجانية (بلا مقابل) ، لانها لا تعدو ان تكون قرضا من أجل « المساعدة » أى قرضا غير منتج بالنسبة للمدين الذى يكون في مسيس الحاجة اليها(١٦٠) •

وبذلك ، يرى كالفن ان القرض بفائدة للفقراء جرم ، وينصح ان من الاحسان ان نقرض اناسا معوزين لا أمل لنا في تحصيل المال منهم •

ولكن ، حتى في هذا النطاق ، فان كالفن يقرر ، أن تحصيل الفوائد على هذه القروض « الاستهلاكية » يصبح عملا مشروعا في حالة ما اذا تأخر المدين في رد القرض في الميعاد المحدد ، ولم يكن التأخير راجعا الى قصر ذات اليد ، وانما لمحاولة المدين استغلال طيبة من أحسن اليه (الدائن) •

٢ ـ القروض الانتـاجية (قرض المشروع) :

ولكن كالفن « الاخلاقى » يختلف عن كالفن « الرأسمالى » : فهو يلاحظ بحق ، ان نصوص العهد القديم (التوراة) أو العهـد الجديد (الانجيل) ، عندما تناولا القرض ، فهما لم يتناولا الا « القرض الاستهلاكى » أو قرض العـوز والنجدة Prêt de secours ، ولكنهمـا لم يتـكلما قط عن القرض الانتـاجى Prêt de production • ففى هذا النوع الاخير من القروض سيتمكن المقترض ، باضافة عمله الى القرض من تحقيق قدر من الأرباح : لذلك يكون من الطبيعى و « المشروع » ان يكافىء « المقرض » على ما قدمه له من قرض ، او بمعنى آخر ، يكون من الطبيعى ان يعطى المقترض « مقابلا » للقرض ، اما عن قدر هذا المقابل • فان كالفـن يقرر :

---

(١٥٩) Ph. Besnard, op cit, note 151, pp. 209 et ss. et 257 et ss.

(١٦٠) J. Imbert, op cit, note 158.

انه ليست هناك قواعد محددة لتقديره ، وانما يرجع الامر الى الاعتبارات الأخلاقية والانسانية لدى المقترض ، الذى سيقرر قيمة الفائدة ، في ضوء قواعد العدالة والانسانية ، وبالقياس الى مدى حاجة « المقترض » .

ولقد كانت أفكار كالفن هذه ، بمثابة خطوة هامة نحو تطوير الفكر الرأسمالى والنظام الرأسمالى ككل . حقيقة ان تعاليم كالفن هذه لا تعدو ان تكون تأكيدا لافكار بعض المصلحين الكاثوليك في العصور الوسطى(١٦١) ، ولكن

---

(١٦١) وتتضح اهمية آراء كالفن بالنظر الى الوضع الذى كان سائدا قبله : فالفلاسفة القدامى ، وخاصة ارسطو نظروا الى التجارة نظرة مريبة ، لانها وسيلة لجمع المال وطريق لكسب الناس من بعضهم البعض ، فالعدالة تحرمها لمخالفتها للطبيعة . ويعتبر الربا في نظرهم أبشع صور التجارة ، حيث يغدو المال ذاته أداة للكسب بدلا من أن يكون وسيلة لتبادل السلع : فالفوائد دخل لا يقابله عمل في حين أن النقود لا تلد نقودا .

كذلك اتخذ السيد المسيح موقفا متشددا من تجارة المال ، وحث الناس على اقراض المحتاجين دون استيفاء أصل الدين ، واعتبر الاقراض بقصد الاسترداد من شيم الخاطئين .

لهذا كان من الطبيعى ان يحرم آباء الكنيسة الربا تحريما تاما ، وان يعتبروه خطيئة كبرى وان يكون المذهب الرسمى للكنيسة طوال القرون الوسطى هو تحريم القرض بفائدة . واستندت الكنيسة في هذا التحريم الى ان النقود لا تأتى بثمار ، وان عنصر الزمن موجود لصالح الجميع ومقسم بين الناس بالتساوى بواسطة الله ، وانه من الخطيئة ان يدفع الفرد ثمنا له . والواقع انه لم توجد في ذلك العهد رؤوس أموال انتاجية بمعنى الكلمة ، لذلك لم يكن من الممكن ان يكون القرض بهدف الانتاج ، وانما كان فقط بهدف الاستهلاك .فالمقترض لا يمكنه ان يرفع الفوائد الا بانقاص ثروته الخاصة ومن ثم يفتقر بالضرورة نتيجة لاقتراضه بفائدة .

ولقد تحايل التجار في العصور الوسطى على النصوص التى تحرم الربا فقالوا ان المدين المقترض لا يلزم بفوائد ربوية انما يتعين عليه أن يدفع الى المقرض تعويضا عن التاخير في سداد الدين ليعوضه ما لحقه من خسارة بسبب التاخير . الا ان هذا الحل كان يقتضي أن يلحق بالمقرض خسارة فعليه ، لهذا اضيف الى تعويض ما لحقه من خسارة ما فاته من كسب ، وكان ذلك يقتضي ذكر اجل الوفاء بالدين وتأخر المدين عن الوفاء ، لهذا كانت الفوائد تاخيرية فحسب .

كما استخدم المرابون طرقا اخرى للتحايل على فكرة الربا ، منها بيع الوفاء ، أو صورة « الشركة » بحيث يسلم المرابى شخصا آخر سلفا النقود هو في الحقيقة قرض ليستغله في التجارة ، فاذا ما انتهت العملية (أو العمليات) التجارية استرد المقترض المبلغ الذى سلمه وكذلك ثلاثة ارباع الربح تاركا الربع فقط لمن قام بالعمل . وبذلك تمكن المرابون من توظيف أموالهم والحصول على أرباح دون القيام بأى مجهود ، ولكن هذه الصورة افلتت من قاعدة تحريم الربا بحجة أن المقرض يتعرض لخطر ضياع ماله ، فالربح يمثل مقابل التعرض لهذه المخاطر . وقد تطورت هذه الشركة لتصبح شركة التوصية الحالية . لهذا ، فان تعاليم كالفن ـ

ما قال به كالفن ، ادى الى قلب الامور رأسا على عقب في هذا المجال : فحتى تعاليم كالفن ، كانت القاعدة العامة هى تحريم القرض بفائدة ، مع جوازه في بعض الحالات الاستثنائية فقط • ولكن بعد كالفن ، صار الوضع عكسيا ، بحيث أصبح القرض بفائدة هو القاعدة العامة ، مع جواز تحريمه في بعض الحالات التى تبدو فيها الفائدة متناقضة مع اعتبارات العدالة والرحمة والانسانية (أى على وجه الخصوص اذا تعلق الأمر بقرض استهلاكى) ونظرا لهذا التحول الهام ، ذهب البعض للقول ، ان « كالفن قد قدم للطبقة البورجوازية في القرن السادس عشر ، ما قدمه ماركس لطبقة البروليتاريا في القرن التاسع عشر »(١٦٢) •

البند الثاني ـ البيورتيانية والرأسمالية(١٦٣) :

يعتبر المذهب « البيورتيانى » (وهو أحد المذاهب الثلاثة التى اعتنقت أفكار كالفن(١٦٤)) أشد المذاهب تمسكا بآراء كالفن سواء فيما يتعلق بنظراته الى

= ازاحت عن عاتق التجار عبئا ثقيلا واحلت رجال المال والبنوك من كل قيد دينى فيما يتعلق بالاقراض بفائدة •

حقيقة ان هناك بعض رجال الدين الكاثوليك كانوا قد سبقوا كالفن في هذا الصدد ، من حيث تفرقتهم بين القروض الاستهلاكية (حيث حرموا الفائدة) والقروض الانتاجية (حيث أباحوا الفائدة) ولكن الفارق الاساسي بين كالفن وبين هؤلاء ، كان كالفن ـ كما ذكرنا في المتن ـ جعل من القرض بفائدة « القاعدة » وليس « الاستثناء » •

راجع في ذلك :

André E Sayous : Calvinisme et capitalisme : l'expérience Genevoise. cité in Ph. Bernard, op cit, note 154 pp. 257 et ss.

وانظر كذلك :

ثروت انيس الاسيوطى ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٨ من ٩٦ وما بعدها ، وأحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٥٠ وما بعدها •

(١٦٢) Tawney : op cit, note 154, pp. 131 et 132.

(١٦٣) J. Imbert, op cit, note 158, pp. 327 et ss.

(١٦٤) فهناك أيضا المذهب « البرسبتاريانى أو « المشيخى » ، والمذهب الرهبانى
Le presbytérianisme
Le congrégationalisme

وقد ظهر الأول على وجه الخصوص في فترة حكم اليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) في اسكتلندا •
Tawney, op cit, note 154, pp. 132 et ss.

الحكومة والكنيسة ، وآرائه السياسية ، وأيضا العلاقات الاقتصادية والمالية ، لدرجة ان وصف بعض الكتاب مدى تحقيق البيوريتان لتعاليم كالفن عملا ، بقولهم « ان انتصار البيوريتانية ترتب عليه القضاء على كل القيود التى كانت تعوق حركة النقود ٠

"Le triomphe du puritanisme, balaya toute trace de restriction ou de modération dans l'emploi de l'argent".

ذلك ، انه اذا كانت الكالفينية قد استطاعت تقوية الشعور بالحرية الفردية وبمعنى الشخصية واستغلال الطاقة البشرية ، فقد استطاع البيوريتان تعزيز وتطوير أفكار كالفن والتأكيد عليها ٠ ووضعها موضع التطبيق : فبفضل البيوريتانية تمكنت انجلترا من بناء اقتصاد حديث وصناعة متقدمة ٠

وتتلخص أفكار البيوريتان كذلك في نظرتهم الى العمل الفردى وتقديسه ، واباحتهم الربح ، وبأنهم لا يعارضون في اكتساب الثروة ، انما ينظرون الى كيفية استعمالها ، ولكنهم نظرا لأنهم كانوا أكثر تطورا من كالفن نفسه ، فانهم رفضوا بعض أفكاره ، وخاصة ما يتعلق منها مثلا بالاحسان الى الفقراء ٠ ونستعرض فيما يلى ـ سريعا ـ أهم مبادىء البيوريتانية ٠

أ ـ موقفهم من العمل :

ينظر البيوريتان الى العمل الانسانى على اعتبار أنه « الهدف الاسمى الذى اعطاه الله للحياة البشرية » لذلك فالعمل وحده هو الذى يحكم وجود الانسان ، والعمل المستمر دون كلل : لأن التوقف عن العمل أو اضاعة الوقت ، معناه ان الانسان قد حرم من العناية الالهية ٠ ولا شك ان هذه الفكرة ، فكرة العمل المتواصل المستمر والديناميكية فيه تعد احد دعائم النظام الرأسمالى ٠

وفيما يتعلق بتقسيم العمل ، يقرر البيوريتان ، ان كل فرد يتحتم عليه القيام بعمل محدد ، وان التدريب المهنى على عمله ضرورة من ضرورات «الفكر المسيحى» ٠ ولكن على عكس لوثر الذى كان يعتقد ان كل مسيحى عليه ان يرضي بما عنده وأن يرضخ لوضعه الاجتماعى والمهنى ، فان البيويتان لا يعارضون ان يكون لكل فرد أكثر من مهنة ومن عمل ، بشرط ان يكون ذلك مفيدا له شخصيا وللصالح العام في آن واحد ٠ ولا تعارض البيوريتانية انتقال الشخص من عمل الى آخر ،

---

(١٦٥) Tawney, op cit, note 154, pp. 132.

او تبديل نشاطه المهنى بشرط ان يكون ذلك قائما على أسباب حقيقية وموضوعية ومؤكدا لفكرة « الاختيار الالهى » ٠

ب - تراكم رأس المال :

في هذه النقطة تتجلى أهم أفكار كالفن والبيوريتان ، بحيث كانوا بحق ، أصحاب فكر جديد ، ساعد على تحقيق الثورة الرأسمالية ، ذلك ان الأفكار الرئيسية للبيوريتان أثرت على النظام الاقتصادى ، من جهتين ٠ فمن جهة ، كانت أفكارهم في العمل والنشاط المهنى تشجع الانتاج المتزايد وتدافع الى الاغتناء : فهم لا يحاربون الثروة بل يشجعون السعى اليها ويرون فيه عملا مشروعا ، ولكنهم من جهة أخرى يحاربون كل مظاهر البذخ والاسراف وممارسة الحياة المترفة ، الكسولة ٠ وبذلك يتضح ان البيوريتان (تأثرا بأفكار كالفن) اذ يشجعون الانتاج المتزايد ويحاربون في الوقت نفسه الاسراف، يقتربون للغاية من الفكر الرأسمالى، لانهم بذلك يعملون على ادخار رأس المال وتراكمه ، وهو أحد خصائص العقلية الرأسمالية ٠

ح - تحويل البروستانتينية من فكر دينى الى فكر عصرى :

كانت الكالفينية لدى كالفن واتباعه المقربين ، عبارة عن « مذهب دينى » قبل كل شيء ، ولكن هذه النظرة « الدينية » لمبادىء كالفن ، تبدلت على يد البيوريتان ، وسمحت باستخدام هذه الافكار ، بصورة عملية وعلمانية ٠فاذا كان كالفن يقرر ان « الله قد سمح للناس بتكوين الثروات واستخدامها في الاغراض التى حددها سبحانه وتعالى » ، نجد ان البيوريتان لا يتذكرون من ذلك الا ان الله قد سمح لهم بالاغتناء ، وأنه يترتب على ذلك ، لا محالة ، وجود فوارق بين الطبقات هذه الفوارق وان كانت بحسب الفكر الدينى غير عادلة ، الا انها نتيجة طبيعية لاطلاق العنان لكل فرد في العمل على تحقيق ذاته في العمل والحصول على الثروة من جراء عمله ٠

ومن ذلك نرى ، ان الافكار العصرية البيوريتانية ، وما أدت اليه من نقل تعاليم كالفن من نطاقها الدينى ، الى نطاق علمانى ، ساهمت دون شك في ايجاد رجل الاعمال الرأسمالى ، المتميز بجمود العواطف وبالذكاء والقدرة على استغلال الفرص ، فكانت هذه الطبقة من الناس اول من مهدت لنشأة « الراسمالية الصناعية » ٠

د ـ مساهمة البيورتيان في زيادة الانتاج والحد من الاستهلاك :

بينما كان النظام الاقتصادى في العصور الوسطى قائما على تجميع الاموال وانفاقها في أوجه الترف والبذخ ، نجد ان هذه النظرة للمال ستتغير تحت ضغط أفكار كالفن والبيوريتان ، فمن جهة ، كان لا بد من مضاعفة الانتاج ، كما سبق ان بينا ، لانها ارادة الله • ولكن هذه الاموال المتزايدة ، لم يكن ينبغى ان تنفق في البذخ ، بل لزيادة الانتاج • ولقد ساعد البيوريتان على تحقيق أفكارهم هذه عملا في انجلترا ، ما ادت اليه الاحداث من اصطدام هنرى الثامن ملك انجلترا (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) مع البابا ، وما ادى اليه من انفصال الكنيسة الانجليزية والكنيسة الرومانية ، وما ترتب على ذلك من مصادرة أموال الكنيسة البابوية واستغلال هذه الاموال في اعمال استثمارية • فقد استطاعت عائلة Bruce التى ورثت ممتلكات الكنيسة[١٦٦] في Cabross ان تستخدم هذه الاموال في اقامة أكبر مشروع للتعدين في أوربا • ولا شك ، انه يمكن المقارنة بين تأثير الكنيسة على الانتاج ، بالنظر الى حالة فرنسا ، فلقد كانت الانتاجية في المشروعات التابعة للكنيسة الكاثوليكية منخفضة بالقياس الى المشروعات الخاصة التى تحررت من الفكر الكاثوليكى : فبينما كان متوسط الانتاج في المقاطعات البروتستانتية قبل الثورة الفرنسية ، يبلغ حوالى ٣٢٠ طنا من الحديد ، كانت الافران ذات السعة المماثلة التابعة للكنيسة لا تنتج سوى ١٨٠ طنا فحسب •

---

(١٦٦) وتجدر الاشارة هنا الى ان الخلاف بين هنرى الثامن والكنيسة البابوية لم يكن له اى علاقة بالاصلاح الدينى ، وانما يتعلق الامر بمسالة شخصية هى قضية طلاق هنرى الثامن ، الذى استهوته احدى وصيفات الملكة (آن بولين) فاراد ان يطلق زوجته الاولى (كاترين آرغوانه) ليستطيع الزواج بوصيفتها ، وأرسل في طلب اذن البابا بذلك ، ولكن هذا الاخير ، نظرا لأن كاترين كانت قريبة للامبراطور شارلمان صاحب النفوذ في ايطاليا تباطأ في الاجابة على طلب الملك هنرى ، فسئم هذا الاخير الانتظار وقرر قطع علاقته بروما وطالب البرلمان بالتصديق على قانون بموجبه وضعت الكنيسة الانجليزية تحت سلطة الملك العليا ، اى جعل الملك نفسه « بابا مملكته » واتخذ فكرة اصلاح المساوىء حجة فوضع يده على اموال الاكليروس وصادر أموال الكنيسة ثم باع وأعطى جزءا من هذه الاموال الى النبلاء فاصبحوا سندا قويا للنظام الدينى الجديد •

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ١٩١ وما بعدها •

لذلك ، كان من الطبيعي ان ترى ان البلاد البروتستانتية كانت اولى الدول التي حققت انطلاقتها الاقتصادية وتطورت بصورة سريعة ، وعلى الاخص انجلترا والولايات المتحدة الامريكية • ولكن الاعجب ، انه في البلاد الكاثوليكية ، كانت المناطق البروتستانتية اكثر قدرة وحركة في تحقيق تطورها الاقتصادي والصناعي ، مثال ذلك منطقة الالزاس العليـا في فرنسا La Haute - Alsace

هـ ـ البيورتيـانية والفقـر :

لقد وضع أتباع كالفن العمـل الانساني في المقـام الاول ، لذلك كان من الطبيعي أن يرفضوا أفـكار العصـور الوسطى التي كانت تقرر ان الاحسـان والصدقة للمحتاجين والفقراء هما من واجبات المسيحي المؤمن • بل على العكس من ذلك ، نجـد ان البيوريتان يرفضون « الصدقة » : فالتعاليم البيوريتانية تقضي بأن « المحتـاج » ليس حالة فردية ولكنه عيب اجتمـاعي لابد من التصـدي له ومعالجته ، ويكون ذلك ، ليس بالصدقة والاحسـان ، ولكن عن طريق اعـادة « الشحاذ » الى صفوف المجتمع ، برعايته وتلقينه اصول مهنة معينـة يتكسب منها عيشه • لذلك نجـد ان قوانين مسـاعدة الفقراء[١٦٧] Les lois des Pauvres ستعمل في البـلاد البروتستانتية الى القضاء على ظاهرة التسـول والشحاذين المحترفين الذين سيجبرون على العمـل الجماعي في منازل العمل Work - houses .

و ـ البيورتيـان وأعمـال البنـوك :

سبق ان أشرنا ، ان أعمال البنوك وتجارة « الاموال » كانت معـروفة في المدن الايطالية والبـلاد الواطئة (وعلى الأخص البنـوك العائلية) ، لذلك فان كالفـن واتباعه لم يبتدعوا نشاط البنوك ، ولـكنهم ساعدوا على تطور أعمال البنوك •

فمن جهة ، نظرا لأن كالفـن أباح « القرض بفـائدة » وان اتباعه البيوريتـان نقلوا أفـكاره الدينية الى النطـاق العملي ، صارت أعمـال البنوك من الأعمـال

---

(١٦٧) صدر قانون مسـاعدة الفقـراء عام ١٦٠١ في عهـد الملكة اليزابيث ، وكان يفرض على كل « مقاطعة » مسـاعدة المعوزين والقضـاء على التشرد ، واعتمدت الحكومة في البداية على التبرعات ، ولكنهـا انتهت بأن فرضت رسوما اجبارية منذ ١٥٦٣ • وكانت الحكومة الانجليزية أول من حقق هـذا المشروع في أوربا • ودام تطبيقـه حوالي قرنين من الزمان ، ولـكن مـع الوقت أسيء استعماله فالغي عام ١٨٣٤ •

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٣٠٥ •

« المشروعة » ، لذلك نجد ان العديد من البروتستانتيين أصحاب الثروات سيتحولون الى القيام بهذه الأعمال « المربحة » ٠

ومن جهة أخرى ، فان هجرة البروتستانيين خلال الحروب الدينية ، ولجوءهم الى جنيف هربا من الاضطهاد الذى تعرضوا له وخاصة في فرنسا بعد الغاء منشور نانت La révocation de l'edit de nantes ، ادى ذلك بالعائلات البروتستانتية الى انشاء مشروعات صناعية كبرى (صناعات الحديد والمجوهرات وصناعة الساعات ٠٠٠) ولكنهم أيضا قاموا بعمليات مالية ضخمة ، وباقراض النقود والذهب ، هذه العمليات كانت تتم في كل أنحاء أوربا ، فانتشرت منها عمليات البنوك ، لدرجة قيل معها ان هذه الهجرة « جعلت من الهجنوت » (البروتستانت الفرنسيين) شعبا اسرائيليا جديدا متفرقا في أنحاء اوربا(١٦٨) ، وقد ساعد ذلك الوضع على ازدهار عمليات البنوك ، نظرا للصلات التى احتفظ بها المهاجرون مع ذويهم في بلادهم ، وخاصة في فرنسا ، بحيث انشأ المهاجرون حقيقة « هجنوت دولى » اتسعت أعماله ، وخاصة في نطاق البنوك وشملت كل أنحاء أوربا ٠

يتضح لنا ، مما سبق ، أن الكالفينية والبيوريتانية ساهمتا مساهمة كبرى ومباشرة في خلق العقلية الرأسمالية ، وهى احد العوامل الجوهرية في نشأة النظام الرأسمالى ، وقد ترتب على ذلك ، ان أخذت الافكار الاقطاعية القديمة القائمة على كراهية الربح في الزوال شيئا فشيئا لتحل محلها أفكار جديدة مؤداها البحث صراحة عن الثروة من أجل الثروة داستعمال النقود لا كمجرد وسيلة للمبادلة ولكن كرأسمال ، فالتاجر وأكثر منه رجل الاعمال والبنوك (الذى بدأ ينفصل عن التاجر تدريجيا) ، لم يعد الشخص الذى يتخلى عن بضاعته في سبيل الحصول على أموال يشترى بها ، بل أصبح شخصا يوظف نقوده في عمليات المبادلة ويحولها الى بضائع ويبيعها لكى يسترد نقوده ثانية ، ولكن

---

(١٦٨) J. Imbert, op. cit., note 158, p. 334

بكمية أكبر من ذى قبل ، وخاصة ان مسألة تحقيق الانسان للثروة لم تعد من « المحرمات الدينيـة » ، فترتب على ذلك ان بدأت الأعمال المربحة تأخذ مكانها في المجتمع بعد زمن طويل من الاحتجاب(١٦٩) .

---

(١٦٩) احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٢٢ .

والواقع أن الاستاذ الدكتور احمد جامع اهتم أيضا في مؤلفه بالدور الذى قام به اليهود في خلق العقلية الرأسمالية ، فجاء عرضه واضحا لا يحتاج الى تعقيب ، ونكتفى هنا بايراد فقرة من فقرات مؤلفه ص ٢٢ اذ يقول : « وقد اهتم زومبارت ببيان تاثير اليهود على البيورتيان وعلى الرأسمالية وخاصة في كتابه عن اليهود والحياة الاقتصادية عام ١٩١١ ، واعتبر اليهود رواد الرأسمالية الوليدة وعبزا الى هجراتهم في العصور الوسطى تنقل مراكز النشاط الاقتصادى في أوربا في تلك العصور .

والواقع أن العهد القديم بما يتضمنه من وعود بالسلطة والثروة والسيطرة المادية للشعب المختار انما يسبغ على الاقتصاد مفهوما ماديا وملموسا وقد اوضح زومبارت كيف ان التهيئة الاقتصادية لليهود انما تجد اصولها في مراعاة قواعدهم الدينية ذاتها . واكثر من هذا فالديانة اليهودية انما ترتكز على عقد ، هو تنظيم تجارى في رأى زومبارت ، بين الله وبنى اسرائيل ، فالله يعد ويعطى شيئا وفي مقابله يعطى الانسان الفاضل الى الله خدمات معينة . وللانسان طبقا للنصوص اليهودية المقدسة « حساب في السماء » . وقد يبدو كل هذا وكانه لاحق على نشأة الرأسمالية ، ولكن الواقع انه سابق عليها بقرون عديدة . وقد انتقلت هذه الافكار من الديانة الى الحياة العملية » .

المطلب الثالث ـ العــوامل السيــاسية :

ان الروح الفردية التى استظهرها عصر النهضــة ، وأكدها الاصلاح الدينى بقيادة كالفن وبفضل البيوريتــان ، لم يكن من الممكن أن تنمو الا في ظل فــكر سياسي يؤكد هذه الروح الفردية ، ويعمل على الاطاحة بالافكار القديمة ٠

ولقد توافر هذا الفكر السياسي الجديد ، باجلى مظاهره في انتصــار مبــدأ القوميات من جهة ، وفي تطور الفكر السياسي الليبرالى من جهة اخــرى ٠

البند الأول ـ انتصــار مبدأ «القوميات »(١٧٠) : Le Nationalisme

كان الكتاب الماركسيون هم أول من لا حظوا العلاقة بين مبــدأ القوميــات وتكوين الطبقــات في المجتمعــات الحديثة وعلى الأخص الطبقــة البورجوازية ٠ فالتطلع الى الوحــدة الوطنية لم يــكن في حقيقــة الأمر ، الا انعكاسا للمطالب الاقتصادية ، وعلى الأخص ايجاد أسواق داخليــة وخارجية متسعة ، تمــكن الطبقة الرأسمالية من تصريف منتجاتها دون قيــود في الداخل ، وبفرض سلطة « الأمة » على غيرها من « الأمم » في الخارج ٠ وقد عبر ماركس عن ذلك بقــوله « ان الســوق هى المدرســة الأولى التى تتعــلم فيها الطبقة البورجوازية مبــدأ القوميــات(١٧١) » ٠

ولا شك ، ان هذا القول ، يصــدق تماما بالنسبة لالمــانيا وايطاليــا : فلقد ادركت البورجوازية الالمانية ان مصلحتهــا تقتضي مد وتطوير خطوط الســكك

---

(١٧٠) Jean - René Suratteau : l'idée nationale de la révolution a nos jours Collection "S.U.P." P.U.F. - Paris 1972.

G. Weil : l'Europe du XIX siècle et l'idee de nationalité "Préface de Henri Berr" - Paris 1938.

وباللغة العربية :

نور الدين حاطوم : تاريخ الحركات القــومية ـ الجزء الثانى : الحرية والقومية ـ دار الفكر الحديث ـ لبنــان ١٩٦٨ ٠

وعبد الكريم احمد : القومية والمذاهب السياسية ـ الهيئة المصرية العــامة للتاليف والنشر القــاهرة ١٩٧٠ ٠

عبد الكريم احمد ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٦٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها ٠

ونور الدين حاطوم ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٦٥ ، ص ٣٩٤ وما بعدها ٠

(١٧١) Rioux, op. cit., note 5, p. 53.

الحديدية ، والطرق البرية ، والغاء القيود الجمركية ، وتوسع السوق الداخلية وتحريرها من القيود ، والتوسع في أعمال البنوك والاستثمارات ، ولهذا كله كان لابد من توحيد « دويلات الأمة الألمانية » . وقد تمثلت هذه الوحدة المنشودة أولا في اتحاد اقتصادى وجمركى بقيادة بروسيا عرف باسم الزولفراين The Zollverein ، واستطاع في عام ١٨٣٤ ان يضم كافة دويلات ألمانيا (عدا أوستريا Austria) وكانت هذه الوحدة الاقتصادية هى الأساس الذى تحقق بموجبه الوحدة السياسية فيما بعد ، وتولى قيادة هذه الوحدة السياسية اولئك الذين كانوا يمسكون بيدهم بمقاليد السلطة الاقتصادية . وبذلك صادفت المصالح البورجوازية الالمانية التطلعات الشعبية نحو اقامة « أمة المانية موحدة » ، أمة تكون القيادة فيها للطبقة البورجوازية[١٧٢] . والأمر لا يختلف بالنسبة لايطاليا ، فقد استطاعت المدن الايطالية المزدهرة اقتصاديا ، (أو بفضل مساعدة فرنسا) أن تحقق - عن طريق الوحدة الايطالية - سيطرتها كاملة على الأمة الايطالية ، بفضل بعض الاصلاحات الاقتصادية التى قامت بها الطبقة البورجوازية لصالح المناطق المتخلفة وبخاصة Mezzogiorno[١٧٣] .

بل ، ان حركة « القوميات » الأوربية ، ساعدت على تأكيد هذا المبدأ حتى في خارج أوربا ، مما ترتب عليه أيضا نتائج تتصل بالثورة الصناعية والنظام الراسمالى . فالدول التى تنبهت لخطر تصاعد مبدأ القوميات في أوربا ، وتبينت القصد من ورائه أو على الأخص فتح أسواق جديدة لصالح الطبقة البورجوازية في الأمم الجديدة حاولت هى أيضا جاهدة ، ان تقيم نظاما اقتصاديا قوميا قويا يساعدها على الحفاظ على استقلالها في مواجهة الأمم الأوربية : فشرعت اليابان ، في عهد ميجى Meiji ، اعتبارا من ١٨٧٦ ، في محاولة فريدة من نوعها لتحويل نظامها الاقتصادى . واستطاعت بفضل هذه المحاولة ان تعطى الانطلاقة الاولى للرأسمالية الصناعية لديها[١٧٤] .

كذلك ، فان تمتع كل من كندا واستراليا ونيوزيلاندا بالنظام القانونى للمستعمرات الحرة Statut de dominion (اعتبارا من نصف القرن التاسع عشر) وما تبع ذلك من حرية هذه البلاد في اتخاذ القرارات السياسية ، ترتب عليه أن شرعت هذه البلاد أيضا في العمل على التحول من الاقتصاد الزراعى

---

(١٧٢) J. R. Suratteau, op. cit., note 170 pp. 54 et ss.

(١٧٣) عبد الكريم أحمد ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ١٧٠ ، ص ١٧٦ وما بعدها .

(١٧٤) Rioux, op. cit., note 5, p. 53.

الذى كان سائدا فيها ، الى الاقتصاد الصناعى بما يتطلبه ذلك من تحولات في كافة أوجه النشاط والميادين الاقتصادية على نحو ما رأينا في المبحث الأول .

فاذا تناولنا الجانب السياسي وأهميته في تطور النظام الرأسمالى وجب علينا أيضا ان نؤكد ان « المبادىء » العامة وحدها قد لا تكفى لتحقيق التطور ، الا اذا وجدت من الرجال من يقوم على تطبيقها ، ووجدت من الطبقات المعنية بالأمر الوعى الكافي والمقدرة على تحقيق السياسات التى يتطلبها وضع هذه المبادىء موضع التنفيذ .

فمما لا شك فيه ، ان هناك رجال دولة لعبوا دورا هاما في تأكيد بعض النظم السياسية والاقتصادية في بلادهم . وبشأن ما نحن بصدده الآن ، لا يمكن مثلا ان نتجاهل الدور الذى لعبه فردريك فون موتز Freidrich von Motz وزير مالية بروسيا في اقامة وحدة جمركية واقتصادية بين الدويلات الألمانية ، فكانت فكرته هذه ، هى الاساس الذى قام عليه تحقيق وحدة «الأمة الالمانية» سياسيا(١٧٥) .

ولكن ، كما سبق القول ، فان المبادرات الفردية وحدها لم تكن لتكفى لتحقيق الأنظمة الاقتصادية الجديدة وتطويرها ، فلابد من وجود طبقة ، تستطيع ان تتفهم طبيعة هذه الأنظمة الاقتصادية الجديدة ، ويكون لديها القدرة على التحرك وتحقيق المبادىء التى تقوم عليها هذه الأنظمة ، في ظل « نظم سياسية » جديدة ترتكز عليها هذه الطبقات في تحقيق اهدافها ، وعلى الأخص ، فيما يتعلق بتطور النظام الاقتصادى ، ووضع المبادىء السياسية التى تساعد على أطلاق الحافز الفردى ، تمكن من هذا المنطلق ، تجاوز الأوضاع الاجتماعية الجامدة » .

ويؤكد هذا القول ، من ان المبادرة الفردية لا يمكن ان تقيم « نظاما اقتصاديا » جديدا ، أو أن تحقق الغرض المنشود من التطور ، المثل الذى يمكن أن نسوقه عن المجر ، فرغم محاولات الكونت Széchenyl المتعددة (في

---

(١٧٥) والامثلة في هذا الصدد كثيرة ، فيمكن ايضا ان نذكر الدور الذى لعبه - في نفس الفترة تقريبا - بيتبريات Peter Beuth وزير الصناعة في بروسيا من انشائه معاهد البحث العلمى والتعليم الفنى La recherche et l'enseignement technique مما مكن المانيا من تحقيق تقدم ملموس في مجال الصناعة .

ومنهم أيضا وزير مالية روسيا في نهاية القرن التاسع عشر،الكونت سيرج ويت Serge Witte الذى اقدم بكل جراة ودون تهيب على الاستعانة بالمعونات المالية والفنية الاجنبية لكى يحقق في بلده انطلاقة الثورة الصناعية . Rioux, op. cit., note 5, p. 54.

منتصف القرن التاسع عشر) ومجهوداته من أجل نقل المجر من حالة « الاقتصاد الزراعي والاقطاعي » الى بلد صناعي حديث[١٧٦] ، فقد فشل في تحقيق ذلك التطور، ولعل السبب في ذلك هو عدم وجود الطبقة التى تتفهم مقتضيات هذا التحول وتحاول أن توجد « النظام السياسي » المناسب ، « فحيث يفشل رجل بمفرده في فرض التحول قد تنجح طبقة بأكملها في تحقيقه »[١٧٧] .

لذلك ، فان التحول الذى وقع في انجلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية : وألمانيا ، كان ثمرة نجاح الطبقة البورجوازية الجديدة في فرض سيطرتها السياسية ، فتمكنت بذلك من تهيئة المناخ المناسب لتحقيق الثورة الصناعية .

فمنذ نهاية القرن السابع عشر ، انتصر النظام البرلمانى في انجلترا ، مؤكدا بذلك سلطة كبار الملاك العقاريين والبورجوازية الصاعدة في مواجهة الملك ، وترتب على هذا التحول السياسي ، تكريس مبدأى المساواة القانونية والحرية الفردية ، في مواجهة الامتيازات القديمة والقيود الاقطاعية ، وبحيث أصبحت « المغامرة الرأسمالية » عملا مشروعا ، وغدت « المساواة أمام القانون» مبررا طبيعيا لـ «تفاوت الثروات » وأصبح بأمكان كل فرد « ذكى ونشيط وميال للمغامرة» أن يغادر صفوف « طبقته » ويرتقى السلم الاجتماعى ليصل الى « الطبقات الأعلى »[١٧٨] .

وفي فرنسا أيضا ، بعد الثورة ، قابلنا نفس هذه الظواهر : فقد وجدت طبقة بورجوازية جديدة ، ساعدت على تحقيق الانطلاق الصناعي في فرنسا : بفضل

---

(١٧٦) ومن هذه المحاولات على سبيل المثال ، الانجاز الذى حققه باقامة كوبرى على نهر الدانوب يربط ما بين بودا Buda وبست Pest

(١٧٧) Rioux, op. cit., note 5, p. 54.

(١٧٨) ويعطينا Mantoux امثلة عديدة للعائلات الانجليزية التى استطاعت بفضل الثورة الصناعية ، وعلى الاخص بفضل المبادىء السياسية والقانونية التى مهدت لهذه الثورة ، ان ترتقى السلم الاجتماعي وتصل الى قمته محققة ارباحا خيالية وثروات طائلة ، فبالاضافة الى « الحلاق » اركريت الذى سبق ان تكلمنا عنه ، والذى ترك لورثته ثروة « تليق بالامراء » ، فهناك أيضا عائلات بيل Peel ، وردكلايف Raécliffe وفيلدن Fielden وويلكنسون Wilkinson ، وديربى Darby ، وبولتون Boulton وغيرها من العائلات ، التى لن نتناول قصتها بالتفصيل ، ونرجىء ذلك الى حين الكلام عن الاثار الاجتماعية للثورة الصناعية.

انظر :

Mantoux, op cit., note 2, pp. 386 et ss.

اعلان حقوق الانسان ، ومبادىء القانون المدنى الجديد ، تحرر الفرد واطلقت الملكية ، مما ساعد على تحرير النشاط الاقتصادى من كل القيود السالفة المفروضة عليه من ايام الملكية المطلقة، بينما حرم قانون شابيليه La loi Le chapelier (١٧٩١) كل تجمع عمالى وقضي على كل محاولة للعمل الجماعى، وبذلك فتحت هذه المبادىء والقوانين امام « النظام الراسمالى » للانطلاق والتوسع دون عوائق ٠

وبامتداد مبادىء الثورة الفرنسية ، الى خارج حدود فرنسا ، وخاصة الي دول أوربا الغربية ، تلقت الطبقات البورجوازية هذه المبادىء (بل قل انها كانت تنتظرها) واستطاعت بالاعتماد عليها ان تضع حجر الأساس في انطلاق نظم الرأسمالية الصناعية لديها ، والتى كانت حتى ذلك الحين حكرا على انجلترا وحدها ٠

ان انتشار المبادىء التى أتت بها الثورة الفرنسية ، القانونية منها والسياسية ، ساعدت دول أوربا الغربية على وجه الخصوص ، على تحرير الفرد من الناحية القانونية (وبغض النظر عما اذا كان هذا التحرر قد وقع لخير الانسان أو للاضرار به Pour le meilleur et pour le pire (١٧٩) واوجد افكارا جديدة ، منها « العقد الاجتماعى » اعتمدت عليها الطبقة البورجوازية لفرض سيطرتها(١٨٠) ، وأدى الى تحطيم الأسس التى كانت تقوم عليها العلاقات الانتاجية القديمة ، فمكن بذلك من « تحطيم السلاسل » التى كانت تعوق قيام العلاقات الانتاجية الجديدة ٠

ولكننا ، اذ نستعرض أثر التطورات السياسية على النظام الاقتصادى ، فلابد ان نلاحظ ، أن الأحداث وان كان لها الأثر في دفع عجلة النظام الاقتصادى ، فانها قد يكون لها بالمثل أثر في « تدهور النظام الاقتصادى » ٠ ويمكننا ان نسوق فرنسا كمثال على ذلك ٠ فقد شهدت فترة « الثورة » فيها تدهورا مستمرا للبنيان الاقتصادى الفرنسي ٠ فلقد كان بامكان فرنسا ، ان تحقق انطلاقة صناعية هائلة على غرار انجلترا حوالى عام ١٧٨٠ ، ولكن الاضطرابات الداخلية التى شهدتها فترة الثورة والحروب (ما بين ١٧٨٩ و ١٧٩٩)قضي على كل أمل لفرنسا في اللحاق بانجلترا : فقد فقدت فرنسا معظم أسواقها الخارجية ، واصيبت موانيها

---

(١٧٩) Rioux, op. cit., note 5, p. 55.

(١٨٠) انظر فيما بعد ، ص ١٣٤ وما بعدها ٠

بالكساد ، واتجه مؤشر الانتاج الى الانخفاض المستمر : فمن ١٧٩٠ الى ١٧٩٥ انخفض رقم الأعمال في مصانع Rouen من ٤١ مليون فرنك الى ١٥ مليون فقط ، وانخفض عدد العمال بهذه المصانع من ٢٤٦ ألف عامل الى ٨٦ ألف عامل فقط ، وحين تولى بونابرت الحكم لم يكن الانتاج يجاوز ٦٠ ٪ مما كان عليه قبل ١٧٨٩ (١٨١) .

---

(١٨١) ويتأكد تأثير الازمات السياسية في « تدهور الاقتصاد » خصوصا في مرحلة نشأة النظام الرأسمالي الصناعي ، بمثال أسبانيا : ففي نهاية القرن الثامن عشر ، توافرت لدى هذا البلد كل الاسباب التي تفتح له المجال للدخول الى عصر « الصناعة الحديثة » فقد تراكم رأس المال من المستعمرات ، وكانت لديه أسواق مفتوحة في المستعمرات التابعة له ، كذلك كان عدد سكانه في ازدياد مستمر ، وقامت لديه طبقة من رجال الاعمال الذين استوعبوا الافكار الجديدة في عالم « الاموال والنقود » كما وجدت طبقة أيضا تسعى الى تحرير الفرد من كل القيود والى تخليص النشاط الاقتصادي من الجمود والعوائق . وقد استطاعت مقاطعة الـ Catalogne تحقيق انطلاقة صناعية ، حيث تطورت فيها الصناعات القطنية على نحو مقارب للاساليب الحديثة المستخدمة في هذا القطاع في انجلترا ، واستطاع انتاجها أن يصل حتى دول أمريكا الشمالية ويجد له سوقا مهمة فيها . ولكن هذا التطور لم يكتب له ان يواصل طريقه امام الاحداث السياسية، وخاصة امام الغزو الفرنسي الذي قسم الشعب الاسباني وجعل اغلبه ينظر الى كل من تعاون مع « جوزيف بونابرت » على أنه خائن لأسبانيا . وترتب على هذه الاحداث ، ان استطاعت القوى القديمة « من رجال الدين والملاك العقاريين » أن تقيم تحالفا مؤقتا مع القوى الشعبية لمواجهة الغزو الفرنسي ، ولكن هذه الاحداث أتت على كل أمل في تطور النظام الاقتصادي الاسباني ، وأجبر هذا البلد على التراجع عن طريق التطور الصناعي ، وأثر هذا الحادث على اسبانيا ، ليس في القرن التاسع عشر وحده ، ولكن حتى في القرن العشرين ، وحتى أيامنا هذه ما زالت اسبانيا تعاني من تخلفها بالقياس الى دول أوربا الغربية .

انظر : Rioux, op. cit., note 5, p. 56.

وكذلك : L'Espagne, 5 ans après Franco.

"l'Express, édition internationale no 1533 - 29 novembre 19880" pp. 59 et ss.

البنــد الثاني ـ تطور الفكر السياسي الليبرالي(١٨٢)

وعلى صعيد الأفكار السياسية أيضا ، وقع تطور كبير خلال القرن الثامن عشر، تطــور ساهم كذلك في تحرير الفــرد من القيــود التي كان مكبلا بها ، وفي تحقيق الحريات الفردية ، وشحــذ الحافز الفردي ٠

لقد كانت الحالة الفكرية لأوربا عموما خلال العصر الوسيط ، مكبلة بقيــود الاقطــاع وخاضعة لتعاليم الكنيسة الصارمة ، ولكن مع ما شهده عصر النهضة من تطور ، وبتأثير هذا التطور ، وقع على صعيد الأفكار الانسانية عموما ، والأفــكار السياسية على وجه الخصوص ، تقدم ملموس ٠ ومما لا شك فيه أن وصف هذا التطور السياسي يجــاوز نطاق هذا البحث ، ذلك ان مجرد الوقوف على حيــاة المفكرين السياسيين (التقدميين) في هذا العصر ، وأعمالهم يحتــاج بذاته الى العديد من المؤلفات ، وليس الى مؤلف واحد ، حتى ان كثرة عددهم تضع الباحث امام حيرة ، أيهم نأخذ وأيهم نغفل ٠ لهــذا السبب ، نكتفي هنا بالتركيز على هذا

---

(١٨٢) Jean Touchard : Histoire des idées politiques
T I. : des origines au XVIII siècle (4o éd. 1971).
T II : des XVIIIo a nos jours (4o éd. 1975) - P.U.F. Paris.
J. Imbert, M Morel, R. J. Dupuy : la pensée politique des origines a nos jours "Textes Documents" P.U.F. Paris 1969.
Marcel Prelot et Georges Lescuyer : Histoire des idées politiques - Précis Dalloz, 6o édition, Paris 1977.
C. Northcote Farkinson : The évoiution of Political Thought Traduction en francais par louis Evrard : L'évolution de la pensée politique. T II, 3o partie, la Démocratie - Collection "idées", Gallimard, Paris 1965.
Paul Hazard : La pensée Européenne au XVIIIo siècle "De Montesqueu a Lessing" - Fayard - Paris 1963.
Augustin Colhin : Les sociétés de pensée et la democratie moderne. "études d'histoire révolutionnaire" éd. Copernic - Paris 1978.
Barrington Moore : Les orignies sociales de la dictature et de la démocratie - "Traduit de l'anglais par Pierre Clinquart" - Mespero Paris 1979.
البير سوبول : تاريخ الثورة الفرنسية (ترجمة جورج كوسي) ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ١٩٧٠ ٠

الجانب من تطور الفكر السياسي الذى يتصل مباشرة بموضوعنا ، الا وهو ، كما سبق ان بينا بالنسبة للاصلاح الدينى ، الجانب الذى يركز على « الفرد » ويطلق العنان « للحرية وللحافز الفردى » .

والواقع ، انه حتى في هذا النطاق المحدد ، لا يمكننا ان ننسب تطور الفكر السياسي وأثره على « الفكر الرأسمالى » الى كاتب بعينه او الى عدة كتاب « معينين » ، فحركة الفكر عموما ، وحركة الفكر السياسي خصوصا مرسلة ، ولا يمكن الادعاء بان شخصا بعينه كان له الأثر الحاسم في ارساء أفكار سياسية معينة دون ان يكون له صلة بمن سبقوه من المفكرين(١٨٣) .

ان التطور في الفكر السياسي في أوربا عموما ، منذ أواخر القرن السابع عشر انصب اساسا على مقاومة السلطة المطلقة للملوك من جهة ، وتحقيق الحرية والمساواة من جهة أخرى . وفي هذا المجال ، كانت انجلترا أسبق من فرنسا ، ولكن تاريخ الفكر السياسي ، يعزو دائما الى الثورة الفرنسية على الأخص ، تلك المبادىء الكبرى « الحرية ـ الاخاء ـ المساواة » ، والتى ظلت ولزمن طويل دليلا على تحقيق النظام « الديمقراطى » وضمان « الحريات الفردية »(١٨٤) .

طبعا ، ان هذه المبادىء الكبرى التى اعلنتها الثورة الفرنسية ، لم تأت من عدم ، انما سبقها الفكر الانسانى ، والسياسي على وجه الخصوص ، وساهم في بلورتها العديد من المفكرين الذين وان لم يتناولوا هذه المبادىء مباشرة ، الا انهم بأفكارهم وأعمالهم ساعدوا على تحقيقها . وكما سبق القول اعلاه ، يحير المرء امام كثرة هؤلاء المفكرين ، ويتساءل الباحث بايهم نبدأ ؟ هل نعود الى بداية عصر التنوير Le siècle des lumières لنلتقى بـ كنت Kant ودعوته الى ضرورة تحرير العقول وخروجها من الظلمات الى النور l'Afklariing (١٨٥) . ولكن اذا تكلمنا عن تحرر الفكر الانسانى عموما ، وتخلصه من الافكار المسبقة والخرافات والمعتقدات غير « العقلية » فلا يمكننا بالطبع في هذا الصدد ان تنكر أثر ديكارت Descartes . ان ديكارت استخدم المنطق والمنهجية في نطاق العلوم الطبيعية (الميتافيزيقيا) ولكن أثره لا يقف عند هذا الحد : لأن تلاميذه ومريديه Les cartésiens سينقلون فلسفته وأسلوبه المنطقى والمنهجى الى ميدان

(١٨٣) P Hazard, op. cit., note 182, pp. 449 et ss.

(١٨٤) Barrington Moore : op. cit., note 182, pp. 13 et ss. et43 et ss.

(١٨٥) ايمانويل كنت Emmmanuel Kant فيلسوف المانى ولد في مدينة Konigsberg عام ١٧٢٤ وتوفى عام ١٨٠٤ . وتقسم كتاباته الى مرحلتين ، أولاهما مرحلة ، تحضيرية ويقصد بها ـ

الأخلاق والعادات والأنظمة السياسية والدينية والاجتماعية (١٨٦) . فاذا كنا قد

- ماكتبه حتى عـام ١٧٧٠ La période précritique والمرحلة الثانية هي مرحلة النقد période critique وهي التى تمثل الفلسفة الحقيقية لكنت ويتناول فيهـا أصل الخليقة والحدود التي تقف عندها المعرفة . وأهم كتاباته :

١ - «نقد العقل المجرد ١٧٨١ La critique de La raison pure

٢ - أسس ميتافيزيقيا الأخلاق
١٧٨٨ Les fondements de la mtaphysique des moeurs

٣ - الدين في حدود العقل
١٧٩٤ La réligion dans les limites de la simple raison

٤ - مشروع للسـلام الدائم ١٧٩٥ Projet de paix pérpetuelle

٥ - المنطق ١٧٩٨ Logique

وتتلخص فلسـفة كانت فيما يتعلق بـ « تحـرير العقل البشرى » في ان هـذا التحرر يمكن ان يحدث دون ما حاجة الى قلب النظـام الاجتمـاعى ، وسبيل ذلك ان كنت يفـرق بين العـالم والباحث من جهـة ، والجندى ورجل الدين من جهة أخرى ، فهذان الاخيران اذ يتلقيان الاوامر ممن هو أعلى مرتبة ، لا يمكنهما مناقشـة أو نقد هـذه الاوامر بل يتعين عليهمـا التنفيـذ دون تفكير . لذلك فان التطور الفكرى لدى كنت يتم على مرحلتين . اما المرحلة الاولى وهى مرحلة الاعمـال ، فهـذه تظل مؤقتـا دون تغـير يذكر ، وأما المرحـلة الثـانية وهى مرحلة الفـكر وهى التى يـكون « للعقـل » فيهـا دور بـارز ، فهى المرحـلة التى يعـد فيهـا التطـور ، ويـكون ذلك بتطور أولئك الذين لهم القيـادة في المجتمع ، ومنهم بالطبع المفـكرون والعلمـاء ، وبتطور الفـكر الانسـانى لـدى هؤلاء فان هذا التطور سيؤثر بالقطع على « الاعمـال » في هذا المجتمع ، وهكذا يقع التطور دون اى اضطراب ، وبصورة تدريجية يدخل الانسـان الى عصر النور بعد ان كان غارقا في الظلمـات . هذا النـداء الذي أطلقه كانت سيجـد من يواصله وستتوالى النداءات نحـو تحرير الفكر الانسانى.

انظر في ذلك : Poul Hazard, op. cit., note 182, pp. 40 et ss.

وأيضا : Georges Pascal : Pour connaitre la penséde de Kant- Bordas - Paris 1966.

(١٨٦) رينيه ديكارت (١٦٥٠ - ١٥٩٦) René Descartes فيلسوف وعالم في علوم الطبيعة والرياضة ، أهم مؤلفاته :

١ - قواعد أعمال الفكر Réglés sur la direction de l'esprit 1628

٢ - محاضرات في المنهج العلمى Discours de la méthode 1637

٣ - مبـادىء الفلسفة Principes de la philosophie 1644

راجع في فلسفة ديكارت وافكاره وأثره :
Piettre, op. cit., note 6, pp. et ss. et Hazard, op. cit., note 182, pp. 133 et ss.

صعدنا في التاريخ حتى ديكارت وكنت ، فليس ذلك الا لبيان أثرهما في الفكر الانساني عموما ، وما اتاحاه ، وغيرهما[١٨٧] ، من تحرر الفكر الانساني من كل القيود وقيامه على أساس من المنطق والمنهجية العلمية . بحيث اذا أردنا ان نرى ، علاقة كل ذلك بالفكر السياسي على وجه الخصوص ، ابان مرحلة الثورة الصناعية . فاننا لا يمكننا أن نغفل ما اتاحه ، مبدأ حرية الفكر ، من العودة الى القانون الطبيعي ، تلك الفكرة التى مؤداها ان هناك قانونا طبيعيا يحكم المجتمعات البشرية ، قانون لم يضعه حاكم ، ولا يمكن لقوانين الحاكم ان تتعارض معه ، تلك الفكرة التى عرفت في سبيل بلورتها مساهمات العديد من الكتاب[١٨٨] ،

---

(١٨٧) ذلك ، اننا اذا ذكرنا كنت وديكارت ، تعين علينا أيضا الاشارة لغيرهم ممن ساهموا في هذا التطور بأفكارهم وآرائهم أمثال :

بير بايل (١٦٤٧ - ١٧٠٤) Pierre Bayle ، وهو كاتب فرنسي ولد في كارلا ، بروتستينيا وتحول الى الديانة الكاثوليكية ، واهم أعماله تجلت في المجلة التى انشاها باسم Les nouvelles de la République des letteres ١٦٨٤ - ١٦٨٧

وؤلفه المعروف باسم « معجم التاريخ والنقد »
Dictionnaire historique et critique ١٦٩٧ - ١٦٩٨

وايضا جامبا تيستافيكو Giambattista Vico ١٦٦٨ - ١٧٧٤
الفيلسوف والمؤرخ الايطالى ، الذى تاثر على وجه الخصوص بفلسفة افلاطون ، واثر منهجه على كل من كنت وهيجل .

(١٨٨) ومنهم على سبيل المثال لا الحصر :
صمويل يوفاندورف Samuel Pufendorf
المؤرخ والقانونى الالمانى ، مؤلف قانون الطبيعة والشعوب
Droit de la nature et des gens

وجوهان جوتليب هينكه Johann Gottheb Heincke
مؤلف « مبادىء قانون الشعوب والقانون الطبيعي
"Elementa juris naturae et gentuim ١٧٣٠

وجوهان كريستيان وولف Johann Christian Wolff
صاحب مؤلف « المنهج العلمى في تحديد القانون الطبيعى »
Jus natura methodo Scientifica ١٧٤٠

وستراب دى بيارمون Strube de Piermont صاحب مؤلف « ابحاث جديدة في أصل ومبادىء القانون الطبيعي »
Recherches nouvelles de l'orignine et des fondements du droit dé la nature ١٧٤٠.

وفرانسوا ريشار دوب François Richard d'Aube
صاحب مؤلف « محاولة في شرح مبادىء القانون والاخلاق » .
Essai sur les principes du droit et de la morale ١٧٤٢

انظر في تفصيل ذلك :
P. Hazard, op. cit., note 182, pp. 148 et ss

حتى جاء مونتيسكيو بكتابه الشهير «روح القوانين» (١٧٤٨) L'esprit des lois فشرح في أوضح المعانى ، ان القانون الطبيعي ، هو قانون فطرى وجد مع البشر ، يمكنهم اكتشافه ومعرفته بالرجوع الى العقل والمنطق ، هذا القانون مستمد من ظروف الشعوب الجغرافية والطبيعية والاجتماعية والتاريخية ، وهو يسمو على ارادة الحكام والمحكومين ، فهو نابع من « طبيعة الأشياء » ولا يمكن لحاكم أو لديكتاتور ان يعدل من هذه القوانين . تلك الافكار ولا شك ، كانت تأكيد اتجاه الفكر السياسي نحو الأنظمة الليبرالية(١٨٩) .

وفي ظل هذه التطورات الفكرية والسياسية ، أيمكن للمرء ان يتناسي آثار فكرة « العقد الاجتماعى » وما كانت ترمى اليه من وضع حدود لسلطة الحاكم ،

---

(١٨٩) شارل مونتسيكيو ١٦٨٩ ـ ١٧٥٦ Charles de Secondat Montesqu'eu
الكاتب والقانونى الفرنسي ، الذى يعتبر كتابه المذكور اعلاه (روح القوانين) مصدرا للمذاهب الدستورية الليبرالية القائمة على أساس مبدا الفصل بين السلطات .

وعلاوة على مؤلفه هذا الشهير ، الذى امضي في اعداده اربعة عشر عاما ، فان له مؤلفات اخرى ساهمت في وضع اسس النظم الليبرالية ، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، اهمها :

١ ـ ابحاث حول سياسة الرومان
Dissertion sur la politique des Romains ١٧١٦

٢ ـ الرسائل الفارسية ١٧٢١ les lettres persanes

٣ ـ ملاحظات حول أسباب انتصار الرومان واسباب انهيارهم
Considérations sur les Causes de la grandeur des Romains et de leur décadance ١٧٣٤

حول افكار مونتسيكو ، راجع :

J. Touchard, op. cit., note 182, pp. 392 et ss (T II)

J. Imbert (et autres) op. cit., note 182 pp. 258 et ss

M. Prélot et C. Jescuyer, op. cit., note 182, pp. 390 et ss

وايضا :

Montesquieu : du Principe de la démocratie (Extraits) Lib. de Médecis, Paris 1948.

Montesquieu : de l'esprit des lois (les grands Thèmes) Collec. "idées" Gallimard - Paris 1970.

وما أدت اليه في هذا الصدد مساهمات كل من لوك(١٩٠) وروسو(١٩١) وهوبز(١٩٢) من المساهمة في تقرير الحريات الفردية واطلاق ارادة الأمة وجعلها مصدرا لكل القوانين .

---

(١٩٠) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) Jhon Locke الفيلسوف الانجليزى ولد في Wrington وله العديد من المؤلفات ، اهمها :

١ - الحكومة المدنية (١٦٩٠) le gouvernement civil

٢ - افكار في التعليم (١٦٩٣) Pensées sur l'éducation

٣ - المسيحية المعقولة le Christianisme raisonnable

وقد كان لوك من انصار نظرية العقد الطبيعي ، وان الانسان كان في حالة فطرية يرفرف عليها المساواة والحرية والعدل ، وقد اراد الناس تنظيم حياتهم فانتقلوا الى الحياة المنظمة بواسطة عقد ، لذلك فهم لم يتنازلوا ، عن حقوقهم ، الا بالقدر اللازم لاقامة السلطة العامة في المجتمع الجديد والاطراف في العقد هم الافراد والهيئة الحاكمة ، لذلك تلتزم هذه الاخيرة بالمحافظة على حقوق وحريات الافراد وبعدم المساس بالحقوق التى لم يتنازلوا عنها .

انظر في ذلك :

J. Touchard, op. cit., note 182, T I pp. 374 et ss
P. Hazasd, op. cit., note 182, pp. et ss

(١٩١) جون جاك روسو Jean Jacques Rousseau (1712-1778)

ويعتبر اكثر المفكرين تأثيرا على رجال الثورة الفرنسية الذين اعتنقوا الكثير من آرائه حتى قيل عن كتاب العقد الاجتماعى (١٧٦٢) Du Contrat Social أنه انجيل الثورة الفرنسية . وتتلخص نظريته في ان اساس وجود الدولة هو العقد ، الذى اتفق الافراد بموجبه على العيش معا في جماعة منظمة ، واطراف العقد هم الافراد أنفسهم ولكن على أساس ان العقد قد تم بين مجموع الافراد (اى الشخص الجماعى المستقل) وبين كل فرد من هؤلاء الافراد ، وبموجب هذا العقد يتنازل الافراد عن حقوقهم وحرياتهم الطبيعية ، مقابل استعادتهم لحقوق وحريات جديدة تتناسب وتتماشي مع هذا المجتمع الجديد المنظم ، وتلتزم السلطة العامة بحماية هذه الحريات الجديدة ولا يمكنها المساس بها . وبذلك تسود المساواة والحرية والعدالة في المجتمع الجديد . ويصبح الفرد احسن حالا من حالته البدائية التى تسبق ابرام العقد .

هذا وبالاضافة الى مؤلفه الشهير (العقد الاجتماعى) فان لروسو العديد من الكتابات الاخرى ، اهمها :

١ - جولى أو «هلويزا الجديدة» (١٧٦٢) Julie ou la nouvelle Heloise

٢ - الـ « اميل » (١٧٦٢) . l'Emile

في افكار روسو ، راجع :

Louis Nillet : la pensée de Rousseau
Coll "Pour connaitre", Borda, Paris 1966.

وايضا :

J. Imbert (et autres) op. cit., note 182 pp. 268 et ss
Marcel Prélot et C. Lescuyar, op. cit., note 182 pp. 406 et ss
J. Toucharé, op. cit., note 182 T II, pp. 421 et ss.

(١٩٢) والواقع أن توماس هوبز ١٥٨٨ - ١٦٧٩ Thomas Hobbes الفيلسوف والكاتب الانجليزى ، قد ساهم ولا شك في اقامة النظرية الفردية ، فعلى الرغم من أن =

وفي سياق النظم الليبرالية ، والاتجاه الى تحقيق الحريات الفردية (باعتبارها سبيلا الى اطلاق الحافز الفردى وتكوين الفكرى الرأسمالى) هل يمكننا ان نتجاهل مساهمة توكيافيل Tocqueville وآراءه في الحرية وتقرير الحريات ؟[١٩٣] ان القائمة لا تتناهى ، فالفكر السياسي في تطوره نحو الديمقراطية والليبرالية ، ارتبط بالعديد من المفكرين والأسماء ، منها في فرنسا فولتير [١٩٤] ، وبنجمان كونستان Constant [١٩٥] ، الذى عرف الحرية بأنها « الاستمتاع الهادىء

= تفسيره للعقد الاجتماعي كان يرمى الى تحقيق السلطة المطلقة للحاكم ، باعتبار ان هذا الاخير لم يكن طرفا في العقد ، ومن ثم فهو لا يلتزم بشيء ، الا ان هوبز كان اول من اكد ان المصلحة الشخصية هى الدافع الاساسي لأوجه نشاط الانسان المختلفة ، وان هذه المصلحة هى المحرك الاول للتقدم الاقتصادى ، فكانت آراؤه هذه سابقة في تقرير الحرية الاقتصادية على مدرسة الذهب الحبر ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

وانظر أيضا :

Raymond Polin : Politique et philosphie de Thomas Hobbes.
Lib. J. Vrin, Paris 1977

(١٩٤) فرنسوا فولتير

Charles Alexis Henri Clérel de Tocqueville (١٨٠٥ - ١٨٩٥)

كاتب فرنسي ، سجن مرتين بسجن الباستيل المرة الاولى من ١٧١٧ الى ١٧١٨ والمرة الثانية حوالى عام ١٧٢٥ ، وافرج عنه لينفى الى انجلترا وقد استفاد من اقامته فيها ليكتب اشهر مؤلفاته وفي مجالات مختلفة :

١ - فقد كتب عن الحريات ودافع عنها في احدى رواياته السياسية « بروتوس ١٧٣٠ Brutus

٢ - وانتقد الحرب في مؤلفه « شارل الثاني عشر ١٧٣١ Histoire de Charles XIIo

٣ - وهاجم المعتقدات الدينية في مؤلفه ١٧٣٣ Epitre a Uranie

٤ - وهاجم أيضا النظام السياسي الفرنسي في رسائل فلسفية
Lettres Philosophiques ١٧٣٤

وقد عاد فولتير الى باريس عام ١٧٧٨ فاستقبل استقبال الابطال ، ولكنه توفى في مايو من هذا العام وقررت الجمعية التاسيسية عام ١٧٩١ نقل رفاته الى البنتايون (مقبرة العظماء Le Pantheon) ويعد من المفكرين البورجوازيين الليبراليين .

P. Mazard op. cit., note 182 pp. 391 et ss

(١٩٥) بنجمان كونستان (١٧٦٧ - ١٨٣٠) Benjamin Constant de Rebecque

كاتب ورجل سياسة فرنسي ، ولد بلوزان ، وتاثر بالفكر الالمانى في جامعة l'Echangen وبالفكر الانجليزى في جامعة Edimbourg وبالفكر الفرنسي من ارتياده الصالونات الباريسية . ويعتبر اكثر « الليبراليين » تطرفا ابان ثورة ١٨٣٠ ، واشهر اعماله مجمعة في دورس في السياسة الدستورية
Cours de politique Constiutionnel ١٨١٦

ومزيج من الادب والسياسة ١٨٢٩ Les mèlanges de littèrature et de Politique =

بالاستقلال الذاتي » ، ودون التوقف ، يمكن أيضا الاشارة بصفة عامة الى كل من ساهموا في احياء الفكر من العاملين في دائرة المعارف[١٩٦] L'encyclopedie والذين عرفو باسم Les Encyclopèdistes ، والذين ساهموا بحق في وضع الافكار الملائمة ، من النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، لمصالح الطبقة الجديدة (الطبقة البورجوازية) ٠

هذه الثورة الفكرية في فرنسا ، واكبتها ثورة مماثلة في انجلترا ، بدأت بتحرير العقول من الخرافات والدلوف الى عهد العلوم على يد بيكون (١٦٥١ - ١٦٢٦) Francois Bacon وواصلها في انجلترا دعاة الليبرالية ، من أمثال جيمس ميل (١٧٧٣ - ١٨٣٦) James Mill وستيوارت ميل ١٨٠٦ - ١٨٧٣) Stuart Mill [١٩٧] ٠

وفي هولندا ، يجدر بنا ان نذكر في هذا المقام الفيلسوف سبينوزا[١٩٨] ٠ وحتى في نهاية هذا العرض ، واذا تذكرنا ان الرأسمالية الناشئة استخدمت كافة الوسائل المتاحة لها لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، مهما كلف الأمر من متاعب

= وايضا الكراس الاحمر Le Cahier rouge والمذكرات الخاصة Les journaux intimes انظر :

J. Touchard : op. cit., note 182, T. II. p. 523

M. Prélot et Lescuyer : ou. cit., note 182 p. 449 et ss

J. Imbert et autres op. cit., note 182, pp. 391 et ss.

(١٩٦) وتنسب دائرة المعارف هذه الى Diderot باعتباره اول مدير لها استطاع ان يجعل منها مرجعا لشتى العلوم الانسانية ، وقد اقتضي انجازها تعاون ما يقرب من ١٥٠ مفكرا وكاتبا وعالم اشهرهم :

Voltaire, Montesquieu, Rousseau, Melvétuis, Condillac, d'Holbach Daubenton, Marmontel, Dumarsais, Quesnay, Turgot, le chevalier de jaucourt...

انظر : P. Hazard, op. cit., note 182, pp. 200 et ss.

J. Touchard, op. cit., note 182, pp. 532 et ss. (T. II).

(١٩٨) (١٦٣٢ - ١٦٧٧) Bruch de Spinoza ، وقد ولد في امستردام وتلقى ثقافة وتعليما عاليين استطاع بفضلهما الوقوف على معرفة متسعة في الدين والسياسة ، وكانت آراؤه التحررية في الدين سببا في طرده من الديانة اليهودية ٠ اهم مؤلفاته الاخلاق L'thique (١٦٧٧) وكذلك الموسوعة السياسية (١٦٧٥ - ١٦٧٧) Traité Politique ٠ وكان أيضا من المدافعين عن حرية الفكر والعقيدة ومن اشهر المتحمسين لفكرة الحرية الفردية ٠

P. Hazard, op. cit., note 182, pp. 300 et ss.

اجتماعية وتضحيات بالطبقـات الكادحة ، اذا تذكرنا ذلك ، هل يمكننا ان ننسي ان ميكيافيللى كان قد أوجد للرأسمالية الناشئة المبدأ الذى يمكن ان تعتمد عليه في تحقيق أهدافها « الغاية تبرر الوسيلة[١٩٩] » . حقـا ، ان هذا المبـدأ ، أتى به ميكيافللى في نطـاق سياسي محدد ، ولكنه لم يمنـع من انتشاره خلال الثـورة الصناعية ، كمبدأ تعتمد عليه الرأسمالية الناشئة في تحقيق أطماعها ، ونظرت الى الوسائل المستخدمة على انها وسائل مشروعة ، بصرف النظر عمـا عانته الطبقـات الأخرى ، طالما ان هذه الوسائل كانت صالحة لتحقيق غايتها : لقد ساهمت كل هذه الأفكار السياسية في أحداث تحول ملموس في الحياة السياسية والإجتماعية والاقتصادية ، تحـول يدور محوره حول « اطلاق الحريات الفردية وتمجيد الفـرد » واتضح ذلك جليـا في الايمـان بسمو العقل الانسانى ومقدرته وسيادته ، ليس فقط في النواحى المادية ، وانما أيضا في مجـال العلوم الانسانية والحياة الاجتماعية بما تتضمنه من تقاليد واخلاق وقواعد دينية . كما استندت فكرة الحرية أيضا ، على صلاح الانسان وسلامة الغريزة الانسانية ، فالانسـان خير بطبيعته ، لذلك ينبغى التخلى عن كل القيود التى فرضها المجتمع على الانسان والعودة الى الطبيعة الخيرة للانسان « لأن الانسان خير بطبيعته فاذا تحول الى شخص سيء فالمجتمع هو الذى يدفعه الى ذلك كما يقول روسو »[٢٠٠] .

كذلك ، يتضح هذا التحول في الافـكار الانسانية ، بحلول التفاؤل محـل التشاؤم : فبينما كانت الروح التشاؤمية المستندة الى الخطيئة الازلية هى التى ألهمت مظاهر الحياة الاجتماعية قبل القرن الثامن عشر ، فان الروح التفاؤليـة المستندة الى طبيعة الانسان الخـيرة هى التى سادت اعتبارا من هذا القرن .

---

(١٩٩) (١٤٦٩ - ١٥٢٧) Niccolo Machiavelli ، كاتب وسـياسي ايطـالى ولد بمدينة فلورنسا ، وتقلد بعض المناصب الدبلوماسية ، التى مكنته من تكوين افكار سياسية خاصة به ، اشتهرت باسـم « السـياسة الميـكيافيلية Machiavelique وخاصة نظرا لمبدئه الذى وضعه « الغاية تبرز الوسيلة » في كتابه « الأمير » والجدير بالذكر ان هذا المبـدأ كان قد وضعـه مكيافيللى لخـدمة قضيـة ايطاليا الممزقة ورغبة منه ان تتوحد ايطاليا ، فتوجه بنصـائحه في سـبيل ذلك ، مبـررا اتخـاذ كافة الوسـائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف ، ولـكن السياسة الميـكافيلية اصبحت شـائعة ونسيت القضية التى ظهر المبـدأ بمنـاسبتها .

راجع بالنسـبة لميكافيللى :

عبد الحميد البطريق ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ١٢٨ ، ص ٢٧ وما بعدها .

نور الدين حاطوم ، المرجع السابق اليه هامش ١٢٨ ، ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢٠٠) A. Piettre, op. cit., note 6, p. 61.

واخيرا استندت فكرة الحرية الى مفهوم الفردية ، وظهر ذلك على شكل حركة « التحررية الفلسفية » من حيث الاعتقاد في عدم وجود حقيقة مطلقة وان الحقيقة ليست سوى رأى واعتقاد ، لذلك فان الفرد هو معيار الحقيقة ، فالحقيقة توجد في ذات الانسان وفي حرية ما يصدره من أحكام[٢٠١] .

وهكذا نرى ان الرجوع الى « العقل والتفاؤل والفردية » كانت الأعمدة الثلاثة التى استند اليها تيار الأفكار السياسية في بداية مرحلة الرأسمالية الناشئة، وتبلورت في الاعتقاد في فضائل ومزايا الحرية بكل مظاهرها ، وأحدثت هذه الأفكار تحولا ملموسا في كافة ميادين الحياة السياسية في أوربا[٢٠٢] ، بل وخارج أوربا ، ولعل الثورة الفرنسية كانت أهم الأحداث التى كرست تلك الأفكار وتجلى ذلك بوضوح في ثالوث الثورة الذى رفعت شعاره « الحرية والاخاء والمساواة » . لقد أنصب اهتمام الطبقة البورجوازية الفرنسية على الحرية ، الحرية بكل أنواعها وأشكالها : ففى اعلان حقوق الانسان ، امتزجت المساواة بالحرية ، وكان الهدف من وراء ذلك تأكيد المبادىء التى تحقق « اذلال » الارستقراطية والغاء امتيازاتها ، أكثر مما يحقق الآمال الشعبية . لذلك انصبت فكرة المساواة على المساواة في الحقوق السياسية والمدنية ، فالحرية تعنى في نظر الطبقة البورجوازية ، قبل كل شيء « الحريات العامة والسياسية » ، ومنها تنطلق فكرة « الحرية الاقتصادية » ، ولكن على نحو يحقق آمال الطبقة البورجوازية في التوسع وفي تحقيق الثروة : فالفرد حر على الصعيد السياسي ، وهو أيضا حر على الصعيد الاقتصادى ، فبوسعه ان يعمل وان ينتج وان يبحث عن الكسب وان يتصرف فيما يكسب على هواه ، فدستور ١٧٩١ (دستور الثورة) دستور ليبرالى يعتمد أساسا على مبدأى « حرية العمل ــ حرية المرور Laissez faire, laissez Passez » ، لذلك فاننا لا نجد في اعلان حقوق الانسان الصادر في ١٧٨٩ أى ذكر للحرية الاقتصادية ، ذلك ان البورجوازية رأت في تلك الحرية ، مسألة بديهية ، تنتج مباشرة عما يتمتع به الانسان من حريات فردية وسياسية[٢٠٣] .

---

(٢٠١) راجع ما سبق في ص ٩٣ وما بعدها .

(٢٠٢) J. Toucharé : op. cit., note 182, T. II, p. 516.

(٢٠٣) والواقع ان اعلان حقوق الانسان الصادر في فرنسا عام ١٧٨٩ والذى تم اقراره بواسطة السلطة التاسيسية ، استخدم كمقدمة لدستور فرنسا الصادر في ١٧٩١ ، وقد تأثر واضعوه من جهة باعلان الحقوق الأمريكى الصادر عام ١٧٧٧ ، ومن جهة اخرى بآراء مفكرى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على نحو ما بيناه في المتن . ولكن هذا الاعلان لم يكن يعدو ان يكون وثيقة نشرتها الطبقة البورجوازية ولصالح هذه الطبقة ، وغالبا ما تعرف المبادىء =

وفي ظل هذا الجو السياسي ، ترتبط حرية العمل بالطبع بحرية اقامة المشروعات بحيث ينبغى ان يكون سوق العمل حرا ، كسوق الانتاج ، ولا يسمح بالتكتلات التى تعوق ممارسة هذه الحريات ، كنقابات العمال مثلا ، فالليبرالية الاقتصادية لا تتعرف الا على الأفراد ، لذلك صدر قانون لاشبيليه ١٧٩١ يحرم تكتلات العمال واضراباتهم ، وقد كان ذلك فاتحة عهد جديد أمام رأس المال ، « فالليبرالية أفادت الأقوياء بعد ان تأسست على فردية المساواة الاجتماعية » لذلك ، ترتب على فكرة المساواة هذه (مع الحماية المطلقة لحق الملكية الذى اضحى بفضل مبادىء تقنين نابليون حقا مقدسا لا يمس)(٢٠٤) ، نقول ترتب على هذه المساواة ، تأكيد التفرقة بين الطبقات ، و كما قال مونتيسكيو « ان كل انعدام للمساواة يجد أصله وتفسيره في مبدأ المساواة نفسه :

Toute inégalité doit puiser sa source et sa jutification dans le principe même de "l'égalité"(205).

لقد اطلقت فكرة « المساواة القانونية » العنان أمام رغبة البورجوازية في تحطيم كل قيود تقف أمام شهيتها المتفتحة للثروة والتوسع ، فوجدت في هذه المبادىء السياسية والقانونية ، خير معين لها على تحقيق رغباتها ، بحيث أصبحت فكرة المساواة القانونية بين الناس وسيلة فعالة لتحقيق « اللامساواة » بينهم عملا ، ذلك ان هذه « المساواة القانونية » ، التى ترتكز على كتابات الفقهاء تتجاهل الفوارق الطبيعية بين الناس ، تلك الفوارق التى ترجع الى قدرات كل فرد وامكانياته الجسدية والعقلية ، والتى تزيدها حدة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية ، وقد اعتمدت الطبقة « الأقوى » على هذه الأفكار وتلك المبادىء ، لتحقق أهدافها ، ولكن التطور ، كما سنرى ، سيؤدى الى اعادة النظر في هذه

= التى تضمنها هذا الاعلان بمبادىء الثورة الفرنسية أو مبادىء عام ١٧٨٩ . وتتلخص هذه المبادىء في : المساواة السياسية والاجتماعية لكل المواطنين ، احترام حق الملكية ، سيادة الأمة ، صلاحية جميع المواطنين لتولى الوظائف العامة ، خضوع الجميع دون استثناء للقانون باعتبار القانون « تعبير عن ارادة الامة » حرية الراى والعقيدة ، حرية الصحافة والتعبير ، التوزيع العادل للضرائب بحسب ما يقرره ممثلو الامة .

(٢٠٤) راجع في الفصل الثالث « الاثار القانونية للثورة الاجتماعية » ما ترتب على هذه الثورة من نتائج بالنسبة لحق الملكية ، وبالنسبة لتكتلات العمال (النقابات) .

(٢٠٥) Montesquieu : de l'esprit des lois op. cit., note 189, p. 88

المبادىء ، ليس فقط على الصعيد السياسي وانما أيضا على الصعيد القانوني[٢٠٦] .

المطلب الرابع ـ التطورات الاقتصادية « الليبرالية الاقتصادية»[٢٠٧]

ان تطور الأفكار الانسانية عموما ، والفكر السياسي بصفة خاصة ، لم يكن ليترك « النشاط الاقتصادى » دون تأثير .

لقد كان محور الفكر الانسانى ، اعتبارا من عصر النهضة وحتى القرن الثامن عشر هو « الحرية الفردية » ، وقد سبق ان أشرنا الى الأثر الذى أحدثته الأفكار الفردية في الميدان الاقتصادى ، وما أدت اليه من ان أصبحت قيمة الأشياء لا تعود الى ذاتيتها ، وانما الى مدى « احتياج » الأفراد لها ، أى أصبحت قيمتها تتوقف على الرأى الشخصي البحت الذى يكونه الفرد عن مدى استجابة هذه الأشياء لاشباع رغباته الخاصة[٢٠٨] .

---

(٢٠٦) انظر في هذا الموضوع :

هنرى باتيفول : فلسفة القانون (ترجمة الدكتور / سموحى فوق العادة) مجموعة « زدنى علما » منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠ ، ص ٨٥ وما بعدها .

احمد حسن البرعى : نحو مولد فرع جديد من فروع القانون « القانون الاجتماعى » بحث تحت الطبع بمجلة القانون والاقتصاد ـ كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة .

(٢٠٧) Joseph Lajugie : Les doctrines économiques
Que sais je ? no 386 - P.U.F. - 12° édition - Paris 1976.
Henri Denis : Histoire de la pensée économique - Thémis, sciences économiques, P.U.F. 5o éd. - Paris 1977
Maurice Niveau : Histoire des faits économiques contemporains op. cit., note 122.
André Garrignon - Lagrange et Marc Penouil : Histoire des faits économiques de l'époque contemporaine Dalloz - Paris 1977.
J. Imbert et H. Legoherél : Histoire économique "des origines a 1789" op. cit., note 157.
André Piettre, op. cit., note 6, pp. 69 et ss.
A. Rioux, op. cit., note 5, pp. 51 et ss.

وباللغة العربية راجع :

أريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادى .

(ترجمة الدكتور / راشد البراوى) .

« من الفكر السياسي والاشتراكى » ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .

وايضا ، احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢٠٨) راجع ما سبق ، ص ٩٣ وما بعدها .

ولكن التطور الفكرى ، الذى تعرضنا له ، والذى تناول مختلف جوانب الحياة الانسانية ، والذى كان يدور حول محور الحرية والنظام الليبرالى ، اصطدم (في الوقت الذى كانت الرأسمالية تسعى فيه لتثبيت اقدامها نهائيا كنظام اجتماعى جديد متكامل) اصطدم ببعض العوائق التى كانت تقف في وجه الليبرالية الاقتصادية وتتمثل هذه العوائق في تدخل الدولة وهيمنتها على النظام الاقتصادى ، وهو ما عرف باسم مذهب « التجاريين او المركنتلزم Mercantillisme » (البند الأول) ٠

لذلك ، كان لابد لانتصار النظام الجديد من القضاء على كل العقبات التى تقف في وجه حرية التجارة والصناعة ، وان تمتنع الدولة عن التدخل في الحياة الاقتصادية ايا كان شكل هذا التدخل ، وان يقتصر دورها على دور « الدولة الحارسة » ٠ أو بمعنى آخر ، كان لابد لاستتباب الأمر للنظام الرأسمالى الصناعى من ان تنتقل الأفكار السياسية الليبرالية ، ومضمون فكرة الحرية الفردية الى الميدان الاقتصادى ، وهو ما تكفل به الاقتصاديون الكلاسيكيون من انصار المذهب الحر ودعاة الليبرالية الاقتصادية ٠ (البند الثانى) ٠

البند الأول ـ المذهب التجارى Le Mercantillisme

عرفت القرون الثلاثة (الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر) تحولات هامة ، تعتبر مقدمة لقيام النظم الانسانية الحديثة ، وعلى الأخص ، النظام الكلاسيكى للاقتصاد السياسي الذى يؤرخون له بكتاب « ثروة الشعوب » لآدم سميث ٠ اما في الفترة التى انقضت بين ختام العصور الوسطى وظهور كتاب ثروة الشعوب ، فقد ساد الفكر الاقتصادى والحياة الاقتصادية ما يعرف باسم « مذهب التجاريين » ٠

ويقتضي التعرف على هذا المذهب ان نقدم له بعرض للتغيرات التى أدت الى التحول من النظام الاقطاعى الى نمو التجارة بين دول قومية كبيرة ، غنية وقوية ، ثم نبين بعد ذلك الخطوط الاساسية للمذهب التجارى ، قبل ان نبين كيفية تطبيق هذا المبدأ في بعض البلاد الأوربية الغنية ٠

(أ) مقدمات المذهب التجارى(٢٠٩)

استعرضنا ، طوال هذا البحث ، عوامل التحول من النظام الاقطاعى

(٢٠٩) J. Lajugie, op. cit., note 207, pp. 9 et 10.
Henri Denis, op. cit., note 207, pp. 93 et ss.

الى الرأسمالية الحديثة ٠ فلا نفعل هنا الا التذكير بهذه العوامل ، المادية والفكرية ، حتى نبين أثرها المباشر في التحول من النظام الاقتصادى الاقطاعى الى النظام الاقتصادى المؤسس على المذهب التجارى ، أو كما يقال عنه « النظام الرأسمالى التجارى » ٠

لقد تضافرت عدة عوامل من أجل القضاء على عالم العصور الوسطى : فقيام الدولة القومية التى سعت الى تحطيم قيود العالم الاقطاعى ، وعالمية السلطة الروحية الكنسية نتج عنه اهتمام أكبر بالثروة واسراع بالنشاط الاقتصادى ٠ وتفكك السلطة المذهبية المركزية بفعل الاصلاح الدينى ، وتقدم مفهوم القانون الطبيعى في الفقة والفكر السياسي ، كل ذلك هيأ الظروف المواتية لأسلوب عقلى وعلمى في معالجة المشكلات الاقتصادية ٠ وخاصة أن النظام الاقطاعى لم يعد كافيا لـ « تنظيم الانتاج » ، فقد هدمت الثورة الزراعية الأساس الذى قام عليه الاقتصاد الاقطاعى ٠

وثمه عامل قوى ساعد على هذا التحول ، من النظام الاقتصادى الاقطاعى ، الى الرأسمالية التجارية ، الا وهو « الفتوحات الاستعمارية » التى أدت الى توسع هائل في التجارة الخارجية ٠

ولقد كانت هذه التطورات مرتبطة الى حد بعيد : ففى انجلترا مثلا ، يمكن مشاهدة نمو الرأسمالية بصورة واضحة ، بحيث أدى تطور النظام التجارى الى القضاء على الأسلوب الزراعي المعتمد على انتاج « وسائل العيش » ورفع الزراعة الى الاعتماد على « السوق » ، مما أدى - الى حد كبير - الى التعجيل بحركة الأسيجة ، وترتب عليه ان صارت الزراعة خاضعة لحاجيات الأسواق الكبيرة ورأس المال التجارى الذى يسيطر على هذه الأسواق ، وقد عجل بتجميع رأس المال التجارى نمو التجارة الخارجية ٠ وغالبا ما استثمر رأس المال التجارى في الأرض ، بينما حدثت حركة مضادة من جانب الارستقراطية من أصحاب الأراضي ٠ فاكتمل بذلك اتحاد المصالح بين «رأس المال التجارى» و «رأس المال العقارى» ٠

وكانت الثورة في عالم « التجارة » مصحوبة بتغييرات في تنظيم الانتاج ، فظهرت مرحلة جديدة سيطر فيها الرأسمالى التاجر على عملية الانتاج التى كان يتولاها صغار أرباب الحرف ، وكان ربح التاجر ثمرة الاحتكار والاستغلال الفاحش ٠ في هذه المرحلة كانت سيطرة « الرأسمالية التجارية » كاملة(٢١٠) ٠

---

(٢١٠) ولكن هذه المرحلة تطورت - فيما بعد - الى صورة بدائية من الراسمالية الصناعية ٠ اذا ظهرت طبقة خاصة من رجال الصناعة « التجار » الذين استخدموا الصناع شبه المستقلين =

ولهذا ففى مجـال الانتاج والتجارة الداخلية ، أدت بداية الرأسمالية الصناعية ، الى حملات معادية للاحتكار من وقت لآخر ، مع ملاحظة ان هذه الحملات لم تكن موجهة الى النظام « الاحتكارى » نفسه ، بقدر ما كان يقصد بها محاربة الاحتكارات التى تخدم مصالح الرأسماليين التجار(٢١١) ٠

اما في نطاق التجـارة الخـارجية ، فقد واجهت سيطرة « الاحتكارات » مقاومة أقل من مثيلتهـا على النطـاق الداخلى ٠ ففى خـلال القرنين السـادس عشر والسابع عشر قامت الشركات الاحتكارية الكبرى التى كانت تتمتـع بامتيازات ضخمة وتحتكر التجـارة مع المستعمرات ، وكانت التجـارة حكرا على هـذه الشركات(٢١٢) ٠

وفي سبيل التخفيف من اخطار التجـارة ، أصبح الاستعمار سـلاحا مهما ٠ فجهود التجـار والشركات للسيطرة على الأقاليم البعيدة التى جرى الاتجار معها ، نادرا ما كانت كافية ، وكان لزاما اكمالها عن طريق استخدام الدولة لقوتها من أجل دعم الجهـود التى كان التجار يسهمون فيها الى حد كبير ٠ وهكذا ازدادت الصـلات بين المصالح التجارية والدولة توثقا ، وأصبح اهتمـام سياسة الدولة منصبا بدرجة متزايدة على مشـكلات التجـارة ٠

ولقد ساعد على هذا الاتحـاد ، بين رأس المـال التجـارى والدولة ، السمعة الكبيرة التى كان يتمتع بها بعض التجـار ، وخاصة الشخصيات الكبيرة منهم ، التى

= ممن يشتغلون في بيوتهم ٠ وكانت هذه الطبقـة من الراسماليين « الصـناع » تتعارض مصـالحها مع مصـالح الرأسـماليين « التجـار » ممن كانوا يحتكرون تجـارة الجملة والصـادرات وشـهد القرن السـابع عشر صراعا حـادا بين هاتين الطبقتين ٠ ولقد كانت الغلبة في تلك الفترة للراسمالية « التجـارية » ، وآية ذلك ليس مكانة هذه الطبقة في الانتاج فحسب بل وايضـا المركز الاجتماعى والسياسي الذى كان يتمتع به المشتغلون بالتجـارة ، ممـا مكنهـا من فرض « الاحتـكار » باعتباره افضل الوسـائل التى تخدم مصالح هذه الطبقة ٠

انظر في ذلك ، أريك رول ، المرجع السـابق الاشـارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ٤٩ وما بعدها ٠

(٢١١) ولـكن موقف الرأسمـالية الصـناعية من الاحتـكار ، سرعان ما يتبـدل ، فبعد أن استطاعت الرأسـمالية الصـناعية القضاء على « احتكارات » الراسمالية التجـارية ، لم يعد رأس المـال الصـناعى معـاديا للاحتـكار ، بل غدا يسعى الى تحقيقه في نطـاق المشروعات الصناعية الحـديثة ٠

(٢١٢) راجع ما سبق ص ٢٣ ٠

كانت تتمتع بنفوذ سياسي كبير وتعتبر بمثابة قادة « الفكر الاقتصادى » في عصرها (٢١٣) ٠

ولقد ترتب على كل هذه التطورات ، تحول من عالم « الزراعة والصناعة اليدوية » الى عالم التجارة والصناعة ، وسيترتب على هذا التحول في التجارة الخارجية بالذات ، تدفق كميات كبيرة من المعادن النفيسة ، من المكسيك وبيرو ، الى أسبانيا حيث ستتسبب في انتعاش اقتصادى مزدهر لم تعرفه أوربا من قبل ، ولكن أيضا ، سيترتب على ذلك ارتفاع مفاجىء في الأسعار ، أولا في أسبانيا ، ثم في القارة الأوربية بأكملها ٠

كل هذه الأسباب ، ستكون مقدمة ، للمذهب التجارى الذى سيسود أوربا من نصف القرن الخامس عشر الى نصف القرن الثامن عشر ، فما هو مضمون هذا المبدأ(٢١٤) ٠

(ب) مضمون المذهب التجارى(٢١٥) :

تعددت أسماء الاقتصاديين الذين ارتبط اسمهم ب « المذهب التجارى »(٢١٦) ، وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم ، سواء فيما يتعلق في الربط بين الذهب والثروة

---

(٢١٣) وكان اغلبهم من العاملين بالشركات الاحتكارية الكبرى ، من امثال كوكايين الذى كان من قادة شركة ايستلاند وخادما للملك جيمس الاول ، واستطاع ان يستخدم نفوذه لدى الملك في محاولته تغيير التنظيمات التى كانت تحكم التجارة في القماش حتى يدمر المغامرين التجار ٠ وميسيلون وهو من التجاريين البارزين اصبح عضوا في لجنة دائمة للتحقيق في اسباب انحطاط التجارة وهى اللجنة التى تحولت فيما بعد الى وزارة التجارة ٠ وحين دافع سير جوسيا تشايلر عن شركة الهند الشرقية اوضح ان الشركات المساهمة وحدت بين الارستقراطيين والتجار ٠ وعندما كتب Munn أعظم فلاسفة مذهب التجاريين ، يبدى ثناءه على نشاطات التجار كان يعبر عن راى كان موضع الاعتناق على نطاق واسع ٠

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ٥٢ ٠

(٢١٤) Joseph Lajugie : op. cit., note 202, p. 10.

(٢١٥) Henri Denis, op. cit., note 202, pp. 97 et ss.

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٥٦ ٠

احمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٦٢ ٠

(٢١٦) والواقع أن انصار المذهب التجارى ، متعددون ، ويمكن ان نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

واعتبارهما مترادفين ، أو بصدد السياسة المتبعة للتجارة الخارجية • على أن هذه الخلافات لم تكن عميقة بالدرجة التى تقضي على وحدة « المذهب التجارى » الأصلية ، ولا تمنع من ثم ، وضع تصور عام للخطوط الأساسية لهذا المذهب •

١ - يتميز المذهب التجارى بأنه مذهب نقدى :

فقد كانت الفكرة الشائعة لدى التجاريين هي أن الثروة تتوقف على النقود ، أو على الذهب والفضة • لذلك انصب اهتمام التجاريين على توفير أكبر قدر من الذهب والفضة ، داخل البلاد ، باعتبار ان ذلك هو مظهر الثراء ، ودليل القوة الاقتصادية •

- اولا في انجلترا :

كان اول المؤلفات في المذهب التجارى ، مؤلف جون هال John Hales بعنوان « محاضرات حول الرخاء المشترك للمملكة الانجليزية » • (١٥٨١) Discours sur la prospérité pubique de ce Royaume d'Angleterre

ولكن اشهر التجاريين كان بلا شك توماس مون Thomas Munn ١٥٧١ - ١٦٤١ مؤلف « محاضرات حول التجارة الانجليزية في الهند الشرقية » ١٦٢١ Discours sur commerce Anglais aux indes Orientales.

اما في فرنسا :

فكان اول من نادى بهذا المذهب انطون دى مونت كريستيان Antoine de Montchréstien ١٥٧٥ - ١٦٢١. مؤلف « موسوعة الاقتصاد السياسي (١٦١٥) Traité d'économie politique

وكذلك بارتلمى لافما ١٥٤٥ - ١٦١٥ Barthélemy Laffemas الذى كان يعمل في خدمة الملك هنرى الرابع والذى نشر عام ١٥٩٧ مؤلفه « الاجراءات اللازمة لاعادة تنظيم الصناعة بالمملكة Réglement pour dresser les manufactures du Royaume

وكذلك كولبير Colbert الذى أشرف على وضع السياسة التجارية موضع التنفيذ في فرنسا كلما سنرى بعد قليل •

وفي اسبانيا :

يعتبر أورتيز Ortiz الذى نشر في عام ١٥٨٨ مؤلفه « مذكرة الى الملك لمنع خروج الذهب » Mémoire au Roi pour empecher la sortie de l'or اشهر أنصار مبدأ « التجاريين »

اما في ايطاليا ، فان أكثر التجاريين شهرة هما بوتيرو (١٤٥٠ - ١٦١٧) Botero وسيرا Serra الذى نشر عام ١٦٤١ مؤلفا بعنوان « بيان الاسباب المؤدية الى تدفق الذهب والفضة في بلد ليس بها مناجم •

Bref traité des causes qui font abonder l'or et l'argent dans un pays ou il n'y a pas de mine.

لذلك ، نجد جميع التجاريين اشتركوا في تقديرهم للنقود ، بحيث كانت الغاية من النشاط الاقتصادى « جمع المال » ، وعلى الأخص اكتساب أكبر قدر من الذهب والفضة ، وانصبت كتابات التجاريين كلهم على تقدير « الذهب والفضة » باعتبارهما معيار الثروة[٢١٧] ، وقامت نظريتهم على أساس من « وفرة النقود » • واحتفاظها بقوة شرائية عالية[٢١٨] ، مع ضعف سعر الفائدة

---

(٢١٧) ويتضح هذا المعنى لدى الكثيرين من انصار المذهب التجارى ، فسيرا الايطالى يقرر ان المهم هو « ان يكثر الذهب والفضة في المملكة » ، ورغم ما كتبه ما بين وميسلون حول سياسة التجارة الخارجية، فانهما اتفقا على اهمية الذهب والفضة! • مالين « لانه اذا لم توجد النقود نقصت التجارة برغم وفرة السلع ورخص اثمانها » وكان ميسلون متشوقا الى قصر التجارة على العالم المسيحى حتى يتسنى المحافظة على الثروة •

نفس المعنى يقرره مؤلف أول موسوعة في علم الاقتصاد السياسي ، مونت كريستيان حيث كتب « يمكننا القول باننا لا نعيش من التجارة نفسها ، وانما من الذهب والفضة اللذين يتاتيان من هذه التجارة ، فهما صديقان وفيان، يستجيبان لاحتياجات الناس جميعا، لذلك فلا بد من جمع النقود لانها لازمة ، فاذا لم نجدها لدينا ، فلنبحث عنها في الخارج » •

Henri Denis, op. cit., note 207, p. 115.

(٢١٨) لم يهتم التجاريون بوجود النقود بوفرة فحسب ، وايضا اهتموا بقيمتها ، فانصب اهتمامهم على ان يكون لهذه النقود قوة شرائية ثابتة في أكبر دائرة ممكنة • ولا شك أن قيمة النقود انذاك كانت تقدر بمقدار ما تحويه من معدن ، لذلك ثارت ثائرة التجاريين واعترضوا على كل محاولة من جانب السلطات ترمى الى تخفيض « كمية المعدن » الموجودة في النقود ، لان ذلك كان يعنى ضعف قوتها الشرائية • ولقد ظهر في القرن الرابع عشر العديد من الكتابات « مجهولة النسب » والتى وضعت المبدأ الاقتصادى الشهير « العملة السيئة تطرد الجيدة من التداول » والذى يعرف حاليا باسم قانون جراشام Loi de Gresham نسبة الى الاقتصادى الانجليزى توماس جراشام (١٥١٩ — ١٥٧٩) Tomas Gresham ولقد ترتب على توافر كميات كبيرة من الذهب ناحية أوربا ، بعد الفتوحات الاستعمارية ، ارتفاع مفاجىء في الاسعار ، عزاه جون بودان Jean Bodin عام ١٥٦٨ الى ان القوة الشرائية للنقود المعدنية تتناسب تناسبا عكسيا مع كمية الذهب والفضة الموجودة في بلد ما ، وكان هذا الرأى بداية لخلاف طويل وجدل عميق انتهى بظهور « النظرية الكمية للنقود » والتى بموجبها ان قيمة النقود أيا كانت طبيعتها تتوقف على الكمية المتداولة منها ، فالقيمة تتناسب عكسيا مع الكمية المتداولة • ولكن ذلك لن يمنع التجاريين من الاصرار على ان « ثروة اى امة » مرتبطة بوفرة النقود لديها ، ولعل ذلك يرجع الى انهم كانوا يعتقدون ان وفرة النقود تسهل عمليات الاقراض وتؤدى بالتالى الى الاستثمار وازدهار المشروعات والاعمال •

Henri Denis, op. cit., note 207, p. 113.

تشجيعا للاستثمـار(٢١٩) ٠

ولكن تحقيق رغبة التجـاريين هذه ، في توفير أكبر قدر ممكن من الذهب والفضة ، وتحقيق أكبر وفرة ممكنة من النقود ، لا يتسنى الا بتدخل الدولة لفرض الاجراءات المناسبة ٠ وهذا هو المظهر الثانى من مظاهر المذهب التجارى ٠

٢ - المذهب التجـارى مذهب تدخلي :

فهو يدعو الدولة الى التدخل في النشـاط الاقتصـادى لتحقيق الـهدف الذى ينادى به المذهب الا وهو توفير أكبر قـدر من المعادن الثمينة ٠ والواقع ، أن دعوة التجاريين الى تدخل الدولة لتطبيق نظرياتهم لا يدعـو للدهشة ، فتحقيق سياسة التجاريين الاقتصادية، كان يتطلب توسعا في الخارج، وتنظيما في الداخل٠

فتحقيق متطلبات التجاريين كان يقتضي العمـل على منع خـروج الذهب والفضـة من البـلد ، واستجلاب أكبر قـدر منها من البـلاد الخارجية ، ولم يكن النشـاط الفردى قـادرا وحده على القيـام بهذه المهمـة التى كانت تتطلب دون شك بعض الاجراءات الرسميـة ، كتقييـد الواردات من الدول الأخرى(٢٢٠) وزيادة

---

(٢١٩) وطالمـا ان التجاريين كانوا ينظرون الى وفرة النقود على انها وسيلة لتوفير الامـوال اللازمة للاستثمـار ، فقد اهتموا أيضـا بمسالة خفض سـعر الفائدة لتحقيق الغرض المنشود ٠ فقد أكد توماس كولبير Thomas Cluper عام ١٦٢١ انه لو بلغ سعر الفائدة ١٠ ٪ فان كل المشروعات التى لا تحقق هذا الحد سيكون مصيرها الزوال ، علاوة على ان رفع سعر الفـائدة سيترتب عليه التقليل من المشروعات العـامة اللازمة لتطـور الصناعة والتجـارة ، لذلك نادى Cluper بضرورة خفض سعر الفـائدة وهو ما تحقق بالفعـل عام ١٦٥٠ حيث انخفض هذا السعر الى ٦ ٪ ، على أن بعض الكتاب يعزون ذلك الى وفرة النقود ، ممـا ادى لامكـان خفض سعر الفـائدة ، وأيا كان الامر فلا شك ان خفض سعر الفائدة يؤدى الى تشجيع الاستثمار والوصول بالاقتصاد القومى الى حالة من العمـالة الكاملة ٠

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٦٣ ٠

(٢٢٠) لذلك ، يدعوا الـكتاب التجـاريون الدولة الى خفض الواردات الى أكبر حـد يمـكن بالاستغناء عن السلع التـافهة والكمالية ، فمثل هذه المشتريات تؤدى الى خروج الامـوال من الدولة وذهابها الى دولة أجنبية ، ويترتب عليه افتقار الدولة المشترية واضعاف اقتصـادها ٠

وقد عبر Hales عن ذلك بقوة حيث يقول « اعتقد ان هناك ما يقرب من مائة الف جنيه (استرلينى) تخرج سنويا من خزينتنا لشراء مواد وبضـائع لا قيمة لهـا (٠٠٠) اى غبـاء منـا أن نتحمل ذلك وأن نرى بانفسنا خروج اموالنـا بصفة مستمرة ونهبها بواسطة الاخرين ، وخاصة خروج المواد الاولية التى غالبا ما تصنـع في الخـارج ثم نعـود لنشـتريها باموالنـا » ٠

Henri Denis. op. cit., note, 207, p. 117.

الصادرات الى الدول الأجنبية ، ومنع خروج الذهب من الدولة ، أو اعطاء العملات الأجنبية قيمة أكبر مما تحتويه من معدن تشجيعا على وفودها الى الداخل ، ومنع التجار من دفع مشترياتهم في الخارج بالنقود ، وانما يتم سدادها عن طريق بيع البضائع الوطنية .

كما كان يتطلب أيضا فتح أسواق جديدة في المستعمرات ، لذلك نجد أن التجاريين كانوا يشجعون فتح المستعمرات ، ولا يتحرجون من اخفاء هدفهم الأصلى (جلب المعادن النفيسة) تحت ستار الدين(٢٢١) .

كما أن الأمر كان يقتضي أيضا تنظيم الاقتصاد الداخلى على نحو يسمح بتشجيع التجارة والصناعة ، بحيث تقوى على منافسة البلاد الأجنبية ، والانتاج بأرخص الأسعار ، وكان ذلك يقتضي بالطبع تدخل الدولة ، باقامة الصناعات المملوكة للدولة ، ومنح الاعانات والمساعدات لمختلف الصناعات

---

(٢٢١) فنجد أن مونت كريستيان مثلا يقرر ، ان السياسة الاستعمارية تهدف الى « التعريف بالله ، خالقنا الى الشعوب البربرية ، التى لا يتوافر لها اى قدر من المدنية ، والتى تنادينا ونمد يدها الينا ، والتى تقبل الخضوع لنا بقصد توجيهها الى الطريق الصحيح ، عن طريق التعاليم الدينية والقدوة الحسنة »

"La colonisation a pour but de faire connaitre le non de Dieu notre créateur a tant de peuples barbares, privés de toute civilisation qui nous appellent, qui nous tendent les bras, qui sont pret a s'assujettir a nous afin que par des saints enseignements et de bons exemples nous les mettions dans la voie dusalut".

ولكنه لا ينسي الغرض الاساسي الذى يسعى اليه المستعمر ، أى الثروة ، فيربطه « بالنوايا الطيبة وبالدين » اذ يقرر « ولكن الله وعد من يسعون لفرض مملكته في الارض ان يعطيهم ثوابا حسنا ، لذلك فلا يجب ان ننسي أنه بالاضافة للبركات التى سيضيفها الله على الدولة التى تسعى لنشر دينه في الارض بفتوحاتها الدينية ، سيفتح أمامها في نفس الوقت مصادر واسعة لا تنتهى للثراء » .

ولعل من الجدير بالذكر ، في هذا الصدد ، ان نذكر ان البحث عن الذهب في البلاد البعيدة كان الصورة الاولى التى اتخذها التوسع الجغرافي والاكتشافات البحرية في اول الامر ، وقد عبر كولبس عن ذلك بصراحة بقوله « الذهب شيء مدهش ، من يملكه يملك كل ما يرغب فيه ، بل وبالذهب يستطيع المرء ادخال الارواح الى الجنة » ، بل ان مارتن لوثر نفسه ، في الهجوم الذى شنه على التجارة لم يخف تقديره للذهب ، اذ قال « ان الالمان يعملون على اثراء العالم كله وافقار أنفسهم الى حد التسول وذلك بارسال ما يملكون من ذهب وفضة الى البلاد الاجنبية وكانت فرانكفورت بأسواقها المنفذ التى تفقد عن طريقه المانيا كنوزها » .

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٦٠ .

والمشرعات التجـارية ، ووضع سياسة جمركية تعمل على اعاقة الواردات وتشجيع الصادرات ٠

وثمة فكرة أخرى تبناها التجاريون ، وكانت أيضـا تقتضي تدخل الدولة هى العمل على زيادة عدد السـكان ، فالتجاريون يرون أن نجـاح المشروعات الاقتصادية لا يتوقف على وفـرة المـال فحسب ، بل وأيضـا على وفـرة الأيدى العـاملة ، لذلك طالبوا الدولة بالتدخل لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتشجيع زيـادة السكان ، مع وضع حد أعلى للأجـور ووضع نظام العمل الاجبارى(٢٢٢) ٠

ولكن التجاريين ، اذ لجأوا الى الدولة ، لتحقيق سياستهـم الاقتصـادية ، فان ذلك لم يكن ، من جانب الدولة ، مجـرد استجابة للنـداء ، بل تأتى من أن التجاريين وضعوا مبادئهم بصـورة تربط بين ما يحققه التجـار من مكاسب وبين مصلحة الدولة ذاتها ، بحيث تجلى ذلك في أنه كلما ازدادت قوة التجار ومكاسبهم ، كلمـا ازدادت سلطات الدولة وقويت شوكتهـا ٠

لقد جاءت سياسة التجاريين ، لتكذب قول ماكيافيللى « في الحكومات ذات التظيم الجيد ، ينبغى أن تكون الدولة غنية والمواطنين فقـراء » ٠
"Dans un gouvernement bien organisé. l'Etat doit etre riche et les citoyens pauvres"(223).

---

(٢٢٢) فالتجاريون ، كانوا يرون أن زيادة عـدد السـكان شرط لازم للتوسـع الاقتصادى ، لان هذه الزيادة تسمح بالحصول على الايدى العـاملة اللازمة للصناعة والتجارة ، وبسـعر منـاسب ٠ لذلك يرى التجاريون أن افضل وسيلة لزيادة الارباح هى وفرة العمـال ، لان وفرتهـم ستؤدى الى خفض أسعارهم وجعلهم يقبلون العمل في اى ظروف بل والعمـل بصفة مستمرة ٠

لذلك ، يقترح بعض التجـاريين ، الحفـاظ على سعر القمح مرتفعـا حتى في سنوات الرخاء ، حتى لا يأكل العمـال بسهولة مما قد يدفعهم الى التقاعد عن العمل ٠

أو أن بعضهـم اعترض على تعليم الجمـاهير ، لأن ذلك قد يحرم التجارة والصناعة من الايـدى العاملة اللازمة لهـا ٠ ومما يلفت النظر بهذا الصدد هو موقف التجـاريين من عمل « الاطفال » فنجد مثلا أن Colbert يقرر « أن الكسل في سنوات العمر الاولى يؤدى الى سوء التنظيم في الكبر » ، ولذلك كان يستخدم في مشرعاته الصـناعية اطفالا لم يتجـاوزوا السادسة من العمـر ، والتجـارى Laffemas يشيد بالمشروعات التى تسمح بتشغيل الاطفال في سن مبكرة ٠
Henri Denis, op. cit., note 207, pp. 110 et 111.

(٢٢٣) Discours sur Tite - Live, in Machiavel, le Prince et autres textes Paris, Union générale d'édion 1962, p. 151 - Cite in Henri Denis, op. cit., note 207, p. 99.

فالتجاريون يرون العكس ، ويقررون ان كل ازدياد لقــوة الدولة يتمثل أسـاسا في زيادة ثراء مواطنيهـا • فالتجاريون يرون أن جمـع الثروة هو « هدف الحياة » ، ويؤكدون أن هذا الهدف يلتقى مع مصالح الدولة العليـا : فالثروة ، كما يقررون ، تتمثل في الأرباح التى يحققها التجار ورجال الأعمـال ، هذه الارباح تتراكم وتحقق أرباحا متزايدة ؛ ولكن ذلك التوسع وتلك الزيادة ، يتوقفان بالطبع على نمو الصادرات وازديادها وتطور الصناعات التصديرية ، ولا يتأتى ذلك ، الا بتوافر الأيـدى العـاملة من جهـة ، وتزايـد النقود من جهة أخرى • ولكن هذين العنصرين ، اللذين لا غنى عنهما لتحقق الثروة ، لا يعدوا ان يكونا الدعامتين الأساسيتين اللتين تقـوم عليهما أى دولة قوية : فهذه الأخيرة بحـاجة الى زيادة السكان حتى تتمكن من تكوين جيش قـوى عند اللزوم ، وزيادة النقود لتتمكن من تغطية نفقات الحروب •

اذن فالعـوامل التى تؤدى الى قـوة الدولة (زيادة عـدد السكان ــ ووفـرة النقـود) هى نفس العوامل التى تؤدى الى زيادة الثروة • يتضح اذن ان هناك تلازما وتناسقا بين الأهداف الاقتصادية التى يسعى التجـاريون لتحقيقهـا ، والأهداف السـياسية التى ترمى الدولة الى بلوغها • فتطور التجارة والصـناعة التى تسعى الطبقة الرأسمالية الى تحقيقه كهدف ، يتطلب من الوسـائل ما تسعى الدولة الى تحقيقه كغاية لها هى الأخرى ، الا وهو وفرة النقود وتزايد السكان •

لذلك ، كان من الطبيعى ان يصبح تدخل الدولة جزءا جوهريا من المذهب التجـارى ، فتقبـل الحـكام الافـكار التجـارية ورسـموا سـياستهم تبعـا لهـا ، اذ رأوا فيهـا وسيلة لتقوية الدول القـائمة على أساس الحـكم المطلق أزاء المنافسين لها في الخـارج ، وبقايا النزعة الاقليمية المتخلفة عن العصور الوسطى في الداخل •

ولذلك ، كان المذهب التجارى ، بالضرورة ، مذهبيا قوميا ، وهذا هو ثالث مظهر من مظاهره •

٣ ــ المذهب التجارى ، مذهب قومى :

وهذه الصفة ، تستخلص بالطبع ، من كون المذهب نقديا وتدخليـا • فمن جهة ، نجد ان كمية الذهب والفضـة الموجودة في العـالم محدودة ، فلا مفر اذن من تقرير تعرض المصالح « الوطنية » لمختلف الدول والتى تتمثل في الحصـول على أكبر قـدر ممكن من هذين المعدنين •

ومن جهة أخرى ، نظرا لأن سياسة التجاريين انصبت على الاهتمام ببيع منتجاتهم للخارج كوسيلة لتحقيق الثروة ، وما ترتب عليه من خوفهم من السلع ورغبتهم في التخلص منها ببيعها للغير(٢٢٤) ، أدى الى تعارض المصالح القومية للدول فيما بينها ، نتيجة لسعى التجاريين الى تحقيق فائض من التصدير ، وهذا الفائض لا ينشأ الا اذا حقق البيع ربحا ، وهو ما لا يمكن ان يحدث الا على حساب الدول الأخرى « لانه لا يمكن لاحد أن يكسب سوى ما يخسر الآخر »(٢٢٥) ٠

لذلك ، سلم المذهب التجارى ، بتعارض المصالح القومية للدول فيما بينها ، ولذلك ، اهتم أنصار هذا المبدأ برعاية مصالح الدولة ككل ، لا مصلحة الأفراد أو الطبقات المختلفة داخل الدولة كل على حدة ٠ وترتب على ذلك ان اختلف تطبيق المبدأ من دولة الى أخرى ، بحسب السياسة التجارية المتبعة في كل منها ٠

(ج) تطبيق السياسة التجارية(٢٢٦) :

امتدت السياسة التجارية ، على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون (من منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر) لذلك ، فمن الطبيعى ان تختلف « تطبيقاتها »من دولة الى أخرى ، بحسب اختلاف الظروف الاقتصادية لكل دولة على حدة من جهة ، ولاختلاف العصر الذى ازدهرت فيه هذه السياسة من جهة أخرى ٠

على ان « التطبيقات » المختلفة للسياسة التجارية ، تتلخص في ثلاثة أشكال رئيسية ، ظهر كل شكل منها في بلد معين في وقت معين :

---

(٢٢٤) فعلى نقيض الهدف الذى وضعته الدولة نصب أعينها قديما وهو تحقيق وفرة من السلع كان رأى التجاريين أن بيع السلع الى الغير أفضل دائما من شرائها منهم ، لان الاول يحقق ميزة معينة بينما الثانى خسارة لا مفر منها ٠ وهذا الخوف من وجود مقادير من السلع التى لا تباع يشيع في كل كتاباتهم ٠

انظر ، أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٦١

(٢٢٥) لذلك ، كتب أحد التجاريين (دافينان عام ١٦٥٧) يؤكد « ان الشعب بوجه عام لا يزداد غنى عن طريق التجارة الداخلية ، اذ لن يترتب عليها سوى تغيير في المقادير النسبية التى يملكها الافراد من الثروة ، بينما تحقق التجارة الخارجية زيادة صافية في ثروة البلد » ٠

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ٦١ ٠

واحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٦٣ ٠

(٢٢٦) Joseph Lajugie : op. cit., note 207, pp. 10 et ss.

١ ـ تطبيق المذهب التجارى في أسبانيا :
(الاحتفاظ بالمعادن النفيسة في الداخل)

اتخذ تطبيق المذهب التجـارى في أسبانيا ، أقـرب الصور وأكثرها حرفية لتعاليم التجاريين • فنظرا للثراء الذى حققته أسبانيا نتيجـة لتدفق كميات كبيرة من الذهب والفضة من المستعمرات ، اكتفى أنصـار المبـدأ التجـارى بالدعوة الى الاحتفـاظ بهذه المعادن داخل أسبانيا والعمل على استجلاب المزيد منها ومنع خروجها •

وفي سبيل تحقيق ذلك الهـدف ، اتخذت السـلطات العامة عـدة اجراءات اهمها منع خروج الذهب والفضة من البلاد ، والزام المصدرين الأسبان باعادة المبالغ النقدية التى حصلوا عليها من الخارج ثمنـا لصادراتهم ، والزم المصدرين الأجانب باخراج قيمة صادراتهم الى أسبانيا لا في شكل مبالغ نقدية بل في شكل سلع أسبانية بهذه القيمة ، وخفض القيمة الاسمية للعملة الأسبانية مع الابقاء على ما تحتويه من فضة وذهب ثابتا ، ورفع القيمة الاسمية للعملات الاجنبية للمساعدة على جذبها الى أسبانيا ، ومنع خروج العملة الاسبانية •

وبذلك ، اكتسبت السياسة التجارية في أسبانيا الشكل المعدنى أكثر أشكال السـياسة التجـارية أولية وبساطة ، وقد ترتب على تدفق المعـادن الثمينـة ارتفـاع للاسعار في أسبانيا ، مما دعا بعض الكتـاب الى التنبيه الى خطورة تلك السياسة(٢٢٧) •

٢ ـ تطبيق المذهب التجارى في فرنسا : سياسة التصنيع :

كانت الظروف الاقتصادية في فرنسا ، تختلف عنها في أسبانيا ، لذلك ، اتخـذ تطبيق المبـدأ التجـارى في فرنسا شكلا مغايرا عنه في أسبانيا • ففرنسا

---

(٢٢٧) وعلى الاخص جـان بـودان (١٥٣٠ ـ ١٥٩٦) Jean Bobin الذى قـدم في مؤلفه « رد على متناقضـات مالسـتروا » عرضـا مسـهبا لاسـباب زيادة الاسـعار ، كان يعـزوها الى أسباب خمسـة (وفرة الذهب والفضة ، أسلوب الاحتكارات ، والندرة التى يرجع بعض السبب فيها الى الانتاج المحلى ، وترف الملك والسـادة الـكبار ، وتخفيض العملة) ومن هـذه الاسبـاب نعتبر الاول أهمها • وكذلك جـون هـال Hales في مقاله السابق الاشارة اليه (هامش ٢١٦)•

أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٥٤ وما بعدها •

Henri Denis, op. cit., note 207, pp. 102 et ss.

لم تكن لديها مناجم للذهب والفضة ، لذلك اتجه التجاريون فيها ليس للمناداة بالاحتفاظ فحسب بما لديها من معادن ، بل بالعمل أيضا على اكتساب هذه المعادن ، ولكن عن طريق التصنيع • ولقد ارتبط تطبيق السياسة التجارية « الصناعية » في فرنسا باسم كولبير(٢٢٨) الذى استطاع منذ ان تولى الوزارة في عهد لويس الرابع عشر ، أن يضع السياسة التجارية « الصناعية » موضع التنفيذ وان يتخذ من الاجراءات ما يساعد على زيادة حصيلة فرنسا من المعادن الثمينة عن طريق اقامة قاعدة صناعية فرنسية قوية قادرة على المنافسة الدولية(٢٢٩) •

فعلى الصعيد الداخلى ، منح كولبير بعض الامتيازات والاعانات والاعفاءات الضرائبية للمشروعات التى تنتج السلع المخصصة للتصدير والقادرة على جلب الأرباح ، كالسلع الفاخرة والمنتوجات القيمة • كما اهتم أيضا بتخفيض أسعار المواد الغذائية ومنع تصديرها للاحتفاظ بأجور العمال الصناعيين في مستوى منخفض ، مما يقلل من نفقة المشروعات الصناعية ويزيد قدرتها على المنافسة الخارجية • كذلك حرص كولبير على أن تقوم الدولة بالاشراف على المنظمات الحرفية بقصد توجيه العمال نحو أحدث فنون الانتاج الصناعى • واكتملت لسياسة التدخل الحكومية هذه عناصرها ، بالعمل على تدعيم وسائل النقل ، وخاصة تنمية الاسطول البحرى والشركات المتخصصة في التجارة الخارجية •

اما بالنسبة للسياسة الخارجية ، فقد وضع كولبير عام ١٩٦٧ تعريفة جمركية استهدفت تحقيق الحماية المطلقة للصناعات الناشئة ، وفرض ضرائب باهظة على الواردات الأجنبية التى تنافس السلع الوطنية ، كما اعفى المواد الأولية المستوردة من دفع أية ضريبة تشجيعا للصناعة الوطنية •

٣ ـ تطبيق المذهب التجارى في انجلترا ـ سياسة تجارية :

كانت الظروف في انجلترا شبيهة بظروف فرنسا ، من حيث ان كليهما

---

(٢٢٨) (١٦١٩ ـ ١٦٨٣) Jeans - Baptiste Colber رجل دولة فرنسي ، ولد بمدينة Reims في عائلة برجوازية ، وتقلد عدة مناصب انتهت به الى ان اصبح الوزير الرئيسي Principal ministre في عهد لويس الرابع عشر ، وقد تمكن من تقديم خدمات كثيرة للملك ، وكان عهده مزدهرا لانه حقق نجاحا في ميادين مختلفة من اوجه النشاط في الدولة •

(٢٢٩) وينبغى التنبيه هنا ، الى ان Colbert ، لم يكن اول التجاريين الفرنسيين وان كان ينسب اليه تطبيق السياسة التجارية في فرنسا ، ويرتبط اسمه بهذه السياسة ، الا ان هناك بعض التجاريين الفرنسيين الذين لا يقلون عنه شهرة ، كانطوان دى مونت كريسيان ، ولافما (السابق الاشارة هامش ٢١٦) وكذلك بودان (سبق الاشارة اليه هامش ٢٢٧) •

كان لا يملك مستعمرات تنتج المعادن الثمينة ، لذلك اتجه التجاريون الانجليز الى البحث عن كيفية اكتساب الذهب والفضة من الدول الأخرى[٢٣٠] . ولكنهم لم ينادوا كالفرنسيين بالتركيز على الصناعة ، بل اتجهوا صوب التجارة الخارجية لانجلترا ، وحرصوا بكل الوسائل على تحقيق ميزان تجارى في صالح انجلترا ، مما يدفع الدول المدينة الى تسوية عجز ميزانها مع انجلترا بارسال الذهب والفضة اليها ، وكذلك تشجيع الأسطول البحرى الانجليزى واستخدامه كمصدر للحصول على العملات الأجنبية ، وفي سبيل ذلك صدرت قوانين الملاحة في عهد كرومويل (أولا في عام ١٦٥١ ثم ١٦٦٠) ، وبموجبها احتفظت السفن الانجليزية بالحق في نقل البضائع من انجلترا الى البلاد الأخرى ، ومنعت السفن الأجنبية من نقل البضائع الى انجلترا الا اذا كان مصدر هذه البضائع هى الدولة التى تتبعها هذه السفن ، والا يجب نقل هذه البضائع على السفن الانجليزية .

كذلك عمد التجاريون الانجليز ، الى مساعدة صناعات التصدير بالعمل على خفض أجور العمال ، واستقدام العمال المهرة الأجانب ، وخفض سعر الفائدة ، وعدم مساندة التنظيمات الحرفية المضمحلة ، وتطبيق سياسة جمركية تفرض فيها ضرائب مرتفعة على الواردات من السلع الاستهلاكية ، واعفاء الواردات التى يعاد تصديرها من دفع أية ضرائب ، واعفاء المنتجات الوطنية من أية ضريبة على الصادرات . كما اتبعت سياسة خارجية استعمارية من شأنها ان تساعد على الحصول على المواد الأولية والسلع الفاخرة من المستعمرات ، طبقا لسياسة استعمارية ، وبحيث لا يؤدى ذلك الى قلب الميزان التجارى الانجليزى ضد مصلحة انجلترا ، وذلك عن طريق فرض الصادرات الانجليزية (بسعر مرتفع) على هذه المستعمرات والضغط عليها لقبول هذه المنتجات[٢٣١] .

تلك هى الخصائص العامة وصور تطبيق « السياسة التجارية »[٢٣٢] ، وهي تعطينا بلا شك صورة التفاعل الذى يقوم بين التنظيم السياسي والنظم

---

(٢٣٠) وبالاضافة الى جون هال Hales وتوماس مون Munn (راجع هامش ٢١٦) تجدر الاشارة الى كل من W. Petty — J. Child

انظر :

J. Lajugie, op. cit., note 207, p. 111.

(٢٣١) أحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ٧١ .

(٢٣٢) ويمكن أن نلحق بهذا المذهب ، مذهب الكاميراليست Les Camerlistes في المانيا ، والذين كانت فلسفتهم تقوم على اقامة صناعة وطنية قوية ، تعتمد على تدخل الدولة وحمايتها .

الاقتصـادية . وبين الأفكار والسـياسات الاقتصادية والسياسية . ففيما يتعلق بهذه الفترة من التطور ، سبقت الرأسمالية التجارية الرأسمـالية الصنـاعية الحديثة ، ومهدت الأرض أمامها ، وخاصة بما ساعدت عليه من تراكم رأس المـال . ولكن الرأسمالية الصناعية وجدت في قوة الدولة عائقا خطيرا في طريق نموها ولذلك اتخذت موقف المعارضة من البنيـان السياسي الذى سبق لسلفها ان وجدت من الضرورى ان تخلقه .

لقد طالب التجاريون بدولة من القـوة ، بحيث تحمى المصلحة التجارية وتحطم الكثير من الحواجز التى اقامتها العصور الوسطى في وجه التوسع التجارى . ولكن الرأسمالية الصناعية ، ستجد في هذه « القـوة » عدوا ، ينبغى التخلص من سيطرته واطلاق العنان للحرية الاقتصادية ، امتدادا « لروح الليبرالية الفردية والسياسية » التى ازدهرت على الصعيد السياسي . لقد آن الاوان لنبذ السياسة التى تهتم بمصالح « الدولة » ولا تنظر الى مصالح « الفرد » « والطبقة » ، بل آن الآوان ، لكى تصبح لهذه المصالح الأخيرة « الفردية » و « الطبقية » السبق على كل ما يتعارض معها من مصالح . وباختصار ، لقد آن الاوان لتحـول في الفـكر الاقتصادى يتناسب مع التحولات الفكرية الانسانية عموما ، والسياسية بوجه خاص ، نوع من الفـكر ينقل الى الاقتصـاد ، النظرة الفردية ، ويجعل « الحافز الفردى » محورا للنشـاط الاقتصـادى . وهذا ما تكفل به انصـار المذهب الحر من الاقتصاديين (التقليديين) .

البند الثـانى ـ المذهب الحر(٢٣٣) :

قلنا ، ان العلاقة بين التنظيم الاقتصادى والنظم السـياسية ، وبين الافكار والسياسيات الاقتصادية والسياسية ، هى علاقة تفاعل ، لذلك ، كان لابد لتغيير

---

(٢٣٣) Luc Bourcier De Cabron :Essai sur l'histoire de la pensée et des doctrines économiques
T I : Montchrestien a Karl Marx - Edition Montchrestien - Paris 1971.
André Piettre : Pensée économique et theories contemporaines - Précis Dalloz - 6o édition - Paris 1973.
Stuart Mill : Textes choisis - "Préface de F. Trevous" - Coll. des grands économistes - Dalloz Paris 1953.
Joseph Lajugie, op cit., note 207, pp. 12 et ss.
اريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ٨١ وما بعدها .
أحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ١١٧ وما بعدها .

النظـام الاقتصادى وتحوله من تحت قبضة الرأسمالية التجارية ، الى نظـام جديد تكون السيطرة فيه للرأسمالية الصنـاعية ، كان لابد لذلك من ان يتم تحـول مماثل على صعيد الفـكر الاقتصـادى • وهو ما وقع بالفعـل في أواخر القـرن الثامن عشر ، بظهور المذهب الحر (او المذهب التقليدى) ، وقد هيمن هذا المذهب على الحياة الاقتصادية ، داعيا الى التخلص من سيطرة الدولة ومناديا بالليبرالية الاقتصادية ، ومؤسسا دعوته على وجود قوانين طبيعية تحكم العلاقات الاقتصادية، بحيث اذا تركت هذه القوانين حرة ، دون تدخل خارجى ، فانها تؤدى الى تحقيق أفضل النتائج بالنسبة للافراد والجماعة ، ومن ثم ينبغى على السلطة العـامة ان تمتنع عن التدخل في الحياة الاقتصادية حتى لا تعرقل عمل هذه القوانين •

ويعتبر آدم سميث هو أشهر أنصار هذا المذهب ، بل ان المؤرخين جروا على الربط بين نشأة هذا المذهب وبين كتابه الشهير « ثروة الامم » ، ولكن هذا لا يعنى ان هذا المذهب كان مجهولا من قبل ، بل لقد سبق سميث في هذا المجـال ، العديد من الكتاب والفلاسفة الذين نادوا بالحرية الاقتصـادية واستنـدوا الى القانون الطبيعى(٢٣٤) •

ومن المؤكد ان هذا المذهب الحر عموما ، لم يكن منفصلا عن التطور الفكرى العـام الذى شهدته هـذه الفترة ، وعلى الأخص تطور الفـكر السياسي • فهـذه التطورات ، كما سبق ان بينا(٢٣٥) ، استندت الى الحرية الفردية وتمجيد الفرد ، على المستوى الاخلاقى والفلسفى والسياسي ، فكان لابد أن ينتقل تأثيرها ، الى النظام الاقتصادى ، تحت ضغط التيار الفكرى العام ، وبفضل العديد من المفكرين •

ولعل هوبز كان أول هؤلاء ، فقد قامت فلسفته على أساس « فردى » ، حيث كان يقرر ان الفرد تحركه المصلحة الذاتية ، وتعتبر حجر الأساس الذى يبنى عليه

---

(٢٣٤) ومن بين هؤلاء يعتبر وليم بيتى (١٦٢٣ - ١٦٨٧) أول اقتصـادى انجليزى مهـد الارض للنظـام الكلاسيكى ، ممـا دعـا البعض لان يطلق عليـه « مؤسس الاقتصاد السـياسي » وأهـم أعمـاله « مقال عن الضرائب والمساهمات » (١٦٦٢) وعلم الحساب السياسي (حوالى ١٦٦٠) ومن هؤلاء أيضا ، ساهم لوك الـكاتب السيـاسي في التمهيد للانتقـال من المذهب التجـارى الى المذهب الـكلاسيكى • ومنهم كذلك « لى نورث الذى كان - في الفترة السابقة على المذهب الحر من انصـار حرية التجـارة ، وكذلك دافيد هيـوم التى تعـد كتاباته ذات اهمية قصـوى باعتبـارها كتابات توفق بين الفكر الاقتصادى « التجـارى » والمرحلة الانتقالية ما بينه وبين افكار المذهب الحر •

راجع في ذلك ، أريك رول ، المرجع السابق الاشـارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ٩٣ وما بعدها •

(٢٣٥) راجع ما سبق ص ١٣٣ وما بعدها •

الفرد كل تصرفاته • ويرى هوبز ان خضوع الافراد ـ لسلطة الحاكم ـ يقوم أيضا على فكرة المصلحة ، لأن الحاكم اذ يحكم حكما مطلقا ، فان ذلك يكون من أجل تحقيق خير للأفراد أكثر مما توفره لهم الحياة البدائية • فالانسان البدائي لم يستسلم للسطة الا اعتقادا منه انها ستحقق له « مصلحة ذاتية » وبشكل أفضل مما كان عليه في حياته البدائية • وبذلك كان هوبز أول من أبرز فكرة « المطلحة الذاتية » واعتبرها « الدافع الأساسي » لاوجه نشاط الانسان المختلفة(٢٣٦) •

وفي هذا المقام ، ينبغي أيضا الاشادة بدور جون لوك ، الذى الف بين جميع عناصر الفكر وسار بها خطى بعيدة ليجعل منها فلسفة سياسية تناسب العصر الذى أصبحت فيه الرأسمالية واثقة من الفوز : فالعقد الاجتماعى الذى جعل الناس عند أفلاطون يبنون المدنية ، وعند هوبز يخضعون للسلطة المطلقة ، هذا العقد نلقاه عند لوك وقد امتزج بقواعد القانون الطبيعى ، فاضفى عليه هذا التمازج صبغة جعلته يعترف بغرائز الفرد الطبيعية ، وأصبح العقد الاجتماعى الذى أقام الحكم المدنى ، يعتمد اعتمادا كليا على مقياس الرضاء من جانب المحكومين • ففى فلسفة لوك بأسرها يمكن الادراك بأن « المصلحة الذاتية » هى القوة المحركة للسلوك(٢٣٧) ، وهى فلسفة تلائم دون شك الاحوال الجديدة للاقتصاد ، فتصبح بذلك مقدمة لاضمحلال سلطة الدولة التى سبق ان خلفها رأس المال التجارى في مرحلة سابقة من مراحل حربه ضد الأقطاع ، أو قل انها « تطور كامن في العلاقة بين الرأسمالية وأول تعبير سياسي عنها ، انها أول فصل في المذهب الحر الذى هو فلسفة الرأسمالية الظافرة »(٢٣٨) •

لقد توالت بعد ذلك الأفكار التي انصبت على تقديس الفرد وتكريس الحريات الفردية ، فاصحاب الموسوعة Les Encyclopédistes تغنوا بفكرة « الحرية » ، واستندوا في هذا الى أفكار روسو التى نادت بالاعتقاد في صلاح الانسان وسلامة الغريزة الانسانية ، كما استندوا أيضا الى أفكار عصر النهضة الممثلة في العقل الانسانى وقدرته على التفكير ، ليس فقط في نطاق الماديات ، بل وحتى في الحياة الاجتماعية بما تتضمنه من تقاليد واخلاق وقواعد • وقد سبق ان رأينا العودة الى القانون الطبيعى خاصة بفضل مونتسكييه •

---

(٢٣٦) Raymond Polin, op cit., note 192, pp. 50 et ss.

(٢٣٧) J. Touchard, op. cit., note 182, T. I, pp. 374 et ss.
P. Hazard, op. cit., note 182, pp. et ss.

(٢٣٨) أريك رول : المرجع السابق الاشارة اليه ٢٠٧ ، ص ٨٦ •

كل هذه الافكار ساعدت على استكمال « النظرية الفردية » لمقوماتها فكان لابد من نقل هذه الافكار الفلسفية والسياسية والاخلاقية الى النطاق الاقتصادى ، وهو ما تكفل به على التوالى « الفيزيوقراط (الطبيعيون) بقيادة فرانسوا كنياى ثم تولى الكلاسيكيون وعلى رأسهم آدم سميث تعميق هذه الافكار وتثبيت دعائم المذهب الحر »[٢٣٩] ٠

(أ) مدرسة الطبيعيين (الفزيوقراط Les Physiocrates)

نشأت مدرسة الطبيعيين في فرنسا خلال القرن الثامن عشر ، وبهذه المدرسة ندخل الى عهد المدارس والمذاهب في الفكر الاقتصادى ٠

ويعتبر فرانسوا كينــاى (١٦٩٤ ــ ١٧٧٤) Francois Quesnay مؤسس هذه المدرسة الاقتصادية دون منازع ٠ ولكن الى جانبه ، نجد العديد من الاسماء التى ساهمت مساهمة فعالة في تكوين أفكار هذه المدرسة[٢٤٠] ، ووضعها موضــع التنفيذ[٢٤١] ٠

---

(٢٣٩) وتجدر الاشارة في هذا الصدد ، الى ان الافكار والمبادىء الاقتصادية التى أتى بها انصار الليبرالية الاقتصادية ما زالت موضع دراسة حتى الان ، ولا تكاد المؤلفات التى تتناولها تقع تحت حصر ، لذلك فاننــا لا نتعرض هنا الا لاحــد جوانب هذه الافــكار ، وهو الجانب الذى يعنينا ، أى الذى يتصل بفكرة الحرية والمصلحة الفردية ٠

(٢٤٠) فرانسوا كيناى هو طبيب لويس الرابع عشر ومدام «دى بومبادور» ٠ وعلى الرغم من أن أول مؤلفاته الاقتصــادية لم ير النــور الا بعد أن بلغ الستين من عمــره الا أن اهتمــاماته بالزراعــة كانت قوية ، وربمــا توارث هذا الامر عن أبيه المحامي ، الذى يقــال عنه انه كان « مزارعا أكثر منــه محاميا » ٠ واهم مؤلفات كينــاى هى :

١ ــ مزارعــون وحبــوب ١٧٥٦ Fermiers et grains الذى نشره بالموسوعة L'Encyclopédie

٢ ــ ولكن الاهم هو كتابه « الجدول الاقتصادى ١٧٥٨ Tableau économique الذى تنــاول فيه الدراسات الاقتصادية على أساس التحليل الكلى مؤكدا أن العلاقات المتبادلة بين مختلف مظاهر الحيــاة الاقتصــادية تجعل هذه الحياة كلا مترابط الاجزاء ٠

والى جانب كيناى ، نجد أن أهم مفكرى المدرسة الطبيعية هم :

ــ المركيز دى ميرابو Les marquis de Mirabeau (وهو والد خطيب الثورة الفرنسية) وأهم مؤلفاته « صديق الناس ١٧٥٦ .Les amis des hommes (حيث نجد في مؤلفه هذا تعبــيرا قويا عن فلسفــة الفيزيوقراط وما دعوا اليــه من الاهتمــام بالارض) وكذلك نظرية الضرائب ١٧٦٠ La théorie de l'impot ، والفلسفة الزراعية عام ١٧٦٣ ٠

=

ويقتضي عرض أفكار هذه المدرسة الاقتصادية ، ان نبين أولا الأسباب المباشرة التى أدت الى ظهورها ، ثم نبين ما هى المبادىء التى تنادى بها ٠

١ ـ الاسباب التى أدت الى ظهور الافكار الفيزيوقراطية :

ولدت أفكار الفيزيوقراط كرد فعل مباشر لحدثين أساسيين ، أولهما اقتصادى ويتمثل في تدهور القطاع الزراعى بشكل خطير ، والآخر ادارى وهو ازدياد القيود المفروضة على التجارة والصناعة وفقا لتعاليم المذهب التجارى ٠

ـ ديبون دى نيمور Dupont dit de Nemours الذى نشر عام ١٧٦١ مؤلفا بعنوان « الطبيعة او الدستور الطبيعى لحكومة اكثر نفعا للشعب » ٠
"La Physiocratie ou constitution naturelle du gouvernement le plus avantageux aux peuples"

ـ لامرسييه دى لاريفيير Le Mercier de la Rivière ومؤلفه النظام الطبيعي والاساسي للمجتمعات السياسية (١٧٦٧) ٠

ـ لاترون Le Trosne ومؤلفه « الفائدة الاجتماعية بالقياس الى القيمة والتبادل والصناعة والتجارة » ٠
De l'intérèt social par rapport a la valeur, a la circulation a l'industrie et au commerce.

ـ رئيس الدير بودو L'abbè Baudeau واهم مؤلفاته :
مدخل الى الفلسفة الاقتصادية (١٧٧١) Introduction a la philosphie économique

ـ رئيس الدير روبو موريليه L'abbé Roubaué Morellet الذى كان من أشهر المتحمسين لتعاليم كيناى وافكاره الاقتصادية ٠

وسيعمل هؤلاء على دعم مدرسة الفيزيوقراط ، سواء عن طريق الندوات التى كانت تعقد غالبا لدى كيناى في فرساى (باعتباره طبيب الملك) ، او على صفحات المجلات والدوريات بحث بدت هذه المدرسة في فترة من ١٧٦٤ الى ١٧٧٠ وكانها حزب سياسي منظم ، ولكن ذلك لم يمنع من ظهور معارضين لها ، منهم اصحاب الموسوعة Les Encyclopédistes والفيلسوف Didrot راجع في كل ذلك : Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, p. 46

(٢٤١) ويقال في هذا الصدد ، ان المذهب الفيزيوقراطى وجد له « كولبير Olbert » في شخص تورجو (١٧٢٧ ـ ١٧٨١) Anne Robert Jacques Turgot رجل الادارة والاقتصادى الفرنسي الذى تولى عام ١٧٧٤ منصب مراقب عام المالية (وزير المالية) ، فاتخذ بعض الاجراءات الليبرالية المستقاة من تعاليم الفيزيوقراطيين ، فالغى الجمارك الداخلية ، واراد الغاء الطوائف الحرفية وتحرير الصناعة والتجارة من القيود ، ولكنه اصطدم في محاولاته هذه باصحاب الامتيازات المستفيدين من هذه القيود ، فاستحق غضب الملك عليه (لويس السادس عشر) واقيل من منصبه ٠ وأهم مؤلفاته رسائل في التسامح (١٧٥٤) ٠
Lettres sur la tolérance
Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 58 et ss.

والذى يعنينا هنا بالذات ، هو السبب الثانى ، فلقد توسع انصار المذهب التجارى في وضع القوانين واللوائح التى تحد من الحريات • لقـد كانت الدولة تتدخل في الاستغلالات الزراعية لتمنع زراعة معينة ، وكانت القيود على الأخص تحيط بتجارة الحبوب ، حيث قامت السلطات المحلية بفرض حواجز جمركية بين الأقاليم ، وقامت السلطة المركزية بوضع قوانين « بوليسية » صارمة تنظم بهـا تجارة الحبوب •• » •

هذه النظم المتشـددة ، مهدت الرأي العام ليتقبل بحماس ، الفـكر الجديد الذى سينادى بالحرية كوسيلة لزيادة الإنتاج ، ويؤكد على الدور الأول للزراعة لتحقيق الثروة[٢٤٢] •

٢ ـ نظريات وأفكار الفيزيوقراطيين :

يعتبر الفيزيوقراطيون أول من نادى بفكرة « القانون الطبيعى » أو « النظام الطبيعى » في نطـاق الاقتصاد ، فكانوا بذلك أول من عرف واشار الى وجـود « قوانين اقتصـادية طبيعيـة » • وتعتبر فكرة « النظـام الطبيعى » هى المحرك الأساسي لنظرياتهم الاقتصادية • ومؤدى هـذه الفكرة ، ان المجتمعـات جميعـا تتطور وفقا لقوانين عامة تنبـع من النظـام الطبيعى L'ordre naturel ، هذا النظام ليس من صنع البشر ولكنه من خلق الله سبحانه وتعالى ، اراد به اسعاد البشر ، لذلك يتعين على هؤلاء فهمـه والالتزام بأحكامه •

والواقع ان الفيزيوقراط ، جعلوا من النظام الطبيعى الأسـاس الذى انبنت عليه نظرياتهم[٢٤٣] : فديبون دى نيمور مثلا يعـرف الفيزيوقراطية بأنهـا « علم النظام الطبيعى » "La science de l'ordre naturel" فقـد كتب يقـول « ان النظـام الطبيعى هو الدسـتور الطبيعى الذى أعطـاه الله للعـالم "l'Ordre naturel est la constitution physique que Dieu a donné a l'univers".

(٢٤٢) Luc Bourcier de Carbon op. cit., note 233, p. 45.
Joseph Lajugie, op. cit., note 207, p. 12.

(٢٤٣) وهذا أمر طبيعى ، فاسم المدرسة Physiocratie مشتق من الكلمتين اليونانيتين Phusis وتعنى الطبيعـة و Kratos وتعنى السلطة وبذلك يقصـد بالفيزيوقراط انصـار حكومة الطبيعة •

هذا النظام يقوم على قوانين طبيعية ، يقول ميرسيبيه دى ريفيار عنها انها « قوانين لا يمكن العدول عنها لأنها مستمدة من طبيعة الاشياء وطبيعة الناس ، وهى تعبير عن ارادة الله » .

ويبين لنا الفيزيوقراط ، طريق التعرف على هذه القوانين الطبيعية ، وسبل التوصل الى هذا النظام الطبيعى ، فيؤكدون ان السبيل الامثل الى ذلك هو اطلاق الحريات الفردية واحترام حق الملكية ، لأن ذلك يؤدى الى تحقق النظام الطبيعى دون ما حاجة الى أى قانون

"Le maintien de la propriété et de la librté fait regner l'ordre le plus parfait sans le secours d'aucune autre loi" (Maurice de la Rivière).

وتفسير ذلك ، أن النظام الطبيعى نظام الهى ، يقوم على أساس من التنسيق بين المصلحة الخاصة والخير العام للجماعة : فالمصلحة الخاصة لكل فرد لا يمكن ان تكون مخالفة لهذا النظام الالهى ، لذلك فان الفرد في بحثه الدائب عن مصلحته الخاصة سيعمل أيضا على تحقيق « المنفعة العامة » . لذلك يكفى ان يترك الناس احرارا حتى يتحقق هذا النظام الطبيعى ، فيحقق الخير للجميع . ويؤكد مارسيه دى لارفيار هذا المعنى بقوله « ان من جوهر النظام الطبيعى ان المصلحة الخاصة لاحد الأفراد لا يمكن اطلاقا ان تنفصل عن المصلحة العامة للجميع ، وهذا ما يحدث في ظل نظام الحرية ، ان العالم يسير في هذه الحالة بطريقة ذاتية ، وتتكفل الرغبة الفردية للانسان في التمتع ، ان يسير المجتمع نحو تحقيق الخير للجميع على أفضل نحو ممكن » . ولذا ، يضع كيناى بنفسه المبدأ الأمثل الذى يجب ان يحكم كل نشاط اقتصادى فردى « الحصول على أكبر زيادة ممكنة من التمتع بأقل قدر ممكن من النفقات ، ذلك هو الكمال في السلوك الاقتصادى »(٢٤٤) .

وتتلخص فكرة الفيزيوقراط على هذا النحو ، في مبدأ شهير ، كرس الحرية الاقتصادية ، وهو مبدأ « دعه يعمل دعه يمر » ، مع تحديد الدور الذى يجب أن

---

(٢٤٤) "Obtenir la plus grande augmentation possible de jouissance par la plus grande diminution possible de dépense, c'est la perfection de la conduite économique".

راجع في كل ذلك :

Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 48 et 49.

Joseph Lajugie, op. cit., note 207, p. 13.

اريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١٣٠ .

تلعبه الدولة وما يجب على الأفراد القيـام به : فالدولة تلتزم بالامتناع عن التدخل في الحياة الاقتصادية ، ويجب عليها ان تقـوم بالغـاء كافة الحواجز المصطنعة في وجه حرية النشاط الاقتصادى وان تعمل على حماية الملكية ، وتنشر وتعلم قوانين النظام الطبيعي ، وان تقوم بالمشروعات العـامة ، كالطرق والقنوات ٠٠ وغيرها ٠

ويترتب على ذلك ، ان ينحصر دور الدولة ، في وظيفة « الدولة الحارسة » ، فيمتنع عليها ان تصدر من القوانين ما يتجاوز نطـاق هذه الوظيفـة ، وتلتزم بترك النشاط الاقتصـادى الفردى محكوما بالقوانين الطبيعية ، فاذا ما أصـدرت الدولة قوانين في هـذا المجـال ، فلا يجب ان تـكون هذه القوانين الا مجـرد صـياغة « القوانين الطبيعية » غير المكتوبة ٠

اما الأفـراد ، فينبغي على كل منهم ان يسعى الى تحقيق مصلحته الخاصة ، دون ان يخشي شيئا ، فالنظام « الطبيعى » ، نظام الهى ، يحقق التوافق بين المصلحة الخاصة للافراد والمصلحة العامة للمجتمع ، ولا يتصور اذن ، في ظل نظـام كهذا ان يقع « اصطدام » بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة للافراد ٠

تلك هى « الفكرة الرئيسية » التى قامت عليها نظرية الفيزيوقراطيين[٢٤٥] ، والتى تعد بحق ، أول حجر في بنـاء « الليبرالية الاقتصادية » ،بما نادت به من

---

(٢٤٥) والى جانب هذه الفكرة الرئيسية يقـوم الفـكر الاقتصـادى الفيزيوقراطى على فكرتين اخريين : اما الأولى فهما فـكرة النـاتج الصـافي Le produit net (هى فـكرة تقترب بشـكل عـام الى فكرة الدخل الوطنى في الوقت الحالى) ٠ فالفيزيوقراط يرفضون نظرة التجاريين التى تقول ان الثروة الحقيقية تكمن في المعـادن الثمينة ، ويعتقدون من ثم أن زيادة الثروة ترجع الى التبـادل (التجارة) ٠ ويعتقد انصـار المذهب الطبيعى ان الثروة الحقيقية تكمن في النـاتج الذى يجـاوز النفقات اللازمة للحصـول عليه ، وهذا النـاتج الصافي يظهر أكثر ما يظهر في النشـاط الزراعى اما النشـاط التجـارى او النشـاط الصناعى ، فهما اوجه عقيمة لا يترتب عليها الحصـول على ناتج صـاف ٠ لذلك يقسم الفيزيوقراط العمل الى طائفتين : احداهما منتجة قـادرة على خلق فائض ، وهذا هو العمل الزراعى ، والاخرى عقيمة كالعمل التجارى والصناعى ٠ فالعمـل الزراعى وحده يمكنه أن يحقق منتوجا أكبر من النفقـات التى انفقت للحصول على هذا المنتوج ، فيكون بذلك محققا للثروة ، لأن هذا النشاط هو الوحيد الذى تتضافر فيه جهود الانسـان لتحقيق الناتج ٠

اما الفكرة الثـانية التى يستنـد اليهـا الفيزيوقراط ، فهى فكرة « دائـرة التداول الاقتصادية Le circuit économique » وتتمثل في شرح كيفية توزيع الناتج الصـافي ٠ وفي هذا الصدد ، وتمشيا مع افكارهم يقسم الفيزيوقراط المجتمع الى طبقات ثلاث :

١ ــ الطبقة المنتجة وهى طبقة المزارعين ٠

٢ ــ الطبقة العقيمة وهى تتكون من التجار والصناع والموظفين العموميين ٠٠٠

٣ ــ طبقة ملاك الاراضي الزراعية التى تملك الارض ولكنهـا غير منتجة ٠ فالمنتـج الحقيقى هى الطبقة الاولى ، واما هذه الطبقـة فتعيش على ما تحصـل علية من الانتـاج مقابل ايجـارها للارض للطبقة الاولى ٠

حرية النشاط الاقتصادى وبتأسيس هذا النشاط الحر على «المصلحة الفردية» ، وامتناع الدولة عن التدخل ، فهذه الأفكار ، بحق ، لا تعدو ان تكون « الأسس » التى ارتكزت عليها الرأسمالية الصناعية في بناء « نظامها الاقتصادى الجديد » .

(ب) المدرسة الكلاسيكية :

استنادا الى الأسس التي وضعها الفيزيوقراطيون ، ستقوم نظرية اقتصادية متسعة ومتكاملة ، بواسطة مفكرين اقتصاديين فرنسيين وانجليز ، وسيطلق على هؤلاء اسم « المدرسة الكلاسيكية » ، وسيوصف تصورهم للنظام الاقتصادى بأنه « كامل ونهائى » ، اذ أنه سيؤدى من الناحية الفكرية ، الى ليبرالية مطلقة ، استمدت عناصرها بالطبع من أفكار الفيزيوقراط[٢٤٦] ولكنها استندت أيضا الى حدثين كبيرين ، بل الى ثورتين أحداهما فنية وعلمية ، والأخرى سياسية وقانونية .

اما الثورة الفنية والعلمية ، فتتمثل في تقدم الاختراعات والاكتشافات الصناعية ، وفي تقدم الآلية ، على نحو ما سبق ان بينا ، وحلول الآلة محل الأيدى العاملة[٢٤٧] .

— ويرى الفيزيوقراط أن الطبقة الاولى وحدها هى التى تقوم بتحقيق الانتاج الصافي وهى التى تقوم بتوزيعه على المجتمع بالتعامل مع الطبقات الاخرى .

ونظرا لتركيز الفيزيوقراط على « النشاط الزراعى » على هذا النحو ، ذهب البعض للقول بانهم اتجاه يمثل الليبرالية الزراعية Le libératisme agrarianiste وذلك بالمقابلة الى المدرسة الانجليزية الاقتصادية التى اطلق عليها الليبرالية الصناعية
Le libéralisme induslrialiste

راجع في ذلك :
Joseph Lajugie : ou. cit., note 207, pp. 12 et 15.
Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 49 e 152.
A Piettre, op. cit., note 233, pp. 61 et ss.

واريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٢٤٦) فمما لا شك فيه ، ان آدم سميث ، اشهر الكلاسيكيين ، تاثر بالطبع بافكار الفيزيوقراط ، نتيجة اقامته بباريس لمدة عام (١٧٦٥ — ١٧٦٦) ، ثم عام ونصف بعد ذلك في تولوز ، وخاصة لو لاحظنا ان تاثير الفيزيوقراط كان شديدا في الفترة من ١٧٦٤ الى ١٧٧٠ وهى الفترة التى كان سميث فيها في فرنسا . والدليل على ذلك ، انه بالرغم من محاولة سميث تغطية هذا التاثر ومهاجمة افكار الفيزيوقراط ، الا ان المحاضرات التى كان يلقيها في جامعة جلاسجو قبل سفره الى فرنسا ، كانت خلوا من افكار الفيزيوقراط ، التى وردت في كتابه الشهير « ثروة الأمم » الذى نشره عام ١٧٧٦ أى بعد عودته من فرنسا .

راجع ، احمد جامع السابق الاشارة اليه هامش ٤ ، ص ١٢٥ .

(٢٤٧) راجع ما سبق ، ص ٣٦ وما بعدها .

واما الثورة القانونية والسياسية ، فتتمثل في الثورة الفرنسية ، التى أطلقت العنان للحرية ، والفردية ، والتى وان كان المناداة بها على نطاق الحريات السياسية والمساواة القانونية ، فسريعا ما ستنتقل الى النطاق الاقتصادى ، أولا على يد مفكر انجليزى أسبق من آدم سميث ، هو دافيد هيوم David Hume الذى نادى بحرية التجارة ، وضرورة استنادها على التنافس الحر بين الأمم والأفراد[٢٤٨] ، فكان لآرائه تأثير كبير على آراء مؤسس المدرسة الكلاسيكية واشهر مفكريها آدم سميث[٢٤٩] .

وليس في الامكان هنا ، ان نستعرض كل أفكار آدم سميث الاقتصادية ، ولذلك سنقتصر هنا على الجانب المتصل بفكرة الحرية والقوانين الطبيعية[٢٥٠] ، والتى تعد الاساس الفلسفى للمذهب الحر « وهو المذهب الذى أعطى الاطار الفكرى للرأسمالية في مرحلتها الاولى ، أى الرأسمالية الناشئة » .

---

(٢٤٨) أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١١٣ .

(٢٤٩) فلقد كان هيوم اكبر سنا من آدم سميث ، وكان بمثابة المرشد والمشجع لآدم سميث يعطيه الوثائق والكتب التى لا يكون لديه الوقت الكافي لدراستها ويناقش معه مختلف المسائل الفلسفية والاقتصادية ، وخاصة ان هيوم كان فيلسوفا أكثر منه اقتصاديا . ولذا يقال ان تكوين آدم سميث يرجع الفضل فيه الى حد كبير الى هيوم ، مما ترتب عليه تماثل بين افكارهما الاقتصادية الى حد بعيد ، مع وجود بعض فوارق بالطبع واختلافات خاصة فيما يتعلق بالسياسة النقدية .

Luc Bourcier du Carbon, op. cit., note 233, p. 107.

راجع :

اريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١١٣ وما بعدها .

(٢٥٠) آدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠) Adam Smith ، اقتصادى اسكتلندى ، ولد في بلدة Kirkcaldy وكان ابوه يشغل وظيفة ممثل الادعاء ومراقب الجمارك ، وتلقى تعليمه في جامعة جلاسجو ، وبعد ثلاثة عشر عاما من التدريس الاكاديمى سافر الى فرنسا فظل بها عامين (او اكثر بقليل) بوصفه معلما لدوق بكلو وحصل منه .فيما بعد على معاش طيب مكنه من التفرغ للكتابة — الا انه قبل عام ١٧٧٨ وظيفة مراقب الجمارك وظل يشغلها طيلة السنوات الباقية من حياته ، حتى مات عام ١٧٩٠ .

وحياة سميث هذه تلقى لنا بعض الضوء على منهجه في البحث الاقتصادى فقد كان سميث اول اقتصادى اكاديمى ويتضح ذلك في تلك الدرجة التى بلغها من التفكير المنظم فاستطاع بذلك أن يجاوز — وبكثير — كل من سبقوه ، وباعتباره فيلسوف يهتم بعلم الاخلاق ، واستطاع وبمهارة ان يظهر تأثير السياسة والفقه والاخلاق في الاقتصاد وخاصة في كتابة الاول :

نظرية المشاعر الاخلاقية . La théorie des sentiments moraux (1759). ولكن

اشهر كتاباته هى بالطبع مؤلفه : ثروة الشعوب — Les causes de la richesse des nations (1876).

لقد بنى سميث نظريته كلها على عامل نفسي : هو المصلحة الفردية ٠ واعتبر ان هذه المصلحة هى القوة المحركة لكل النشاط الاقتصادى ، وان سعى الأفراد لتحقيق مصالحهم الذاتية هو الذى يدفعهم الى البحث عن أكبر قدر ممكن من الاشباع ، بأقل مجهود ٠ وفى هذا الصدد ، يظهر جليا تأثير سميث الفيلسوف ، على سميث «المفكر الاقتصادى » : فالسلوك الانسانى في نظر سميث تحركه بالطبيعة ستة دوافع هى : حب النفس ، والعطف ، والرغبة في الحرية ، والاحساس بالتوافق ، وعادة العمل ٠ والميل الى المقايضة والتبادل بين الاشياء ٠

وعلى اساس هذه المصادر للسلوك ، فان كل انسان هو بطبيعته أفضل حكم على مصلحته ، ولذلك ينبغى افساح الحرية له للسعى وراء مصلحته بطريقته الخاصة ، فاذا ترك لنفسه فهو لن يحقق أفضل ميزة لنفسه فحسب ، بل سيعمل أيضا على تنمية الخير المشترك ، وهذه النتيجة تحققت لأن العناية الآلهية جعلت المجتمع يسير وفقا لنظام طبيعى ، وان الدوافع المختلفة التى تكمن وراء تصرفات البشر هى في توازن دقيق بينها بحيث ان منفعة الفرد لا يمكن ان تتعارض مع خير الجميع ، فحب الذات مصحوب بدوافع أخرى (وبخاصة العطف والافعال الناتجة منه) لا يمكن الا أن تتضمن ميزة للاخرين عندما يعمل الانسان على تحقيق مصالحه الشخصية ، وهذا ما دعا سميث الى القول ، انه عندما يسعى الانسان الى تحقيق مصلحته فان « يدا خفية تقوده الى تحقيق غاية لم تكن جزءا من مقصده » ، ولا ينبغى للمجتمع ان يتضرر من ذلك ، فهذا الفرد الذى لا يسعى الا لمصلحته الخاصة ، يعتبر في نظر سميث ، أكثر نفعا للمجتمع من أولئك الذين يقصدون تحقيق الصالح العام ، وفي هذا يقول سميث « لم اعرف ابدا خيرا كثيرا حققه اولئك الذين تظاهروا بأنهم يعملون من أجل الخير العام »(٢٥١) ٠

= الذى سيعتبر « انجيل » المدرسة الكلاسيكية ، ويتكون هذا المؤلف من خمسة أجزاء : تبحث على التوالى مشكلات الانتاج والتوزيع والتبادل وراس المال وذلك الى جانب السياسات الاقتصادية المختلفة التى اتبعتها الشعوب المختلفة في ازمنة مختلفة ، كما تبحث في نظم الاقتصاد السياسي السابق ثم في المالية العامة ٠

راجع :

Joseph Lajugie, op. cit., note 207, p. 15.

Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 104 el ss.

André Piettre, op. cit., note 233, pp. 65 et ss.

واريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١٣٦ ٠

واحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ١٢٤ ٠

(٢٥١) اريك رول المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١٤١ ٠

ومن هذا المنطلق ، بدأ سميث شرح نظريته ، وكيف ان احتياجات الانسان يمكن اشباعها عن طريق تقسيم العمل (الذى يؤدى الى مضاعفة الانتـاج) وعن طريق الثمن (الذى يؤدى للموازنة بين العرض والطلب) .

فسميث يختلف مع التجاريين (في قولهم ان المعادن الثمينة هى الثروة) ومع الفيزيوقراطيين (الذين يرون الثروة في النشاط الزراعى) ، لأنه يرى ان مصـدر الثروة هو العمل أيا كان مصـدره (وليس العمـل الزراعى فقط) ، ولذلك يركز سميث على اهمية تقسيم العمل ، لان هذا التقسيم يساعد على التخصص والاتقان، ويزيد من مجهـود العمال ، ويقتصد الوقت . ولكن هذا التقسيم في نظر سميث ، محـدود بعاملين : الاول هو اتساع السـوق ، لانه اذا كان السـوق صغيرا فان أى فـرد لن يجد التشجيع الكافي كى يتخصص كلية في القيـام بعمل واحد نظرا لاستحالة تبـادل الفائض من انتاجه في مقابل منتجـات الآخرين التى يحتاجهـا هو . واما العامل الثانى ، فهو تراكم المـال ، اذ بواسطته يمكين الحصـول على معدات وآلات أكثر تقدما تتيح التقسيم الفعلى للعمـل .

كذلك ، يرى سميث ، ان موازنة العرض والطلب ، تتم بصـورة طبيعية ، عن طريق الثمن : فالانتـاج الزائد لسلعة ما يؤدى بالطبع الى تخفيض ثمنها ، ومن ثم الى التقليل من أرباح منتجيها مما يدفع هـؤلاء الى خفض انتاجهـم ، فيعـود التوازن الى سوق هذه السلعة مرة أخرى . والعكس صحيح ، فنقص الانتـاج في سلعة ما ، يؤدى الى تزايد الطلب عليها ، ورفع ثمنهـا ، وزيادة أرباح منتجيها ، يدفع هؤلاء الى زيادة انتاجهم بالقـدر الذى يعيد التوازن الى سوق هذه السلعة .

ان النتيجة الطبيعية ، لهذه الأفكار التى ينادى بهـا سميث ، هى وجـوب امتناع الدولة نهائيـا عن التدخل في النشـاط الاقتصـادى ، وترك كل فـرد حرا في القيـام بذلك النشـاط على نحو يحقق مصلحته الذاتية ، فانطلاقا منها ، يحقق الفرد ، في نفس الوقت ، الخير العام للجماعة ، ولذا يقول سميث : « اننا لا نتوقع عشاءنا من جود القصاب أو الخباز ، ولكننا نتوقعه من اهتمامهم بمصالحهم » .

لذلك ، فان كل سياسة اقتصادية حكومية لابد ان تقـوم بازالة كل العقبات والقيود في وجه النشاط الاقتصادى ، وبحيث يسمح لكافة عناصر الانتـاج بالتنقل من فـرع الى آخر ، تبعا لمؤشرات عامل « الثمن » . لذلك يتعين على الدولة ان تمتنع عن اى تدخل في الحياة الاقتصادية ، بل عليها ان تدع الأفراد يعملون دون عوائق «دعه يعمل » والبضائع تمر دون حواجز « دعه يمـر » بين الدول للانتفاع بمميزات التقسيم الدولى للعمل(٢٥٢) .

---

(٢٥٢) Joseph Lajugie, op. cit., note 207, p. 16.

ان تدخل الدولةفي الشئون الاقتصادية ضار بوجه عام، حسبآراء آدم سميث، فلتـدع الحـكومة اذن كل فرد يقـوم على تحقيق منفعته الخاصة ، وهنا ، وبفضل القـانون الطبيعي سوف يسهم الفـرد في زيادة الخير المشترك • اما الدولة فان وظيفتها تقتصر على مهـام ثلاث ذات أهمية واضحة ، أولهـا الدفاع ضـد العدوان الخارجي ، وثانيها اقامة العـدل بين الأفراد على نحـو دقيق ، والثالثة هي القيـام بتلك الاعمـال الضرورية واللازمة والتي لا يقـدم عليها الافراد لانتفـاء الربح المناسب فيها • فالسلام في الداخل والخارج ، والعدل ، والتعليم ، والحـد الادنى من المشروعات العـامة من قبيل الطرق والكبارى والقنوات تلك هي المهـام التي يتعين على الدولة الوقوف عندها •

كذلك استنكر آدم سميث التنظيمات المتعلقة بالأجور والتلمذة الصـناعية وجميع النواحي الاخرى من الانتـاج ، فينبغي على الحكومة ان ترفض تقرير أي امتياز اقتصادي خاص ، وان تعمل عملا ايجابيا لتحطيم أي مركز احتكاري سواء لرأس المـال أو العمل ، لأن المحافظة على المنافسة الحـرة ، ولو عن طريق الدولة اذا لزم الأمر : هو الواجب الرئيسي الذى تنهض به السياسة الاقتصادية ، فالمنافسة الكاملة وحدها هي التي تتمشى مع الحرية الطبيعية وهي وحدها التي تستطيع ان تكفل حصول كل فرد على المقابل من جـراء جهوده ، وضم اسهامه الكامل الى الخير المشترك • لذلك نجد آدم سميث يدعو الحكومة الى الغـاء الجهـاز التنظيمي الذى استندت اليه السياسة التجـارية ، والعمل على كفالة حرية مرور السلع داخل الدولة ، وتحرير التجارة الخارجاية من الرسوم المانعة(٢٥٣) •

---

(٢٥٣) ولكن هذه الرؤية « الليبرالية » ، التي تدعو الى « الحرية الاقتصـادية » الى اقصى مدى ، لم تمنع سميث ، من أن يكون واقعيا ، فيقرر أن هذه المبـادىء العـامة ، يمكن ان يرد عليها بعض الاستثناءات ، طبقا للظروف والاحوال ، بحيث يسمح للدولة بالتدخل في الميدان الاقتصادى ، والحد من الحرية التي يتمتع بها الافراد ، وأعطى سميث امثلة لتلك الحالات ، اهمهـا :

١ ـ المحافظة على القوة البحرية الوطنية ، وما يتضمنه ذلك من الموافقـة على احتكار السفن الوطنية لعمليات نقل المنتوجات الوطنية ، ولذلك وافق سميث على قانون الملاحـة الذى كان يعطى للسفن الانجليزية حق احتكار عمليـات النقل بين انجلترا ومستعمراتها وبين هذه الاخيرة والبـلاد الاخرى •

٢ ـ حماية الصـناعة الوطنية الخاضـعة لضريبة في الداخل ، بتقـرير ضريبـة ممـاثلة على البضـائع الاجنبيـة المنافسـة لهـا ، وذلك لتحقيق نوع من المسـاواة بين البضـاعتين في مجـال التنافس في السوق الداخلي •

٣ ـ امـكانية تدخل الدولة بفرض ضرائب « انتقـامية » على بعض السلع الاجنبيـة ، اتبـاعا لسياسة المعاملة بالمثل ، اذا لجأت الدولة الأجنبية الى فرض ضرائب على السلع الوطنية • =

تلك هى الخطوط الرئيسية لنظرية آدم سميث ، وهى لا تعدو ان تكون الخطوط الرئيسية للنظرية « الكلاسيكية » . حقا ، ان هناك العديد من المفكرين الانجليز[٢٥٤] ، والفرنسيين[٢٥٥] ، ساهموا بأفكارهم في اقامة صرح « النظرية

= ٤ - تقييد الحق في تصدير المواد الضرورية للصناعات الوطنية ، وعلى الاخص فرض « رسوم تصدير » على الصوف .

٥ - الرقابة على العملات والماركات التجارية بقصد مكافحة الغش .

٦ - امكان الابقاء على بعض الاحتكارات ، وخاصة تلك الممنوحة لبعض الشركات التى تتحمل مسؤوليات كبرى في التجارة الخارجية (كشركة الهند الغربية) .

٧ - تحديد سعر الفائدة .

٨ - تقييد حرية بعض الاشخاص والهيئات الذى يمسكون بين ايديهم سلطات اقتصادية معينة (مثل تحديد حرية البنوك في اصدار البنكنوت) خوفا من ان العمل بفكرة الحرية الطبيعية في هذا المجال قد تؤدى لقيام الافراد والبنوك باغراق السوق بأوراق مالية تزيد بكثير على حاجة المعاملات الفعلية ، وما قد يؤدى اليه ذلك من الاضرار بالاقتصاد القومى .

وعلى كل ، فان هذه الاستثناءات ، لا تؤدى الى التقليل من شأن المبدأ العام الذى وضعه سميث ، اى الحرية الاقتصادية ، وخاصة انه يقرر ان هذه الاستثناءات لا يعمل بها الا في الحالات التى تهدد « أمن المجتمع ككل » .

J. Luc Bourcier de Carbon ,op. cit., note 233, p. 15.

واحمد جامع ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤ ، ص ١٢٩ .

(٢٥٤) واقد جرى كتاب الفكر الاقتصادى على التمييز بين اتباع المدرسة الكلاسيكية ، بتقسيمهم الى فريقين . اما الفريق الاول فهو « الليبراليون المتشائمون » وهما المفكران الانجليزيان « مالتس وريكاردو » . واما الفريق الثانى فهو فريق « الليبراليين الفرنسيين المتفائلين وهما ساى وباستتيا » ونعرض هنا للفريق الاول :

١ - توماس روبير مالتس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) Thomas Robert Malthus اقتصادى انجليزى ولد بالقرب من Guildford وقد نشر اول اعماله عام ١٧٩٦ بعنوان « الازمة La crise » وهو صاحب النظرية الشهيرة باسمه ، نظرية مالتس (التشاؤمية) في تزايد عدد السكان ومؤداها ان عدد السكان يتزايد بمتوالية هندسية (١ - ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ ...) وان مصادر العيش لا تتوالى الا بمتوالية حسابية (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ ...) وذلك في مؤلفه « مقال عن مبدأ السكان Essai sur le principe de population

وتجدر الاشارة الى ان الطبعة الاولى من هذا المؤلف ظهرت عام ١٧٩٨ ولكن بدون اسم الكاتب وبعنوان مطول ، واعيد طبعه خمس مرات ، آخرها في حياة المؤلف هى الطبعة المشار اليها .

٢ - دافيد ريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٢٣) David Ricardo اقتصادى انجليزى من أسرة يهودية هولندية استوطنت انجلترا ، وخرج ريكاردو عن الديانة اليهودية في مرحلة مبكرة من حياته، وسار على نهج ابيه فعمل سمسارا في البورصة وجمع ثروة كبيرة في وقت قصير وصار من اصحاب الاراضي وعضوا في البرلمان - واهم اعماله دون شك هو مؤلفه « مبادىء الاقتصاد السياسي والضرائب Principe de l'économie politique et de l'impot المنشور لاول مرة عام ١٨١٧ والذى اعيد نشره في طبعة نهائية (الطبعة الثالثة) عام ١٨٢١ .

الكلاسيكية » ،ولكن الاساس الذى قامت عليه هذه النظرية كان آدم سميث ، حتى قيل عنه انه « أبو الاقتصاد السياسي » Père de l'économie politique وان كتابه ثروة الأمم اكتسب شهرة لا تقل عن تلك اكتسبها كتاب « رأس المال » لماركس ٠ وان « ثروة الأمم » بالنسبة للنظام الرأسمالى ، كان في مكانة « رأس المال » بالنسبة للنظام الاشتراكى ٠

حقا ، في مقابل هذا « التمجيد » وجد بعض الكتاب الذين ينكرون « الأصالة العلمية » لدى سميث(٢٥٦) ، ولكن ايا كانت طبيعة هذا الخلاف الفقهى ، فان مما لا شك فيه ان أفكار آدم سميث واعماله ، ساهما الى حد كبير في الفكر الاقتصادى والسياسات الاقتصادية ، ولكن الاهم من ذلك كله ، كما يقول أريك رول في تقييمه لافكار وتأثير سميث(٢٥٧) « ان رسول الحرية الاقتصادية تحدث بعبارات واضحة

= ويمكن القول ، بان ريكاردو استطاع ان ياخذ افكار سميث ويعمل على تطويرها او البلوغ بها أبعد مدى ، ولكن الانجاز الذى قام به نلقاه في نظرية القيمة والتوزيع ، راجع عموما المدرسة التشاؤمية الانجليزية كل من :

Joseph Lajuile, op. cit., note 2/7, pp. 16 et 17.
Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 121 et ss. et 149 et ss.
André Piettre, op. cit., note 233, pp. 68 et ss. et 70 et ss.

وأريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٢٠٧ ، ص ١٦٧ وما بعدها و ١٨٧ وما بعدها.

(٢٥٥) اما المتفائلون ــ الكلاسيكيون ، فيقصد بهم

١ ــ جون باتيست ساى (١٧٦٧ ــ ١٨٣٢) Jean - Baptiste Say وقد ولد بمدينة ليون في عائلة بروتستانتية من اتباع جون كالفن ، وقد هاجرت العائلة بعد الغاء قرار نانت La révocation de l'Edit de Nantes وعاد أبوه الى فرنسا بعد ذلك ، لكن العائلة ظلت بالخارج في سويسرا أو الولايات المتحدة ، وربما يفسر ذلك ما لقيته أعماله من ترحيب على الأخص في أمريكا حيث كان يفضل على آدم سميث ، والواقع ان Say استطاع ان يوسع من افكار الكلاسيكيين ، بل وان يعدل في بعض أفكار سميث ، أو على الاقل يرجع له الفضل في توضيح النقاط الغامضة لدى سميث ٠ وأهم مؤلفاته « موسوعة الاقتصاد السياسي (١٨٠٣) Traité d'économie politique التى تعتبر أولى الموسوعات « الكلاسيكية » في الاقتصاد السياسي والتى ظلت المرجع الاول لكل كتب الاقتصاد السياسي خلال قرن كامل من الزمن ٠

٢ ــ اما الاخر فهو فردريك باستيا (١٨٠١ ــ ١٨٥٠) Frédéric Bastiat الاقتصاد الفرنسي الذى ساهم بافكاره في تقرير حرية العمل وحرية التجارة ٠ وأهم مؤلفاته « التنسيق الاقتصادى Harmonie économique »

انظر في ذلك :

A, Piettre, op. cit., note 233, pp. 82 et ss.
Lajugie, op. cit., note 207, pp. 18 et 19.
L. B. De Carbon, op. cit., note 233, pp. 225 et ss.

(٢٥٦) Luc Bourcier de Carbon, op. cit., note 233, pp. 116 et 117

(٢٥٧) أريك رول ، المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٢٠٧ ، ص ١٤٤ ٠

ومقنعة ، ولكن نجاحه ما كان ليبلغ مثل هذا القدر من العظمة لو لم يكن يتحدث الى جمهور على استعداد لاستقبال الرسالة التى بشر بها ٠ كان يتحدث بصوتهم ، صوت رجال الصناعة التواقين الى ازالة جميع القيود المفروضة على السوق ، تلك القيود التى كانت من بقايا نظام بال أقامة رأس المال التجارى واقامته مصالح ملاك الاراضي ، فضلا عن هذا ، لم يكن الرأسماليون الصناعيون من النضوج الكافي الذى يكسبهم الاحترام ، وقدم اليهم سميث نظرية تزودهم بما كانوا يفتقرون اليه ، فهو اذ حلل النشاط الاقتصادى على ضوء الفلسفة الطبيعية ، اضفت نظريته على سلوك اولئك الذين سوف يصبحون قادة الحياة الاقتصادية طابع الجبرية ٠ لقد رأوا في المصلحة الذاتية التى جعلها جوهر النشاط البشرى ، الحافز الذى يلهم كل حياتهم الاقتصادية اليومية ، وشعروا بالغبطة حين عرفوا أن سعيهم وراء الربح لم يعد يعتبر الآن أنانيا ٠ لقد زال الخوف الكامن في النفوس من ان التجارة قد تكون خطيئة أو دون كرامة السادة ، ونحيت جانبا هذه البقايا من الفكر الأفلاطونى والكنسي وأصبح رجل الأعمال الآن من الناحية النظرية مثل ما كان عليه في الواقع العلمى ، أى زعيم النظام الاقتصادى والسياسي ٠

واذ أقام سميث السياسة الاقتصادية على قانون طبيعى ينطوى على عدم تدخل الدولة فانه قدم أيضا تعبيرا نظريا عن المصالح الجوهرية لطبقة رجال الأعمال ، فرأى رجال الصناعة امكانيات هائلة لتوسيع نطاق الانتاج والتجارة كانت تعمل على أحباطها القيود المنهكة ٠ ربما كان في الغاء التنظيم الحكومى والاحتكار قضاء على امتيازات موضعية ، ولكنه كان في صالح أكثر طبقة تقدمية في المجتمع ، (٠٠٠٠٠) ٠ واذا كان قد استخدم عبارات قدح شديدة ضد اعضاء المجتمع غير المنتجين (٠٠) فلانهم كانوا أفدح العقبات في وجه المزيد من نمو الرأسمالية الصناعية (٠٠٠) لقد كان التقدم الاقتصادى يتوقف على تقرير استقلال رأس المال الصناعى ، وعندما ساعد آدم سميث في خلق صرح اقتصادى لا يتيح الامكانية الا لسيادة المشروع كان في امكانه ان يزعم بحق انه يعمل على دفع الرفاهية للمجتمع كله ٠٠٠»[٢٥٨] ٠

والواقع ، أننا لا نجد تعليقا ناجعا ، أكثر من تعليق أريك رول ، في تعقيبه على دور آدم سميث في تقديم النظرية الاقتصادية والفلسفية التى استندت اليها « الرأسمالية الصناعية ، في تحقيق سيادة وزعامة « الرأس المال الصناعى » للنظام الاقتصادى ٠ لقد وضع سميث ، أسس الفكر الاقتصادى الكلاسيكى ، فوضع في

---

(٢٥٨) أريك رول — ص ١٤٥ ٠

نفس الوقت « النظرية » التى اعتمد عليها رأس المـال الصناعى ، في تحقيق الثورة الصناعية ، وقد استمرت هذه النظرية في تطورها وبلغت أوجها في مطلع القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص بمساهمة جون ستوارت ميل في هـذا التيار الفـكرى الاقتصادى(٢٥٩) ، ولكن المفـكرين التاليين لسميث لم يأتوا بجديد فيما يتعـلق بالحرية الاقتصادية ، وانما عملوا على تأكيد أفكار سميث وتعميقهـا ، وازالة ما شابها ، في بعض المواضع من غموض(٢٦٠) .

---

(٢٥٩) (١٨٠٦ — ١٨٧٣) John Stuart Mill
الاقتصادى الانجليزى المولود في لندن ، وقد تأثر جون بوالده جيمس ميـل ، كما تأثر أيضـا ببعض الاقتصاديين الذين صـادفهم في حياته ، عن طريق والده أيضـا ، مثل Saint - Simon - Say كما تأثر أيضا بأفكار سيدة التقى بهـا وعمره ٢٥ عاما Mrs Harriet والذى تزوجها بعد عشرين عاما من لقاءه الاول بها .

واهـم مؤلفاته :

١ — مناهج المنطق الاستقرائى والاستنباطى ١٨٤٣
Système de logique inductive et déductive

٢ — مبادىء الاقتصاد السياسي Principes d'économie politique (١٨٤٨)

٣ — نظرة على الحرية Essai sur la liberté (١٨٥٩)

٤ — المذهب النفعى l'Utilitarisme (١٨٦١)

٥ — أبحاث حول فلسفة هاملتون
Examen de la philosophie de W. Hamilton (١٨٦٥)

٦ — السيرة الذاتية او مذكرات . Autobiographie (ou Mémoire) (١٨٧٣)

ويقرر المفكرون الاقتصاديون ، ان ميل قد أعطى للفكر الليبرالى صورته النهائية ، ويقررون أنه « المقنن الحقيقى للمذهب الفردى » ، حيث انطلق من فكرة مجردة مؤداها ان الفرد يتحرك وفقـا لمصلحتـه الذاتية في ظل نظام تنافس حـر ، فتدفعه هذه المصلحة الشخصية للبحث عن أكبر قدر ممكن من النفع باقل مجهـود ، وهذا البحث عن المصلحة الشخصية — اذا تم في ظل نظام تنافس حر ، فانه يؤدى دون شك الى الخير المشترك ، لذلك يقـول ميل « ان كل قيـد على المنـافسة هو عمل غير مشروع وكل عمل يعمل على توسيع نطاقها ، هو عمل خير » .

ولكن ربمـا كان الجـانب المميز لدى ميل هو رفضـه نظرة اسـلافه « ريكاردو ومالتس » الى البؤس والفوارق الاجتماعية . فرغم ايمانه بالمذهب الفردى ، نجـد ميل ينـادى ، بتدخل الدولة من أجل اصلاح « الاوضاع الاجتماعية » ممـا دعا البعض للقول انه يجب التفرقة بين « ستيوارت ميل الليبرالى وستيوارت ميل الاشتراكى » .

انظـر :

Stuart Mill, Textes choisis, op. cit., note 233, pp. 361 et ss.

De Carbon, op. cit., note 233, pp. 173 et ss.

A. Piettre, op. cit., note 233, pp. 76 et ss.

Lajugie, op. cit., note 207 pp. 20 et ss.

فبعد ستيوارت ميل ، سيتوالى عدد من الكتاب الاقتصاديين من انصار المدرسة الكلاسيكية ، الذين وان لم يصلوا الى درجة شهرة الأوائل ، الا انهم كانوا أكثر تطرفا منهم . مثالهم Charles Denoyer مستشار الدولة الفرنسي في عهد ملكية يوليو ، الذى ذهب في دفاعه عن الحرية الى حد استنكار أى تدخل من جانب الدولة : حتى في النطاق الاجتماعي « لان العمال مسئولون عن بؤسهم ، ووضعهم هذا المتدنى ضرورى » . لذلك ، فهو ينادى بأن تقتصر الدولة على « حماية الشرفاء » . بل يذهب Denoyer ابعد من ذلك ، فهو يهاجم كل « احتكار » ويطالب بفتح باب التنافس في كل المجالات ، حتى في نطاق تجارة الدخان أو البريد أو التعليم العالى أو الطرق والكبارى .

وتجدر الاشارة أيضا هنا الى مفكر اقتصادى آخر هو Molinari الذى بلغ به التطرف حدا جعله يكتب « من وجهة النظر الاقتصادية ، يجب اعتبار العمال آلات تنتج قدرا معينا من القوى الانتاجية ، وتتطلب بالمقابل ، بعض مصروفات الصيانة كى تتمكن من السير بطريقة منتظمة ومستمرة » .

ومع بلوغ هذا الحد ، أصبح من الواضح أن الفكر الليبرالى ، الذى أسسته المدرسة الكلاسيكية ، أصبح « فكر طبقى » يساند الطبقة البورجوازية ويدعمها في مواجهة الطبقات الأخرى ، ويغض البصر عن «المساوىء الاجتماعية» التى تولدت عنه، ولذلك ، لم تلبث ردود الفعل ان توالت ضد هذا الفكر ، وضد المدرسة الكلاسيكية(٢٦١) .

المطلب الخامس ـ التوسع الديمغرافى(٢٦٢) :

La Croissance Demographique

لقد كان لزاما علينا ، ان نتعرض ، في المبحث الحالى ، لكل العوامل (غير

---

(٢٦١) J. Lajugie, op. cit., note 207, p. 22.
De Carbon, op. cit., note 233, pp. 252 et ss,

(٢٦٢) اريك رول ، المرجع السابق اشارة اليه ، هامش ٢٠٢ ، ص ٢٢٣ وما بعدها .
M. Reinhard, M. Armengaud, et J. Dupaquier
Histoire de la population mondiale - Montchrestien, 3o edition, Paris 1968 Colloques internationaux du C.N.R.S. (science humaines) "l'industrialisation en Europe au XIX siècle"
"Industrialisation et démographie dans la France du XIX siècle op. cit., note 107, pp. et 35.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 354 et ss.
Rioux, op. cit., note 5, pp. 24 et ss.

الاقتصادية) التى ساهمت في احداث الثورة الصناعية ، فتناولنا في المطالب الأربعة الأولى ، العوامل التاريخية ، والدينية ، والسياسية والافكار الاقتصادية ، ونتناول الآن آخر هذه العوامل ، وهو العامل الاجتماعى ، والذى يتمثل اساسا في التوسع الديمغرافي الحاصل في أوربا على وجه الخصوص خلال القرن الثامن عشر ، ولقد أثار هذا العامل ، خلافات بين المفكرين والكتاب ، وخاصة من حيث النظر اليه ، وهل هو نتيجة للثورة الصناعية ؟ أم عامل من العوامل التى ساهمت في احداثها ؟

ونحن لن نتوقف كثيرا عند هذا الخلاف ، وانما نكتفى هنا بتسجيل هذه الظاهرة الاجتماعية ، التى ادهشت ليس فقط المؤرخين ، بل وربما أيضا من عاصروها • ففى الفترة من ١٧٥٠ الى ١٨٠٠ تزايد عدد سكان العالم بشكل ملحوظ : فمن ٧٠٠ مليون نسمة عام ١٧٥٠ بلغ ٩٠٠ مليون نسمة عام ١٨٠٠ ، وقبل أن ينقضي نصف قرن ، أى قبل عام ١٨٥٠ كان هذا العدد قد تجاوز ، وبكثير ، المليار ، وبلغ معدل زيادة السكان آنذاك أكثر من ٥ر٠ ٪[٢٦٣] •

ولكن أسباب هذا التوسع السكانى ، تظل للآن ، غامضة • فمن الثابت ، أنه في المناطق التى وقعت فيها الثورة الصناعية ، لوحظ تزايد نسبى في المواليد ، ولكن الاسباب الرئيسية لهذا التزايد ، ظلت غير محددة على وجه دقيق ، فربما كانت هذه الزيادة بسبب ازدياد عدد الزيجات في سن مبكرة ، أو بسبب بيولوجى كزيادة الاخصاب ، أو ربما كان ذلك راجعا لزيادة عدد الاولاد غير الشرعيين، وربما اجتمعت هذه الاسباب جميعا لتكون وراء زيادة المواليد •

ولكن من المؤكد ، ان زيادة عدد السكان في أوربا ، ترجع بالضرورة الى تناقص عدد الوفيات ، ففى بريطانيا وايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، أخذ « الموت يتراجع » ونسبة الوفيات تنخفض • فموجات الموت « الجماعية » التى شهدتها أوربا في القرون السابقة ، بسبب الامراض والاوبئة أخذت تختفى تدريجيا • حقا ان اختفاءها لم يكن نهائيا[٢٦٤] ، ولكن من الثابت ان الاوبئة والامراض التى كانت

---

(٢٦٣) يتعين النظر الى هذه الارقام بتحفظ ، نظرا لان علم الاحصاء الحديث ، لم يكن قد تطور بعد ، حقا ان أول احصاء رسمى للسكان تم في بريطانيا عام ١٨٠١ ، اما قبل ذلك فان تعداد السكان كان يعتمد على تقديرات تنقصها الدقة •

Mantoux, op. cit., note 2, p. 355.

Rioux, op. cit., note 5, p. 25.

(٢٦٤) فمن الثابت انه حتى عام ١٧٨٠ هاجم الجدرى ، والتيفود والحصبة ، بل والطاعون كلا من فرنسا وبولونيا وروسيا والبلقان •

Rioux, op. cit., p. 27.

تذهب بارواح الآلاف من النـاس (كالتيفويد والطاعون والجدرى) ، أخذ انشارها يقل بصورة ملحوظة ٠

وقد لوحظ بالذات ، انخفاض نسـبة الوفيات بين المـواليد ، وبذلك كان « تراجع الموت » بصفة عامة ملحوظا في البـلاد التى دخلت الى عهـد الصناعة : ففى انجلترا مثلا انخفضت نسبة الوفاة من ٣٧ ٪ حوالى سنة ١٧٣٠ الى ٢١ ٪ عام ١٨١٠ ، ونفس الظاهرة نقابلها في فرنسا حيث انخفضت النسبة في نفس الفترة من ٤٠ ٪ الى ٢٥ ٪ وحتى ظاهرة انخفاض الوفيـات تظل أيضا أسبابها غير واضحة تمام الوضوح : فالبعض يعزوها الى التقـدم الطبى ووسائل الوقاية الصـحية ، الذى يساعد للتدليل عليهما من جهة اكتشاف Jenner للمصل(٢٦٥) ، ومن جهة أخرى ، تقدم وسائل الوقاية الصحية الفـردية (باعتيـاد الناس مثـلا على ارتداء الملابس القطنية) أو وسائل الوقاية الصحية الجماعية (كاهتمام الدولة بنظافة المدن والشوارع) ٠

وأيا كان الامر ، فمن الثابت ، ان الاسـباب الرئيسية لتناقص عدد السكان — وعلى الاخص المجاعات والاوبئة — بدأت تتلاشي ٠ فمن جهة ترتب على الثـورة الزراعية زيادة الانتاج الزراعى ، فاختفت المجاعات ، بعد أن أصبحت المواد الغذائية في متناول الجميع ، فالاجساد الحسنة التغذية يكون لديها بالطبع مناعة أكبر ضـد الاوبئة ٠ ومن جهة أخرى ، فان العنـاية التى أولتهـا الدولة للوقاية الصـحية والنظافة ، ساعدت على القضاء على أسباب الاوبئة ، كالقضـاء على الفئران مثـلا مصدر مرض الطاعون ٠ ولكن أيا كانت الاسباب وراء ازدياد عدد السكان وايا كان عدم الوضوح الذى يحيط بها ، فان من الثابت ان ازدياد عدد السكان كان من الظواهر الملحـوظة والمطـردة اعتبـارا من عام ١٧٥٠ (راجع جدول رقم ٩) ٠ ولذلك يرى بعض الكتاب في هذه الظاهرة « سببا لانطلاق الثورة الصناعية ، على أساس » ان هذا التزايد سمح بوجود عـدد متزايد من المنتجين والمستهلكين ، كما سمح بتصنيفهم فكان لابد من حدوث تقدم اقتصادى يعتمد على المخترعات العلمية والفنيـة » ٠

ولكن ، على الرغم من ان هذا الرأى لا يلقى اجماعا(٢٦٦) ، الا ان الراجح ان التوسع الديمغرافى كان ضروريا للثورة الصناعية ، وان لم يكن كافيا لاحـداث

(٢٦٥) (١٧٤٩ — ١٨٢٣) Edward Jenner
طبيب انجليزى ولد في Berkeley ، وكان اول من اكتشف امكانية انتقال العدوى من البقـر الى الانسـان ، واكتشف اللقـاح ضد مرض الجدرى ٠

(٢٦٦) فبعض الكتاب ، يرى ان هذه النظرية باطلة من اساسها ، ويدلل بذلك على أن الوقت =

هذه الثورة ، وعلى كل ، فان هذا التوسع لم يكن ليكتب له الاستمرار الا اذا وقعت هذه الثورة الصناعية بحيث يؤدى التقدم الاقتصادى الى مواجهة الحاجات المتزايدة لهذه الأعداد من لناس ٠

على ان تزايد عدد السكان ، لا يمكن النظر اليه فقط من الوجهة الكمية ، بل ينبغى الاخذ في الاعتبار أيضا بطابعه « الكيفى » : فتزايد عدد السكان ، (وخاصة تزايد نسبة المواليد) ترتب عليه بالضرورة تزايد عدد الشبان الذى كونوا جيشا هائلا من الايدى العاملة التى هاجرت من المناطق الزراعية المزدحمة ، نحو المناطق الصناعية ، لتكون في خدمة الصناعة الناشئة[٢٦٧] ٠ وقد ساعد على حركة «الهجرة» هذه ، ما كانت تتمتع به هذه الايدى العاملة من « حرية التنقل »[٢٦٨] ، واللجوء الى المناطق الصناعية التى هى بحاجة الى هذه الايدى العاملة ٠

على أننا في النهاية ، ينبغى ان ننظر لعامل تزايد السكان ، وعلاقته بالثورة الصناعية بحذر : فمن الثابت مثلا ، ان النقص في الأيدى العاملة في انجلترا مثلا ، هو الذى أدى الى جعل التقدم العلمى والفنى أمرا محتما وضروريا ٠ لذلك ، فان الذى يهم ، أكثر من زيادة الأيدى العاملة ، هو مقدرة هذه الأيدى ، على التحول من

= التى وقعت فيه انطلاقة الثورة الصناعية في انجلترا ، كانت انجلترا اقل الدول نسبة في ازدياد عدد سكانها من باقى دول أوربا الغربية ، بينما كان اغلب الدول التى عرفت ازديادا ملحوظا في عدد سكانها لم تتمكن من اعطاء قطاعها الصناعى « الانطلاقة الاولى » بل ويذهب بعض الكتاب مثل Bairoch الى القول بان ازدياد عدد السكان قد يكون على العكس عائقا أمام التطور الصناعى والاقتصادى ، فازدياد عدد السكان مثلا في دول العالم الثالث ، يعوق دون شك انطلاقتها الصناعية ، وانجلترا نفسها لم تعرف « توسعا ديمغرافيا » بمعنى الكلمة قبل انطلاقتها الصناعية ، بل انها خلال القرن التاسع عشر كان لا بد أن تحد من زيادة سكانها لتتمكن من زيادة الناتج القومى بالنسبة لعدد السكان ، حتى تحقق نوعا من الادخار يساعد على تراكم رؤوس الاموال اللازمة للاستثمار ٠

راجع في ذلك :

Rioux, op cit., note 5, p. 28

Mantoux, op. cit., note 2, pp. 354 et ss.

(٢٦٧) فمن المعلوم مثلا ، ان ايرلندا ، امدت القطاع الصناعى الانجليزى بما يحتاج اليه من أيد عاملة ، وقد استخدم هذا القطاع ، هذا الجيش من الايدى العاملة (بصورة لا تخلو من الوحشية) في صناعات البناء في لندن منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ثم في المصانع والاشغال العامة اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر ٠

Rioux, op. cit., note 5, p. 29.

(٢٦٨) ولذلك ، يلاحظ انه في البلاد ، التى لم تتوافر فيها الايدى العاملة « حرية الشغل » تاخرت انطلاقة الثورة الصناعية فيها ، مثال ذلك ، روسيا ، فلقد ترتب على تقييد حرية المزارعين في التنقل بموجب قوانين السخرة ، ان تاخرت انطلاقة الحركة الصناعية في روسيا ٠

العمـل اليدوى الى العمل الآلى . وهنا يكمن سر تقدم انجلترا الصناعى ، فلقد حالفها الحظ ، بمجموعة من العمـال المهرة لديهـا ، استطاعوا (افضل من غيرهم) تفهم متطلبات التقدم الفنى والعلمى ، فاستوعبوه ، وعملوا على تطويره[٢٦٩] .

ولهذا يمكن القول في النهاية ، ان التوسع اليمغـرافي كان عاملا هاما هاما في عوامل الثورة الصناعية ، ولكنه وحده لم يكن كافيا لقيامها .

(٢٦٩) راجع ما سبق ، عن الاكتشافات العلمية والفنية ، ص ٣٦ وما بعدها .

جـــدول رقـــم ٩ (٢٧٠)

تزايد عدد السكان في العالم في الفترة من ١٧٥٠ الى ١٩٠٠ ـ بملايين السكان ·

	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
أوربـــا	١٤٠	١٨٧	٢٦٦	٤٢٠
فرنســا	٢٣	٢٧ر٣	٣٥ر٧	٣٨ر٩
بريطـانيا العظمى (انجلترا واسكتلندا وبلاد الغال)	٧ر٤	١٥	٢٢ر٩	٣٨
ايرلنـــدا	٣ر١	٥ر١	٦ر٦	٤ر٤
بلجيكا والبلاد الواطئة	٤ر٢	٥	٧ر٤	١١ر٨
ســويسرا	١ر٤	١ر٧	٢ر٣	٣ر٣
ايطـــاليا	١٣ر٦	١٨ر١	٢٤	٣٢ر٤
ألمـانيا	١٧	٢٣	٣٥ر٩	٥٦ر٣
النمســا والمجـر	١٠	٢٨	٣٥	٤٩
اسكندينافيا	٣ر٤	٤ر٢	٦ر٣	٩ر٩
روسيا الاوربية	١٤ر٥	٣٦	٥٧	١٠٣
أسـبانيـا	٨ر٦	١٠ر٥	١٥	١٨ر٦
البرتغـــال	٢ر٨	٢ر٩	٣ر٤	٥ر٦
آســيا	٤٣٧	٥٠٠	٦٧٢	٨٥٠
الصـــين	١٨٠	٢١٠	٢٥٠	٣٥٠
اليـــابان	٢٦	٢٦	٢٨	٤٤ر٨
الهنـــد	—	١٢٠	١٧٥	٢٨٥
أفريقيـــا	—	١٠٠	١١٠	١٤٠
أمريكا الشمالية والوسطى	٣	١٢	٤٠	١٠٣
كنـــدا	٠ر١	٠ر٣	٣	٥ر٤
الولايات المتحـدة	١ر٥	٥ر٣	٢٣ر١	٧٦
أمريكا الجنوبية	—	١٥	٢٠	٦٣
أســتراليا	٢	٢	٢	٦

(٢٧٠) Rioux, op. cit., note 5, p. 26.

خاتمة الفصل الأول :

هذه هى العوامل ، التى اجتمعت في حقبه واحدة من الزمن ، فادت الى وقوع الثورة الصناعية • فمن الناحية الاقتصادية تراكم رأس المال ، وتوالت الاختراعات الفنية والعلمية ، ووقع انقلاب في عالم الزراعة ، وتطورت وسائل النقل وأعمال البنوك تطورا هائلا • ومن الناحية الفكرية والاجتماعية ، انطلق الفكر الانسانى ، ولأول مرة ، في أوربا ، ليحطم الافكار الاقطاعية والقيود الكنسية ، وتطورت العلوم والآداب والفنون ، وأثر ذلك في العقيدة ، فثارت ثائرة المصلحين على أوضاع الكنيسة ، وحققت حركة الاصلاح الدينى تحولا ملموسا في نظرة الأفراد الى النشاط الاقتصادى وحرية العمل • اما على الصعيد السياسي والاقتصادى ، فقد انطلقت الليبرالية لتحطم القيود وتطلق العنان للحرية الفردية ، وتؤسس مصلحة المجتمع ككل على « المصلحة الفردية » • ثم ساعد العامل الاجتماعى (التوسع الديمغرافى) على توفير الايدى العاملة اللازمة لتستكمل هذه « الثورة » عناصرها •

وبتمازج هذه العوامل جميعا ، توافرت ، للمرة الاولى ، الظروف المواتية لانطلاق الثورة الصناعية ، في انجلترا اولا ثم باقى دول أوربا الغربية ، وامتدت بعد ذلك خارج القارة لتشمل الولايات المتحدة الامريكية واليابان •

وربما ، ثار التساؤل ، عن سبب انطلاق هذه الثورة في أربا بالذات ، والاجابة على هذا التساؤل بسيطة ، وهى ان أوربا في هذه الفترة كان لها « السيادة واليد العليا في العالم » ، بما تجمع بين يديها من قوى ، ومن عوامل ، ساعدتها على ان تكون « الرائدة » في مجال الثورة الصناعية[٢٧١] •

أولا : مساحة الاراضي التى تمتلكها : فمن مجموع الاراضي البالغ ١٣٥ مليون متر مربع (الاراضي المعروفة آنذاك والآهلة) ، تمتلك أوربا وحدها ٧٠ مليون متر مربع ، منها ٦٠ مليون خارج حدودها ، في البلاد المستعمرة : فالامبراطورية الاستعمارية الانجليزية (التى لا تغيب عنها الشمس) تملك ١٩ مليون متر مربع ، اما المستعمرات الفرنسية فتبلغ ٩ مليون ، وتتحكم البلاد الواطئة في مستعمرات تبلغ مساحتها ١٫٩ مليون متر مربع بينما نجد ان امبراطورية القياصرة تبلغ ٥٫٥ مليون متر مربع في أوربا و ١٦٫٥ في آسيا •

---

(٢٧١) الارقام والاحصائيات الواردة هنا ، مأخوذة عن : Lesourd, op. cit., note 1, pp. 17 et ss.

ثانيا ـ التفوق العلمي والمالي :

وحتى بالنسبة للمناطق غير المستعمرة ، التى تتمتع باستقلال (قانونا فقط) تمارس اوربا عليها أيضا تأثيرا ملحوظا ، بفضل الوسائل المادية التى توافرت أوربا . فالعديد من الدول الفقيرة : الصين ، والدولة العثمانية ، واليابان، وأمريكا اللاتينية تعتمد أساسا على رؤوس الأموال الفرنسية والانجليزية . ولكن هذه السيطرة الأوربية تقوم أساسا على ما تتوافر عليه أوربا من تقدم علمى وأساليب فنية متقدمة : فمن ٩٠٠ الف كيلومتر من السكك الحديدية في العالم ، ٣٥٠ الف منها كانت في اوربا ، كما ان كل صناعات السكك الحديدية كانت أيضا مركزة في أوربا . فالخطوط الحديدية في الولايات المتحدة وكندا ، وأمريكا اللاتينية والهند ، واليابان والصين ، أقيمت كلها برؤوس أموال أوربية ، وتحت اشراف مهندسين أوربيين .

ومن ٤٥٦ ألف كيلومتر من « الكابلات التلغرافية » عبر البحار عام ١٩١٤ ، تمتلك انجلترا ٦٠ ٪ منها وفرنسا ٩ ٪ ، والمانيا ٧ ٪ . ومن ٤٩ مليون طن (حمولة السفن التجارية) ، ٣٨ مليونا منها تنقل تحت اعلام الدول الأوربية .

واذا كان عدد المدافع التى تملكها جيوش العالم تبلغ ١٨ الف مدفع ، فان ٣ الاف فقط هى التى تملكها دول غير أوربية ، منها ١٦٠٠ تملكها اليابان .

ثالثا ـ عامل « الهجرة » :

في نهاية القرن التاسع عشر ، لم يكن سكان أوربا يزيدون بكثير عن ٤٠٠ مليون نسمة من مجموع سكان العالم آنذاك (١٥٠٠ مليون تقريبا) ، ولكن أوربا كانت تقوم بعملية تصدير هائلة لرجالها : ففى خلال مائة عام (١٨١٥ ـ ١٩١٤) صدرت أوربا ، على بعد ١٠ آلاف كيلومتر من حدودها ، ما يقرب من ٥٠ مليون نسمة[٢٧٢] .

---

(٢٧٢) وكان اصل هؤلاء المهاجرين ، موزع على النحو التالى :

١٧ مليون من الجزر البريطانية
١٠ مليون من المانيا
٩ر٥ مليون من ايطاليا
٤ر٥ مليون من البلقان والدانوب
٤ر٤ مليون من اسبانيا
٢ مليون من اسكندنيافيا
١ر٦ مليون من البرتغال
٠ر٥ من بلجيكا والبلاد الواطئة .

والواقع ان هذه الحركة ، ضمنت للدول الاوربية ، تأثيرا هائلا في البلاد المهاجر اليها ، ولن نرى ، بعد عام ١٩١٤ ، أى حركة هجرة هائلة على هذا النحو .

رابعا — التأثير الأيديولوجي :

ان التفوق العلمي والسيطرة المالية ، واستقرار الملايين من الاوربيين خارج حدود اوربا ، كفل للافكار ، واللغات والديانة المسيحية ، تأثيرا خارجيا قويا وعلى الأخص بالنسبة للافكار الاقتصادية والسياسية ، نجد ان العديد من الدول تأثرت بالافكار والنظم الاوربية ، فاليابان (عام ١٨٦٨) ، والصين (١٩١٩) اخذت كل منها دستورا « ليبراليا » شبيها بالدساتير الاوربية .

وبذلك يتضح ، ان الثورة الصناعية ، وقعت أولا في أوربا ، لأنها كانت قد توفرت على كل العناصر الاساسية والضرورية لقيام تلك الثورة .

ولكن هذه الثورة ، لو كانت قد وقفت عند حد « التقدم العلمي ، الذى نقلنا من عالم الاداة ، الى « لآلية » فحسب ، فانها لم تكن لتستحق كل هذا الاهتمام بها ، ولما شغلت هذه المساحة الهائلة من تاريخ البشرية ، ولكن الثورة الصناعية ، ذهبت أبعد من «تأثيرها على المادة» ، أى اثرت تأثيرا جذريا وهاما على «الانسان» . وعلى الاخص ، على الاوضاع الاجتماعية ، فانعكس تأثيرها على المجتمع البشرى ، في شكل اجتماعي جديد ، كانت الثورة الصناعية سببا مباشرا له ، واستلزم على الصعيد القانوني ، تطورات تسمح بتأكيد التطور الاجتماعي ، وحماية النظام الناشيء عنه . وهذا هو موضوع الفصلين الثاني والثالث من هذا البحث .

وقد وزع هؤلاء المهاجرين ، على البلاد المستقبلة ، على النحو التالى :

٣٢ مليون الى الولايات المتحدة الامريكية ، ٥ر٤ كندا ، ٦ر٤ البرازيل ، ٦ الارجنتين ، اما الباقين فقد اتجهوا الى امريكا الجنوبية والوسطى ، افريقيا الشمالية والجنوبية ، استراليا ونيوزيلاندا .

المصدر : Lescuré, ibid, pp. 18 et 19.

الفصل الثانى

الآثار الاجتماعية للثورة الصناعية

تمهيد وتقسيم(٢٧٣) :

استعرضنا في الفصل الأول ، الأسباب التى أدت الى قيام الثورة الصناعية،

---

(٢٧٣) ان المراجع التى يمكن الاعتماد عليها في هذا الموضوع يصعب حصرها ، بل يصعب حصر اهمها ، ذلك ان هذا الموضوع يحظى باهتمام علماء التاريخ ، والاقتصاد والقانون على السواء ، بحيث ساهم في وصفه مئات ، بل آلاف من الكتاب ، لذلك نكتفى باهم ما اطلعنا عليه من مراجع هنا ونخيل القارىء في كل موضع الى مراجع أخرى اهتمت ـ على وجه الخصوص ، بنقطة محدده أو باخرى ـ من موضوعات هذا البحث :

انظر على وجه الخصوص :

— Leppe ingace : peines et espoirs du proletariat Paris, ed du Temoignage Chrétien, 1946.

— Verrou Marguerite : participation, Historie du travail, developpement et doctrines, Sociales.
ed. Polyglottes, Paris 1968.

— Renard G. F. et Dulac A. : l'évolution industrielle et agricole depuis cent cinquante ans.
Paris Falcan 1912.

— U.N.E.F. John : la noissance de la civilisation industrielle et le monde contemporain.
A. Colin - Paris 1954.

— Arthur Louis DunHam : la révolution industrielle en France Bivière et Cie, Paris 1953.

— T. S. Ashton : la révolution industrielle (1760 — 1830) "Civilisations d'hier et d'Aujourd'hui"fl Pion - Paris 1965.

وقلنا ان التقدم العلمي ، وخاصة المخترعات والابتكارات الجديدة ، أدت الى زيادة الانتاج بصورة لم تعرفها البشرية من قبل . هذا التقدم ، وهذا الاسلوب الانتاجي الجديد ، كان ولابد ان يترك بصماته على الحياة الاجتماعية . وذلك ، ان وسائل الانتاج الجديدة تطلبت بالضرورة مزيدا من الأيدي العاملة ، وخلقت « تجمعات بشرية » لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت . فحتى القرن الثامن عشر ، كان النشاط الزراعى يشغل أكثر من تسعة أعشار الأيدى العاملة(٢٧٤) ، أما بعد قيام الثورة الصناعية ، فقد جدت وسائل أخرى لكسب العيش ، وأشكال جديدة للعمل ، مما ترتب عليه ميلاد طبقات اجتماعية جديدة ، حلت محل الطبقات القديمة السابقة عليها .

فلقد كان لتطور الصناعة والآلات ، وظهور المصانع الكبيرة أثر بالغ على الحياة الاجتماعية ، فمنذ بداية القرن التاسع عشر ، بدأ الشعور بالتضامن بين افراد « الطبقة الواحدة » يقوى ويتأكد . فالقضاء على نظام الطبقات القائمة على أساس « قانونى » ، وتطور النظام الراسمالى ، أديا الى تقسيم جديد للطبقات يقوم على « المكانة الاقتصادية » التى تحتلها كل طبقة . فطبقة . الراسمالية وأصحاب المصانع الكبرى ، بدأت تتزايد أهميتها باضطراد ، وبدأت الهوة تتسع شيئا فشيئا بين أصحاب الأعمال والعمال ، ومن هنا بدأ هؤلاء الأخيرين ، يشعرون بأهمية التضامن فيما بينهم للدفاع عن مصالحهم بأعتبارهم « طبقة متميزة » . وبذلك ، وبعد ان كانت التفرقة بين الطبقات في ظل النظام الاقطاعى القديم قائمة على « أساس قانونى » اضحت التفرقة بين الطبقات في المجتمع الصناعى قائمة على « أساس اقتصادى » ، هذا الفارق الذى عبر عنه H Sée بقوله « ان انتصار الراسمالية اعتبارا من القرن الثامن عشر ، أدى بالثورة الى الاستجابة لمطالب هذه الرأسمالية الصاعدة ، وعلى الأخص ، الى الغاء نظام « الامتيازات القانونية » الذى كان يفرق بين الطبقات . وما ان زالت تلك الامتيازات الطبقية ، حتى قامت

— Jean Bron : Histoire du mouvement ouvrier français, T I. à l'existence "du debut du XIX° Siècle a "1884". Les éditions ouvriéies - Paris 1968.

— André Garrigou - Lagrange et (Harc Penouil) : histoire des faits économiques de l'epoque contemporaine op-cit., note 202.

— Roland Marx : la revolution industrielle en Grande Betagne Coll V2 - A. Colin - Paris 1970.

(٢٧٤) C'aude Foflen : Naissance d'une civilisation industrielle "historie généralle du travail". Nouvelle librairie de France - Paris - sans date P. 28.

التفرقة بين الطبقات على أساس اقتصادى ، وأخذ الصراع بين الطبقـات الجديدة يشتد (٠٠٠) ، غير ان هذا التقسـيم الاجتماعى الجديد ، كان يستجيب لازدهار المذهب الفردى ، بحث أصبح كل فرد ينتمى للطبقة التى يتشابه أفرادها معا من حيث مصالحهم الاقتصادية »[٢٧٥] ٠

هذا التغيير الاجتماعى الجذرى ، يعتبر أهم الآثار الاجتماعية للثورة الصناعية٠ فاذا كانت مقدمات الثورة الصناعية ، قد أثارت جدلا وخلافا بين الـكتاب ، فان آثارها الاجتماعية تبدو واضحة للعيان ، بحيث لا تحتمل أى انكار لمساوئها ٠

فقبل الثورة الصناعية ـ كما سبق القول ـ كانت الأغلبية من الناس تعيش على العمل الزراعى ، بحيث كان عدد المدن قليلا ، وكان للمدينة وظائف محددة : فهى اما ان تكون مركز سياسي تدور أنشطتها حول القصر الملكى أو حول قصـور الأمراء والنبلاء ، أو هى ميناء تعيش المدينة على نشاطها التجـارى ٠ ان الثـورة الصناعية أوجدت صورة جديدة من المجتمعـات الانسانية وهى «التجمعات العمالية» التى تكدست في المدن الجديدة ، او بمعنى أدق في ضواحى هذه المدن حول المصانع، بحيث كانت « المدينة الصـناعية » نتـاجا خالصا للثـورة الصـناعية في القـرن التاسع عشر : وتعطينا مدينة ما نشستر Manchester الانجليزية مثلا صارخا لذلك التحول : فمن قرية في بداية القرن الثامن عشر نجدها وقد بلغ عدد سكانها عام ١٨٠١ ، خمسة وتسعون ألف ساكن (٥٩٠٠٠) لتتجاوز ثلاثمائة ألف نسـمة عام ١٨٥١ (٣٠٠ر٠٠٠) ، بينما نجد ان مدينة سانت ـ اتيين Saint-Etienne الفرنسية ، قد بلغ تعداد سكانها ٥٦ر٠٠٠ نسمة عام ١٨٥١ (بينما لم يكن يزيد عام ١٨٠١ عن ١٦ر٠٠٠) على أنه ينبغى النظر الى هـذه الأرقام أيضا باحتراز[٢٧٦] ، لأنها لا تعكس كل الحقيقة ، ذلك ، ان التكدس البشرى، ابان الثورة الصناعية ، كان يقع في ضواحى المدينة بحيث كانت تنشـأ « تجمعات سكانية » دون أى تخطيط مسبق ، في ضوء الحاجة الى ايواء النازحين من القرى المجاورة ، التى مالبثت تختفى شيئا فشيئا وتبتلع بواسطة « المدن الصناعية » ٠

---

(٢٧٥) H. Seé : remarques sur l'évolution du capitalisme Revue de Synthèse historique, N. S. TXI.
La renaissance du livre - Paris 1924. pp. 147 — 149.

(٢٧٦) Claude Fohlen : Qu'est ce que la révolution industritlle
Sciences nouvelles" - éditions Laffont - Paris 1977 pp. 174 et ss.

هذه التغيرات الظاهرية ـ كانت تخفى « انقلابا » أبعد مدى على الصعيد الاجتماعى ، محوره ظهور طبقة جديدة ، اسماها كارل ماركس طبقة « البرولتياريا »(٢٧٧) • غير ان المرء ليس بحاجة الى ان يكون « ماركسيا » حتى يصور الآلام والمعاناه التى تحملتها هذه الطبقة الجديدة ابان الثورة الصناعية • ان الظروف اللاانسانية التى عاشتها تلك الطبقة ، أصبحت من الأمور المسلم بها والمتفق عليها بين الكتاب(٢٧٨) ، غير ان بعض هؤلاء ، على الرغم من ذلك ، يرون ان هذه المرحلة كانت ضرورية لاقامة المجتمع الصناعى(٢٧٩) ، بل ان هناك بعض

---

(٢٧٧) والواقع أن كارل ماركس ليس بمخترع لهذه التسمية ، انما هو اعاد استخدام نفس اللفظ الذى كان يستخدم في روما القديمة لتسمية الطبقات الفقيرة •

Claude Fohlen, op. cit., note 276, p. 174.

(٢٧٨) طبعا هناك الكتاب الماركسيين الذين لا يدخرون وسعا في وصف تلك المرحلة بصورة تبرز وحشية النظام الراسمالى ، وكيف ان العامل في المصنع اصبح « العبد » بالنسبة للسيد الراسمالى ، وللحضارة الصناعية •

انهم ، كما يقول ماركس « مجرد جنود للصناعة ، خاضعين لرقابة جهاز من ضباط ـ الصف والضباط • فهم ليسوا فقط عبيد الطبقة البورجوازية أ والدولة البورجوازية ، انما هم ، في كل يوم وفي كل وقت ، عبيد الآلة ، والملاحظ (ملاحظ العمال) ، والراسمالى الفرد •

ـ ان كل عبد من هؤلاء لا يمكنه ان يستمتع بأى متعة من متع الحياة ، ولا يمكنه ان يتوقف عن الانتاج ، الا فترات زهيدة كى يأكل أو ينام ، وهو لا يعدو ان يكون مجرد وسيلة للانتاج أو اداة منتجة لصالح الغير ، اداة منهكه جسديا ومنعدمة فكريا » •

أو كما يقول ماركس في موضع آخر « ان ظروف البرولتياريا تعكس بصدق كل النواحي غير الانسانية للمجتمع الصناعى » •

راجع في ذلك :

Fohlen, op. cit., note 276, pp. 173, 174.

وفي نفس المعنى انتقد فردريك انجلز عام ١٨٤٥ « الحائط الذى يفصل بين الطبقات ، مؤكدا ان « المواجهة » آتية لا محالة وان تلافي هذه المواجهة اصبح أمرا غير ممكن ، فاذا كانت تنبؤاته لم تتحقق ـ على نحو ما توقع ، فانها على الاقل كانت صحيحة من حيث ما ابداه من ملاحظات على سوء حالة الطبقة العاملة وانحدار ظروف معيشتها بصورة غير انسانية •

راجع :

Roland Marc, op cit. nole 273, p. 253.

(٢٧٩) مثال ذلك ، ما كتبه Bastia من ان « المنافسة الحرة التى قام عليها النظام الراسمالى تعتبر عنصرا اساسيا في شحذ الحافز الفردى ووسيلة لتحقيق الاخاء بين الناس » •

انظر :

Léon Epsztein : l'économie et la morale. aux debuts du capitalime industriel en Frame et en Grande Betagne Etudes et mémoires No. 62 - A. Colin - Paris 1966. p. 69.

الكتاب الذين راوا في الثورة الصناعية «.وسيلة تقدم اجتماعى ملموس(٢٨٠) . ولكن الآراء الأخيرة ، لا تعد وان انعكاسا للاختلافات الدائب حول الأفكار الانسانيـة والعلوم الانسانية ، خاصة حين يتأثر الكاتب بما يعتنقه شخصيا من ايديولوجيات في تصويره للأحداث الانسانية (وعلى الأخص التاريخية) ، وفي تقديره للوقائع .

والواقع ، اننا في تحليلنا لنتائج الثورة الصناعية ، على الصعيد الاجتماعى ، لانريد ان نتخذ موقفا ايديولوجيا، ولكن ذلك لايمنعنا من القول أنه لايعقل ان نحاول « ايجاد الأعذار » ، للمجتمع الصناعى ـ فيما حمله للطبقة العاملة من تضحيات ، خاصة وان هذه التضحيات القيت على عاتق هذه الطبقة ـ كما سنرى ـ باسم الحرية الفردية والمجتمع الليبرالى(٢٨١) .

---

(٢٨٠) منهم مثلا Audiganne ، الذى كتب عام ١٨٦٨ يقول « اننا اذا تتبعنا عن قرب التحسينات والابتكارات التى ادخلت على فروع الصناعة امكننا ان تحدد النتائج المترتبة على التطور الصناعى . وتتلخص هذه النتائج ، في اخضاع العالم المادى بصورة مضطردة للانسان ، فهـذا الامير ، بدون الثورة الصناعية ، كان سيظل خاضعا للقوى المادية التى تهدده باستمرار ، كما او كانت تغير فيه قوته الطبيعية وامكاناته العزيزية . فلننظر للانسان البدائى الم يكن « عبـدا » للطبيعة؟ ان الانسـان لم بامكانه ان ينتصر على الطبيعـة الا باسـتخدام فكرة وقواه)(...) ان التصـنيع ساعد الانسـان على ان يصـبح بصـورة مضطردة ، سـيدا لهـذا العـالم المـادى (...) ان التصنيع سـاعد على تحسـين الظروف الصـحية والمعنوية للجماهير العريضة .

راجع في هذا المعنى :

A. Audiganne : la bette industrielle des peuplls Paris - Capelle, 1868. pp. 344 et ss.

(٢٨١) والواقع ان الثورة الصناعية بقدر ما حملت في بدايتها ـ الطبقة العـاملة من مشـاق ومصـاعب ، فانهـا في نهاية الامـر ، كما قـال Audigenne راجع هامش ٢٨٠) حققت تقدما ملموسـا للبشرية . والنظرة الموضوعية لعيوب هذه الثورة ومزاياها ممكنة ، وقد عبر عنها بصدق الكاتب Louis Cazamien بقـوله « ان المـدن حديثـة النشـأة اتسـعت بشـكل يفـوق كل تصـور ، ان شـعبا باكمـله اقتلع من الحقـول سـاعد على هـذا التطور ، اذ انتقل من القرى الى المدن يحدوه كل الامل في اجر اكبر وعمل للجميع ، حتى ولو كان ذلك في ظروف معيشية بالغة القسوة ، في احياء « عماليـة » ، شيدت على عجل ، واقيمت منازلها دون مرافق صحية ، ومحرومة من الهواء والضوء ، غالبا ما كانت تكدس فيها عائلات باكملها ، ان المصنع جعل من الجميع « خدم » حتى النسـاء والاطفـال دخلوا الى هذا العالم الذى كانت السـيادة فيه « للالة » . وهكذا اضحى البؤس « جمـاعيا » دون ان تتحرك لدى الانسـان ادنى رغبة في تصحيح هـذه الاوضـاع الشـاذة ، ولكن الوضع استثار القلوب « الانسـانية » واصحاب الفكر المتقدم ، الذين راوا في هذه الاوضـاع فضـح لمجتمعهـم وجعلوا من اصلاحها همهم الشـاغل (...) لذلك ، بعد فترة ، امكن الحـد من عـدد ساعات العمـل ، ومراقبة المصانع وجعلهـا اكثر استجابة للمتطلبات الصـحية ، مما ادى الى تخفيض عدد اصابات العمـل ، ووضعت قواعد لتشـغيل الاطفـال وانقاذهم من حالة « العبودية » التى كانوا قد تدنوا اليها ، وبذلك أمكن معالجة او جه القصـور في هذا الميدان ، من خلال كفـاح طويل اتسـم بالشجاعة والحكمة » .

انظـر في ذلك Fohlen, op. cit., note 276, pp. 175 — 176.

ان المعاناه التى تحملتها الطبقة العاملة ـ كما سنرى بعد قليل ـ أمر مسلم به ، ولكننا في دراستنا لهذه الآثار ، لا نود ان نحكم على « الافكار والأشخاص » بقدر ما نرغب في الوقوف على الأسباب الحقيقية لهذه الآثار الاجتماعية ٠ ان الرأسمالية الصناعية نشأت وازدهرت بفضل تراكم رأس المال ٠

ان الاختراعات وابتكارات التى لازمت الثورة الصناعية ، سمحت بالاسراع في صنع الآلات ، مما ساعد على سرعة استثمار رأس المال ، ولكن العائد من الاستثمار سرعان ما وجه نحو تصنيع أدوات جديدة وتحديث المصانع القائمة ، كل ذلك على حساب الطبقات العاملة التى لم تكن تملك سوى قوة سواعدها ، ولم تكن تتمتع آنذاك بأية حماية قانونية أو نقابية ٠

ولكن ، بغض النظر ، عن مسلك الطبقة الرأسمالية ، تجاه العمال ، فان الاعتبارات الاقتصادية نفسها ، في بداية الثورة الصناعية ، كانت تتطلب ـ في سبيل تطوير المجتمع الصناعي ـ الحد من الاستهلاك ٠

ان الوقوف على النتائج الحتمية لتراكم رأس المال ، سيمكننا من ان نحكم بصورة أفضل على استغلال الأقوياء (أصحاب رأس المال) للضعفاء (العمال) ، خلال المراحل الأولى من الثورة الصناعية ٠

ان كل مجتمع ، حتى المجتمعات الغنية في الوقت الحالى ، تواجه دائما مشكلة « الندرة والاختيار » ، ولكن هذه المشكلة كانت لها في الدول التى دلفت الى عصر الصناعة ، أبعاد تختلف عن أبعادها في المجتمعات الحديثة ٠

وفي البلاد التى عرفت الثورة الصناعية ، وفي بداية هذه الثورة ، يعمل صاحب رأس المال على بناء المصانع وتصنيع الآلات ، أى على « تراكم » رأس المال ٠ هذا التراكم الاستثمارى لابد وان يكون على حساب « الاستهلاك » أو بمعنى أدق، على حساب « الحد من الاستهلاك » ذلك انه يتعين ادخار المواد النادرة من أجل

---

(٢٨٢) ويلاحظ ان هذا القول ، فيما يتعلق لتطور النظام الاقتصادى ، يصدق سواء بالنسبة للدول الرأسمالية أم الدول الاشتراكية ٠ ان مثل هذه الملاحظة قد تدعو للتعجب ، ولكنها ملاحظة مبنية على معطيات اقتصادية ، ولا تتأثر بأى اتجاه أيديولوجى ذلك ان كل مجتمع في سبيل تطوره معرض لقضية « الندرة والاختيار » ، ايا كان النظام السياسي لهذا المجتمع ٠

لذلك ، فاذا كنا بصدد بحث أثر تراكم رأس المال على « حياة الطبقة العاملة » وجب القول ان نتائج هذا التراكم بالنسبة لحياة العمال قد تكون واحدة في النظامين الرأسمالى والاشتراكى ٠ لذلك ، يمكن في هذا الصدد مقارنة مدى ما تحملته الطبقة العاملة في سبيل التصنيع في كل من النظم الاشتراكية والرأسمالية ، بشرط ان تجرى المقارنة في وضع تكون فيه الدول محل المقارنة في نفس درجة التصنيع ٠ وفي هذا الصدد ، يرى الاخصائيين الاحصائيين الامريكيين ان الانتاج الصناعى

توجيهها للاستثمـــار ، ولا يوجد مجتمع لا يواجه مسألة الندرة هذه ، وبقدر ما تكون الندرة ، بقدر ما يكون الاختيار صـعبا • والاختيار يمـكن من توجيه الموارد بين « الاستثمار » و « الاستهلاك » من جهة » وبين توزيع « مواد الاستهلاك » على الطبقات الاجتماعية المختلفة من جهة أخرى[٢٨٣] •

ان القدرة الانتـاجية لاى بلد ، في وقت محدد ، تتجـه في آن واحد نحـو « الاستهلاك والاستثمار » • فاذا كانت قدرات هذا البلد تعمـل بكاملهـا ، فأنه لا يمكن العمل على رفع الانتاج الا بالحد من الاستهلاك • وهو ما حدث في النظام الرأسمالى ابان الثورة الصناعية ، فقد فضل الرأسماليين آنذاك توجيه المـوارد ناحية الاستثمار وكان ذلك على حساب الطبقة العاملة ، خاصة وان الظـروف كانت مواتية بالنسبة للرأسمالى حيث كان بامكانه ان يؤدى أجر « الكفاف » لطبقة عاملة تتميز بكثرة عددها وسوء تنظيمها[٢٨٤] • ان سوق العمل آنذاك ، كانت تضع العامل تحت رحمة صاحب العمل ولقد ترتب على اختلاف الدخول واتسـاع الفارق بين دخول العمال ودخول الرأسماليين ، أن قل الطلب على المواد الاستهلاكية ، وازدادت مقدرة الرأسماليين على ، الادخار ، مما ساعد على تراكم راس المـال ، الذى استخدم في العمليات الاستثمارية ، أى في شراء الادوات وبناء المصـانع • وهكذا ، اتجهت الموارد تحت تأثير الفلسفة الليبرالية ــ ودون تدخل من جانب

السوفييتى عام ١٩١٣ يماثل الانتـاج الامريكى عام ١٨٧٧ • فاذا اردنا المقارنة بين ما حملته درجة التصنيع الواحدة في كل من البلدين طبقة العمال من تضحيات ، لامكن القول ان كلاهما ــ حمل الطبقة العاملة ــ نفس التضحيات ، وان كان الاسلوب الانتاجى مختلف •

راجع في هذا الصدد ،

Maurice Nuieau, op. cit., note 122, pp. 121 et ss.

(٢٨٣) ويلاحظ أن عملية الاختيار هـذه تتم باسـلوب مختلف في الدول الراسـمالية عنهـا في الدول الاشتراكية : ففى النظـام الراسمالى ، يتكفل قانون العرض والطلب بحل مشكلة الاختيـار ، اما في النظم الاشتراكية ، فان الدولة هى التى تتولى تحديد الاختيارات •

ولكن ، في كل من النظامين ، فان اختيار توجيه الموارد نحـو الاستثمار او اعادة الاستثمـار ، يقتضي بالطبع الانتقاص من الموارد الموجهة الى » الاستهلاك « •

(٢٨٤) فالانتصار في هـذه المعركة الصـناعية ، كان يتطلب من الراسـمالى ، تحسين وسـائل انتـاجه بصفة مستمـرة والعمـل على تخفيض سـعر التـكلفة ، وقد مارس الراسـمالى الفرد كل الضغوط الممكنة على العـامل لتخفيض أجره الى اقل درجة ممكنة ، اى الى تلك الدرجة التى تضمن بقـاؤه ليواصل الانتاج ، ومما سـاعد على ذلك ، ان الطبقة العاملة لم تكن قد انتظمت صفوفها بعد.

راجع في ذلك المعنى :

Rioux, op. cit., note 5, p. 165.

الدولة ـ الى استحداث المزيد من المصانع والآلات ٠ ومن ذلك ، يتضح ، ان الاختيار تم في المرحلة الأولى للثورة الصناعية ، لصالح الطبقة الرأسمالية ، على حساب الطبقة العاملة ، وقد لجأت الطبقة الرأسمالية الى زيادة الانتاج ، كلما ارادت ، على حساب الحد من استهلاك الطبقات العمالية ، ذلك ان أى محاولة لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية ، يمنح العمال قدرا أكبر من الأجور ، كان سيترتب عليه الحد من سرعة تراكم رأس المال ، أى ان كل محاولة لتحقيق « العدالة الاجتماعية » كان لها آنذاك رد فعل اقتصادى ، مؤداه الحد من عملية التصنيع والقدرة الانتاجية ككل(٢٨٥) ٠

❋ ❋ ❋

من هذه المقدمة ، يتضح لنا ، أن أهم آثار الثورة الصناعية ، على الصعيد الاجتماعى ، كانت تقسيم المجتمع الى طبقات ، تقسيم استجاب بالرجة الاولى ، للعوامل الاقتصادية ، وكانت أهم أطرافه ، الطبقة الحاكمة اقتصاديا ، أى الطبقة البورجوازية ، والطبقة المحكومة اقتصاديا ، أى طبقة البروليتاريا (**المبحث الأول**)، هذه الطبقة الأخيرة ، تحملت (أو حملت) ، قدرا كبيرا من التضحيات بحجة اقامة المجتمع الجديد ، الذى أطلق عليه رغم ذلك ، اسم « المجتمع الليبرالى »(٢٨٦) ٠ (**المبحث الثانى**) ٠

---

(٢٨٥) ولعل ذلك ما تصده Keynes حين كتب عام ١٩٢٠ يقول « ان النظام الاجتماعى والاقتصادى لاوربا خلال القرن التاسع عشر ، قام على أساس يسمح بتراكم راس المال ، فالنظام الاجتماعى كان لسمح بتوجيه القدر الاكبر من الدخل ناحية الطبقة الاجتماعية الاقل استهلاكا ٠ ولقد كان عدم المساواة في توزيع الدخل القومى بين الطبقات هو الذى مكن من احداث تراكم راس المال وتطور الابتكارات والاختراعات ، بحيث كانت هذه الظواهر هى السمة المميزة للثورة الصناعية ٠ هنا يمكن التبرير الاساسي للنظام الراسمالى » ٠

J. M Keynes : The economic Consequences of the peace. Londres - Macmillan 1920 — p. 16.

(٢٨٦) Marice Niveau, op. cit., note 122, p. 120.

المبحث الاول

الثورة الصناعية وتقسيم المجتمع الى طبقات(٢٨٧)

ان أهم نتائج الثورة الصناعية ، على الصعيد الاجتماعى ـ باتفاق جميع الكتاب ، كان ميلاد الطبقة العاملة ، بحيث يمكن القول ، دون تردد ، ان الطبقة العاملة هى وليدة الثورة الصناعية ·

ولكن هذا الأثر ، وان كان أهم آثار الثورة الصناعية على الصعيد الاجتماعى ، لا يمنع من وجود آثار أخرى ولا يقلل من أهميتها ، آثار تتركز أساسا في تقسيم المجتمع الى طبقات · ولكن ذلك ، لا يعنى ان الثورة الصناعية كانت هى السبب في تقسيم المجتمع الى طبقات ، ، فالطبقات سالفة على المجتمع الصناعى ، انما أدت الثورة الصناعية الى تقسيم طبقى جديد ، تميز به المجتمع الصناعى وامتدت آثاره حتى وقتنا المعاصر ·

هذا التقسيم الاجتماعى الجديد يقوم أساسا على وجود طبقيتين ، أحدهما تملك وسائل الانتاج (الطبقة الرأسمالية) والاخرى ـ الطبقة العمالية (البرولتياريا) لا تملك الا قوة سواعدها · ولكن الى جانب هاتين الطبقتين ، أوجد التطور العلمى والاقتصادى ، طبقة ثالثة أفرادها لا هم بالرأسماليين ولا بالعمال ، فأطلق عليهم لتمييزهم اعضاء « الطبقة المتوسطة » ·

وبذلك ، تكون المجتمع الصناعى من ثلاث طبقات ، وليس كما يدعى أغلب

---

(٢٨٧)

Léon Epsztein : op. cit., note 279, pp. 69 et ss.
T. S. Ashton, op. cit., note 273, pp. 122 et ss.
C. Fohlen, op. cit., note 276, pp. 173 et ss.
A. Piettre, op. cit., note 6, pp. 111 et ss.
A. Garrigon, op. cit., note 202, pp. 177 et ss.
J. P. Rioux, op. cit., note 8, pp. 147 et ss.
Roland Marx, op cit., 273, pp. 166 et ss.
P. Mantoux, op cit., pp. 353 et ss.

وانظر كذلك بالاضافة لهذه المراجع :

Jean Bron : Historie du mouvement ouvrier français "du début du XIX Siècle à 1884" les éditions ouvrieres, Paris 1968, pp. 17 et ss.
Philippe Ariès : Historie des populations françaises. Coll "Historie", ed du Seuil, Paris 1971. pp. 274 et ss.

الكتاب الاشتراكيين ، ان هـذا المجتمع انقسـم الى طبقتين فقط ، البـورجوازية والبورليتاريا[٢٨٨] ٠

ذلك ، ان انقسام المجتمع الى طبقتين متميزتين تماما ، يقتضى على الاقل درجة كبيرة من التركز الصناعى ، وهو مالم يتحقق مع بداية الثورة الصناعية ، وهو أيضا ما يفسر عدم وقوع « صراع الطبقات » على نحو ما تنبأ به كل من ماركس وانجلز ٠ ذلك ان « ديكتاتورية البروليتاريا » على نحو ما اقامتها الثورة البلشوفية في الاتحاد السوفييتى ، تثبت ان هذا الصراع لا يمكن ان يقع « بصورة تلقائية » من جانب طبقة العمال ٠ فهذا الصراع لا يمكن ان « يحتدم » بصورة قصوى الا اذا حدث تركز صناعي على مستوى عال ، واستطاعت طبقة البرجوازية ان تلقى في صـفوف البروليتاريا كل هذه « الفئات المتوسطة » التى يطلق عليها اسم « البرجـوازية الصغيرة » ٠

بل ان هذه الملاحظة ، التى قال بها H. Seé [٢٨٩] لتفسير تقسيم الطبقات في مطلع الثورة الصناعية ، باتت مشكوك في صحتها الى حـد كبير : فالملاحظ في الوقت الحـالى ، في الدول الصناعية المتقدمة ، ان التركز الرأسمالى قد بلغ مرحلة متقدمة » بل تجاوزها الى ما يطلق عليه الكتاب الاشتراليين « الامبرالية » ، بازدياد عدد الشركات « المتعددة الجنسبية » ومع ذلك ، فان الصراع الطبقى لا يزداد في هذه البلاد ، بل على العكس خفت حدته ، كما ان « الطبقة المتوسطة » لاتتناقص وتلحق بصفوف البروليتاريا ، بل على العكس يتزايد عددها وتتضاعف قوتها ، خاصة ان الذى يحدث في هذه المجتمعات هو ظاهرة تخالف تنبؤات الكتاب الاشتراكيين ، فبدلا من ان تضمحل صفوف « الطبقة المتوسطة » وينضم أعضاؤها الى صـفوف « البروليتاريا » ، نجد ان العمـال وعلى الأخص « المتخصصين » منهـم ، بدأوا يهجرون صفوف البرولتياريا ــ على الأقل بتطلعاتهم البورجوازية ــ ليلتحقوا بصفوف الطبقة المتوسطة او « البرجوازية الصغيرة »[٢٩٠] ٠

---

(٢٨٨) فكارل ماركس مثلا يقرر « ان المجتمع ينقسم باضطراد بين عدوين لدودين ، اى طبقتين تتعارض مصالح كل منهما مع مصالح الاخرى ، وهما البورجوازية والبرولتياريا » ٠

انظـر ، Fohlen, op. cit., note 276, p. 231.

(٢٨٩) H. Seé, op. cit., note 275, p. 148.

(٢٩٠) راجع في هذا الموضوع الهـام :

Pierre Fougeyrollas : la révolution proletarieme et les impasses petites - bourgeoises editions Anthropos - Paris 1976.

أضف الى ذلك ، أن تقسيم المجتمع على أساس اقتصادى ، لا يمنع بالطبع من تداخل بين هذه الطبقات ، على الاقل عند حدود كل منها : فمن جهة ، نجد ان « النظم الاجتماعية » السابقة ، أيا كانت سرعة التحول الاجتماعى ، تترك آثارها على النظم الاجتماعية المستحدثة ولا تزول الا تدريجيا • ومن جهة أخرى ، نجد ان النظام الاجتماعى غالبا مالا يكون قائمـا على أسـاس « حـدى » بل يترك بعض « المراكز الوسيطة » : فالموظف في خدمة الدولة قد لا يكون محض « أجير » بل قد يملك بالاضافة لأجره ، ثروة شخصية • وأصحاب الصناعات التقليدية ، الذين يعملون لحسابهم الخاص (مستعينين في عملهم بعامل أو أكثر) هؤلاء يشـغلون مركزا وسطا بين رب العمل الرأسمالى والعامل الأجير (وان كانوا أقرب الى هذا الأخير من الأول) ، والمزارع البسيط الذى يزرع أرضه بيده (بالاستعانة بآخرين او بدونهم) ، هو أيضا يشغل مراكزا وسطا بين العـامل والمالك ، ومدير المحـل التجارى هو في الأصل « أجير » ولكنه يشغل مركزا قياديا يعد به من طبقة « أرباب الأعمال » • وخاصة أنه في نطاق التجارة أو الصناعات الصغيرة والمتوسطة غالبا ما يحدث ان ينتقل هذا « المدير » من مصاف الاجراء الى مصاف الملاك حين يشرع في العمل لحسابه الخاص[(٢٩١)] •

لذلك ، فمن المتفق عليه بين الكتاب ، أن الثورة الصناعية ، قسمت المجتمع الى ثلاث طبقات ، وليس ـ كما يذهب الى ذلك الكتاب الاشتراكيون ـ الى طبقتين•

فالنشاط الاقتصـادى المتزايد ابان الثورة الصناعية ، والتطورات العلميـة والفنية الهائلة ، كل هذه العوامل أدت الى خلق وظائف جديدة ونشاطات متنوعة ومستحدثة ، فساعدت بذلك على خلق « نماذج اجتماعية » لم تكن معروفة من قبل•

أول هذه النماذج هو « الرسمالى الفرد » ، الذى انصب نشاطه في القطاع الصناعى وكون ـ مع أقرانه ـ الطبقة البورجوازية الجديدة[(٢٩٢)] ، هذا الرأسمالى،

---

(٢٩١) Seé, op. cit., note 275, p. 148

(٢٩٢) ذلك ، ان طبقة « البورجوازية » ، لم تكن ـ كالطبقة العاملة ـ وليدة الثورة الصناعية ، بل ان الطبقة البورجوازية سابقة في وجودها على الثورة الصناعية •

ويقتضي الامر في هذا الصدد ايضا بعض الايضاح ، وخاصة ان هذا القول يختلف مع ما ذهب اليه الكتاب الاشتراكيون من حيث ادعاؤهم ان الطبقة البورجـوازية « وليـدة الثورة الصنـاعية » ، فهـذا القول ، ربمـا كان أكثر منطقيـة مع تصـورهم لـ « صراع الطبقـات » ، ولكنه على كل حال قول غير صحيح على اطلاقه ، كما سنرى بعد قليل •

أنظر فيما بعد ، ص ١٩٩ وما بعدها •

كان من حيث التكوين والتفكير مختلفا عن التاجر ، والوسيط التجارى ، وصاحب الورشة (القائمة على الصناعة اليدوية) ، السابقين عليه ، فالرأسمالى الصناعى كان أكثر ارتباطا بالبنوك والقروض واستطاع بنشاطاته المكثفة ان يعمل على تدعيم هذا النظام الاقتصادى الناشيء (النظام الرأسمالى) مرتكزا في هذا الصدد ، على الامكانات والتسهيلات التى وفرتها له الأفكار « الليبرالية » الجديدة(٢٩٣) ٠

أما الطبقة الثانية ، فهى طبقة العمال ، وهى من الناحية العددية أكثر أهمية من الطبقة البورجوازية ٠ والطبقة العمالية – هى طبقة جديدة – لأن العامل في المجتمع الصناعى ، مختلف عن العامل قبل هذا المجتمع : فالعامل – في ظل النظام الاجتماعى السابق – كان يقترب من صاحب الحرفة اليدوية l'Artisan فالعريف le Compagnon كان في وضع يختلف عن وضع العامل الصناعى ، ولكن الثورة الصناعية ، بما أدت اليه من تركز وآلية ، أدت الى خلق طبقة « البروليتاريا المعاصرة »(٢٩٤) ، التى تكونت أساسا من المهاجرين من الأرض الزراعية ، في اتجاه المدن الصناعية ، بقصد الحصول على عمل ، هذه الهجرة التى أدت الى اتساع المدن وعلى الأخص الضواحى الصناعية ، على حساب القرى : فحتى الثورة الصناعية كانت هناك علاقات تربط بين المدينة والقرية ، فالمدينة كانت ذات حجم محدود ، محاطة بالقرى ، وكان لكل منهما وظائف تقتضي التبادل المستمر فيما بينهما ٠ ولكن مع ازدياد النشاط الصناعى واتساع الضواحى الصناعية ، بدأت المدن تتسع على حساب القرى ، وبدأت مصالح القرية والمدينة تتعارض ، وكان لذلك أثره بالطبع على النطاق السياسي ، حيث اختلفت اختياراتهم السياسية ٠

فالمجتمع الزراعى ، مجتمع تقليدى ، يحترم النظام القائم ، ويخضع للعادات والتقاليد ، ويقدس السلطة ٠ وقد ظهر ذلك جليا في مسار التجربة الديمقراطية – وبخاصة الانتخابات التى جرت في أعقاب تقرير مبدأ حرية الاقتراع سواء في

---

(٢٩٣) René Rémond : Introduction à l'histoire de notre temps. (1815 — 1914). "Histoire." ed du Seuil, Paris 1974 p. 57.

(٢٩٤) نقول المعاصرة لأنه ، كما سبق الاشارة الى ذلك ، لم يكن لفظ « البروليتاريا » مستحدثا من قبل كارل ماركس ، بل كان سابقا عليه ٠

راجع ما سبق ، هامش ٢٧٧ ٠

فرنسا وانجلترا(٢٩٥) ـ ولكن هذا الموضوع بالطبع وان كان خارجا عن نطاق دراستنا، فقد أشرنا اليه، لنصل منه الى ان طابع المحافظة لدى المجتمع الزراعى هو ما يفسر لنا الطابع « المتحفظ » والمسلك السلبى، للطبقة العاملة على الأخص بالنسبة لجيل « البرولتياريا الأول »(٢٩٦) • فهذه الطبقة التى بدأت تتكون وتتضخم، اعتبارا من نهاية القرن الثامن عشر في انجلترا، ومن ١٨٣٠ في فرنسا وبعد ذلك بقليل في شمال أوربا وفي منطقة الكتالونى Catalogne في أسبانيا، اتخذت موقفا سلبيا من المصاعب التى واجهتها، ذلك انها كانت قد ورثت طابع « المحافظة » القروى، الذى غالبا ما يدعو للامتثال، او في حالة « الغضب » الى نبذ الحياة السياسية والاجتماعية كلية • لذلك، نجد ان قادة هذه الطبقة، ما ان يبدون اهتماما بهذه الحياة السياسية، فانهم يرفضون هذا النظام « الديمقراطى » القائم على الأفكار الليبرالية، فيعتنقون أما الأفكار الثورية أو الافكار الفوضوية l'Anarchisme، وهو ما يفسر ـ كما سنرى ـ كيف ان الحركة النقابية الفرنسية ظلت ـ حتى الحرب العالمية الأولى تقريبا ـ خاضعة للأفكار الفوضوية، وبخاصة أفكار برودان Proudhon.

وفيما بين هاتين الطبقتين، توجد طبقة ثالثة، يذهب الكتاب الاشتراكيون لأهمالها أو الحد من أهميتها، عند القيام بعملية « التحليل الاجتماعى »، رغم ما تمثله هذه الطبقة من أهمية، سواء من حيث عددها أو دورها السياسي أو الاجتماعى، ونعنى بها الطبقة المتوسطة • هذه الطبقة، كانت تسمى خلال القرن التاسع عشر بـ « الطبقة المتوسطة »، ولكنها بدلا من ان تتلاشي ـ كما تنبأ بذلك الكتاب الماركسيون، تضاعف عددها وتنوعت مكوناتها في القرن العشرين بحيث أصبح يطلق عليها « الطبقات المتوسطة » • وتعكس تسمية هذه الطبقة وضعها من السلم الاجتماعى • أنها تقف موقفا وسطا بين الطبقة العليا (البورجوازية) والطبقة الدنيا (البرولتياريا) •

هذه الطبقة، تكونت، بفعل مجموعة من العوامل الاقتصادية والفنية والتعليمية التى سنعرض لها فيما بعد(٢٩٧) •

من هذا العرض، يتضح لنا اذن، أن الثورة الصناعية لم تخلق نظام الطبقات، فالتفرقة بين الطبقات سابقة على الثورة الصناعية، كل ما هناك،

---

(٢٩٥) R. Remond, op. cit., note 293, p. 58.

(٢٩٦) H. Seé, op cit., note 275, p. 66.

(٢٩٧) انظر فيما بعد ص ٢٢٠ وما بعدها •

ان هذه الثورة ، بدلت الأسس التي كانت تقوم عليها التفرقة بين الطبقـات ، فبعد أن كانت هذه التفرقة تقوم على أساس «قانوني» ، اضحى معيار التفرقة «اقتصاديا» كذلك ، فان هذه الثورة الصنـاعية لم توجد الطبقة المتـربعة على قمة السـلم الاجتماعي (البورجوازية) ، ولكنها بدلت ولا شك في تفكير الأفـراد المكونين لهـا (المطلب الأول) ٠

كذلك ، ساعدت بعض العـوامل الاقتصـادية والفنيـة النـاشئة عن الثـورة الصناعية على تأكيد مكانة الطبقة المتوسطة في السلم الاجتماعي (المطلب الثاني) ، كما أدت هذه الثورة من ناحية ثالثة ، الى تكوين طبقة جديدة ، هي الطبقة العمالية ، أو البرولتياريا(٢٩٨) ٠ (المطلب الثالث) ٠

المطلب الأول ـ الطبقة البورجوازية (٢٩٩) :

مع الثورة الصناعية ، شهد العالم الصناعي انقلابا ملموسا في كافة أوجـه الحيـاة ، السـياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠ انقلابا ، عبر عنه A. Piettre

---

(٢٩٨) ويلاحظ بالنسبـة لهـذا التـكون الاجتمـاعي الجـديد ، انه لم يقض نهـائيا على « النظـام الاجتماعي القـديم » السـابق عليه : حقا ان « النبلاء » فقدوا امتيازاتهـم القـانونية ولكنهـم لم يفقدوا كل مكانه لهم في المجتمع ، فالثـورة الصـناعية رغـم قضائها على الامتيـازات القانونية لهذه الطبقة ، الا ان هذه الاخيرة احتفظت بمكانتها القديمة واستطاعت ان تفرض سطوتهـا وخاصة في المناطق الزراعية ، فكانت تشرف على المؤسسات الاجتماعية ، وتمسـك بين أيديها بأغلب المناصب العسـكرية العليـا ، والسلكين الدبلوماسي والقنصلي ٠

وبذلك ، بدأ المجتمع « الرأسـمالي » يتكون الى جانب المجتمع « الارستقراطي » القديم ، بحيث يمكن القول ، ان الصورة الاجتمـاعية للمجتمع الصناعي في نهاية القرن التاسع عشر كانت ولا شك مختلفة عن هذه الصورة في نهاية القرن الثامن عشر ٠ وهـذا امر طبيعي تتصف به كل مجتمعاتنـا الحديثة ، فكل التغيرات تحدث بصورة بطيئة بحيث لا يمكن القضـاء بصورة نهائية على بقايا النظام الاجتماعي القديم ـ بل يظل هـذا الاخير معايشـا للتحولات الجديدة ، مع ملاحظة ان مجتمعاتنا الحديثة تعتبر اكثر مرونة من حيث امكانية الانتقـال من طبقة الى اخرى ، عن المجتمعات السـابقة على الثورة الصـناعية ٠

(٢٩٨) راجع في ذلك :

R. Rémond, op. cit., note p.p. 62 et s.s.
H. Seé, op. cit., note 278, p. 147.

(٢٩٩)
Mantoux, op. cit., note 2, p. 380.
A. Piettre, op. cit., note 6, pp. 65 et s.s.fi et 111 — 118.
Fohlen, op. cit., note 276, pp. 236 et s.s.
H. Sée, op. cit., note 275, pp. 63 et s.s.
Rioux, op. cit., note 5, pp. 209 et s.s.
Marx, op. cit., note 273, pp. 163 et s.s.

بقوله « لقد شهد القرن الثامن عشر نوعا من التباين بين اضمحلال القوى التقليدية : الملكية والارستقراطية والكنيسة ، وبين ازدهار وارتقاء الطبقة التى أمسكت بين ايديها بكل الأشكال الجديدة للثورة : الطبقية البورجوازية (٣٠٠) » •

هذه الطبقة اعتلت السلم الاجتماعى وأمسكت بين أيديها بمفاتيح القوى الاقتصادية وتسلطت على الحياة السياسية باسم الليبرالية ، فظهرت وكأنها الطبقة التى جاءت بالحرية ، وقامت من أجل حماية الحريات(٣٠١) ، وقد ساعدها على ذلك ، عاملان أحدهما مادى ، والآخر معنوى •

اما العامل المادى ، فيتمثل في أن هذه الطبقة كانت تمسك بين يديها « بالوسيلة المادية للحرية » : النقود • ولعل الكاتب ديستوفسكى لم يخطىء في هذا الصدد ، حيث كتب يقول « ان الممسك بقطعة من النقود بين يديه يمسك بقدر من الحرية وضع عليه خاتم الأمير ، لأن النقود هى « الحرية المسكوكة » ، ان الشخص الغنى يمسك بين يديه بقوة الشراء » • ولقد شهد القرن الثامن عشر ازدهارا ملموسا للأنشطة التى ساعدت الطبقة البورجوازية على تراكم رأس المال ، فالتجارة وعمليات البنوك والصناعة ، شهدت جميعا تطورا لم يسبق له مثيل في حياة البشرية •

اما من الناحية المعنوية ، فان الطبقة البورجوازية اذا كانت في بداية الأمر قد حاولت ان تحذو حذو الطبقات العليا السابقة عليها (النبلاء والأمراء ••) ، فأنها سريعا ما تبينت ان نجاحها في تحقيق اطماعها يتوقف على « نموذج للحياة » ، وقدر من الأفكار الجديدة ، تختص به ويميزها عن الطبقات العليا السابقة عليها ، وقد نجحت في تحقيق ذلك ، وبرزت أفكارها المتميزة في مجالات متعددة ، أهمها على

---

(٣٠٠) Garrigou - Lagrange, op. cit., note 202, p. 175 et s.s.
J. Bron, op. cit., note 287, pp. 18 — 27.

وانظر كذلك بالاضافة الى هذه المراجع :

Régine Pernoud : les origines de la bourgeoisie P.V.F. Que Sais-je ? No. 456. Paris 1947.

G. Dupeux : la société francaise (1789 — 1960) Coll. V. A. Colin — Paris 1964 pp. 184 et s.s.

A. Daumard : l'évolution des structures Sociales en France à l'époque de l'industrialisation.

Rev. historique, No. 502, Avr - jun 1972 pp. et s.s.

Piettre, op. cit., note 6, p. 65.

(٣٠١) راجع ما سبق ص ١٣٠ وما بعدها •

الاطلاق ، مفهوم تلك الطبقة بالنسبة للعمل ، ومفهومها بالنسبة لاستثمار الأموال ٠
فبالنسبة للعمل ، حرصت الطبقة البورجوازية على رفع شعار حرية العمل (استكمالا لحماية الحريات) ، وأيضا على تمجيد العمل الفردى ، أيا كان ٠ وقد عبر فولتير عن ذلك بقوله « اجبروا الناس على العمل ، فستجعلون منهم بذلك اناس شرفاء وسعداء » ، وأصحاب الموسوعة les Encyclopédistes ، يقررون في موسوعتهم « ان المرء ينظر للعمل وكأنه عبء لأنه يعتبره عدوا لراحته ٠ ولكن العمل ، على العكس من ذلك ، يعتبر مصدر كل سعادة ، والعلاج الناجح ضد كل أرق ٠ ان العمل اليدوى يخلص المرء من المعاناة الفكرية ، ويسعد الفقراء » ، او كما كتب Alfred Krupp (احد رجال الأعمال) في لافتات كانت تملأ مصنعه « ان خير المصنع هو خير للجميع ٠ اذن ، اعملوا لأن العمل عبادة ، فالعمل كالصلاة »(٣٠٢) ٠

فتمجيد العمل الفردى اذن ـ منذ عصر النهضة ـ وجد لدى هذه الطبقة قبولا وساعدها على تحقيق أمانيها ، وبالاضافة اليه ، ساد لدى هذه الطبقة أفكار خاصة بالنسبة لاستخدام الأموال ، فقد جرت عادة هذه الطبقة على حب الادخار واعادة الاستثمار وهو ما يغير النظام الاقتصادى الرأسمالى (نظام الادخار والاستثمار) عن النظام الاقتصادى السابق عليه (نظام يقوم على البذخ والترف والاسراف) ٠

هذه الأفكار « الخاصة » بالبورجوازية الصناعية ، أدت الى أن يتحول الانتاج الي انتاج يقوم على قانون « السوق » يتحكم فيه العرض والطلب ، وتتحدد مقاييسه وفقا لقواعد مادية ، خلافا للنظام الاقتصادى السابق عليه ، والذى كان الانتاج فيه ، تبعا لبذخ النبلاء وترفهم ، يقوم على معايير « جمالية وفنية » ٠ ولكن البورجوازية الرأسمالية ، نجحت في جعل قيمة الانتاج متوقفة على معايير مادية ٠ بمعنى ، أن الانتاج الرأسمالى سيصبح انتاجا يعتمد على « الكم » حيث سيعمل

---

(٣٠٢) انظر ما سبق ، ص ١٣٠ وما بعدها ٠

وانظر كذلك ، عن حرية العمل وموقف الطبقة البورجوازية من الحريات عموما :

Rioux, op. cit., note 5, p. 211.

R. Remond, op. cit., note 293, pp. 23 et s.s.

S. Epsztein, op. cit., note 279, p. 85 et s.s.

PierreJaccard : historie Sociale du travail de l'antiquite à nos jours Payot, Paris 1960, pp. 201 et s.s.

Michel Branciard : Société française et lutte de classes (1789 — 1914) T. 1.

Chronique Sociale de France - Paris 1967, pp. 35 et s.s.

على ان يكسب أكبر عدد ممكن من المستهلكين ، فيحول هذا النظام المجتمعات التى يعيش فيها الى « مجتمعات استهلاكية » ، خلافا للانتاج السابق عليه ، الذى كان يهتم بـ « الكيف » مؤثرا عدد من المستهلكين المحدودين ، ذوي القدرة على الاداء ٠ وتحول الانتاج على هذا النحو ، ساعد عليه بالطبع ، كثرة الابتكارات والاختراعات التى ساعدت على زيادة الكميات المنتجة بشكل لم تشهده البشرية من قبل ٠

هذه الطبقة الجديدة ، لم تكن ، كما سبق القول ، وليدة الثورة الصناعية ، ويخطىء من ينقاد وراء هذا القول ، الذى يردده الكتاب الماركسيون ، بقصد دعم فكرتهم عن صراع الطبقات ٠

فالطبقة البورجوازية ، ترجع أصولها الى زمن أبعد من الثورة الصناعية ، وكما يقول أشهر مؤرخى الثورة الصناعية P. Mantoux « ترجع أصول البورجوازية الى زمن أبعد من التجارة والتبادل ، بل ربما عادت أصولها الى الوقت الذى بدأ الانسان فيه يعرف التفرقة بين الغنى والفقير »(٣٠٣) ٠ ولكن ، دون ان ننساق وراء هذا التصوير ، فمن المؤكد ان الطبقة البورجوازية سبقت في وجودها الثورة الصناعية ، ولعل ابلغ دليل على ذلك هو الأصل اللغوى للكلمة نفسها ، فالبورجوازية تعني ساكن البرج أو المدينة
le bourgeois est un habitant d'un brourg, d'une ville.
ويميزه على وجه الخصوص أنه يحصل على دخله من عمل غير يدوى ، ولذلك ، فان البورجوازى بهذا المعنى وجد في المجتمعات السابقة على الثورة الصناعية ٠

فالطبقة البورجوازية بهذا المعنى وجدت في مدن العصور الوسطى وارتبط وجودها وتطورها بتطور النشاط التجارى والقطاع الادارى للدولة ، ومع الفتوحات الاستعمارية والاكتشافات البحرية في القرن السادس عشر ، تطورت التجارة الدولية ، فانضم لصفوف هذه الطبقة مجهزو السفن والمستوردون ٠ كذلك ، فان ظهور الورش الصناعية ساعد على ظهور فئة جديدة انضمت الى صفوف الطبقة البورجوازية ، ونعنى بهم بعض التجار des négociants الذين تخصصوا في شراء المادة الاولية وتصنيعها ثم بيعها في الأسواق(٣٠٤) ٠

---

(٣٠٣) Mantoux, op. cit., note 2, p. 380.

(٣٠٤) الواقع ان الامر يستدعى منا وقفة بالنسبة للمصطلحات المستخدمة في هذا الباب ٠ ذلك ان العديد من المصطلحات الانجليزية والفرنسية ، قد لا تفى بالغرض المقصود منها حين ننقلها الى اللغة العربية ٠

=

كل هذه الفئات كانت تمثل طبقة « البورجوازية » السابقة على الثورة الصناعية ، بحيث كان لفظ « البورجوازية » شائعا في مطلع القرن الثامن عشر ، ولكن شيوع الاسم لم يمنع الكتاب من الاختلاف حول اعطاء تعريف شامل لهذه الطبقة(٣٠٥) ، وهو ما يبدو طبيعيا نظرا لأن هذه الطبقة كانت تضم مجموعة من العناصر غير المتجانسة والتى تختلف من بلد لآخر .

ـ فعلى سبيل المثال ، نجد كلمة Manufacture ترجمتها مصنع ولكنها تطلق اساسا على المصانع اليدوية القديمة وقد فضلنا لتمييزها عن المصانع الحديثة القائمة على الآلية بعد الثورة الصناعية ان نعطيها اسم « الورشة » .

اما القائم على هذه الورش فكان يسمى le manufacturier نسبة الى le Manufacture فاذا اطلق عليه هذا الاسم سهل ترجمته بالقول انه « صاحب الورشة » .

مع ملاحظة ان لفظ Manufacturer بالانجليزية كان يستخدم للدلالة على العامل وصاحب الورشة في نفس الوقت ، بل كان يقترب من معنى العامل أكثر منه من معنى صاحب الورشة، لاعتبارات سنبينها في المتن .

وهناك أيضا لفظ le négociant (بالانجليزية Merchant) وترجمتها الحرفية « تاجر » ولكن هذه الترجمة الحرفية لا تعكس تماما مهمة هذا الشخص : فالمقصود به عملا أ شخص يقوم بشراء المادة الاولية ويتولى تصنيعها في ورشة Manufacture ثم يتولى بيع المادة المصنعة وتصريفها في الاسواق .

بناءا عليه ، سنستخدم بعض المصطلحات الخاصة بنا في هذا الباب ، والتى وان لم تكن مترجمة بصورة حرفية ، أو لم يجر العمل على استخدامها على هذا النحو ، فانها الترجمة الاقرب الى اعطاء المعنى الصحيح :

الورشة ـ Manufacture (ونقصد بها الورشة الصناعية التى تقوم على العمل اليدوى والتى سبقت الثورة الصناعية).

صاحب الورشة ـ Manufacturier (بالفرنسية) Manufacturer (بالانجليزية) (وهو يقترب من طبقة العمال أكثر منه من طبقة أصحاب الاعمال) .

التاجر الصناعى ـ Négociant (بالانجليزية Merchant) ونقصد به من يشترى المادة الاولية ويقوم ببيعها بعد تصنيعها ، فتغلب الصفة التجارية على اعماله ولكن يرتبط بعمله تصنيع المادة الاولية ، وهو ما نقصد به الفئة التى التحقت بالطبقة البورجوازية ، كما سنبين في المتن .

(٣٠٥) فنجد مثلا ، ان قاموس Richelet في عام ١٦٧٩ يعرف البورجوازى بانه « الذى يسكن المدينة .. والبورجوازى الكبير هو الشخص الذى يعمل الآخرون لحسابه في المدينة »

كذلك ، فان المجتمع الفرنسي كان مقسما ، من الناحية القانونية ، الى اثنين وعشرين طبقة من بينها يجىء ذكر الطبقة البورجوازية ثلاث مرات :

١ ـ البورجوازيون القاطنون في المدن الكبرى ومصدر معيشتهم ما يعود عليهم من ريع املاكهم (الطبقة الثالثة عشر) .

٢ ـ البورجوايون القاطنون في مدن أقل أهمية (من الدرجة الثانية) ومصدر معيشتهم ما يعود عليهم من ربع أملاكهم (الطبقة الخامسة عشرة) .

٣ ـ الموثقون وبورجوازيون المدن الصغيرة (الطبقة التاسعة عشر) .

البورجوازية ، اذن كانت سابقة على الثورة الصناعية ، فلماذا التأكيد على هذه الطبقة بمناسبة الثورة الصناعية ؟ الاجابة على هذا التساؤل ، تتضح أهميتها من نواح متعددة : أولا لان الثورة الصناعية أدت الى خلق نوع جديد من البورجوازية ، عرفت باسم البورجوازية الصناعية (**البند الأول**) . هذه الطبقة الجديدة ، تكونت على نحو جعل من أفكارها وسلوكها ، معيارا يميزها عن الطبقة البورجوازية السابقة عليها (**البند الثانى**) . كذلك فأنه خلافا للطبقة البورجوازية القديمة ، التى كانت تضم فئات غير متجانسة ، ذهب البعض معها الى حد التشكيك في امكان اطلاق اسم « الطبقة » عليها ، نجد ان الطبقة البورجوازية الجديدة ، سرعان ما شعر أفرادها بمصالحهم المشتركة ، فقام لديهم سريعا « الشعور بالانتماء الى طبقة واحدة » (**البند الثالث**) .

البند الأول ـ نشأة وأصول البورجوازية الصناعية :

(أ) البورجوازية الصناعية تختلف عن الطبقة الرأسمالية السابقة عليها :

حتى يتسنى لنا ان نتفهم كيف نشأت هذه الطبقة ينبغى علينا العودة قليلا الى الوراء ، لنرى ، كيف كان رأس المال يتكون قبل الثورة الصناعية وبأى أيد كان .

فحتى الثورة الصناعية ، كان رأس المال يتكون اما من الادخار أو من عمليات التبادل التجارى على مختلف مستوياته ، وكان ينقسم الى أنواع ثلاثة يمسك بكل نوع منها فئة معينة : فالملاك العقاريون كانوا يمسكون برأس المال العقارى ، ومقرضوا النقود والقائمون بعمليات التحويل والتبادل النقدى يمسكون برأس المال المالى ، وأخيرا كانت فئة التجار تمسك برأس المال التجارى .

= وورد في سجلات برلمان باريس ، عام ١٥٦٠ تعريف للبورجوازيين بانهم « مواطنون صالحون يسكنون المدن ، كضباط الملك ، والتجار ، وعموما المواطنون الذين يعيشون على ريع أملاكهم الخاصة » .

وبذلك ، يتضح لنا ، ان تعريف الطبقة البورجوازية السابقة على الثورة الصناعية وتحديد « الفئات » المكونة لها ، أمر يصعب الوصول اليه ، ولكن من المؤكد كما بينا آن هذه البورجوازية وأن كانت تتمتع بمكانة هامة في المجتمع وكان لها دورها الاقتصادى ، فانها ـ في ظل نظام الامتيازات القانونية ، والمجتمع القائم على التقسيم « القانونى » للطبقات ، لم تحتل أعلى السلم الاجتماعى .

راجع بالتفصيل :

Fohlen, op. cit., note 276, p. 232 et s.s.

طبعا ، في ضمن هذه الفئات وجد « التاجر الصنـاعى »(٣٠٦) ونعنى به التاجر الذى كان يقوم بشراء المـادة الأولية وتصنيعها ثم بيعها في الأسواق ، لكن هـذا الشخص ، كانت تغلب عليه صفة التاجر عن رجل الصناعة ، بحيث كانت عمليتـا الشراء والبيع ، تحتلان المكانة الأولى في نشـاطه ، اما عملية التصنيع فتأتى في مرحلة تالية ٠

ولكن ألم يكن هناك اذن ، أناس يعيشـون على النشـاط الصناعى ؟ طبعا وجدت هذه الفئة حتى قبل الثورة الصناعية ، وقـد عرفت في انجلترا باسـم The manufacturer (بالفرنسية (le Manufacturier أى صـاحب الوشـة ، ولـكن هـذا الأخير كان أقـرب للعـامل منه لصـاحب العمل فصاحب الورشـة ، حوالى عـام ١٧٢٠ في ما نشـستر كان ينزل الى ورشـته في السـادسة صباحا ، ويتناول مع عماله طعام الافطار ، ثم يقوم بالعمل معهم جنبا الى جنب ، بحيث كان يكسب قوته يوما بيوم ، فاذا ما استطاع خلال عدة سنوات تحقيق بعض المدخرات ، وضعهـا جانبا ، واستمر في العمـل بنفس الصورة ، دون أى تغيير في عاداته وتقاليده ٠

لذلك ، ففى المناطق التى كانت الصـناعة اليـدوية (الورش) منتشرة فيها (كيوركشـيـر Yorkshire) ، كان من الصعب التفرقة بين صاحب الورشة والعامل ٠ فالآلاف من صغار المنتجين كانوا يمثلون الاثنين في آن واحد : صاحب العمل بما يتمتع به من استقـلال ، والعـامل من حيث اهتمـاماته وأسـلوب معيشـته ٠ بل ان اصحاب الورش هؤلاء ، غالبا ما كانوا يملكون أيضا قطعة من الأرض يقومون بزراعتها ، الى جانب عملهم « اليدوى » ٠

وهكذا ، وحتى الثـورة الصناعية ، كانت التفرقة بين صاحب العمل والعامل غير واضحة ، نظرا لعدم وضوح الفارق بين النموذجين الاجتماعيين ، هذا الفارق ، ستعمل الثورة الصناعية على ابرازه وتأكيده ، وتدفع بذلك «الطبقتين الصناعيتين» الى المواجهة ، ذلك أنه خلافا للمشروعات الصنـاعية السابقة (الورش) التى لم

---

(٣٠٦) راجع ما سبق هامش ٣٠٤ ٠

طبعا وجدت هناك عدة استثناءات كانت فيها العملية الصـناعية تطغى على النشاط التجـارى فظهرت عدة مشروعات صناعية قيل عنها انهـا « بشـائر » أو « طلائع » الثورة الصناعية ، ولكنها كانت استثناءات ، اذا أمكن معها القول بان هؤلاء كانوا يعتمدون أسـاسا في معيشـتهم على العمـل الصـناعى ، ثم انهـا كانت حالات فردية ، بحيث لا يمـكن القـول بانه كانت هناك طبقـة من رجال الصـناعة ٠

انظر : Mantoux, op. cit., note 2, pp. 275 — 320.

تكن تتطلب كمية كبيرة من رأس المـال ، ولم يكن عدد العمال فيهـا يتجاوز عـدد اصابع اليد[٣٠٧]؛ ، نجد ان المشروعات الصنـاعية بعد الاختراعات والابتـكارات العملية ، أصبحت تتطلب رؤوس أموال هامة ويحصي تعداد العاملين فيها بالمئات ، ومن هنـا نشأت التفرقة بن الرجل الذى يملك رأس المـال ، وبين هؤلاء الأجراء الذين يبيعون قوة عملهم بثمن زهيد • بين الشخص الذى يهمين على كل نشاط المشروع ، وبين العامل البسيط الذى ينفذ الاوامر والتوجيهات • وبتقدم النشـاط الصناعى وتطوره ، أخذت الهوة تتسع فيما بين الرأسمالى والعامل ، بحيث صار من الصعب تخطى « الحاجز » الاجتماعى بين الاثنين •

وبذلك ، تمكن صاحب العمل ، من ان يقف على قدم المسـاواة مع غيره من الرأسماليين ، سواء في ذلك أصحاب رأس المـال التجارى أو المـالى أو العقارى • بل ، ان طبيعة أعماله كانت تقضي ان يكون على علاقة بكل من التاجر ورجال المال : فهو في حاجة للتاجر حتى يحصل عن طريقه عن المـادة الأولية ويقـوم بتصريف منتوجاته ، وهو في حاجة لرجل المـال ، ليحصل منه على القروض ، او ليستعين به في عمليات اعادة الاستثمار •

ولكن ايا كان الأمر ، فأن رجل الصناعة (البورجوازى الصناعى) ، هـذا النموذج الاجتماعى الجديد ، كان مختلفا عن « الرأسماليين » السابقين عليـه ، ولا يمكن ان « نضمه » لصفوف هؤلاء ، لاختلافه عنهم ، سواء من حيث « المهمة » او « المصالح » فمن حيث المهمة ، انحصرت مهمة البورجوازى الصناعى في عمليـة « تنظيم الانتاج الصناعى » بما اصبح يتطلبه هذا العمل من خبرة وتنظيم • كذلك أدى التطور الاقتصادى الى شعور أفراد هذه الطبقة الجديدة بما لهم من مصالح متميزة ، فعملت على استخدام كل الوسائل المتاحة لها لتحقيق وحماية مصالحها • وهكذا ، فان الطبقة البورجوازية الجديدة ، اذ نجحت في بناء مجتمع صناعى ، نجحت في خلق طبقة اجتماعية جديدة ، تتكون من أفراد يمثلون «نموذجا اجتماعيا جديدا »، يتعين علينا الآن ان نبحث عن أصوله الاجتماعية •

(ب) كيف تكونت طبقة البورجوازية الصناعية ؟ : ـ الأصـول الاجتماعية للبورجوازية الصناعية :

مهما أثارت هذه الطبقة حولها من اختلاف في الرأى ، فان الأمر المتفق عليه

---

(٣٠٧) Roland Marx, op. cit., note 273, p. 165.

بين الكتاب ، أنها تكونت من أصول اجتماعية مختلفة ومتنوعة(٣٠٨) ، لاتناسق بينها : فلقد أقبل الناس ، من كل الطبقات على هذا النشاط الاقتصادى الجديد ، واندفعوا نحو الصناعة « كما يندفع المغامرون صوب منجم ذهب تم اكتشافه » . ويعطينا Mantoux مثالا على ذلك ، بمقاطعة Sancastre . ففى السنوات التى اعقبت الاختراعات في عالم الغزل(٣٠٩) ، وخاصة عقب الغاء براءة اختراع Arkuright(٣١٠) ، قل ممن يملكون بعض المدخرات ، من لم يحاول تجربة حظة في عالم « الغزل » . ولكن نظرا لجهل معظمهم بابسط قواعد صناعة الغزل ، فقد فشلوا وفقدوا مدخراتهم وانضموا الى صفوف البروليتاريا .

ولعل السبب في فشلهم ، يرجع الى ان تفكيرهم وعملهم كانا يجعلان منهم « تجارا » أكثر منهم « اصحاب اعمال » ، ذلك ، ان جهلهم بقواعد الصناعة ، جعلهم يأتون بشخص على دراية بالعمل الصناعى ومتطلباته ويضعونه على رأس المشروع، فيقتصر دورهم اذن على تقديم رأس المال وتسويق المنتجات ، بحيث ظل « العمل التجارى » هو مهنتهم الأصلية ، ففشلوا في « عالم الصناعة » ، فالنفر القليل من هؤلاء الذين اندفعوا نحو هذا النشاط الاقتصادى الجديد ، وكتب لهم النجاح ، فارتقوا السلم الاجتماعى وانضموا الى طبقة البورجوازية الصناعية ، ادركوا ان هذا النشاط الاقتصادى الجديد بحاجة الى فكر وتنظيم يختلفان — كما سنرى — كل الاختلاف عن الفكر والتنظيم اللذين كان يتطلبهما النشاط الاقتصادى السابق على الثورة الصناعية(٣١١) .

ولكن هذا « النفر » القليل الذى نجح في عالم الصناعة ، جاء — كما قلنا — من طبقات اجتماعية متباينة(٣١٢) ، بحيث يصعب التعويل على « الأصل الاجتماعى » لأعضاء هذه الطبقة ، من أجل وصفها او بيان خصائصها . ومما يزيد الأمر صعوبة، ان التباين بين الأصول الاجتماعية لأفراد هذه الطبقة ، اختلف من بلد لآخر ، بل ومن صناعة الى أخرى :

---

(٣٠٨) Mantoux, op. cit., note 2, 393.
Sée op. cit., note 275, p. 64.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 236.

(٣٠٩) راجع ما سبق ، ص ٣١ وما بعدها .

(٣١٠) راجع ما سبق ، هامش ٤٠ ، ص ٣٤

(٣١١) Mantoux, op. cit., note 2, pp. 381 — 382.

(٣١٢) J. P. Rioux, op. cit., note 5, p. 209.
R. Mqrx, op. cit., note 273, p. 165.

١ ـ لقد كان من المنتظر ، من الناحية المنطقية ، ان نرى بين أفـراد الجيل الأول للبورجوازية الصناعية ، كبار المخترعين والمبتكرين يتقدمون الصفوف ، ولكن الواقع العملى أثبت غير ذلك • حقا كان هناك بعض مخترعين استطاعوا ان يكونوا من اشهر رجال الصناعة • مثال ذلك ، جيمس واط الذى ساهم بابتكاره في تطوير الآلة البخارية واحتل مكانة هامة في عالم المخترعين[٣١٣] ، واستطاع ان يحقق نجاحاً مماثلا في عالم الصناعة ، غير ان الكتاب يعزون هذا النجاح الى شريكه رجل الأعمال « ماتيـو بولتـون Mattew Boulton[٣١٤] • ولكن ذلك لا يمنع أيضا ، من وجود بعض المخترعين الذين استطاعوا استغلال اختراعهم صناعيا فحققوا بذلك ثروة طائلة[٣١٥] ، منهم عائلة « دربى Derby[٣١٦] ، و وودجود Wedgood في انجلترا ، و اوبركامبف في فرنسا ، وماك كورميك McCormik في الولايات المتحدة الأمريكية • ولكن عدد هؤلاء ، كما نرى ضئيل ، ولا يضم الأسماء الكبيرة في عالم الاختراعات من أمثال « هرجريفز ، أو كرمبتون أو كارتيت »[٣١٧] ، ولعل السبب في ذلك هو أن أغلب هؤلاء المخترعين كانوا يفضلون بيع اختراعهم الى أحد رجال الأعمال ليتولى استغلاله ، ذلك ان عقلية « المخترع » ليست بالضرورة العقلية التى يتطلبها عالم الصناعة ، وما يقتضيه النجاح فيه من مؤهلات ، لذلك قيل بحق ، ان « التحول في أساليب الانتاج بفضل المبتكرين والمخترعين أفاد في المقام الأول رجال الأعمال »[٣١٨] ، وعلى الاخص أعضاء الطبقة البورجوازية الصاعدة •

٢ ـ ومن بين أفـراد هذه الطبقـة الجديدة نجـد بعض « النبـلاء » خاصة وأن « الصناعات الاستخراجية » ، من المناجم والمحاجر ، كان ينظر اليها على انها جزء لا يتجزأ من الأنشطة الاقتصادية « لمقاطعة النبيل » • وتدل الاحصائيات التى

---

(٣١٣) راجع ما سبق ص ٤٤ وما بعدها •

(٣١٤) انظر في ذلك :
Mantoux, op. cit., note 2, p. 384 et Fohlen, op. cit. note 276, p. 238.

(٣١٥) ورغم ان بعض الـكتاب يدرجـون Arkwright من بين هؤلاء الا اننا لا نوافق على ذلك، نظـرا لمـا سـبق ان بيناه من ان ظـلال الشـك تحـوم حول كونه المخترع الحقيقى للاطـار المائى Water-Frame وان كان ذلك لم يمنـع من تحقيقـه ثروة طائـلة، يسـتدل بها بعض الكتاب بحق على ان روح المغامرة اسـتطاعت ان تدفع بعض الاشخاص من الطبقـات الدنيـا الى مصـاف كبار الرأسـماليين •

انظر خاصة
Rioux, op. cit., note 5, p. 210

(٣١٦) انظر ما سبق ـ ص ٤٠ وما بعدها •

(٣١٧) راجع ما سبق ، ص ٣١ وما بعدها •

(٣١٨)
Mantoux, op. cit., note 2, p. 384.

أجـريت بفرنســا قبل الثـورة (١٧٨٩) أن ٣٠٤ من أرباب صنـاعة الحديد (من مجموع ٦٠٣) كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء (بنسبة اكبر في غرب فرنسا منها في شرقها) .

وقد اندفع بعض هؤلاء الى النشاط الاقتصادى الصناعى ، بمحض الصدفة ، حين اكتشف في أراضيهم منجم سهل الاستغلال ، ولكن البعض الآخر انضم الى عالم الصناعة عن رغبة واختيار ، وقام باستثمار أمواله في القطاعات الصناعية الاكثر تقدما من الناحية الفنية . مثال ذلك دوق اورليان . le duc d'Orléans الذى لعب دورا هاما في تطوير الصناعات الكيماوية ، وصناعة القطن ، وأيضا عائلتا Montmorency و Ségur . اللتان يرجع اليهما الفضل في اقامة مصانع Saint-Gobain الشهيرة . وعلى الرغم ، من ان اشتراك عدد من النبلاء في النشاط الصناعى كان واضحا في فرنسا ، فأنه لم يكن قاصرا عليها . ففى انجلترا مثلا نصادف أيضا بعض النبلاء الذين أتوا الى عالم الصناعة منهم مثـلا « دوق بريدجـواتر le duc de Bridgewater . ونفس الظاهرة نصـادفها منـذ القرن الثامن عشر في روسـيا ، حيث قامت عائلات ارسـتقراطية باستغلال المناجم في منطقة الأورال(٣١٩) .

٣ - والنموذج الثانى الذى كون بعض أفراده الطبقة الجديدة ، يتكون من بعض التجـار ، أو التجـار الصناعيين ، أو رجال المـال ، الذين تحولوا من التجارة والعمليات المـالية والصناعة اليدوية ، الى الصناعة بمعناها الحديث . وغالبا ما كان يتم هذا التحول ، عن طريق تخصيص جـزء من ثرواتهم الطائلة للصناعة(٣١٩ م) . ولكن ذلك لا يمنع من ان بعضهم بدأ السلم من أوله : فكثير من الوسطاء والتجـار الصناعيين ، لم يكن لديهم ثروات طائلة ، ولكنهم اسـتطاعوا من عمليات السمسرة والتبـادل التجارى تكوين مدخرات اعتمدوا عليها لشق طريقهم ، وتمكنوا بعد تحقيق بعض الأرباح من التوسع في مشروعهم الصـناعى . ولكن يبدو ان نجـاح

---

(٣١٩) Fohlen, op. cit., note 276, p. 237.

(٣١٩ م) ومن امثـال هؤلاء : عائـلة les Périere اليهودية في فرنسا التى تخصصت اولا في اعمـال البنـوك ثم تحولت الى الصنـاعة (راجـع ما سبق هامش ١١٧) ، وايضـا les Jubié في ليون ، les Dolffus و les Mieg في الالزاس ، وغيرهم .

لمزيد من التفاصيل راجع Fohlen, op. cit., note 276, p. 237.

ويمكن ايضا ان نذكر في هذه الطائفة ، كلا من عائلة روتشيلد في فرنسـا ، وايضا جون مارشـال الانجليزى التاجر بمدينة Leeds الذى اصبح عام ١٨١٥ من اكبر مصـنعى الـكتان في انجلترا .

راجع كذلك : Rioux, op. op., note 5, p. 212.

هؤلاء الأفراد في الانضمام الى الطبقة البورجوازية الجديدة كان محدودا نسبيا ، سواء من حيث الثروات أو من حيث البلاد التى عرفت الثورة الصناعية . فالملاحظ، أن من استطاع منهم أن يشق طريقه بنجاح ، كان يعتمد منذ البداية على الثروة التى تكونت لديه من العمل التجارى ، كما يبدو أن هؤلاء كانوا أكثر عددا في فرنسا منهم في انجلترا - حيث لم يحققوا نجاحا كبيرا في النشاط الصناعى ، بسبب عاداتهم الموروثة أبا عن جد : فالتاجر الذى تعود على تحقيق أرباحه من التبادل ، كان يتردد أمام « أهمية رأس المال » اللازم للاستثمار في النشاط الصناعى ، لشراء الأرض واقامة المبانى عليها وتجهيزها بالآلات ، وخاصة ان بامكانه ان يحقق أرباحا من النشاط التجارى لا تتطلب هذه المصروفات الطائلة . بذلك عجز هؤلاء في العبور من المجتمع التجارى الى المجتمع الصناعى ، فدفعوا في النهاية ثمن ترددهم(٣٢٠) ، وخاصة في تلك المناطق التى (مثل Yorkshire و Lan-cashire) تحولت من الصناعات الصغيرة اليدوية الى الصناعات الحديثة دون المرور بفترة انتقال .

٤ - لذلك ، وامام الحالات النادرة من المخترعين ورجال التجارة الذين دلفوا الى عالم الصناعة ، يؤكد أغلب الكتاب ان الثورة الصناعية ، بما اقامته من تقسيم للطبقات يعتمد على الثروة والقوة الاقتصادية ، كانت أكثر مرونة من المجتمعات السابقة عليها من حيث التقسيم الطبقى ، فسمحت بذلك لعدد لا بأس به من أعضاء الطبقات الفقيرة بارتقاء السلم الاجتماعى والوصول الى قمته .

ورغم ان هذا القول يصدق بالنسبة لأغلب دول أوربا (روسيا ، فرنسا ، المانيا) ، الا ان الأمثلة عليه(٣٢١) في هذه البلاد تبدو أكثر ندرة عنها في انجلترا ، حيث نجح عدد كبير من أعضاء الطبقات البسيطة « نصف الزراعية - نصف

(٣٢٠) Mantoux, op. cit., note 2, p. 385.

(٣٢١) فنجد مثلا في روسيا ، ان بعض المزارعين وصغار التجار انشاوا صناعة النسيج في مقاطعة ايفانوفو حوالى عام ١٨٣٠ فكونوا بذلك طبقة بورجوازية صناعية .

ومثال ذلك ايضا كل من عائلة Krupp (في فرنسا) وعائلة Siemens في المانيا.

راجع في ذلك تفصيلا : Rioux, op. cit., note 5, pp. 210 — 211

Fohlen, op. cit., note 276, p. 238.

وانظر أيضا المقال المتعلق بالتكوين الاجتماعى للطبقات خلال فترة التصنيع في فرنسا وتدرج الثروات والأملاك ، واختلاف مستويات وخصائص الحياة اليومية لهذه الطبقات في :

A. Daumard : l'évolution des structures Sociales en France d'l'époque de l'industrialisation. op. cit., note 299, p. 325 et s.s.

الصناعية »(٣٢٢) كما يقول عنها Mantoux ، في الانضمام الى صفوف البورجوازية الصناعية . ولو أردنا الرجوع الى الوراء ، لنسبنا هؤلاء الى طبقة الـ Yeomanry التى سبق الاشارة اليها ، ابان الحديث عن الثورة الزراعية في انجلترا . غير ان الأمر يقتضي شيئا من التفصيل ، والتفرقة في هذا الصدد ، بين صناعة الغزل والنسيج ، والصناعات المعدنية .

— فبالنسبة لصناعة الغزل والنسيج ، نجد ان أغلب الاسماء الكبيرة في هذه الصناعة ترجع باصولها الاجتماعية الى هذه الطبقة التى سبق ان قلنا عنها انها « نصف زراعية — نصف صناعية » ومن أشهر هذه الاسماء ، عائلة Peel من مقاطعة Lancashire ، فرب هذه الأسرة ، الذى ولد عام ١٧٢٣ وكان من أشد منافسي أركريت ، بدأ حياته بصنع النسيج في منزله ، بنفسه ، وكان يحمل ما صنع الى الأسواق ويقوم ببيعه ، وفي نفس الوقت كان يقوم بزراعة الأرض التى ورثها عن أجداده منذ القرن الخامس عشر ، لان عائلة Peel كانت من طبقة الـ Yeomenay التى اعتمدت في معيشتها على دخل « نصفه زراعي — ونصفه من الأعمال الصناعية اليدوية » . وهكذا ، كان نشاط هذه العائلة متقسما بين « الزراعة والغزل » ، حتى قرر Robert Peel (عام ١٧٥٠) هجرة الزراعة الى المدينة والتفرغ للنشاط الصناعى ، وقد حققت هذه العائلة نجاحا منقطع النظير ، لدرجة أنه عندما توفى ابن روبرت بيل (الجد) وأبو وزير الصناعة الانجليزى روبرت بيل (الحفيد) عام ١٨٣٠ قدرت العقارات فقط المملوكة للأسرة بمقدار مليون وأربعمائة الف جنيه استرلينى (١٫٤٠٠٫٠٠٠)(٣٢٣) .

وبذلك ، نرى ان الثورة الصناعية كانت وسيلة مكنت بعض أعضاء هذه الطبقة القديمة Yeoman ان يرتقوا السلم الاجتماعى ، بعد ما أصابهم من جراء « حركة الاسيجة »(٣٢٤) . ومن هؤلاء أيضا تجدر الاشارة الى عائلة ردكليف وعلى الأخص ويليام ردكليف William Radcliffe (المولود عام ١٧٦١) والذى ينتمى الى عائلة من الملاك الزراعيين ، الذين قضي عليهم من جراء حركة الاسيجة فاضطروا الى التحول الى النشاط الصناعي وعلى الأخص الى صناعة الغزل ، واضطروا الى دفع ابنائهم للعمل منذ بلوغهم سن السابعة ، واستطاع ويليام ردكليف ، عند بلوغه سن الربعة والعشرين (عام ١٧٨٥) ، وبعد ان تدرب وعرف كل اسرار

---

(٣٢٢) Mantoux, op. cit., note 2, p. 385.

(٣٢٣) Mantoux, op. cit., note 2, p. 386.

(٣٢٤) انظر ما سبق ص ٥٠ وما بعدها .

المهنة ، ان يعمل لحسابه الخاص مستغنيا بقدر من المدخرات استطاع تحقيقه بعد سنوات طويلة من العمل المتصل ، فاستطاع ان يطور بصنعه بحيث كان يعمل في خدمته عام ١٨٠١ أكثر من ألف عامل[٣٢٥] ٠

ـ أما بالنسبة للصناعات التعدينية ، فالعديد من كبار الأسماء التى عرفت فيها ، وان كانو يرجعون بأصلهم الاجتماعى الى طبقة الـ Yeomanry الا انهم لم ينزحوا من القرية الى المدينة ، بل كانوا منذ نشأتهم يعملون اما في « المصانع اليدوية القديمة » أو كانوا يعملون في المصانع الحديثة في الأعوام الأولى للثورة الصناعية ٠ ذلك ، ان طبقة الـ Yeomanry التى كانت موجودة في المناطق الصناعية ، لم تهاجر ، بل تحولت من طبقة « نصف صناعية ــ نصف زراعية » ، الى طبقة صناعية ، انضم أغلبها الى طبقة البروليتاريا ، وارتقى بعضها درجات السلم الاجتماعى ولحق بطبقة البورجوازية الصناعية ٠ وهكذا نستطيع ان نتفهم مصير هذه الطبقة التى قلنا عنها ان « حركة الاسيجة قد قضت عليها » ، ولكن الأدق ان نقول ان هذه الطبقة قدمت للثورة الصناعية العناصر اللازمة لها وكونت بذلك طبقات جديدة تتناسب والعلاقات الانتاجية الجديدة ، لقد كان وجود هذه الطبقة يعتمد على مصدر معيشتها المزدوج من النشاط الزراعى والنشاط الصناعى في آن واحد ، فلما وقعت الثورة الصناعية وقامت حركة الأسيجة ، واصبح من الصعب الجمع بين نوعى الدخل ، اتجهت هذه الطبقة ناحية النشاط الاقتصادى « الأكثر ربحا » ، فقام أغلبها ببيع قوة سواعده ، ولكن أسعدهم خطا وأكثرهم مقدرة ، اختار التحول للنشاط الصناعى ، ولكنه تطلع الى القمة ، فتحول الى شراء قوة عمل من كانوا يشاركونه نفس الطبقة قبل الثورة الصناعية[٣٢٦] ٠

---

(٣٢٥) وطبعا هناك العديد من هذه الأمثلة ، منها عائلة Fielden وهى من طبقة الـ Yeomanry أيضا ، و Dobson, Strutt .
انظر في تفصيل ذلك Mantonx, op. cit., note 2, p. 387.

(٣٢٦) ولعل ذلك يفسر لنا سلوك هذه الفئة التى نجحت ، تجاه طبقة الـ Gentry التى كانت وراء حركة الأسيجة ، وقضت بذلك على طبقة الـ Yeoman التى ينتمى اليها البورجوازيون الجدد ٠ فقد كان هؤلاء الآخرون توافين الى استعادة اراضيهم والاخذ بثارهم من طبقة الـ Gentry التى كانت تنظر اليهم فيما مضي من أعلى ، لذلك شرع هؤلاء البورجوازيون في شراء اراضي طبقة الـ Gentry وديارهم ، وفي حالة فشلهم ، قاموا ببناء قصور في مواجهة قصور السادة القدامى ، كدليل على قوتهم الاقتصادية الصاعدة واسترضاء لكبريائهم المجروح ٠
Mantoux, op. cit., note 2, p. 389.

من هذا العرض ، يتضح لنا ، ان الاعتماد على الأصول الاجتماعية للبورجوازية الصناعية ، في محاولة لبيان خصائص هذه الطبقة المميزة ، لا يجدى نفعا ، بل على العكس ، ربما أدى تباين أصول هذه الطبقة من الناحية الاجتماعية ، للقول بأنه يصعب على هذه الفئات المتنوعة ان تكون « طبقة واحدة » . ولكن ، على الرغم من صحة هذه الملاحظة ، يبقى ان البورجنوازية الصناعية ـ رغم تنوع الفئات المكونة لها ـ استطاعت ان تقيم طبقة واحدة متميزة من حيث طبيعة عملها ، ومن حيث مصالحها والقوى التى تمكنت من تسخيرها لتحقيق تلك المصالح .

البند الثاني ـ البورجوازية الصناعية ومهمتها المتميزة :

استعرضنا فيما سبق ، الفئات التى تكونت منها الطبقة البورجوازية الجديدة، وقلنا بالنسبة لكل هذه الفئات ، أن بعضهم ينجح في التحول الى « رجل صناعة » بينما فشلت الأغلبية في ذلك ، وهذا أمر طبيعى ، ذلك ان التحول الى العمل الصناعى لم يكن أمرا سهلا ، فالتحول الصناعى تم بموجب قانون «البقاء للأصلح» بحيث لم ينجح في تحقيقه الا أعلى الكفاءات واقدرها على التنظيم ، وبحيث توافر لمن نجح في ان يصبح من كبار رجال الصناعة ، نفس الصفات والأفكار التى توافرت لدى أقرانه ، فجمعت هذه الصفات بين هؤلاء جميعا ، وأعطت نموذجا موحد للبورجوازى الصناعى .

ولعل أهم ما يميز « البورجوازى الصناعى » هو أن مهمته وطبيعة عمله كانا مختلفين تمام الاختلاف عمن سبقه من التجار الصناعيين . لقد كانت مهمة البورجوازى الصناعى تنظيم عملية « الانتاج الصناعى » بكل ما تتطلبه من خبرة في الصناعة والتجارة . بحيث بدا البورجوازى وكأنه « قائد للعملية الانتاجية برمتها » أو ، كما يطلق عليه البعض ، رئيس « أركان حرب »[٣٢٧] لعملية الانتاجية . Un chef d'état - major أو « قائد حديدى وسط جنوده »[٣٢٨] . ذلك ، ان الرأسمالى الصناعى ، كان يتعين عليه الاشراف ومتابعة العملية الصناعية من بدايتها الى نهايتها .

فلابد ، أولا ، من ان يقوم بتدبير رؤوس الأموال اللازمة[٣٢٩] ، وهو ما لم

---

(٣٢٧) Fohlen, op. cit., note 276, p. 239.

(٣٢٨) Mantoux, op. cit., note 2, p. 393.

(٣٢٩) ذلك ، ان رجال الصناعة الذين كانوا على قدر من الثراء ، مثل دوق اورليان في فرنسا ، او ماتيو بولتون في انجلترا ، كانوا القليلى العدد بحيث كان الراسمالى الصناعى الذى يعتمد على امواله الخاصة هو الاستثناء وليس القاعدة .

انظر : Mantoux, op. cit., note 2, p. 390.

يكن بالأمر السهل، وخاصة في بداية الثورة الصناعية ، حيث كانت الآلات والمصانع، ظاهرة جديدة يحيط الشك بمستقبلها(٣٣٠) • لذلك ، لجا بعض هؤلاء الذين يريدون ان يتخذوا من « الانتاج الصناعى » مهنة لهم ، الى اغراء بعض رجال الأموال بواسطة « عقد مشـاركة » أو عن طريق بيع « حق الاختـراع » • غير ان اللجـوء الى هذه الطريقة لم يكن شائعا ، وأهم أمثالها هو « أركريت » ، خاصة وكما سبق ان بينا ، ان الرعيل الأول من البورجوازية الصناعية لم يكن من المخترعين حتى يقوم على بيع براءة اختراعه • لذلك فأغلب الاسماء الكبرى في الصنـاعة الحـديثة ، بدأوا بداية بسيطة ، واستطاعوا بكفاحهم وجهودهم تطوير مشروعهم الصناعى وتحويله الى مشروع حديث : وهكذا مثلا سبق أن رأينا ان رد كليف Radcliffe (٣٣١) ، بدأ مشروعه الصناعى بواسطة بعض المدخرات البسيطة التى حققها من عمله « كعامل » في صناعة الغزل ، وان كينيدى Kennedy بدأ حياته عامل نسيج في ما نشستر ولكنه بدأ يستقل بمشروعه في ورشة صغيرة يعمل فيها بنفسه مستعينا باثنين من العمـال •

هذه البداية « البسيطة » ، كانت السمة المميزة للبورجوازى الصناعى وخاصة في نطاق صناعة الغزل والنسيج ، نظرا لبساطة التجهيزات المتطلبة ، بحيث كان في امكان صاحب العمل ، ان يضع في «أى بناء مغلق» ، عددا من آلة « المكوك الطائر» او مغزل « مبنى » أو « المغزل المخلط »(٣٣٢) مرجئا استخدام الآلات الأكثر تطورا (كالاطار المائى) الى وقت لاحق ، وما ان ينجح في تحقيق بعض الارباح ، حتى يعمل على تطوير أدواته والآلة ، مستخدما الآلة البخارية ومقيما بذلك « المصنع الحديث»، وهكذا ، كان التحـول يتم في نفس المـكان من « المصنع الصغير » الى « الصنـاعة الحديثة » •

كذلك ، فان نجاح العملية الانتاجية ، مرتبط بشراء المادة الأولية ، بأفضل

---

(٣٣٠) فرجال المال ، ظلوا لفترة طويلة من بداية الثورة الصناعية ، مترددين في استثمار أموالهم في هذا العالم الجديد المجهول ، وكانوا يفضلون عليه الاستثمـار العقـارى واقراض الدولة ، فهـؤلاء بحسب عاداتهم ، يفضلون « الدخل الثابت عن المغامرة الاقتصـادية » ، فتركوا تلك المغـامرة للذين ارادوا ان يجعلوا من العمل الصناعى حرفتهم ، وطلبوا منهم ان يثبتوا «مردودية» الاستثمار الصناعى ، فلما نجح هؤلاء في اثبات ذلك ، وبينوا ان العمل الصناعى عمل « كثير الارباح قليل المخاطر » اندفع رجال الأموال والبنوك التى كونوها نحو هذا القطاع الاقتصادى الجديد •
Rioux, op. cit., note 5, p. 213.

(٣٣١) انظر ما سبق ، ص ٢٠٨ وما بعدها •

(٣٣٢) انظر ما سبق ، ص ٣١ وما بعدها •

الشروط ، ومن أسواق تبعد كثيرا عن أماكن التصنيع : لقد ولى العهد الذى كان شراء المادة الأولية يقع اما في السوق المحلية أو الوطنية أو على أبعد تقدير ، من البلاد الأوربية المجاورة ، لقد أدت الاكتشافات البحرية الى جلب هذه المواد من امريكا واستراليا وأفريقيا ، وعلى الصناعى الذى يرغب في النجاح ، أن يعمل على تأمين امداداته بالمادة الأولية ، بانتظام وبأفضل الأسعار ٠

ثم ، ان توفير رأس المال ، وتدبير المادة الأولية لايكفيان لنجاح العملية الانتاجية ، بل لابد ، للرأسمالى الصناعى ، أن يواجه مشكلة الايدى العاملة ، بحيث يتعين عليه تدبيرها بأرخص الأسعار واخضاعها لنظام جماعى صارم ٠ وهنا واجه الرأسمالى الصناعى أكبر المصاعب : ان العمال الذين استخدمهم ، كانوا فيما سبق ، اما من العاملين بمنازلهم (لاضافة بعض الدخل الى دخلهم الزراعى) ، أو من العاملين في الورش والصناعات اليدوية ٠ هؤلاء لم تكن لديهم الخبرة اللازمة للصناعة الحديثة ، كما أنهم لم يتعودوا على النظام «الآلى» ، فتعين على البورجوازى ، بالاضافة الى تدريبهم ، اخضاعهم لنظام صارم يتفق والصناعة الآلية : فحضور العامل وانصرافه وأوقات الراحة ، لم يكن من الممكن ان تترك بلا تنظيم دقيق ، كما كان الحال من قبل ، فالعمل الصناعى يتطلب قواعد محددة لا يسمح للعامل بمخالفتها : فحضور العمال ، وأوقات تناولهم للوجبات ، وموعد انصرافهم ، كلها محددة بوقت معين ، وقت ان « يقرع الجرس »[٣٣٣] ، اما في داخل المصنع ، فلكل عامل مكانه المحدد ، ومهنته المحددة تحديدا دقيقا ، والكل يعمل باستمرار دون توقف تحت أنظار « الملاحظ » الذى يرغمهم على الطاعة تحت تهديد الخصم أو الفصل ، أو بطرق أكثر « قسوة » ٠ ان ادارة المصنع ، كانت تبدو كعمل من أعمال « السيادة » ، وكان البورجوازى الصناعى ، يبدو كأنه «رئيس دولة الصناعة»[٣٣٤] ،

---

(٣٣٣) ففي مانشستر مثلا كانت اجراس مصانع الغزل تقرع في الرابعة والنصف صباحا ، وكان اول من استخدام « الجرس » لتحديد مواعيد الحضور والانصراف هو Wedgwood ، ولذا اطلق عليه سكان المنطقة اسم « مصنع الجرس the Bell - Works » .

Mantoux, op. cit., Note 2, p. 392.

(٣٣٤) والأمثلة على ذلك النظام الصارم داخل المصنع ، كثيرة : فيقال مثلا عن أركريت ان « اختراعه » الأول هو النظام الذى وضع لعماله : فقد كان حاضرا دائما بينهم يراقبهم ويوجههم ، ويطلب منهم عملا متصلا ومتقنا ، وكان فظ المعاملة شديد اللهجة ، لا يتسامح اطلاقا مع من يخطىء من عماله ، ومع ذلك يقال عنه أنه كان أشد رحمة من الآخرين ، فهو لم يكن يشغل عماله سوى اثنتى عشرة ساعة يوميا ، بينما كان المتوسط العادى لساعات العمل أربع عشرة ساعة يوميا ٠

ويقال عن بولتون Boulton (شريك واط في مصنع Soho) انه عود عماله على دقة اداء -

وهو مادعا كارل ماركس لتشبيه المصنع بـ « السجن » والنظام داخل المصنع ، بالنظام العسكرى(٣٣٥) .

ثم ان مهمة البورجوازى الصناعى ، لا تقف عند حد العملية الانتاجية بمعناها الدقيق (العملية الصناعية) ، بل تتجاوزها الى مهمة تقربه من التاجر ، وتقتضي منه ان تتوافر لديه أيضا العقلية التجارية ، ونقصد بذلك مهمة تصريف المنتوجات .

فالبورجوازى الصناعى ، لا يمكنه ، كالتجار الصناعيين السابقين عليه ، تصريف منتوجاته في « السوق المجاورة » ، فالسوق المحلية لا يمكن أن تستوعب الانتاج المتزايد من المنتوجات ، بل أن « السوق الوطنية » تكفى بالكاد لتصريف هذه المنتوجات ، لذلك ينبغى عايه ، ان يمد علاقاته التجارية في أنحاء الوطن كله ، بل وان يتجاوز الحدود الوطنية ، وأن يعمل في نفس الوقت على تقصي احتياجات الأسواق ، من حيث طبيعة المنتوجات وكمية الطلب عليها ، ومدى مقدرة المستهلكين على الاداء ، أى أنه كان يتعين على الرأسمالى ان يتعرف « على مدى امكانيات السوق وعلى أفضل الوسائل لاستغلاله »(٣٣٦) .

كل هذه المشاكل العملية ، كانت حديثة ، وتقتضي ممن يتعرض لحلها ان يكون على درجة كبيرة من الاقدام والجرأة والقدرة على اتخاذ القرار ، ليستطيع ان يقوم بكل ما تتطلبه مهنته من مهارات : فالبورجوازى الصناعى ، كان في نفس الوقت ، رأسماليا ، ومنظما للعمل في المصنع ، وتاجرا ، أو هو « ذلك النموذج الاجتماعى الجديد » المتمثل في « رجل الأعمال » بمعناه الحديث ، الذى رغم اختلاف الأصول الاجتماعية التى جاء منها ، فانه سرعان ما أدرك ان « الاختلاف الاجتماعى السابق »

= بحيث كان يمكنه اذا اختلفت وتيرة أصوات الآلات ، أن يعرف مقدما بتوقف العامل أو وقوع حادث: اما Wedgwood فبلغ به الأمر ، انه كان يكتب بالطباشير على لباس العامل الذى يخالف النظام الموضوع ، « ان هذا لا يحدث مع وودجوود »

Mantoux, op cit., note 2, p. 393.

(٣٣٥) راجع ما سبق ، ص ١٨٥ ، هامش ٢٧٨ .

والواقع ان حاجة أصحاب الأعمال الى عمالة ثابتة حتى يضمنوا الانتاج بصور مستمرة ومنتظمة ، كانت تدفعهم الى استخدام أساليب ، تكاد تقرب العامل من « المعبد » ، منها مثلا قيام صاحب العمل بتسبيق الأجر للعامل والتزام هذا الأخير بعدم ترك العمل الا بعد سداد الاداءات المسبقة ، أو نظام الـ Truch-system وبموجبه كان يلزم العمال بالشراء من حانوت صاحب العمل ، أو يعطيهم اجرهم في صورة كوبونات لا تقبل الصرف الا في حوانيت « الحى » الذى يقع به المصنع .

(٣٣٦) Fohlen, op. cit., note 276, p. 240.

لا أهمية له ، بجانب المصالح الجديدة المشتركة ، التى دفعت به ، مع اقرانه ، الى تكوين طبقة متميزة •

البند الثالث ـ البورجوازية الصناعية : وحدة المصالح والانتماء الطبقي :

ان الحديث عن « البورجوازية الصناعية » ، باعتبارها طبقة متميزة ، أمر لا يلقى اجماع كل كتاب الثورة الصناعية • فالبعض (وعلى الأخص Fohlen) ، في كتابه « ما هى الثورة الصناعية » يؤكد ان تباين الأصول الاجتماعية لأفراد البورجوازية الصناعية جعل من هذه « الطائفة » مجموعة غير متجانسة ، بحيث لا يمكن ان نطلق عليها اسم « الطبقة » ، وقد ذهب Fohlen في الدفاع عن رأيه ، الى الاعتماد على تأخر ظهور نقابات وجمعيات الأعمال ، وقد كتب في هذا الصدد يقول « من كل ما سبق يتضح لنا ان رجال الصناعة لم يكونوا طبقة واحدة ، ولكنهم كانوا يمثلون نموذجا اجتماعيا خاصا • وأكبر دليل على ذلك هو أنانيتهم وعجزهم عن التنسيق بين مصالحهم • لقد كثر الكلام عن النقابات العمالية ، فأين هى نقابات أصحاب الأعمال ؟ انها لن تمثل أى قوة منظمة ، في أى بلد ، قبل نهاية القرن التاسع عشر[٣٣٧] •

ورغم صحة ملاحظة Fohlen ، من حيث تأخذ ظهور نقابات أصحاب الأعمال ، فان هذه الملاحظة بذاتها لا تؤدى الى النتيجة التى انتهى اليها الكاتب : حقا ، ان نقاباتهم قد تأخرت في الظهور ، ولكن من الثابت أيضا ، ان أصحاب الأعمال، حرصوا منذ وقت مبكر على توحيد جهودهم من أجل الدفاع عن مصالحهم المشتركة ، بحيث اذا لم تكن « منظماتم النقابية » قد ظهرت بشكل رسمى ، فان التعاون فيما بينهم كان مؤكدا منذ القرن الثامن عشر ، وتطور بشكل ملحوظ خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر[٣٣٨] • بقصد حماية مصالحهم المشتركة تجاه السلطات العامة ، من جهة ، وفي مواجهة طبقة العمال من جهة أخرى[٣٣٩] •

---

(٣٣٧) Fohlen, op. cit., note 276, p. 242.

(٣٣٨) R. Marx, op. cit., note 273, p. 166.

(٣٣٩) وهو ما أكده Fohlen بنفسه ، بقوله « بلاشك ، كان الصناعيون يكونون جماعات ضاغطة بهدف اجبار الحكومة على اتخاذ قرارات معينة في صالح هؤلاء الصناعيين » Fohlen, op. cit., note 276, p. 242. وهو بالطبع ما يؤكد ، ان المصلحة قد جمعت بين هؤلاء، وان شعورهم بهذه المصلحة « المشتركة » وعملهم « الجماعى » من أجل حماية هذه المصالح يبيح اطلاق اسم « الطبقة » عليهم •

هذا القول ، يصدق بالنسبة لكل الدول التى عرفت الثورة الصناعية ، ولكنه اكثر وضوحا بالنسبة لانجلترا ، نظرا لكونها أولى البلاد التى عرفت الثورة الصناعية ، فسمحت للبورجوازية الصناعية ان تتلمس مصالحها المشتركة في وقت مبكر ، وكذلك لان انجلترا ، بفضل نظامها السياسي الحر ، كانت قد تأصلت فيها عادة تسمح بالتعبير عن « المصالح الجماعية » ، وتتمثل في حق كل جماعة متفقة في المصالح أو الرأى في التقدم « بعريضة مطالب » الى البرلمان ، يطرحون فيها شكواهم أو يحددون مطالبهم ، بحيث كان من النادر في انجلترا أن تصادف احدى الجماعات السياسية أو الاقتصادية أو الدينية لم تتقدم بمطالبها الى البرلمان ٠ وفي نطاق هذا الحق المتاح للجماعات ، استطاعت جماعة « البورجوازية الصناعية » أن تنسق جهودها وتتخذ خطوات عملية بقصد حماية مصالحها المشتركة(٣٤٠) ٠

وهكذا ، وضحت فكرة المصلحة المشتركة ، لأول مرة ، حين شرع William Pitt في اتباع سياسة مالية وضرائبية جديدة ، كانت تقتضي فرض ضرائب اضافية على استيراد المواد الأولية ، وخاصة الحديد والنحاس والفحم الحجرى ، مما دعا أصحاب الصناعات التعدينية الى الاتفاق على العمل معا من أجل محاربة تلك القرارات وذلك دون ان يتسلموا الحاجة الى اقامة « جمعية » دائمة للدفاع عن آرائهم ٠

وقد سنحت الفرصة ، على وجه الخصوص ، لطبقة البورجوازية الصناعية ، للدفاع عن مصالحها ، ابان المعاهدة « الانجليزية — الايرلندية » ، التى كانت ترمى الى اقامة العلاقات التجارية بين البلدين على أساس « المعاملة بالمثل » وخاصة فيما يتعلق باستيراد المواد المصنعة ٠ هذه المعاهدة ، التى لاقت كل ارتياح في ايرلندا ، واجهت ، في انجلترا ، معارضة شديدة ، فالأمر كان يهم كل الصناعات ، ولذلك قامت حركة معارضة للمعاهدة ، لم تلبث ان تحولت الى عمل منظم ، قادها رجل الصناعة Wedgwood ، الذى نجح بالتنسيق مع صناعى آخر لا يقل شهرة Boulton ، في انشاء الاتحاد العام للمنتجين الصناعيين ، عام ١٧٨٥ The General Chamber of Manufacturers وذلك بقصد الضغط على البرلمان لمنعه من التصديق على المعاهدة « الانجليزية الايرلندية » ، وقد نجح الاتحاد بالفعل

---

(٣٤٠) Mantoux, op. cit., note 2, p. 407.
Marx, op. cit., note 273, p. 166.

وانظر ايضا Fohlen ، المرجع المشار اليه هامش ٢٧٦ ، الذى يؤكد اتخاذ البورجوازية الصناعية للخطوات التى سنسردها في المتن ولكن ليصل الى نتيجة عكسية للنتيجة التى وصلنا اليها ، بمعنى انه يستخدمها لتعزيز وجهة نظره في ان البورجوازية الصناعية لم تكن طبقة بالمعنى المفهوم ٠ ص ٢٤٢ وما بعدها ٠

في تحقيق الهدف من انشائه ، ولم تتم المصادقة على المعاهدة المذكورة ، وبذلك بدا « الاتحـاد العـام للمنتجين الصـناعيين » ، وكأنه « رابطة للدفاع عن المصالح المشتركة » لهذه الطبقة الجديدة •

ولكن وحدة المصالح هذه ، التى تأكدت في أكثر من مناسبة ، لم تمنع ، داخل الجماعة ، من الاختلاف حول الأسلوب الأمثل لحماية هذه المصالح ، وقد بدا ذلك واضحا ، ابان السعى لايقاف المعاهدة الايرلندية البريطانية : فالبعض ، من رجال الصناعة ، متأثرين بسياسة التجاريين القديمة(٣٤١) ، كانوا يخشون ان يؤدى رفع الحواجز الى تخلص ايرلندا من حالة التبعية الاقتصادية التى وضعتها فيها انجلترا خلال عدة قرون ، بينما العض الأخر ، من أنصار مدرسة « المذهب الحر » كانوا يأملون في ازالة كل الحواجز القائمة بين البلدين ، على أساس ان ذلك سيتيح لهم الفرصة للحصول على المواد الأولية بأرخص الأسعار ، وسـيفتح لهم الاسـواق الايرلندية على مصراعيها •

وهكذا ، بات واضحا ، منذ المعاهدة الانجليزية الايرلندية ، وجود اتجاهين متضادين في داخل البورجوازية الصناعية ، أحدهما يتمسك بالأسلوب التقليدى للحماية ، والآخر ، على العكس ، يدعو الى حرية التبادل التجارى • هذا الاختلاف في وجهات النظر ، سبب انقسام الاتحـاد العـام للمنتجين الصناعيين ، بمناسبة المعاهدة التجـارية الانجليزية الفرنسية (عـام ١٧٨٦) التى اقامت نظاما حـرا للتبادل التجارى • ولكن الأغلبية من رجال الصناعة هذه المرة ، بقيادة Wedgood وجيمس واط Watt ، اختـاروا النظام الحر للتبادل ، ذلك ان هؤلاء الصناعيين ، كانوا قد لمسوا مدى الحاجة الى أسواق خارجية لتصريف منتوجاتهم وكانوا على يقين ، من ان التبادل الحر القائم على أسـاس المعاملة بالمثل ، سيترتب عليه ، نظرا للتفوق العلمى والتقنى ، مصلحة محضة للصناعة الانجليزية ولهم ، وقد نجح أيضا هذا الرأى في فرض وجهة نظرهم •

هذه الأحداث ، التى وقعت في انجلترا ، وشوهدت بنفس الصورة في البلاد الأخرى الصناعية ، خاصة في فرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، وأكدت ، ان أعضاء الطبقة الجديدة ، مارسوا كل الضغوط المتاحة لتحقيق مصالحهم المشتركة ، ولكن الأسلوب المتبع لتحقيق تلك المصالح كان محل اختلاف بين المتمسكين بضرورة اقامة الحواجز الجمركية وحماية الصناعة الوطنية ، وبين أنصـار المذهب الحر ، واطلاق العنـان للمنافسـة الحرة ، وقد كان النصر في هذه المعركة ، في صـالح

---

(٣٤١) راجع ما سبق ، ص ١٤٢ وما بعدها •

« الليبراليين » بطبيعة الحال ، الذين ارتأوا في « الحــدود المفتوحة » ســوقا كبيرا يتناسب وضخامة الانتاج الذى اتاحه لهم التقدم العلمى والفنى في الصناعة(٣٤٢) .

ولكن الاختلاف في وجهات النظر ، حول أفضل الســياسات الاقتصــادية المحققة لمصالح الطبقة الجديدة ، فان أعضاء هذه الطبقة كان لديهم القــدرة على الوقوف صفا واحدا حين يتعلق الأمر بـ « المصلحة الطبقية »(٣٤٣) ، خاصة ، في

---

(٣٤٢) ان اختلاف وجهات النظر على هذا النحـو ، لم يـكن يعنى اختــلاف « المصــالح » بين اعضـــاء هــذه الطبقــة الجديدة ، بل كان يعـكس « قصر نظـر » التقليديين ، ويؤكد « بعــد نظر » الليبراليين . وقد وقع نفس الخـلاف ، في كل من فرنســا وامريكا ، في بداية عهدهما بالتصنيع :

ففى فرنسا ، كان رجال الصناعة الفرنسيين يخشــون منافسة جيرانهـم الانجليز ، لذلك عملوا على الاحتفـاظ لانفسـهم بالســوق الوطنية ، وتجمعوا منذ عام ١٨٣٠ في عدة جمعيــات من أجل تحقيق هذا الهدف ، ثم توحدت هــذه الجمعيــات في اتحــاد عام عرف باسم l'Association Mimerel pour la défense du travail national. اتحاد ميمرل لحماية العمل الوطنى ١٨٤٦ ورفع هذا الاتحاد شـعارا مؤداه ان « الصناعة الفرنسية ينبغى الا تهتم بالتصدير ولذا يتعين اقفـال الحدود في وجه البضاعة الأجنبية » ، ولكن هذا الراى ، سرعان ما استثار انصار المذهب الحــر من الصناعيين ، الذين تجمعوا بدورهم في جمعية « حرية المبادلات » .

ونفس الصورة تقريبا ، نصادفها في الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث تكون الاتحــاد العــام للمنتجين الصناعيين ، عام ١٨٩٥ ، ولكن سريعا ما سادته الــروح الليبرالية وقدمت اليه عام ١٨٩٩ ، ورقة عمــل من مجمــوعة عرفت باسم le groupe de Cincinnati ، تنادى بهجــر السيــاسة الاقتصادية القديمة القائمة على الحماية ، واقامة اسطول تجارى بحرى قوى لتاكيد المكانة الاقتصــادية للولايات المتحدة بين كافة الأمم وفتح أســواق جديدة امام الصناعات الأمريكية .

انظر : Fohlen, op. cit., note 276, p. 243 et p. 244.

ومن ذلك يتضح لنــا ، ان الخلاف بين الليبراليين والتقليديين ، كان حتميا في كل البــلاد التى عرفت الثورة الصناعية ، فان كان قد وقع متاخرا في فرنسا وامريكا ، وفي وقت سابق عليهما في انجلترا فلان انجلترا كانت اسبق في الدخول الى عصر الصناعة ، كذلك فكما : ان المواجهة كانت حتميــة ، انتصار في كل الحالات كان للاتجاه « الليبرالى » ، وكيف لا وقد قامت فلسفة البورجوازية الصناعية كلها على أساس من « الحرية » التى لا تتجزأ .

(٣٤٣) ويبدو ان الكاتب Fohlen ادرك هذه الحقيقة ، فعدل عن رأيه الأول ولكن في كتابه الثانى "Histoire générale du travail" حيث يقــرر في ص ١٤٤

Tout Comme les ouvriers, les industriels prennent bientôt conscience de leurs intérêts Communs s'organisèrent pour les défendre"

« وتماما كطبقة العمال ، شعر أرباب الأعمــال بضرورة الدفاع عن مصالحهم المشتركة فنظموا صفوفهم من اجل الدفاع عنها » .

حالات المواجهة مع طبقة العمال ، حيث كانت الطبقة البورجوازية تتخذ موقفا متضامنا وفعالا • وهكذا نجحت هذه الطبقة على سبيل المثال ، في الحصول من البرلمان على قانون في غاية القسوة عام ١٧٨٢ ، لمعاقبة العمال الذين يتلفون الآلات أو البضائع •

كذلك ، استطاع أصحاب صناعة الغزل والنسيج في Boulton اصدار كتاب عرف باسم « الكتاب الأسود » يضم أسماء بعض العمال الذين يحظر التعامل معهم، وينبه أصحاب الأعمال الى الوسائل الكفيلة بمكافحة سرقة المواد الأولية • هذا الكتاب تم اصداره بالاتفاق بين ستين مؤسسة صناعية ، في الوقت الذى حرم فيه قانونا كل تجمع عمالى ، بناء على طلب أصحاب الأعمال •

ولعل أهم مظاهر التجمع من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة الطبقية ، تجلى في محاربة هذه الطبقة لكل تنظيم لقواعد العمل ، أو حماية العمال ، بل وفي محاربتهم لكل قانون قائم يتعلق بهذه الموضوعات ، ومن ذلك مثلا ، القانون الذى كان ينظم تشغيل « الأحداث » ، فقد كان يحدد نسبة عدد « الأحداث » • الى عدد العاملين بالمنشأة ، وقد وجد العمال ، في هذا القانون وسيلة لحمايتهم من الضغوط التى يمارسها عليهم رب العمل ، في وقت لم يكن لهم حق التجمع ولا تكوين النقابات • ولكن الطبقة البورجوازية ، لم يرق لها ان ترى على حريتها في تشغيل الاحداث أى قيود ، فعملت على محاربة هذا القانون وتوصلت الى الغائه •

ان البورجوازى الصناعى ، كان ضد كل « تنظيم قانونى » يحد من حرية المبادلات أو حرية العمل ، لأن هذا التحديد ، كان في حقيقة الأمر ، تحديدا لحريته هو في اطلاق العنان للحافز الفردى ، واستغلال القوى العاملة ، والحصول على المواد الأولية بأرخص الأسعار ، وفتح الاسواق امام منتوجاته • في هذا الصدد التقت مصالح الطبقة الجديدة ، وتأكد لديها الشعور بضرورة التضامن للدفاع عن هذه المصالح ، فكان ذلك ايذانا ، بحمل شعار « دعه يمر » من نطاقه النظرى ، لوضعه موضع التنفيذ في الحياة العلمية •

ولكن التأكيد ، على الطابع الطبقى للبورجوازية الصناعية ، لا يتأتى فقط من كونها قد عملت على حماية « مصالحها الطبقية » والتضامن من أجل الدفاع عنها

= انظر المرجع السابق ذكره هامش ٢٧٤ •

ويبين الكاتب على وجه الخصوص ، كيف تطورت جمعيات الدفاع عن أصحاب الأعمال ، وكيف انهم كانوا يفلتون من تحريم الجمعيات والنقابات ، بينما تخضع منظمات العمال لهذا التحريم ، وكيف ان تحديد أسعار المواد المصنعة كانت تحدد بالاتفاق المشترك بين منتجى هذه المواد •

فحسب ، بل وأيضا من استخدامها لكل الوسائل المتاحة لها لتأكيد مكانتها في المجتمع وفرض سيطرتها ٠

وفي هذا الصدد ، كانت البورجوازية الصناعية ، تمسك بين يديها أولا ، القوة الاقتصادية ، بما تملكه وتسيطر عليه من وسائل الانتاج ، وبمقدرتها الفائقة على استثمار رأس المال واعادة استثماره في دورات سريعة بفضل العائد المجزى للنشاط الصناعي : فحوالى عام ١٨٨٠، كانت صناعة الغزل تدر ربحا سنويا يقدر بـ ١٥٪، اما الصناعات التعدينية فارتفع فيها الرقم الى ٣٥ ٪ بينما تجاوز هذا الحد في الصناعة الكيمائية(٣٤٤) ٠

هذه السلطة الاقتصادية ، مكنت طبقة البورجوازية الصناعية ، من ان تمسك ــ بعد فترة من قيام الثورة الصناعية ــ بالسلطة السياسية ، وخاصة في تلك البلاد التى عرفت مبكرا النظام الديمقراطى ، كانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة : فالنظام الديمقراطى القائم على حق الاقتراع العام لقى قبولا من قبل الطبقات الشعبية ، على اعتبار أنه سيمكنهم من تحقيق بعض مطالبهم ، مثل الحق في التعليم للكافة ، واصدار بعض التشريعات العمالية ، واستطاعت البورجوازية الصناعية ان تستخدم هذا النظام من أجل تدعيم سلطانها السياسي ، وهكذا قامت الطبقة البورجوازية في الولايات المتحدة بتوجيه النشاط السياسي في البلاد وبتمويل الحزب الجمهورى الحاكم منذ نهاية الحرب الأهلية ٠ وفي انجلترا ، استجاب حزب المحافظين الحاكم لمتطلبات تلك الطبقة الجديدة ، وأبدى حزب الأحرار تفهما لهذه المطالب لا يقل عن منافسه ٠ أما في فرنسا ، فقد سمح اعلان حقوق الانسان وتقنين نابليون ، لهذه الطبقة الجديدة ، أن تتعامل « على قدم المساواة » مع الطبقة الارستقراطية(٣٤٥) ٠

وأخيرا ، تمكنت البورجوازية الناشئة ، من اضافة السلطة الاجتماعية الى الوسائل التى تمكنت بها من فرض سيطرتها وحماية مصالحها ٠ وهكذا استطاعت جماعات الضغط التى كونها رجال الصناعة في فرنسا ان تأتى باحد أعضائها رئيسا للبرلمان عام ١٨٧٠ (Eugène Schneider) ، كما نجحوا أيضا في تحريك الجيش لاخماد الاضرابات العمالية الأولى التى شبت في منطقة Creusot ٠ واستطاعت الطبقة البورجوازية ان تفرض سيطرتها على الرأى العام وتوجهه بواسطة الصحف اليومية الكبرى التى مولتها وسيطرت عليها ، كما دعمت مكانتها الاجتماعية بواسطة

(٣٤٤) Rioux, op. cit., note 5, p. 215.

(٣٤٥) Remond, op. cit., note 5, p. 215.

الحفلات الخيرية والتبرعات ، بل انها مدت سيطرتها على الطبقات المثقفة ، بما كانت تساهم به من تشجيع البحث العلمى تخصيص الأموال له (٣٤٦) ٠

وهكذا ، أكدت هذه الطبقة الصاعدة مكانتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الدول التى وقعت فيها الثورة الصناعية ، وتمكنت من حماية مصالحها والدفاع عن نفسها ، خاصة في مواجهة الطبقة التى ضحت بها في سبيل تحقيق مطامعها (طبقة العمال) ، ولكن هذه البورجوازية الصناعية ، لاسباب اقتصادية وفنية ، استبقت في خدمتها طبقة أخرى من طبقات المجتمع ، لم تكن من القوة أو الثراء بحيث تختلط بالطبقة البورجوازية ، ولا الضعف والجهل بحيث تقتصر على قوة سواعدها ، فلم تختلط بطبقة البروليتاريا ٠ لذلك وقفت ما بين الطبقتين المتصارعتين موقفا وسطا ، هذه هى الطبقة المتوسطة ٠

المطلب الثانى ـ الطبقة المتوسطة (أو الطبقات المتوسطة) :

كانت الطبقة البورجوازية ، تحتل ـ كما راينا ـ قمة التنظيم الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الجديد الذى أوجدته الثورة الصناعية ، ولكنها كانت طبقة محدودة من الناحية العددية ، فنشأ بينها وبين الطبقة العددية الأكبر ، طبقة متوسطة ٠ هذه الأخيرة ٠ كانت تضم في صفوفها ، فئات متنوعة أوجدتها جميعا ، الثورة الصناعية ، وأكدت الحاجة اليها(٣٤٧) :

فقد نشأت هذه الطبقة ، تحت الحاح مجموعة من العوامل الاقتصادية والفنية التى واكبت الثورة الصناعية ٠ذلك ، ان تطور الانتاج وتقسيم العمل أديا الى ضرورة التوسع والتخصص في المهن المرتبطة بالصناعة ، فالثورة الصناعية لم يقف أثرها على خلق وظائف جديدة ، فقط في عملية « الانتاج الصناعى » ، ولكنها

---

(٣٤٦) J. P. Rioux, op. cit., note 5, p. 217.

(٣٤٧) Rioux, op. cit., note 5, pp. 200, et s.s.
R. Rémond, op. cit., note 293, p. 59. et s.s.
Fohlen, op cit., note 276, pp. 245 et s.s.
U.N.E.F. John : op. cit., note 273, pp. 62 et s.s.
J. Bron : op. cit., note 287, pp. 18 et s.s.
A, Garrigou Lagrange, op. cit., note 202, pp. 179 et s.s.

وبالاضافة الى هذه المراجع انظر ايضا :

Charles Moraze : les bourgeois Conquérants "Destins du monde'
A. Colin, Paris 1957, pp. 84 et s.s.

استلزمت الى جانب المهن الصناعيه ، مجموعة أخرى من التخصصات أدت الى تحول هائل على الصعيد الاجتماعى • فبعد عملية « الانتاج الصناعى » ، يأتى دور توزيع الانتاج والوصول به حتى المستهلك ، علاوة على ما تتطلبه هذه العملية ، من وجود مجموعة من الخدمات تقتضي لنجاحها ، أن يقوم بها شخص « متخصص » •

من هنا ، تطور قطاع هام من القطاعات الاقتصادية ، أطلق عليه الكتاب اسم "le Secteur tertiaire" والذى سنستخدم ترجمة « موضوعية » له فنطلق عليه « قطاع الخدمات »(٣٤٨) ، هذا القطاع الذى كانت خدماته ضرورية لضمان استمرار تقدم « القطاع الصناعى » • هذا القطاع الاقتصادى الجديد ، وصف أفراده بأنهم « يمثلون البورجوازية الصغيرة أو المتوسطة »(٣٤٩) ، التى استطاع بعض أعضائها ، بكثير من المثابرة والكفاح ، او عن طريق الزواج ، الانتقال الى الطبقة العليا ، ولكن أغلب أفرادها ظلوا في المكان « الوسط » الذى حدده لهم النظام الاجتماعى الناشيء عن الثورة الصناعية •

هذه الطبقة ، كانت تعيش على « فتات الموائد » الذى تتركه لها الطبقة البورجوازية ، وارتبط مصيرها بالتطور الاقتصادى للنظام الرأسمالى ككل(٣٤٩) • فاغلب أعضائها لم يكونوا على اتصال مباشر بعملية الانتاج الصناعى (عدا الفنيين والمهندسين) ، ولم يكن لهم أى سلطة مباشرة على وسائل الانتاج ، ولكن هذه الطبقة كانت تزداد عددا ودخلا ، بازدياد المصانع وتطور القطاع الصناعى ، وزيادة مشاكل الانتاج والتوزيع ، مما جعل لها دورا حيويا في تطور النظام الرأسمالى ، دورا شعرت به هذه الطبقة ، فبدأت تنظم صفوفها ، بما مكنها من أن تلعب دورا هاما في الحياة السياسية اعتبارا من السنوات ١٩٠٠ •

---

(٣٤٨) فالواقع ان الترجمة الحرفية لهذا المصطلح ، هى « القطاع الثالث » ، وهو معنى مفهوم في ضوء ما ذهب اليه الكتاب من تسمية القطاع الزراعى le Secteur primaire (نسبة لكونه اول انواع النشاط الانسانى) ، والقطاع الصناعى le Secteur Secondaire لذلك ، آثرنا ان نعطى للترجمة معنى موضوعيا فهو ادل على المقصود مما لو أخذنا بالترجمة الحرفية •

(٣٤٩) ويتضح ذلك جليا ، اذا لاحظنا تزايد الفئات المكونة لهذه الطبقة في خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ! ففى الفترة من ١٨٧٦ الى ١٩١١ تزايد عدد موظفى الدولة في فرنسا ، من ٧٧٠ر٠٠٠ ، الى ١ر٨٠٠ر٠٠٠ موظف • وبلغ عدد العاملين في القطاع التجارى حوالى ٥٥٥ر٠٠٠ شخص عام ١٨٨٠ •

انظر ، Rioux, op. cit., note 5, p. 200 et p. 203.

ويقتضي دراسة هذه الطبقة ، أن تبين أهم النماذج المكونة لها **(البند الأول)**[٣٥٠] ومدى ما ساهم به تطور التعليم في تثبيت دعائمها **(البند الثاني)** ٠

البند الأول ـ العناصر المكونة للطبقة المتوسطة :

(أ) الوسيط التجارى : لعل أولى الفئات التى يمكن الاشارة اليها في نطاق الطبقة المتوسطة ، هى فئة « الوسطاء التجاريين »[٣٥١] ٠ ففى خلال المرحلة الأولى للثورة الصناعية ، لم يتغير دور هؤلاء كثيرا ، فمازالت التجارة ، وخاصة تجارة التجزئة ، تتم بواسطة البائع المتجول ، الذى يحصل على المواد المصنعة من المناطق التى قامت فيها « ورش للصناعات اليدوية » ، وكان الحصول على تلك المنتجات يتم في السوق المحلية بصورة بدائية ، تعتمد على تصريف « المنتج الصناعى » لمنتجاته مباشرة الى هؤلاء الباعة المتجولين ٠

ولكن ، اعتبارا من عام ١٨٢٠ ، سيتضح ، على الأخص في انجلترا ، ان هذا الأسلوب البدائى في توزيع المنتجات الصناعية لم يعد صالحا لمواجهة تزايد كميات الانتاج : فمع تزايد حجم الانتاج ، بفضل الثورة الصناعية ، أضحى السوق المحلى والبائع المتجول ، والعلاقة المباشرة بين البائع والمنتج ، مؤسسات قاصرة عن مسايرة الظروف الاقتصادية التى استجدت ، حيث صار عرض السلع واعادة تخزينها يحمل المنتج أعباءا اضافية ، علاوة على أن كثرة البضائع كانت تتطلب لعرضها جهودا طائلة ، بالاضافة الى ما تتعرض له هذه الكميات الهائلة من مخاطر السرقة ٠

لذلك ، حرصا على توفير الجهد والنفقات ، بدأ العمل يجرى على الحصول

---

(٣٥٠) نقول هنا أهم النماذج لأن هناك « نماذج اجتماعية » أخرى، يدرجها بعض الكتاب في عداد « الطبقات المتوسطة » ٠ مثال ذلك ، اصحاب الدخول العقارية les rentiers (راجع (Rioux, op. cit., note 5, p. 208) ، وكذلك ، فهناك بعض الفئات التى يطلق عليها الكتاب، فئات على « هامش الثورة الصناعية » ، يدخل فيها مثلا بعض الحرفيين الذين ظلت الحاجة الى عملهم اليدوى قائمة حتى بعد الثورة الصناعية (Fohlen, op. cit., note 274, p. 65)

ولكننا هنا نقتصر على ابراز أهم النماذج الاجتماعية التى كونت الطبقة المتوسطة والتى يرجع السبب في ظهورها وازدياد اعدادها الى الثورة الصناعية بالذات ٠

(٣٥١) Rioux op. cit., note 5, p. 200.
Fohlen, op. cit., note 274, P. 253.

على السلع مباشرة من المصنع ، وعلى إن يتم الشراء وفقـا « لعينة » ، وبدات في الظهور ، بورصة لتحديد أسعار المواد الأولية(٣٥٢)

ولكن الحصـول على السلع مباشرة من مكان الانتـاج ، إضحى بدوره ، بعد فترة غير كاف لتصريف الكميات الهـائلة والمتزايدة من المنتجـات والوصول بها الى المستهلك ، من هنا ظهرت في البـلاد الصناعية ، وعلى الأخص في المدن الصناعية الكبرى «بورصة لتحديد أسعار المواد المصنعة» ونشات الى جانبها «تجارة الجملة» ، بحيث يقيم تاجر الجملة مركزا له اما في مكان التصنيع أو في مكان الاستهـلاك ، ويحصل بالجملة على السلع المصنعة ، ويتولى تصريفها الى تجـار التجزئة ، ومن هؤلاء تصل السلع الى يد المستهلك ٠

وهكذا ، ظهر بين المنتج والمستهلك ، سلسلة من الوسطاء ، أدت الأرباح التى يحصلون عليها الى ارتفاع سعر السلعة بالنسبة للمستهلك ، واعتبارا من عام ١٨٥٠ ، وتطور وسائل النقل ، وخاصة السكك الحديدية ، ستتسع السوق ، ويصبح في الامكان الوصول الى المستهلك بشكل أسرع من ذى قبل ، وبنفقـات أقل ، مما سيحد من ضرورة « تخزين كميات كبيرة من البضائع » ، نظرا لامكان تلبية الطلب في وقت أقصر مما مضي ، فيترتب على هذا التطور ، ان يصبح « العائد » من رأس المـال التجارى أوفر ، نظرا لسرعة دورة رأس المـال ٠

وبذلك أصبح الوسيط « سـواء في ذلك تاجر الجملة ، أم تاجر التجزئة » إول النماذج التى كونت الطبقة « الوسطى » ٠

ولكن المنتج الصناعى ، بدلا من ان ينتظر الوسطاء ، كان أحيانا يذهب اليهم بواسطة « ممثل » عنه ، وكان التجار يحددون طلباتهم تبعا « للعينات » التى يحملها هذا الوسيط ، وقد لعب هذا الوسيط أيضا دورا هاما ، خاصة في انجلترا في الفترة من نهاية القرن الثامن عشر حتى حوالى عام ١٨٥٠ ، حيث نجح تجـار الجملة في استعادة العلاقة المباشرة مع المنتج الصناعى ، ولكن وظيفة « المندوب » ظلت قائمة ، حيث أصبح هذا الأخير يمثل تاجر الجملة لدى تجار التجزئة ؛

وهكذا ، بدأت دائرة التوزيع ، تتسع وتنتظم ، ولكنها في اتساعها الدائب ،

---

(٣٥٢) فنشات بورصـة بيـع القطن في Liverpool (بانجلترا) و Nowelle-Orléns, (بفرنسا) ، وفي Melbourve لبيع القمح ، وفي لندن وهامبورج لبيع القهوة وفي امستردام لبيع « التوابل » ٠

Rioux, op. cit., note 5, p. 201.

كانت تحمل المستهلك عبئا اضافيا ، فالمستهلك لم يكن على اتصال الا بتاجر التجزئة ، وهذا الأخير بدوره خاضع لسلطة تاجر الجملة ٠

لقد كانت تجارة التجزئة ، قبل الثورة الصناعية ، غير منتشرة ، عدا بعض الحوانيت التقليدية (كالجزار والفران) ٠ ولكنها أخذت تنتشر بسرعة ، في أعقاب الثورة الصناعية ، في المدن أولا ، ثم في القرى ، لتعرض أنواعا متعددة من المنتوجات، وتقضي بذلك على مهنة من مهن المجتمع السابق ، وهى مهنة « البائع المتجول » ، ويبدا هذا الأمر واضحا منذ البداية بالنسبة للملابس والأنسجة ، وسرعان ما بدات تجارة التجزئة تنافس الأسواق التقليدية في المدن الاسبوعية او نصف الاسبوعية ، في مجال توزيع المواد الغذائية ٠

لقد كان القطاع التجارى الصاعد ذا مردودية كبيرة ، بدليل ان هذا القطاع استفاد من التجربة الصناعية ، وخاصة من ظاهرة « التركز الصناعى » ، فبدأت « المحلات الكبرى » في الظهور ، وهى محلات تتكون من عدة أجنحة كل منها يتخصص في بيع سلعة معينة ، ويقيم المحل فروعا له في المدن والقرى ، وبما يمكنه ان يحصل عليه من تخفيضات هائلة من لدن المنتج شخصيا أو تاجر الجملة ، أمكن لهذه المحلات ان تخفض سعر البيع للمستهلك ، فغدت منافسة قويا لتجار التجزئة ، ولكن هذا الخطر ، اقتصر على بعض المدن الكبرى في فرنسا وانجلترا(٣٥٣) ٠

وهكذا ، أدت الثورة الصناعية ، الى « ثورة تجارية » تمثلت في خلق دائرة توزيع واسعة ومحكمة ، بين المنتج والمستهلك ، وفي نشأة مراكز للتوزيع « جملة وتجزئة » في كل انحاء البلاد ، لتصل السلعة المصنعة في المناطق الصناعية الى المستهلك في أقصي البلاد ، وقد ترتب على ذلك ، ازدياد ملحوظ في عدد الوظائف التجارية : ففى تجارة المواد الغذائية في فرنسا مثلا ، ارتفع عدد العاملين من نصف مليون عام ١٨٨٠ الى مليون ونصف عام ١٩٠٥(٣٥٤) ٠

---

(٣٥٣) تعتبر منافسه المحلات الكبرى les Hypermarc Hés et les supermarchês والتى يطلق عليها « المساحات الكبرى les grands surfaces» من أهم المشاكل التى تواجه تجارة التجزئة ، بحيث تكاد تقضي عليها ، ولكنها في بداية الثورة الصناعية لم تكن على نحو ما هى عليه الآن !

راجع في هذا الصدد

Nabila Abd-Halim Kamél : les retombées de Mai 1968 sur le règime juridique des libertés publiques en France. Thêse Doct. Rennes 1974. pp. 440 et s.s.

(٣٥٤) Rioux, op. cit., note 5, p. 203.

(ب) المهن الحــرة :

بالاضافة الى دائرة التوزيع ، كانت الطبقة البورجوازية ، بحاجة أيضا ، الى العديد من الخدمات التى ترتكز أساسا على ما يتلقاه الشخص من تعليم يجعله قادرا على القيام بتلك الخدمات ، ونقصد بذلك ، اصحاب المهن الحرة ، الذين تزايد عددهم ، ووجدوا أنفسهم ، بما تلقوه من تعليم وبحسب طبيعة عملهم ، في مرتبة أعلى من طبقة العمــال ، ولكنهم لم يصعدوا في السلم الاجتماعى حتى قمته ، فظلوا في مرتبة وسط ٠

من بين هؤلاء ، نشير أولا ، الى أصحاب المهن القانونية : فالقضاة ، أذهلهم التطور الحاصل من حولهم ، وكان أغلبهم من طبقة « الارستقراطية » القــديمة ، الذين وجدوا في هذه المهنة السامية ، فلاذا يحفظ عليهم ماء الوجه ٠ اما المحامون والمستشارون القانونيون للمنشآت الصناعية الكبرى ، فقد أفادوا من الثورة الصناعية ، فعرفت مهنتهم ازدهارا ملحوظا ، فتحسنت أوضاعهم ، بقدر ما استطاعوا تطويع « الاجراءات والدعاوى » لخدمة الطبقة البورجوازية ، وبقدر ما برعوا في ابرام الصفقات وكتابة العقــود ٠ ومما ساعدهم على ذلك ، انهم استطاعوا أن ينفذوا الى المناصب القيادية في الأحزاب السياسية ، وان يحصلوا على أكبر عدد من المقاعد في « البرلمان » ٠

ولقد كان بامكان النابغين منهم ، ان يرتقوا السلم الاجتماعى ، ســواء بواسطة الزواج ، أو العمل السياسي ، الى مصاف البورجوازية ٠

ومن بين المهن الحرة ، تجدر الاشارة الى « الطبيب » ، وخاصة في هذا العالم الجديد الذى بدأ الاهتمام فيه بالصحة ، وان كان هذا الاهتمام بصورة « فردية وطبقية »[٣٥٥] ، فمازلنا بعيدين عن « الطب للجميع » وعن الكشف الدورى الاجبارى

---

(٣٥٥) Charles Morage : les bourgeois Conquérants, op. cit., note 347, pp. 86 et s.s.

ونقول أن العناية بالصحة كانت بصفة طبقية ، نظرا لان « الطب في متناول الجميع » لم يكن قائما في بداية الثورة الصناعية ، لذلك قيل ان متوسط عمر افــراد الطبقــة البــورجوازية ، نظــرا لما كان بامكانها أن تحصل على العلاج والغذاء ، كان ٥٥ عاما ، بينما كان متوسط عمر افراد طبقة البروليتاريا ١٥ عاما فقط ٠

انظر : Redor et Rioux, la revolution industrielle en Grande Bretague.

"Profil Dossier", Economie, sicologie, et sciences sociales Heier-Paris 1980, p. 6.

للعمال ، ولكن الطب سيحقق ولا شك تقدما في هذه المرحلة • فبينما وقف الطب حائرا أمام الكوليرا التى اجتاحت أوربا في أعوام ١٨٣١ ـ ١٨٤٨ ، فان ابحاث باستير وتطور علم « الميكروبولوجيا » ، سيضعـان في خدمة النـاس امصـالا فعالة لمقاومة الأمراض وخاصة الكوليرا •

كذلك ، عرفت مهنة الطبيب الممارس تطورات هامة : فاستخدام السمـاعة الطبية في تشخيص الأمراض ، باتت تأتى بنتائج طبية منـذ Laennec ودراسة ردود الفعل باتت أكثر وضوحا • وتقدم علم « الكيمياء » ، اتاح العديد من الأدوية ، وخاصة في مجال «الصيدلة الصناعية» التى عرفت عددا من الأدوية البسيطة والفعالة ، كالاسبرين ، وعلى الأخص في المانيا : التى تطورت فيها صناعة الأدوية تطورا هائلا ، واشتهرت بعض المنشآت الصناعية في هذا المجـال ، مثل Bayer .

وبذلك ، ازدهرت في عالم الطب أعمـال الممارس ، وأيضا أعمـال الصيدلى والجراح : فالأول انتقل من عالم « الأعشـاب » الى عالم الصيدلة الكيمائية القائمة على المعرفة العلمية ، والثانى ، بما اتاحه له التقدم العلمى من وسائل لضمان نجاح أكبر للعمليات الجراحية مع عناء أقل للمريض ، بواسطة تطور وسائل التخدير ، واكتشاف « المورفين » ، والتقدم الذى عرفته طرق التعقيم والتطهير •

وهكذا ، فان الثورة الصناعية ، التى كانت مصدرا للعديد من الأمـراض المهنية ، واصابات العمل ، التى تودى بحياة العمال ، حققت في المجال الطبى تقدما ملموسا ، تقدما اعتمد عليه الطبيب ماديا ليصبح من « الطبقة البورجوازية المتوسطة أو الصغيرة » ، وأدبيا حيث استطاع بفضل مهنته أن يؤكد مكانته الجماعية ، فلعب دورا لا ينكر في توجيه الرأى العام خاصة في القرى ، حيث كان « اصغاء المريض » الى طبيبه ، وسيلة من وسـائل التأثير على اتجاهات التصويت بعد انتشار حق الاقتراع العام •

(حـ) المهندسون والفنيون والخبراء الصناعيون :

وبالاضافة الى هؤلاء جميعا ، يأتى دور احدى الفئات التى لعبت (ومازالت تلعب) دورا هاما في مجال الانتاج الصناعى : فئة الفنيين والخبراء الصناعيين ، أو ما درج العمل على اطلاق اسم « المهندسين » عليهم في الوقت الحالى(٣٥٦) •

هؤلاء ، لو أردنا تحليل نشاطهم ، لقربناهم من أصحاب المهن الحرة ، نتيجـة ما يقتضيه عملهم من ضرورة تلقى دراسات متخصصة • ولكن هؤلاء ، يتميزون ،

---

(٣٥٦) A. Carrigou Lagrange : op. cit., note 202, p. 179.

على الأخص في بداية الثورة الصناعية ، ان ما يحتاجون من دراسات ، لا يمكن ان يلقن لهم عن طريق المؤسسات التعليمية السابقة على الثورة الصناعية . لذلك ، فان هذه المهنة في بدايتها لم تكن نتيجة دراسات خاصة يتلقاها المعنى بالأمر ، بل نشأت هذه المهنة تلقائيا ، وتطورت بقدر تطور الثورة الصناعية ، وبقدر احتياج الانتاج الصناعى الى هذا النوع من المعرفة البشرية .

ولقد سبق أن أشرنا ، الى ان أغلب الاختراعات العملية ، في بداية الثورة الصناعية لم تكن نتيجة دراسات علمية قام بها علماء متخصصون ، بل كانت اختراعات « فنية » توصل اليها ، عن طريق الممارسة اليومية والخبرة ، أناس عملوا في الصناعة ووقفوا على احتياجاتها[٣٥٧] . لذلك ، فان بداية الاختراعات لم تركز على معرفة علمية ، ولكن التقدم الصناعى استلزم وجود الشخص المتخصص ، الملم بخفايا « الآلة » ، والذى يتم تكوينه علميا بهذا القصد .

من هنا أضحى دور المهندس ، مرتبطا بالتقدم الصناعى ، كما ارتبط هذا التقدم به ، وبدت الحاجة خاصة لانشاء المعاهد المتخصصة في تكوين هذا « المهنى » الجديد ، الذى استطاع بفضل « تكوينه الخاص » ، وأهمية وظيفته ، وطبيعة الخدمات التى يؤديها للنظام الاقتصادى الجديد ، ان يحتل في النظام الاجتماعى ، مرتبة وسطا .

(د) الموظفون العموميون :

وتأتى هذه الفئة أيضا لتضاف الى الفئات المكونة للطبقة المتوسطة .

وقد شهدت هذه الفئة أيضا ، تضخما في اعدادها ، بحيث تضاعفت تقريبا في كل من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة في الفترة من ١٨٠٠ الى ١٨٥٠ . ويجىء على رأس هذه الفئة ، كبار الموظفين والسفراء والمستشارون بمختلف أنواعهم ، وهؤلاء جميعا كانوا يرتبطون بالطبقة البورجوازية اما برابطة القرابة أو العلاقات العامة ، بحيث كان أفرادها يخالطون البورجوازية الصناعية ، ويتفانون في خدمتها عن طريق الجهاز الحكومى ، هذا الجهاز الذى شهد أيضا تضخما في كل قطاعاته، من المحاسبين ومفتشي الضرائب وموظفى الادارات الحكومية، الذين ساعدوا بوجودهم ودورهم في الحياة القومية على اعطاء المجتمع الجديد خصائصه المميزة من حيث التدرج الوظيفى والاجتماعى وما يرتبط به من سيطرة ورقابة الأعلى على الأدنى ، هذه الرقابة وهذا التدرج اللذان نشآ عن الثورة الصناعية وميزا النظام الاجتماعى الناشيء عنها .

---

(٣٥٧) راجع ما سبق ، هامش ٥٩ ، ص ٤٤ .

البند الثاني ـ التعليم ودوره في خلق الطبقة المتوسطة[٣٥٨] :

لقد تميزت الطبقة البورجوازية وتأسست سلطاتها على امتلاكها لرأس المال، اما طبقة العمال فعرفت ببيعها لقوة سواعدها ، اما الطبقة المتوسطة فقد استندت الى « المعرفة » أو بمعنى أدق على ما تحصلت عليه من قسط وافر من « التعليم » ، لذلك ، كان التعليم أساسيا في حياة هذه الطبقة ٠

فمع الثورة الصناعية ، اتضحت الحاجة الى المعرفة بأسلوب علمى ، سواء لرقابة الانتاج من الناحية الفنية والتجارية ، أو لرفع دعـوى ، أو لتنظيم قواعد المحاسبة أو للوصول الى الوظائف الادارية العليا ٠ فكان لابد لمن يطمع في القيام باحدى هذه المهـام أو بملء احدى هذه الوظائف من ان يتلقى « التعليم » الذى يؤهله لذلك ٠ هذا التعليم ، علاوة على ضرورته من الناحية العملية ، فانه كان يضفى على من يتلقاه قدرا من الهيبة والمكانة الاجتماعية تتفقان مع ما أصبح للتطور وللعلم من مكانة في هذا العالم الجديد ٠

لذلك ، رأينا أنه ما ان حل عام ١٨٥٠ ، حتى اقامت كل الدول الصنـاعية نظاما « الزاميا » للتعليم الأولي (الابتدائى) ، بقصد تعليم كافة المواطنين القراءة والكتابة وتلقينهم قدرا من الرياضيات والعلوم ٠ اما الدراسات الدينية فكانت اجبارية في المدارس التابعة للكنيسة ، ولم تكن كذلك في المدارس العلمانية التابعة للدولة ، هذا بالاضافة الى دروس « التربية الوطنية » ، التى كانت تعد التلميذ للانخراط في المجتمع الرأسمالى ، مؤكدة الأفكار التى أتى بها هذا النظـام من حيث تمجيد العمل الفردى ، وتقديس الحريات ٠

ولكن هذا التعليم الالزامى ، في كل البلدان الصناعية ، كان يرمى الى تكوين طبقة من الأيدى العاملة ، أكثر تفهما لطبيعة الانتـاج الصناعى وأكثر قدرة على القيام بمهمتها ٠ لذلك كان هذا التعليم « الزاميا » ، وفي متناول كافة الطبقات ٠

أما التعليم الثانوى ، والتعليم العالى ، فكانا على العكس ، قاصرين على طبقة معينة : الطبقة البورجوازية ، سواء في ذلك ، الطبقة البورجوازية العليا (الصناعية) ام الطبقة البورجوازية الصغيرة أو المتوسطة ، ولكن هذا النوع من التعليم ، كان بعيدا عن الطبقات الشعبية ٠

---

(٣٥٨) Rioux, op. cit., note 5, p. 205.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 245.

فالنسبة للتعليم الثانوى، كانت المدارس الثانوية، في انجلترا Public Schools أو في فرنسا Lyceés Français ، تتميز بثبات عدد تلاميذها بشكل يؤكد الطابع الطقبى لهذه المدارس ، وقد كان معلموا هذه المدارس من الطبقات المتوسطة ، ولكن بعض افراد الطبقات الشعبية، الذين نجحوا في الحصول على التعليم اللازم للتدريس بهذه المدارس ، كانوا في وضع غير مستقر : فاصلهم الاجتماعى كان ينحو بهم الى اعتناق الأفكار اليسارية والاجتماعية ، ولكنهم يميلون من الناحية العملية ، الى دعم هذا النظام الذى مكنهم ، بما حصلوا عليه من تعليم ، من ارتقاء بعض درجات السلم الاجتماعى[٣٥٩] .

أما بالنسبة للتعليم العالى ، فالأمر يقتضي بعض التفصيل : فبالنسبة لفرنسا ، وجدت بعض المدارس العليا التى تخصصت في تخريج الفنيين اللازمين للصناعات الحديثة[٣٦٠] ، ولكن التعليم العالى بصفة عامة ، كان بعيدا عن مسايرة احتياجات الصناعة ، مؤكدا بذلك أن تحقيق الربح في نظر البورجوازية الفرنسية كان يطغى على أهمية « التقدم العلمى » وذلك بعكس ما حدث في انجلترا والمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، حيث ارتبطت الدراسات العليا فيها منذ وقت مبكر باحتياجات الصناعية ، فالبرامج الدراسية ، والمعامل ، روعى في تحديدها واقامتها ، ما يتطلبه القطاع الصناعى من ابحاث ، بل ان البورجوازية الصناعية في هذه البلاد ، ادراكا منها لأهمية الكوادر المرتبطة بالصناعة ، قامت بانشاء بعض المدارس العليا الفنية والمتخصصة والمرتبطة ارتباطا مباشرا بالعالم الصناعى ، وقد ساعد على نمو المعرفة في هذا المجال ، ما اتاحة التبادل العلمي عن طريق الندوات والمنشورات، وتبادل النتائج والابحاث ، من انتشـار للتجارب العلمية ، وتعميمها في البلدان الصناعية المتقدمة[٣٦١] .

---

(٣٥٩) Rioux, op. cit., note 5, p. 206.
P. Fougeyrolloes, op. cit., note 290 pp. 128 ee s.s.

(٣٦٠) مثل (١٧٩٥) l'école Polytechnique او l'école Centrale
او (١٧٨٣) l'école des Mines (مدرسة المناجم) .
أو (١٧٤٨) l'école des ingénieurs militaires (مدرسة المهندسين العسكريين) .
أولا (١٧٤٧) l'école des pont et chausseés (مدرسة الطرق والكبارى) .
راجع Fohlen, op. cit., note 274, p. 249.

(٣٦١) غير أنه في هذا المجال أيضا ، ينبغى الاحتراز من التعميم ، فلا شك ، ان الثورة الصناعية حين قامت ، لم تكن بحاجة الى هؤلاء المتخصصين ، بل كان يكفيها في البداية « ذوو الخبرة » ليراقبوا وضع المخترعات والابتكارات موضع التنفيذ . لذلك ، لم تظهر أهمية « المتخصص » الا في تلك البلاد=

وبفضل هذه الوسائل ، وما اتاحه ارتباط التعليم بالصناعة ، كان بامكان هذه الدول المتقدمة ، ان تزيد في عدد متخصصيها بقدر حاجاتها ، مما مكنها أيضا في هذا المجال من فرض سيطرتها على الدول « المتخلفة » • ففى أفريقيا ، وأمريكا اللاتينية والشرق الأقصي ، كان الفنيون والمتخصصون الأوربيون والأمريكيون هم الذين أقاموا الكبارى والقناطر ، وأنشأوا السكك الحديدية والموانى ، وان كان ذلك قد تم بقصد خدمة الاقتصاد الرأسمالى وتوفير وسـائل حصوله على المواد الأولية وتصريف منتوجاته في أسواق الدول المستعمرة •

❋ ❋ ❋

من هذا العرض ، يتضح لنا ، ان الاحتياجات العملية والاقتصادية ، أدت الى ايجاد وظائف جديدة لم تكن قائمة قبل الثورة الصناعية ، هـذه الوظائف الجديدة ، شغلها أفراد يملكون وسائل المعرفة التى تلقوها عن طريق « التعليم » ، سـواء في ذلك المحامى ، أم الطبيب ، أم المهنـدس أم كبـار موظفى الدولة ، أو الوسيط التجارى • كل هؤلاء سـيجمع بينهم أنهم في خدمة الطبقة البورجوازية ، بحيث لا يمكن لهذه الأخيرة أن تسير نظامها الاقتصادى ، بدون معاونتهم ،وبالتالى لم يكن بامكانها ان « تضحى بهم » ، كما ضحت بالطبقة العاملة ، علاوة على ان تكوينهم وتعليمهم واعدادهم لعبوا دورا هاما في احتلالهم مكانة اجتماعية وسـياسية مكنتهم من الدفاع عن مصالحهم ، بحيث وان كانوا لا يسيطرون على رأس المـال ، فقد كا نبامكانهم أن يحصلوا على نسبة من الأرباح التى تحققها الطبقة البورجوازية، تكفل لهم نمطا من الحياة ، يقترب من نمط حياة البورجـوازى ، وهو ما دعا الى تسميتهم بالبورجوازية المتوسطة أو الصغيرة •

ولكن ، كما سبق أن رأينا ، فقد تكونت هذه الطبقة من العديد من الفئات ، وهو ما دعا بعض الكتاب ، عند الكلام عنها ، ان يطلق عليها صفة الجمع ، بحيث يقال لها الطبقات المتوسطة •

هذه الطبقة (أو الطبقات) ستلعب دورا في الحياة الاجتماعية والسياسية ،

= التى عرفت تطورا سريعا لنظامها الصناعى، كانجلترا والمانيا والولايات المتحدة واليابان• وهو مايفسر لجوء هذه البلاد ، منذ وقت مبكر ، الى الربط بين التعليم العالى والاحتياجات الصناعية • اما البـلاد الأخرى ، كفرنسا وبلجيكا ونظرا لأن تطور نظامها الصناعى ، كان أكثر بطؤا من البلاد المذكورة أعلاه ، فقد تأخرت عملية الربط فيها بين التعليم والصناعة ، حتى اضحت الحاجة ماسة الى ذلك ، خاصة منذ بدء استخدام الكهرباء في تسيير الآلات •

Rioux, op. cit., note 5, p. 207.

يكتنفه ، في أغلب الأحيان ، الغموض : فعلى الصعيد الاقتصادى والاجتماعى ، ارتبطت مصالح هذه الطبقة ، بمصالح الطبقة البورجوازية ، اما على الصعيد السياسي ، ومع تقرير حق الاقتراع العام ، فان رغبتها في احتلال مكانة سياسية تمكنها من الدفاع عن مصالحها، جعلها تميل ناحية الطبقة الأكثر عددا ، وهو ما يفسر على طول التاريخ ، تناقض مواقف هذه الطبقة ، لأن مكانتها الاجتماعية الوسط ، املت عليها ان تتخذ موقفا وسطا ، ولا يمكنها ان تتخذ موقفا حاسما في الصراع الدائر بين البورجوازية والطبقة العاملة . هذه الطبقة الأخيرة التى كان عليها ان تفرض على المجتمع الصناعى والطبقة البورجوازية ، اصلاحات اجتماعية ، تصلح من شأنها ، وتخرجها من دائرة المعاناة التى كتبت عليها منذ اندلاع الثورة الصناعية ، الى وضع أفضل ، ان لم يمكنها من الحصول على نصيب كامل في الأرباح التى حققها النظام الرأسمالى ، فعلى الأقل يضمن لها مستوى من المعيشة ، يرتفع بها الى درجة الآدمية .

المطلب الثالث ــ الطبقة العمالية :

بهذا المطلب الثالث والأخير ، نصل في تحليلنا للمنظام الطبقى الذى أوجدته الثورة الصناعية الى أهم الطبقات من حيث استحوازها على اهتمام الكتاب والمؤرخين ، ومن حيث مدى ما تحملته من تضحيات لانجاح هذه الثورة ، ونعنى بها الطبقة العمالية(٣٦٢) .

ولعل أهم ما يميز هذه الطبقة ، هى أنها وليدة الثورة الصناعية : فلا انجلترا

---

(٣٦٢) أنظر في ذلك :

G. Dupeux, op. cit., note 299, pp. 141 et s.s.
A. L. Dunham, op. cit., note 273, pp. 154 et s.s.
Cl. Fohlen, op. cit., note 276, pp. 177 et s.s.
Cl. Fohlen, op. cit., note 274, pp. 32 et 33.
Rioux, op. cit., note 5, pp. 147 et s.s.
R. Marx, op. cit., note 273, pp. 163 et s.s.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 353 et s.s.

وبالاضافة الى هذه المراجع انظر ايضا :

Jourgen Kuczynski : les origines de la classe ouvicece. l'Univers des Connaissances — Hachette. Paris 1967 pp. 137 et s.s.

G. Lefranc : Histoire du travaif et des travailleurs Flammarion, Paris 1975, pp. 229 et s.s.

ولا فرنسا ، ولا أى من البلاد لأخرى التى قامت فيها الثورة الصناعية ، كان بهـا طبقة عمالية كتلك التى ولدتها الثورة الصناعية[٣٦٣] .

ويثور التساؤل عن أصل الأفراد المكونين لهذه الطبقة ، أو بمعنى آخر ، من أين جاءت هذه الطبقة ؟ لقد سبق ان رأينا ، عند الكلام عن العلاقة بين الثـورة الصناعية والثورة الزراعية ، ان حركة الأسيجة في انجلترا ، ساعدت على امداد الصناعات الناشئة بما تحتاجه من الأيدى العاملة[٣٦٤] ، بما أدت اليه من هجرة هذه الأيدى من الريف الى المدن الصناعية .

لذلك ، فمن الطبيعى ، حين الكلام عن أصل نشأة الطبقة العاملة ، ان يجمع الكتاب على ان الهجرة من الريف الى المدينة ، هى العامل الحاسم في تكوين الطبقة العاملة[٣٦٥] . لدرجة أصبح معها تعبير «الهجرة الزراعية l'exode rural »اصطلاحا شائع الاستخدام بين الكتاب والاقتصاديين والمؤرخين للدلالة على أصل العمـال الذين جاءوا ليعملوا في المصانع .

والملاحظة صحيحـة ، ولكنها تتطلب الـكثير من الايضـاحات ، والمزيد من التفصيل ، لاختلاف الكيفية التى تكونت بها الطبقة العاملة من بلد صناعى الى بلد آخر ، على الأخص ، معرفة ، هل نزوح هذه الأيدى العـاملة من الريف الى المدينة ، جاء نتيجة لجذب المدينة لهم ، أم لأن العمل الزراعى قد لفظهم ، فاضطروا الى مواجهة مصيرهم في المدن الصناعية ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل تختلف من بلد الى آخر ، ومن زمن الى زمن آخر .

فالطبقة العاملة ، خلافا لما رأيناه بالنسبة للطبقة البورجوازية ، وللطبقـة المتوسطة ، لا يمكن « التعميم » ، بالنسبة لها . فلئن كانت الهجرة من القرى الى المدن الصناعية سببا مباشرا في نشوء الطبقة العاملة ، فان هناك العديد من العوامل الأخرى ، ساهمت في تكوين هذه الطبقة ، هذه العوامل اختلفت من بلد الى آخر ، بحيث تركت آثارها على الطبقة العمالية التى تكونت في كل بلد . فيقتضي الأمر اذن ، الوقوف على الكيفية التى نشأت بها الطبقة العاملة في كل بلد من البلاد التى وقعت فيها الثورة الصناعية .

---

(٣٦٣) Lefranc, op. cit., note 362, p. 229.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 361 et 362.

(٣٦٤) راجع ما سبق ، ص ٦٣ وما بعدها

(٣٦٥) Fohlen, op. cit., note 274, p. 32.
R. Rémond, op. cit., note 293, p. 119.

ولكن هذا التباين في نشأة الطبقة العاملة ، لا يمنع من وجود بعض العوامل المشتركة في ميلاد هذه الطبقة ، بالنسبة لكافة الدول ، أهمها بالطبع ، ان تكوين هذه الطبقة كان نتيجة وسببا لنشأة المدن الصناعية الكبرى ، واقامة المصنع الحديث(٣٦٦) .

كذلك ، فان دراسة وتحليل أسباب نشأة الطبقة العاملة ، تدعونا ، قبل التعرض للموضوعات المشار اليها أعلاه ، الى ابداء بعض الملاحظات الأولية .

لذلك ، نقترح لدراسة هذه الطبقة ، ان نبدأ بهذه الملاحظات الأولية (**البند الأول**) ، ثم نبين كيف تطورت المدينة الصناعية وكيف نشأ المصنع بصورته الحديثة (**البند الثانى**) ، لنتمم هذه الدراسة ، ببيان الكيفية التى تكونت بها الطبقة العاملة في كل بلد صناعى على حدة (**البند الثالث**) .

البند الأول ـ ملاحظات أولية على نشأة الطبقة العاملة :

ولعل أولى هذه الملاحظات ، هو ما سبق ان بيناه من ان البروليتاريا سابقة في وجودها على الثورة الصناعية ، فالبروليتارى le prolétaire وجد في المجتمعات الرومانية وكان يقصد به الشخص الفقير المعدم ، ويقصد به بعد ذلك كل شخص لا يمكنه ان يحصل على ما يعيش به الا ببيع قوة عملة الى مالكى وسائل الانتاج . اذن ، فالبروليتارى بهذا المعنى وجد في كل المجتمعات السابقة على وقوع الثورة الصناعية .

فقد وجد « البورليتارى » أولا ، في المناطق الزراعية ، في شكل عمال الزراعة المياومين ، الذين لا يملكون أرضا ، بل يعيشون من عملهم المأجور ومما كانت تقدمه لهم المقاطعات الزراعية من تسهيلات تساعدهم على الحياة ، كما سبق ان بينا بالنسبة لطبقة الـ Squatters أو Cottagers ، التى حرمت من الاستفادة من

---

(٣٦٦) ولعل ظهور المصنع بصورته الحديثة ، هو ما دعا ماركس الى التمييز بينه وبين الورش السابقة عليه ، فبينما كان يطلق على هذه الورش (كما سبق ان بينا هامش ٣٠٤) لفظ Manufacture (المانيفاكتوره) ، نجده يطلق على المصانع التى وجدت بعد الثورة الصناعية ، لفظ Machinofacture ، (ماشينو فاكتوره) ، اى الورشة التى تسيرها الآلة : فالورش كانت تتميز باعتمادها على القوى الانسانية ، دون القوى المحركة التى عرفتها الثورة الصناعية ، اما المصنع الحديثة ، فبدأ يعتمد على قوى محركة جديدة ، كقوة المياه (هيدروليك) ، أو البخار ، أو التشبيد الميكانيكى .

Fohlen, op. cit., note 276, p. 178.

الأرض المشاع في اعقاب حركة الأسيجة بانجلترا[٣٦٧] . هذه الفئة من العمال ازدادت عددا بالطبع وخاصة في انجلترا ، في أعقاب حركة الأسيجة ، بحيث تزايد عددها بشكل ملحوظ اعتبارا من نهاية القرن السادس عشر ، وحتى مطلع القرن الثامن عشر ، وقد نجم عن ذلك ما أطلق عليه الكتاب « تراجيديا اجتماعية une tragédie Sociale »[٣٦٨] ، حيث ان هؤلاء العمال المياومين ، بالاضافة لصغار الملاك أيضا ، انتزع منهم جزء من النشاط الذى كانوا يعتمدون عليه في معيشتهم ، بحيث لم يبق أمامهم الا الرحيل الى المدينة بحثا عن عمل ، أو قبول عمل « صناعى يدوى » للقيام به في منازلهم[٣٦٩] .

اذن ، فهذا النموذج من « البروليتاريا » ، وجد قبل الثورة الصناعية ، ولكن سريعا ما استعانت به في سد حاجتها الى الأيدى العاملة .

ولكن هذا النموذج من البروليتاريا ، كان بطبيعته متفرقا . خلافا لنموذج آخر من البروليتاريا ، كان « مركزا » في مكان واحد ، ونقصد بذلك بعض التجمعات العمالية التى وجدت ، حتى قبل الثورة الصناعية ، في بعض الورش الصناعية الكبيرة .

ففى جميع دول أوربا ، وجدت حتى قبل الثورة الصناعية ، مجموعة من الورش الصناعية الكبيرة ، منها الورش الملكية ومنها الورش الأهلية ، التى كانت تستخدم مئات من العمال[٣٧٠] .

---

(٣٦٧) راجع ما سبق ، ص ٥٠ وما بعدها

(٣٦٨) Fohlen, op. cit., note 276, p. 177.
Mantoux, op. cit., note 2, p. 176.

(٣٦٩) طبعا ، كان أمام هؤلاء اختيار ثالث ، هو اللجوء الى كنائس المقاطعات la Paroisse التى كانت تلتزم بموجب قانون « الفقراء » الصادر في عهد الملكة اليزابيث والذى أعيد صياغته بموجب قانون ١٦٠١ ، ان تتولى اعاله كل من لا يجد عملا لاعالته ، أو بمعنى أدق من وصل الى حد التسول لعدم وجود عمل ، بفضل ضريبة محلية . ولكن هؤلاء « الفقراء » كانوا يلزمون بالمقابل بالعمل في « دور العمل The Workhouses » ويخضعون لنظام صارم يقرب من السجن أكثر منه من « مأوى للفقراء » .

راجع ما سبق ، ص ١٢١ وأنظر أيضا فيما بعد ص ٢٢٨ .

(٣٧٠) منها على سبيل المثال لا الحصر : ورش فان ربيه لنسيج في ابيفيل (des Van Robais à Abbeville) ، والورش الملكية لصناعة الأغطية في لوديف lodève وكلاهما بفرنسا : ومنها أيضا ورش صناعة الحديد في لومب Lombe بانجلترا ، وورش صناعة النسيج في موراڤي Moravie بتشيكوسلوفاكيا ، وورش صناعة القطن في فرفييه Verviers ببلجيكا .

Fohlen, op. cit., note 276, p. 178.

هذه الورش الكبيرة ، كانت تتخذ احدى صورتين : أولى هذه الصور ، هى تجميع عدد كبير من العمال ذوى المهن المختلفة ، يعملون في نفس الورشة ، تحت امرة صاحب العمل ، ولابد للسلع حتى تكتمل ، ان تمر بين أيديهم جميعا . مثال ذلك ، الورش التى كانت متخصصة في انتاج عربات الركوب التى تجرها الجياد ، فهذه المركبات كانت تستلزم حتى تخرج في صورتها النهائية ، اشتراك عدد كبير من العمال ذوى التخصصات المختلفة (نجارين حدادين ، سراجين ، نقاشين ..) . اما الصورة الثانية للورشة الصناعية ، فهى تلك التى يجتمع فيها عدد كبير من العمال الذين يمارسون نفس المهنة ، وينتجون نفس السلعة ، كصناعة الورق ، وحروف المطابع ، .. الخ . فيقوم صاحب العمل بجمع عدد كبير منهم ليعلموا تحت امرته في مكان واحد .

وهكذا ، كانت الورشة الصناعية الكبيرة ، قبل الثورة الصناعية ، تعمل تارة على تقسيم العمل وتطويره في مهنة واحدة ، او الجمع والتنسيق بين مجموعة من المهن المختلفة ، ولكنها في الحالتين ، كانت تؤدى الى تجمع العمال في مكان واحد . ومع ذلك فان هذا التجمع « البروليتارى » يختلف عن التجمع الذى أوجده المصنع الحديث[٣٧١] .

ويأتى هذا الاختلاف أولا ، مما سبق قوله ، من اختلاف الطاقة المستخدمة في الورشة الصناعية (الطاقة اليدوية والعمل اليدوى) عن تلك المستخدمة في المصانع الحديثة (الطاقة المعتمدة على مصدر المياه «هيدروليكية » أو الآلة البخارية مع الأخذ بأساليب ميكانيكية) . كذلك ، فان هناك اختلافا جذريا بين التنظيم الداخلى لكل من الورشة والمصنع على نحو ما سنرى بعد قليل .

ونلاحظ أخيرا ، بشأن وجود « البروليتارى » قبل الثورة الصناعية ، ان هذه الأخيرة ، وان كانت قد أدت الى وجود « المصنع بشكله الحديث » ، الا أنها أيضا ساعدت على تطوير نظام للعمل يتعارض تماما مع فكرة المصنع ، ونقصد به العمل المنزلى أو ما يطلق عليه بالانجليزية Putting out system أو Domestic System, أو Sweating System وهو ما يطلق عليه بالفرنسية Sous-traitance وصورته ، ان يعهد صاحب العمل للعامل ، بالعمل ، ليقوم به هذا الأخير في منزله .

ورغم ما يدعو للعجب ، من القول بأن الثورة الصناعية شجعت (على الأقل في بدايتها وان كنا ما نزال نسمع عن هذا النوع من العمل حتى في الوقت الحاضر)

---

(٣٧١) Fohlen, op. cit., note 276, p. 179.

(٣٧٢) A. L. Dunham : op. cit., note 273, p. 156.

العمل المنزلى ، فان ذلك حقيقة ، اقتضتها أولا الظروف العملية ، ثم اتضح لأصحاب الأعمال انها تحقق لهم بعض الفوائد ٠

فمن الناحية العملية ، ترتب على الابتكارات والاختراعات في مجال الصناعة، تقدم بعض مراحل صناعة السلعة الواحدة عن مراحلها الأخرى ، لذلك كانت المراحل المتقدمة يتم القيام بها في المصانع، اما المراحل المتخلفة فيتم انجازها في منازل العمال٠ ولعل أكثر الأمثلة دلالة على ذلك هى صناعة الغزل والنسيج : فكما سبق أن رأينا[٣٧٣] ، ترتب على اختلال التقدم بين صناعتى الغزل والنسيج ، ان كانت بعض مراحل هذه الصناعة (تجهيز وغزل الخيوط) يتم في داخل المصانع وخاصة بعد اختراع مغزل جينى ، اما النسيج فظل عملا يدويا يتم القيام به في المنازل ، ولكن العمليات النهائية كالصباغة ، كانت تتم مرة ثانية داخل المصنع ٠ وبذلك ، يتضح ان مراحل هذه الصناعة كانت مجزأة بين العمل المنزلى والعمل في المصنع الحديث٠ وقد نجم عن ذلك اتساع ملحوظ في العمل المنزلى ، وخاصة فيما يتعلق بالنسيج ، وخاصة الأنسجة القطنية ، وذلك اعتبارا من نهاية القرن الثامن عشر ، مما ترتب عليه أيضا ان تمكن بعض العمال الزراعيين من البقاء في الريف اعتمادا على هذا النشاط الصناعى الاضافي ، ولكن ذلك لا يمنع من ان هؤلاء كانوا يعيشون على حد الكفاف ، ويتلقون أبخس الأجور[٣٧٤] ٠ ولعل هذا النوع من العمل ، هو الذى أخر قليلا ظهور التحولات الاجتماعية الناشئة عن الثورة الصناعية ٠

لقد كان هذا النظام ، يحقق على الأقل ، فائدتين للرأسمالى : فمن جهة كان هذا النظام يساعد على تخفيض حجم الاستثمارات اللازمة ، وخاصة فيما يتعلق باقامة المبانى أو استخدام الطاقة أو استهلاك الآلات ٠ ومن جهة أخرى ، فان هذا

---

(٣٧٣) راجع ما سبق ، ص ٣١ وما بعدها ٠

(٣٧٤) ففى انجلترا مثلا ، وحتى عام ١٨٢٥ بلغ عدد النساجين العاملين في المنازل مائتين وخمسين الف رب اسرة (٢٥٠٫٠٠٠) ، كان بعضهم يعتمد كلية على ما يتلقاه من اجر مقابل عمله المنزلى ، وبعضهم كان يعتمد على هذا الأجر لاستكمال دخله الذى كان يعتمد ايضا فيه على القيام ببعض النشاطات الزراعية ٠ وقد بلغ أقصى دخل تمكنوا من الحصول عليه من هذا العمل المنزلى ٢٣ شلنا أسبوعيا (عام ١٨٠٥) وهبط هذا الأجر الى ست شلنات فقط عام ١٨٣١ ٠

Fohlen, op. cit., note 276, p. 80.

ونفس الصورة نقابلها أيضا في فرنسا ، فلقد ظل العمل المنزلى في بعض المناطق يحتل مكانة هامة ، وخاصة في صناعة النسيج وكان القائمون معا أيضا من عمال الزراعة الذين لم يكن ليكفيهم دخلهم الزراعى وحده ، فلجأوا الى نشاط صناعى اضافي ٠

A. L. Dunham, op. cit., note 273, p. 156.

النظـام كان يؤدى أيضا الى خفض تفقات الأيدى العاملة ، حيث كان حسـاب الأجور في العمل المنزلى يتم بالقطعة بدلا من حساب الأجر بالساعة كما هو الحال في المصنع ٠

ولعل من الملاحظات التى يتعين ابداؤها أيضا في هذا المجال ، أن التقدم العلمى في مجال الاختراعات ، قد يساعد على الابقـاء على العمل المنزلى بدلا من القضـاء عليه : مثال ذلك ، آلة الحياكة ، فقد ساعد اختراع هذه الآلة على الابقـاء ، بل والتوسع ، في العمل المنزلى ٠ فهذه الآلة لا تحتـاج الى مكان كبير ، ولا الى مجهود عضلى خاص ، لذلك ، واعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر أضحت هذه الآلة هى مصدر العيش، بالنسبة للمهاجرين الفقراء الذين لا عمل لهم، في الولايات المتحدة الأمريكية : خاصة في الموانى التى كانت تسـتقبل هؤلاء المهـاجريين ، كبوسطن وفيلادلفيا ونيويورك(٥٧٣) ٠

هذه الملاحظات الأولية ، التى حرصنا على ابدائها ، انما أردنا بها ان نبين ، ان البروليتاريا كانت سابقة على الثورة الصناعية ، وان « البروليتارى » وجـد أيضا قبلها ، وذلك حتى لا نقع في خطـأ التعميم حين الكلام عن الآثار الاجتمـاعية للثورة الصناعية ٠

كذلك ، وجدت قبل الثورة الصناعية ، بعض « التجمعـات » العمالية ، في نطاق الورش الصناعية ٠

هذه الملاحظات ، تدعونا الى التسـاؤل : وما هو اذن أثر الثورة الصناعية ، بالنسبة لهذه الطبقة ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل هى موضوع الصفحات التالية ، ولكن ابتداء ، من المسلم به ان الثورة الصناعية هى التى ساعدت على ميلاد هذه « الطبقة » بمعنى ان وجود « البروليتاريا » أو بعض « التجمعات العمالية » ، كانت ظواهر فردية ومحدودة الأهمية ، ولكن الثورة الصناعية هى التى خلقت من هؤلاء الأفراد ومن هذه التجمعات طبقة واحدة ، وخاصة ان هذه التجمعات العمالية ، أخذت في ظل الثورة الصناعية اشـكالا جديدة ، هى المدينة الصناعية والمصنع الحديث ، تجمعات ساعدت على خلق هذه الطبقة الجديدة ، وارتبطت بها ٠

---

(٣٧٥) ولعل بعض الصور المرسومة آنذاك تعطينا فكرة عن العمل المنزلى : ففى مكان قليل الانارة، يفتقر الى أبسط الشروط الصحية ، وفي وسـط أطفال أعياهم الفقر ، تنكب عاملة على آلة الحيـاكة لتنهى أكبر عدد ممكن من قطع الملابس الجاهزة ، وبسبب قيام النسـاء وتنافسهن في هذا المجال ظلت الأجور منخفضة الى حد كبير ٠

Fohlen, op. cit., note 276, p. 182.

البند الثاني ـ المدن الصناعية والمصنع الحديث :

(أ) المدن الصناعية :

لقد كانت الهجرة من الريف الى المدينة ، هى العامل الأساسي في تكوين الطبقة العاملة .. لقد اجتذبت المدينة الأيدى العاملة ، طمعا في عمل لكل السواعد العاطلة ، وأملا في طعام لكل الأفواه الجائعة(٣٧٥) ، وبذلك ، بدأت « المدينة الصناعية » تتسع ويزداد سكانها بشكل لم يحدث من قبل . هذه الحقيقة ، التى يجمع عليها الكتاب ، تصدق بالنسبة لكل الدول التى عرفت الصناعة فيها انطلاقتها . ويمكن التدليل على ذلك ، بالعديد من المدن الصناعية ، سواء في انجلترا أو في فرنسا . ولكن قبل ان نفعل ، نود ابداء ملاحظة هامة ، مؤداها ان الطبقة البورجوازية نجحت استنادا على فكرة الحريات ، في اقامة النظام القانونى الذى يخدم مصالحها(٣٧٦) وفيما يتعلق بنشأة المدن الصناعية ، وبالذات الهجرة من القرية الى المدينة ، نشير الى مدى ما ساهمت به فكرة حماية « التنقل » بوجه خاص ، واطلاق الحريات الفردية بوجه عام ، في مد الصناعة بما تحتاجه من أيد عاملة .

هذه الملاحظة تصدق بالنسبة لكل الدول الصناعية ، التى اقتضي تجميع الأيدى العاملة فيها في المراكز الصناعية الكبرى التحرر من كل القيود المفروضة على حرية الطبقات الفقيرة في الانتقال من مكان الى آخر ، ومن عمل الى آخر .

ففى انجلترا مثلا ، أدت حركة الأسيجة ، كما سبق ان رأينا ، الى القضاء على طبقة صغار الملاك ، والمستأجرين الزراعيين ، والعمال الزراعيين ، فوقع بين صفوف هؤلاء ، أزمة بطالة حادة ، وكان لابد من ايجاد وسيلة لسد حاجة هؤلاء المتعطلين الى الطعام . فكان ان صدرت . تحت تأثير أفكار البوريتيان ، في عهد اليزابيث ، قوانين « الفقر والفقراء » ، التى تضمنتها « لائحة اليزابيث » الصادرة

---

(٣٧٥) فحتى فرنسا ، حيث لم يحدث فيها حركة للاسيجة ، على غرار ما حدث في انجلترا ، وعلى الرغم من الغاء الثورة الفرنسية للامتيازات الطبقية ، فان حالة الفلاحين كانت لا تقل بؤسا عن اقرانهم الانجليز ، انظر مثلا ما يقوله أحد هؤلاء الفلاحين عام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) : « ان عدد اطفالنا يلقى الياس في قلوبنا ، اننا لا نكاد نجد ما نقدمه لهم كغذاء ، او ما نكسوهم به ، ان كلا منا لديه من ثمانية الى تسة أطفال ، فكيف نفعل ؟ » كما يقرر أحد الكتاب عندما يصف هذه الفترة ، ان « ($\frac{1}{10}$) عشر سكان القرى يمارسون التسول من فترة الى أخرى . من مزرعة الى أخرى ، قطعا من الخبز ، وتكاد هذه النسبة تصل الى $\frac{1}{5}$ خمس السكان في المناطق الشمالية من البلاد » .
من يمتنع عن القيام بالعمل الذى يوكل اليه في هذه المنازل .
Lefrane, op. cit., note 362, p. 230.

(٣٧٦) أنظر فيما بعد ، الفصل الثالث من هذه للدراسة .

عام ١٦٠١ ٠ بموجب هذه القوانين ، كانت كنائس المقاطعات ، ملتزمة باستقبال «فقراء المقاطعة» واعالتهم ، عن طريق قيامهم ببعض الأعمال في منازل العمل ٠ وكانت موارد المقاطعات في ، هذا الصدد ، تعتمد على ضريبة مفروضة على العاملين والقادرين من أبناء المقاطعة ، لذلك ، كانت « اعتمادات » الكنائس المخصصة للفقراء تختلف من مقاطعة لأخرى وتختلف معها قدرات كل كنيسة ، مما كان يدفع بالمتسولين والشحاذين الى اللجوء الى « الكنائس الأكثر قدرة » ، لذلك بدأت الكنائس ترفض « العاطلين » من غير أبناء المقاطعة ، وكانت قوانين « الفقراء » تسمح لكل كنيسة يلجأ اليها أحد المتعطلين من غير أبناء المقاطعة ، بارساله الى الكنيسة التى يتبعها ، وبذلك امتنع انتقال هؤلاء « المتعطلين الفقراء الذين يعيشون عالة على المجتمع والكنيسة » من مقاطعة الى أخرى ، أى حرموا من احدى الحريات الأساسية للانسان ، وهى حرية التنقل(٣٧٨) ٠

ولكن الصناعة الحديثة ، كانت بحاجة الى أيد عاملة ، فكيف يتسنى لها الحصول عليها ؟ اجابة على هذا التساؤل ، أعلن وليام بت William Pitt (٣٧٩) في مجلس العموم « ان قوانين عدم التنقل ، تمنع العامل من الانتقال الى أماكن العمل

---

(٣٧٧) راجع ما سبق ، ص ٢٣٤ وما بعدها ٠

(٣٧٨) عموما فان حياة هؤلاء الفقراء ، كانت تقترب من حياة المسجونين ، فقد كانوا يجمعون في بيوت اطلق عليها بيوت العمل Workhouses ، وكان بامكان القضاة ان يحكموا بالسجن على كل من يمتنع عن القيام بالعمل الذى يوكل اليه في هذه المنازل ٠

وتجدر الملاحظة ، ان نفس هذه الفكرة ، طبقت أيضا في هولندا ٠

راجع في ذلك :

Pierre Jaccard, op. cit., Note 302, p. 217.

(٣٧٩) ويتعلق الأمر هنا بويليام بت الثانى : فويليام بت الأب كان الكونت الأول بمقاطعة « شاتهام Chatham الانجليزية» وسمى بت الأول ، ولد في لندن عام ١٧٠٨ وتوفي ١٧٧٨ كان عضوا بالبرلمان ممثلا لحزب « الويجز » وساهم في اسقاط حكومة Walpole ، وقد ساهم مساهمة فعالة في نجاح انجلترا في هزيمة فرنسا خاصة في كندا والهند ، وكان من معارضي معاهدة الصلح مع فرنسا عام ١٧٦٣ ، وعين رئيسا للوزراء عام ١٧٦٦ ولكن حالته الصحية اضطرته للاستقالة عام ١٧٦٨ ٠

اما ابنه ويليام المسمى بـ بت الثانى ، والذى ذكرناه في المتن ، فقد ولد عام ١٧٥٩ وتوفي عام ١٨٠٦ ، وكان من رجال السياسة المرموقين في بريطانيا ، وعمل رئيسا لوزرائها خلال الفترة من ١٧٨٣ حتى ١٨٠٧ ، ولم يتردد خلال فترة حكمه في توقيع معاهدة سلام مع فرنسا عام ١٧٨٦ ، وأبدى تشجيعه في البداية للثورة الفرنسية ، ولكنه سرعان ما شعر بالقلق من امتداد تأثير الثورة الفرنسية فكريا خارج حدود فرنسا، فقاد حملة ضد فرنسا اعتبارا من ١٧٩٣ : وفي عام ١٨٠٠ ضم ايرلندا للمملكة المتحدة ، ولكنه استقال عام ١٨٠١ حين رفض الملك العفو عن المسيحيين الكاثوليك ، ولكنه سرعان ما عاد للحكم عام ١٨٠٤ ليتزعم حركة مقاومة ومواجهة نابليون ٠

حيث يمكنه أن يجد عملا وان يبيع قوة عمله في أفضل الظروف ، كما أنها تحرم صاحب العمل من استخدام الرجل المناسب القادر على اعطائه أفضل مردودية عمل مقابل الأجر الذى حصل عليه »(٣٨٠) • لذلك ، صدر قانون عام ١٧٩٥ في انجلترا ، يعيد حرية التنقل للأيدى العاملة ، ويحرم على المقاطعات اعادة ترحيل العاطلين الى مقاطعاتهم الأصلية ، وهكذا أصبح في مقدور الأيدى العاملة ، ان تنتقل الى أماكن التجمع بكل حرية(٣٨٠) •

نفس هذه الصورة نصادفها في فرنسا ، انما على نحو مختلف ، فالثورة الفرنسية استجابت لمطالب الطبقات الشعبية ، بالغاء «الامتيازات الطبقية للنبلاء» ، ولكن ذلك لم يؤد ، رغم توزيع بعض الأراضي على الطبقات المعدمة ، الى تغيير حالة هذه الطبقة بصورة جذرية ، فتقسيم الأرض الى قطع صغيرة ، أدى الى ظهور ملكيات صغيرة غير « اقتصادية »الاستغلال ، تحتاج الى رؤوس أموال هامة حتى يمكن ان تدر دخلا معقولا ، في حين ان نظام الضرائب كان يحمل هذه الطبقة الفقيرة أعباء اضافية ، دفعت بالعديد منهم الى هجرة أراضيهم ، وخاصة حين بدأ « العمل المنزلى » كوسيلة للحصول على دخل اضافي ، لا يكفى لسد حاجة هذه الأسرة « الكبيرة » عددا ، وحين اكتشف هؤلاء ان هذا الاجراءات التى اتخذتها الثورة انما افاد منها كبار الملاك الزراعيين ، فكان على صغارهم الاختيار اما ان يستدينوا ويتحملوا الحياة على حد الكفاف ، واما أن يهجروا الريف ويلجأوا الى المدينة ، فأختاروا هذا الحل الأخير ، وبذلك ، كانت الدعوة الى التحرر من سيطرة النبلاء ، مرة أخرى ، وراء اندفاع هذه الأيدى العاملة ناحية المدينة الصناعية(٣٨١) ، وصادف

---

(٣٨٠) Fohlen, op. cit., note 274, p. 32
A. G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 105.

(٣٨٠) كذلك ، فان من العوائق التى كانت قائمة امام انتقال الأيدى العاملة ، كان ذلك « العقد المؤبد » الذى كان يفرضه ارباب الأعمال على العمال ، وخاصة في الصناعات التعدينية ، حيث كانوا يخشون الا يجدوا الأيدى العاملة الكافية ، فكانوا يلجاون الى فرض « عقد مؤبد » على العامل ، بحيث كان العامل يباع ويشترى مع المنجم أو المحجر ، هنا أيضا كان لابد من تحرير الأيدى العاملة وباسم الحرية الشخصية وحرية العمل ، اصدر البرلمان عدة قوانين في الفترة من ١٧٧٤ الى ١٧٩٩ ، الغت هذه الصورة من العبودية في قطاع المحاجر ، فتمكنت الأيدى العاملة في هذا القطاع من التوجه ناحية الصناعات الجديدة •

Fohlen, op. cit., 274, p. 33.

(٣٨١) Lefranc, op. cit., note 362, p. 234.
Pierre Jaccard, op. cit., note pp. 194 et s.s.

ذلك أيضا تحرير العمل من كل القيود ، بالغاء كافة التجمعات المهنية (بموجب قانون آلارد la loi d'Allarde) ، بحيث أصبح في مقدور كل فرد أن يمارس ما يشاء من عمل بشرط الالتزام باللوائح التنظيمية ، وبذلك ، صار الباب مفتوحا أمام الرأسمالية الصاعدة ، في الحصول على ما تشاء من أيد عاملة ، حيث حررت هذه الأيدى العاملة من كل « القيود القانونية » لتقع في شرك « الحاجة الاقتصادية »(٣٨٢) .

لقد كانت حرية انتقال الأيدى العاملة ، ضرورة لابد منها ، لتغذية الصناعات الناشئة بما تحتاجه من هذه الأيدى . فالصناعة الحديثة ، بما ترمى اليه من تحقيق أكبر قدر من تقسيم العمل ، تود ، حرصا على تخفيض نفقات الانتاج ، ان تجمع في أضيق حيز ممكن مواردها من الأيدى العاملة والمادة الأولية ، ولما كانت المادة الاولية تحتاج الى نقل مستمر ، بينما الأيدى العاملة تنتقل من أماكن سكنها الى المدينة الصناعية مرة واحدة ، كان من الأفضل اجتذاب الأيدى العاملة ناحية المدينة الصناعية ، التى تكونت أولا حول مصادر الطاقة ، ثم باختراع الآلة البخارية ، صارت تقوم حول اماكن المادة الأولية .

لذلك ، كان الارتباط وثيقا بين التطور الصناعى واطلاق حرية التنقل والعمل ، في خلق المدن الصناعية(٣٨٣) ، بحيث أطلق الكتاب على القرن التاسع عشر أنه زمن « المدن الأخطبوطية » Villes tentaculaires ، دلالة على ما عرفته هذه المدن الصناعية من تطور وتضخم خلال هذه الفترة من الزمن : فالتجمعات البشرية التى تزيد على ٥٠٠٠ شخص لم تكن تزيد في مجموعها عام ١٨٠٠ عن ٧ ٪ من سكان العالم ، فبلغت عام ١٨٥٠ ـ ١٣ ٪ لتصل الى ٢٥ ٪ عام ١٩٠٠ ، ومع ذلك ، فهذه الأرقام لا تعكس بدقة كيف تطورت « التجمعات الصناعية » ، ويقتضي الأمر مزيدا من التحديد على الصعيد الجغرافي : فبالنسبة لأفريقيا وآسيا (عدا اليابان وبعض

---

(٣٨٢) Fohlen, op. cit., note 274, p. 46.
G. Dupeux, op. cit., note 299, p. 141.
S. Epsztein, op. cit., note 279, p. 85.

(٣٨٣) ذلك ان اطلاق حرية التنقل والعمل لا تكفى لاحداث الهجرة من الريف الى المدينة اذا لم يكن هناك تطور اقتصادى يدعو الى ذلك . والدليل على هذا الارتباط ، هو ما حدث في روسيا القيصرية في أوائل القرن التاسع عشر ، ذلك ان تحرير الفلاحين من العبودية ، والسماح لهم بالتنقل، لم يحدث في روسيا هجرة للايدى العاملة نحو المدينة على نحو ما حدث في البلاد الصناعية آنذاك، ذلك ان الصناعة في روسيا لم تكن قد تطورت آنذاك بقدر يسمح بامتصاص هذه الأيدى العاملة .
Rioux, op. cit., note 5, P. 149.

الموانىء التى أزداد عدد سكانها بسبب تطور التجارة الدولية) لم يحدث ــ على صعيد المدن ــ تطور يذكر . فتطور المدن ، والصناعية منها بالذات . كان أكثر وضوحا في البلاد الصناعية ، وخاصة في أوربا الغربية ، حيث كان يترتب على كل تطور صناعى في مدينة ، ازدياد عدد سكان هذه المدينة(٣٨٤) : ففى بداية القرن الثامن عشر مثلا ، كانت مدينة ليدز Leeds الانجليزية أكثر أهمية من مانشستر Manchester ، بينما في عام ١٧٧٥ نجد ليدز لا يتجاوز عدد سكانها ١٧ ألفا ، بينما بلغ عدد سكانها مانشستر ٣٠ ألفا وأخذت في الازدياد ، نتيجة لانتشار آلات النسيج الميكانيكية فيها(٣٨٥) .

فاذا واصلنا تحليل تطور المدينة الصناعية ، لوجدنا ان الاتجاه كان يسير نحو اتساع المدن الكبرى : فالمدن التى تضم أكثر من ١٠٠ الف ساكن كانت تمثل نسبة أقل من ٢٪ من سكان أوربا : فاذا بها تبلغ نسبة ١٥٪ عام ١٩١٠، بل ان المدن الأكثر أهمية تتسع بصورة أسرع وأكبر ، لقد بدأ عصر المدن الكبرى ، وفي هذا النطاق أيضا فرض قانون « البقاء للأقوى » : لقد تضاعف عدد سكان لندن خلال ثلاثين عاما (١٨٥٠ ــ ١٨٨٠) ليبلغ ٤ ملايين نسمة من مجموع تعداد سكان انجلترا البالغ ٣٠ مليون نسمة ، بينما بلغ عدد سكان مدينة باريس أكثر من ٣ ملايين نسمة أى حوالى ١/١٠ من سكان فرنسا . لقد تزايد عدد سكان المدن لكبرى ، وخاصة العواصم : خلال القرن التاسع عشر بشكل لم يسبق له مثيل ، لقد تزايد عدد سكان مدينة سان ــ بيترسبورج(٣٨٦) بنسبة ٣٠٠ ٪ ، بينما بلغت نسبة التزايد

---

(٣٨٤) انظر في ذلك :

R. Marx, op. cit., note 273, pp. 300, 301, 302, 303.

وأيضا :

Philippe Ariès : histoire des populations françaises
Coll "histoire", ed. du Seuil, Paris 1971.

وخاصة ، تطور عدد السكان في كل من انجلترا وفرنسا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، والهجرة في اتجاه المدينة والتحول الى المجتمع الصناعى .

(٣٨٥) Rioux, op. cit., note 5, p. 149.
Mantoux, op. cit., note 2, p. 369.

(٣٨٦) وهى تعرف الآن باسم مدينة ليننجراد Leningrad وكانت تسمى سان بيتر سبورج حتى عام ١٩١٤ ، حين اطلق عليها اسم Petrograd ، ثم اتخذت اسمها الحالى اعتبارا من ١٩٢٤ ، تعتبر من أهم الموانى الروسية على البلطيق ومن اهم المراكز الصناعية على الاطلاق ، وتأتى في مرتبة تالية بعد موسكو مباشرة من حيث تعدادها واهميتها الاقتصادية .

في السكان ٤٩٠ ٪ بالنسبة لمدينة فيينا[٣٨٧] ، اما برلين ، فقد حطمت كل الأرقام القياسية اذ بلغت نسبة الزيادة في سكانها ٨٧٢ ٪ ، واحتلت مكانة الصدارة في مدن الامبراطورية الألمانية ، محتلة المكان الأول من حيث أعمال البنوك ، وصناعة النسيج : والتعليم ، وبها وجدت أكبر العائلات البورجوازية التى اشتهرت في عالم الصناعات الكيمائية والكهرباء ، والحديد ، أمثال سيمنس Simens وبورزيج Borsig .

لقد كان تطور المدينة الصناعية على هذا النحو ، يتفق ومصالح الطبقة البورجوازية ، فهذه المدن الكبرى الصناعية تحتل مواقع استراتيجية ، يجعلها في مركز الأهمية بالنسبة لوسائل النقل الحديثة المتطورة ، وخاصة النقل البحرى والنهرى ، والنقل بالسكك الحديدية[٣٨٨] ، فهى تسيطر على شبكات النقل ، بحيث يصبح في الامكان ان تسيطر على ما يحيط بها من مدن أخرى وقرى ، وتصبح السوق في متناول المدينة الصناعية ، لكى تقوم بتصريف منتوجاتها ، وخاصة ان تركز الانتاج الصناعى بها وأعمال البنوك وازدهار العمليات التجارية بها ، كل ذلك يساعد المنتجين فيها على الحصول على أفضل الأسعار من شركات النقل .

وهكذا أضحت العلاقات واضحة والارتباط قويا بين التطور الصناعى وتطور المدن الصناعية ، فالصناعة الحديثة تطلبت المزيد من الأيدى العاملة ، وأدت أيضا الى ازدياد مستمر في الخدمات المطلوبة سواء في العمليات المرتبطة بالصناعة (أعمال البنوك والمحاماة والوظائف العمومية .. الخ) ، وهكذا يزداد عدد سكان المدينة الصناعية ، وبازدياد أنشطتها يقبل عليها المزيد من الأيدى العاملة : التى تزيد من الحاجة الى خدمات جديدة ، فيتوالى اتساع المدينة وازدياد عدد سكانها بحيث ان ٤٥ ٪ من سكان أهم ٧٢ مدينة صناعية عام ١٨٥١ كانوا قد ولدوا خارج هذه المدن ووفدوا اليها على أثر الهجرة من الريف الى المدينة (انظر جدول رقم ١٠) ، لذلك، فان المدينة القديمة ذات الوظائف الادارية والدينية والعسكرية ، لم تعد تفى باحتياجات الاقتصاد الصناعى ، ولذلك ، بدأت المدن القديمة ذات الشهرة القائمة على كونها من المراكز الادارية الهامة أو العسكرية تنزوى أمام اتساع المدينة

---

(٣٨٧) Vienne عاصمة النمسا ، يبلغ تعداد سكان حاليا ١٫٦٤٠٫٠٠٠ نسمة ؛ وتقع على نهر الدانوب ، وقد تطورت خاصة بفضل موقعها الهام حيث كانت تربط بفضل هذا الموقع بين اوربا الغربية ودول البلطيق ، وقد عرفت تطورا ملحوظا اعتبارا من القرن الثامن عشر بفضل نشاطها المالى والتجارى والسياسي ، وتأكد دورها الاقتصادى خلال القرن التاسع عشر بفضل استخدام نهر الدانوب كوسيلة للنقل النهرى وكذلك تطور السكك الحديدية .

(٣٨٨) راجع ما سبق ، ص ٦٧ وما بعدها .

الصناعية ، وبدأت هذه الأخيرة تحتل مكان الصدارة نظرا لتركز النشاط الاقتصادى بها ، وعلى الأخص ، الأنشطة الصناعية وعمليات البنوك ، وأنها ـ كما سبق القول، صارت مراكز لالتقاء خطوط النقل الحديثة وخاصة السكك الحديدية .

هذه المدينة الصناعية ، سرعان ما ستواجه مشاكل جديدة وصعبة : فهنـاك الشوارع والطرقات التى يتعين صيانتها (لندن مثلا كان بها ٨٥٠٠ كم من الشوارع عام ١٨٦٠)(٣٨٩) وانارة هذه الطرقات والشوارع بالغاز ثم الـكهرباء ، وتجهيـز المجارى العمومية ، وازالة القمامة ، وتوفير احتياجات هذه المدينة من مياه نظيفة ، ومواد غذائية ، وطاقة ، وحاجة المصانع أيضا الى المواد الأولية . ولكن الاهتمـام بتخطيط المدينة الصناعية وتنظيمها على هذا النحو ، كان أيضا ذا طابع طبقى ، حيث كان يقف عند حدود الأحياء « الراقية » التى تسكنها الطبقات البورجوازية (سواء في ذلك البورجوازية الكبيرة أم المتوسطة والصغيرة) ما الاحياء الشعبية ، التى كانت تأوى البروليتاريا ، فكانت تعرف بطرقها الضيقة المتربة ، حيث تكاد الانارة تختفى منها ، ويتكدس فيها البشر بشكل يدل على مدى بؤس حياة العمال التى سنتعرض لها فيما بعد(٣٩٠) .

مثال للمدينة الصناعية : مدينة مانشستر الانجليزية :

في نهاية هذا العرض ، لخصائص المدينة الصناعية ، رأينا أن من المستحسن ان نورد مثلا تنطبق عليه التحليلات التى عرضناها ، وقد اخترنا مدينة مانشستر الانجليزية لاعطاء هذا المثال ، نظرا لأهميتها الصناعية ، ولكونها انجليزية فكانت أهم المدن الصناعية في أول دولة قامت فيهـا الثورة الصنـاعية ، لذلك فليس من المستغرب ان يتردد اسمها كمثال في أغلب كتابات المؤرخين وعلماء الاجتماع(٣٩١) .

---

(٣٨٩) Rioux, op. cit., note 5, p. 153.

(٣٩٠) انظر فيما بعد ، ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣٩١) فمدينة مانشستر هي المثـال الذى اعتمـد عليه العديد من الكتاب لوصف نشأة المدينة الصناعية انظر مثلا :

R. Marx, op. cit., note 273, p. 170.
Rioux, op. cit., note 5, p. 148.
Mantoux, op. cit., note 2, P. 369.

قطعا هناك العديد من المدن الأخـرى التى يمكن الاستعانة بها للتدليل على هذا التطور ، فهناك مثـلا مدينة باريس (انظر Rioux ص ١٥٤ وما بعدها) والعديد من المدن الفرنسية الأخـرى . وبالنسبة لانجلترا ، مدينة برمنجهام وشيفلد وغيرهما ، انظر Montoux ص ٤٧٧ وما بعدها . وانظر كذلك ، بالنسبة لتطور المدن الصناعية في مقاطعة Monmouth ببلاد الغال ،

Fohlen, op. cit., note 276, p. 183.

وعن تطور مدينة ليون وسـانت آتيين Lyon et Saint-Etienne

A. S. Dunham, op. cit., note 273, p. 157.

جــدول رقم (١٠)[٣٩٢]

تطور عدد سكان المدن وعدد سكان القرى في الفترة من ١٨٥٠ ـ ١٩١٤ في أوربا والولايات المتحــدة ·

(أرقام مقربة الى أقرب رقم عشري)

الدولة	السنة	عدد السكان بالمليون	عدد سكان القرى		عدد سكان المدن	
			بالمليون	النسبة المئوية	بالمليون	النسبة المئوية
انجلترا وبلاد الغال	١٨٥١	١٨	٩	٪ ٥٠	٩	٪ ٥٠
	١٨٨١	٢٦	٨	٪ ٣١	١٨	٪ ٦٩
	١٩١١	٣٦	٨	٪ ٢٢	٢٨	٪ ٧٨
المملكة المتحدة	١٨٥١	٢٦	١٤	٪ ٥٢	١٢	٪ ٤٨
	١٨٨١	٣٣	١٢	٪ ٣٧	٢١	٦٣
	١٩١١	٤٦	١٣	٢٧	٣٣	٧٣
المـــانيا	١٨٧١	٤١	٢٦	٦٤	١٥	٣٦
	١٨٩١	٤٩	٢٣	٤٧	٢٦	٥٣
	١٩١١	٦٥	٢٦	٤٠	٣٩	٦٠
الولايات المتحدة	١٨٤٠	١٧	١٥	٨٩	٢	١١
	١٨٧٠	٣٩	٢٩	٤٧	١٠	٢٦
	١٨٩٠	٦٣	٤١	٦٥	٢٢	٣٥
	١٩١٠	٩٢	٤١	٥٤	٤٢	٤٦
فرنســـا	١٨٥١	٣٦	٢٧	٧٤	٩	٢٦
	١٨٨٦	٣٨	٢٤	٦٤	١٤	٣٦
	١٩١١	٤٠	٢٢	٥٦	١٨	٤٤
روســـيا	١٨٥١	٥٩	٥٥	٩٣	٤	٧
	١٩٠٠	١١٠	٩٦	٨٧	١٤	١٣
	١٩١٤	١٤٢	١١٤	٨٠	٢٨	٢٠

---

(٣٩٢) Rioux, op. cie., note 5, p. 148.

وانظر أيضا : Fohlen, op. cit., note 276, p. 183.

وترجع شهرة مدينة مانشستر الى انها كانت أكثر المدن ازدهارا بسبب صناعة القطن . هذه المدينة ، لم تكن حديثة النشأة ، بل يرجع وجودها الى عهد الرومان ، ولكن موقعها بالقرب من شلالات ومساقط المياه ، اعطاها القدرة على الانتاج الصناعى اعتمادا على الطاقة المائية في وقت مبكر . لقد كانت مانشستر تشتهر - حتى قبل الثورة الصناعية - بمنسوجاتها القطنية التى كان يتم انتاجها في ورشها المتعددة والتى اشتهرت باتقان العمل فيها : ولكنها - أى مانشستر - ظلت حتى عام ١٧٢٧ قرية كبيرة : فهى لم لكن مدينة ، لانها لم يكن لها مجلس بلدى ولا نائب في مجلس العموم . لذلك ، كان الكتاب يطلقون عليها انها « واحدة من أكبر القرى الانجليزية ، ان لم تكن أكبرها على الاطلاق »(٣٩٣) ، وكان تعدادها آنذاك (١٧٢٧) حوالى ٩ آلاف نسمة .

ومع الثورة الصناعية ، وتطور صناعتى الغزل والنسيج ، أخذت المدينة تتطور وفقا لقانون التطور الصناعى ، بحيث دلت مطالب السكان بانشاء كنائس جديدة ومطاحن لطحن الحبوب ، على ان المرافق القائمة (من كنائس ومطاحن ومدارس) لم تعد كافية لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للنازحين الى مانشستر ، التى ارتفع عدد سكانها عام ١٧٥٧ الى ٢٠ ألف نسمة والى ٢٧ ألف نسمة عام ١٧٧٣ ، و٥٠ ألف نسمة عام ١٧٩٠ ليصل عام ١٨٠١ الى ٩٥ ألف نسمة ، وليتجاوز هذا العدد ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة عام ١٨٥١ .

ان المتتبع لهذا التطور يمكنه ان يتعرف بسهولة على الرابط بين التطور الصناعى وتطور المدينة الصناعية ، فالتواريخ المذكورة اعلاه ترتبط ارتباطا وثيقا بتطور الاختراعات في صناعة الغزل والنسيج (١٧٤٤ اختراع المكوك الطائر - ١٧٦٥ مغزل جينى - ١٧٦٧ الاطار المائى - ١٧٧٩ اختراع كرمبتون « البغلة »)(٣٩٤) .

وفي نفس الوقت الذى بدات فيه الصناعة تجذب الأيدى العاملة ، بدأت صورة المدينة الناشئة تتبدل ، فأخذت المصانع الحديثة التى تستخدم الآلة البخارية ، بدلا من مساقط المياه ، تتزايد بشكل ملحوظ : فبينما لم يكن هناك سوى مصنع واحد يستخدم الطاقة البخارية عام ١٧٨٦ (مصنع أركريت) ارتفع عدد هذه المصانع عام ١٩٥٥ الى ما يقرب من خمسين مصنعا : نشأت من حولها الأحياء العمالية ، عشوائية ، دون تخطيط أو تنظيم ، واتسمت هذه الاحياء بكثافة السكان فيها ،

---

(٣٩٣) Mantoux, op. cit., note 2, p. 370.

(٣٩٤) راجع ما سبق ، ص ٣١ وما بعدها .
وايضا René Rémond, op. cit., Note 293, p. 119.

وبرطوبتها وظلمتها ، وبانتشار الأمراض التى تفتك بسكانها ، بينما كان وسط المدينة أكثر اتساعا ونظافة ، يضم المتاجر ، ومنازل أكثر اضاءة وصحة ، في أغلبها مملوكة للتجار . فاذا ابتعدنا قليلا ، في ضواحى مانشستر : خاصة في الجنوب الشرقى للمدينة ، بدا المنظر أكثر جمالا ، حيث المنازل الفاخرة المحاطة بحدائق كبيرة وحيث الشوارع المتسعة المرصوفة ، جيدة الاضاءة ، وحيث الحراسة الدائبة المستمرة سواء من رجال البوليس ، أم من الحرس الخصوصيين ، فهذه الاحياء هى التى تقطنها الطبقة البورجوازية ، تلك الطبقة التى فضلت العيش بعيدا عن العمال : معنويا وماديا .

ان قصة مانشستر – مع اختلافات بسيطة – هى قصة المدينة الصناعية أو بتعبير أدق ، قصة المدن الصناعية ، التى قامت أساسا على « المصنع الحديث » ، فكانا معا – المدينة والمصنع – الاطار العام الذى نشأت فيه الطبقة العاملة ، فبذلت في المصنع كل طاقتها ، وفقدت في المدينة كل معنى للحياة(٣٩٥) .

(ب) المصنع الحديث :

ان المدينة الصناعية ، لن تقضي في التو واللحظة ، على المنشآت الاقتصادية القديمة كالورش الصناعية ولا على الحرف المهنية والعمل اليدوى ، ولكنها في توسعها وازدهار أنشطتها ستعتمد أساسا على هذه المنشأة الصناعية الجديدة التى قامت من حولها الأحياء العمالية وأدت بوجودها الى مضاعفة الخدمات المتصلة بها ، ونعنى بها : المصنع .

ان المصنع . كغيره من المظاهر المادية للثورة الصناعية ، هو انعكاس للاختراعات والابتكارات ، ودلوف الانسان عموما الى الآلية . لذلك ، يبدو للوهلة الأولى ، ان دراسة « المصنع » تدخل في الأبواب المخصصة لهذه الموضوعات(٣٩٦) ، وهذه ملاحظة تصدق الى حد كبير ، لو وقفنا في دراستنا للمصنع عند أسباب ظهوره ، ولكننا لن نقف عند هذا الحد ، فادراج المصنع في دراسة «الطبقة العاملة»، انما قصدنا به بيان مدى ماساهم به المصنع في ميلاد هذه الطبقة .

ولكن هذا البيان ، لا يمنعنا من ان نعرض لأسباب نشأة المصنع بصورته الحديثة ، هذه الأسباب التى ترجع الى الآلية ، وارتفاع تكاليف التجهيزات الصناعية وتقسيم العمل وفرض نظام صارم في داخل المصنع .

---

(٣٩٥) Montoux, op. cit., note 2, pp. 372 — 373.
R. Marx, op. cit., note 273, p. 170.

(٣٩٦) راجع ما سبق ، ص ٢٦ وما بعدها .

وتفصيل ذلك ، ان الرأسمالى ، في خضم الاختراعات والابتكارات الحديثة ، كان يتحتم عليه ، كى يتمكن من الصمود أمام منافسة أقرانه ، ان يجارى هذه التطورات العلمية والصناعية ٠ ولكن تشغيل عدد من الآت الغزل والنسيج الحديثة، أو اعداد موقد من المواقد الحديثة لصهر الحديد ، لم يكن في متناول يد كل شخص ، فاستثمار قدر بسيط من رأس المال ، كما كان الحال قبل الثورة الصناعية ، أو في بدايتها ، لم يعد كافيا ، لاقامة مصنع يستجيب لمقتضيات التطور الصناعى ، خاصة وأن الآلات المستخدمة ، قد تصبح فجأة « آلات قديمة » بالنظر الى سرعة التطورات العلمية والاختراعات . لذلك ، كان لابد ، حتى يقوى الرأسمالى على المنافسة ، أن يحقق ، في أسرع وقت ، أكبر عائد من رأس المال المستخدم في هذه التجهيزات ، قبل ان تصبح متخلفة عن مجاراة التطور ٠ ولم يكن بامكان الرأسمالى ، ان يصل الى هذه النتيجة ، الا عن طريق احكام الرقابة على عماله ، ووضعهم جميعا تحت رقابته المستمرة ، وهو مالم يكن ممكن التحقيق الا عن طريق « المصنع »[٣٩٧] ٠

ذلك أن المصنع علاوة على ما يساعد عليه من احكام الرقابة على العمال ، يسهل أيضا تقسيم العمل فيما بينهم بما يحقق أكبر عائد من استخدام قوة العمل ٠ لذلك قيل ، بحق ، ان تقسيم العمل بين العمال ، هو من الأسباب الجوهرية وراء ظهور المصنع « ففى الورش السابقة على الثورة الصناعية ، حيث كان صاحب االعمل يعمل بمعاونة عامل أو أثنين ، أو بمعاونة بعض أفراد أسرته ، كان تقسيم العمل بدائيا الى حد كبير بينما أدت الثورة الصناعية الى تقسيم العمل ، وتعمق التخصص فيه ، على نحو فعال وملفت للنظر[٣٧٩] » ٠

فكل عامل ، له مهمة محددة ، يتولى بموجبها تكملة العمل الذى بدأه شخص آخر لا يعرفه ، ويمهد لعمل آخر لا يعرفه كذلك ، بحيث تصل السلعة الى المرحلة النهائية للصنع بعد أن يكون قد شارك في مراحله المختلفة ، عدد من العمال ، لا يعرف بعضهم بعضا ، وهو ما يقتضي بالطبع اخضاع العمل في المصنع لنظام

---

(٣٩٧) Rioux, op. cit., note 5, p. 159.

Epsztein, op. cit., note 279, p. 70.

(٣٩٨) ويكفى ان نعطى مثالا في هذا الصدد ، بما ادى اليه انتاج « الابر » les épingles من تقسيم في العمل ، وهو المثال الذى اورده آدم سميث ، كدليل على اثر الثورة الصناعية في تقسيم العمل ٠ أنظر في ذلك :

Redor et Rioux : *la révolution industrielle en Grande - Bretagne.* "Profil Dossier". Economie, Sociologie, et Sciences Sociales Hatier, Paris 1980, p. 5.

صارم ، يستجيب الى الآلة ويخضع لسرعة دورانها ، ويتطلب دقة في مواعيد الحضور والانصراف ، وفي أداء العمل لأن التقاعس في أحد مراحل الانتاج ، يترتب عليه التأخر في سرعة انجاز العمل الجماعى على مستوى المصنع ، أو بمعنى آخر ، الى التأثير على مستوى وكم الانتاج • كذلك فان التخصص على هذا النحو يسمح بتوجيه العامل ، نحو القطاع الذى يظهر فيه مهارة العامل وتخصصة على أفضل نحو يحقق أكبر مردودية للعمل •

ومن هذا العرض يتضح لنا ، ان المصنع كان الوسيلة المتاحة أمام الرأسمالى ، لتحقيق أكبر قدر من الربح ، وتقسيم العمل على أفضل وجه • لذلك كان من الطبيعى ان تنتشر هذه المنشأة الجديدة ، بسرعة تطور التقدم الصناعى(٣٩٩) •

ولكن ، كما سبق القول أعلاه ، ان دراسة المصنع لو كانت قد توقفت بنا عند أسباب ظهوره ، لكان موضع هذه الدراسة مختلفا ، انما قصدنا بدارسة المصنع كظاهرة أوجدتها الثورة الصناعية ، ان نبين ما هو أثر هذه الظاهرة : على ظهور الطبقة العاملة •

---

(٣٩٩) وهكذا ، في انجلترا ، واعتبارا من عام ١٨١٦ ، نجد في جلاسجو Glasgow ٤١ مصنعا يستخدم كل منها أكثر من ٢٤٠ عاملا ، وفي نيولانارك New - Lanark كان روبرت اوين يستخدم أكثر من ١٦٠٠ عامل في مصنع ، وفي مانشستر كان هناك ٤٣ مصنعا يستخدم الواحد منها أكثر من ٣٠٠ شخص ، بل كان من بينها اثنان يستخدم كل منهما أكثر من ١٠٠٠ عامل •

بل ان هذه الأعداد ستتزايد بقدر تقدم الاختراعات والابتكارات ، فنجد ان العديد من هذه المصانع ، ما بين ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ ، ضاعفت من عدد عمالها ، بل ان بعض المصانع كمصنع Dowlais لصناعة الحديد ، بلغ عدد العاملين به عام ١٨٥٠ ، ٧٠٠٠ عامل •

نفس الظاهرة سنصادفها في فرنسا ، ولكن على نحو أكثر بطؤا ، نظرا لتأخر انطلاق الثورة الصناعية في فرنسا عنها في انجلترا ، ومع ذلك ، ومنذ عام ١٨٥٠ ، بدأ التركز الصناعى يظهر بوضوح في مناطق Mulhouse و Rouen و Lille و Roubaix • وبدا عدد عمال المصانع يتزايد ، كمصانع Cail (بباريس) التى كانت تستخدم ٢٧٠٠ عامل عام ١٨٦٧ ، ومصانع Schneider التى تطور عدد عمالها من ٢٣٠ (١٨١٢) الى ١٨٥٠ (١٨٣٩) الى ٣٢٥٠ (١٨٥٠) الى ٦٠٠٠ (١٨٦٠) ليصل عام ١٨٦٠ الى ١٢٥٠٠ عامل •

نفس الظاهرة تصادفها في المانيا ، حيث تعطينا مصانع Krupp ، مثالا على هذا التطور ، فمن ١٤٢ عاملا (عام ١٨٤٧) ارتفع العدد الى ١٥٠٠ عامل (١٨٥٩) ليبلغ ٨٠٠٠ عامل (١٨٦٥) •

انظر في هذا التطور :

Rioux, op. cit., note 5, pp. 162, 163.

R. Marx, op. cit., note 273, pp. 123 et s.s. et 231 et s.s.

Mantoux, op. cit., note 2, pp. 312 et 313, et pp. 219 et s.s.

ويقتضي هذا البيان ، ان نعرض له في نقطتين أساسيتين ، الأولى ، ونبحث فيها علاقة العامل بالآلة ، والثانية ونبين فيها أثر هذه العلاقة على نشأة الطبقة العاملة .

أولا - تحديد مكانة العامل بالنسبة للآلة(٤٠٠) .

لقد كان العامل قبل الثورة الصناعية ، يعتمد على قوة سواعده في الانتاج مستعينا باداة ، وكان العمل الصناعى يتم في أغلبه اما في الورش الصناعية ، مع صاحب عمل لا يختلف نمط حياته عن عماله كثيرا ، أو في المنازل ، حيث تقوم عائلات المزارعين ببعض الأنشطة الصناعية كوسيلة للحصول على دخل اضافي ، اما بعد الثورة الصناعية ، وعلى نحو أدق بعد ظهور «المصنع» ، فقد أصبح لزاما على على العامل أن يتعامل مع الآلة ، فأين كان مكانة منها ؟

يبدو ، ان العامل ، على الأقل في نظر الطبقة الرأسمالية ، كان مجرد « جزء من الآلة » أو قطعة ملحقة بها ، هذا ما يؤكده مثلا ، تقرير لحكومة برلين ١٨١٩ يضم بعض الاقتراحات لتحسين أوضاع العمال العاملين في المصانع ، وخاصة الأطفال منهم ، حيث يعنى التقرير بضرورة الاهتمام بتعليمهم ، ويقول التقرير « اما فيما يتعلق بأصحاب المصانع . فلا ينتظر منهم أى مبادرة ، الا اذا أجبروا بموجب توجيهات وأوامر صريحة على منح الأطفال الساعات اللازمة لتلقى التعليم (....) فلقد تعودوا النظر الى العمال ، على أنهم مجرد (أجزاء تابعة للآلة) »(٤٠١) .

نفس العبارة ، سنصادفها بعد نصف قرن تقريبا من الزمان ، في تحليل ماركس لعلاقة العامل بالآلة ، حيث كتب في « رأس المال » : « ان جميع وسائل الانتاج هى وسائل سيطرة واستغلال في خدمة الرأسمالى ، بواسطتها يستغل العامل ويجعل منه « شبه آدمى » ، نظرا لأنه يجعل منه مجرد تابع للآلة » . ولكن ماركس لا يهاجم الآلة نفسها ، بل هو يؤكد فوائدها من حيث اقتصادها للوقت ، وقدرتها على زيادة الانتاج ، وامكانياتها في التغلب على عوائق الطبيعة ، والعائد

---

(٤٠٠) Jurgen Kuczynski, op. cit., note 362, pp. 40 et s.s.
J. Bron : op. cit., note 287, p. 15.

وايضا :

E. Dolléans, et G. Dehove : histoire du travail en France "mouvement ouvrier et législation Sociale" des origines à 1919.
Editions Domas Montchrestien Paris 1953. pp. 145 et s.s.

(٤٠١) Kuczynski, op. cit., note 362, P. 40 et pp. 76 - 77.

الذى تحققه ، لذلك فالآلة نفسها ليست مسئولة عما حدث للعامل ، ولكن المسئول الأول هو الرأسمالى » أو على نحو أدق ، الاستخدام الرأسمالى للآلة ، الذى بدلا من أن يحقق الفوائد المرجوة منها ، أدى بها الى استغلال العامل اسوأ استغلال ، وزيادة ساعات عملة ، وسلبه قوة عملة ، في ظروف ، أبسط ما يمكن أن توصف به ، أنها غير آدمية ٠

وتبدو هذه الملاحظة صحيحة ، الى حد كبير اذا لاحظنا ، أثر علاقة العامل بالآلة ، أو بمعنى أدق أثر علاقة الآلة بالعامل ، على هذا الأخير ، فلقد كان لتلك العلاقة أثر سيىء على العامل من كل الجوانب ٠

— **فمن ناحية التفكير البشرى**(٤٠٢) ، ترتب على استخدام الآلة ، ان صار العامل بعيدا عن الجانب « الفكرى » للانتاج ، بحيث لم يعد سوى « مساعد للآلة » ، لأنها هى التى تقوم بكل العمل ، بينما يتحول عمل العامل الى مجرد عملية ميكانيكية ، لا تتضمن أى قدر من التفكير ٠ لقد حل «عقل الآلة» محل « عقل العامل» ، فأصبح هذا الأخير يقوم بعمله دون أدنى قدر من التفكير ، فقتلت لديه كل ملكة للابداع وكل رغبة في العمل ، لقد انقضي وقت الصناعة التقليدية التى كان العامل فيها ، بعقله ويديه ، يعمل على تحويل المادة الأولية الى مادة كاملة الصنع تصلح لوضعها مباشرة بين يدى المستهلك ، وبذلك كان العامل يتصل بكل مراحل « تصنيع السلعة » مضطرا في كل هذه المراحل الى استخدام عقله وتفكيره لتذليل ما يثور امامه من مصاعب ٠ ان المصنع والآلة ، اقتضيا تقسيم العمل ، المبدأ الذى قام عليه أسلوب الانتاج الصناعى ، بحيث يعهد للعامل في العملية الانتاجية كلها ، بمهمة محدودة ، في احدى مراحل تصنيع السلعة ، دون ان يعلم شيئا عن المراحل السابقة عليه أو اللاحقة ، أى دون ان يتمكن من أن يحدد موقعه بالنسبة للعملية الانتاجية ، ولا أهمية العمل الذى يقوم به ، ومن ثم يشعر العامل نتيجة لذلك بنوع من « العجز المهنى » وبضآلة الدور الذى يقوم به ، ويترتب على ذلك أن يفقد كل حماس للعمل ويندر ان يجد فيه أى سلوى ٠

ويعطينا الاستاذ Karl Biederman (الاستاذ بجامعة Leipzig) دليلا عمليا على هذه العلاقة ، حيث كتب يقول « سأعطيكم مثلا حيا على مدى ما ترتب على استخدام الآلة من سلب العامل كل قدرة على التفكير : فلنأخذ آلة « الجاكارد»

---

(٤٠٢) Dolléans et Dehove, op. cit., note 400, p. 149.
Kuczynski, op. cit., note 362, p. 41.

هذه الآلة تتميز بقدرتها على صنع نسيج من الصوف تزينه رسومات معينة ، تصل الى تجميع خيوط الصوف على نحو يحقق هذه الرسومات • قبل اختراع هذه الآلة كان تجميع الخيوط وترتيبها للحصول على الرسم المطلوب ، يتم بواسطة العامل ونفسه : اما بعد اختراع الآلة ، فأنها وحدها هي التي تقوم بكل العمل ، دون حاجة الى تدخل من العامل ، وبذلك أصبح عمل العامل على هذه الآلة ، أكثر ميكانيكية عن ذي قبل ، وكل ما كان يقتضيه تجميع الخيوط الصوفية من تفكير للحصول على الرسم المطلوب انتقل من العامل الى الآلة • وهكذا ترتب على استخدام الآلة ، حرمان العامل من كل تفكير في قيامه بعمله من جهة ، كما أنه خسر على صعيد آخر ، وهو عدم امكانه شراء « آلة جاكارد » حديثة ليستقل بعمله ، فصار ملزما بالعمل على هذه الآلة الجديدة لدى احد الرأسماليين ولصالحه (•••) وهكذا جعلت الآلة من العامل تابعا لها ، لأنها سلبته كل مقدرة على التفكير[٤٠٣] •

لذلك ، كان من الطبيعي ، ان تستحوذ هذه الآلة على كل الاهتمام ، فهي بالنسبة للرأسمالي « ذات قيمة أكبر من قيمة العامل لديه » ، وهي موضع اهتمام حتى الأدباء ، بحيث كتب احد النقاد يقول « ان كل اهتمامنا الآن ينصب في أشعارنا وكتاباتنا على السفن البخارية والسكك الحديدية » ، بل نجد البعض يدافع عن هذه الآلة بحيث يعتبرها « علامة على طريق العالم الجديد »[٤٠٤] •

- **وعلى الصعيد المعنوي**[٤٠٥] : ترتب على استخدام الآلة في المصنع ، أثر بالغ الأهمية ، ان الثورة الصناعية لم يقتصر أثرها على هجرة الأيدي العاملة ، وتغيير التركيب الاجتماعي للسكان فحسب ، بل ترتب عليها أيضا آثار بالغة الأهمية في التركيب الداخلي للطبقة العاملة : لقد اكتشف الرأسمالي ، وخاصة في نطاق صناعة الغزل والنسيج ، ان تشغيل ومراقبة بعض الآلات ، والقيام ببعض الأعمال ، كوصل الخيط بعد انقطاعه ، لا يتطلب مجهودا عضليا خاصا ، لذلك فبامكان امرأة أو طفل الحلول محل الرجل في هذه الأعمال ، وخاصة ان استخدام النساء والأطفال أقل كلفة •• ومن جهة أخرى ، فان الآلة ، بعدم تطلبها مهارة خاصة من جانب العامل ، ساعدت على استخدام العمال الذين لا يتوفرون على أية خبرة ، على حساب المتخصصين ، نظرا أيضا لسعر التكلفة • وسيؤدي كل ذلك بالطبع ، الى

---

(٤٠٣) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 42.

(٤٠٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 43.

(٤٠٥) Dupeux, op. cit., note 299, p. 143.
Epzstein, op. cit., note 279, p. 80.

زيادة تشغيل النساء والأطفال ، وارتفاع البطالة في صفوف الرجال ، وعلى الأخص ذوو الخبرة منهم • لقد أدت الآلة في أول ظهورها لزيادة البطاقة ، ثم ترتب على هذا التحول في التركيب الداخلي لطبقة البروليتاريا ، اضافة أسباب جديدة لتزايد نسبة البطالة بين الرجال •

هذه الظواهر التى سندرسها تفصيلا فيما بعد[٤٠٦] : كانت لها آثار نفسية وخيمة على العمال ، ترتب عليها ، ان انتشرت بين صفوفهم ظاهرة السكر ، وازدياد الاجرام ، بل والتأثير على المشاعر الأسرية، لأن العامل غالبا ماكان يرفض تعليم ابنه ليرسل باسرع ما يمكن الى المصنع ، ليأتى اليه بالأجر[٤٠٧] •

هذه الآثار النفسية ، تزايد مداها ، بما أدى اليه المصنع والآلة ، من خضوع العامل لنظام رئاسي صارم ، بحيث كتب أحد الكتاب الرأسماليين يقول « ان أهم مزايا الآلة هى ما تضمنه لنا من فعالية ضد تهاون العامل أو تكاسله أو اختلاسة الوقت »[٤٠٨] ، فالآلة تقتضي مواصلة العمل وفقا لتوقيت دقيق ، يجعل من السهل اكتشاف أى تهاون أو تكاسل من جانب العامل • ان المصنع يدور وفقا لنظام صارم وعمليات انتاجية محددة ، لا يبدو العامل فيها سوى « جزء من العملية الانتاجية » ، التى يقوم عليها هيئة ، شبهها كارل ماركس ، بتنظيم عسكرى ، يحتل فيه صاحب رأس المال مكان القائد[٤٠٩] ويعاونه الملاحظون ورؤساء العنابر والأقسام ، وتتسم هذه العملية بالتنظيم الدقيق المحكم ، والرقابة ، وما تسببه من آلام جسدية ونفسية للعامل ، بحيث يشعر العامل ان كل حافز لديه ، أو قدرة على الابداع قد انقضت ، ويفقد بذلك كل رغبة حقيقية في العمل ، فيتحول عمله الى « عقاب » يتحمله من أجل ان يتلافى الموت جوعا • وبذلك ، يقوم لدى العامل شعور بالعداء لهذا التنظيم الذى ألحق به أشد الأضرار المادية والمعنوية ، ويلاحقه هذا الشعور حتى بعد ان يترك المصنع ، ليعود الى مأواه ، حيث تنتظره ظروف معيشة أكثر قسوة ، فيتسع الشعور بالعداء ليشمل علاوة على المصنع والآلة ، كل المجتمع الذى كان سببا في هذه المشاق ، وينقلب هذا الشعور بالعداء الى كراهية للنظام الاجتماعى وللمجتمع نفسه ، فاذا ما عم هذا الشعور وتأكد لدى جموع

---

(٤٠٦) أنظر فيما بعد ، ص ٣٤٠ وما بعدها •

(٤٠٧) Dupeux, op. cit., note 299, p. 144.

(٤٠٨) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 42.

J. Bron, op. cit., note 287, p. 35

(٤٠٩) راجع ما سبق ، ص ١٨٥ هامش ٢٧٨ •

أفراد طبقة البروليتاريا ، تولد لديهم شعور « طبقى » ، تولدت منه « الطبقة العاملة » .

ثانيا ـ أثر المصنع في ميلاد الطبقة العاملة : «الشعور بالانتماء الطبقى»(٤١٠) أن ظهورظهور المصنع، بما ترتب عليه من تجميع الأيدى العاملة، وتركزها فيمكان واحد، لا يمكن النظر اليه ، من الزاوية الاقتصادية فحسب ، بل يتعين أيضا الالتفات الى آثاره الاجتماعية . ذلك ، أن المصنع سمح للعمال بالتجمع ، باعداد كبيرة ، في مبنى واحد ، خلافا لما كان عليه الأمر قبل ذلك ، حيث كان العامل يعمل في منزله (العمل المنزلى) وكانت البروليتاريا متفرقة بطبيعتها لان العمل الصناعى كان يقوم به المزارعون أنفسهم في غير أوقات الزراعة ، وحتى في الورش الصناعية ، كان رب العمل يستعين بعدد محدود من العمال . لكن تجمع العمال باعداد كبيرة في مكان واحد (المصنع) ، جعل هؤلاء يشعرون بنفس مشاعر الألم والمعاناه ، وبأن لهم حاجات ومطالب متشابهة ، فأوجد ذلك لديهم شعور بضرورة التضامن من أجل الدفاع عن مصالحهم المشتركة ، فلقد ترتب على ظروفهم الصعبة ، ثورة داخلية في نفس كل عامل ضد هذه الظروف ، ثورة جعلته يقترب شيئا فشيئا ، ممن يشاركونه نفس هذه الثورة على الظروف المتشابهة .

هذا الشعور المشترك ، وهذه الثورة الداخلية في كل فرد ، التى ستجد متنفسا لها في ثورة عامة تعبر عنها هذه الطبقة ، كل ذلك ، هو الذى سيولد الشعور لديهم بالمظالم الواقعة عليهم وبضرورة التجمع من أجل الدفاع عن مصالحهم العمل الجماعى المشترك كوسيلة للدفاع عن حقوقهم المشتركة ، في مواجهة الطبقة التى تسلبهم هذه الحقوق .

لقد اقتضي الانتاج الصناعى ، ضرورة تجميع العمال في مكان واحد ، فكان « تجميع العمال » ضرورة اقتصادية لنجاح المشروع الصناعى ، ولكن هذه الظاهرة الاقتصادية ، كانت لها أيضا ابعاد اجتماعية ، حيث أدى تجمع العمال ، الى تزايد الشعور لديهم بالمظالم الواقعة عليهم وبضرورة التجميع من أجل الدفاع عن مصالحهم المشتركة .

ومازاد في تولد هذا الشعور ، ان تجمع العمال على مستوى المصنع ، اقتضي

(٤١٠) أنظر في هذا الموضوع ، على وجه الخصوص :
Marcel David : les travailleurs et le sens de leur histoire. ed. Cufas, Paris 1967, pp. 53 et s.s.

أيضا تجمعهم في أماكن السكن (الأحياء العمالية) ، التى لم تكن في ظروفها أقل قسوة من ظروف العمل في المصنع ، وبذلك ساهمت المدينة الصناعية أيضا في ازكاء الشعور الطبقى لدى العامل ٠

ومن هنا ، يتضح لنا ، ان المدينة الصناعية ، والمصنع الحديث ، ساهما في ميلاد الطبقة العاملة ، بما ترتب عليهما من ظروف عمل وظروف معيشة قاسية ، جعلت الأفراد الخاضعين لها يشعرون بفداحة الظلم الواقع عليهم ، فقرب هذا الشعور فيما بينهم ، وجعلهم يشعرون بالحاجة الى التضامن من أجل الدفاع عن مصالحهم ، وترتب على ميلاد هذا الشعور الطبقى ، ان بدا صراع الطبقات أمرا حتميا ، يضع الطبقة المستغلة في مواجهة الطبقة المستغلة[٤١١] ٠

البند الثالث ـ ميلاد الطبقة العمالية في أهم البلدان الصناعية[٤١٢] :

أوردنا في البند الأول والثانى من هذا المطلب بعض الملاحظات المتعلقة بمولد الطبقة العاملة ، وربطنا بين مولد هذه الطبقة وبين المدينة الصناعية والمصنع ، وقد حرصنا في هذين البندين على بيان ما هو مشترك بين الطبقات العمالية في كل البلاد الصناعية ، فكانت الظواهر التى تحدثنا عنها عامة بالنسبة لكافة البلاد الصناعية ٠ ولكن ذلك لا يمنع ان الطبقة العاملة في كل بلد صناعى ، كان لها ـ عند نشأتها ـ بعض الخصائص المميزة ، التى تقتضى الوقوف عليها ، وبيان أوجه الشبه والخلاف بينها وبين نشأة الطبقة العاملة في بلاد أخرى ٠

في هذا الصدد ، نبدأ أولا بانجلترا ، ليس فقط لكونها أول بلد عرف الثورة الصناعية ، ولكن لأن الكتاب ينظرون اليها على أنها « المثال التقليدى » لمولد الطبقة العاملة[٤١٣] ٠ ثم ندرس بعد ذلك مثال الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ، رغم تطورها الصناعى ، ظلت حتى عام ١٨٥٠ تقريبا ، لا تعرف طبقة عاملة بالمعنى الصحيح ، خلافا لفرنسا ، التى رغم الضعف النسبى لتطورها الاقتصادى والصناعى ، عرفت أقوى التطورات السياسية في العالم الصناعى ٠

---

(٤١١) Dolléans et Dehove, op. cit., note 400, p. 145.
Rioux, op. cit., note 5, p. 164.
Seé, op. cit., note 275, p. 64.

(٤١٢) Jurgen Kuczynski, op. cit., Note 362, pp. 137 et s.s.

(٤١٣) وقد كتب انجلز صراحة في هذا الصدد ، يقول « ان الظروف التى قاستها الطبقة العاملة لم تكتمل صورتها الا في الامبراطورية الانجليزية وعلى الأخص في انجلترا » ٠
Kuczynski, note 362, p. 139.

(أ) ميلاد الطبقة العاملة في انجلترا :

تعتبر انجلترا أولى البلاد التى ولدت وتطورت فيها الطبقة العاملة ، وذلك بالطبع يعود الى انها أولى البلاد التى وقعت فيها الثورة الصناعية واستخدمت فيها الآلات والمصانع الحديثة ٠

ويذهب أغلب الكتاب الى اعتبار عام ١٧٦٠ هو تاريخ ميلاد الطبقة العاملة في انجلترا(٤١٤) ، ورغم ان أغلبهم لا يوضح لنا سبب هذا الاختيار ، الا أنه يبدو أن ذلك يرجع الى ان السنوات ١٧٦٠ الى ١٧٧٠ شهدت تطورات حاسمة في مجال الصناعة(٤١٥) ، ونظرا لأن استخدام الآلة وقع أولا في صناعة القطن ، فان أول بروليتاريا صناعية ، تكونت في نطاق صناعة القطن ٠

ولكن أهم ما يميز الطبقة العاملة في انجلترا ، ليس كونها أولى الطبقات العمالية ظهورا في العالم ، بل كونها كانت قد أعدت ، قبل الثورة الصناعية ، لمواجهة الظروف القاسية الناجمة عن هذه الثورة ٠ وتفصيل ذلك ، ان انجلترا ، كما سبق القول ، كانت تعرف العامل الأجير الزراعى ـ الصناعى (سواء في المنزل أو في الورش الكبرى الصناعية) حتى قبل عام ١٧٦٠ ، كما كانت تعرف أيضا « البورجوازى » وكان هذا الأخير ، قد عود العامل على نظام صارم وعلى ظروف عمل شاقة(٤١٦) ، فتعود العامل بذلك الالتزام بقواعد العمل والخضوع لاصحاب وسائل الانتاج ، بحيث لم يجد أصحاب الأعمال اعتبارا من عام ١٧٦٠ أى صعوبة في اخضاع الأيدى العاملة لنظام المصنع ولمتطلبات الآلية ٠

لا شك ، ان الانتقال من العمل المنزلى والورشة ، الى المصنع ، أحدث تغييرا كبيرا في حياة العمال ، وخاصة بعد ان تحول المصنع الى استخدام الآلة البخارية ، بدلا من الاعتماد على مساقط المياه ، فترتب عليه ان انتقل المركز الصناعى الى

---

(٤١٤) ومن هؤلاء انجلز ، وتوينبى ، وما نتو ، وكوكزنسكى ٠

انظر :

Kucznski, op. cit., note 369, p. 142.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 373 et s.s.

(٤١٥) فلقد بدأ هارجريفز عام ١٧٦٠ في اعداد اختراعه مغزل جينى الذى انتهى من اعداده عام ١٧٦٤ وهو نفس التاريخ الذى بدأ فيه وات يعد آلته البخارية وانتهى منها فعلا عام ١٧٦٤ أيضا ٠ كذلك ، ففى هذا التاريخ بدأ حفر قناة Brindley بين Mancbester, Worsley ، وانشاء أول مصنع حديث وهو مصنع Boulton في مدينة Soho بمقاطعة Birminghane .

راجع ما سبق ، ص ٣٣ و ٤٤ و ٧٠ وما بعدها ٠

(٤١٦) راجع في ذلك : Mantoux, op. cit., note 2, pp. 49 et s.s.

المدينة ، فنشأت التجمعات العمالية الكبرى • هذه التجمعات المكونة من أفراد غير راضين عن ظروف حياتهم ، كانت ولا شك تسبب العديد من المشاكل للطبقة البورجوازية وللحكام ، ولكن على نحو أقل ـ من فرنسا ـ مثلا ، نظرا لأن وجود « عامل أجير » حتى قبل الثورة الصناعية ، جعل هؤلاء العمال الصناعيين يرثون من آبائهم ـ الذين عملوا في النشاط الصناعى المنزلى أو الورش الكبرى ـ القدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة •

ولعل ذلك ، هو أهم الخصائص المميزة للطبقة العاملة الانجليزية ، عن الطبقة العاملة في بلاد القارة الاوربية ، تماما كما كانت الطبقة البورجوازية الانجليزية متميزة عن الطبقة البورجوازية في بلاد القارة الاوربية : فالعمل الصناعى السابق على الثورة الصناعية في انجلترا اتاح للطبقة البورجوازية ، والطبقة العاملة ، ان تستقبلا الثورة الصناعية بقدر من التلقائية أكبر من مثيلاتها في الدول الصناعية الأخرى[٤١٧] • وتصدق الملاحظة على الأخص ، بالنسبة للجيل الاول من عمال الثورة الصناعية ، في أى بلد من البلاد التى عرفت هذه الثورة • فلو حددنا الجيل الأول من عمال الصناعة الحديثة في انجلترا بعام ١٧٦٠ ، يكون الجيل الثانى لها حوالى عام ١٧٨٥ : بينما يقابل هذين التاريخين في فرنسا عام ١٧٩٠ و ١٨١٥ ، ففى عام ١٧٩٠ أبدأ الطبقة العاملة الفرنسية تتعلم كيف يصبح أفرادها « تابعين للآلة » ، وخاضعين للنظام الرأسمالى في العمل الصناعى •

وتبدو أهمية هذه المقارنة بين فرنسا وانجلترا من وجهة أخرى ، فبينما بدأت الطبقة العاملة تتكون في فرنسا (وكذلك في ألمانيا) ، فان الطبقة العاملة الانجليزية كانت قد عرفت جيلها الثانى أو الثالث ، والمقارنة لا تقف عند هذا المعيار العددى ، ولكنها تتجاوز ذلك ، فحيث كانت الطبقة العاملة الفرنسية في مرحلة التكوين ، كانت هناك طبقة انجليزية عمالية « بالوراثة » ، بمعنى أنه كان هناك عمال صناعيون (بالمعنى الحديث) ، ولدوا عن آباء كانوا هم ايضا عمالا صناعيين ، أو على الأقل ، كان هناك عمال ، ولدوا أطفالا واشتغلوا في الصناعة ، ونموا في المصنع • حقيقة ، كانت هذه الطبقة الوراثية «قليلة نسبيا» حتى عام ١٨٧٠ ، وذلك بسبب توافر الأيدى العاملة المهاجرة من الريف الى المدينة من جهة ، وبسبب

(٤١٧) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 147

(٤١٨) راجع ما سبق ، ص ٢٠٧ وما بعدها •

امكانية الارتقاء في السلم الاجتماعى في خلال السنوات الأولى من الثورة الصناعية ، كما سبق القول[٤١٨] • فانجلترا ، خلافا للبلاد الاوربية الأخرى (كفرنسا والمانيا وأسبانيا) كانت قد تخلصت من العلاقات الاقطاعية في وقت مبكر ، وتحرر الفرد فيها من القيود الاقطاعية ، بحيث كانت المغامرة الفردية امرا ممكنا ، ينقل صاحبه من ادنى السلم الاجتماعى الى اعلاه •

ولكن ، قدم الطبقة العاملة الانجليزية ، ليس الصفة الوحيدة المميزة لها ، بل تتصف هذه الطبقة كذلك ، بالانقســام الحاد في صفوفها ، وخاصة بسبب العمال الايرلنديين : فانجلترا كانت البلد الأوربى الوحيد الذى يسيطر على مستعمــرة أوربية ، هى ايرلندا • فمنــذ قرون طويلة كان هذا البلد يعيش في فقــر مدقع وبؤس شديد ، وفي خضوع تام لاستغلال كبار الملاك العقاريين الانجليز «فبينما كان بوب الانجليزى يسعد بعالمه ويشيد بمحاسنه كان صديقه الايرلندى سويفست يلعن الاستعمار الانجليزى »[٤١٩] •

لقد كان عدد سكان ايرلندا يتزايد باطراد ، ففى كل عام كان هناك مائتــا ألف مولود (٢٠٠ر٠٠٠) ، من بينهم ٣٠ الفا فقط يمــكن لعــائلاتهم ان ترعاهم ، و ٥٠ ألفا يموتون في سن مبكرة ، ويظل ١٢٠ ألف طفل عالة على المجتمع ، لايصل آباؤهم الى توفير الحد الأدنى اللازم لهم من المعيشة • لذلك ، كان من الطبيعى ان نرى هجرة الأيدى العاملة الايرلندية الى انجلترا ، بحثا عن عمل ومأوى وطعــام • وقد كتب انجلز في هذا الصدد يقول « ان التطور المطرد للصناعة الانجليزية كان لا يمكن حدوثه على هذا النحو لولا الاحتياطى من الايدى العاملة التى جاءت الى انجلترا من بين أفــراد الشعب الايرلندى الفقــير • ان الايرلندى لم يــكن لديه ما يخسره في ايرلندا ، لذلك فان المجىء الى انجلترا كان كسبا في حد ذاته بالنسبة له • لذلك ، فمنذ ان اكتشف الايرلندى أن بامكانه الحصول على عمل ، متى كان قوى البنية ، سليم الصحــة ، توافــدوا بالآلاف على انجلتــرا وغزوا كل المدن الصناعية ، وكونوا فيها ، طبقة تعد من أدنى الطبقات الشعبية »[٤٢٠] •

ولذلك كان الايرلندى ، منافسا خطيرا للانجليزى في مجال العمل ، وخاصة أن الانجليز كانوا ينظرون اليه على أنه انســان متوحش لا خلق له ولا ينتمى اليهم وبل هو في درجة ادنى منهم ، ولعل في وصف الايرلندى التالى ، خير دليل على الكيفية التى كان الانجليز ، حتى العمال منهم ، ينظرون بها الى الايرلندى « هذه

---

(٤١٩) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 147.

(٤٢٠) ورد هذا القول في Kuczynski, op. cit., note 362, p. 149

الوجوه الجامدة التى توحى بالشر والتهـور ، والبؤس ، تلاقيك في كل شوارعنا وحاراتنا • ان وجود هؤلاء الناس بين ظهرانينا هو الداء ، بل أخطر داء اجتماعي يتعين علينا مقاومته فالايرلندى على استعداد للقيام بأى عمل يتطلب قوة عضلية ، مقابل أجر يكفيه للحصـول فقط على البطاطس المسلوقة ، ويكفيه للنوم أن يجد أى مكان في فناء منزل ، فهو ليس بحاجة الى أكثر من ذلك ، لأنه لا يخلع ملابسة ليلا أو نهارا • لذلك ، فالانجليزى الذى لا يقبل هذه الشروط ، لا يمكنه ان يجد عمـلا • لذلك ، فان الايرلنـدى البربرى ، يطـرد المواطن الانجليـزى ويأخـذ مكانه»[٤٢١] •

لذلك ، كانت نظرة العامل الانجليزى الى العـامل الايرلندى نظرة حقـد وكراهية، بينما كانت نظرة الرأسمالى الانجليزى اليهم نظرة احتقار، ولكنهم على أى حال كانوا في نظره فرصة لتخفيض تكاليف الانتاج الى أقصي حد ، لأنهم جعلوا من الأجر ، كما كان يقال آنذاك ، « أجرا ايرلنـديا » وليس أجرا انجليزيا • وارغموا العمـال الانجليز على قبول أدنى الشروط والأجور • لذلك ، كان من الطبيعى ان ينظر الى الايرلنـدى على أنه « الأسـود الانجليزى » قياسا على زنوج أمريكا ، فنشأ عن ذلك داخل الطبقة العاملة ـ وضع غريب مؤداه ان العمـال الانجليـز كانوا يشعـرون بأنهم أقرب الى الرأسمـالى الانجليزى ، منهم الى الايرلنـدى العامل ، فانفصم بذلك « التضامن العمالى » بين أفراد الطبقة الواحدة ، خاصـة وان نظرة مشتركة نحو الايرلندى ، على أنه من نوع ادنى ، جمعت بين العـامل الانجليزى والرأسمالى الانجليزى[٤٢٢] •

---

(٤٢١) ورد في Kuczynski, op. cit., note 362, p. 150

(٤٢٢) على أنه يتعين في هذا الصدد ، ابداء ملاحظة مؤداها ان انخفاض أجور الطبقة العاملة في انجلترا بشكل ملحوظ في اعقاب الثورة الصناعية ، لا يرجع فقط الى منافسة الايرلنديين ، بل يرجع كذلك الى ان مستوى الأجور في انجلترا ، قبل الثورة الصناعية ، كان افضل منه في القارة الأوربية • فلقد كان النظام الاقتصادى البورجوازى في انجلترا قد تطور قبل الثورة الصناعية ، فسـمح بتحقيق تحسن ملموس في مستوى معيشة العمال المأجورين ، بينما ترتب على تدهور النظام الاقطاعى في اوربا انخفاض ملموس في مستوى معيشة العمال المأجورين ، بحيث كانت الأجور ، ومستوى المعيشـة ، في انجلترا حـوالى عام ١٧٠٠ أكثر ارتفـاعا ، عنهـا في القـارة الأوربية ، وترتب عليه ان صـار انخفاض مستوى الأجـور والمعيشة في انجلترا امرا ملحوظا في أعقاب الثورة الصـناعية سـاعد عليه بالطبع منافسة الايرلنديين للانجليز ، مع العوامل الأخرى ، واهمها الهجرة من الريف الى المدينة في اعقاب حركة الأسيجة •

راجع ما سبق ، ص ٦٣ وما بعدها •

ولعل مما ساعد على انقسام الحركة العمالية الانجليزية في بدايتها ، انها كانت تتكون من عدة فئات غير متجانسة ، فهناك أولا طبقة لـ Yeomenry التى هجرت الأرض في اعقاب حركة الأسيجة ، واتجهت الى المدينة بحثا عن العمل ، فكانت اولى « الفئات » التى غزت المدينة بالأيدى العاملة • وبالاضافة الى هؤلاء ، هناك أيضا The Cottagers and the Squatters من العمال الزراعيين ، الذين تأثروا أيضا بحركة الأسيجة فاتجهوا أيضا الى المدينة الصناعية بحثا عن مصدر للعيش ، حيث لم تعد مواردهم (نصف الزراعية ـ نصف الصناعية) تكفيهم نظرا لانهم فقدوا مواردهم الصناعية حين تراجع العمل المنزلى امام ازدياد عدد المصانع :

فاذا اضفنا الى هؤلاء عمال المناجم والمحاجر ، الذين تصوروا ان عملهم أكثر مشقة من عمل عمال المصانع ، فارادوا تركه والاتجاه ناحية المدينة الصناعية بحثا عن عمل أقل مشقة وأكثر ربحا ، واذا اضفنا اليهم أيضا عمال صناعات التعدين ، لتبينا في النهاية ان العاملين في المصانع ، تكونوا في بداية الأمر ، من عدة فئات ، ترتب على وجودها معا في وقت واحد ، ان ثار لديهم اعتقاد انهم « متنافسون » وليسوا « ضحايا » ، وزاد من هذا الاعتقاد لديهم وجود العامل « الايرلندى » الذى ارغمهم على قبول ادنى الأجور •

ولكن المدينة الصناعية ، والمصنع ، سرعان ما سيصهران هذه الفئات جميعا في بوتقة واحدة ، وينتج عن الآلام الجسدية والنفسية التى يعانون منها ، تولد شعور لديهم بضرورة التضامن للدفاع عن مصالحهم ، او على الأقل لدفع الظلم عنهم ، أى يتولد لديهم شعور طبقى ، وربما ساعد عليه بالذات في انجلترا ، ان المدن الصناعية الانجليزية كانت أكثر المدن الصناعية من حيث عدد السكان : فنجد مثلا أنه لا توجد مدينة في المانيا من بين المدن الخمس الكبرى (عدا برلين) يبلغ عدد سكانها ما يوازى سكان خامس مدينة انجليزية من حيث الكثافة ، وكذلك لا نجد في الولايات المتحدة الامريكية (عدا نيويورك) ، ولا فرنسا (عدا باريس) احدى المدن الكبرى يبلغ تعدادها ما يوازى رابع مدينة صناعية في انجلترا ، ويصدق هذا القول أيضا لو أخذنا العواصم مقياسا للكثافة السكانية عام ١٨٥٠ ، فبينما كان عدد سكان لندن ٤ر٢ مليون نسمة ، نجد ان عدد سكان باريس ١ر١ مليون نسمة ، ونيويورك ٧ر٠ مليون وبرلين ٤ر٠ مليون • ولعل الجدول رقم ١١[٤٢٣] ، يوضح لنا هذه الظاهرة :

---

(٤٢٣) منقول عن Kuczynski, op. cit., note 362, p. 159.

جدول رقم ١١ : عدد السكان في أكبر خمس مدن (عدا العواصم)
في كل من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة (عام ١٨٥٠)

البلد	المدينة	عدد السكان	البلد	المدينة	عدد السكان
انجلترا	مانشستر	٤٠٠ر٠٠٠(*)	فرنسا	مرسيليا	١٩٥ر٠٠٠
	ليفربول	٣٧٥ر٠٠٠		ليون	١٩٥ر٠٠٠
	جلاسجو	٣٣٠ر٠٠٠		بوردو	١٣٠ز٠٠٠
	برمنجهام	٢٣٥ر٠٠٠		روان	١٠٠ر٠٠٠
	ليدز	١٧٥ر٠٠٠		نانت	٩٥ر٠٠٠
ألمانيا	هامبورج	١٧٠ر٠٠٠	الولايات المتحدة الأمريكية	فيلادليفيا	
	برزيو	١١٥ر٠٠٠		بالتيمور	
	ميونيخ	١٠٠ر٠٠٠		بوسطن	
	دزسو	٩٥ر٠٠٠		سانت لويس	
	كولونيا	٩٥ر٠٠٠		بيتسبورج	

(ب) ميلاد الطبقة العاملة في الولايات المتحدة الأمريكية([٤٢٤]) :

تتميز الولايات المتحدة ، بوضع خاص ، فيما يتعلق بمولد الطبقة العاملة فيها ، لدرجة ذهب معها الكتاب الى التساؤل ، هل كانت هناك طبقة عاملة بالفعل ، في الولايات المتحدة ، حتى عام ١٨٥٠ ؟

(*) نلاحظ بالنسبة لهذا العدد ، أنه لا يتوافق تماما مع ما سبق ان قلناه (راجع ما سبق ص ٢٤٦) ان عدد سكان مانشستر يزيد عن ثلاثمائة الف نسمة عام ١٨٥١ ويرجع ذلك بالطبع الى ان الاحصاء لم يكن قد تطور على نحو ما هو عليه اليوم ، بالاضافة الى تعدد المصادر التى نعتمد عليها للحصول على هذه الاحصاءات .

(٤٢٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 162
Fohlen, op. cit., note 276, p. 190
A.G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 220
UNEF John, op. cit., note 273, p. 103.

ان هذا السؤال قد يبدو غريبا في بلد كان قد عرف أول انطلاقه للثورة الصناعية ، حوالى عام ١٨١٠ ، خاصة في ولايات الاشمال - الشرقى (كنيويورك وماساشوسيتس[٤٢٥] ، ولكن السؤال يظل مطروحا ، بالنظر لبعض الظروف الخاصة بالولايات المتحدة التى تختلف تماما عن أوربا • فالعامل الاوربى كان مخيرا بين الموت جوعا أو التسول أو الالتحاق باحد المصانع • وبذلك ، يمكن القول ، بصدق ، أنه لم يكن له الاختيار : فالمتسول القادر على العمل كان معرضا للعقاب (قوانين الفقر في انجلترا وهولندا والمانيا ••) والموت جوعا ليس حلا عمليا ، اذن لم يبق امامه سوى قبول العمل في المصانع • ولكن قرينه الأمريكى ، كان لديه بعض الاختيار ، ولكننا ، خلافا للكتاب الأمريكيين ، نعتقد أيضا ، مع بعض الكتاب ، أنه خيار محدود •

ويقتضي الأمر بعض التفصيل : فكثير من الكتاب الأمريكيين والكتابات الأمريكية يقررون ، ان الأمريكى ، في بداية الثورة الصناعية ، كان بامكانه ان يتلافى العمل في المصانع ، وذلك بان يقوم باستصلاح قطع من الأراضي الشاسعة (التى كانت في متناول الجميع لرخص أسعارها) ، لذلك يقررون ، ان أغلب الأمريكيين ، كانوا اذا عملوا بالصناعة ، فان ذلك كان بصفة مؤقته ، بحيث لم يكن ممكنا اعتبار العمل في المصنع ، عملا دائما ولا مهنة ثابتة •

ففى أحد المنشورات عن « وضع الطبقة العاملة في انجلترا » الذى نشر في أمريكا عام ١٨٨٦ كان يمكننا ان نقرأ السطور التالية[٤٣٦] : « لقد تأخر » ظهور المساوىء الاجتماعية للنظام الرأسمالى بشكل واضح في أمريكا لسببين رئيسيين الأول هو وجود الأراضي الشاسعة باسعار مناسبة ، والثانى هو توافر المهاجرين عبر الأطلنطى الى الولايات المتحدة ، مما ترتب عليه ، ان المواطنين الأمريكيين كان

---

(٤٢٥) وخاصة في صناعة النسيج ، وبناء السفن
A.G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 223.

مع ملاحظة الرأى المنفرد للكاتب Rostow الذى يقرر ان اول انطلاقه للثورة الصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت عام ١٨٤٠ .
Rostow : les étapes de la cioissance éionomique ed du seuil - Paris 1963.

ولكن هذا الرأى غير مجمع عليه من الكتاب الذين يرون ان هذه الانطلاقة حدثت في تاريخ مبكر كما ذكرنا في المتن •

(٤٣٦) مذكور في : Kuczynski, op. cit., note 362, P. 161
وانظر أيضا : A.G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 225

بامكانهم دائما الانسحاب من ميدان العمل المأجور والتحول الى العمل الزراعى ، أو التجارى ، بينما كان العمل المأجور الشاق ، الذى يجعل صاحبه في مصاف « البروليتاريا » بصفة دائمة ، من نصيب المهاجرين • ولكن ، منذ ان انقضت المرحلة الأولى هذه ، وبدأت الأراضي تقل في يدى الدولة وتتحول الى ملكيات خاصة ، فان صمام الامن ضد الانفجار وميلاد طبقة عمالية ، كف عن العمل (•••) • بل ، ان هناك العديد من المهاجرين الذين تمكنوا من تجنب العمل « المأجور » في المصانع ، وتحولوا الى العمل الزراعى ، بحيث كانت الولايات الشمالية والشرقية (حيث يصل المهاجرون) كثيرا ما تشكو من اتجاه المهاجرين الجدد ناحية الغرب ، حيث الأراضي الشاسعة » •

هذه الملاحظة ، ربما ، هى التى دعتنا الى طرح السؤال الذى بدأنا به قصة الطبقة العاملة في الولايات المتحدة ، فلو أردنا الاجابة عليه في ضوء هذه الملاحظة لامكننا القول ، دون تردد ، بوجود هذه الطبقة ، التى كانت تتميز على الأخص بتركيب خاص ، يعتمد بالفعل في أغلبه ، على العمال المهاجرين •

لكن قبل أن نشرع في بيان تركيب الطبقة العاملة الأمريكية ، يستحسن بالطبع القاء بعض الايضاحات ، فيما يتعلق بالملاحظة السابق ابداؤها •

فالقول ، بان الأمريكى ، او المهاجر ، يتمتع بحرية الانتقال ناحية الولايات الغربية ، لاستصلاح الأراضي ، واقامة مزرعة خاصة ، يقيه شر الوقوع في حبائل النظام الرأسمالى ، هو قول يحمل بعض الصدق ، ولكنه لا يمثل كل الحقيقة • فحرية ممارسة العمل الزراعى ، تبدو في ظل الدولة الأمريكية ، ككل الحريات الاقتصادية ، حرية نسبية لا يمكن ممارستها الا من جانب من يقدر عليها « فالعديد من الناس (الامريكيين منهم أو المهاجرين) لا يملكون وسائل الانتقال ولا امكانياته ، فاذا قدر لهم الوصول ، فانهم لا يملكون وسائل الانتاج الزراعى (الحيوانات اللازمة والآلات) ، فاذا كان بامكانهم اذا وصلوا، ان يعيشوا على الأعشاب الشيطانية حتى يظهر محصولهم الأول ، فقط في هذه الحالة ، يكون النجاح ممكنا »(٤٢٧) • لقد كان الانتقال من الولايات الشرقية(حيث يصل المهاجرون عبر الأطلنطى) الىالولايات الغربية (حيث الأراضي الشاسعة) أمرا صعبا للغاية ، تمكن من تحقيقه بعض الأمريكيين وبعضالمهاجرين ، فاستطاعوا ان يتخلصوا من الخضوع للعمل الصناعى ولكن ذلك لم يقف حائلا دون تكون طبقة عمالية في الولايات الشمالية والشرقية ، لسبب بسيط ، كشف عنه كارل ماركس في الجزء الأول من كتابه « رأس المال » :

---

(٤٢٧) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 163.

هو أن تدفق المهاجرين الاوربيين ناحية الولايات المتحدة الأمريكية كان يتم بشكل أكبر بكثير من موجة الهجرة من الولايات الشرقية والشمالية ناحية الولايات الغربية ، بمعنى ان حركة الهجرة نحو الولايات الغربية كانت لا تقوى على استيعاب المهاجرين المتزايدين باستمرار ، بحيث لم تخفف حركة الهجرة الداخلية ، من تزايد عدد الايدى العاملة والعاملين في الولايات الشرقية والشمالية ، وبحيث كانت صرخات الولايات الغربية تتعالى في طلب الايدى العاملة ، كانت هناك أيد عاملة شابة في الولايات الشرقية لا تجد عملا ، وتتنافس فيما بينها على أعمال منخفضة الأجر(٤٢٨) .

فاذا أخذنا في الاعتبار ، هذه الايضاحات ، امكننا ، دون تردد ، القول بأن هناك طبقة عاملة أمريكية عام ١٨٥٠ ، ان لم تكن قد تكونت ، فقد كانت على الأقل في بداية مراحل تكوينها ، هذا الرد ، وان لا يصدق بصفة مطلقة بالنسبة لكل الولايات الأمريكية ، فهو صحيح على الأقل بالنسبة للولايات الأمريكية التى عرفت باسم « انجلترا الجديدة la nouvelle Anglettrre »(٤٢٩) وهى الولايات الشرقية التى انطلقت فيها الثورة الصناعية والتى كانت تستقبل المهاجرين الوافدين على الولايات المتحدة(٤٣٠) . لذلك ، يمكن الحديث ومنذ عام ١٨٥٠ عن وجود نموذج « عمالى » في الولايات المشار اليها ، وان ظروف عمل ومعيشة هذا النموذج في مدينة Lowell (بمقاطعة ماسا شوستش) كانت تشبه الى حد كبير ظروف عمل ومعيشة العامل في مدينة Manchester الانجليزية . ولكن مع التسليم بهذا التشابه ، لا بد أيضا من الاشارة الى فارق جوهرى ، فارق يكاد يكون هو المميز للطبقة العاملة الأمريكية ، ونعنى به أن الطبقة العاملة الأمريكية في الفترة من ١٧٦٠ الى ١٨٥٠ لم تكن طبقة « وراثية » فالعائلات العمالية ، ابا عن جد ، كانت تمثل أقلية ضئيلة بالنسبة لمجموع العمال ، ويندر ان نصادف في أمريكا « البروليتاريا » بالوراثة كما هو الحال في انجلترا والقارة الاوربية . ويرجع ذلك بالذات ، نظرا لتزايد هجرة

---

(٤٢٨) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 163

(٤٢٩) وقد أطلق اسم انجلترا الجديدة على الولايات الست الأمريكية التى كانت مستعمرة من جانب انجلترا في القرن السابع عشر وهى : مان Maine ، نيو هامبشير New Hampshire ، فرمونت Vermont ماساشوستس Massachusetts ، رود ايسلند Rhode Island وكينكتكوت Connecticut .

(٤٣٠) A.G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 220.

الأيدى العاملة من القارة الأوربية ناحية الولايات المتحدة[٤٣١] : فوفقا لاحصاء ١٨٥٠ نجد ان مليونين ومائتين وأربعين الف أمريكى ٢٫٢٤٠٫٠٠٠ (من مجموع السكان البالغ عددهم حوالى ٢٣ مليون) أى ما يقرب من ١٠ ٪ من السكان ، كانوا قد ولدوا خارج الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان أغلب هؤلاء المهاجرين ، لا يغامرون بالابتعاد داخل الولايات المتحـدة ، بل يبقون حيث تلفظهم السـفن التى أتت بهـم ، أى في الولايات الشرقية بالذات ، وحتى أولئك الذين دفعت بهم المغامرة ناحية الولايات الغربية ، لم يجدوا وسيلة لكسب العيش أفضل من أقرانهم الذين بقوا في الولايات الشرقية ، ونعنى به العمل في المصانع[٤٣٢] ٠

ويلاحظ ان هجرة الأيدى العامـلة الى الولايات المتحـدة الأمريكية ، عبـر الأطلنطى ، كانت تزداد نتيجة عدة عوامل تضافرت فساعدت على تكثيف هـذه الهجرة ٠ لعل أهمها على الاطلاق ، عامل اقتصادى ، يتمثل في حجم الاستثمارات في كل من الولايات المتحدة وانجلترا : فتخفيض حجم الاستثمارات في انجلترا ، كان

---

(٤٣١) ونورد فيما يلى احصاءا عن الهجـرة المتزايدة للأيدى العاملة ناحيـة الولايات المتحـدة الأمريكية:

جـدول رقم ١٢ : عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة الأمريكية
في الفترة من ١٨٢٠ الى ١٨٤٧

السنة	عدد المهاجرين
١٨٢٠	٨٫٣٠٠
١٨٣٠	٢٣٫٣٠٠
١٨٣٢	٦٠٫٥٠٠
١٨٣٧	١١٤٫٣٠٠
١٨٤٥	١٥٤٫٤٠٠
١٨٤٦	٢٣٧٫٠٠٠
١٨٤٧	

المصدر : A.G. Lagrange, op. cit., note 202, p. 221.

وقد اورد Kuczynski السـابق الاشارة اليه هامش ٤٦٢ ص ١٦٥ احصاء يقـارب في مجموعة الاحصاء المبين اعلاه ٠

(٤٣٢) Fohlen, op. cit., note 276, p. 190.

يقلل من فرص العمل ، ويدفع بالتالى الى الهجرة نحـو الأرض الجديدة ، ولذلك فأنه لا يمكن فهم حركة الهجرة ولا تفسيرها الا في نطاق نظام اقتصادى أطلسي ، تلعب فيه حركة رؤوس الأموال ، دور الموجه الرئيسي للأيدى العاملة(٤٣٢) . كذلك، فان أصحاب رؤوس الأموال الأمريكيين أنفسهم ساعدوا على حدوث الهجرة من انجلترا والقارة الأوربية ناحية الولايات المتحدة ، باعتبار ان هذه الهجرة كانت وسيلة للتحكم في الأجور وتخفيضها في الولايات المتحدة . هؤلاء المهاجرون لم تكن ظروف معيشتهم أو عملهم أقل قسوة من عمال القارة الأوربية أو انجلترا ، كما يؤكد ذلك أحـد الكتاب Murray ، اذ يقول « أن بين الآلاف ، وعشرات الآلاف الذين تلفظهم الهجرة كل عام في موانى الأطلنطى ، والذين كثيرا ما يصلون دون نقود ولا صحة ولا أصـدقاء ولا تـكوين مهنى ، انمـا يأتون من أجل كسب عيشهم ، نجد أغلبيتهم تخضع لظروف حياة صعبة خاصة في المدن المجاورة للموانىء التى استقبلتهم (..) ، بحيث يعيش الغالبية العظمى منهم في حالة فقر دائم »(٤٣٣).

ولكن ، كما سـبق ان قلنا ، فان الطبقـة العـاملة الأمريـكية ، تميزت بـ « تركيب » خاص ، نشرع الآن في بيان مكوناته .

١ ـ **الايرلنديون** : ونصادفهم مرة أخرى في أمريكا ، بعد ان تركناهم منـذ قليل في انجلترا . ولعلنـا ، لسنـا بحاجة الى بيان أسـباب وفودهم الى الولايات المتحـدة ، فالأسباب التى ذكرناها بالنسبـة لهجرة الايدى العـاملة الى الولايات المتحدة ، وخاصة ارتباط هذه الهجرة بحجم الاستثمارات في انجلترا ، يصدق أول ما يصدق ، بالنسبة للايرلنديين ، حيث اذا تضاءلت فرص العمل امامهم في انجلترا، مع ما يعانونه من بؤس في ايرلندا ، صار منفذهم الولايات المتحدة ، خاصة ، أنهم هنا أيضا ، كما في انجلترا ، كانوا على استعداد للقيام بالأعمال التى لا تحتاج الى تخصص دقيق ، مع الاكتفاء بادنى الأجور(٤٣٤) .

ولذلك استخدم الايرلنديون بالذات ، في بناء الطرق ، وحفر القنوات ، وفيما بعد في بناء السكك الحديدية ، وننقل هنا عن أحد الكتاب الايرلنديين ، ظـروف عمل وحياة هؤلاء العمال « ان الآلاف من عمالنا يقطعون آلاف الأميال للبحث عن عمل في حفر القنوات مقابل أجر يومى يتراوح بين ½ ٦٢ و ½ ٨٧ سنت ، وهم يؤدون دولار ونصـف أو دولارين للفرد أسبوعيا ، للحصول على مأوى ، تاركين

---

(٤٣٣) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 166.

(٤٣٤) A.G. Lagrange, op. cit. note 202, p. 221.

وراءهم عائلاتهم التى لا عائل لها غير الأب المهاجر • وغالبا ما يعملون في مستنقعات حيث يتنفسون العفونة ويصابون بالسل والطاعون ، بحيث اذا عادوا الى أهاليهم ، بالكسب التافه الذى حققوه ، عادوا معدمين ، ليلقوا الموت طريحى الفراش • غير أن أعمالهم او اماكنهم لا تظل خالية ، بل تشغل فور خلوها بآخرين يرون الموت ينتظرهم • ونجد مئات منهم يعملون في رصف الطرق مقابل ٥٠ الى ٧٥ سنتنا يوميا ، متعرضين لحرارة الصيف ولقسوة البرد في الشتاء ••• هذه الأعمال ، كلها ، قاسية الظروف ، قليلة الأجر ، لا يلجأ اليها الا من يفضلها على التسول أو السرقة ••• »(٤٣٥) •

لقد كان الايرلنديون ، هنا أيضا في أدنى مراتب السلم الاجتماعى للجنس الابيض « بحيث لم يكن هناك أدنى منهم سوى فئة من البيض عرفت باسم The indentured » ، لذلك كان من المعتاد قراءة اعلان كهذا « مطلوب طباخ يجيد غسل الملابس وكيها ، يتقن عمله ، بغض النظر عن لونه أو جنسيته ، ماعدا الايرلنديين » لذلك ، كان من الطبيعى ان يجد الايرلنديون في الزنوج منافسا لهم وأن يرفعوا خلال انتخابات نيويورك شعارا كتب عليه « فليسقط الزنوج ، فليعودوا الى بلدهم الأصلى : أفريقيا » ان البؤس المدقع فرق بين من جمع بينهم القدر في نفس بوتقة الاستغلال ، فلم يجد الايرلنديين في السود ، سوى منافس خطير ، رغم أنهم لم يكونوا أقل منهم بؤسا •

٢ - العبيد :

كانت هذه الفئة تتكون من السود الذين استجلبهم تجار العبيد من أفريقيا • والواقع أن هؤلاء السود لم يكونوا عبيدا منذ البداية ، بل كانوا مجرد مدينين بثمن الرحلة ، فاذا ، ادى أى منهم ، الى الشخص الذى قام بسداد ثمن رحلته ، قيمة هذه الرحلة ، استرد حريته ، ومن هنا أطلق عليهم في بداية الأمر The Indentured

وحتى نتفهم كيف تحول السود الى عبيد ، فلنستمع الى شهادة John Rolfe أول من ذرع الدخان في الولايات المتحدة : « في شهر أغسطس ١٦١٩ وصلت باخرة حربية هولندية باعت لنا ٢٠ زنجيا ، ولكن هؤلاء ، نظرا لكونهم معمدين لم يكن ممكنا (بموجب القانون القائم آنذاك)(٤٣٦) اعتبارهم عبيدا ، انما كان ينظر اليهم على أنهم خدم مسيحيون Christian Servants

(٤٣٥) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 168.

(٤٣٦) وقد الغى هذا القانون في ولاية فرجينيا عام ١٦٦٧ ، بينما بدأت قوانين الولايات الجنوبية على الأخص ، تعترف بالرق رسميا اعتبارا من ١٦٦٠ •

وبعد مضي ٣١ عاما (١٦٥٠) على وصول الباخرة الهولندية لم يكن في فرجينيا أكثر من ٣٠٠ شخص أسود ، وبعد مضي ثلاثين عاما أخرى (١٦٨٠) بلغ عددهم ٣٠٠٠ شخص • وفي الفترة من عـام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٨ قامت الشركة الملكية الأفريقية الانجليـزية Royal African Company بنقـل ما يقـرب من ١٠ آلاف أسود الى أمريكا وقد لقي ربع هذا العـدد حتفه في أثنـاء النقل ، وما ان بدأ القرن السابع عشر ، حتى كان الرق والتفرقة العنصرية امرا شائعا ، وهـكذا فان ولاية الميريلاند أصدرت قانونا عـام ١٦٦٤ يسترق المرأة البيضاء التى تتزوج من أسود طوال حياة زوجها ، اما الأولاد الذين يأتون من هذا الزواج فيظلون عبيدا مدى الحيـاة(٤٣٧) •

والرق هنا، لا يختلف عن الرق المعروف في العصور القديمة : فالعبد ملك لسيده، ينصرف فيه كيفما شاء ، مع فارق واحد ، ان الرق في الولايات المتحدة ، استخدم كوسيلة لدعم النظـام الرأسمالى ، واستخدم في هذا الغرض من قبل الرأسماليين، بحيث ان تجـار العبيـد كانوا يغزون أساسـا السوق الرأسمـالية التى في طور التكوين ، وعلى الأخص الولايات المتحـدة الأمريكية • لذلك ، فليس من الغريب ان نجد ، ان عدد ملاك العبيد ، قبيل الحرب الأهلية ، كان قد ارتفع الى ٤٠٠ر٠٠٠ مالك ، ولكن أقل من ٧ ٪ من البيض كانوا يملكون أكثر من ٧٥ ٪ من العبيد ، وبلغ عدد من يملكون أكثر من ١٠٠ عبد ، ١٧٠٠ أمريكى أبيض ، بينما بلغ عدد العبيد في مجموعة ٤ ملايين عبد ، ٩٠ ٪ منهم كانوا أميين كوسيلة للابقاء عليهم في وضع اجتماعى متدنى(٤٣٨) •

٣ ـ بالاضافة للفئتين السابقتين ، كانت هناك فئة ثالثة وهى التى أطلق عليها The indentured حيث كان وضـعها يشـبه وضـع الزنوج الأول الذين وطأت أقدامهم الولايات المتحـدة ، بمعنى ان أفـراد هذه الطائفة كان عليهم بيع قوة عملهم ، لفترة طويلة ، قد تمتد الى عدة سنـوات ، من أجل أداء مصـاريف رحلتهم ،وخلال فترة السداد ، التى تطول بسبب الفوائد المستحقة لسيدهم ، كان هؤلاء المهاجرون يظلون في حالة من العبودية ، وقد كان معظم أفراد هذه الفئـة ، من العمال المدربين في أوربا ، لذلك كانوا يحققون لسيدهم عائدا مجزيا • ويبدو ان عدد أفراد هذه الفئة لم يكن قليلا ، فبعض الكتاب يعتقـد ، ان نصف المهـاجرين

---

(٤٣٧) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 169

(٤٣٨) Kuczynski, ou. cit., note 362, p. 174.

البيض ، أتوا الى الولايات المتحـدة بوصفهم Indentured ، وقاموا باداء تكاليف رحلتهم ، عن طريق بيع قوة عملهم(٤٣٩) .

ولقد كانت هذه الفئة تمثل أدنى الطبقات الاجتماعية في الجنس الأبيض ، وتأتى في مرتبة أدنى من الايرلنديين ، ولكنها على كل حال في مرتبة أعلى من العبيد السود . وهكذا نرى أن الطبقة العاملة الأمريكية ، خلافا لما كان عليه الحـال في فرنسا أو انجلترا ، كانت تتكون من فئات متعددة ، يختلف وضعها القانونى من حيث الحرية الفردية ، فالبعض يتمتع بحرية كاملة (كالايرلنديين) والبعض مقيدة حريته لمدة زمنية معينة (The indentured) والبعض خاضع لنظـام الرق مدى الحياة ، كالعبيد السود : ولقد بلغت نسبة كل فئة من هؤلاء ٢٠ ٪ من العبيد ، ١٥ ٪ من الـ indentured ، بينمـا كان ٦٥ ٪ من الأحـرار ، مع ملاحظـة ارتفاع نسبة العمال الأحرار في الشمال عنه في الجنوب .

ولكن جميع فئات هذه الطبقة العاملة صاروا أحرارا بعد فترة ، فبالنسبة لفئة الـ indentured فقد تم تحديدها والغى العمـل بهذا النظـام ، في جميـع الولايات ، خلال العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر ، اما العبيد فـكان لا بد من انتظار لنكولن (رئيس الولايات المتحـدة الأمريكية) ليعلن تحريرهم بعد انتصاره في الحرب على الولايات الجنوبية (١٨٦٣) .

ومع استرداد جميع أفراد هذه الطبقة ، لحريتهم ، بدأت الحركة العمالية الأمريكية تتلمس طريقها بصعوبة ، ناجمة بالطبع ، عن انعدام التجانس بين الفئات المكونة لها ، ولكن الظروف المشتركة للمعيشة والعمل ، هنا ، كما هو الحال في أى بلد صناعى آخر ، سيخلف لديهم الاحساس بالتضامن ، هذا الاحساس الطبقى يساعد على توحيد الصفوف . ولعل ابلغ مثال نعطيه لنختتم به الكلام عن الطبقة العاملة في الولايات المتحـدة الأمريكية ، هو مثـال يؤكد على مدى الازدراء وعـدم الاكتراث الذى كانت تعامل به هذه الطبقة ، من جانب أصحاب رؤوس الأموال : ففى خطاب مرسل من جانب أحد شركات التأمين ، الى أحد رجال الصناعة ، كان بالامكان ان نقرأ ما يلى :

---

(٤٣٩) وقد كان هؤلاء يلتزمون باداء مصاريف رحلتهـم في مواجهـة ربان السفينـة ، او بعض الوسطاء ، الذين في مقابل الحصول على تكاليف النقل ، كانوا يبيعـون هؤلاء المهـاجرين مقـابل ربح قدره ١٥ ٪ تقريبا ، لذلك ، كان من المعتاد قراءة مثل هذا الاعلان في الصحف .

« مائة رجل قادمين من بلاتينا سوف يسلمون ، كل منهم لمدة خمس سنوات ، لكل من هو على استعداد لدفع نفقات نقلهم التى تقدر بعشرة جنيهات للفرد » وقد نشر هذا الاعلان بجريدة الأخبـار الجديدة News Letter في ٢٥ أكتوبر ١٧٣٣ . Kuczynski, ibid, p. 172.

« سيدى العزيز

لقد قررنا عدم قبول طلبات التامين المقدمة من المصانع • فهذه الاماكن تعتبر بمثابة مقابر بالنسبة لشركات التأمين ، وقد قررنا ان نتجنبها ، فعلى الرغم من قلة البوالص ، فاننا نتلقى طلبات تعويض متزايدة ٠٠٠٠ » وهكذا يتضح من هـذا الخطاب أن المصانع كانت بمثابة المقابر لشركات التامين ، نظرا لكثرة أصابة العمال من جراء الحوادث والأمراض المهنية ، ولكن الأخطر ، ان هذه المصانع كانت أيضا ، مقابر للعمال أنفسهم ، ولكن الخطاب لا يلتفت الى ذلك ، مادامت الشركة لن تقوم بالتأمين بعد ذلك على العمال • وبذلك ، يظل هذا الخطاب ، بدلالته ، دون حاجة الى أى تعليق(٤٤٠) •

(ج) مولد الطبقة العاملة في فرنسا(٤٤١) :

لو أردنا الكلام عن الطبقة العاملة في فرنسا ، لقلنا انها طبقة ، تميزت في نشأتها ، بخاصتين متعارضتين ، ولا يمكن ان نتفهم صورة التعـارض ولا كيفية حدوثه ، الا بتحليل الظروف التى أحاطت بتلك الطبقة عند نشـأتها • حقـا ، ان الهجرة من القرية الى المدينـة كانت من عوامل تـكوين هذه الطبقـة ، وأنهـا عانت الحياة في المدينة الصناعية وخضعت للنظام الرأسـمالى للعمل في المصنع ، فهى في ذلك ، لا تختلف عن باقى الطبقـات العمالية ، ومع ذلك ، يظل ما يميز هذه الطبقة ، من صفات متعارضة كما سبق القول ، هو أنها كانت أكثر بطؤا من حيث تكوينها ، عن باقى البلاد الصنـاعية الأخرى وعلى الأخص انجلتـرا ، ومع ذلك ، فان هـذه

---

(٤٤٠) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 179.

(٤٤١) G. Dupeux, op. cit., note 299, pp. 141 et s.s.

A. L. Dunham, op. cit., note 273, pp. 154 et s.s. et 162 et s.s.

P. Jaccard, op. cit., note 302, pp. 202 et s.s.

M. Branciard, op. cit., note 302, pp. 27 et s.s.

Ch Moraze, op. cit., note 347, pp. 415 et s.s.

A.G. Lagrange, op. cit., note 202, pp. 194 et s.s.

H. Seé, op. cit., note 275, pp. 64 et s.s.

Kuczynski, op. cit., note 362, pp. 184 et s.s.

وانظر أيضا : Felix Ponteil : Historie générale Contemporaine "du millieu du XXVIII° Siéile à nos jours" No. ed. Dalloz - Paris 1973, pp. 253 — 257.

الطبقة كانت أكثر الطبقات العمالية ثورية ، وأنها ومنذ وقت مبكر ، اتخذت صبغة سياسية أكثر منها في أى بلد آخر · هاتان الخاصتان المميزتان لهذه الطبقة العاملة الفرنسية ، لا يزيل التعارض بينهما ، الا دراستهما عن قرب ·

اولى هذه الخصائص ، هى ان الطبقة العاملة الفرنسية تكونت في وقت لاحق على الطبقة العاملة الانجليزية ، فبينما يعتبر الكتاب ان عام ١٧٦٠ هو بداية مولد الطبقة العاملة الانجليزية ، نجد ان هذا الحدث قد تأخر في فرنسا الى عام ١٧٩٠(٤٤٢) ، ولعل ذلك كان نتيجة طبيعية لأن الثورة الصناعية في فرنسا لم تتطور بنفس السرعة التى عرفتها في بلاد أخرى ، وعلى الأخص انجلترا · ويرجع الكتاب ، بطء الثورة الصناعية في فرنسا ، وتراخى تكوين طبقة عاملة في المصانع ، لأسباب متعددة ، نذكر منها(٤٤٣) :

- التطور الديمغرافى البطىء في فرنسا ·
- كثرة الاستثمارات في الخارج ، وكثرة الديون الحكومية مع الاتجاه الى اكتناز الذهب ·
- هجرة العمال المتخصصين ·
- ضعف كميات الفحم ·
- ضعف التجهيزات الأولية ·
- سياسة حماية جمركية تعوق التطور الرأسمالى ·
- بيروقراطية الجهاز الحكومى ·

هذه الأسباب ، يعتقد انها بحق ، لعبت دورا في التطور الصناعى البطىء في فرنسا ، دون ان نقدم أحدها على الآخر ، ومع ذلك ، نعتقد أيضا ان هناك عاملا رئيسيا يتمثل في ان فرنسا ، لم تعرف كانجلترا ، حركة الأسيجة ، التى ساعدت على لفظ صغار الملاك خارج أراضيهم فساعدت على تكوين جيش من المتعطلين أمد الصناعية بحاجاتها الى الأيدى العاملة · بل ، على العكس ، ساعدت الثورة الفرنسية على تثبيت هذه الطبقة ، حيث منحت أفراد هذه الطبقة قطع صغيرة من الأرض ، تمسكوا بزراعتها ، رغم ما لقوه من مصاعب نتيجة لضعف امكانيات الاستثمار لديهم وللضرائب المرتفعة(٤٤٣) ، ومع ذلك ظلوا متعلقين بالأرض وأخذ

---

(٤٤٢) راجع ما سبق ، ص ٢٥٧ وما بعدها ·

(٤٤٣) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 192.

عددهم يزداد ، ولعل ذلك ، يفسر لنا لماذا نجحت انجلترا في عملية التصنيع بسرعة كبيرة ، ذلك انها كانت قد قضت مسبقا على الملكيات الصغيرة ، بحيث اختفت هذه الطبقة من النظام الاقتصادى الانجليزى حين قامت الثورة الصناعية ٠

لذلك ، فلم يكن الأمر مجرد صدفة ، ان البلاد الأوربية التى نزعت ملكية صغار الفلاحين كانت اسرع البلاد في تحقيق التقدم الصناعى ، كما حدث في انجلترا وأيضا في ألمانيا ، فالتقدم الصناعى لم يكن ممكنا في هذه البلاد ، الا لو تمت التضحية بهذه الطبقة ، ليس فقط لان ذلك كان وسيلة للحصول على جيش احتياطى من الأيدى العاملة، وانما أيضا لأن هذه الطبقة كانت تقف حائلا امام أى تطور اجتماعى، فهى مرتبطة بالأرض وبالتقاليد ، وحرصها على ملكيتها « الصغيرة » يجعلها تقف في مواجهة أى محاولة للمساس بالملكية عموما ، وهذا مالاحظه كارل ماركس بحق بالنسبة لفرنسا ، حين كتب « اما في فرنسا ، فان تملك الأرض جائز لكل من يملك ثمنهـا ، ولكن هذه الميزة هى التى سمحت بتقسيم الأرض الى قطع صغيرة زرعت من جانب أشخاص لا يتوفرون على الوسائل المادية الكافية ، فاعتمدوا على قوتهم العضلية وعلى العمل العائلى ٠ هذه الملكية المفتتة لا تقف عائقا فحسب أمام كل تطوير لأساليب الزراعة ، بل وأيضا امام كل تقدم اجتماعى لأن الفلاح نفسه في ظل هذا النظام يصبح العدو الأول لكل تقدم اجتماعى[٤٤٤] » ٠

حقيقة ، كان هناك في فرنسا حوالى ١٨١٠ ، « بروليتاريا » بمعنى الكلمة ، خاصة في صناعة النسيج ، تلك البروليتاريا الخاضعة لنظام المصنع الحديث والمتكدسة في المدن الصناعية ، ولكنها أى هذه الفئة لم تكن الغالبة في تكوين الطبقة العاملة الفرنسية ، بل كانت الغلبة في تكوين هذه الطبقة ، اما للمهنيين والحرفيين، أو العمال العاملين بالورش الصناعية : ففى الفترة من ١٨١٥ الى ١٨٤٠ ، عرفت فرنسا أزديادا ملحوظا في عدد سكانها بسبب انخفاض الوفيات وكثرة المواليد ، فبلغ عدد سكانها ٣٦ مليون نسمة (بعد ان كان ٢٦ مليونا فقط) ، وبلغ عدد العمال في هذه الفترة حوالى ٥ ملايين عامل ، ولكن كان عدد العاملين في المصانع الكبرى لا يتجاوز ١٫٤٠٠٫٠٠٠ (مليون وثلثمائة ألف عامل) ٠ ففى عام ١٨٣٠ مثلا كان هناك ٨٠٫٠٠٠ عامل يدوى أى من العاملين بالمنازل في نطاق صناعة غزل القطن ، بينما لم يكن عدد العاملين في المصانع آنذاك في نفس الصناعة يتجاوز ٥٥٫٠٠٠ عامل ، ومن حيث عدد العاملين ، فاستثناء بلغ عدد العمال في بعض

---

(٤٤٣) P. Jaccard, op. cit., note 302, p. 202.

(٤٤٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 195.

المقاطعات ٣٣٠ عاملا في المصنع الواحد ، ولكن في غالب المقاطعات ، لم يكن صاحب العمل يستخدم أكثر من ١٠ عمال(٤٤٣) .

هذه الظاهرة ، اى ظاهرة غلبة العمال اليدويين والعاملين بالمنازل والورش الصناعية ، من حيث العدد ، على عمال المصانع ، لها أسباب متعددة(٤٤٤) ، ولكنها ولا شك ، أدت الى تكون طبقة عاملة في « المصانع » على غرار انجلترا والمانيا ، وفي هذا المعنى كتب H. Sée ، يصف حالة الطبقة العاملة الفرنسية ، عام ١٨٧٠ « نظرا لان الصناعات اليدوية مازالت لها الغلبة ، فانه ، باستثناء باريس وبعض المدن الكبرى ، لا نجد تجمعات عمالية كبيرة ، لذلك ، فان الحركة العمالية في هذه المرحلة ، لم تكن من المشاكل التى كان يتعين على نابليون ان يحسب حسابها » .

طبعا ، كما سبق القول ، لم تكن فئة « العاملين » في المصانع منعدمة ولكنها كانت بسيطة بالقياس لمجموع العمال المأجوريين ، اليدويين منهم ، والعاملين في الورش والمنازل .

ولكن ذلك ، لم يمنع من القول بوجود طبقة عاملة فرنسية ، خاصة لو لاحظنا ، ان العمال اليدويين أنفسهم ، كانوا ينقسمون الى قسمين : قسم منهم يرفض الاختلاط بالطبقة العاملة او التشبه بها ، نظرا لان هذه المجموعة كانت تقوم بانتاج « المصنوعات الفاخرة Artisanat de luxe » التى اشتهرت بها فرنسا والتى كانت مخصصة للتصدير او لاستهلاك الطبقات الاجتماعية العليا ولم

---

(٤٤٣) راجع في هذه الاحصائات .

A. L. Dunham, op. cit., note 273, p. 155.
Kuczynski, op. cit., note 362, p. 196.

(٤٤٤) منها ما يتصل بعدم هجرة صغار الملاك ، وبقائهم في الارض ، وعدم كفاية دخلهم الزراعى مما ساعد على انتشار العمل المنزلى في مجال الغزل والنسيج بالذات ، بالاضافة الى ان بعض المدن الكبرى ، كباريس وليون ، استطاعت الورش الصناعية فيها ان تعرض اجورا مرتفعة لم يكن من السهل الحصول عليها في الصناعات الناشئة والمدن الصناعية الجديدة .

راجع في هذه الأسباب بالتفصيل .

A.L. Dunham, op. cit., note 273, pp. 156 — 161.

يكن هناك منافس لها في العالم الرأسمالى . لذلك ، كان أفراد هذه المجموعة يترفعون عن الاختلاط بطبقة العمال ، سواء في ذلك عمال المصانع ، او المجموعة الثانية من اليدويين ،التى كانت تقوم بانتاج مصنوعات مخصصة لاستهلاك الطبقات الاجتماعية الدنيا ، وهذه المجموعة ـ الأكبر من حيث العدد في مجموع العمال اليدويين ، كانت تختلط بعمال المصانع من حيث ظروف معيشتها .

أضف الى ذلك ، ان طبقة « صغار المزارعين » ، كانت في وضع اجتماعى ، لا يختلف كثيرا عن الطبقة العمالية ، من حيث ظروف المعيشة ، ولذلك ، نظرا لهذه « التركيبة الاجتماعية » المعقدة ، كان من الصعب خلال السنوات ١٨١٠ ـ ١٨٥٠ في فرنسا ، تحديد المكانة الاجتماعية للفرد في الطبقات الدنيا للسلم الاجتماعى(٤٤٥) .

والآن ، يمكننا من وصف « تركيب » الطبقة العاملة الفرنسية ، المميز ، ان نصل الى الناحية الثانية المميزة لهذه الطبقة في فرنسا ، والتى تبدو متعارضة تماما مع الناحية الاولى ، ونقصد بذلك الطابع الثورى لهذه الطبقة . لقد كتب H Sée عام ١٩٣٤ ، متعجبا من هذا الطابع السياسي الثورى للطبقة العاملة الفرنسية ، ومستشهدا بالمثال الفرنسي لدحض بعض الحجج التى يسوقها الكتاب الماركسيون، ويؤكدون بها ان ثورة البروليتاريا لا يمكن حدوثها الا في البلاد التى بلغت أوج التركز الصناعى ، فرد عليهم قائلا « ويمكننا ان نلاحظ ، ان المادية التاريخية ، أو على وجه أدق ، ان التفسير المادى للتاريخ ، لا يكفى لتفسير وتبرير « الوعى الطبقى»

---

(٤٤٥) ويمكننا ان ندلل على الطبيعة الخاصة لهذه التركيبة الاجتماعية المعقدة ، لو اخذنا مثلا صناعة الحديد في مدينة ليون الفرنسية : فهذه الصناعة كانت تتطلب تعاون ثلاث فئات ذات وظائف اقتصادية مختلفة : الممولون الذين يقومون بتقديم المادة الأولية ويبلغ عددهم حوالى ٨٠٠ شخص . ثم أصحاب الورش وعددهم حوالى ١٠,٠٠٠ يملك كل منهم في المتوسط خمس آلات ، وأخيرا العمال وعددهم يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ عامل » . والعجيب ، انه عند حدوث مظاهرات او اضطرابات عمالية (خاصة اضطرابات ليون عام ١٨٣١) ، فان « أصحاب الورش » كانوا يتضامنون مع العمال ، رغم ما قد يبدو من تعارض مصالحهم ، بل ، ان التضامن منهم بلغ حد اقامة جمعيات مشتركة لتبادل المعونة des Mutualités . لذلك ، كان من الصعب تصنيف هؤلاء الاجراء او أصحاب الورش : فهل يمكن ان تصنف الأول بين أفراد الطبقة العاملة (رغم أن عددهم بكل ورشة لا يتجاوز ٥ أفراد) ، ولكنهم على كل حال ، يعملون على آلات ، ويشتركون من حيث الظروف الاجتماعية مع عمال المصانع الكبرى. واصحاب الورش ، أين يمكن ان نضعهم ؟ مع فئة « الحرفيين » أم نلحقهم بطبقة أصحاب الأعمال ، الأنسب طبعا ان تعتبرهم من الحرفيين ، لأنهم وان كانوا يملكون الآلات فهم لا يستطيعون شراء المادة الأولية ويظلون بذلك في حالة تبعية بالنسبة للممول ... » .
Kuczynski, op. cit., note 362, p. 198.

في ألوقت الحالى • ذلك أنه يتعين أيضـا الأخذ في الاعتبـار بالجانب « الفـكرى » (الأيديولوجى) الذى كثيرا ما ساهم في ايجـاد الشعور الطبقى واعطـاء المزيد من الاحساس به لدى الطبقات الاجتماعية المختلفة : فازدهار الأفكار الاشتراكية اولا ، ثم الفـكر الماركسي بعد ذلك ، خـلال القرن التـاسع عشر ، كان له أكبر الأثر على الأحداث • ففى فرنسا مثلا بدأت الحركة العمالية نشاطها ، في الطوائف المهنية في باريس ، وفي نطاق الصناعات الصغيرة ، حيث لم تكن الطبقة العاملة قد بدأت تعانى من آثار التركز الصنـاعى • ولذلك ، كثيرا ما كنا نجـد في مطالب هؤلاء العمـال ، التركيز على فكرة « العدالة » وهى الفكرة التى انصبت عليها كتابات الاشتراكيين الفرنسيين من برودان الى سان سيمون ومن تبعهما »[٤٤٦] •

هذه الملاحظة ، التى أبداها H Sée ، تعكس بوضوح الطابع المميز للطبقة العاملة الفرنسية ، وهو الطابع الثورى ، بحيث استحقت هذه الطبقة ، ان يقال عنها ، بحق ، انها أكثر الطبقات العمالية « وعيا » من الناحية السياسية ، وانها ومنذ وقت مبكر ، كانت أكثر الطبقات العمالية في العـالم تأثيرا في الحياة السـياسية • فكيف يمكن تفسير ذلك ، بالرغم مما سبق قوله ، من بطء تكوين هذه الطبقة ، وعلى الأخص ، عن ضعف نسبة العاملين في « المصانع » الى مجموع العمال المأجورين ، وعن التركيب الخاص لهذه الطبقة •

لعل أول ما يخطر بذهن المحلل مباشرة ، هو الثورة الفرنسية الكبرى عـام ١٧٨٩ ، التى تركت ولا شك بصماتها على كل الفرنسيين ، على تعاقب الأجيال ، والتى تعتبر نهايتهـا ؛ باعتبـارها ثورة شـعبية عامة ، هى بداية ثورة الطبقـة العمالية • ويكفينا في هذا الصدد ، ان نقارن ، بين المفكرين الاشتراكيين الانجليز ، وأقرانهم الفرنسيين : فالاشتراكيون الانجليز ، كانوا يتميزون بالخيـالية ، وكانت الحلول التى يقترحونها، حلولا جزئية، بينما كان الاشتراكيون الفرنسيون يتميزون بالواقعية والنظرة الشاملة للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، فلنقارن مثلا ، بين روبرت أوين الانجليزى وسان سيمون الفرنسي •

ان روبرت أوين[٤٤٧] هو مثال للاشتراكى الانجليزى الخيالى ، الذى كان يعتقد ان كل المشاكل الاجتماعية للطبقة العاملة يمـكن القضـاء عليهـا عن طريق

---

(٤٤٦) Seé, op. cit., note 275, p. 149.

(٤٤٧) راجع مؤلفنا في الحركة التعاونية « من الناحيتين الفكرية والتشريعية » ، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥١ وما بعدها •

« التعاونيات » ، واقام هذه التعاونيات على أساس « تجارى » بحت ، اهتم فيه بالتفاصيل الفنية والمالية ، دون ان يتعرض لحلول دائمة لصراع الطبقات ٠ وهذا ما يميزه تماما عن سان سيمون مثلا(٤٤٨) بينما عاش سان سيمون أيام الثورة الفرنسية (حيث كان في بدايتها لم يبلغ بعد ثلاثين عاما) لاذلك ، اتسم بطابع ثورى ولكن واقعى في نفس الوقت ، فلم يكن يدعو الى ثورة عمالية ، ولا الى القضاء على الطبقات العليا في المجتمع ، فهو لم يكن من دعاة « التدمير » وانما من انصار التوسع الصناعى واقامة صرح اقتصادى قوى ، مع تنظيمه على نحو يتجنب به المساوىء الاجتماعية للنظام السياسي والاقتصادى القائم ٠

ان فرنسا ، منذ فرانسوا كيناى Quesnay مؤسس مدرسة الفيريوقراط(٤٤٩) ، لم تنجب اقتصاديين ذوى شهرة عالمية ، بعكس انجلترا التى كانت ، في هذا المجال ، دائما في المقدمة ٠ ولكن على العكس ، نجد ان فرنسا ، احتلت الصدارة ، ان لم تكن في مكانة فريدة في نطاق العلوم السياسية والاجتماعية، بحيث يصعب وضع مفكريها تحت حصر ، وهو ما يفسر لنا جزئيا ، كيف ان « السياسة » كان لها السبق دائما في حياة الشعب الفرنسي عموما ، والطبقة العاملة الفرنسية بصفة خاصة ، والدليل على ذلك ، ما عرفته فرنسا خلال السنوات ١٧٨٩ — ١٨٧١ ، من اندلاع أربع ثورات شعبية عارمة ، دون ان يقع في انجلترا مثلا ، أى تحرك شعبى يمكن مقارنته باحدى هذه الثورات(٤٥٠) ٠

---

(٤٤٢) سنقوم بدراسة الاشتراكيين الفرنسيين وأفكارهم ، في الفصل الثالث من هذا المؤلف ، نظرا لأهمية الدور الذى لعبوه في مد الحركة العمالية بالأسس الفكرية التى تستند اليها في مقاومة النظام الرأسمالى وخاصة الأفكار التى اتت بها الطبقة البورجوازية ٠

ولكن ، مؤقتا نحيل القارىء في هذا الصدد الى :

Felix Ponteil : op. cit., Note 441, pp. 259 et s.s.

Michel Branciaid : op. cit., note 302, pp. 67 et s.s, 93 et s.s, 103 et s.s, et 121 et s.s.

L. Epsztein, op. iit., note 279, pp. 123 — 136.

J. Bron, op. cit., note 282, pp. 80 — 94.

(٤٤٩) راجع ما سبق ، ص ١٥٩ وما بعدها ٠

(٤٥٠) ونقصد بهذه الثورات الأربع ، ثورة ١٧٨٩ الفرنسية ، ثم ثورة عمال الحرير في مدينة ليون في ٢١ نوفمبر ١٨٣١ حيث استولوا على المدينة باكملها وعرفت هذه الثورة باسم ١٨٣١ la révolte des canuts de Lyon ثم الثورة التى قامت في ١٨٤٨ (وبالذات في شهر فبراير) فاطاحت بالملك لويس فيليب (دوق أوليان) الذى حكم فرنسا عند عودة النظام الملكى اليها=

لذلك ، فليس من المستغرب أن نجد في فرنسا ، في الفترة التاريخية المشار اليها ، أن جمعيات « تبادل المعونة » أو بعض الجمعيات السرية (نظرا لتحريم التجمعات العمالية ـ كما سنرى ـ بموجب قانون le Chapelier الصادر عام ١٧٩١) ، هذه الجمعيات كانت نواة للعمل الثورى والسياسي لذلك ، فبالرغم مما كتبه بعض معاصرى الثورة الفرنسية عام ١٧٩٥ ، من ان « الأمة الفرنسية خلدت الى الراحة » فان هذه الأمة كانت أكثر ثورية من العديد من الأمم الأخرى ، وليس أدل على ذلك ، من أنه لم يأت عليها عام ١٨٤٠ حتى كانت البلاد تشهد انتفاضات شعبية في كل مكان ، واشتهرت هذه الفترة باضطرابات اقتصادية واجتماعية رفعتها الى مرتبة الثورة الفرنسية الأم من حيث أهميتها ، وانتهت بثورة عمال الحرير في ليون عام ١٨٣١(٤٥١) •

ولكن هل يمكننا ، أن نقف عند الجانب الفكرى ، لشرح الطبيعة الثورية للطبقة العاملة الفرنسية ؟ ان الاجابة بالنفى طبعا ، فبالاضافة الى تأثير الكتاب الاشتراكيين الفرنسيين ، ومدى ما خلفته الثورة من عادات « ثورية » لدى الطبقات الشعبية ، ينبغى أيضا النظر الى ما أحدثته هذه الثورة من تحولات اجتماعية ، فلقد نجحت الرأسمالية الصاعدة في القضاء على امتيازات طبقة النبلاء ، ولكن ذلك لم يكن يؤدى بذاته الى الغاء الفوارق الطبقية ، التى بعد ان كانت قانونية ، أصبحت تقوم على أساس اقتصادى ، لذلك فان هذه الطبقات الشعبية العريضة ـ امام تطور النظام الرأسمالى في فرنسا ، تلك الطبقات التى كانت دائما وراء المتاريس ابان الانتفاضات الشعبية ، كانت تشبه الى حد كبير في ظروف معيشتها ، طبقة البروليتاريا الصناعية ، ومن هنا يفهم ان الحركة الشعبية الفرنسية كانت في آن واحد حركة سياسية وعمالية او ـ بتعبير أدق ـ « بروليتارية » • ذلك ، ان ظروف

= منذ عام ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ ، واستطاعت ثورة ١٨٤٨ اعادة النظام الجمهورى تحت اسم (الجمهورية الثانية) • واخيرا ، تلك الثورة التي لعبت فيها طبقة البروليتاريا الدور الاكبر ونعنى بها كميونيه باريس la Commune de Paris (في الفترة من ١٨ مارس الى ٢٧ مايو ١٨٧١ والتى كون العمال فيها حكومة تتولى تصريف الشئون العاملة لمدينة باريس ، والتي ووجهت بعنف لم يسبق له مثيل من قبل الطبقة البورجوازية •

(٤٥١) راجع في هذه الأحداث :

G. Lefranc, op. cit., note 362, pp. et s.s.

A. G-Lagrange, op. cit., note 202, p. 197.

M. Branciard, op. cie., note 302, p. 63.

J. Bron, op. cit., note 287, p. 57.

عمل ومعيشة هؤلاء العمال ، حتى اليدويين منهم أو عمال المنازل ، لم تكن تختلف اختلافا جوهريا عن عمـــال المصانع ، وقد اكد ذلك كثير من المعاصرين لتلك الأحداث، ولعل أهم هذه الشهادات ، ماكتبه الكاتب Heine (٤٥٢) : « قل لى ماذا بذرت اليوم سأقول لك ما ستحصده غدا ، هذا المعنى هو ما كنت أفكر فيه ، حين قمت بزيارة بعض الورش في منطقة Saint-Marceau حيث رأيت ما يتداول بين عمال هذه الورش من كتابات ، فهناك أحاديث روبسبيير وكتابات مارات Marat ، وتاريخ الثورة الفرنسية للكاتب Cabet ، ومجموعة أخرى من الكتابات التى تكاد تفوح منها رائحة الدم • واستمعت لما يردده هؤلاء العمالمن أناشيد ، فكأنها أناشيد اتت من الجحيم ، تدل بالنغمة التى تؤدى بهـــا انهـــا دعـــوة الى ثورة » • وفي نفس هذه الفترة ، تعددت المطبوعات والدوريات التى تعبر عن هذه الطبقة الثائرة ، منهـــا مثـــلا ، جريدة العمـــــال le journal des ouvriers ، أو جريدة الشـــعب le peuple ، أو العامل اليدوى l'Artisan ، وجريدة الكرة الأرضية Le Globe التى أصدرها سان سيمون ، او العالم الجديد le nouveau monde باشراف فوريبه Fourrier ، أو « الشعبى le populaire » التى اصدرها كابيه Cabet وغيرها من الدوريات التى كانت تتحدث ، باسم هذه الطبقات الثائرة • هذه الطبقات شعرت أنها قد خدعت من جانب الطبقة البورجوازية ، فبعد ان اتحدا ابان الثورة الفرنسية ، للتخلص من طبقة النبلاء ، تنكرت البورجوازية للطبقات الدنيا التى ساعدتها ، لذلك كان الكفاح السياسي الثورى وسيلة ، تستمد منها هذه الطبقات الضعيفة احساسها بالتضامن ، أى احساسها الطبقى لتواجه مرة أخرى ، تلك الطبقة التى خدعتها (الطبقة البورجوازية) التى افادت من الطبقات الضعيفة لتحقيق مآربها (التخلص من طبقة النبلاء) حتى اذا تحقق لها ذلك ، تحولت الى عدو لا يرحم ضد

---

(٤٥٢) Heinrech Heine كاتب وشـــاعر المالى ولد في دوسلدورف Dusseldorf عام ١٧٩٧ ومات عام ١٨٥٦ ، اشتهر بكتابة القصة الاجتماعية، وكانت اشعاره تعكس المســاوىء الاجتماعية للنظام الراسمالى ، ومر بباريس عام ١٨٣١ وكان معاصرا للأحداث الاجتماعية ، وأشهر كتاباته : كتاب الأغانى le livre des Chants (١٨٢٧ ـ ١٨٤٤) وصور من رحلة Images de Voyage (١٨٢٦ ـ ١٨٣١) والتى كان يتحدث فيها بالذات عن ظروف الطبقة العاملة في فرنسا •

وقد ورد ذكر الجزء المذكور في المتن ، في مؤلف :

Kuczynski, op. cit., note 362, p. 189.

(٤٥٢) A. L. Dunham : op. cit., note 273, pp. 161 et s.s.

G. Dupeux, op. cit., note 299, pp. 149 et s.s.

P. jaccaid, op. cit., note 302, pp. 202 et s.s.

من ساعدوها في بداية الأمر ـ ومن هنا ، تحول هؤلاء الذين خـدعوا ، الى العمـل الثورى من جديد، فالثورة لم تصلح من شأنهم، بل ربما ازدادت أحوالهم سوءا(٤٥٢) . لذلك شهدت الفترة من ١٨٣٠ – ١٨٤٨ في فرنسا اضطرابات لم تشهدها أى بلد آخر،منها مثلا، اضطرابات عمال باريس في يونيو ١٨٣٢ وأبريل ١٨٣٤،واضطرابات عمال ليون عام ١٨٣١ ، و١٨٣٤ ، واضطرابات في مدن ليل وتولوز ، وكلارمونفرون ١٨٤٠ واضطرابات عمال مناجم الفحم والنجارين في باريس في أعوام ١٨٣٣ و١٨٤٥، وكذلك عمال المناجم في آنزان عام ١٨٣٣ وفي سانت آتيين عامى ١٨٤٤ و ١٨٤٦ ، ثم أخيرا ثورة ١٨٤٨ ، حيث استطاع الشعب ، بقيادة الطبقة العمالية ولأول مرة في التاريخ مواجهة كل الاعداء الخارجيين(٤٥٣) ، رغم ما لقيته هذه الثورة من هزيمة منـكرة ، عبـر عنهـا كارل ماركس بقـــوله (في ٨ ١مارس ١٨٥٢) : « لقد هزمت البروليتاريا في باريس بشكل كفل القضاء عليها ، لدرجة أنهم لم يفيقوا بعد حتى الآن من الصدمة التى تلقوها »(٤٥٤) .

بهذا العرض ، نكون قد اوضحنا الخاصتين المميزتين للطبقة العاملة الفرنسية، طابعها الثورى من جهة ، وبطء التطور الصناعى (بالمعنى الحديث) والطبقة العاملة في المصانع من جهة أخرى . ورغم ما قد يبدو من تناقض بين الصفتين ، الا ان ازالة هذا التناقض تصبح امرا ميسورا ، اذا فكرنا في ان الطبقات الشعبية الفرنســية ، بفضل الثورة الفرنسية ، والكتاب الاشتراكيين اكتسبت احساسا طبقيا منذ وقت مبكر ، بحيث يمكن القول ، ان فكرة الصراع الطبقى كانت قـد ولدت في فرنســا ، حتى قبل كارل ماركس .

* * *

بهذا العرض ، نكون قد انتهينا من دراسة أهم الأمثلة ، على كيفية ميلاد الطبقة العمالية في انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا . طبعا ، هناك بعض الأمثلة الأخرى لميلاد الطبقة العاملة في بلاد أخرى (كالمانيا ، وروسيا واستراليا والهند) ، ولكن هذه الأمثلة ، وان تميزت بطابع خاص يرجع لظروف خاصة بكل بلد ، فأنها في مجموعها لا تخرج عن الوصف العام الذى أوردناه لميلاد هذه الطبقة(٤٥٥) .

---

(٤٥٣) M. Biancard, op. cit., note, pp. 63 et s.s.

(٤٥٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 191.

(٤٥٥) ويمكن للقارىء ـ اذا اراد ـ ان يلجا الى مؤلف Kuczynski السابق الاشـارة ـ

ولكن هذه الطبقة العاملة ، التى أعطينا وصفا عاما لميلادها ، وأعطينا مثالا لمواردها في أهم البلدان الصناعية، والتى وصفناها في اطار المصنع والمدينة الصناعية، وبينا كيف تولد لديها الشعور الطبقى ، هذه الطبقة ، التى ما فتئنا طوال هذا المطلب ، نشير بايجاز ، الى المساوىء الاجتماعية التى تحملتها ، يتعين علينا الآن ، أن نقترب أكثر منها ، وان نحاول ، بيان ظروف عملها ومعيشتها بصورة أكثر اسهابا ، وهو موضوع المبحث التالى ٠

= اليه هامش ٣٦٢ حيث اورد قصة ميلاد الطبقة العاملة في كل من « المانيا ص ١٩٩ » وروسيا ص ٢١٧ ، واستراليا ص ٢١٩ والهند ص ٢٢٢ ٠

المبحث الثاني : ظروف عمل ومعيشة الطبقة العاملة(٤٥٦) :

ننتقل الآن الى السؤال الملح من الناحية الاجتماعية، الا وهو كيف كانت تعيش هذه الطبقة التي أفضنا في وصف ظروف تكوينها؟ من المسلم به، ان هذه الطبقة عانت بشكل قاس في بداية الثورة الصناعية ، فلم يكن التقدم العلمي وسيلة لاصلاح حياة السواد الأعظم من العمال • فعلاوة على نظرية الندرة التى سبق أن أشرنا اليها(٤٥٧) ، فان جشع الرأسمالي وتعطشه الى الربح ، ساهما الى حد كبير ، في خلق الظروف الاجتماعية المتدنية ، بحيث لم يكن ماركس وحده هو الذى لا حظ بحق هذه العلاقة ، وانما لاحظها أيضا بعض اتباع آدم سميث • فبينما كتب ماركس يقول « انا ومن بعدى الطوفان ! هذا هو شعار كل رأسمالى وكل نظام رأسمالى ، ان رأس المال لا يكترث البته بصحة العمال أو بقسوة حياتهم الا اذا أجبر على ذلك • فردا على كل شكوى ضده بسبب الانهيار الجسدى أو الذهنى للعمال ، او موتهم المبكر ، أو قسوة العمل ، تكون اجابة الرأسمالى « مالنا نحن وهذه المشاكل ، طالما اننا نزيد من سعادتنا (أى من الربح) » حقا ، ان النظر للأمور في مجموعها ، يقتضي الاعترافات بأن حل هذه المشاكل لا يتوقف على ارادة الرأسمالى فحسب ، ذلك ان المنافسة الحرة اخضعت الرأسمالى لقوانين الانتاج

---

(٤٥٦) Fohlen, op. cit., note 276, pp. 191 et s.s.
Epsztein, op. cit., note 279, pp. 69 et s.s.
T.S. Ashton, op. cit., note 273, pp. 140 et s.s.
J. Bron, op cit., note 287, pp. 36 et s.s.
Rédor et Rioux, op. cit., note 398, pp. 61 et s.s.
R. Marx, op. cit., note 273, pp. 168 et s.s.
Rioux, op. cit., note 5, pp. 164 et s.s.
Mantoux, op. cit., note 2, pp. 430 et s.s.
G. Lefranc, op. cit., note 362, pp. 257 et s.s.

وبالاضافة الى هذه المراجع انظر أيضا :

Maurice Bouvier - Ajam : Historie du travail en France depuis la révolution.
L.G.D.J. Paris 1969 - pp. 71 et s.s. 87 et s.s. 91 et s.s.

Wolfgang Abendroth : Historie du mouvement ouvirer eu Europe. petite collection maspero. Paris 1973, pp. et s.s.

(٤٥٧) راجع ما سبق ، ص ١٨٧ وما بعدها •

الرأسمالى الصارمة التى لا مفر من الالتزام بها اذا اراد النجاح »(٤٥٨) ، نجد نفس المعانى تقريبا لدى أحد اتباع آدم سميث ، وهو الكاتب Eden ، حيث كتب يقول « ان الانسان الذى لا يملك ، في مقابل المنتجات اصناعية والزراعية ، سوى قوة عمله ، ولا يمكنه ان يسد حاجاته اليومية الا ببيع قوة عملة يوما بيوم ، هو شخص محكوم عليه بان يظل دائما تحت رحمة من يستخدمه ، ذلك أنه ليس من الممكن ان تكون حجج المصلحين وسيلة لحمل أصحاب الأعمال على رفع أجور العمال ، ذلك ان مطالب العمال او تنازلات أصحاب الأعمال ، لا تخضع لمحض ارادة أى منالطرفين ، بل تخضع لظروف لا دخل لهما فيها »(٤٥٩) .

لذلك ، فان الباحث في ظروف الطبقة العاملة ، ابتداء من وقوع الثورة الصناعية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لا يمكنه ان يلاحظ الا ان العامل كان تحت رحمة صاحب العمل ، يتحكم فيه كيفما شاء دون أى نص قانونى يحميه ولا تدخل من جانب الدولة .

وربما ، كان رب العمل ـ كما سبق القول ـ مرغما على تخفيض نفقات انتاجه ، خضوعا لقانون الثورة الاقتصادية ، ولكن هل كان هذا الالتزام الواقع على عاتقه (الالتزام بقوانين المنافسة) ، يضطره الى استغلال الطبقة العاملة على هذا النحو ؟ سؤال قد تختلف الاجابة عليه بحسب الانتماءات الايديولوجية ، ولكن الباحث الموضوعى يمكنه ان يقرر دون تردد ، ان هذه الظروف التى عرفتها الطبقة العاملة ابان الثورة الصناعية ، كانت من القسوة ، بحيث يصعب تبريرها لاى سبب كان . فكيف للمرء ان يبرر عمل العامل في ظروف أبعد ما تكون عن الأدمية (المطلب الأول) خاصة أن خضوعه وامتثاله لهذه الظروف لم تكن توفر له مستوى معقول من المعيشة ، بل كانت ظروف معيشة أسوأ من ظروف عمله (المطلب الثانى) ، لذلك كان من الطبيعى أن ينظر العامل ـ بسبب ما يلاقيه من ظروف صعبة ـ الى العنصر الجديد الذى قلب حياته رأسا على عقب وحمله ما لا يحتمل . ونقصد بذلك الآلة ، فينقلب ضد الآلة ، ممتلئا بالكراهية ، ويعمد الى تحطيمها للتخلص منها (المطلب الثالث) .

---

(٤٥٨) Karl Marx : Le Capital, Livre I, ed Sociales, P. 263 — 265 cite in Redor et Rioux, op. cit., note 398, p. 66.

(٤٥٩) Eden, State of the poor, I, pp. 476 et 494. cité in Mantour, op. cit., note 2, p. 440.

هذه هى الموضوعات الثلاث ، التى ستتناولها في هـذا المبحث ، ولكننا رغـم ما سبق ان قررناه ابتداء ، من القول بان ظروف عمل العمال ومعيشتهـم كانت بالغة القسوة ، نجدنا ، مضطرين ، بسبب الأبحاث العلمية المتناقضة في هذا الصدد، للتعرض الى موضوع رابع ، الا وهو معرفة ، هل كانت هذه الظروف التى عاشتها الطبقة العاملة (بغض النظر عن التسليم بقسوتها) تقدما في مستوى معيشة الطبقات الشعبية عموما والعمـال المأجورين بصفة خاصة ، أم كانت تدهورا لهذا المستوى ؟ (المطلب الرابع) ٠

المطلب الأول ـ ظروف العمل :

من الصعب بالطبع ، ان نضع حدا فاصلا بين ظروف العمل وظروف الحياة ، فكلاهما متداخل ، وخاصة بالنسبة لبعض العناصر ، كعنصر الأجـر مثـلا ٠ ولكننا سنقتصر هنا على شرح ظروف عمل العمال داخل المصانع ، وعلى الرغم من تسليمنا بأن الأجـر يعد أهم شرط من شروط العمل ، الا أننا نفضل ارجاء بحث مستوى الأجـور ، للمطلب الثانى ، كى نربطه بظروف الحيـاة المعيشية للعمـال ، نظرا لأن مستوى المعيشة ، وخاصة في هذه الطبقات ، يتوقف أساسا على الأجر ٠ لذلك ، نقتصر في هذا المطلب على عرض الظروف الداخلية للمصنع ، فنوضح مواصفات المصنع والنظام الصارم الذى كان يخضـع له العمـال ، ثم نتعـرض لعمل النسـاء والأطفـال ، قبل ان نوضح طول يوم العمل بالنسبة للعامل (عدد ساعات العمل)٠

البند الأول ـ الشروط الصحية لأماكن العمل والرقابة على العمال :

ان أول ما يلفت النظر في ظروف عمل العمال ، هو المكان الذى يؤدون فيـه عملهم (المصنع ومدى ما يتوافر عليه من شروط صحية) في هذا الصدد ، كتب Proudhon يصف المطبعة التى كان يعمل فيها مصححا « لقد تسممت من الهواء الفاسد ، ورائحة العفونة ، ورائحة العرق الانسانى »(٤٦٠) ٠ هذا الوصف ، لم يكن مبالغا فيه ، فالثابت ، على الأقل بالنسبة لفرنسا حتى منتصف القرن التـاسع عشر ، أن أغلب المصانع التى كان يعمل فيها العمال ، كانت قليلة الاضاءة ، سيئة التهوية ، فهذه الاماكن لم تكن قد بنيت خصيصا لاقامة المصانع ، بل كانت في أغلبها

---

(٤٦٠) Cité in Le franc, op. cit., note 362, p. 258.

اما كنائس أو قصور النبلاء التى صادرتها الثورة الفرنسية ، ولما كان الأمر يقتضي ايجاد أماكن متسعة لوضع الآلات الجديدة ، فقد استخدمت الادوار السفلية (التى في باطن الأرض le Sous-Sois et les celliers) لوضع هذه الآلات وتكديس العمال بها ، دون مراعاة لأى شروط صحية(٤٦١) ٠

لذلك ، كان من الطبيعى ان تفتقد هذه الأماكن كل مواصفات صحية ، فعلاوة على نقص الهواء والضوء ، كان ضيق المكان يؤدى بالآلات الى أحداث ضوضاء تسبب للعامل أمراض الأذن والصداع ، كما يساعد على انتشار الأمراض المعدية بين العمال ، وخصوصا أمراض الصدر ، بالاضافة الى حوادث العمل التى كانت حدثا يوميا اعتاد العمال عليه ، وكان العامل المصاب ، يلقى به في الطريق ، لأن الأمر كان يقتضي كي يحصل على تعويض ، علاوة على اثبات الضرر ، ان يثبت خطأ رب العمل وعلاقة السببية ٠

في هذه الأماكن غير الصحية ، كان العامل يئن تحت برد الشتاء ، ويتقيظ بحرارة الصيف ، ولذلك ، كان الوصف المعتاد الذى يجرى على السنة الكتاب في هذه الفترة وصف هذه الأماكن بانها « ثكنات عسكرية أو قشلاق » des Casernes (٤٦٢) بل ، تجاوز البعض هذا الوصف « الأقل قسوة » ، ليصل به الى منتهاه واصفا المصنع بأنه « سجن »(٤٦٣) ، نظرا للنظام الصارم الذى كان يخضع له العمال ، سواء في داخل المصنع ، أو حتى خارجه ٠ ولعل وصف الكاتب Hobsbawn لنظام العمل يعطينا فكرة دقيقة عن مدى صرامته ومدى خضوع العامل للرقابة المستمرة والدقيقة من جانب رب العمل ، مؤكدا بذلك ، ان العامل لا يعدو ان يكون في نظر الرأسمالى « مجرد جزء من الآلة ، فالعمال كان عليهم ، يقول Hosbawn «ان يتعلموا كيف يعلمون على نحو ما تتطلبه الصناعة ولكن طبيعة

---

(٤٦١) طبقا لمجرد أن أصبح المصنع يتطلب انفاقات ضخمة بسبب سعر الآلات وانتشار الآلات الميكانيكية كان الرأسمالى يسارع بتشييد بناء يصلح للمحافظة على آلاته واستخدامها الاستخدام الكامل الذى يحقق له أكبر عائد ممكن ، فكان يراعى فيها طبعا هذه الشروط الصحية ، ومن هنا نفهم ان هذه المبانى المخصصة للصناعة كانت اسبق في الظهور في انجلترا عنها في فرنسا ٠

(٤٦٢) وهو الوصف الذى اطلقه عليها كل من Audiganne, Adolphe Blanqui
Le franc, op. cit., note 362, pp. 259 — 260.

(٤٦٣) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 75.

العمل الصناعى مختلفة تمام الاختلاف عن العمل الزراعى أو العمل اليدوى : فالعمل الصناعى يتطلب عملا مكثفا ومتواصلا ، بينما الفلاح الحرفي يمكنه ان يتوقف عن العمل حين يشاء ٠٠ لذلك كان أصحاب الأعمال الانجليز يشكون من « كسل » العمال ومن رغبتهم في عدم العمل الا بالقدر اللازم للحصول مطالبهم اليومية ، وهو ما دعا أصحاب الأعمال الى وضع لائحة جزاءات صارمة ، وكذلك خفض أجر العامل الى الحد الذى يجبره على العمل طوال أيام الاسبوع حتى يحصل على الحد الأدنى اللازم للمعيشة ٠ وفي المصانع ، حيث كانت الحاجة الى النظام الصارم تبدو أكثر الحاحا ، لجأ أصحاب الأعمال الى تشغيل النساء والأطفال ، فهم أكثر انقيادا وخضوعا وأقل تكلفه »(٤٦٤) ٠

ومن هذا الوصف ، يمكننا أن نتفهم طبيعة الجزاءات التى وضعها النظام الرأسمالى لتحقيق رقابة مستمرة وصارمة على العمال ، هذه الجزاءات كانت تهدف في نفس الوقت الى خفض الأجور (بالاستقطاع منها)، كما انها كانت وسيلة ناجحة لاخضاع العامل للسلطة المطلقة لصاحب العمل ، ولمن يتولون الرقابة نيابة عنه ٠ ولذلك ، صادفنا في جميع المصانع وفي جميع البلاد التى قامت فيها الثورة الصناعية، نظاما جزائيا صارما : في فرنسا كما في انجلترا ، في ايطاليا أو السويد ، في المانيا والنمسا ، وجدنا لوائح مكتوبة «لاخضاع» العمال الى أقصي حد ممكن، تستكمل احكامها بالتعليمات الشفوية والممارسات المتعسفة ، حيث يعاقب العامل لمجرد انه تكلم مع جاره ، أو لأنه ضحك أثناء العمل، أو قام بتمشيط شعره قبل انتهاء العمل، أو لأنه تجرأ على ترك مكانه دون اذن ٠٠٠ الخ(٤٦٥) ٠

ففى فرنسا مثلا ، وضع أصحاب مصانع الغزل في مدينة Rouen عام ١٨٦٧ ـ لائحة الجزاءات على الوجه التالى(٤٦٦) :

مادة ١٧ ـ « سيعاقب بخصم ثلاث فرنكات »

١ ـ العامل الذى يدخن في المصنع أو يدلف اليه وهو يحمل « بايب » لم يطفأ جيدا ٠

---

(٤٦٤) E. J. Hobsbawn : l'ère des révolutions "l'aventure des civilisations" Gayard Paris 1969, pp. 41 et s.s.

(٤٦٥) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 75.

(٤٦٦) Lefranc, op. cit., note 362, p 261.

٢ ـ العامل الذى يمس « السير » في آلة الغزل ؛

٣ ـ العامل الذى يتولى تشغيل آلتى غزل ويتغيب يوما حتى بسبب المرض (مالم يقدم شهادة مرضية) •

مادة ١٨ ـ « يعاقب بغرامة قدرها نصف فرنك •

١ ـ العامل الذى يشعل بنفسه شعلة الغاز •

٢ ـ أو يدخل الى المنشأة شخصا اجنبيا •

٣ ـ او ينظف او يشحم آلته أثناء سيرها •

٤ ـ او الذى يهمل تنظيف آلته •

٥ ـ او الذى يدخل مشروبات الى المصنع •

٦ ـ أو الذى يوقف آلته قبل حلول الموعد • »

مادة ١٩ ـ ويعاقب بغرامة قدرها ربع فرنك •

١ ـ كل من يترك أى مواد خارج حقيبته على أرض المصنع •

٢ ـ كل من يغتسل أو يمشط شعره ، او ينظف حذاءه قبل الربع ساعة الأخيرة للعمل •

٣ ـ كل من يتضح ، عند التفتيش أنه غير نظيف » •

وقد تبدو هذه الغرامات تافهة في نظر القارىء ، ولكن يتعين النظر اليها وقت تطبيقها ونسبتها من الأجر ، فهكذا مثلا ، نجد ان مجموع الغرامات التى يمكن ان يتعرض لها العامل في مدينة Creusot الفرنسية كانت تبلغ ٢٦ر٧٥ فرنك خلال أسبوع واحد بينما أجر العامل ـ في خلال هذه الفترة ـ كان في المتوسط ٣٠ فرنكا فرنسيا(٤٦٧) •

وفي انجلترا ، نفس اللوائح الصارمة ، والجزاءات المفروضة على أقل عمل يمكن ان يصدر عن العامل ، ففى مصانع الغزل في مانشستر ، كانت الجزاءات تفرض على العامل الذى « يفتح النافذة ، أو يأتى للعمل في حالة غير لائقة ، أو

---

(٤٦٧) M. Niveau, op. cit., note 122, p. 130.

يغتسل أثناء العمل ، أو يهمل اعادة « المزيتة » إلى مكانها ، أو يطلق « صفيرا » أثناء العمل • كما يتعرض لخصم ٦ شلنات يوميا كل عامل مريض لم يستطع ان يحضر بديلا مناسبا له ، هذه الغرامة مقابل « فقد الطاقة الميكانيكية » •

ولكن هذا النظام الصارم ، كان لا يقف عند عتبة المصنع فحسب عندما يغادره العامل بل يستمر خاضعا له حتى في أمور حياته الخاصة • فلائحة الجزاءات في بعض المصانع الامريكية كانت تنص على أن « كل عامل يدخن السجائر الاسبانية ، أو يشرب الخمر في أى صورة كان ، أو يقص شعره عند الحلاق ، أو يرتاد أماكن اللهو والرقص ، يجعل من حق صاحب العمل ان يشك في خلقه وصلاحيته ، بل وفي نزاهته بوجه عـام •

وعلى كل عامل ان يؤدى ١٠ ٪ من دخله السنوى للكنيسة ، وأيا كان دخله فان هذا العطاء لا يمكن ان يقل عن ٢٥ دولارا سنويا •

ان كل عامل يتمتع بنصف يوم راحة أسبوعيا ، ويتمتع كل من يرتاد الكنيسة بنصف يوم آخر بالاضافة للنصف الأول •

بعد ان ينتهى العامل من عمله (١٣ ساعة يوميا) يتعين عليه أن يستغل وقت فراغه فيما هو مفيد ، كقراءة الكتب الدينية وشغل وقته بالتفكير في الحياة الآخرة • • • »(٤٦٨) •

على ان هذه الشروط تظل « معقولة » ، اذا ما قارناها بمدى تحكم أصحاب رأس المال في حياة العمال الخاصة في ألمانيا ، وعلى الأخص ، بالنسبة لعمال المناجم والمحاجر : فهؤلاء ، وخاصة ، العامل المتدرج ، لم يكن بإمكانه الزواج حتى سن معينة (٢٤ عاما) دون أن يحصل على اذن ادارة المنجم التابع له ، رغم ان القانون كان يسمح لكل من بلغ ١٨ عام ان يتزوج ، وكان أصحاب الأعمال ، يصلون عملا الى منع العامل ، نظرا لأن القانون كان يسمح للهيئات المدنية برفض الزواج اذ تبين ان الوسائل المادية الكفيلة باعالة الأسرة غير متوافرة ، وكان من السهل على أصحاب الأعمال في المناجم اثبات ذلك ، لان العامل لديهم ، لا تنتهى فترة تدريبه الا بعد بلوغ سن ٢٤ عاما ، اما قبل ذلك فهو « متدرج » وبالتالى لا يكفى دخله لاعالة أسرة •

---

(٤٦٨) Niveau, ibid.

(٤٦٩) Niveau, ibid.

اما السبب وراء رفض أصحاب الأعمال زواج العمال فهو ــ بحسب قولهم[٤٧١] ــ ضعف أجر العامل الذى لا يسمح له بتغذية نفسه وأسرته ، مما قد يؤدى الى ضعف تغذيته وعدم مقدرته على أداء العمل على وجه حسن ، علاوة على ما قد يمكن ان يؤدى اليه من وفاة مبكرة ، فيتحمل صندوق الزمالة اعباء اضافية حيث يتكفل بعائلة المتوفي ٠٠٠ هذا التبرير ، لا يحتاج الى تعليق ، ولكنه مع ذلك يجعلنا نتساءل عما اذا كان « النظام الاقطاعى » وعلى الأخص «رابطة التبعية بين الاقطاعى والفلاحين» قد انتهت حقا بدخول ألمانيا الى عهد الصناعة ، أم انها مازالت قائمة فعلا (بعد أن ألغيت قانونا) ومازالت التبعية قائمة ولكن تبدل أطرافها ؟ ٠

ويبدو هذا التساؤل صحيحا ، لو لاحظنا ان هذا « الفكر الاقطاعى » الذى كان يحكم علاقة العامل بأصحاب المناجم ، واكبه أيضا نوع من التنظيم العسكرى : فعمال المناجم والمتدرجون منهم ، يلتزمون بارتداء الزى المميز لهم حتى في غير أوقات العمل وخارج أماكنه ، وتوضح لهم لائحة خاصة السلوك الذى يجب اتباعه عند مقابلتهم لأحد رؤسائهم خارج أماكن العمل (في الشارع أو في الاماكن العامة : « على كل العمال والمتدرجين ، اذا ما قابلوا أحد رؤسائهم ، خارج أماكن وأوقات العمل ، أو اذا مر الرئيس أمامهم ، ان يقفوا في الوضع « انتباه » ، وان يوجهوا أبصارهم نحوه ، وان يحيوه بلفظ « حظ سعيد Glük auf وان يظلوا ثابتين في أماكنهم حتى يمر الرئيس »[٤٧٢] ٠

ولكن بعد ان اثبتنا الوقائع ، يظل علينا ان نبرر هذه المعاملة التى لقيها الرعيل الأول من عمال الثورة الصناعية ، ولا يمكننا في هذا الصدد أن نركن فقط لشروح الكتاب اليساريين وما يرمون به الطبقة الرأسمالية من قسوة ورغبة في تحقيق أكبر قدر من الربح ، فهذه الأسباب ، وان كانت قد ساهمت في اخضاع العمال لنظام صارم ، الا أنها لا يمكن أن تخفى ، من جانب آخر ، حقيقة هامة ، مؤداها، ان تكوين الطبقة العاملة ــ وخاصة في المصانع ــ في مطلع الثورة الصناعية ، ربما يكون أيضا قد ساهم في ضرورة خضوع أفراد هذه الطبقة لمثل هذا النظام ٠

وتفصيل ذلك ، أننا سبق ان استعرضنا ، كيف تكونت الطبقة العاملة ،

---

(٤٧١) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 209.

(٤٧٢) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 210.

فبينا ان الهجرة من الريف الى المدينة ، كانت من العوامل الأساسية لتكوين هذه الطبقة ، ولكن هذا الطابع العام ، يقتضي مزيدا من التحليل ٠ لا شك ، أنه حين قامت الثورة الصناعية ، كان هناك « فئة » من العمال المتخصصين ذوى المهارات العالية ، ولكن هؤلاء كانت نسبتهم ضئيلة للغاية بالقياس للسواد الأعظم من العاملين في المصانع : فبحسب الاحصاءات ، حوالى ١٨٣٥ ، كانت المصانع الكبرى والحديثة، تستخدم ٢٥ ٪ من الرجال ، والباقى ٧٥ ٪ من النساء والأطفال ٠ ولم تكن نسبة العمال المهرة ذوى الخبرة تتجاوز ١٠ ٪ من نسبة العمال الرجال ٠ هؤلاء العمال المهرة ذوى الكفاءة العالية ، كانوا يأتون من « المهن التقليدية » l'Artisanat

فمن أين أتت البقية الغالبة من العمال المكونة من رجال ونساء وأطفال لا يتوفرون على أى قدر من التخصص أو المعرفة الصناعية ؟ يجيب على هذا التساؤل بالنسبة لانجلترا الكاتب Redford : « حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن لدى عمال النسيج — الذين كانوا يمارسون مهنتهم في المنازل أى رغبة في الذهاب الى المصانع ، ذلك ان هناك شعورا عاما قام فيهم بأنه لا يصح الذهاب الى هذه المصانع٠ لذلك ، لم يجد أصحاب الأعمال أمامهم بديلا ، الا استخدام أيد عاملة من بين أقل فئات هذه الطبقة استقرارا ، وأقلهم جدية : عمال زراعيين لا يجدون عملا ، أو جنود تم تسريحهم ، أو بعض ذوى الحرف كالترزى أو الاسكافي الذى أفلس ، ولم يجد هؤلاء جميعا مكانا يأويهم سوى المصنع ، بحيث كانوا دائما على استعداد لتركه في كل وقت ، ما دام نظامه لم يوافقهم »(٤٧٢) وهكذا تكون الجيل الأول من عمال المصانع — في أغلبه — من عمال « بالصدفة » وليس من عمال قارين ، لأن العمال المدربين كانوا يرفضون العمل العام Travail public بالمقارنة لعملهم الخاص (العمل بالمنازل) ٠ لذلك اضطر أصحاب الأعمال لقبول كل من لا يجد عملا ، من المتسولين وعديمى الخبرة ، وقليلى الاستقرار ٠٠٠ »

نفس هذه الظاهرة ، نصادفها في كل من فرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا ، وكل البلاد الصناعية تقريبا ، مع بعض الاختلافات العائدة للظروف المحلية، والمؤثرة في تكوين الطبقة العمالية(٤٧٣) ٠

---

(٤٧٢) Cité in Kuczynski, op. cit., note 362, p. 70.
وفي نفس المعنى Niveau, op. cit., note 122, p. 127.

(٤٧٣) راجع ما سبق ، ص ٢٥٦ وما بعدها ٠

في ضوء هذه الملاحظة ، يتضح لنا اذن ، كيف ان مسالة « نظام العمل » تصبح مسالة حيوية بالنسبة لرب العمل الذى يضطر لاستخدام هذه الفئات من العمال ، فالعامل كما يقول الكاتب Michel في بداية الثورة الصناعية « لم تكن لديه أدنى فكرة عن العمل الصناعى ولم يكن ، مهيا للقيام بهذا العمل ، فهو لم يعتد العمل المستمر ، ولا التعاون مع الآخرين ولا الخضوع للنظام ، ولم يألف الآلة ، بل كان شعوره نحوها معاديا ،

وخاصة أن العامل ، كان يعانى بالاضافة الى ظروف عمله ، من ظروف معيشته التى كانت تتصف بالمعاناة وفقد كل معنى للحياة الإنسانية »(٤٧٤) .

وهكذا ، يتضح لنا ، ان الظروف جميعا (رغبة الرأسمالية في تحقيق أكبر قدر من الكسب مع الحفاظ على امكانياته في ظل نظام المنافسة الحرة ، واضطراره لاستخدام أيد عاملة غير مدربة وغير مستقرة في البداية) كل ذلك ، ساعد على ايجاد نظام للعمل يتصف بالرقابة المستمرة والقاسية ، لا نجد تعبيرا عنها ، الا ذلك

---

(٤٧٤) Cité in Kuczynski, op. cit., note 362, p. 74.

ويورد المؤلف في نفس الصفحة المذكورة ، صورة لنظام العمل في بداية الثورة الصناعية ، حيث يذكر انه عند اختراع آلات الغزل التى تدار بقوة المياه ، تم انشاء المصانع بقرب مصادر المياه بعيدا عن المدن ـ وخاصة في Derbyshire وفي Lancashire ، فبدت الحاجة ماسة الى الأيدى العاملة ، وسرعان ما خطرت لأصحاب هذه المصانع فكرة استقدام صبيية متدرجين من مختلف الكنائس التى تأوى الأيتام وأبناء الفقراء ، وخاصة في مقاطعة لندن وبرمنجهام ، وسرعان ما جيء بهؤلاء « الأطفال » من سن ٧ سنوات الى ١٤ عاما ، ووضعوا للعمل تحت اشراف بعض « العمال » ، ولكن هؤلاء الأخيرين ، كانت اجورهم تحسب بقدر الانتاج ، فكان من مصلحتهم دفع هؤلاء الأطفال لاكبر قدر ممكن من الانتاج ، مما كان يجعلهم يقسون على هؤلاء الأطفال ، لدرجة أصبح معها هؤلاء لا يملكون سوى « طبقة من الجلد » تغطى عظامهم النحيلة ، وبحيث كان ذلك يحقق أكبر ربح ممكن لاصحاب المصانع فيدفع بهم لطلب المزيد من الربح « أو يفتح شهيتهم للربح » ، فما كان من « المشرفين » الا أن اخترعوا فكرة « عمل الليل » ، بحيث قسموا الأطفال على ورديتين احدهما بالنهار والاخرى في الليل ، وكان الطفل يغادر مكانه في المصنع ، ليحتل احد الأسرة التى تركها زميل له يعمل في وردية مخالفة ، بحيث صار من الأمثال الشعبية الدارجة فى Lancashire ان لديهم « الأسرة لا تبرد » ، فهى مشغولة بصفة دائمة .

انظر أيضا في نفس الموضوع

Fohlen, op. cit., note 274, p. 41.

الاستخدام الذى شاع في مطلع الثورة الصناعية ، لوصف الطبقة العاملة الا وهو « الطبقة العاملة ـ الطبقة الخطرة »

Classes laborieuses, classes dangereuses(٤٧٥) .

ولعل ابلغ ما يمكن ان نبين به مدى العلاقة بين أصحاب الأعمال والعمال ، هو ماكتبه Hobsbawn : « ان كل صاحب مصنع يعيش في مصنعه بين عماله كما لو كان صاحب مستعمرة بين عبيده : شخص واحد ضد المئات ٠٠٠ ان البرابرة الذين يتهددون المجتمع لا يأتون ـ في نظر رب العمل ـ من القوقاز أو سهول التتار ، ولكن من مدن الصفيح التى تحيط بالمدينة الصناعية »(٤٧٦) ٠

وأمام هذه النظرة ، كان لابد من وضع كل تحركات هؤلاء « الخطرين » تحت رقابة أصحاب الأعمال بمعاونة الأجهزة المختصة ، ضمانا لالتزام كل منهم بالنظام « الرأسمالى الصناعى » وحرصا على منعهم من تهديد العملية الانتاجية ٠ وفي هذا الصدد ، وحرصا على جعل العامل تحت سيطرة رب العمل المطلقة ، كان لابد من ايجاد تنظيم يكفل عدم ترك العامل دون الحصول على اذن رب العمل ، حتى يتأكد هذا الأخير أن العامل أوفى بكل الالتزامات الملقاة على عاتقه بموجب العقد من جهة وحتى يمكن لأصحاب الأعمال ان يتعرفوا على « مثيرى الشغب » فيتجنبوا الحاقهم بالعمل٠ وهكذا مثلا، انشيء في فرنسا نظام دفتر العامل « le livret ouvirer »(٤٧٦) ، فبموجب هذا النظام ، كان يتعين على كل عامل ان يحصل على دفتر باسمه (سواء من اقسام البوليس في المدن او من مقار العمد في القرى) ، هذا الدفتر كان تقريبا « جواز مرور داخلى » ، فالعامل لا يمكنه ان يلتحق بعمل الا اذا قدم الدفتر لصاحب العمل ، الذى يحتفظ به طوال مرة خدمة العامل لديه ، وكان لا يرده الى العامل الا اذا كان هذا الأخير قد أوفى بكل التزاماته عند تركه العمل ، أى بعد ان يكون قد

---

(٤٧٥) Rioux, op. cit., note 5, p. 180.

(٤٧٦) Habsbawn, op. cit., note 464, pp. 258 et s.s.

(٤٧٦) سنعود لدراسته في الفصل الثالث ، باعتباره احدى الوسائل القانونية التى استخدمت لتحقيق مصالح الطبقة العاملة ، ولمزيد من التفاصيل انظر

A. Piettre, op. cit., note 6, p. 93.

Bouvier-Ajam, op. cit., note 456, p. 77.

Lefranc, op. cit., note 362, p. 261.

أوفى بكل شروط العقد ، وادى لمخدومه كل ما يكون قد حصـل عليه من قروض بضمان أجره ، كما كان لصاحب العمـل الحق في ان يقوم بوضـع ملاحظاته على أسلوب عمل العامل ومدى طاعته · ولكن الدفتر لم يكن ضروريا فقط للانتقال من عمل الى عمل آخر ، بل نظرا « لخطورة هذه الطبقة » كان الانتقال من محل الاقامة الى محل آخر ، يقتضي أيضا التأشـير بهذا الانتقـال من لدن السلطـات المختصة (أقسام الشرطة) ·

البند الثاني ـ عمل النساء والأطفال(٤٧٧) :

ان اسـتخدام النسـاء والأطفـال في المصـانع يعتبر من أسـوأ الظواهر الاجتمـاعية التي نجمت من هـذه الثـورة · والسبب الرئيسي وراء هـذه الظاهرة كان أيضا ، الآلة · فحلول الآلة محل الاداة ، لم يعد يقتضي قوة عضليـة كبيرة ، بل أصبح من الممكن الاستعاضة عن القوة العضلية للرجل، بقوة عمل النساء والأطفال ، فهؤلاء ، خاصة في نطاق صناعة الغزل والنسيج ، تكون نعومة أيديهم ، أفضل لمعالجة الغزل من يد الرجل ، زد على ذلك ، أنهم أكثر طاعة وانصياعا وأقل تكلفة ، فأجرهم يقل بكثير عن أجر العامل(٤٧٨) ، نظرا لأن الآلة تجعل القوة العضلية

---

(٤٧٧) Sée, op. cit., note 275, p. 65.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 204.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 38 et s.s.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 58.
Dunham, op. cit., note 273, p. 166.
Branciard, op. cit., note 302, p. 58.
Rioux, op. cit., note 5, p. 169.
Mantoux, op. cit., note 2, p. 431.
Lefranc, op. cit., note 362, p. 262.
Bouvier-Ajam, op. cit., note 456, p. 91.

(٤٧٨) فهؤلاء النسـاء والأطفال ، كان اجرهم يتراوح بين سدس(١/٦)وثلث (١/٣) ما يكسبـه العامل ، بل ان الأطفـال ، كثيرا ما كان يـكفي كمقابل لعملهـم ان يتـولى رب العمـل تدبير اقامتهـم واطعامهم ·
Mantoux, op. cit., note 2, p. 431.

(٤٧٩) الباب الثالث عشر من الجزء الأول لـ « راس المـال » وموضوعه : الآثار المبـاشرة للآلة على العـامل ·
Cité in Kuczynski, op. cit., note 362, p. 66.

أمرا غير حيوى بالنسبة للصناعة ، فان الآلة تصبح وسيلة لاستخدام عمال لايتوفرون على قوة عضلية خاصة ، أى عمال لم يكتمل نموهم الجسدى بعد ، ولكنهم يتميزون بمرونة الأطراف • لذلك ، كان استخدام النساء والأطفال هو أول آثار الاستخدام الرأسمالى للآلة (٠٠٠) فساهمت هذه الآلة في رفع عدد العاملين ، باستخدام كل عائلة العامل ، من اناث وذكور ، بصرف النظر عن السن ، فالجميع يعمل تحت رحمة رأس المال ٠٠»(٤٨٠) • لذلك ، كانت احدى الظواهر المميزة لتاريخ العمل في هذه الفترة ، هى تشغيل الأسرة بأكملها ، بحيث يتعين على الرجل الذى يرغب في ايجاد عمل ، أن يتقدم باسرته كاملة : زوجته وأولاده ، فيجمع الكل في داخل المصنع أو المنجم • هذه الظاهرة (تشغيل النساء والأطفال) كانت ظاهرة عامة في كل البلاد التى وقعت فيها الثورة الصناعية • ولعل ، من المناسب في هذا الصدد ، أن نورد شهادة ثلاثة أطباء متخصصين كل من بلد مختلف ، حول هذا الموضوع ، لنبين مدى خطورته(٤٨١) • فنبدأ أولا بشهادة الدكتور / Percival الذى نشر في ٢٥ يناير

---

(٤٨٠) نفس المعنى ردده Tocqueville ، حيث كتب ينقد الآثار الاجتماعية لتشغيل النساء والأطفال ، ويعزو هذه الظاهرة الى ان « المصانع لا تحتاج الى قوة مادية (عضلية) خاصة ، بل يكفى لتشغيل الآلات عمل النساء والأطفال » •

Ces manfactures n'exigent pas un grand deploiement de forces matérielles et que le travail des femmes et des ènfants suffisont".

لذلك ، ورد في أحد التقارير المكتوبة عن عمل الأطفال والنساء في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية ان هناك الكثير من الآباء الذين كانوا يرغبون في تعليم أبنائهم بارسالهم الى المدارس ، ولكن صاحب العمل كان يهدد بفصل العائلة بأكملها اذا تغيب أحد افرادها ، بل كثيرا ما وضع هذا التهديد وضع التنفيذ بالفعل •

ولم يكن من المستغرب في هذه الفترة ، قراءة اعلان يقول « مطلوب عائلة لديها من ٥ الى ٨ أطفال لتعمل العائلة كلها في مصنع للقطن » •

Kuczynski, op. cit., note 326, p. 62.

(٤٨١) على الرغم مما قيل وقتذاك ان الأمر في فرنسا كان اقل خطورة عنه في انجلترا ، فان هذا القول غير صحيح • ولكنه تردد لاسباب متعددة •

اما الأول : فهو ان استغلال النساء والأطفال كان متاخرا في فرنسا عنه في انجلترا بطبيعة الحال نظرا لبطء الثورة الصناعية في فرنسا عن انجلترا ، كما سبق ان رأينا ، وبطء تكوين الطبقة العاملة كنتيجة لذلك •

ولعل الدليل على هذا الفارق الزمنى ، انه بينما صدر تقرير الدكتور Percival المشار اليه في المتن لمحاولة علاج هذه الظاهرة ، عام ١٧٩٦ ، فان الأمر اقتضى الانتظار حتى عام ١٨٤٠ حتى يصدر تقرير مماثل في فرنسا باسم الدكتور / Villermè .

١٧٩٦ تقريرا هاما عن الموضوع ، بين فيه مدى ما يتعرض له الأطفال من معاملة غير انسانية تتنافى مع أبسط القواعد الصحية والأخلاقيـة وانتهى الى التوصيات الآتية(٤٨٢) .

١ ـ من المؤكد ان الأطفال (والأشخاص الآخرين) الذين يعملون في مصانع غزل القطن يتعرضون للاصابة بأمراض الحمى المعدية ، وما ان يظهر هذا المرض ،

واما السبب الثاني ، لاختلاف فرنسا عن انجلترا ، فهو ان استخدام الأطفال في انجلترا بدأ باستخدام أبناء الفقراء ، الذين كانوا بموجب قانون الفقراء ، يعيشون عالة على الكنائس ، وارادت هذه الكنائس التخلص من أعبائهم ، عن طريق الحاقهم في خدمة أصحاب الأعمال في القطاع الصناعي الذي كان بحاجة الى الايدي العاملة . لذلك تمت « صفقات » ما بين الكنيسة واصحاب الأعمال « لتوريد » هؤلاء الأطفال او كما يقول مانتو « لبيع هؤلاء الاطفال » ، وكانت الصفقة تتم بالجملة (ثمانين أو مائة طفل) يتم تصديرهم كالسلع والحيوانات ، من مقار الكنائس الى المصانع ، ويظلون داخل المصنع عدة سنوات ، يعملون ويأكلون ويقيمون فيه ، حتى تتأكد الكنيسة من امكانية التخلص من كل الأطفال الذين يقع على عاتقتها اعالتهم ، كانت تشترط على اصحاب الأعمال قبول الأطفال المتخلفين وذوى العاهات بنسبة واحد الى عشرين (١/٢٠) .

انظر في هذه المقارنة بين فرنسا وانجلترا :

Dunham, op. cit., note 273, p. 166.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 71.
Mantoux, op. cit., note 2, p. 432.
Sée, op. cit., note 275, p. 65.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 205.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 71.

واما السبب الأخير ، فهو ان الأجور في فرنسا كانت منخفضة الى حد يصعب النزول عنه والا لما أمكن للعامل ان يجد ما يأكله ، فلم يكن اصحاب الأعمال اذن بحاجة الى الاعتماد على الأطفال والنساء ، لأنه لم يكن بوسعهم النزول من هذا الحد الادنى من الاجور .

(٤٨٢) Fohlen, op. cit., note 276, p. 208.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 43.
Niveau, op. cit., note 122, p. 128.

ويشير الدكتور / Percival في تقريره (الفقرة الأولى) الى نوع من الحمى ظهر في مانشستر عام ١٧٨٤ تقريبا وسمى باسم « حمى المصنع » ولم يتوصل الاطباء آنذاك لمعرفة سببه ، واكتفى الأطباء بوصفه بصورة عامة « انه مرض معد أصاب العمال في احد المصانع القريبة من مانشستر وهلك بسببه عدد كبير من الناس . انها حمى خبيثة ، كانت تصيب عائلات باكملها ، وتلحق بالأشخاص من مختلف الأعمار » .

فانه سريعا ما ينتشر ليس فقط بين العاملين المكدسين في المصنع ، بل وايضا في عائلات هؤلاء الأطفال وجيرانهم .

٢ ـ عموما فان المصانع الكبرى لها تأثير ضار على صحة العاملين ، حتى في الأوقات التى لا يكون فيها أمراض معدية ، نظرا لتكدس العمال في مكان ضيق ، وعدم تجدد الهواء النقى ، وعدم تمكن الأطفال من القيام ببعض التدريبات الرياضية اللازمة بالضرورة للنمو ولتنشيط جسم الطفل حتى ينمو على نحو يسمح له بالقيام بعمله كما ينبغي حين يبلغ سنا ملائما للعمل .

٣ ـ ان العمل الليلى والساعات الطويلة ، لا تؤدى فقط الى تخفيض متوسط العمر لدى هؤلاء الأطفال ، ولكنها تنهك قواهم وتقضي على حيويتهم ، فينتشر فيما بينهم الكسل والتراخى ، في نفس الوقت الذى تزداد فيه شهية بعض الآباء الذين يعيشون من كسب أولادهم .

٤ ـ وخاصة ان هؤلاء الأطفال الذين يعملون ليست لديهم أى فرصة لتلقى أى قدر من التعليم أو تلقى الدروس الاخلاقية والدينية .

٥ ـ مع ان هناك العديد من اللوائح الداخلية لبعض المصانع تدل على أنه بالامكان الوصول الى معالجة كافة هذه العيوب ...

أما في فرنسا ، فقد قام الدكتور Villermé أيضا ، بنشر كتاب عن «حالة الطبقة العاملة الفرنسية ابان الثورة الصناعية » ، اهتم فيه خصوصا بموضوع تشغيل النساء والأطفال ، وقرر « ان ظروف تشغيل النساء والأطفال في فرنسا بلغت من القسوة حدا لا يمكن السكوت عنه »[٤٨٣] فالعمل الذى يقومون به ، ليس عملا بمعنى الكلمة « انما وسيلة تعذيب يتعرض لها أطفال تتراوح أعمارهم بين ست وثمانى سنوات ، يتعرضون لسوء المعاملة ويشكون من سوء التغذية وقذارة الملبس ، مضطرين الى قطع مسافات طويلة تفصل بين الاحياء التى يتكدسون فيها

---

(٤٨٣)
Dunham, op. cit., Note 273, p. 166.
G. Dupeux, op. cit., noee 299, p. 143.
Kuczynski, op. cit., note 362, p. 158.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 208.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 72.

وبين المصانع التى يعملون بها ، منذ الساعة الخامسة فجرا، حيث يستمرون في العمل الى ساعة متأخرة في الليل ليعودوا من حيث أتوا ، مما يؤدى لارتفاع نسبة الوفاة بين الأطفال بشكل ملحوظ » ، ان المرء كى يدرك ابعاد المشكلة عليه « ان ينتظر وصولهم في الصباح شاحبى الوجه حفاة الأقدام ، وملابسهم ملطخة بالزيوت التى يتعرضون لها حين قيامهم بتنظيف الآلة وتشغيلها ، هؤلاء الأطفال الذين لا نجد على وجههم أى أثر لادنى ابتسامة » .

نفس الانطباع ونفس الملاحظات تصادفها في نفس الفترة تقريبا ، في تقرير أحد الاطباء الامريكيين ، عن عمل الأطفال في صناعة النسيج في مدينة Lowell الامريكية « انه لشيء محزن بحق النظر الى هؤلاء النساء حين يغادرن مصنعهن ، وهن في حالة انهاك تام . . ان هذه المصانع قد تحولت الى أماكن للعذاب والمرض والبؤس »(٤٨٤) .

ثلاث شهادات معاصرة لثلاث أطباء ، تصرخ بالشكوى من استغلال النساء والأطفال . هذه الشهادات قد تدعو الى التساؤل ، وهل كانت الطبقة العاملة مكونة فقط من النساء والأطفال ؟ الواقع ان هؤلاء ـ وخاصة فيمطلع الثورة الصناعية ـ كانوا يمثلون الأغلبية ، كما تدل على ذلك بعض الاحصائيات : ففى انجلترا ، عام ١٨٣٣ ومن جملة عدد العمال البالغ ٢١٦٩٧٣ عاملا في مصانع المنسوجات القطنية ، نجد ان ثلث هذا العدد تقريبا من الأطفال ، وان نصف هؤلاء الأطفال (أى ١/٦ من مجموع العمال) لم يبلغ بعد ١٤ عاما (أربعة عشر عاما) . وفي عام ١٨٤٢ ، بلغ عدد العاملين في المصانع ٤٢٣ر٧٥٥ ، من بينهم ٢٤٥ر٠٤٣ أمرأة ،و١٠٢ر٣٩٦ ما بين طفل وشاب تتراوح أعمارهم بين ١٣ ـ ١٨ عاما ، و ٢٣ر٤٨٦ طفل لم يبلغو بعد سن الثالثة عشر عاما(٤٨٥) .

---

(٤٨٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 59.

وفي نفس الفترة أيضا ، تقدم طبيب آخر يدعى Hawkins بتقرير عن حالة الأطفال العاملين في مانشستر ، قرر فيه ، خاصة « ان الأطفال العاملين بمصانع مانشستر من الذكور والأناث، فقدوا كل حيوية ونشاط ، ان وجوههم الصفراء الشاحبة لا تحمل أى معنى للطفولة » .

(٤٨٥) Epsztein, op. cit., note 279, p. 71.

ويعطينا الجدول التالى ، بيانا بجنس وسن العاملين في مصانع المنسوجات القطنية في جميع انحاء المملكة البريطانية عام ١٨٣٥ .

ونفس الأمر تصادفه في الولايات المتحدة الامريكية : ففي صناعة المنسوجات القطنية ، في الولايات الست المسماة « انجلترا الجديدة[٤٨٦] بالاضافة الى نيويورك، ونيوجرسي، وبنسلفانيا، وديلاوار وميريلند وفرجينيا، نجد ان ثلاثة أخماس(٦٠٪) من العاملين في هذه المصانع من النساء عام ١٨٣١ . والاحصاء الذى تم عام ١٨٣٣ في مدينة Lowell يبين ان صناعة المنسوجات القطنية تستخدم ١٢٠٠ عامل فقط في مقابل ٣٨٠٠ عاملة ، بينما يظهر من احصاء اجرى عام ١٨٣٢ ان سدس(١/٦) العاملين في المصانع كانوا أقل من ١٨ عاما[٤٨٧] .

وفي فرنسا لم يكن الوضع مختلفا[٤٨٨] : ففى عام ١٨٣٥ بلغ عدد النساء العاملات في صناعة النسيج ١٩٦٦٤٠٠ر عاملة ، ليصلوا عام ١٨٣٩ الى ٢٤٢ر٣٠٠ عاملة ، يمثلون في هذه الفترة ٥٦ر٥ ٪ من العاملين في غزل القطن و ٦٩ر٥ ٪ من العاملين بغزل الصوف و ٧٠ ٪ من العاملين في نسج الحرير .

جدول رقم ١٣ : بيان بعدد العاملين ، وجنسهم وسنهم ، في مصانع المنسوجات القطنية ، بالمملكة المتحدة عام ١٨٣٥ .

	رجال	نساء	اقل من ١٨ سنة	اقل من ١٣ سنة
انجلترا	٥٠ر٦٧٥	٥٣ر٤١٠	٥٣ر٨٤٣	٢٤ر١٦٤
بلاد الغال	٢٥٠	٤٥٨	٣٥٤	٨٩
اسكتلندا	٦ر١٦٨	١٢ر٤٠٣	١٠ر٤٤٢	٤ر٠٨٢
ايرلندا	٩٦٠	١ر٥٥٣	٨٤٧	٤٣٦
المجموع	٥٨ر٠٥٣	٦٧ر٨٢٤	٦٥ر٤٨٦	٢٨ر٧٧١

المصدر : Kuczynski, op. cit., note 362, p. 63.

(٤٨٦) انظر ما سبق هامش ٤٢٩ ص ٢٦٤ .

(٤٨٧) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 62.

(٤٨٨) Branciard, op. cit., note 302, p. 57.
Dupeux, op. cit., note 299, p. 143.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 71.

ووفقا لاحصاء عام ١٨٤٧ ، فان المصانع التى كانت تستخدم أكثر من عشرة عمال ، في مجال صناعة النسيج ، كانت تضم ٦٧٠ر٠٠٠ عامل من الذكور الذين يزيد عمرهم عن ١٨ عاما ، و ٢٥٠ر٠٠٠ عاملة ، ١٣١ر٠٠٠ طفل(٤٨٩) .

لكن ، سوء هذه الظاهرة ، لا يظهر فقط من الاحصاءات ، انما يتعين أيضا الوقوف على شروط العمل وظروفه ، تلك الظروف التى لم تختلف من حيث كثرة عدد ساعات العمل (التى كان يمكن ان تصل الى أربعة عشر ساعة يوميا) ، ولا من حيث الرقابة وقسوتها ، ولا من حيث عدم مراعاة الظروف الصحية ، عما كان يتعرض له العمال من الرجال ، وان ظل هناك فارق واحد بالطبع الا وهو ان أجر الطفل يقل بكثير عن أجر الرجل ، بحيث كان يمكن للرأسمالى تخفيض تكاليف الأجور بنسبة ٥٠ ٪ لو استخدم النساء بدلا من الرجال ، ولكن نسبة الوفر في الأجور قد تصل الى ٧٠ ٪ في حالة استخدام أطفال بدلا من الرجال ، فلو أضفنا لهذا السبب الجوهرى ، العوامل الأخرى المساعدة (سهولة انقياد الأطفال عن الرجال ، وكون الآلة لا تتطلب مجهودا عضليا ضخما) لفهمنا دون صعوبة ان تسارع المصانع الجديدة ، وينافسها في ذلك أصحاب المناجم والمحاجر في استخدام الأطفال ، الذين كان يبلغ عدد ساعات عملهم أحيانا ١٥ ساعة يوميا فبعضهم كان يبدأ عمله في الثالثة أو الرابعة صباحا لينتهى منه في العاشرة مساء(٤٩٠) .

---

(٤٨٩) ويتضح من احصاء ١٨٤٧ ان عدد الرجال العاملين اكبر من عدد النساء والأطفال في فرنسا، ولعل السبب ، كما سبق ان اوضحنا (هامش ٤٨١) ان صاحب العمل لم يكن يستطيع في بعض الحالات النزول من الحد الأدنى للأجور ، والا لما وجد العامل ما يقتات به .

(٤٩٠) لذلك ، كان من الطبيعى انتجد ان الأطفال حين عودتهم يرتمون امام عتبات الأبواب ويغطون في نوم عميق ، دون ان يتمكنوا من تناول طعامهم ، بل كثيرا ما كان الطفل ينام في الطريق قبل ان يصل الى منزله ، فيضطر الأهل للخروج بحثا عنه اذا لم يصل قبل منتصف الليل .

والحديث التالى دار بين اعضاء احدى لجان التحقيق في انجلترا ووالد طفلين اضطر الى ارسالهما للعمل كى يتمكن من اطعامهما :

س : في أى ساعة تذهب طفلتاك الى المصنع ؟

ج : من الساعة الثالثة صباحا الى الساعة العاشرة مساء .

س : ما هى مدد الراحة التى يتمتعان بها خلال هذا العدد من الساعات (١٩ ساعة).

ج : ربع ساعة للافطار ، ونصف ساعة للغذاء ، وربع ساعة أخرى لشرب الماء .

هؤلاء الأطفال ، لم يكن لهم بالطبع أدنى صلة بالمدرسة ولا بالكنيسة ، ولم يكن أثر هذه الظروف القاسية من العمل يتوقف عند حد التعليم والتربية الدينية ، أى التكوين الفكرى والعقلى ، بل يتجاوز ذلك الى التكوين الجسدى نفسه : فالارهاق الشديد يؤدى غالبا لتأخر البلوغ لدى الذكور (حتى ١٨ عاما في بعض الاحيان) ولدى الاناث كذلك ، هذا بالاضافة الى العديد من الآثار الجسمانية الأخرى ، كتقوس القدمين ، وتليف الركبتين ، او اعوجاج العمود الفقرى ، وخاصة لدى الأطفال العاملين في المناجم بالذات ، حيث كان الأطباء في كل من يوركشير أو

س : هل تجد صعوبة كبيرة في ايقاظ بناتك من النوم ؟

ج : نعم في البداية كان الأمر يقتضي هزهما بعنف ليستيقظوا ثم نتولى وضع ملابسهما عليهما ليذهبا الى المصنع .

س : ما هى المدة التى ينامونها ؟

ج : اننا يمكننا ان نضعهم في الفراش قبل الحادية عشرة ليلا ، حتى نتمكن من اطعامهم قبل النوم ، وتظل زوجتى ساهرة بعد ذلك خوفا من الا نتمكن من ايقاظهم في الوقت المناسب .

س : في اى ساعة توقظهم ؟

ج : عادة — الساعة الثانية بعد منتصف الليل لنتمكن من وضع ملابسهم عليهم .

س : هل شعرت بناتك بتعب من هذا النظام ؟

ج : نعم ، كثيرا ما يحدث ان يغطا في النوم أثناء تناول الطعام مما يجبرنا على هزهم لافاقتهم .

س : هل أصيبت احدى بناتك بحادث عمل ؟

ج — نعم ، الكبرى فقدت « عقله » من أصبعها في الاسبوع الأول للعمل ، وظلت بالمستشفى ٥ اسابيع .

س : هل كان صاحب العمل يؤدى لها أجرها خلال هذه المدة ؟

ج : لا ، بمجرد وقوع الحادث ، اوقف الأجر .

س : هل ضربت احدى بناتك أثناء العمل ؟

ج : نعم ، الاثنتين .

س : ما تعداد أجر كل منهما ؟

ج : ثلاثة شلنات أسبوعيا .

س : واذا قاموا بأعمال اضافية (ساعات عمل اضافية) .

ج : ثلاث شلنات وسبعة بنس ونصف .

« ورد هذا التحقيق وتمت ترجمته بالكامل عن :

Fohlen, op. cit., note 274, pp. 40 et 41.

لا نكشير في انجلترا » يؤكدون أنه يمكن التعرف على الطفل الذى يعمل باحد المناجم من مجرد النظر الى قامته فغالبا ما كان عموده الفقرى مصابا بانحناء(٤٩١) .

تلك الظروف التى تم تشغيل الأطفال فيها ، كانت واحدة سواء في دويلات انجلترا الجديدة والمناطق الصناعية عموما في أمريكا ، أو في ما نشستر أو غيرها من المدن الصناعية الانجليزية ، أو في ليون والمدن الصناعية الفرنسية ، سواء في المنجم أو في المصنع(٤٩٢) ، فقد اكتشف الرأسمالى ان الطفل يمكنه « لف بكرة الخيط » منذ ان يبلغ ستة أعوام ، وما ان يبلغ عامه الثامن حتى يكون قد « اندمج » في العمل الصناعى ، ذلك اننا لو افترضنا ثلاثة أو أربعة أطفال ما بين ٦ و ١٢ عاما ، كيف

---

(٤٩١) F. Engels, la condition des classes Laborieuses en Angleterre

Cité in P. Silvestre : le mouvement ouvrier ourier jusqua la deuxième guerre mondiale.

Dossier "Siences humaines" No. 19. A. Colin Paris p. 15.

ويورد المؤلف P. Silvestre في ص ١٤ من نفس المؤلف ، فقرة عن كتاب رأس المال لكارل ماركس يبين فيها عمل الأطفال في المناجم ، حيث كتب يقول « في المناجم ، يستمر العمل حوالى ١٤ ساعة الى ١٥ ساعة يوميا (بما في ذلك الذهاب والاياب) ، ويقوم الأطفال بمهمة فتح واغلاق أبواب كل قسم من اقسام المنجم ، او باعمال أكثر مشقة ، كنقل الفحم . وفي هذا المجال ، يستغل الأطفال كما لم يحدث في التاريخ من قبل ... » .

وانظر أيضا في نفس الموضوع (تشغيل الأطفال في المحاجر) :

Fohlen, op. cit., Note 276, p. 205.

(٤٩٢) فلنر مثلا وصف كارل ماركس لعمل الأطفال في احد مصانع « الثقاب » عام ١٨٣٣ ، حين اكتشف الانسان امكانية تثبيت الفوسفور على الخشب ، وقد انتشرت هذه الصناعة اعتبارا من ١٨٤٥ أولا في انجلترا وبالذات في لندن ، ثم انتشرت بعد ذلك في ما نشستر وبرمنجهام وليفربول وبريستول ونورويش ونيوكاسل ... « لقد كان نصف العاملين في هذه المصانع من الأطفال الذين لم يبلغوا بعد ثلاثة عشر عاما أو من الشباب الذين عمرهم عن ١٨ عاما . وهذه الصناعة ضارة للغاية بالصحة ، ومع ذلك كانت هذه الصناعة تحصل على الأطفال اللازمين للعمل بها من الطبقات الشعبية المعدمة . في احد المصانع كان هناك ٢٧٠ اقل من ١٨ سنة ، و ٤٠ أقل من ١٠ سنوات ، ١٢ اقل من ثمانى سنوات و ٥ أطفال يبلغون بالكاد ست سنوات . وتتراوح عدد ساعات العمل اليومية بين ١٢ – ١٥ ساعة يوميا مع استمرار العمل ليلا ، والوجبات تتناول في داخل المصنع مشبعة بمادة الفوسفور السامة ، بحيث ان « دانتى اليجييرى » سيجد أن العذاب الذى تخيله في جحيمه يقل عما تسببه هذه المصانع من آلام ... »

K. Marx, le Capital, livre I, Tome I, p. 242 — 243.

Cité in, Redor et Rioux, op. cit., note 398, p. 65.

نتصور امكانية اطعامهم ، بأجر رجل واحد ؟ لعل ذلك ما يفسر لنا ، أمرا قد يبدو غير طبيعى ، وهو تلهف الأب والأم على بلوغ السن الذى يمكنه فيه ان يكسب « عيشه »(٤٩٣) ، بدلا من ان يموت جوعا ، مهما كانت الظروف التى يعمل فيها للكسب(٤٩٤) ، فحتى لو كان هذا الأجر الذى يتناوله يكفيه بالكاد ان يأكل ، فهو ولا شك أفضل من ان لا يجد ما يأكله .

ولقد كان من المشاكل الأساسية التى ضاعفت من تحمل الأطفال، هو أن أصحاب رأس المال ، ان كانوا قد لجأوا الى تشغيلهم هم والنساء ، دون سابق خبرة ، فان الرأسمالى اكتشف انه بحاجة الى من يراقب عملهم ويوجههم ، دون اعتبار لأسلوب « التوجيه » ، وقد وجد ضالتـه في بعض العمـال أصحاب الخبـرة الذين سبق ان مارسوا العمل الصناعى ، هؤلاء « مراقبى العنابر » كان أجرهم يتوقف على مـدى انتاج «العنبر » التابع لهم ، ولذلك ، لم يكن ممكنا ان يتصوروا ان يتوقف الانتاج ، أى ان يتقف الطفل عن العمل ، ولو لدقيقة واحدة، ولذلك، كثيرا ما كانوا يستقطعون من وقت الراحة الممنوح لتناول الطعام ، بعض الوقت ليقوم فيه الأطفال بتنظيف الماكينات .

لذلك ، كان من الطبيعى ان تكثر الحوادث في هذه المصانع ، وخاصة في نهاية يوم العمل ، حيث يكون الارهاق قد بلغ بالطفل درجة جعلته ـ رغما عنه ـ يغمض عينه ، فما هى الاثانية من الاغفاء ، بعدها يجد الطفل نفسه وقد فقد احد أطرافه أو جرح جرحا سبب له عاهة . ولكن هذه المشاكل لم تكن تشغل بال المراقبين بقـدر ما يشغلهم كمية الانتـاج ، لذلك ، كانت الرقابة صـارمة والعقـوبات قاسيـة ، والقصص لا تنتهى والامثلة لا تحصي ، واستخدام السوط في تأديب الطفل المتكاسل، أو في ايقاظ من غفلت عينيه ، مسألة شائعة في المصانع ، ناهيك عن وسائل التعذيب الأخرى لمن يرتكب أدنى خطـأ(٤٩٤) ، كاللـكمات ، والركل بالقـدم ، والربط من

---

(٤٩٣) Fohlen, op. cit., note 274, p. 42.

(٤٩٤) انظر بالذات قصـص التعذيب التى اوردها Mantoux المرجع السابق ذكره هامش ٢ و ص ٤٣٥ و ص ٤٣٦ .

وانظر كذلك القصتين اللتين اوردهما . Lefranc, op. cit., Note 362, pp. 235 et s.s.

القدمين في حبل متدلى بحيث يكون الطفل فوق الآلة مباشرة ويضطر الى ثنى قدميه بصفة دائمة حتى لا يصطدم بالآلة الدائرة، مما حدا بعض الأطفال ، خوفا من التعذيب، الى الانتحار(٤٩٥) ٠

أما بالنسبة للنساء فلم يكن مصيرهم مختلفا ، فقد شاركوا الأطفال نفس ظروف العمل : اماكن تخلو من الحد الأدنى للشروط الصحية ، ساعات عمل طويلة، تقضيها المرأة غالبا وهي واقفة ، علاوة على الرقابة الصارمة ، ثم بالاضافة لذلك ، ما كانت تتعرض له من انتهاك من جانب المشرفين أو أصحاب الأعمال ، بحيث كتب أحد ممثلى النيابة العامة في مدينة Colmar الفرنسية عام ١٨٥٥ ، يقول « ان المصانع هى أماكن اعداد المرأة العاملة لممارسة الدعارة »(٤٩٦) ، ذلك ، ان اضطرار العاملة للخضوع لرغبات المشرفين ، بالاضافة الى أجرها المنخفض كان يدفع بها ـ بعد مغادرة العمل ـ الى احتراف الدعارة ، أو كما يقال انها كانت تعمل « الربع الخامس من اليوم » ٠ لقد استعان أصحاب الأعمال بالمرأة في جميع القطاعات الصناعية ، حقيقة ان الاستعانة بهن كانت أكبر في قطاع النسيج ، وخاصة المنسوجات القطنية(٤٩٧) ، ولكن ذلك لا يمنع من ان انخفاض أجورهم ادى الى استغلالهم في مصانع الخزف(٤٩٨) ، وفي الصناعات المعدنية وكذلك في المناجم(٤٩٩) ٠

---

(٤٩٥) Mantoux, op. cit., note 2, p. 436.

(٤٩٦) Dupeux, op. cit., note 299, p. 144.
Denham, op. cit., note 273, p. 166
Epsztein, op. cit., Note 277, p. 76

(٤٩٧) وهكذا مثلا ، نجد ان مصنع Dollfusmie للغزل في مدينة Mulhouse الفرنسية يستخدم ١٠٠ رجل ، و ٤٠ طفلا و ٣٤٠ امرأة : وهذا هو المعدل الطبيعي لمصانع النسيج ٠
Folhen op. cit., Note 274, p. 42.

اما في مصانع الحرير ، فلا نكاد نجد سوى العاملات ، اللاتى يبدان عملهن من الخامسة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا ، بحيث جاء في احد التقارير الطبية ان عامين متواصلين من هذا العمل يكفيان للقضاء على نضارة الفتيات وشبابهن ٠

Dunham, op. cit., note 273, p. 166.

(٤٩٨) وفي نفس الفترة تقريبا (١٨٥٠) نجد ان عدد النساء العاملات في مصانع الخزف يبلغ حوالى خمس مجموع العاملين ٠

Fohlen, op. cit., note 274, p. 42

(٤٩٩) ونجد أيضا بعض العاملات في قطاع المناجم ، حقا لم يكن عددهن مرتفع كما هو الامر في المصانع بصفة عامة وصناعة الغزل والنسيج بصفة خاصة ، لكن ما يلفت النظر هو صعوبة هذا العمل بالنسبة لهن ، كما يدل على ذلك ، شهادة احدى العاملات :

ان الذى يلفت النظر في كل هذه الظروف ، ليس وصفها المجرد ، انما بالذات نتائجها الاجتماعية ، فاستخدام النساء والأطفال ، واختلاط « الحابل بالنابل La promiscuité » أى اختلاط الجنسيين جعل من المصنع - كماقلنا - مكان يمهد لاحتراف الدعارة ، وقد أفاض الكتاب في وصف هذا الجانب من آثار الثورة الصناعية(٥٠٠) • أضف الى ذلك ، ان تشغيل النساء والأطفال ، بكثرة ، ترتب عليه انتشار البطالة بين صفوف الرجال ، فقاد هؤلاء الى الخمر في محاولة للهروب من واقعهم ، فكان السكر وما ينجم عنه من عواقب ، من الظواهر المألوفة في الأحياء العمالية ، لدرجة ان تحدث الكتاب عن « شعبية الحانات la popularité des Cabarets » أو وصف بعضهم لها بانها « كنيسة الفقراء l'église des pauvres » ، فالرجل ، اذا كان عالة على زوجته وأولاده ، يريد ان يفرغ همومه في الخمر واذا كان يعمل يريد ان ينسي حياته الرتيبة القاسية »(٥٠١) وهكذا انتشرت الدعارة والسكر بين طبقة البروليتاريا علاوة على ما أدى اليه تشغيل النساء والأطفال ، من تفكك الروابط الأسرية ، وانتشار الجريمة •

« لقد تزوجت وعمرى ٢٣ عاما ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى انزل فيها الى المنجم ، فقد كنت قبل ذلك اعمل في الغزل منذ ان بلغت الثانية عشرة من عمرى (•••) ويبلغ أجرى سبعة شلنات اسبوعيا ، واحيانا اقل ، وابدأ في العمل في الساعة السادسة صباحا حتى الساعة السادسة مساءا ، ولا استريح سوى ساعة واحدة لتناول الغذاء • ولحاجتى الى الأجر فقد اضطررت لجر عربة الفحم حتى وانا حامل (•••) •واضطرت للقيام بعملى ان اربط سلسلة حول خصرى وامررها بين فخذى وأقوم بعملية سحب العربة وانا هنكفئة على يدى ورجلى (على أربع) • وهذا العمل في الواقع مضنى بالنسبة للنساء والأطفال ، فالمنجم دائما ممتلىء بالماء ، ويصل الماء احيانا حتى فوق الركبة بالنسبة لى ، لذلك فان ملابسي دائما مبتلة (•••(انا ام لطفلين تتولى رعايتهما احدى قريباتى أثناء غيابى ، ولكننى حين اعود للمنزل لا أقدر على القيام باى عمل ، بل غالبا ما ادخل للفراش دون ان اغتسل (•••) وبالرغم من قسوة العمل ، فقد عنفنى زوجى وضربنى عدة مرات لاننى لم أكن مستعدة للذهاب للعمل في الوقت المناسب » •

Fohlen, op. cit., note 276, p. 207

(٥٠٠) اقرأ بالذات :

Fohlen, op. cit., note 274, p. 41, et note 276, p. 210

Dupeux, op. cit., note 299, P. 143

(٥٠١) Epsztein, op. cit., note 279, p. 76

لذلك ، قد يبدو عجيبا ، ان نجد بعض الأصوات التى تدافع عن تشغيل النساء والأطفال ، وتحاول ان تجد له المبررات والأعـذار ، ومع ذلك ، فقـد وجدت هـذه الأصوات ، وتبنى بعض الأشخاص وجهة نظر مؤيدة لضرورة استخدام الأطفـال والنساء : ولعل أول من ينسب اليه الدفاع عن تشغيل النسـاء والأطفـال ، كان ويليـام بث ، رئيس وزراء انجلترا ، حين شكا اليه أصحاب الأعمال ، ان ارتفـاع الأجور ، يجعلهم عاجزين عن دفع الضرائب ، نسب اليه أنه قال لهم « استخدموا الأطفـال » وعلى الرغم من ان هذا القول ، مشكوك في صدوره منه ، الا انه كان ولا شك من المدافعين عن تشغيل الأطفـال ، ففى حديث له أمام البرلمان الانجليزى في ١٢ فبراير ١٧٩٦ ، أعلن ان « التجربة بينت ما يمكن ان ينتج عن عمل الأطفال ، وما هى المزايا التى تنتج من استخدامهم منذ وقت مبكر في الأعمـال التى يقـدرون على القيام بها (٠٠٠) فلو اننا حسبنا القيمة الاجتماعية لما يكسبه هؤلاء الأطفال ، لاندهشنا من النتائج ، فالأطفـال بعملهم يمكنهم كسب قوتهم والتخفيف بذلك من الدولة ، علاوة على ان نتائج عملهم ، ستضاف بالقطع الى ثروة الأمة ٠٠٠ »(٥٠٢) ٠

غير أن كلمات Pitt ، تبـدو أقل خشـونة من بعض من شـاركوه نفس الأفـكار ، فاهمية عمل الأطفـال ، تبدو من وجهة نظر البعض ، من أنه « يستحيل تكوين عامل صناعى على مستوى معقول من الصلاحية اذا استخدمنا شخصا تجاوز سن المراهقة » ، هذا من وجهة النظر « العملية » ، ولكن أصحاب هذا الرأى ، لديهم أيضا أسانيد انسانية : « فهنـاك الآلاف من الآباء الذين لا يقدرون على العمـل أو لا يجدون عملا ، ولا يمكنهم بالطبع اعالة أولادهم ، اليس من القسوة ! في هذه الحالة حرمانهم من مساعدة أولادهم لهم ، وخاصة أن بامكان هـؤلاء الأطفال أن يعملوا فيكونوا عونا لآبائهم ، خاصة في تلك العائلات التى فقدت عائلها ، ولم يبق الا الأرملة ، فهل يتصور ان نحرمها من جهد أطفالها ٠ ان الدولة لا تملك هذا الحق، لأنها ان فعلت فسيكون عليها ان تتكفل بالعجزة وباطعـام الأطفـال ، وهى (أى الدولة) لا تملك الوسائل التى تمكنها من تحقيق ذلك !»(٥٠٣)، لقد وجد الرأسماليون

---

(٥٠٢) Niveau, op. cit., noee 122, p. 127.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 38

(٥٠٣) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 64

ويروى لنا Dunham كيف ان احد اصحاب المصانع كان يفخر بانه يستخدم الأطفال ما ان يبلغ سنهم ست سنوات ، ويعملون نفس عدد الساعات التى يعملها الكبار ، وهو يؤكد ان هذا

في بعض أفكار التجاريين ، وخاصة عمل الأطفال ، مصدرا هاما للاقتصاد في النفقات، فبينمـا كان Colbert يرى أن « الكسل في سنوات العمر الأولى يؤدى الى سوء التنظيم في الكبر »(٥٠٤) ، أكد الرأسماليون ، أن « الأطفال اذا لم يمـلوا منذ الصغر فانهم يتعرضون للضياع ولسوء التربية ، نظرا لكثرة الفراغ الذى يشعرون به ! » وقد انتشرت هذه الأفكار لدرجة ان برلمان احدى الولايات الامريكية ، وهى ولاية Connecticut أراد ان يكافىء الجنرال Humphreys لأنه أنشأ عام ١٨٠٨ مصنعا ، استخدم فيه النساء والأطفـال « حتى ينقذهم من الجوع والجريمة » على حد تعبيره ، ومكافأة له ، قرر البرلمان اعفاءه من الضرائب لمدة عشر أعوام(٥٠٥) ٠

ولكن هذه الأفكار ، لم تلق صداها لدى جميع أصحاب الأعمال ، فقـد أراد بعضهم ، بدافع انسانى ـ (فلم يكن هناك بعد أى التزام قانونى) التخفيف من هذه الظروف القاسية ، ولكن محاولاتهم لم تكن الا استثناءات محدودة ، بدافع عمـل الخير ، ونذكر منهم مثلا ، دافيد ديل ، وروبرت أوين الذى نظم بطريقة انسانية تدريب الأطفـال وتعليمهم وحدد عدد ساعات عملهم(٥٠٦) ، أو Gressbroch الذى

ـ العمل « افضل للاطفال لأنه لا يترك لهم ـ كالمدرسة ـ اوقات فراغ يستسلمون فيها للكسل »
Dunham, op. cit., note 273, p. 166.

(٥٠٤) راجع ما سبق ، هامش ٢٢٢ ص ١٥٠ ٠

(٥٠٥) Kuczynki, op. cit., note 362, p. 60.

(٥٠٦) وتستحق تجربة اوين بالذات الاشارة اليها ، فقد ورث أوين مصنعا للغزل New-Lanark عن حماه دافيد ديل وكان هذا الأخير قد اقام مصنعا عام ١٧٨٤ ، في هـذه المنطقـة التى كان سـكانها عازفين عن العمل في الصناعة الجديدة ، فقد كانوا يكرهون العمل الجماعى والتكدس من الصباح حتى الليل في المصنع ، ولذلك رغبة من ديل في اجتذابهم لمصنعه اقام قرية نموذجية ، بلغ عدد سكانها عام ١٧٩٢ الفى نسمة (٢٠٠٠) ، وقد استخدم دافيد ديل بعض الأطفال الذين اتى بهم من مؤسسات الفقراء، في مصنعه ، وحين ورثه OWEN، حرص على العناية بهؤلاء الاطفال فقرر عدم استخدامهم قبل بلوغهم سن عشر سنوات ، وتخصيص عدد من الساعات لتعليمهم ، واقام عنابر خاصة بالأطفال الذكور وأخرى بالاناث ، كما اشرف على حسن تغذيتهم ٠

راجع في ذلك :

Fohlen, op. cit., note 276, p. 208
Niveau, op. cit., note 122, p. 128.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 42.

نظم مصنعه بحيث أقام مساحات خضراء شاسعة خصصها للعب الأطفال الذين يعملون لديه وكان ينظم لهم ساعات معينة لتعلم القراءة والكتابة والموسيقى .

ولكن على الرغم من كون هذه الأمثلة « استثناءات » ، الا انها ، بالاضافة الى بعض التقارير التى سبق الإشارة اليها ، كتقرير الدكتور / Percival ، كانت سببا في حث المشرع على اصدار قوانين تحمى الأطفال والنساء من هذه التجاوزات ، فكان المشرع الانجليزى ، ساقا في هذا الميدان ، بأن اصدر عام ١٨٠٢ (٦ أبريل) أول قانون لحماية الأطفال ، وقد تضمن هذا القانون بعض الأحكام المتعلقة بالنواحى الصحية لاماكن العمل ، وبتخفيض عدد ساعات العمل (بحيث لا تتجاوز بأى حال ١٢ ساعة ، ولا تبدأ قبل السادسة صباحا وتنتهى على الاكثر الساعة ٩ مساء) ، ولابد من ان يتعلم هؤلاء الأطفال القراءة والكتابة ، خلال ساعات العمل .

ولكن هذا القانون كان مقصورا على الأطفال الذين اخذوا من الكنائس (اولاد الفقراء) ، وعلى مصانع المنسوجات القطنية ، وحتى رغم نطاقه المحدود ، فلم يلق تطبيقا فعالا(٥٠٧) .

لذلك ، فان أول قانون لحماية الأطفال أثناء العمل ، لقى حظا من التطبيق كان قانون ١٨٣٣ الذى عرف باسم « قانون المصانع Factory Act » ، والذى كان يتضمن نقطتين أساسيتين تجعلانه أكثر فعالية من سابقه . اما الأولى فهى أنه كان يطبق على كل صناعة النسيج ، وليس المنسوجات القطنية فقط ، كما أنه أنشأ للمرة الأولى ، هيئة للتفتيش تابعة للدولة ، لمراقبة تطبيقه ، ورغم كون هذه الهيئة محدودة العدد (٤ مفتشين فقط) الا ان تقرير مبدأ التفتيش نفسه في نطاق قانون العمل ، كان حدثا هاما في حد ذاته . وقد تضمن هذا القانون أحكاما هامة منها تحريم العمل الليلى لمن تقل أعمارهم عن ١٨ سنة ، ومنع تشغيل الأطفال الذين تقل سنهم عن ١٣ سنة (١٠ سنوات بالنسبة لمصانع الحرير) أكثر من

---

(٥٠٧) Fohlen, op. cit., note 274, p. 43
Fohlen, op. cit., note 276, p. 211.
Dunham, op. cit., note 273, p. 167.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 172.
Niveau, op. cit., note 122, p. 128.
Ponteil, op. cit., note 441, p. 253.

٩ ساعات يوميا ولايجوز ان يبدأ عمل الأطفال قبل الساعة الخامسة والنصف صباحا ولا ان ينتهى بعد الثامنة والنصف ليلا على الاكثر ، مع تخصيص ساعتين يوميا لتعليم هؤلاء الأطفال القراءة والكتابة وتلقى الدروس الدينية في مدرسة تنشأ خصيصا لهذا الغرض(٥٠٨) ٠

ثم كانت الخطوة الأخيرة في هذا الصدد بقانون ١٨٤٤ ، الذى حاول ان يكمل قانون ١٨٣٣ ، وكان الهدف منه بالذات هو حماية النساء والأطفال من حوادث العمل ، فالزم القانون أصحاب الأعمال بضرورة وضع حواجز عند الأجزاء الخطرة من الآلة ، التى قد تعرض العمال للاصابة ، وحرم عليهم تكليف الأطفال والنساء بتنظيف الآلة أثناء دورانها ، وانشأ نظام العمل « نصف ـ اليوم » حتى يتفرغ الطفل في النصف الآخر للتعليم ، وكلف مفتشي المصانع بالاشراف على تطبيق نصوص القانون والرقابة على المدارس التى تتولى تعليم هؤلاء الأطفال ٠

ولا شك ان هذه القوانين كانت تمثل أهمية مزدوجة : فهى من ناحية كانت أولى المحاولات لتنظيم عمل النساء والأطفال وحمايتهم من آثار الثورة الصناعية ، حتى لو كانت هذه المحاولات ، في البداية ، غير ناجحة تماما في تحقيق الحماية اللازمة ، فانها قررت على الأقل ضرورة هذه الحماية من حيث المبدأ ٠ كذلك ، فان هذه القوانين ، بينت منجهة أخرى ، ان الطفل لا ينبغى ان يكون موضع استغلال من جانب أصحاب الأعمال ، ولا يمكن النظر اليه على انه مجرد أداة ، أو جزء من الآلة ٠

أما في فرنسا ، فقد بدأت الحركة من أجل حماية الأطفال عام ١٨٢٧ بواسطة « الجمعية الصناعية لمدينة Mulhouse »وبقيادة بعض رجال الصناعة(٥٠٩) ، ولكن هذه المحاولة ، التى تجددت عام ١٨٣٥ ، وأدت الى اجراء تحقيقات في هذا المجال في

---

(٥٠٨) وقد تبعت بعض الدول المشرع الانجليزى أو تاثرت به قوانينها ، مثال ذلك التشريع الامريكى لحماية الأحداث (والذى توالى صدوره في الولايات الصناعية اعتبارا من ١٨٣٦ الى ١٨٤٨) وفي بروسيا والنمسا (١٨٣٩) وفي بافاريا (١٨٤٠) ٠

Ponteil, op.cit., note 411, p. 253.

(٥٠٩) مثل Daniel Legrand Jean Jacques Bourcart

انظر Fohlen, op. cit., note 274, p. 45.

السنوات ١٨٣٧ و ١٨٣٨ ، لم تثمر نظرا لمعارضة أصحاب الأعمال ، وبعض « الليبراليين » . وتعين الأمر الانتظار حتى ١٨٤١ حتى صدر أول قانون منظم لعمل الأطفال (٢٢ مارس) هذا القانون الذى ، لم يكن يطبق الا على المصانع التى تستخدم أكثر من ٢٠ عاملا ، كان يحظر استخدام عمال يقل عمرهم عن ثمانية أعوام ، ولا يجوز تشغيل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٨ و ١٢ عاما أكثر من ثمانى ساعات يوميا ، ولا يجوز تشغيلهم في الأعمال الليلية ، أو في أيام الأعياد والعطلات ، ولابد من السماح لهم بارتياد المدارس . اما من تجاوزوا الاثنى عشر عاما ويقل عمرهم عن ستة عشر عاما فلا يجوز ان تزيد ساعات عملهم عن ١٢ ساعة يوميا .

وعلى الرغم مما يبدو ان هذه الأحكام أكثر صرامة من القانون الانجليزى ، الا انها لم تلق حظها من التطبيق ، نظرا لأن القائمين على تنفيذها ، لم يكونوا موظفين تابعين للدولة ، وانما كانوا من أصحاب المصانع أنفسهم ، لذلك فتبعا لتحقيق أجرى عام ١٨٦٨ ، كان هناك حوالى ١٠٠ر٠٠٠ طفل خاضعين من حيث المبدأ لقانون ١٨٤١ ، بينما كان هناك ٢٦٥٠٠ طفل يعملون في مصانع تستخدم أقل من ٢٠ عاملا فلا ينطبق القانون عليهم . ولكن جميع الأطفال آنذاك ، نظرا لعدم تطبيق قانون ١٨٤١ ، كانوا في الحقيقة خاضعين للسلطة المطلقة لصاحب العمل(٥١٠) .

البند الثالث ـ عدد ساعات العمل(٥١١) :

ولعل من المساوىء التى تضاف أيضا الى ظروف العمل ، كثرة عدد ساعاته، التى كانت تصل في بعض الأحيان الى ١٩ ساعة يوميا ، ولكن حتى لا تصل الى

---

(٥١٠) Fohlen, op. cit., note 274, p. 46
Ponteil, op. cit., note 441, p. 253.
Lefranc, op. cit., note 362, p. 263.

(٥١١) Fohlen, op. cit., note 274, p. 33.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 191.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 72.
Branciard, op. cit., note 302, p. 57.
Dupeux, op. cit., note 229, p. 146.
Rioux, op. cit., note 5, p. 168.

هذا الحد الأقصي ، فان عدد ساعات المعل كان في المتوسط يتراوح بين ١٢ ساعة و ١٦ ساعة يوميا . حقا ، ان هذا العدد الهائل من ساعات العمل ، لم يكن جديدا على العامل اليدوى قبل الثورة الصناعية ، فقد كان يلزمه ، في المتوسط من ١٢ الى ١٤ ساعة يوميا، للحصول على قوته اليومى، سواء أكان يعمل في الورش الصناعية أم في منزله . ولكن الاختلاف يبدو واضحا ، لو تنبهنا ان هذا العدد من الساعات كان يخضع لمرونة أكبر قبل ان يلتحق العامل بالمصنع ، اما منذ ان تكدس العمال في هذا الأخير ، فقد خضعت هذه الساعات الطويلة من العمل الى تنظيم صارم من جانب رب العمل وملاحظيه ، بحيث لا يتخللها الا ساعة أو ساعة ونصف على الأكثر، لتناول وجبتى الغذاء والعشاء ، وربما كلف العامل في خلال هذه الاوقات المخصصة للراحة ، بتنظيف الآلة أو مكان العمل .

اضف الى ذلك ، ان المصنع اختلف جذريا عن نظم العمل السابقة عليه ، من حيث أيام الاجازات والراحة الاسبوعية : فلأسباب اقتصادية ــ سنراها حالا ــ لم يكن بامكان الرأسمالى ان يسمح بتوقف آلاته اثناء الراحة الاسبوعية أو العطل ، لذلك ، انتهت مع الثورة الصناعية ، تلك العادات القديمة التى كانت تتمثل في كثرة الاجازات « الدينية بالذات » وفي يوم الراحة الأسبوعية(٥١٢) . نتيجة لذلك ، وصل عدد ساعات العمل ، الى الحد الأقصي الذى يسلب العامل كل قواه ويجعله في حالة من الانهاك الجدى المستمر . وقد ساعد على اطالة عدد ساعات العمل ، عدة عوامل فنية واقتصادية .

فمن الناحية الفنية ، ساعد اختراع الانارة بالغاز بواسطة William Murdock عام ١٧٩٢ على استمرار العمل حتى وقت متأخر من الليل ، فقبل هذا الاختراع ، كان يوم العمل يبدأ بظهور الشمس وينتهى بغروبها ، أى يخضع لعامل « الانارة الطبيعية » ، فيستمر العمال في العمل حتى تتعذر عليهم الرؤية ، وبالتالى كان عدد ساعات العمل في الصيف أطول منها في الشتاء ــ ولكن بعد اكتشاف امكانية للانارة بالغاز ، أصبح من الممكن تشغيل العمال حتى بعد غروب الشمس الى وقت

---

(٥١٢) انظر كيف عبر أحد العمال عن ذلك التحول :
Fohlen, op. cit., note 276, p. 191.

متأخر في الليل ، بحيث كان الحد الأدنى للعمل هو ١٢ ساعة يوميا(٥١٣) ، ان لم يصل الى ١٦ ساعة في بعض الاحيان ، كما سبق القول •

ومن الناحية الفنية أيضا ، ساعد اختراع « الآلة البخارية » وتعميم استخدامها كقوة محركة في الصناعة ، بدلا من المياه ، على اطالة عدد ساعات العمل ، وعلى مدار السنة : فالاعتماد على قوة المياه « القوة الهيدروليكية » ، كان يجبر أصحاب المصانع على الخضوع في تحديدهم لساعات العمل ، الى بعض الاعتبارات المتعلقة بمصدر الطاقة ، فالمياه ليست في نفس درجة القوة طوال أيام السنة ، بل تتراوح قوتها تبعا لفترات المطر والجفاف ، ثم هى تختلف في اليوم الواحد ، بحسب قوة سحب المصانع المقامة على جانبى شاطىء النهر ، اما الآلة البخارية ، فبامكانها ان تعمل بشكل مستمر وان تعطى للصناعة ، القوة المحركة اللازمة بقدر ما يلزمها طوال النهار والليل(٥١٤) •

كذلك ، فان هناك سببا اقتصاديا هاما ، وراء عدد ساعات العمل الطويلة ، فرب العمل ، الذى بذل رأس مال هام في الحصول على الآلات ، لايمكنه ان يسمح ببقاء هذه الآلات ساكنة مدة طويلة ، فحتى يتمكن من استعادة أمواله وتحقيق دوره رأس المال في أقصر مدة ممكنة ، وحتى يتمكن في نفس الوقت من الوقوف في حلبه المنافسة مع غيره من أصحاب العمل ، كان لابد ان يجعل هذه الآلات تدور بصورة دائمة ، فان لم يتمكن من تحقيق دورانها الدائم ، فعلى الأقل تشغيلها أكبر عدد ممكن من الساعات •

ولكن ، يبدو ان هذا العدد الهائل من ساعات العمل اليومية ، بالاضافة الى سوء تغذية العمال ، وقلة أوقات الراحة التى يتمتعون بها ، كان يؤدى بهم الى حالة من الانهاك تقلل من مقدرتهم الانتاجية ، ولكى يعوض صاحب العمل هذا النقص في « مردودية الانتاج » كان عليه اما ان يستعين بعمال جدد (وهو حل مكلف)

---

(٥١٣) لذلك ، اعتبر أصحاب الأعمال وبعض الكتاب ان اركريت كان رجلا تقدميا ، حيث كان لا يقبل تشغيل عمالة أكثر من ١٢ ساعة يوميا حرصا على عدم انهاك قواهم •

Fohlen, op. cit., note 274, p. 33.

Rioux, op. cit., note 5, p. 168.

(٥١٤) Epstein, op. cit., note 279, p. 72.

أو ، وهو الحل الأسهل والأرخص بالنسبة له ، رفع عدد ساعات العمل مرة أخرى[٥١٥] • بحيث كان عدد ساعات العمل المتزايد ، مسألة طبيعية في كل البلاد الصناعية حتى منتصف القرن التاسع عشر : ففى انجلترا مثلا ، كان متوسط عدد ساعات العمل ١٤ ساعة يوميا ، وتصل الى ١٦ ساعة في بعض الصناعات • وغالبا ما كان العامل يشتغل ٦ ساعات متواصلة دون أى قدر من الراحة ، بل وصل الأمر في بعض الحالات الى اشتغال العمال ٤٠ ساعة متواصلة دون أى راحة ، سوى مرتين كل ٢٤ ساعة لتناول الطعام • وكان العمل غالبا ما يبدء في الخامسة والنصف صباحا وينتهى ما بين السابعة والثامنة مساء[٥١٦] •

وفي فرنسا ، لم يكن الأمر مختلفا : ففى الصناعات التعدينية ، كان العمال يشتغلون ما بين ١٤ و ١٥ ساعة يوميا ، والأمر لم يكن مختلفا في صناعة النسيج • ففى مقاطعة Elbeuf على سبيل المثال ، وفي خلال فترة الشتاء (أول نوفمبر الى ٣١ مارس) كان العمل يبدأ في السابعة صباحا لينتهى في التاسعة مساء، واعتبارا من أول ابريل الى ٣١ أغسطس ، من الساعة الخامسة والنصف صباحا حتى السابعة والنصف مساء ، ومن اول سبتمبر حتى ٣١ أكتوبر من الساعة السادسة صباحا حتى الساعة الثامنة مساء ، ولم يكن يتخلل كل هذه الساعات سوى ساعة لتناول الغداء وساعة أخرى لتناول طعام العشاء[٥١٧] •

كذلك ، فان العمل أثناء الليل كان من المسائل المألوفة في العديد من الصناعات ، وخاصة في نطاق العمل بالمناجم على الأخص مناجم الفحم • ففى بلدة Commentry في مقاطعة الـ Bourbonnais الفرنسية ، كان استخراج الفحم يتم من الساعة الرابعة صباحا حتى الساعة الرابعة مساء ، وفي خلال الاثنتى عشرة ساعة المتبقية كان على العمال ان يقوموا بسد الفراغات التى أحدثها استخراج الفحم حتى لا يحدث انهيار بالمنجم ، وفي الصناعات المعدنية ، وخاصة الحديد والصلب ، كان لابد من العمل ليلا لملاحظة الأفران ، غير ان هذا النوع من العمل كان

---

(٥١٥) Rioux, op. cit., note 5, p. 168.

(٥١٦) Epstein, op. cit., note 279, p. 72.

(٥١٧) Fohlen, op. cit., note 274, p. 36.

لا يتطلب الا عددا محددا من العمال ، أما في نطاق صناعة النسيج فكان العمل الليلى أمرا نادرا(٥١٨) .

ومع ذلك ، فانه حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ظل المشرع ساكنا لا يتدخل لتنظيم عدد ساعات العمل ، سواء في انجلترا أو في فرنسا : ففى عام ١٨٣١ تقدم أحد نواب البرلمان عن مدينة Leeds ويدعى Michel Sadler باقتراح الى البرلمان ، يهدف الى تخفيض عدد ساعات العمل الى عشر ساعات فقط يوميا ، ولكن الاقتراح رفض ، ولم ينص قانون المصانع Factory act الصادر عام ١٨٣٣ الا على تنظيم عدد ساعات عمل الأطفال فحسب ، ولم يتدخل المشرع الانجليزى في هذا الميدان حتى عام ١٨٥٤ ، حين صدر قانون يلزم أصحاب الأعمال بالتوقف عن العمل الساعة الثانية بعد الظهر يوم السبت وتقرير الأحد يوم عطلة . ثم بدأ المشرع الانجليزى شيئا فشيئا يصدر قوانين محددة لعدد ساعات العمل الأسبوعية في كل مهنة على حدة ، وهكذا صدر عام ١٨٧٤ قانون يحدد عدد ساعات العمل في صناعة النسيج بـ ٥٦،٥ ساعة أسبوعيا ، وفي صناعة البناء حددت ساعات العمل بـ ٤٨ ساعة أسبوعيا خلال موسم الشتاء فقط بموجب قانون صدر أيضا عام ١٨٧٤ . وتحددت ساعات العمل بـ ٥٧ ساعة لعمال الحديد والصلب والميكانيكيين ، بموجب القانون الصادر عام ١٨٦١ ، ثم خفض هذا العدد الى ٥٤ ساعة عام ١٨٧٢ . وقد حاولت النقابات ، دون جدوى ، تخفيض عدد ساعات العمل الى ٤٥ ساعة في كل القطاعات ، ولكن محاولاتها لم تجد آنذاك .

اما في فرنسا ، فقد صدر مرسوم حكومى في ٢ مارس ١٨٤٨ ، يحدد عدد ساعات العمل بـ ١٠ ساعات في باريس وبـ ١١ ساعة في الأقاليم ، ولكن هذا المرسوم لم يلق أى تطبيق ، لذلك عادت الحكومة فاصدرت قانونا في سبتمبر من نفس السنة يحدد عدد ساعات العمل في المصانع بـ ١٢ ساعة يوميا ، ولكن العمال لم يكن لديهم أى ضمان او حماية في حالة مخالفة اصحاب الأعمال لهذا القانون ، بل ان العامل الذين كان يجرؤ على التقدم بشكوى ضد رب العمل الذى لا يحترم قانون تحديد ساعات العمل ، كان معرضا ليس فقط للفصل من العمل ، بل ومهددا

---

(٥١٨) Ibid, p. 37.

ايضا بعدم قبوله للعمل لدى اى صاحب عمل آخر ، في نفس المنطقة التى كان يعمل بهـا[(٥١٩)] .

---

(٥١٩) ونورد فيما يلى ، شهادة أحد العمال ، عن الظروف التى كان العمـل يتم فيهـا وعـدد ساعاته الطويلة وآثاره على العمال : « لقد كان العمل يبدأ في المصنع في الخامسة صباحا حتى حوالى الساعة السابعة مساء (أو ربما بعد ذلك) . وبذلك كان عدد ساعات العمل يرتفع الى ١٤ ساعة يوميا يتخللها ساعة فقط للغداء ، وبذلك كنا نعمل ١٣ ساعة يوميا من العمل الشاق المتواصل المضر بالصحة، فالمكان لا يدخله الهواء ولا نرى الشمس اطـلاقا من أى نافذة ، ونتنفس فيـه الغبـار ، ممـا يقلل من مقدرتنا على مقاومة المرض ، ويحد من قدراتنا على العمل . لذلك ، كنا بالـكاد نصـل الى نهاية يوم العمل ، ولم تكن فترة الليل تكفى لاستعادة نشاطنا ، لذلك كنا نعود للعمـل في اليوم التـالى ونحن أكثر انهاكا عن اليوم السابق ، ولكننا كنا مرغمين على كل حال على العمل، والا تعرضت أسرنا للضياع، والجوع . فأى فترة نلازم فيها الفراش بسبب المرض أو اصابة عمل ، تعنى الخراب والحاجة ، ذلك ان أجورنا لاتكاد تكفى لسـد حاجاتنا الضرورية ، فلا يمكننا بالطبع ان ندخر أى مبلغ لمواجهـة هـذه الأموال .. » .

Fohlen, op. cit., note 276, p. 192.

المطلب الثانى ـ مستوى معيشة الطبقة العاملة :

البند الأول ـ الأجور (الأجور الاسمية) :

ان مسألة الأجور تعتبر من المسائل التى يصعب الحكم عليها على وجه دقيق ابان الثورة الصناعية ، وخاصة أن الاحصاءات الدقيقة تكاد تكون معدومة في هـذا الصدد . حقا ، هناك العديد من الكتابات التى تناولت الموضوع بالدراسة ، ولكنها جميعا لا يمكن الاعتماد عليها لابداء رأى قاطع في هذا الصدد ، أى للحكم على القيمة الفعلية للأجر الذى كان يتقاضاه العامل آنذاك ، فالأجور الاسمية ، التى وردت بها الاحصاءات ، هى في ذاتها تدعو للتردد : فلو كان من الممكن الاعتماد على الأرقام التى أتى بها بعض الباحثين بالنسبة لانجلترا فيما يتعلق « بالأجر الاسمى » او بمعنى أدق للأجر اليومى الذى كان يتقاضاه العامل ، فان الأمر يبدو مختلفا في فرنسا ، لقلة الدراسات فيها من جهة ، ولعدم دقتها من جهة أخرى(٥٢٠) .

وحتى الاعتمـاد على الأجر الأسمى لا يمكن ان يعطينا فكرة دقيقة عن دخل العامل من جهة ، وعن الأجر الحقيقى (الفعلى) ، فالأمر يتوقف الى حد بعيد على معرفة مجموعة من البيانات الأخرى، مثل البدلات عن ساعات العمل الاضافية وما اذا كان بعض العمال يتمتعون بدخل اضافي من عدمه ، كما يتعين الوقوف على ما يتعرض له الدخل من انخفاض نتيجة لتوقف العامل من العمل في بعض الفترات أو لعدم وجود العمل (البطالة) اصلا ، وكذلك معرفة مستوى الأسعار وكيفية تطورات الحاجات الانسانية خلال القرن الثامن عشر حيث بدأ الانسان يستهلك بعض المواد بشكل لم يسبق له ان استخدامها على هذا النحو (كالدخان والشاى والقهوة والملابس القطنية ... الخ) .

لذلك ، يصعب على المرء ان يبدى رأيا قاطعا في مسألة ، هل كانت الدخول قبل الثورة الصناعية ، أكثر تلبية لمطالب العمال ، عنها بعد الثورة الصناعية(٥٢١) ؟

---

(٥٢٠) Dunham, op. cit., note 273, p. 168.

(٥٢١) ذلك الرأى الذى يقول به بعض الكتاب ، حيث يرون ان الثورة الصناعية هى السبب وراء ما اصاب طبقة العمال من انخفاض في مستوى معيشتها ، وبحيث يصورون المرحلة السابقـة على الثورة الصناعية وكانها « العصر الذهبى » للطبقة العاملة ، ولذلك ، يقـرر بعضهم ، ان مستوى معيشة العامل الانجليزى انخفضت خلال الثورة الصناعية الى مستوى « اسيوى » وهو ما يصعب الحكم =

وعموما فاننا سنعود الى مثل هذا التساؤل ، في محاولة للاجابة عليه ، في نهاية هذا المبحث .

لكن من الثابت أولا ، ان الوضع في انجلترا كان مختلفا عنه في فرنسا : فالأجور الاسمية ، والأجور الفعلية كانت في انجلترا « أقل سوءا » عنها في فرنسا .

(أ) الأجور في انجلترا :

اذا اردنا ان نحلل مستوى الأجور في انجلترا ، وجب ان نبدى ملاحظتين أساسيتين : اما الملاحظة الأولى ، فمؤداها ان الأجر الاسمى للعامل الصناعى كان أكبر من الأجر الاسمى للعامل الزراعى : ففى عام ١٨٧٠ كان العامل الزراعى يتقاضي في المتوسط ٥ الى ٦ شلنات أسبوعيا في الشتاء ، ويتراوح أجره من ٧ الى ٩ شلنات في فترة الصيف ، بينما كان في امكان العامل الصناعى (وخاصة عامل غزل القطن) ان يصل الى أجر قدره ١٠ شلنات اسبوعيا وربما أكثر[٥٢٢] .

اما الملاحظة الثانية ، وهى مرتبطة بالأولى ، فمؤداها ان سبب ارتفاع الأجر الاسمى للعامل الصناعى ، انما جاء نتيجة لثورة هؤلاء العمال في بداية الثورة الصناعية ، ويتضح ذلك جليا ، اذا لاحظنا ، أنه في بداية الثورة الصناعية ، بلغ أجر بعض العمال ١٣ شلنا (عمال تمشيط الصوف) ، أو ١٥ شلنا (عمال الحديد والصلب) . ولكن هذه الأجور المرتفعة ، سرعان ما ستنخفض ، تحت تأثير المنافسة بين جيوش الايدى العاملة الوافدة من الريف الى المدينة ، وخاصة بسبب استخدام النساء والأطفال ، والتى زاد من خطورتها التقدم الفنى الذى كان سببا اضافيا في انتشار البطالة وزيادة تنافس العمال للحصول على عمل ، علاوة على ان التقدم الصناعى ، والمنافسة ، أديا الى تخفيض أسعار بعض المنتوجات ، فانخفض

= عليه بالفعل ، نظرا لعدم وجود الاحصائيات الدقيقة التى تبين مستوى معيشة العامل ككل (وليس الأجر الاسمى فقط) قبل الثورة الصناعية وبعد هذه الثورة .

انظر في هذا المعنى كلا من :

Fohlen, op. cit., note 274, p. 54.
Dunham, op. cit., note 273, p. 158.

(٥٢٢) Fohlen, op. cit., note 274, p. 55.
Mantoux, op. cit., note 2, p, 440.
Rioux, op. cit., note 5, 170.

بالتالي ربح الرأسمالي ، الذى اضطر للحفاظ على نسبة أرباحه ، الى استقطاع الفارق من الأجور ، فقد كانت الأجور أنسب العناصر التى يمكن الاستقطاع منها دون ان يخشي صاحب العمل من عدم الحصول على ما يلزمه من أيد عاملة(٥٢٣) : وهكذا بينما كان أجر عامل النسيج عام ١٧٩٥ بلغ ٣٣ شلنا أسبوعيا ، نجده قد انخفض الى ١٤ شلنا عام ١٨١٥ والى شلنات عام ١٨٣٤ . وبنفس الصورة ، بينما بلغ أجر عامل الغزل أعلى متوسط له عام ١٨١٥ (٢٤ شلن) أسبوعيا ، نجده ينخفض عام ١٨٤٩ الى ١٨ سلنا فقط(٥٢٤) .

لكن المشكلة تبدو أكثر تعقيدا ، اذا ما لاحظنا ، أنه في خلال الفترة المذكورة (ما بين ١٧٩٠ ــ ١٨٤٠) ، ان الأسعار كانت دائما في ارتفاع ، بسبب الحروب المستمرة منذ ١٧٩٣ ــ ١٧٩٥ ، مما يجعل من الصعب على المرء ان يحكم بدقة على مستوى معيشة العمال ، ولكن من الثابت ، ان هذا المستوى كان منخفضا ، نظرا

---

(٥٢٣) وهكذا مثلا ، كان ثمن الرطل من غزل القطن عام ١٧٨٤ ، ١٠ شلنات و١١ بنسا بينما كان ثمن المادة الأولية شلنين، بحيث كانت مصاريف التمويل الصناعى والأرباح ٨ شلنات تقريبا في الرطل، حيث يمكن لصاحب العمل ان يدفع منه أجرا « معقولا »، ولكن اعتبارا من ١٨٧٢ ، صار ربح الراسمال في نفس كمية الغزل (الرطل) شلنا واحدا ، وانخفض الى ٤ بنسات عام ١٨٣٢ ، بحيث لم يكن في امكان صاحب العمل ، من أجل الحفاظ على نسبة أرباحه الا ان يضاعف من انتاجه ، وان يخفض نفقاته ، ولما كان يصعب عليه ان يخفض أثمان المادة الأولية ، وخاصة بسبب الثورة الصناعية وازدياد الطلب، لم يكن امامه اذن الا الأجور ، التى ــ بسبب العوامل المذكورة في المتن ــ كانت أكثر قابلية للضغط عليها وتخفيضها .

Rioux, op. cit., note 5, p. 171.

(٥٢٤) Rioux, op. cit., note 5, p. 171.
R. Marx, op. cit., note 273, p. 303 Annexes 6.

وتجدر الاشارة في هذا الصدد ، الى أنه كان هناك بعض العمال الذين يتقاضون أجورا مرتفعة ، ولكن هؤلاء « العمال المهرة والمتخصصين » الذين كانوا يمارسون نفس العمل في نطاق الصناعات اليدوية ، ثم التحقوا بالمصانع ، ولعل السبب في ارتفاع أجورهم ، لم يكن الا طبيعة العمل الذى وكل اليهم من أصحاب المصانع : فقد عمل هؤلاء الآخرين ، على استخدام العمال المتخصصين والمهرة منهم ، للاشراف ولمراقبة الايدى العاملة المتخصصة ، من النساء والأطفال والرجال .

لذلك ففى صناعة المنسوجات ، وبالذات القطنية ، نجد ان كل مجموعة من النساء والأطفال ، تتبع مباشرة لأحد العمال المتخصصين الذى يعتبر مسؤولا عنهم مسئولية كاملة ، ولما كان أجر هذا العامل ، مرتبطا بالانتاج الذى تقوم به هذه المجموعة ، يسهل علينا اذن ان نتصور مدى ما كان يبذله من جهد (ومن قسوة) في الرقابة عليهم وفي تشغيلهم .

لذلك ، وحتى يظل هؤلاء المراقبون ، على نفس الدرجة من « الصرامة » ، كانت أجورهم أكثر ارتفاعا . ولكن هذا الارتفاع ، كان مقصورا على هذه الفئة ، بحيث يمكن القول ، أنه كان « استثنائيا» ولا يمكن القياس عليه بالنسبة لكل افراد الطبقة العاملة .

Kuczynski, op. cit., 362, p. 67.

لارتفـاع أسعار المواد الغذائية الى النصف أو أحيانا الى ثلاثة أضعاف في الفتـرة من ١٧٧٠ – ١٨٠٠[٥٢٥] ٠

لذلك ،لم يكن مستغربا ، أن يطالب العمال ، بتدخل تشريعي ، يحدد الحـد الأدنى للأجور ، وقد استجاب لهذا الطلب بعض رجال الأعمال ، رغبة منهم في توخى الخلافات الجماعية التى غالبا ما كانت تنتهى في غير صالحهم – حين يهاجم العمـال الآلات مصدر شقائهم[٥٢٦] ٠ فكان ان صدر قانون عام ١٨٠٠ ، بمقتضاه يقـوم اثنان من المحكمين ، أحدهما يعنيه صاحب العمل والأخر العمال ، بغض الخلافات المتعلقة بالأجر أو بشروط العمل ٠ ولكن أصحاب الأعمال سريعا ما تبينوا ان هذا القانون يحد من حريتهم ويجعل للمحكمين سلطة عليهم ، لذلك سرعان ما مارسوا الضغوط حتى تم الغاء هذا القانون بعد اصداره بفترة وجيزة ، وعاد تحديد الأجور حرا ، يخضع قوة العمل ، كغيرها من السلع ، لقانون العرض والطلب[٥٢٧] ٠ وحرصا

(٥٢٥) Mantoux, op. cit. note 2, p. 451. et p. 452 note 3.

(٥٢٦) انظر فيما بعد ، ص ٠

(٥٢٧) ويبين لنا الجدول التالى متوسط الأجور في صناعة المنسوجات القطنية في مدينة لانكشير٠

جـدول رقم ١٤ متوسط الأجور ، بحسب الأعمـار والجنس في
أهم مصانع المنسوجات القطنية في مقاطعة Lancashire في انجلترا عام ١٨٣٣
(بالشلن والبنس)

السـن	الرجـال	النساء
أقل من ١١ سنة	٢ شلن ٣ بنس	٢ شلن ٥ بنس
من ١١ الى ١٦ سنة	٤ شلن ٢ بنس	٤ شلن ٣ بنس
من ١٦ الى ٢١ سنة	١٠ شلن ٣ بنس	٧ شلن ٤ بنس
من ٢١ الى ٢٦ سنة	١٧ شلن ٣ بنس	٨ شلن ٥ بنس
من ٢٦ الى ٣١ سنة	٢٠ شلن ٥ بنس	٨ شلن ٨ بنس
من ٣١ الى ٣٦ سنة	٢٢ شلن ٩ بنس	٨ شلن ١٠ بنس
من ٣٦ الى ٤١ سنة	٢١ شلن ٧ بنس	٩ شلن ٨ بنس
من ٤١ الى ٤٦ سنة	٢٠ شلن ٤ بنس	٩ شلن ٤ بنس
من ٤٦ الى ٥١ سنة	١٦ شلن ٧ بنس	٨ شلن ١٠ بنس
من ٥١ الى ٥٦ سنة	١٦ شلن ٤ بنس	٦ شلن ٤ بنس
من ٥٦ الى ٦١ سنة	١٣ شلن ٧ بنس	٦ شلن ٠ بنس
من ٦١ الى ٧١ سنة	١٠ شلن ١٠ بنس	٦ شلن ٠ بنس

المصدر : Redor et Rioux, op. cit., note 398, p. 64.
وراجع أيضا R. Marx, op. cit., note 273, p. 304, Annexe 7.

من أصحاب الأعمال ، على بقاء الأجور منخفضة ، دون ان يصلوا بعمالهم الى الموت جوعا ، نجدهم قد عملوا بكل قواهم على اصدار قانون عام ١٨٤٦ يسمح باستيراد القمح من الخارج بثمن منخفض ، حتى لو كان ذلك على حساب كبار ملاك الأراضي الزراعية ، فالهدف الأساسي لدى الرأسماليين هو الابقاء على ثمن الخبز منخفضا ، لأن ذلك هو السبيل الى الابقاء على الأجور منخفضة ، والحفاظ تبعا لذلك على هامش الربح مرتفعا .

(ب) الأجور في فرنسا :

يدعي بعض الكتاب ، وعلى رأسهم Arthur Young [٥٢٨] ، ان الوضع في انجلترا كان أفضل منه في فرنسا ، ولكن بعض المعاصرين والكتاب لا يرون فارقا بين البلدين[٥٢٩] ، بينما يقرر البعض الآخر ، أنه من الأفضل — كما قدمنا — القول بان الوضع في انجلترا كان أقل سوءا عنه في فرنسا[٥٣٠] . ذلك ، ان الدراسات القليلة التى يمكن الاعتماد عليها في فرنسا[٥٣١] ، تؤكد جميعا حقيقتين بالنسبة لفرنسا : أولا ، ان الأجور في معظمها كانت دون الحد الأدنى اللازم للحياة ، فوفقا لتحقيقات Villermé و Buret ، وأخذا من الاحصائيات التى أجريت عام ١٨٤٧ ، يتضح ان أجر الرجل كان يتراوح بين فرنك واحد وأربعة فرنكات يوميا ، بينما يتراوح بالنسبة للنساء بين ٧٥ سنيتم و ٢٫٥٠ فرنك . هذا بالنسبة للمصانع ، وعلى الأخص مصانع النسيج[٥٣٣] . بينما في المناجم والمحاجر كان أجر العامل يتراوح بين ٢ فرنك و ٧ سنتيم و ٢ فرنك ١٤ سنتيما .

---

(٥٢٨) راجع ما سبق ، ص ٦١ وما بعدها .

(٥٢٩) Rioux, op. ci., note 5, p. 171.

(٥٣٠) Mantoux, op. cit., note 2, p. 453.
Epsztein, op. cit., note, p. 74.

(٥٣٢) كتقرير Villermé وتقدير Buret ، وبعض الاحصائيات الحكومية التى اتهمها بعض الكتاب بانها لم تكن « موضوعية » ، وكذلك كتابات كل H. Seé, Duchatellie راجع :

Dunharn, op. cit., note 273, p. 169.
Le franc, op. cit., note 362, p. 265.

(٥٣٣) Epsztein, op. cit., note 279, p. 73.
Ponteil, op. cit., note 441, p. 253.

ويعطينا التحقيق الذى أجرى عام ١٨٤٨ الارقام التالية : متوسط أجر الرجل فرنك واحد ٧٨ سنيتم يوميا ، و ٧٧ سنيتم للمرأة ، و ٥٠ سنيتم للطفل ، بينما لا يتجاوز أجر العاملات في المنازل (في قطاع النسيج) ٣٠ الى ٤٠ سنيتم مقابل ١٢ ساعة يوميا من العمل ٠

أما الحقيقة الثانية ، فهى أن مستوى الأجور ، وخاصة في القطاعات التى دخلتها الآلة ، كالنسيج وصناعة الحديد والصلب ، قد انخفض انخفاضا ملحوظا وخاصة في الفترة ما بين ١٨١٠ ـ ١٨٥٠ وقد بلغت نسبة التناقص في الأجر اعتبارا من ١٨١٦ ـ ٢٥ ٪ ؛ واستمر انخفاض الأجور ، بسبب الأزمات التى عرفتها فرنسا في الاعوام ١٨١٧ ، ١٨٢٨ ـ ١٨٣٢ ـ ١٨٣٩ ـ ١٩٤٠ ـ ١٨٤٧ ، وما نجم عن هذه الأزمات من بطالة ، ومن ارتفاع في أسعار المواد الغذائية ، بحيث بلغ انخفاض الأجور في المصانع ٤٠ ٪ ابان أزمة ١٨٢٨ ـ ١٨٣٢ ، واستمر الانخفاض مرة أخرى بنسبة ٢٥ ٪ ابان أزمة ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠(٥٣٤) ، لكن ، ينبغى عندما نورد هذه الأرقام ، الا نفرق في التعميم ، فالأمر يقتضي بعض التفضيل ، فتطور مستوى الأجـور في فرنسا لم يكن واحدا بالنسبة لجميع القطاعات ، ففى المهن القديمة ، التى لم تدخلها الآلية ، كقطاع البناء ، ظل مستوى الأجور ثابتا ، مع قليل من الارتفاع أو الانخفاض، بحسب ظروف العرض والطلب ٠ وفي بعض القطاعات ، (كالمناجم في بعض الفترات) كان ازدياد الطلب على الأيدى العاملة يؤدى ـ لفترات محدودة ـ الى رفع الأجور فيها ٠ ولكن من الثابت ، ان أكثر القطاعات تضررا ، كان القطاع الصناعى الذى عرف الآلة ، والتطورات الميكانيكية التى اتت بها الثورة الصناعية ، وخاصة قطاع النسيج بمختلف أنواعه ، وقطاع الصناعات التعدينية ، وخاصة الحديد والصلب٠

---

(٥٣٤) G. Dupeux, op. cit., note 299, p. 145.
Ponteil, op. cit., note 441, p. 254.
Epztein, op. cit., note 279, p. 74.
Dunham, op. cit., note 273, p. 169.
Branciard, op. cit., note 302, p. 58.

انظر كذلك بعض التفصيلات المتعلقة بمتوسط الأجور في مختلف المهن :
Bouvier-Ajam, op. cit., note 456, p. 88.
A. G-Lagrange, op. cit., note 202, p. 191.

ويعزوا الكتاب ، هذا الانخفاض في الأجور في الفترة ما بين ١٨١٠ الى ١٨٥٠ ، الى العديد من الأسباب التى يمكن ردها في مجموعها الى عاملين رئيسيين : عامل المنافسة بمختلف صورها وعلى كل المستويات ، وعامل الأزمات الاقتصادية والسياسية التى عانت منها فرنسا خلال هذه الفترة ·

فبالنسبة للعامل الأول ، عامل المنافسة ، يأتى في المقدمة ، منافسة العمال بعضهم البعض في الحصول على عمل ، كنتيجة لتزايد طلب الفلاحين للعمل الصناعى كوسيلة لتكملة دخلهم الى مستوى معقول ، لا يسمح به العمل الزراعى وحده ، لذلك ، لم يكن هؤلاء « متشددين » في الأجر الذى يريدون الحصول عليه ، بل كانوا يسعون الى الحصول على أى « كسب اضافي » للدخل الذى يعود عليهم من الأرض الزراعية ، فأدى ذلك الى انخفاض أجور العمال جميعا ، حتى من لم يكن لديه هذا « الدخل الاضافي » ولم يكن يعتمد الا على أجره من العمل الصناعى ·

يضاف لذلك ، المنافسة أيضا بين أصحاب الأعمال ، الذين كانوا يسعون بكل جهدهم الى مسايرة التطورات العلمية والفنية و « تحديث » آلاتهم بصورة مستمرة ، وكلما ازدادت أعباؤهم ، كلما سعوا الى تخفيض نفقات الانتاج وخاصة الأجور ·

وتبدو المنافسة في السوق الداخلية وأثرها الملحوظ على الاجور ، لو لاحظنا ان فرنسا في هذه الفترة ، لم تكن تملك أى أسواق خارجية ، بل ، نتيجة لاتباعها لسياسة جمركية تهدف الى حماية الصناعات الداخلية ضد الصناعة الانجليزية ومقدرتها على الانتاج بسعر منخفض عن الأسعار الفرنسية ، تعرضت فرنسا أيضا الى منافسة شديدة على الصعيد الدولى ، من جانب انجلترا ، مما دفع بالرأسمالية الصناعية الفرنسية الى محاولة تطوير الآلات والمصانع باسرع ما يمكن مهما كانت التضحيات ومهما تعرض العمال الى ضغوط ، خاصة من ناحية الأجر[٥٣٥] ·

واما العامل الثانى ، فهو الأزمات الاقتصادية والسياسية المتلاحقة التى شهدتها فرنسا في الفترة المذكورة : فقد شهدت فرنسا عددا من الأزمات المتلاحقة ، بدأت بأزمة ١٨١٧ — ١٨١٩ ، واعقبتها ازمة ١٨٢٨ — ١٨٣٢ ، ثم ازمة ١٨٣٩ — ١٨٤٢ ،

(٥٣٥) Dunham, op. cit., note, p. 171.

وأخيرا ءزمة ١٨٤٦ • وكان أثر هذه الأزمات يزداد على العامل ، نظرا لأن بعضها (وخاصة الأزمة الاولى ١٨١٧ والأخيرة ١٨٤٣) صادفت محصولا سيئا ، أدى الى ارتفاع قيمة المواد الغذائية • هذا بالاضافة الى ان بعض الظروف السياسية ، كثورة ١٨٣٠ ، وتهديدات الحرب عام ١٨٤٠ ساعدت أيضا على تعميق آثار هذه الأزمات ، سواء بما أدت اليه من تخفيض الأجور ، أو ما أدت اليه من فقد العامل لأجره كلية بسبب انتشار البطالة •

البند الثاني ـ مستوى معيشة العامل : المأكل ، المسكن والملبس (الاجر الفعلي) :

رغم ان الأجر يعتبر أهم شروط العمل ، الا أننا آثرنا ارجاء بحثه الى هذا المطلب ، لما بين الأجر الاسمى والأجر الفعلى من ارتباط ، فالأجر الفعلى للعامل يترجم بما يمكن ان يحصل عليه من مسكن ومأكل وملبس ، وما يمكن ان يدخره لوقت الحاجة ، بواسطة الأجر الاسمى • ولعل ، بحث مستوى الأجور الاسمية ، لا يمكن ان يعطى فكرة واضحة عن مستوى معيشة العامل ، فالأجر الاسمى في بلد ما قد يكون أقل منه في بلد آخر ، ومع ذلك يكون مستوى معيشة العامل في البلد الأول أفضل منه في البلد الثانى ، اذا كانت الأسعار في البلد الأخير أكثر من الاسعار في البلد الأول ، بنسبة تجاوز التفاوت بين الأجور الاسمية ، فالعبرة اذن هو بما يمكن ان يحصل عليه العامل من اشباع لحاجاته بواسطة أجره المسمى • ومن المسلم به ، أن هذا الأجر المسمى ، كان أقل مما ينبغى ان يكون عليه ليضمن للعامل مستوى معقولا من المعيشة : فهذا الأجر ، لم يكن يضمن للعامل لا مسكنا مناسبا ولا غذاء متوازنا •

وفي هذا الأمر ، لم يكن الأمر مختلفا في انجلترا عنه في فرنسا ، ففى كلا البلدين ، كانت مساكن العمال بعيدة كل البعد عن الشروط الصحية ، وكذلك كان غذاء هذه الطبقة[٥٣٦] • ولكن قبل أن نشرع في وصف هذه المساكن وهذا الغذاء ،

---

(٥٣٦) ويقتضي الأمر بالنسبة لانجلترا ايضاحا مؤداه ان الأمر لم يكن كذلك في خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانت انجلترا تستورد من المستعمرات كميات كبيرة من القمح تزايد حجمها اعتبارا من ١٧٧٠ ، لذلك كان النصف الأول من القرن الثامن عشر تقريبا « فترة رخاء » استفاد منها ليس فقط الطبقات العليا ، ولكن ايضا الطبقات الشعبية ، ولكن السنوات ١٧٦٥ـ١٧٧٥ كانت =

يتعين علينا اولا ان نورد ميزانيات بعض العائلات العمالية ، في انجلترا وفرنسا ، لنبين مدى عجز الاجور المسماة عن ملاحقة تطور الأسعار .

(أ) أمثلة لميزانية بعض العائلات من الطبقة العاملة :

قلنا ، ان الأجور المسماة ، كانت أقل من ان تضمن للعامل ولأسرته ، مستوى مناسبا من الحياة ، وليس أدل على ذلك ، من استعراض ميزانية بعض العائلات من الطبقة العاملة . فلو أخذنا عائلة انجليزية يعمل الأب والأم معا ويعولان طفلين ، في السنوات من ١٧٩٦ – ١٨٠٦ ، حيث كان متوسط أجر الأب اسبوعيا ١٠ شلنات و ٦ بنسات وأجر الأم ثلاثة شلنات ، أى في المجموع ، تحصل الاسرة أسبوعيا على ١٣ شلنا و ٦ بنسات ، يمكننا ان نتخيل مدى الصعوبة التى تواجهها هذه الأسرة للحصول على ما يلزمها فقط من طعام اذا علمنا ان أسعار المواد الغذائية ، في الفترة المشار اليها ، كانت على النحو التالى (جدول رقم ١٥) :

= بداية لانحدار مستوى المعيشة فبسبب سوء المحصول، وبسبب الحرب الانجليزية – الفرنسية (١٧٩٣) ارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا هائلا .

Mantoux, op. cit., note 2, p. 450.

ثم ، ينبغى أيضا ان نلاحظ ، بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، ان مستوى الأجور فيها كان اعلى منه في القارة الأوروبية ، ويرجع ذلك الى ان هذا البلد ، بسبب حداثة نشاته كان لا يملك طبقة زراعية لتهاجر وتعمل في الصناعة ، بل اعتمد على الهجرة الخارجية عبر الأطلنطى ، ولذلك فان الأجور فيه كانت تتارجح بين العلو والانخفاض متاثرة بحركة الهجرة ، فكلما تزايدت الهجرة ، وزاد عدد الايدى العاملة ، ساعد ذلك انخفاض الأجور ، وكلما قلت الهجرة (بسبب تزايد الاستثمار بالذات) ، كلما قل عدد العمال وبالتالى اتجهت الأجور الى الارتفاع .

Nivéau, op. cit., note 122, p. 129.

جدول رقم ١٥ ـ أسعار بعض المواد الغذائية ومدى ارتفاعها في الفترة من ١٧٤٢ الى ١٨٠٦ في مقاطعة Nottingham

المادة	السعر والسنة		المادة	السعر والسنة	
	١٧٤٢	١٧٩٦ ـ ١٨٠٦		١٧٤٢	١٧٩٦ ـ ١٨٠٦
الخبز (٤ رطل)	٠ شلن ٣ بنس	١ شلن ٢ بنس	البط (زوج)	١ شلن ٢ بنس	٥ شلن ٦ بنس
الجبن (رطل)	٠ شلن ٢ بنس	٠ شلن ٨ بنس	الدجاج (زوج)	٠ شلن ٨ بنس	٤ شلن ٦ بنس
الزبد (رطل)	٠ شلن ٣½ بنس	١ شلن ٣ بنس	الصابون (رطل)	٠ شلن ٣½ بنس	٠ شلن ١٠ بنس
الملح (رطل)	٠ شلن ١ بنس	٠ شلن ٤½ بنس	الشمع (رطل)	شلن ٤ بنس	٠ شلن ١٠ بنس
البقر (رطل)	٠ شلن ٣ بنس	٠ شلن ٩ بنس	الشعير (بواسو)*	١ شلن ٥ بنس	٤ شلن ٤ بنس
الغنم (رطل)	٠ شلن ١½ نس	٠ شلن ٧ بنس	الشوفان (بواسو)	٠ شلن ٨ بنس	٣ شلن ١½ بنس
			شعير مجف (بواسو)	١ ملن ٦ بنس	٨شلن ٦ بنس

(*) البواسو le Boisseau هو احدى الوسائل القديمة المستخدمه في الوزن ويبلغ قدرالوحدة منه ٨ جالون أى ٣٦ لترا .

المصدر : Mantoux, op. cit., note 2, p. 452.

لذلك ، وفي ضوء هذه الأسعار والأجور ، لم يكن غريبا ان تكتفى هذه الأسرة المشار اليها بطعام يتكون أساسا من البطاطس ، وان تضطر الى تحديد نصيب كل فرد بقطعة صغيرة من الخبز(٥٣٧) ، ولم تكن هذه العائلة – كما سنرى بعد قليل – تمثل استثناء ، بل القاعدة العامة بالنسبة لكل العائلات العمالية .

والوضع في فرنسا لم يكن مختلفا : ففى تقريره عن حالة الطبقة العاملة يعطينا الدكتور Villermé ، الميزانية الآتية لعائلة مكونة من الأب والأم وطفلين ، حيث يعمل الأب والأم واحد الطفلين ، وتتكون ميزانية هذه الاسرة على النحو التالى :

الدخل (السنوى)	المصروفات (السنوية)
أجر الأب (٣٠٠ يوم عمل) × ٢ فرنك = ٦٠٠ فرنك	الطعام ٥٧٠ فرنك
أجر الأم (٢٠٠ يوم عمل) × ١ فرنك = ٢٠٠ فرنك	المسكن ١٣٠ فرنك
أجر الطفل (٢٦٠ يوم عمل) × ٠ر٦٠ = ١٣٠ فرنك	الملابس ١٤٠ فرنك
	مصروفات أخرى ١٩ فرنك
المجموع ٩٣٠ فرنك	المجموع ٨٥٩

هذه الأسرة ، التى يعمل من بين أفرادها الأربعة ، ثلاثة أشخاص ، لا تصل في نهاية العام الا الى ادخار مبلغ ٧١ فرنك لتواجه به الحالات الطارئة (كحادثة عمل بالنسبة لاحد العاملين الثلاثة أو مرض يقعده عن كسب أجره) ، ومع ذلك ، يقرر الدكتور / Villermé ان هذه العائلة تظل « محظوظة » ، ذلك « ان العائلة التى تعمل مقابل أجر زهيد ، لا يمكنها ان تصل لاشباع حاجاتها الا اذا كان كل من الأب والأم ، على الأقل متمتعين بكامل قواهم ، يعملون طوال العام ، وليست لديهم أى أعباء سوى طفلين على الأكثر . فلو افترضنا وصول طفل ثالث ، او البطالة لاحد الطرفين (الأب أو الأم) أو حادثة عمل أو مرض يقعد أحدهما من العمل تتعرض هذه العائلة لمحنة كبيرة وتصبح في حالة عوز شديد .. »(٥٣٨) .

(٥٣٧) Fohlen, op. cit., note 274, p. 56.

(٥٣٨) Lefranc, op. cit., note 362, pp. 266, 267.

ويبدو ان نظرية Villermé صحيحة ، لان الدكتور / Guépin ، أحد اتباع سان سيمون، يعطينا ميزانية سنوية لاحدى الأسر التى تقوم بالعمل في المنازل ـ في الغزل ـ في مدينة نانت ، على النحو التالى :

الغـــذاء :	١٩٦ فرنك	(منها ١٥٠ للخبز فقط)
الســـكن :	٢٥ فرنك	
غسيل الملابس :	١٢ فرنك	
التدفئة والانارة :	٥٠ فرنك	
أحـــذية :	١٢ فرنك	
مصروفات نثرية :	٥ فرنك	
المجموع	٣٠٠ فرنك	

بينما يقرر الدكتور / Guépin ان مجموع دخل هذه الأسرة سنويا هو ٣٠٠ فرنك ، أى أنها مضطرة للعمل باكملها لتحصل على قوتها بالكاد[٥٣٩] ٠

(ب) المسـكن :

قامت المدن الصناعية ، كما سبق القول ـ دون أى تخطيط مسبق ، فهذه المدن لم تكن مستعدة قبلا لاستقبال هذا العدد الهائل من الايدى العاملة النازحة اليها[٥٤٠] ، ولذلك ، فان وصف هذه المدن واحد بالنسبة لها جميعا ، « الشوارع الضيقة المتربة ، المظلمة ، القذرة ، التى تنبعث منها الروائح الكريهة والعفنة وتنتشر في شوارعها الجرائم ٠٠ » ، ولم تكن المساكن نفسها لتختلف عن هذه الأحياء ٠ ولعل وصف أحد هذه الأحياء ، على لسان أحد المعاصرين لهذه الفترة ، في مدينة Stockton الانجليزية ، يعطينا فكرة عن الكيفية التى كان يتم بها بناء مساكن هذه الطبقة « يتكون الحى العمالى من صفين اثنين من المبانى يفصل بينهما فقط

(٥٣٩) Ibid, p. 267.
Branciard, op. cit., note 302, p. 58.

(٥٤٠) راجع ما سبق ، ص ٢٣٨ وما بعدها ٠

حارة عرضها ٧ ياردات (أي ٦ أمتار و ٣٩٨ سم)(٥٤١) ، كل صف من هذه المباني يتكون من مجموعتين من المنازل ، تتلاصق الحوائط الخلفية لكل منهما ، دون ان يكون بينهما أي مسافة لمطلات أو لتهوية ، اما المراحيض فهي مشتركة بين كل السكان وتقع في منتصف كل مبنى ولا يزيد عرض المرحاض عن ياردة واحدة ، وتتكون كل شقة في هذه المنازل من غرفتين لا تزيد مساحة الغرفة منهما عن ١٢ ياردة مربعة (٣ × ٤) أي ١٠ر٠٣٢ متر مربع ، ويبلغ متوسط عدد شاغليها ٩ أفراد ينتمون الى نفس العائلة ، ولا يعتبر استثناء أن يشغل ٤ أفراد ، من جنس وسن مختلفين نفس الفراش . وفي وسط الحارة التى تفصل بين صفى المبانى ، هناك « صندوق » مشترك لالقاء القمامة ، نظرا لندرة تفريغه أو تفريغه على فترات متباعدة ، غالبا ما تنبعث منه أكره الروائح ، وعلى جانبى كل صف نجد حوضا مشتركا للمياه الراكدة .. »(٥٤٢)

ولكن الذى يدعو للأسي ، هو أنه بالرغم من هذه الشروط غير الصحية وغير الملائمة ، فان « اسكان » هؤلاء الوافدين الجدد ، كان أيضا وسيلة لاستغلالهم وتحقيق أرباح من ورائهم « ان من يملك ألف جنيه استرلينى يسعى الى الحصول على أكبر ربح ممكن . وليس اسهل من شراء قطعة أرض في الاحياء الشعبية وبناء « مبنى » على وجه السرعة ، دون الالتفات الى توصيلات المياه ولا الشروط الصحية الأخرى ، فالمهم هو أن يدر عليه المبنى أكبر ربح ممكن » .

لذلك ، فحتى هذه المنازل ، التى وصفناها ، لم تكن في مقدور كل أفراد الطبقة العاملة ، بل كانت في متناول الأقلية «القادرة» منهم على الايجار المرتفع ، اما الباقون، فقد كان أمامهم حل آخر ، حل يساعد المستثمرين العقاريين في استغلال مبانيهم على الوجه الأكمل ، وهو تقديم الأقبية les caves أو الأجران les grenier (وهى مخازن تشيد في أعلى المنزل لحفظ الحبوب) ، وهى أماكن ان لم تكن أصلا معدة للسكن ، فانها بدت علاجا للأزمة ، تدر مبلغا اضافيا على صاحب الدار ، وتساعد على ايجاد مأوى للعامل بايجار مناسب ، أو على الأقل ، في متناوله .

---

(٥٤١) لأن الياردة ، وهى مقياس طول انجلو - سكونى تعادل ٩١٤ر٠ متر ، وتعادل الياردة المربعة ٨٣٦ر٠ متر مربع ، والياردة المكعبة ٧٦٤ر٠ متر مكعب .

(٥٤٢) Fohlen, op. cit., note 274, p. 50.

ولذلك ، فان سكنى الأقبية والأجران ، لم تكن مسألة استثنائية ، بل كانت ظاهرة منتشرة ومستقرة ، سواء في انجلترا أو في فرنسا ٠

ففى تقرير طبى نشر في مدينة مانشستر عام ١٧٨٣ ، جاء فيه « في بعض نواحى المدينة ، تبلغ درجة الرطوبة في الأقبية حدا تجعل القبو غير صالح اطلاقا للسكنى ٠٠ لذلك ، فان العديد من سكان هذه الأقبية يذهبون ضحية الأمراض التى تنتج عن سكنى هذه الأماكن التى تسيل المياه فيها على الحائط ٠ ويشكو أهل هذه الأقبية على الأخص من الحمى ، نظرا لانعدام وسائل التهوية ٠٠ »

ومع ذلك ، فان التقارير تقرر انه في عام ١٨٤٠ كان هناك ١٥٠٠٠ شخص يعيشون في الأقبية ، بينما كان في ليفربول ٤٠٠٠٠ر٤٠ شخص يحتلون ٨٠٠٠ قبو ، غالبا مالا توجد بها نوافذ ، ولا أرضيات ، ويحاذى سقفها الطريق العام(٥٤٣) ٠

ولا تختلف الصورة في فرنسا عنها في انجلترا ، ففى تقريره السابق الاشارة اليه كتب Villermé يصف أحد الأحياء العمالية ، وهو حى Saint-Sauveur بمدينة Lille : « ان أكثر العمال فقرا يسكنون الأقبية والأجران ٠ هذه الأقبية ليس لها أى منفذ على الدار ، ومنفذها الوحيد يتصل بالطريق العام ؛ والنزول اليها يتم عن طريق سلم صغير ، غالبا ما يمثل الباب والنافذة في آن واحد ، وأغلب هذه الأقبية بداخلها مدخنة ، مما يدل على أنها قد اعدت للسكنى ويبلغ ارتفاع القبو ٦ الى ٦ ½ قدم (أى حوالى ٨٠ر١ م الى ٩٥ر١ م) ، وفي هذه الاماكن عديمة التهوية ، يأكل ويأوى عدد كبير من العمال ، بحيث يرون النهار ساعة بعد طلوع الشمس ، ويشعرون بالظلام مبكرا قبل الآخرين ٠ اما الأثاث الذى يتكون منه هذا « المأوى » فلا يعدو ان يكون خزانة ملابس قديمة ، ولوحا خشبيا لوضع الطعام عليه ، وبعض الاوانى ومنضدة صغيرة وبعض الكراسي ٠٠ (٠٠) ومع ذلك ، فان هذه الأماكن ليست أسوأ « المساكن » ، اذا قورنت بالأجران ، فأسوأ الاماكن على الاطلاق هى هذه الأخيرة ، حيث لا يوجد فيها مدفأة وبالتالى فهى ٠

---

(٥٤٣) ومع ذلك ، تظل هناك فئة من العمال ، لا تجد سكنا ، حتى في هذه الأقبية ، هؤلاء لم يكن امامهم الا « منازل الفقراء » التابعة للكنائس ، وفي هذه المنازل ، كان في غرفة من ست الى ثمانى أسرة ، يشغل كل منها عدد من الأشخاص ، من الجنسين ، وغالبا ما كانت أرضية هذه المنازل من الطين، وكانت بلا نوافذ ٠

Epsztein, op. cit., note 279, p. 75.

شديدة البرودة في الشتاء وخاصة ان سكانها الفقراء لا يستطيعون الحصول على وسائل للتدفئة ... »(٥٤٤) .

ومع ذلك ، يعطينا بعض الكتاب أمثلة لبعض المدن الصناعية ، التى كانت شروط السكن فيها ، أكثر قسوة مما جاء بتقرير Villermé ، وخاصة في مدن Rouen, Lille و Mulhouse ، تلك المدن الصناعية التى ترتب على نموها السريع ، أن لم تجد الايدى العاملة « قبوا أو جرنا » تسكن فيه ، فلجأت الى انقاض المنازل المتبقية من المدينة القديمة(٥٤٥) .

(جـ) المأكل والملبس :

يلعب الغذاء دورا مهما في حياة العامل ، ربما كان أكثر أهمية من السكن ، ومع ذلك فمن الثابت ان أسلوب تغذية الطبقة العاملة وان كان قد عرف بعض التحسن في بداية الثورة الصناعية في انجلترا بالذات ، الا أنه بسبب الأزمات ، سواء في انجلترا أو فرنسا، بدأ نصيب العامل من الغذاء يقل لا من ناحية الكيف بل وأيضا من ناحية الكم . ففى تقرير Villermé في الطبقة العاملة ، جاء ان غذاء الفئات الاكثر حاجة يتكون أساسا من « الخبز والبطاطس والماء » . فهم لا يمكنهم ان يأكلوا اللحم أو يشربوا النبيذ الا في يوم أداء الأجور واليوم التالى على الاكثر »(٥٤٦) . ورغم ذلك ، فان هذا الوصف لم يبق على ما هو عليه ، فلو كان الخبز في متناول الجميع ، فسريعا ما ستؤدى الأزمات الى جعله ، كالبروتينات الحيوانية (اللحم واللبن ..) في غير متناول الطبقة العاملة : ففى فرنسا ، وبعد ان انخفض سعر الخبز في الفترة من ١٨١٧ الى ١٨٢٧ ، عاد سعره الى الارتفاع حتى عام ١٨٤٧ . ونظرا لأن ايجارات

---

(٥٤٤) Villermé : Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employé dans les manufactures de coton, de laine et de Soie. "Paris, Renouard, 1840, T I, pp. 802 et s.s. in, p. Silvestre, op. cit., note 491, pp. 8 — 10.

(٥٤٥) Dunham, op. cit., note 273, p. 161.
Branciard, op. cit., note 302, p. 58.

(٥٤٦) Epsztein, op. cit., note 279, p. 75.
Silvestre, op. cit., note 491, p. 10.
Dupeux, op. cit., note 299, p. 146.

المساكن أيضا اتجهت الى الارتفاع ، بالاضافة الى ارتفاع أسعار كافة المواد الغذائية، فان مستوى المعيشة في هذه الفترة (١٨٠٠ ــ ١٨٥٠) شهد ارتفاعا يجاوز ١٠ ٪ ، ونظرا لأن الأجور كما سبق ان رأينا اتجهت الى الانخفاض ، فان القـوة الشرائية للعامل هبطت بشكل ملحوظ ، بحيث لم يعد يقوى على شراء ما يكفيه وعائلته من الخبز الذى ارتفع ثمنه بنسبة ١٠٠ ٪ في اعقاب الأزمات الاقتصادية التى شهدتها فرنسا • ناهيك عن انتشار البطالة وما أدت اليه بالنسبة للقوة الشرائية للعامل • ويبدو تأثير هذه العوامل جليا ، اذا لاحظنا ان ٧٠ ٪ من ميزانية العامل تنصرف الى الغذاء ، لذلك ، فان كل انخفاض في القوة الشرائية ينعكس بالطبع على طبيعة وكمية الغذاء المتاحة للعامل • ولعل في رواية Blanqui عن أوجه انفاق أحد العمال ، ما يبين لنا بوضوح مدى انخفاض مستوى المعيشة لهذه الطبقة : « أعمل غزالا مقابل ٢ فرنك يوميا ، اما زوجتى فتحصل ، من نفس العمل على ١ فرنك (أو ١ر٥٠ فرنك) يوميا • وتتكون اسرتى منى وزوجتى وأربعة أطفال ، أكبرهم بلغ من العمر عشر سنوات ، وهى تدرس لدى الراهبات ، اما الثـلاثة الآخرون فاودعهم أثناء ساعات العمل في أحد الملاجىء الخيرية • وهذه هى أوجه الانفاق :

	فرنك
ـ نأكل ٢٣ر٥٠ كيلو من الخبز أسبـوعيا بسـعر ٠ر٢٢ فرنك الكيلو أى ما يسـاوى	= ٥ر١٨
ـ اما اللحم فهو مرتفع السـعر فلا نأكل الا البقايا ثلاث مرات أسبوعيا بسـعر ٠ر٢٥ فرنك	= ٠ر٧٥
ـ ولا يأكل الزبد سـواى دون باقى أفراد العـائلة بواقع ٢٥٠ جـرام أسبوعيا	= ٠ر٥٠
ـ واما أولادى وزوجتى فيأكلون بعض الفاكهة مع الخبز	= ٠ر٨٠
ـ ونأكل بعض الفاصوليا والبطاطس بما قيمته أسبوعيا	= ١ر٠٠
ـ وبعض اللبن	= ٠ر٤٥
ـ اما ايجار القبو الذى نسكنه فيرتفع الى	= ١ر٥٠
ـ ونستهلك من الفحم ما قيمته	= ١ر٣٥
ـ والصابون والانارة	= ١ر١٠
فيكون اجمالى الانفاق أسبوعيا	١٢ر٦٤

أما كيف أصل لتغطية هذه المصروفات واعالة أولادى ، فاننى اعتمد أيضا على ما اتلقاه من مساعدات ذلك اننى اتلقى ٣ كيلو من الخبز كل ١٥ يوم من الجمعية الخيرية ، اما ابنتى فعادة ما تعطيها الراهبات رداء مع كل أجازة صيف ، كما يحصل أولادى الآخرون على ملابس من الملجأ الخيرى بمناسبة السنة الجديدة كل عام ٠ ورغم ذلك ، فاننا نضطر أحيانا ، الى التسول ، رغم ان القانون يحرم ذلك »(٥٤٧) ٠

وفي انجلترا كذلك ، كانت الطبقة العاملة تشكو من سوء التغذية : ففى العديد من المناطق ـ وخاصة الاقاليم الجنوبية كان العمال يعتمدون ـ أغلب فترات العام ، على الخبز والجبن فحسب ، اما في الشمال ، فلم يكن لديهم بالاضافة لذلك ، سوى حساء الشعير ، وحتى البطاطس لم يكن في متناول الجميع ، وخاصة في أوقات الأزمات ، اما اللحم ، فكان من المواد النادرة التى لا تعرفها مائدة العائلات العمالية ٠ حتى الخبز نفسه ، كان في بعض الفترات ـ كما سبق ان رأينا ـ من المواد ذات السعر المرتفع ، وذلك على وجه الخصوص ، بسبب الارتفاع الذى عرفه سعر القمح : فبعد ان كان ثمنه لا يتجاوز ، منذ ١٧١٠ ، ٤٥ شلنا للكارتو(٥٤٨) ، نجده ارتفع عام ١٧٧٣ الى ٦٦ شلنا ، ولكنه بسبب الاضطرابات الشعبية انخفض مرة أخرى ليصل عام ١٧٩٢ الى ٤٣ شلنا ، ثم ارتفع الى ٥٠ شلنا عام ١٧٩٣ في و ٥٤ شلنا عام ١٧٨٤ ، ليقفز فجأة الى ٨٠ شلنا وليتجاوز هذا الرقم ١٠٨ شلنات عام ١٧٩٥ ثم اذا به ـ بسبب نجاح المحصول ـ ينخفض الى ٦٢ شلنا عام ١٧٩٨ ، ولكنه يعود الى الارتفاع مرة أخرى بسرعة مذهلة : ٧٥ شلن عام ١٧٩٩ ، ١٣٧ شلنا عام ١٨٠٠ ،

---

(٥٤٧) لذلك ، فليس من الغريب ، ان يعتمد أغلب افراد الطبقة العاملة على الاعانات التى تقدمها الجهات الحكومية او الجمعيات الخيرية الخاصة : ففى عام ١٨٢٩ من بين عدد عمال المقاطعات الشمالية في فرنسا البالغ عددهم ٢٢٤٫٠٠٠ عامل ، كان من بينهم ١٦٣٫٠٠٠ يعتمدون اعتمادا كليا على مساعدات الجهات الخيرية ٠ وفي عام ١٨٤٧ بلغ عدد من كانوا يتلقون المساعدات ١٫٣٢٩٫٠٠٠ شخص بالنسبة لفرنسا كلها ، يتقاسمون حوالى ١٧ مليون فرنك ، أى ان كل عائلة كانت تحصل على اعانة سنوية قدرها ١٢٠ فرنك تقريبا ٠

راجع في كل ذلك ٠

Lefranc, op. cit., note 362, p. 268.

(٥٤٨) مقياس انجليزى قديم لكيل الحبوب كان يصل في الماضي الى ٧٠ لتر ، اما الآن فيتراوح مقداره بين ٥٧ الى ٢٣٧ لتر ٠

ثم ١٢٨ شملنا عام ١٨٠١ ،وهو ما كتب عنه المعاصرون يقولون أنه «ثمن المجاعة»[٥٤٩]، وخاصة ان هذا الارتفاع لم يكن قاصرا على سعر القمح، انما كان عاما بالنسبة لباقى المواد الغذائية الأساسية ، كما بينا من قبل[٥٥٠] .

في ظل هذه الظروف ، فان نقص التغذية ، او سوء التغذية لدى العمال ، اذا اضيفا الى سوء الظروف التى يعملون فيها ، وعدم توافر الشروط الصحية للسكن، يكون من الطبيعى ان تصبح الطبقة العاملة فريسة للأمراض[٥٥١] ، فترتفع نسبة الوفيات بين الأطفال ، وتنتشر الأمراض المعدية في الاوساط الشعبية كالكوليرا (في الفترة من ١٨٣٠ ـ ١٨٥٥) في أنحاء أوربا ، كما تنتشر أيضا الأمراض المهنية وخاصة بين النساء والأطفال ، كالدرن وخاصة في صناعة النسيج ، الناشيء من سوء ظروف التشغيل وتعرض النساء والأطفال الى تنفس غبار القطن مع الهواء بالاضافة للعديد من الأمراض الأخرى الناجمة .. اما عن ظروف العمل أو ظروف السكن او التغذية[٥٥٢] .

---

(٥٤٩) Mantoux, op. cit., note 2, p. 451.

(٥٥٠) راجع ما سبق ، جدول رقم ١٥ ، ص ٣٢٣ .

(٥٥١) Rioux, op. cit., note 5, p. 175.

(٥٥٢) لذلك ، فسبب سوء الحالة الصحية لأفراد الطبقة العاملة ، أو بسبب قصر قامتهم ، فان عددا كبيرا منهم ، حين يبلغ سن التجنيد لا يكون لائقا صحيا لاداء الخدمة العسكرية فاحصائيات ١٨٢٩ في فرنسا تبين ان من بين ١٨٢ من أبناء الطبقة العاملة ، ١٠٠ فقط يصلحون من الناحية الصحية لاداء الخدمة العسكرية ، وفي بعض المناطق الصناعية ، كمدينة Lille ، فانه لا يمكن تجنيد اكثر من ١٠٠ شخص من بين ٣٠٠ فرد ، ولا يصلح أكثر من ١٠٠ مجند أيضا من بين ٢٦٦ فردا في مدينة Rouen ، و ٢١٠ في Mulhouse ، و ٢٦٨ في Elbeuf

كما تبين تقارير اخرى ، انه من بين ١٠٫٠٠٠ شخص يتم تجنيدهم كل عام ، فان عدد المتقدمين غير اللائقين بالنسبة للمجموع يبلغ ٨٩٨٠ شخصا من المناطق الصناعية ، بينما لا يتجاوز ٤٠٢٩ من المناطق الزراعية .

Epsztein, op. cit., note 279, p. 76.

ولا يقل التقرير التالى دلالة عن الأول : ففى أحد التحقيقات التى أجرتها الجمعية الطبية البريطانية اتضح ان الأطفال البالغين من ١١ الى ١٢ عام ، في الاوساط العمالية يقل متوسط الطول لديهم حوالى ١٢ سم عن اقرانهم من أبناء الطبقة البورجوازية .

Rioux, op. cit., note 5, p. 176.

وأخيرا ، يقتضي الأمر أن نتطرق الى مدى ما كان يمكن للطبقة العاملة ان تحصل عليه من ملابس ، ويبدو ، في ظل المعطيات والارقام السابق ذكرها ، أنه يصعب ان نتكلم عن الملابس • ففى العائلات التى لا يبقى لها ، بعد الغذاء المتواضع ، والمسكن غير الملائم ، ما تواجه به مرضا طارئا أو اصابة عمل ، يصعب ان نتصور أن تخصص هذه العائلة بندا مستقلا للملابس • ومع ذلك ،فمما لا شك فيه ان التقدم الوحيد في مستوى معيشة العامل ، كان الملابس ، فالاختراعات الحديثة ، مكنت من جعل الملبوسات القطنية أفضل كثيرا من ذى قبل ، وخففت أيضا من تكاليف انتاجها ، لذلك ، فليس من المستغرب ان نجد ان العمال قد بدأوا يستعملون هذه الملابس ، في نطاق ما تسمح به ميزانياتهم طبعا(٥٥٣) ، وانتشر فيما بينهم أيضا استخدام الأحذية ، مع ملاحظة ان أغلب هذه الملابس ، كانت غالبا ما تأتى اليهم عن طريق الجمعيات الخيرية والاحسان ، وخاصة في فرنسا(٥٥٤) •

المطلب الثالث ـ رد فعل العمال : العداء نحو الآلة(٥٥٥) :

من استعراض ظروف عمل ومعيشة العمال ، يتضح لنا التناقض في هذا المجتمع الجديد : فهو مجتمع ، يزيد في مجموعه ثراء (لان الانتاج الصناعى تضاعف تقريبا في أى دولة من الدول التى وقعت فيها الثورة الصناعية في الفترة من ١٨١٥ الى ١٨٥١) ، ولكن الثراء كان لطبقة واحدة هى الطبقة الأقل عددا ، اما السواد الأعظم من الشعب ، فكان نصيبه الفقر المدقع(٥٥٦) • ولكن هذا التردى ، لم يكن فقط ماديا ، بل كان أيضا معنويا ، ففى ظل المدينة الصناعية ، وتحت تأثير المصنع ، كان العامل يشعر بالاضافة الى حاجته المادية ، أنه مهمل وشخص لا أهمية

---

(٥٥٣) Dunham, op. cit., note 273, p. 164.

(٥٥٤) ولذلك ، كتب آدم سميث يقول « ان القميص والحذاء يدخلان ضمن الحد الأدنى اللازم للعامل الانجليزى ، ولكنهم لا يدخلان في حساب أجر العامل الفرنسي » •
Mantoux, op. cit., note 2, p. 419.

(٥٥٥) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 50.
Fohlen, op. cit., note 274, p. 28, et op. cit., note 276, p. 198.
Lefranc, op. cit., note 362, p. 207.
Seé, op. cit., note 275, p. 65.

(٥٥٦) Branciard, op cit., note 302, p. 58.

له ، وعلى الأخص ان هناك حاجزا رهيبا يفصل بينه وبين صاحب العمل ، فكلما كبر المصنع وازداد التركز الصناعى ، كلما تباعدت الصلة أو انقطعت نهائيا بين العمال وأصحاب الأعمال ، ليس فقط في داخل المصنع ، بل وخارجه ، فالرأسماليون الصناعيون، كما سبق القول ـ حرصوا بعد انتهاء العمل على الا يخالطوا هذه الطبقة الخطرة ، فتركوها لأحيائها ، واستقلوا باحيائهم .

ومع الشعور بالحرمان المادى والاحساس بالاحباط المعنوى ، كان لابد من انتظار رد الفعل ، الذى انصب أساسا في بداية الثورة الصناعية ، على الآلة . ويبدو من الطبيعى ، ان يكون الشعور بالعداء موجها من قبل العمال ، الى هذه الآلة الجديدة التى ، سببت لهم الشقاء والحرمان ، اليس هذا الشعور قائما ، حتى في الوقت الحاضر ، حيث تنعى النقابات العمالية على بعض الاختراعات أو الابتكارات العلمية ، أنها تؤدى الى الاستغناء عن الايدى العاملة (أى الى البطالة) أو انهـا تسلب العامل كل مشاركة ذكية في الانتاج ؟

لاشك ، ان « العداء للآلة » ، وجد وخاصة بين صفوف الرأسماليين ، من رأى فيـه أنه « دليل تخلف وبربرية » ، لأن الآلة « تؤدى الى تخفيض تكاليف الانتـاج » وبالتالى فهى في صالح المستهلك الذى يستطيع الانتفاع بأفضل الأسعار وخاصة في ظل نظام صناعى يزداد الانتاج فيه بشكل ملحوظ »(٥٥٦) ومع ذلك ، فان عداء العامل للآلة يظل أمرا مفهوما : ان العامل لا يملك سوى قوة عمله وامكاناته المهنية ، لذلك فان كل ما يرمى الى سلبه هذه القوة أو الحد من كفاءته المهنية ، يرمى في نفس الوقت الى حرمانه مما يملكه . ان أهم مزايا الآلة ، من الناحية العملية هى ما تؤدى اليه من التوفير في عدد الايدى العاملة اللازمة للانتاج ، ولكن ، كما هو واضح ، فان هذه الميزة تتحقق على حساب العامل . لقد قدم الرأسماليون حجة مخالفة لهذا القول ، مؤداها أن الآلة بما تؤدى اليه من تخفيض تكاليف الانتاج ، تساعد على زيادة الاستهلاك ، فيزداد الطلب ، ويتوالى التقدم الصناعى ويتطلب المزيد من الايدى العاملة ، وهكذا ، فان هذا التطور ، بدلا من ان يقلل من امكانيات العمل ، يؤدى على العكس، الى زيادة الطلب عليها ، هذه الحجة، التى ثبت صحتها، ولكن بعد وقت طويل من وقوع الثورة الصناعية، لم يكن بامكان الطبقة العاملة ادراكها

---

(٥٥٦) Lefranc, op. cit., note 362, p. 222.

في بداية الأمر ، حين رأوا ، للمرة الأولى ، هذه الآلة ، التى جاءت لتقلب حياتهم رأسا على عقب ، وعلى الأخص لتسلبهم عملهم ومكانيتهم ، بل ولتحيلهم الى مجرد أدوات تابعة لها ، لقد رأى العمال في « الآلة » انها وسيلة جديدة للانتاج ، تحل محلهم ، وتسلبهم الوسيلة الوحيدة للحصول على قوتهم اليومى أ قوة سواعدهم ، فنظروا الى هذه الآلة على انها مصدر كل شقائهم ، فناصبوها العداء ، وبلغ بهم العداء الى تدميرها وحرقها • لذلك ، فما ان بدأت الاختراعات العمالية تتوالى[٥٥٧] ، حتى ناصب العمال المخترعين أنفسهم العداء ، وكثيرا ما هاجموهم واعتدوا عليهم ، ولكن الأضرار التى لحقت بهؤلاء المخترعين لم تمنع من خروج أفكارهم الى الحياة العملية، في وقت كان بمقدور كل من يملك قدرا من المال - ولو ضئيلا في بداية الثورة الصناعية - ان يستعين بهذه الابتكارات لتحقيق ثراء سريع ، ولذلك امتد الشعور بالكراهية ليشمل ، علاوة على المخترعين ، أصحاب المصانع وآلاتهم[٥٥٨] • لذلك ، كانت مهاجمة المصانع ، وتدمير الآلات أو حرقها وسيلة لتعبير العمال في هذا العداء الذين يناصبونه للآلة ، ولكنه أيضا وسيلة للاضرار بصاحب المصنع بحرمانه من أمواله •

ولكن هذا العداء ، الذى ترجم بتدمير الآلة وحرقها ، بدأ يتخذ طابعا خطيرا اعتبارا من النصف الثانى للقرن الثامن عشر • مما دعا الحكومة الانجليزية الى اصدار أول قانون يجرم تدمير الآلات أو حرقها عام ١٧٦٩ ، « سواء تم ذلك بصفة فردية ، أو عن طريق مجموعة من العمال ، فان الفاعل سيعاقب بعقوبة الموت » • لقد بدا هذا القانون وكأنه رد فعل عن الاحداث التى وقعت في نفس العام : ففى مدينة Limehouse قام العمال بتحطيم « مصنع لنشر الأخشاب بآلات ميكانيكة » ،

---

(٥٥٧) لقد أدرك بعض المخترعين منذ وقت مبكر خطر الآلة على العمال ، فقبل ظهور اختراع Hargreaves بحوالي عشر سنوات ، توصل Lawrence Earnshaw الى اختراع شبيه ولكنه سريعا ما قام بتدميره ، مقررا أنه لا يمكنه حرمان العمال من الوسيلة الوحيدة المتبقية لهم لكسب رزقهم •

Mantoux, op. cit., note 2, p. 420.

(٥٥٨) ويبدو ان عداء العمال للآلة ، بسبب ما تؤدى اليه من بطالة ، لم يكن امرا قاصرا على على الثورة الصناعية ، بل كان سابقا عليها • فكل « تقدم » كان يسبب الاستغناء من بعض الايدى العاملة كان يثير ردود فعل عنيف بين العمال اليدويين •

راجع Kuczynski, op. cit., note 362, pp. 52 — 53.

Lefranc, op. cit., note 362, p. 223.

وفي الوقت نفسه قام العمال في مدينة Blanckbeern (بالقرب من مانشستر) بتحطيم جميع مغازل « جيني » وهاجموا مخترعها « هار جريفز » وأجبروه على الفرار من المدينة(٥٥٩) .

غير ان هذا القانون « الدراكوني » ، لم يمنع العمال من التعبير عن عدائهم واستمرارهم في مهاجمة الآلات والمصانع ، واضطر أصحاب الأعمال في نفس الوقت لتنظيم الدفاع عن مصانعهم ، فنجم عن ذلك ، حوادث دامية ، لا تخلو الكتب التى تناولت هذه الفترة من وصفها(٥٦٠) .

وفي نفس الوقت ، حاول العمال ان يحصلوا من البرلمان على قانون يمنع استخدام الآلات ، وخاصة في نطاق الصناعات القطنية ، اعتمادا منهم على قانون سابق صادر عام ١٥٥٢ كان يحرم استخدام آلة في نطاق تلك الصناعة ، حرصا على عدم حدوث « بطالة » بين صفوف الغزالين او النساجين . ولكن محاولات العمال ذهبت سدى ، فقد رفض البرلمان اصدار هذا القانون ، موضحا ان البطالة بين صفوف العمال ليس سببها المباشر الآلة ، بل الأزمة العامة التى تعرفها انجلترا بسبب الحرب الأمريكية ، وان الآلات على العكس ، تؤدى على الأمد الطويل الى زيادة الطلب على الأيدى العاملة .

لذلك ، وبعد ان فشلت الطبقة العاملة في الحصول على ما تريده من تحريم الآلات قانونا ، عادت الى تحريمها عملا ، بالتدمير أو الحرق ! وبلغت الحركة أوجها خلال الأعوام ١٨١١ - ١٨١٢ ، وعرفت باسم حركة Suddisme (٥٦١) ، وبعد

---

(٥٥٩) Fohlen, op. cit., note 274, p. 28.

(٥٦٠) انظر وصفا لبعض هذه القصص لدى كل من :

Mantoux, op. cit., note 2, p. 422 et 423.

Fohlen, op. cit., note 274, pp. 28 et 29.

Kuczynski, op. cit., note 362, p. 56.

(٥٦١) والواقع ، ان تسمية هذه الحركة ليست معروفة الأصل : فالبعض يدعى ان هذا الاسم جاءها من شخص يدعى John Ludd ، او Ned Ludlam كما يدعى البعض الآخر . ويدعى البعض انه مجرد عامل مختبل كان يقود حركات التدمير ، أو هو - على حسب بعض الروايات ، احد العمال الذين ارادوا الانتقام من أصحاب الأعمال بسبب قيام صاحب العمل بضربه بالسوط ، بل هناك رواية تقول ان Ludd ليس الا مجرد شخصية وهمية ، تماما مثل « روبين هود » ، اتخذ منها العمال رمزا لتحقيق ثورتهم واظهار عدائهم للآلة .

ان كانت هذه الحركة قاصرة على صناعة النسيج القطنية ، امتدت لتشمل قطاعات صناعية أخرى(٥٦٢) .

نفس الحركة ، ونفس شعور العداء ، تصادفه الآلة في فرنسا : فمنذ ١٧٤٤ في مدينة ليون ، ١٧٤٩ في مدينة Lodève ، بدأت جموع العمال تهاجم الآلات وتحرقها ، وعمت هذه الحركة وانتشرت في كل من Saint-Etienne, Rivers Rouen و Sedan في السنوات ١٧٨٨ - ١٧٨٩ ، وبلغت الحركة ذروتها خلال الأعوام ١٨١٩ - ١٨٢٠(٥٦٣) . وتبين لنا الرواية التالية ، مدى شعور العمال ضد الآلات في هذه الفترة في فرنسا ، وهي تتعلق بمحاولة ادخال بعض اصحاب الأعمال آلات ميكانيكية في مصانعهم (مصانع نسيج) ، فقد ارسل العمال شكوى الى محافظ الاقليم يقررون فيها أن هذه الآلات لها أثر « مضر وخبيث » لأنها تحرم « العديد من العمال من عملهم » ، لان بامكان رجل واحد ، بالاستعانة بهذه الآلة ان ينتج ما يوازى انتاج عشرات العمال ، ولذلك ما ان دخلت هذه الآلة ، في ٢٦ فبراير ١٨١٩ الى مدينة ليون ، حتى هاجم العمال الصناديق التى كانت معبأة بها بقصد تدميرها ، واقتضى الأمر ، تدخل القوات المسلحة بقصد تفريق المهاجمين مما أدى الى جرح عدد كبير منهم ، والقبض على بعضهم ، ولكن هؤلاء برئوا من محكمة Grenoble ، نظرا لما كان يلقاه أسلوبهم من تأييد من جانب الرأى العام آنذاك(٥٦٤) .

هذه الحركة ، حركة تحطيم الآلات وحرقها ، اظهارا للشعور بالعداء نحوها، تصادفها تقريبا في كل الدول التى عرفت الثورة الصناعية ، فقد كان هذا التحطيم والتدمير هو الوسيلة الوحيدة التى يملكها العمال آنذاك للتعبير من سخطهم وعدم

= راجع فى ذلك

Fohlen, op. cit., note 276, p. 198.
Lefranc, op. cit., note 362, p. 225.

(٥٦٢) Fohlen, op. cit., note 274, p. 29.
Montoux, op. cit., note 2, p. 425.
Rioux, op. cit., note 5, p. 182.

(٥٦٣) Fohlen, op. cit., note 274, p. 199 et op. cit., note 276, p. 29.

(٥٦٤) Kuczynski, op. cit., note 362, p. 56.

رضاءهم في ظل نظام ـ كما سنرى ـ يحرم عليهم أى تجمع قانونى بقصد الدفاع عن مصالحهم اشتركة ، وفي ظل علاقات سيئة مع الطبقة البورجوازية ، ان لم نقل منعدمة(٥٦٥) ٠

المطلب الرابع ـ مستوى معيشة العمال : تقدم أم انحدار(٥٦٦) ؟

يبدو هذا التساؤل غريبا ، في أعقاب الوصف الذى سبق ان اعطيناه لظروف حياة العمال ومستوى معيشتهم ٠ فالقارىء ، يدرك من هذا الوصف ، ان مستوى معيشة العمال كان في تدهور مستمر ، وهذا التصور هو الذى تبناه كارل ماركس وتمسك به أغلب الكتاب الاشتراكيين ، وبنوا عليه نظرياتهم وانتقاداتهم للنظام الرأسمالى ٠ فلقد عبر كارل ماركس عن افتقار الطبقات العاملة واندحار مستواها باستمرار في العديد من كتاباته ، مفسرا ذلك بنظرية « فائض القيمة » ، ومؤداها أن العامل لا يحصل على الأجر الذى يتناسب مع عمله ، بل أنه ينتج أكثر من ذلك الأجر ، ولكن صاحب العمل لا يعطيه أجره الحقيقى ، وانما ما يكفيه ليقيم أوده ويستمر في العمل ، باعتباره ، كما سبق أن رأينا ، جزءا من الآلة ٠ وفي هذا المعنى كتب كارل ماركس « ان العالم يزداد فقرا بقدر ما يزداد انتاجه كما وكيفا ٠ فالعامل يصبح سلعة أكثر رخصا كلما ضاعف من انتاجه للسلع والبضائع ٠ وكلما ازدادت قيمة هذه البضائع والمنتوجات ، كلما تناقصت قيمة العامل » ، وقد انتهز ماركس فرصة اصدار البيان الشيوعى » ليعيد تأكيد نظريته : « ان التنافس المستمر بين الرأسماليين ، والأزمات التى يعرفها النظام الرأسمالى ، يؤديان الى انخفاض مستمر في أجور العمال ومستوى معيشتهم(٥٦٧) ٠

---

(٥٦٥) Epsztein, op. cit., note 279, p. 77.

(٥٦٦) Lefranc, op. cit., note 362, pp. 257 et 258.
Dunham, op. cit., note 273, p. 165.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 220.
J. Bron, op. cit., note 287, p. 159.
Ashton, op. cit., note 273, pp. 140 et s.s.
Hobsbawn, op. cit., note 464, p. 377.

(٥٦٧) Cité in Fohlen, op. cit., note 276, p. 220.

هذه النظرة « القاتمة » عن الطبقة العاملة ، تبناها الكتاب الاشتراكيين ، والحركات الثورية من بعدهم ، ولكن هذه النظرة ، صارت موضع نقد ، من جانب بعض كتاب الثورة الصناعية ، وعلى رأسهم Ashton و Claphan .

فهذا الجانب من الكتاب ، لا ينكر الآثار الاجتماعية للثورة الصناعية ، بل يسلم بالمساوىء التى أتت بها هذه الثورة : كالمدينة الصناعية كما سبق لنا ان وصفناها والمعاناه التى تحملتها الطبقة العاملة ... الخ . ولكن هؤلاء الكتاب يتوقفون عند مستوى معيشة العمال ، ويهاجمون بشدة النظرة التقليدية التى تبناها الماركسيين فنجد Ashton مثلا يقرر « ان بعض الكتاب يقررون ان الثورة الصناعية أدت الى زيادة الفقر والبؤس ، بل ان احدهم كتب يقول ان هذه الثورة أدت الى انخفاض مستوى معيشة العامل الانجليزى ، خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، الى مستوى العامل الأسيوى ، ولكن هذا الكاتب ، كغيره من أصحاب هذا الرأى ، لم يكلف نفسه عناء الرجوع الى الاحصائيات المنشورة عن هذه الفترة » . ولتأكيد نظريته ، يشير Ashton الى أحد هذه الاحصائيات التى قام بها Silberling والتى أكد بها أنه في الفترة من ١٧٩٠ الى ١٨٣٠ ارتفع مستوى المعيشة بنسبة ١١ ٪ بينما ارتفعت الأجور في المدن بنسبة ٤٣ ٪(٥٦٨) . حقا ، ان أجور العمال ، خلال السنوات ١٨٣٠ الى ١٨٥٠ ظلت في مستوى منخفض يقل كثيرا عما كان ينبغى ان تكون عليه ، ولكن مستوى المعيشة نفسه تحسن . فبالنسبة للغذاء عرفت الطبقة العاملة الرغيف الأبيض ، واللحوم والبطاطا ، كما شاع استخدام التدفئة الصناعية بفضل انخفاض ثمن الفحم . ويستطرد Ashton في شرح وجهة نظره ، فيقرر ان من المسلم به ان شروط العمل في هذه الفترة كانت قاسية وان الأمراض الجسدية والنفسية انتشرت بين صفوف العمال ، ولكنه يذكر من ناحية أخرى ، ان التقدم العلمى والفنى في الصناعة ، ساعد على تخفيف العبء عن كاهل العمال ، وساعد على تشغيل النساء والأطفال ، فادى ذلك الى ازدياد دخل الأسرة .

لذلك ، ينكر Ashton ومؤيديه ، ان الثورة الصناعية كانت السبب

---

(٥٦٨) Ashton, op. cit., note 273, pp. 30 et s.s. et 77 et s.s.
Fohlen, op. cit., note 276, p. 222.

المباشر في انخفاض مستوى العمال ، بل يقررون ان عوامل أخرى كالحروب ، والمجاعات نتيجة لسوء الانتاج الزراعي في بعض السنوات ، هى الأسباب الرئيسية وراء سوء الظروف المعيشية للطبقة العاملة ، خاصة وان بداية الثورة الصناعية شهدت ازديادا ملحوظا في عدد السكان ، واقتضي الأمر ضرورة توفير الغذاء والمسكن والملبس لهذه الاعداد المتزايدة ، ولذلك فان البلاد التى عجزت من مواجهة هذه الزيادة ، فقدت اعدادا كبيرة من سكانها (كايرلندا مثلا التى بسبب عجزها وضعفها الاقتصادى فقدت ما يقرب من خمس ($\frac{1}{5}$) سكانها فى الفترة ١٨٤٠ الى ١٨٦٠ ٠

ولتأكيد وجهة نظره ، يدعو Ashton الى اجراء مقارنة مع البلاد المتخلفة : « اننا نشاهد اليوم في الهند أو الصين ، العديد من الناس الذين يؤتى عليهم الطاعون والجوع ، والذين لا تتجاوز ظروف معيشتهم ، المستوى الذى تردت اليه الحيوانات (٠٠٠) ٠ هذا المستوى المعيشي الأسيوى ، هذه المآسي غير الآلية ، هو المآل الطبيعى للبلاد التى يزداد عدد سكانها دون ان تحقق ثورتها الصناعية » ٠ ويستطرد Ashton قائلا ، اننا عندما نبحث في آثار الثورة الصناعية ، هل كانت تقدما أم اندحارا لمستوى معيشة العمال ، فان المقارنة يجب ان تتم بالنظر لمستوى هؤلاء العمال السابق على الثورة الصناعية ٠ فقبل هذه الثورة ، عرفت البلاد الغربية مستوى من البطالة مقارب لمستواها في البلاد الأسيوية ، فوفقا لاحد الاحصائيات[٥٦٩] ، كان المعدمين الخاضعين لقانون الفقراء يمثلون ما بين ١٠ ٪ الى ١٥ ٪ من مجموع سكان انجلترا ، بينما كان هؤلاء يمثلون ٢٠ ٪ تقريبا من الفرنسيين ٠ لذلك ، فان الثورة الصناعية ، كان لها الفضل على الأقل ، في ايجاد عمل لهؤلاء المتسولين ، حتى لو لم يكن هذا العمل يكفيهم لسد رمقهم الا بالكاد ٠

هذا التضاد بين وجهتى النظر ، المتشائمة والمتفائلة ، ان صح هذا التعبير ، تجددت مؤخرا في انجلترا ، بين فريقين من الكتاب ، تزعم الجانب المتشائم فيهم Hobsbawn ، بينما كان R.M. Hartwell على رأس أصحاب النظرة التفاؤلية[٥٧٠] ٠

---

(٥٦٩) Fohlen, op. cit., note 276, p. 223.

(٥٧٠) Hobsbawn, l'ère des révolutions, op. cit., note 464, p. 41.

يسلم Hobsbawn ان المستوى المعيشي قد ارتفع في أوربا عام ١٩٠٠ عما كان عليه في الأعوام ١٨٠٠ ، ولكن هذه الملاحظة العامة ، لا تمنع ان هناك بعض الفئـات (أو الطبقات) التى هبط مستوى معيشتها وانحدر بشـكل ملحوظ ، وعلى الأخص الطبقة العاملة • ويسوق Hobsbawn الحجج التالية لتاييد وجهة نظره :

١ ـ ان الاحصائيات التى استند اليها Ashton للتدليل على ارتفـاع مستوى معيشة العمال ـ خاصة احصاء Jilberling (السابق الاشارة اليه) • تنقصها الدقة وقد استخدمت دون تدقيق •

٢ ـ ان الاحصائيات المتعلقة بانتشار المرض والوفاة بين صفوف العمال ، رغم انها غير متناهية الدقة ، تدل على ارتفاع مستمر في نسبة الوفيات والاصابة بالأمراض في الفترة من ١٨١٠ الى ١٨٧٠ وخاصة فيما بين ١٨١١ ـ ١٨٤١ •

٣ ـ ان البؤس وانخفاض مستوى المعيشة شاعا خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بسبب الأزمات الدورية الناجمة عن زيادة كميات الانتاج من جهة ، وازدياد البطالة في صفوف بعض فئات العمال بسبب التقدم العلمى وحلول الآلة محل الأيدى العاملة • ويصدق هذا القول بالذات لعمال النسيج ، الذين شاعت البطالة في صفوفهم وبلغ مستوى معيشتهم أدنى المستويات في الأعوام ١٨٣٠

٤ ـ ان الاحصائيات المتعلقة بالاستهلاك ، رغم عدم دقتها أيضا ، تدل على أنه في الفترة من ١٧٩٠ الى ١٨٤٠ لم يكن هناك أى دليل على ارتفاع كمية المـواد الغذائية ، بالنسبة للفرد ـ بل على العكس ، هناك ما يشير الى انخفاض نصيب الفرد فى هذه المواد ، فى بعض القطاعات الشعبية • حقا ان استهلاك اللحوم ازداد من حيث الكمية الاجمالية ، ولكن متوسط الاستهلاك لم يزد اذا قيست الزيادة الى نسبة زيادة عدد لسكان ، وتصدق الملاحظة أيضا بالنسبة للقمح ، حقا ان الانجليز لم يصل مستوى معيشتهم الى مستوى المعيشة في البلاد الأسيوية ، فقد ظل مستوى معيشة أدنى الطبقات مرتفعا عن مثيلاتها في الدول المتخلفة •

من هذه الملاحظات ، ينتهى Hobsbawn الى أنه يتعين التسليم بتدهور مستوى معيشة الغالبية العظمى من الطبقات الشعبية في الفترة من نهاية القرن الثامن عشر الى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو ما ادى بحسب وجهة نظر

Hobsbawn الى سخط الشعب الانجليزى ومشاركته في حركات الاحتجاج والمطالبة بحقوق الطبقات الشعبية ، مؤكدا بذلك ، ان العامل كان مجبرا في ظل المجتمع الصناعى على الاكتفاء بحد الكفاف ، في عالم يسير الى الثراء السريع ، ولكن دون ان يتيح الفرصة للطبقات الفقيرة ان تشارك في هذا الثراء الذى اسهمت في صنعه ٠

تلك النظرة ، وجدت ناقديها ، وعلى رأسهم Hartwell [٥٧١] الذين انتقدوا الحجج الذى أتى بها الفريق الأول ٠ وقد دعم Hartwell وجهة نظره ، بالحجج التالية :

١ ـ ان العديد من الاحصائيات المتعلقة بالأجور والأسعار خلال القرن التاسع عشر ، خاصة تلك الاحصاءات الحديثة الجديرة بالثقة ، مثل احصاء Gayer و Schwartz et Rostow ، تؤكد جميعا انه في الفترة من ١٨١٥ الى ١٨٥٠ انخفضت الأجور الاسمية بقدر طفيف ، ولكن صادف ذلك في نفس الفترة انخفاض طفيف (او ثبات) في الأسعار (بقدر أقل طبعا من انخفاض الأجور) ، ولكن نجم عن ذلك في النهاية نوع من التوازن بين الأور والأسعار كان في مصلحة العامل ، بحيث يمكن القول ن انخفاض الأجر الاسمى للعامل كان يخفى في الواقع ارتفاع لأجره الفعلى (الحقيقى) ، اى ارتفاع في مستوى معيشته ٠

٢ ـ ليس هناك أى دليل على ان نسبة البطالة كانت أكثر ارتفاعا في الفترة من ١٧٩٠ الى ١٨٥٠ ، عما كان عليه الأمر قبلها أو بعدها ٠ وعلى كل فان Hobsbawn وقع اختياره على السنوات ١٨٤٠ ليبنى عليها تحليلاته ، هذه السنوات التى عرفت فيها انجلترا أزمة طاحنة ، ولذا لا يمكن الاعتماد عليها لاستخلاص نتائج موضوعية ، وكان من الأفضل ، الاعتماد على السنوات ١٨٥٠ وما بعدها ، والتى بدأت الأمور فيها تعود الى حالتها الطبيعية ، لاستخلاص النتائج المرجوة منها ٠

٣ ـ ان الاحصاءات المتعلقة بانتاج اللحوم والقمح ، وباستهلاكهما ، لا تؤكد وجهة نظر Hobsgawn ٠ فالملاحظ ان انتاج القمح قد تزايد بشكل ملحوظ خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مما ترتب عليه انخفاض في اسعاره ،

(٥٧١) Fohlen, op. cit., note 276, P. 225.

وكذلك الأمر بالنسبة لانتاج اللحوم ، فقد تضاعفت كمياتها نتيجة لتحسن علف البهائم · لذلك ، ففى خلال الفترة من ١٨٣٠ الى ١٨٣٥ ، كان اللحم يقدم لسكان « منازل الفقــراء » ، لذلك يمكن القول دون تردد أنه قد عرف طريقة أيضا الى موائد العائلات العمالية ·

٤ ـ ان ازدياد انتاج المواد الاستهلاكية ، أفاد السوق الداخلية ، وعاد بالنفع على الطبقات الشعبية : فالمنتجات الجديدة ، ذات الأسعار المعقولة ، وضعت في خدمة المستهلك ، الذى كان محروما منها من قبل ، ولم يتمكن من الحصــول عليها الا بفضل التقدم العلمى والفنى الذى عرفته الثورة الصناعية ·

لذلك ، ينتهى Hartwell ، الى ان الثورة الصناعية ، أدت الى ارتفاع في مستــوى معيشة العمــال ، وليس انخفاضــه كمــا يدعى الفريق الأول بقيادة Hobsbawn

والواقع ان الخلاف بين الفريقين لم ينته بعد ، ويصعب على المرء ان يصدر فيه حكما قاطعا(٥٧٢) ، خاصة وان المحصلة النهائية للنقاش ترمى الى التعرف على حالة العامل ابان الثورة الصناعية ، وهل كان أكثر « سعادة » بحياته ام أقل ، وهى أمور انسانية يصعب الحكم عليها من خلال الأرقام ، خاصة اننا لو أردنا ان نصدر حكما نهائيا مجردا من العواطف ومعتمدا على « الحساب المجرد » ، فان الارقام نفسها قد لا تسعفنا في هذا الصدد ، خاصة وان العديد من الكتاب يشككون في دقة الاحصائيات الواردة الينا عن هذه الفترة ·

ولكن ، رغم الامتناع عن ابداء رأى قاطع في هذا الصدد ، أو الانضمــام لاحد الفريقين المتنازعين في هذا الميدان ، فان ذلك لا يمنع من ابداء ملاحظتين في الموضوع محل البحث :

---

(٥٧٢) فما ان انتهت هذا الحــوار بين الفريقين ، حتى احيــاه E.P. Thompson في مؤلفه عن الطبقة العاملة في انجلترا ، حيث لحق بصفوف المتشائمين مؤكدا ان الاحصائيات ليس قاطعة الدلالة فيما يتعلق بمدى استمتاع العمــال بحياتهم لان الارقام كما يقول قد لا تتوافق تماما مع « المشــاعر الانســانية » ، فالناس قد يستهلكون أكثر من ذى قبل ولكن ذلك لا يمنع من ان يكونوا « أكثر شقاء وأقل راحة وحرية عما كانوا عليه » ·

أنظر في ذلك :

Fohlen, op. cit., note 276, P. 227.

أما الملاحظة الأولى فمؤداها ، أنه في خلال المرحلة الأولى للثورة الصناعية ، لم يطرأ أى تحسن ملحوظ على مستوي معيشة الطبقة العاملة ، بل يمكن القول أن ظروف معيشتهم كانت في تدهور مستمر ، ذلك ان أى من الفريقين السابقين لم يدخل في الاعتبار جانب هام من جوانب حياة الطبقة العاملة ، ونقصد بذلك ، السكن هذا بالاضافة الى ان الارقام التى استندوها اليها لا تكفى للحكم على المستوى المعيشي ، حيث يتعين ان تأخذ أيضا في الاعتبار بعض الجوانب الاجتماعية والنفسية التى يصعب الحكم عليها ، منها مثلا ، كيف كان العامل ينظر الى ظروف معيشته ، وما هى مكانته في المجتمع في ذلك الوقت ٠ في هذا الصدد ، يقتضي الأمر الوقوف على رأى أصحاب الشأن ، أى العمال أنفسهم وهو ما لا نملكه الآن ٠ لذلك ، يقف أغلب الكتاب ، في تقييمهم للآثار الاجتماعية للثورة الصناعية ، عند الكتاب المعاصرة ، وخاصة عند كتابات الاشتراكيين منهم ، ويحظى كتاب Engels في وصف « حياة الطبقة العاملة في انجلترا » ، بمكانة هامة في هذا المقام ، حيث يعتبر المرجع الأول الذى يعتمد عليه أغلب الكتاب والاقتصاديين ، والمصلحين ، وهو الأساس الذى أقام عليه Hobsbawn وجهة نظره في هذا الموضوع ٠ ولكن الاعتماد عليه كلية لا يكفى ، فمازال هناك صوت كان ينبغى سماعه للحكم في هذا الموضوع ، وهو صوت العمال أنفسهم ، الذين كان بامكانهم اعطاء صورة واضحة عن مستوى معيشتهم في هذه الفترة بالمقارنة للفترات السابقة عليها ٠

اما الملاحظة الثانية ، فمؤداها ، أنه ، على الأجل الطويل ، لا يثور ادنى شك ان الثورة الصناعية ساهمت في رفع مستوى معيشة العمال ويرجع ذلك الى عاملين رئيسيين ، الأول ، ما اتاحته الثورة الصناعية من تزايد الانتاج ، مع انخفاض الأسعار بسبب انتشار الآلات وتقسيم العمل وتنظيمه ، أى بسبب وفرة الانتاج الصناعى ٠ اما العامل الثانى ، فيرجع الى تحرك العمال أنفسهم من اجل المطالبة بتحسين اوضاعهم المادية ، وما احدثه هذا التحرك من تأثير العلاقات الاجتماعية بين طبقة العمال وأصحاب الأعمال ، تأثير كان يعكس « علاقات القوى » بين الطبقتين، ولم يكن بالامكان أن يظل القانون صامتا ازاء هذه العلاقات ، فكان لابد لهذه الثورة الصناعية ان تعكس آثارها على الصعيد القانونى أيضا ٠

---

(٥٧٣) Dunham, op. cit., note 273, P. 165.
Lefrane, op. cit., note P. 258.

الفصل الثالث

الآثار القانونية للثورة الصناعية

تقـديم وتقسيم :

رأينا في الفصل السابق ، الآثار التى خلفتها الثورة الصناعية على الصـعيد الاجتماعى ، وركزنا ، بالدرجة الأولى ، على تقسيم المجتمع الى طبقات ، والظروف التى كانت تقاسيها الطبقة العاملة ٠

وننتقل الآن الى محاولة لشرح الآثار القانونية للثورة الصنـاعية ، ونستهل تلك المحاولة بملاحظة مبدئية مؤداها ان الثورة الصنـاعية خلفت على الصعيـد القانونى ، آثارا كثيرة وهامة ، كانت في جملتها ترمى الى حماية الطبقة الجديدة التى تمسك بين أيديها بالسلطة الاقتصادية ـ وتتحكم نتيجة لذلك ـ في السلطة السياسية ٠ تلك الحماية «القانونية» تنوعت وسائلها وتعددت صورها : فمن الغاء للامتيازات التى كانت تتمتع بها الطبقة الارستقراطية وما نجم عن ذلك من تغيير للتركيب الطبقى للمجتمع الصناعى عن المجتمعات السابقة عليه ، الى تقرير بعض المبادىء القانونية الـكبرى ، التى أتت بها الثـورة الفرنسيـة ، وعلى الأخص تقنين نابليون ، والتى تتركز أساسا في المبادىء الثلاثة الرئيسية : العقـد شريعة المتعاقدين ، لا مسؤولية بدون خطأ ، والملكية حق مطلق ، هذه المبادىء التى كانت ترمى الى وضع المذهب الفردى ، موضع التطبيق ، على الصعيد القانونى ، مستهدفة بذلك حماية البورجوازية الصناعية في أموالها ، وتأمينها من المسؤولية وخاصة المسؤولية عن حوادث العمل وحوادث السير ٠

كل هذه الموضوعات ، تعتبر من الآثار القانونية للثورة الصناعية ولكننا لن نتناولها جميعا بالدراسة ، فقد سبقنا في ذلك العديد من الباحثين[٥٧٤] وهى ، من

---

(٥٧٤) أنظر على سبيل المثال :

A. Esmein : l'histoire du droit français (de 1789 à 1814)
Sirey — Paris 1911, pp. 217 et s.s.

جهة أخرى ، تجاوز النطاق الذى حددناه لهذا البحث ، منذ البداية ، والذى ينحصر أساسا في ببحث أثر الثورة الصناعية من الناحية الاجتماعية على الطبقات الاجتماعية ، وخاصة الطبقة العاملة ، ومن الناحية القانونية ، على القانون الاجتماعى ٠

وفي هذا النطاق ، نبدأ هذا الفصل ، بالتساؤل عن رد فعل العمال على الظروف التى وجدوا أنفسهم فيها في اعقاب الثورة الصناعية ؟ ٠

الواقع ان العمال كان أمامهم احد حلول ثلاث : اما ان يحاول أفراد هذه الطبقة تسلق السلم الاجتماعى الى أعلى واللحاق بصفوف الطبقة الرأسمالية ، واما قبول الأمر الواقع والاستسلام « للهزيمة » ، واما الثورة على الأوضاع التى تردوا اليها ٠

غير ان هذه الحلول الثلاث المتصورة ـ من الناحية النظرية ـ تركت العمال أمام حل واحد منها من الناحية العملية : فالدلوف الى مصاف الطبقة البورجوازية أضحى ـ خاصة بعد التطور الفنى وازدياد حجم الاستثمارات اللازمة في الصناعة ، أمرا مستحيلا من الناحية العملية ، والرضوخ وقبول الأمر الواقع وان كان مألوفا في بداية الثورة الصناعية ، فان الظروف المشتركة والمعايشة اليومية لأفراد الطبقة العاملة بعضهم البعض ، وتعارض مصالحهم (كجماعة) مع مصالح أصحاب الأعمال زاد من الشعور الطبقى لديهم وازداد لديهم الاحساس أن بامكانهم تحسين أوضاعهم لو استطاعوا تنظيم صفوفهم واعتمدوا على التضامن فيما بينهم من أجل الوقوف في وجه الطبقة القوية اقتصاديا ٠ ومعنى ذلك أن أفراد الطبقة العاملة لم يبق امامهم الا الحل الأخير وهو الثورة على الأوضاع التى تردوا اليها(٥٧٥) ٠ خاصة ، وان الدولة ، وأصحاب الأعمال كانوا لا يلقون بالا لما تعانيه الطبقة العاملة من متاعب وما تتحمله من تضحيات(٥٧٦) .ولم يكن امام هذه الطبقة الكادحة أى

R. Aron : Dix buit leçons sur la Société industrielle Gallimard, Paris 1962.

(والترجمة العربية له بواسطة بسيم محرم ـ عالم الكتب ، القاهرة ـ ١٩٦٨) ٠

(٥٧٥) Hobsbawn, op. cit., note 464, p. 258.

(٥٧٦) Epszteïn, op. cit., note 279, p. 77.

وسيلة قانونية لاستخلاص حقوقها والخروج من «المأذق» الذى ترددت اليه. فالنظام الفردى الذى قامت عليه الثورة الصناعية وقف من الناحية القانونية حائلا امام تدخل الدولة لفرض أى نوع من الحماية للعمال ، بل حرم هؤلاء من أى عمل جماعى يرمى الى الوقوف في وجه رب العمل : فباسم الحرية الفردية ، رفضت الدولة ـ نزولا على رغبة الطبقة الرأسمالية ـ التدخل في مجال تنظيم علاقة العمل أو اباحة حق التطيم : ففى المجال الاقتصادى ، لا يكون للحرية الفردية أى معنى الا اذا اقترنت هذه الحرية بسلطة فعلية ، هذه السلطة كانت بين أيدى اصحاب رأس المال (السلطة الاقتصادية) او الحكام (السلطة السياسية) ، وكلاهما يتركزان في طبقة واحدة . اما الطبقة العاملة فلم تكن تملك أى سلطة ، حيث كانت ملكيتها قاصرة على قوة عملها فحسب ، فاصبحت بذلك تحت رحمة أصحاب الأعمال . فالليبرالية الاقتصادية ، كانت تعنى ـ بكل بساطة ـ امتناع الدولة عن التدخل في علاقات العمل وتحريم كل التكتل من شأنه استبعاد العلاقة الفردية بين « العامل » و « صاحب العمل » بحيث يتعاملان على أساس من المساواة « القانونية » . هذه الفكرة اتاحت بالطبع للأقوى اقتصاديا ، استغلال الأضعف ، وجعلت العامل تحت رحمة صاحب العمل وبذلك « أضحى ثمن الحرية الفردية للطبقة المالكة هو حرمان من لا يملكون الا قوة عملهم من المعنى الحقيقى للحرية الفردية » ، بحيث لم يكن ممكنا وضع نظام قانونى لحماية العمال ، الا اذا نجح هؤلاء في انتزاع تلك الحماية من بين ايدى النظام الرأسمالى والطبقة الحاكمة ، خاصة وان استخدام فكرة « الحرية الفردية » على اطلاقها كوسيلة لوضع الطبقة العاملة مجردة من كل سلطة أو حماية ، في مواجهة الطبقة الرأسمالية بكلى ما تملكه من سلطات وما تسبغه عليها المبادىء الليبرالية من حماية ، لم يكن من الممكن ان يدوم دون أن يزيد من حدة الصراع الطبقى بشكل يهدد أسس النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسي . وقد أدركت الطبقة الحاكمة ذلك ، ففضلت ان تجد حلولا قانونية لمشاكل الطبقة العاملة ، خاصة بعد ان زادت الضغوط من جانب هذه الطبقة وخشت الطبقة الرأسمالية أن يفلت الزمام وتجد نفسها وقد تجاوزتها الأحداث وانهار من حولها هذا الصرح الاقتصادى الشامخ الذى أقامته . لذلك ، فضلت هذه الطبقة الحاكمة ان يتم التحول بصورة قانونية ، فكان ذلك ايزانا بمولد القانون الاجتماعى .

ويقتضي الأمر ، لبيان التطور الحاصل على الصعيد القانونى ، والذى أدى الى ميلاد القانون الاجتماعى ، ان نبين أولا المرحلة السابقة على هذا الميلاد ، وكيف استخدمت الأفكار الليبرالية كوسيلة لتجريد الطبقة العاملة من كل سلاح في مواجهة الطبقة الرأسمالية ، وما هو رد فعل العمال نتيجة لذلك ، ومدى ساهمت به الحركة الفكرية الاجتماعية الاشتراكية في ميلاد هذا القانون ، كل هذه الموضوعات ندرسها في مبحث أول نقترح له اسم « ارهاصات القانون الاجتماعى » لنرى ، بعد ذلك ، في مبحث آخر كيف ولد هذا القانون في اتجاهين رئيسيين هما ظهور القوانين المنظمة للعمال والاعتراف بحق العمال في تكوين المنظمات النقابية العمالية .

المبحث الأول

ارهاصات القانون الاجتماعى

رأينا ان الثورة الصناعية ، نقلت مركز الانتاج من القرية الى المدينة ، بحيث اصبحت المدينة الصناعية مركزا للعلاقات التجارية والحياة الاقتصادية بشكل عام ، وتبع ذلك هجرة الأيدى العاملة من القرية الى المدينة جريا وراء اسباب الرزق . ورأينا أيضا ، كيف كانت هذه الايدى العاملة غير مهيأة للعمل في المصانع الحديثة(٥٧٧) ، وما ترتب عليه من لجوء الطبقة الرأسمالية لاخضاع هؤلاء الوافدين الجدد لنظام صارم . ولكن هذا النظام المفروض من جانب أصحاب الأعمال لم يكن يكفيهم للتحكم والسيطرة الكاملين على الطبقة الضعيفة ، فالسيطرة الاقتصادية كانت تتطلب أيضا التحكم في تنظيم علاقات العمل على نحو يتفق ومصالح الطبقة الرأسمالية ، وقد نجحت هذه الأخيرة في ايجاد الوسيلة الكفيلة بصياغة علاقات العمل على النحو الملائم لها ، مستندة في ذلك الى مبادىء الحرية والديمقراطية ، ومنطلقة من الأفكار الليبرالية ، فاستخدمت هذه المبادىء والأفكار لتحقيق « السيطرة القانونية » لصالح الطبقة الأقوى اقتصاديا والحاكمة سياسيا (المطلب الأول) .

ولكن نجاح الطبقة الرأسمالية الصاعدة في تحقيق سيطرتها على الطبقة العاملة مستخدمة في ذلك كافة الوسائل (الاقتصادية والسياسية والقانونية) لم

---

(٥٧٧) راجع ما سبق ص ٢٨٨ وما بعدها .

يكن من الممكن ان يكتب له الدوام : فالظلم الاجتماعى كان بينا ، وسرعان ما تبين المفكرين والفلاسفة ان قاعدة المساواة واطلاق الحرية الفردية ، مع اختلاف المقدرات الاقتصادية وتباين المراكز الاجتماعية ، كانا وسيلة لاتاحة الفرصة لمزيد من سيطرة الطبقات الأقوى على الطبقات الأضعف ، خاصة في ظل دولة ليبرالية مهمتها الحراسة والامتناع عن أى تدخل من شأنه ان يقوق « النظام الاقتصادى الطبقى » . لذلك سرعان ما ظهرت الأفكار الاجتماعية والاشتراكية التى تنادى بتحرير الطبقة العاملة ورفع مساوىء النظام الاقتصادى الجديد عنها (المطلب الثانى) .

ولكن هذه الأفكار لم تلق اذنا صاغية ، بحيث وجدت الطبقة العاملة نفسها امام حل واحد من الناحية العلمية : الاعتماد على قوتها الذاتية لاجبار الطبقة الرأسمالية على قبول تنظيم علاقات العمل على نحو يضمن لأفراد الطبقة العاملة حدا أدنى من الحماية القانونية ويسمح لهم بتنظيم صفوفهم والاعتراف بمنظماتهم من أجل الدفاع عن مصالحهم المهنية (المطلب الثالث) .

المطلب الأول

مبدأ حرية العمل
وأثره في تنظيم علاقات العمل

بعد ان أقامت البورجوازية الصاعدة ، صرحها الاقتصادى من الناحية المادية ، بدأت هذه الطبقة في البحث عن تبرير أيديولوجى للاوضاع الاجتماعية الناشئة عن اسلوب الانتاج الجديد ، وعن نظام قانونى يسمح له بالاستمرار في استغلال الأيدى العاملة . وقد وجدت الرأسمالية الناشئة غايتها في المبادىء القانونية والأفكار الليبرالية التى أتت بها الثورة الفرنسية فقد استطاعت هذه الثورة - بحق - التعبير عن مصالح الطبقة الرأسمالية، ومنحت هذه الأخيرة كل ما تحتاجه من أفكار ومبادىء ترتكز عليها لتحقيق سيطرتها ، وقد امتدت هذه المبادىء والأفكار الى خارج الحدود الفرنسية واعتمدت عليها الطبقة الرأسمالية في الدول التى قامت فيها الثورة الصناعية .

لقد رفعت الثورة الفرنسية شعار الحرية والاخاء والمساواه . ولكن هذا الشعار كان ستارا يخفى وراؤه الطابع الفردى البورجوازى الليبرالى للقانون بصفة عامة (البند الأول) وانتقل هذا الطابع الى نطاق قانون العمل ، تحت شعار آخر دفعته الطبقة البورجوازية الا وهو « بحرية العمل » (البند الثانى) ولكن هذا الشعار « البراق » ظاهريا ، أدى الى خضوع العمال الى مزيد من القيود ، تفوق تلك التى كانوا يخضعون لها قبل وضعه موضع التنفيذ (البند الثالث) .

البند الأول ـ الطابع الفردى الليبرالى للقانون في النظام الرأسمالى(٥٧٨) :

اعتنقت الثورة الفرنسية الايديولوجية الليبرالية ، واتخذتها فلسفة لها .

وعلى الرغم من ان التحليل السياسي والسسيولوجى للثورة الفرنسية يخرج عن نطاق هذا البحث ، الا أنه يتصل به ، حيث يقتضي الأمر ، لتفهم مبدأ « حرية العمل » على نحو صحيح ، أن نرى ـ بايجاز شديد ـ الاطار الفلسفى العام الذى نشأ فيه المبدأ .

ويتطلب الأمر ـ بادىء ذى بدء ـ ان نؤكد على الطابع « الشمولى » للفلسفة الليبرالية : فلا يمكن ، حتى نتفهم هذه الفلسفة ، ان نقف عند حد « الليبرالية الاقتصادية » فحسب ـ كما يفعل بعض الكتاب ـ فالفلسفة الليبرالية ، أعم وأشمل من ذلك ، وهى تعتبر منهجا متكاملا في شتى جوانب الحياة الانسانية وتمتد لتشمل كافة ميادين العلاقات الاجتماعية ، فهى فلسفة اقتصادية وسياسية في آن واحد. وهى أيضا فلسفة اجتماعية ـ تدور حول الفرد ، وتقدم المصلحة الفردية على المصلحة العامة ، وتجعل من الفرد ـ لا من الجماعة ـ محور اهتمامها ، لذلك فهى لا تعرف الا بالعلاقات القائمة بين الأفراد، وترفض الاعتراف بأى «جماعات وسيطة» تفرض نفسها أو تعوق حرية العلاقات الفردية .

وامتدادا لهذه الرؤية ، تنادى الفلسفة الليبرالية ، بامتناع الدولة عن التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث تترك الدولة المجال للمبادرة الفردية والمنافسة الحرة ، ويقتصر دور الدولة على « الحراسة » . وهكذا ، نجد ان الفلسفة

---

(٥٧٨) René Remond, op. cit., note 293, p. 28.
Ch. Moraze, op. cit., note 347, p. 101.

الليبرالية تدور حول محور اساسي ، هو « الحـافز الفردى » فتجعل منه الغاية والوسيلة الى تحقيق الحد الأقصي من السعادة لأفراد المجتمع ، ويمتنع من ثم على الدولة التدخل للحـد من المبـادرة الفردية او للحلول محـل الأفراد في الحيـاة الاقتصادية ، بل ، أبعد من ذلك ، يتعين على الدولة ان تقف موقفـا محايدا من الطبقات الاجتماعية ، فلا تتدخل لصالح احداها على حساب الأخرى ٠

ولا يخفى ما في هذه الأفكار الليبرالية من تعبير صريح عن مصالح الطبقـة الرأسمالية ٠ ويبدو الأمر جليا ، لو تناولنا هذه الأفكار بالتحليل على الصعيدين الجغرافي والاجتماعي : فعلى الصعيد الجغرافي ، نجد ان البلاد التى نمت فيها هذه الأفكار الليبرالية ، ولقيت قبولا ووصفت موضع التطبيق هى تلك البلاد التى كانت الطبقة الرأسمالية فيها قد اشتد فيها عودها وثبتت أقدامها ٠ وكذلك الأمر على الصعيد الاجتماعي حيث نجد ان الطبقة الاجتماعية التى وجدت فيها الليبرالية خير المدافعين عنها ، وخير مفكريها هى الطبقة الرأسمالية الصاعدة ٠

نستخلص من ذلك ، اذن ـ دون صعوبة ـ ان الليبرالية كانت التعبير الصادق عن مصالح الطبقة الرأسمالية الصاعدة ، فمن ذا الذى سيحقق أكبر فائدة من جراء اطلاق الحافز الفردى ، سوى أفراد تلك الطبقة الاكثر ثراء، المطبقة على زمام السلطة الاقتصادية ؟ لقد قادت الطبقة البورجوازية الثورة ـ ضد الارستقراطية ـ وقد سلمت الثورة السلطة السياسية الى هذه الطبقة ، فحرصت هـذه الأخيرة على الاحتفاظ بتلك السلطة السياسية ـ بالاضافة للسلطة الاقتصادية ـ لتدعم موقفها ضد الارستقراطية من جهة ، وضد الطبقات الشعبية من جهة أخرى ٠

لذلك ، حرصت الطبقة الرأسمـالية على ان (تقنن) سلطـاتها وان تدعم موقفها السياسي والاقتصادى ، بنظام قانونى متميز عن النظم السابقة عليه ٠ ولما كانت النظم الاجتماعية السابقة تقوم على أساس من التمييز « الطبقى » على أساس من القانون ، فقد حرصت الطبقة البورجوازية على الاطاحة بهذا النظام الذى كان يكفل للطبقة الارستقراطية وضعا متميزا ، وفي نفس الوقت ، حرصت الطبقـة الرأسمالية على ان يكون هذا النظام القانونى الجديد كفيلا بالحفاظ على سيطرتها على الطبقات الشعبية ، لتعتلى وحـدها قمة السـلم الاجتمـاعى بعد ان ازاحت الارستقراطية عنه ، وبعد ان اقامت بينها وبين الطبقات الشعبية « عدة درجات » يصعب على أفراد الطبقة الضعيفة تسلقها والوصول الى القمة ٠

ولقد وجدت الطبقة الرأسمالية ، أسس النظام القانونى الجديد ، في الشعارات التى رفعتها الثورة الفرنسية : الحرية والاخاء والمساواة ، وكرست الثورة الفرنسية هذه المبادىء الثلاثة في اعلان حقوق الانسان والمواطن الصادر عن الجمعية التأسيسية الفرنسية غداة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ (٢٦ أغسطس ١٧٨٩) ، فقد وضع هذا الاعلان أسس النظام القانونى البورجوازى : فالمادة الأولى من هذا الاعلان ، تؤكد على مبدأ المساواة « كل المواطنين سواسية أمام القانون ولكل منهم الحق في تولى المناصب العامة دون تفرقة متى توافر لدى المواطن الشروط المتطلبة قانونا ٠٠٠ » غير ان تلك المساواة ، لم تجمنع المشرع الفرنسي في تقريره لحق الاقتراع العام ، من قصر هذا الحق ، على الأشخاص الذى يؤدون جدا أدنى من الضرائب ، حدده المشرع ، بشكل يؤدى الى حرمان الطبقات الضعيفة اقتصاديا من التصويت ٠

اما فكرة الحرية التى اعلنتها الثورة الفرنسية ، فهى ترمى الى احاطة الفرد بنوع من الحماية التى تكفل له التمتع بما لديه من قدرات ، وهى ترتبط بهذا المعنى ـ أوثق الارتباط ـ بالملكية التى أعلنت الثورة الفرنسية ـ وبالذات تقنين نابليون أنها « حق مطلق » يمتنع على الدولة المساس به الا من أجل المنفعة العامة ، وبشرط أداء تعويض عادل ومسبق للمالك ٠

يتضح لنا اذن من هذا العرض ، كيف ان الصرح القانونى للنظام الرأسمالى ، قام على أساس من الفردية والليبرالية ، مما دعا بعض الكتاب للقول أن الدولة الرأسمالية هى « تجمع من الأفراد » او أن ارادة الأمة هى في الواقع « نتيجة لتجميع الارادات الفردية » ٠ لذلك ، فمن السهل اذن ان نتفهم العداء الذى ناصبته الثورة الفرنسية لكل تجمع طائفى أو مهنى ، او لاى جماعة وسيطة ٠

البند الثانى : تأثير الفكر الليبرالى على علاقات العمل : مبدأ حرية العمل :

لم يكن بمقدورنا أن نقف على المضمون الليبرالى لعلاقات العمل الا بوضع هذه العلاقات في الاطار الفكرى العام الذى كان سائدا ٠ على أن بيان أثر هذه الأفكار الليبرالية بوجه عام ، على علاقات العمل بصفة خاصة ، يقتضي بعض التفصيل : فعلى عكس ما درجنا عليه من اعتبار انجلترا المثال الرائد في دراسة الجوانب المتعددة للثورة الصناعية ، سنضطر الآن الى ان نبدأ أولا بفرنسا ، ثم تليها انجلترا ، ولنا في ذلك عذر واضح : أن طبيعة الشعب الانجليزى حرصه على التقاليد ،

تنعكس على كل جوانبه حياته ، ومنها القانون · فقيام البناء القانونى في انجلترا على فكرة السوابق القضائية وعدم تقنينه يعتمد على طبيعة الشعب الانجليزى والتزامه الشديد بالقوانين (العرفية) وبالتقاليد والعادات ، مما يؤدى الى صعوبة تتبع مراحل تطور القانون الانجليزى ، أو على الأقل الوقوف على صورة هـــذا التطور في وقت وجيز ، على عكس القانون الفرنسي ، الذى يمكن تتبع تطوره بشكل أيسر وأسرع نتيجة لاهتمام الفرنسيين بالتقنين خاصة في أعقاب الثورة الفرنسية وصدور « تقنين نابليون[٥٧٩] » ·

أضف الى ذلك ، أنه فيما يتعلق بقانون العمل بوجه خاص ، كان من المسلم به ، في كل الدول التى قامت فيها الثورة الصناعية ، ان نظم علاقات العمل السابقة على الثورة لم تعد صالحة للوفاء بمقتضيات التطور · ويصدق هذا القول ســواء بالنسبة لانجلترا او لفرنسا ، ولكنه كان أكثر وضوحا في هذه الأخيرة : ذلك ان العائق امام حرية العمل كان نظام الطوائف ، ولكن انجلترا كانت قد استعدت للدلوف الى عصر الصناعة منذ زمن مبكر فألغت نظام الطوائف لديها منـذ عام ١٥٤٥ · اما في فرنسا ، فقد ظل نظام الطوائف قائما حتى الثورة ، لذلك جاءت فكرة حرية العمل وكأنها تحرير للعمــال من نظام يكبلهم بالقيود[٥٨٠] ، فاكتشف هذه الفكرة صبغة تقدمية في حين انها في الحقيقة كبلت العمال بقيود أكثر من ذى قبل ·

ولذلك نتناول مبدأ « حرية العمل » أولا في فرنســا ، ثم في انجلترا ·

(أ) مبــدأ حرية العمل في فرنسا :

رأينا ، ان الفكر الليبرالى يرفض أى قيد على الحرية الفردية ، ويدعو الى اطلاق الحريات الفردية دون أى قيود ، لأن ذلك هو السبيــل لتحقيق مصلحــة المجتمع ككل ، عن طريق سعى كل فرد الى تحقيق مصلحته الفردية · وانطلاقا من هذه الفكرة وامتداد للشعار الذى رفعته الرأسمالية في نطاق الاقتصاد « دعه يعمل ـ دعه يمر »سرعان ما طالبت تلك الطبقة الجديدة باطلاق حرية العمل والغاء نظـام

---

(٥٧٩) Ch. Moraze, op. cit., note 347, p. 101.

(٥٨٠) Paul Pic : législation industrielle 5oed, Paris A. Rousseau 1922, pp. 64 et s.s.

الطوائف ، حيث كان هذا النظام يشكل قيودا على حرية أصحاب الأعمال سواء من حيث توظيف الايدى العاملة أو من حيث التنظيم الداخلى للمهنة والصناعات الناشئة .

لذلك ، ما ان انتصرت الثورة الفرنسية ، حتى سارعت الى القضاء على الهياكل التنظيمية لعلاقات العمل القائمة قبل الثورة الصناعية ، وتبلور ذلك في اتجاهين رئيسيين هما القضاء على نظام الطوائف واطلاق حرية العمل ، وتحريم أى تكتل من شأنه التأثير على حرية المبادلات والحرية الاقتصادية بوجه عام . وقد تبلور هذا الاتجاه ، على الصعيد القانونى ، بالغاء نظام الطوائف بموجب قانون Allarde واعلان مبدأ حرية العمل ، وبتحريم التكتلات العمالية والتجمعات بصفة عامة بموجب قانون Le Chapelier .

(١) قانون Allarde (١٧ مارس ١٧٩١)(٥٨٠) :

غداة الثورة الفرنسية ، نجحت الطبقة الرأسمالية في استصدار قانون Allarde الذى عرف أيضا باسم « قانون الغاء الطوائف المهنية » . ولعل أهم ما جاء به هذا القانون ، كان القضاء على نظام الطوائف المهنية ، وما ارساه من مبدأ حرية العمل بموجب نص المادة ٧ التى تقرر « لكل شخص مطلق الحرية في القيام بأى عمل تجارى ، أو في ممارسة أى نشاط مهنى يراه مناسبا له ، ولا يلتزم في مقابل ذلك الا باداء الرسوم المقررة بمزاولة المهنة والالتزام باللوائح التى تصدرها الجهات المعنية بخصوص ممارسة المهنة » .

وهكذا ، ارسي هذا النص ، وللمرة الأولى في تاريخ فرنسا مبدأ حرية العمل ، بحيث أصبح من حق كل فرد ممارسة المهنة التى تحلو له ، اينما شاء ، دون أى قيود تفرضها « الطائفة » عليه . ولا يمكن ان ننكر مدى أهمية المبدأ ، اذا نظر اليه بصورة مجردة .

---

(٥٨٠) Fohlen, op. cit., note 274, p. 47.
M.Amiaud, Cours de législation industrielle Les Cours de droit — Paris 1945 — 1946. pp. 19 et s.s.

(٢) قانون Le Chapelier (١٧ يونيو ١٧٩١)(٥٨١) :

ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حد اعلان مبدأ « حرية العمل » ، ولكنها بعد شهور قليلة من اصدار قانون Allarde ، اصدرت قانونا آخر Le Chapelier بموجبه تحرم على أصحاب الأعمال والعمال تكوين أى تجمع او تكتل - تحت أى شكل كان ، ولأى سبب كان ، ويسرى هذا التحريم على التجمعات العمالية المؤقتة ، كما يسرى على الجمعيات الدائمة . فقد جاء في المادة الأولى من هذا القانون « ان القضاء على كل تجمع مهنى او طائفى هو احد الأسس التى يقوم عليها الدستور الفرنسي لذلك يحظر اعادة تكوين هذه التجمعات تحت أى شكل من الأشكال ، ولأى سبب من الاسباب » وتقرر المادة الثانية من نفس القانون « ان المواطنين الذى يمارسون مهنة واحدة ، والعمال الذى يشتغلون في صناعة واحدة ، لا يحق لهم أن يتجمعوا من أجل اختيار رئيس لهم ، أو سكرتير أو ممثل لهم ، او ان يمسكوا بدفاتر أو قوائم ، او ان يتداولوا من أجل اتخاذ قرارات متعلقة بمصالحهم المشتركة » .

وتقرر المادة الرابعة من قانون « اذا حدث ، بالمخالفة لمبادىء الحرية الدستورية ان تجمع أعضاء مهنة واحدة من أجل الاتفاق على اتخاذ تدابير مشتركة من شأنها رفع الأجور ، فان هذه الاتفاقات أو التجمعات تعتبر غير دستورية ، لأن من شأنها المساس بمبادىء الحرية والمبادىء التى تضمنها اعلان حقوق الانسان وتكون من ثم باطلة عديمة الأثر » .

ويحدد القانون العقوبات التى توقع على المخالفين ، فالمادة السادسة تنص على أنه « اذا صاحبت الاتفاقات المشار اليها ، استخدام العنف أو التهديد ضد صاحب العمل ، أو ضد العمال الذين يقبلون العمل بأجر أقل مما تشير اليه هذه الاتفاقات ، أو ضد العمال الذين يأتون ليحلوا محل العمال الذين تضامنوا معا من أجل رفع الأجور ، فان كل من شارك في أعمال العنف أو التهديد أو حرض عليها ، يعاقب بغرامة قدرها ألف فرنك وثلاثة شهور حبس » كما تضيف المادة الثامنة

---

(٥٨١) P. Silvestre, op. cit., note 491, p. 6.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 85.
Amiaud, op. cit., note 580, p. 21.

من القانون « ان كل تجمع عمالي يهدف الى اعاقة حرية التجارة والصناعة يعد في نظر القانون تجمعا يهدد الأمن العام » .

وهكذا ، قرر المشرع الفرنسي تحريم كل تجمع أو تكتل يرمي الى اعاقة التبادل التجارى والاقتصادى الحر ، وعلى الأخص اعاقة حرية العمل ، وقد أكد القانون الجنائى هذا المعنى في مادتيه ٤١٤ و ٤١٥ ، حيث تقرر المادة الأولى « أى تكتل بين أصحاب الأعمال يرمى الى تخفيض الأجور بشكل تعسفى وغير عادل ، اذا تبعه وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ ، يعرض أفراده لعقوبة الحبس من ستة أيام الى شهر وبغرامة تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرنك » اما المادة ٤١٥ فتقرر « كل تجمع عمالى يسعى الى وقف العمل لمدة معينة ، او لمنع العمل في احدى الورش أو المصانع ، أو الى منع دخول العمال أو استمرارهم في عملهم ، وبصفة عامة كل تجمع يرمى الى تعطيل العمل أو ايقافه أو اضطراب سيره ، يعاقب المشاركون فيه بعقوبة الحبس من شهر الى ثلاثة أشهر . اما رؤساء التجمع أو المحرضين عليه فتتراوح مدة الحبس من سنتين الى خمس سنوات[٥٨٢] » .

ويتضح لنا من هذين النصين ، ان المشرع اذ حرم على قدم المساواة التجمعات العمالية وتجمعات أصحاب الأعمال ، الا أنه خص هؤلاء الأخرين بمعاملة أفضل : فبينما يعاقب المشاركين المحرضين على التجمع العمالى في كل الأحوال ، لا يتعرض أصحاب الأعمال لتوقيع العقاب عليهم الا اذا كان الاتفاق على تخفيض الأجور قد تم « بطريقة تعسفية وغير عادلة » كذلك ، فهناك اختلاف واضح وبين فيما يتعلق بالعقوبات ، خاصة العقوبات السالبه للحرية : فبينما كانت عقوبة الحبس اجبارية بالنسبة للعامل ، وقد تصل الى ثلاث شهور نجدها « اختيارية » بالنسبة لرب العمل ولا يمكن ان يتجاوز حدها الأقصي شهرا واحدا .

يتضح لنا اذن من هذا العرض ، ان مشرع الثورة الفرنسية ، اتخذ من القضاء على التجمعات المهنية (الطوائف المهنية) ذريعة لتحريم كل أنواع التكتلات والتجمعات ، وعلى الرغم من ان التحريم كان يشمل أيضا تجمعات أصحاب الأعمال ، الا أن المقصود به أساسا كان التجمعات العمالية ، وترتب على هذا التحريم

---

(٥٨٢) Silvestre, op. cit., note 491, p. 7.
Epsztein, op. cit., note 279. p. 86.

حرمان العمال من التعبير عن أنفسهم وشرح قضاياهم بصورة قانونية ، فكان ان لجأوا الى الأساليب غير القانونية .

وباطلاق حرية العمل ، وتحريم كل تجمع ، تبدو « الصيغة الفردية » لقواعد تنظيم العمل في اعقاب الثورة الفرنسية ، هذه الصيغة الفردية ، قصد بها المشرع ان يضمن ـ في نطاق علاقات العمل،مواجهة فردية بين العامل وصاحب العمل(٥٨٣) la tête à tête entre l'ouvrier et le patron ونظرا لأن هذا الأخير ، كان يملك « القوة الاقتصادية » فقد كان بامكانه اخضاع العمال والتحكم فيهم .

هذا النظام « الفردى » المتطرف ، وجد لنفسه العديد من المبررات والأسانيد فهو أولا ، يبدو وكأنه اصلاح لمساوىء النظام السابق عليه ، ونقصد على الأخص نظام الطوائف ، ذلك ، ان نظام الطوائف ، بما كان يخضع له اعضاؤه من نظام صارم ، خاصة في القبول والترقي ، ترك الفرصة سانحة امام الكتاب والفلاسفة للطعن فيه على أساس أنه يمثل « قيدا » على حرية المواطن في اختيار العمل الذى يرغب فيه(٥٨٤) ، واستطاعت الرأسمالية الصاعدة ان تستغل بذكاء هذه الحجة للقضاء على نظام الطوائف ، وفي نفس الوقت لتحريم أى شكل من أشكال التكتل الذى قد يقف عائقا امام المواجهة الفردية المطلوبة بين العامل وصاحب العمل .

وقد استندت هذه النظرة الى آراء المفكرين آنذاك :

فمن الناحية السياسية ، رأينا(٥٨٥) ، ان جان جاك روسو كان يعتقد ان

---

(٥٨٣) ولقد كان هذا المعنى واضحا لدى النائب Le Chapellier عند تقديمه لتقريره الخاص بتحريم التكتلات العمالية ، فقد جاء في هذا التقرير « لم يعد هناك في الدولة محل لأى طوائف ، لم يعد هناك سوى المصلحة الخاصة لكل فرد والمصلحة العامة . فيتبقى اذن التمسك بقاعدة ان الاتفاق الحر بين الأفراد هو وحده الكفيل بتنظيم علاقات العمل ، وعلى العامل ان يحترم الاتفاق الذى ابرمه مع صاحب العمل ، اما الأجر فلا يمكن تحديده الا بالاتفاق الحر » .

انظر في ذلك :

Amiaud, op. cit., note 580, p. 21.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 86.

(٥٨٤) J. Hochard : nouveau manuel de droit Social Paris, p. 16 et 17.
Amiaud, op. cit., note 58ـ, p. 22.
Paul Pic, op. cit., note 580, pp. 64 et s.s.

الانسان بطبعه خير ، ولذلك ، فان الوضع الأمثل لاستمرار الحياة في المجتمع هو اطلاق الحرية الفردية وحمايتها من كل عائق ، والتنظيمات المهنية ، والتكتلات تعتبر من العوائق التى تعترض طريق الحرية الفردية ، لذلك ينبغى القضاء عليها ، حتى لا يبقى في الأمة سوى الدولة والأفراد فحسب ·

ومن الناحية الاقتصادية ، ساد المذاهب الفردى أيضا ، بقيادة آدم سميث ، فساعد كذلك على تأكيد « المذهب الفردى(٥٨٦) » ·

ولكن تكريس مبدأ « حرية العمل » بواسطة الثورة الفرنسية ، لا يمكن ان يخفى وراء مظهره البراق ، مساوءه الاجتماعية : فعلاوة على أنه كان وسيلة لضرب كل تجمع عمالى ، حتى لا يؤثر التكتل العمالى في ميزان علاقات القوى بين أصحاب الأعمال والعمال ، فان هذا المبدأ ، لم يحقق للعمال حريتهم كاملة ، وبالذات على الصعيد القانونى : لقد جاء الفكر الليبرالى ليحرر العمال من قيود الطوائف ، ولكن ليخضعهم لنظم قانونية أشد تعسفا ، ونعنى بها على الأخص « دفتر العمل Le livret ouvrier (٥٨٧) » · الذى قصد منه اخضاع العامل لسيطرة رب العمل بشكل قانونى صريح : فبموجب القانون الصادر في ١٢ ابريل عام ١٨٠٣(٥٨٨) ، كان يتعين على كل عامل ان يكون حاملا « دفتر العمل » ويجب عليه حال تغيير محل عمله ان يطلب ملاحظات صاحب العمل السابق ، ولا يمكنه ان يلتحق بخدمة رب عمل جديد الا اذا أطلعه على هذا الدفتر · وقد استطاع العديد من أصحاب

---

(٥٨٥) راجع ما سبق ، ص ١٣٨ وما بعدها ·

(٥٨٦) راجع ما سبق ، ص ١٥٦ وما بعدها ·

(٥٨٧) راجع ما سبق ، ص ٢٩١ وما بعدها ·
وانظر كذلك :

A Piettre, op. cit., note, p. 93.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 86.
Amiaud, op. cit., note 580, p. 23.
Fohlen, op cit., note 2741, p. 47.
Dunham, op. cit., noee 273, p. 11.
Bouvier — Ajam, op. cit., note 456, p. 77.

(٥٨٨) وقد كان هذا الدفتر موجودا حتى قبل الثورة الفرنسية حيث أنشأ عام ١٧٤٦ ولكن الثورة الفرنسية قامت بالغاءه عام ١٧٩١ ، واعادته مرة أخرى عام ١٨٠٣ ·

G. Le franc, op. cit., note 362, p. 261.

الأعمال استغلال هذا الدفتر على نحو جعل العمال غير قادرين على ترك عملهم والالتحاق بعمل آخر . فقد لجأ العديد من أصحاب الأعمال الى اقراض عمالهم وهم يعلمون ان العامل لن تكون لديه القدرة على ترك العمل الا بعد سداد الديون ، لأن صاحب العمل لن يعطيه الدفتر ولن يبدى عليه ملاحظاته ، الا بعد السداد . لذلك أطلق البعض على هذا الدفتر أنه رمز « العبودية الصناعية » ، بينما وصفه مؤيديه بأن « فخر لكل عامل شريف » . عموما ، كان الدفتر نظاما لقى استهجانا شعبيا في الأوساط العمالية ، خاصة ، وان الدفتر كان يظل بحوزه رب العمل ، فلا يمكن للعامل ان يغادر العمل الا بعد الحصول عليه ، خاصة وان العامل الذى لا يكون له دفتر منتظم ، يمكن اعتباره « متسولا » وايقافه والقاء القبض عليه(٥٨٩) .

ولقد تأكد الطابع الفردى للقانون مرة أخرى ، في نطاق علاقات العمل ، عند اصدار تقنين نابليون ، فالقانون المدنى ، لم يعر علاقات العمل الاهتمام اللائق ، واكتفى بايراد مادتين ، هما المادة ١٨٧٠ والمادة ١٧٨١ . اما المادة الأولى فتؤكد على الطابع « غير المؤبد » لعقد العمل وتقرر أن بامكان كل ظروف من اطرافه انهاءه بمحض ارادته في أى وقت يشاء اما المادة الثانية (١٧٨١) فتقرر انه في حالة الخلاف الذى ينشأ بين العامل وصاحب العمل حول مقدار الأجر وادائه ، يؤخذ بقول صاحب العمل . وتبدو التفرقة في هذا النص واضحة ، حيث لا تفهم الحكمة التى من أجلها توضع كلمة رب العمل موضع ثقة ، وينظر الى قول العامل بالشك والريبة ، هذا ولم يتضمن القانون المدنى أى نص آخر سوى النصين المشار اليهما واللذين جاءا تحت اسم « اجارة الأشخاص » ، مما دعا البعض للقول أنه كان من الأفضل أن يتجاهل القانون المدنى العمال كلية ، بدلا من ان يتذكرهم بهذين النصين غير الكافيين واللذين يتجاهلان كلية حقوق العمال(٥٩٠) .

---

(٥٨٩) ونظرا لعدم شعبيته ، بدأ الدفتر يلقى اهمالا من جانب أصحاب الأعمال والعمال على السواء ، بحيث صار استخدامه عملا امرا نادرا ، واتضح انه في عام ١٨٧٦ كان عدد العمال الخاضعين لهذا النظام لا يتجاوز الفى عامل في منطقة بلغ عدد عمالها اربعين الف عامل .

وقد الغى العمل بهذا النظام قانون عام ١٨٩٠ .

Fohlen, op. cit., note 274, p. 48.

(٥٩٠) Amiaud, op. cit., note 580, p. 24.

Moraze, op. cit., note 347, pp. 101 et s.s,

(ب) انجلترا(٥٩١) :

وفي انجلترا ، لم يكن الوضع مختلفا ، لقد اعتمدت الرأسمالية أيضا على الأفكار الليبرالية ، ونقلتها الى نطاق علاقات العمل في محاولة لتأكيد سيطرة أصحاب الأعمال على مصائر العمال • ربما كان الاختلاف الوحيد بين انجلترا وفرنسا ان نظام الطوائف كان قائما في فرنسا حتي قيام الثورة الفرنسية ، بينما كان هذا النظام قد الغى في انجلترا منذ القرن السادس عشر • ولكن في انجلترا كذلك ، كان من الواضح ان النظم القديمة للعمل لم تكن كافية لمواجهة التطورات الجديدة •فالعديدة من هذه النظم كانت تجد مصدرا لها في لائحة العمال Statute of Artificers الصادرة عام ١٥٦٣ ، والتى كانت تنظم بوجه خاص استخدام العمال المتدرجين • وقد حاول العمال في اول الأمر التمسك بأحكام هذه اللائحة ، التى تحدد نسبة العمال المتدرجين بالنظر الى عدد العاملين في المنشأة ،

وذلك في محاولة للحد من آثار الثورة الصناعية ، واستخدام الأطفال باعداد كبيرة مما يهدد العمال في رزقهم ، ولكن أصحاب الأعمال رفضوا بشدة تطبيق أحكام هذه اللائحة القديمة ، وطالبوا بالغاء هذه الأحكلم التى «تحد من حريتهم» مؤكدين ان طبيعة العمل الصناعى لا تتطلب بالضرورة عمالا نشأوا في الصناعة منذ نعومة أظفارهم ، وانما يكفى للقيام بالعمل ــ خاصة في صناعة الغزل والنسيج ــ طفل يدرب لايام معدودة على القيام بالعمل • وهو ما يفسر لنا تزايد عدد الأطفال بالنسبة للعمال بشكل مضطرد(٥٩٢) ، ولذلك ، جاهد العمال بكل قواهم في بداية الثورة الصناعية للحفاظ على تلك الأحكام القديمة ولكن جهودهم ذهبت هباء ، لأن البرلمان الانجليزى أخذ بالفلسفة الليبرالية ، وعملا بمبدأ « دعه يعمل دعه يمر » رفض وضع أى قيود على حرية أصحاب الأعمال وقرر الغاء « لائحة العمل » واطلاق حرية اصحاب الأعمال في فرض ما يروه من شروط ووضع ما يحلو

---

(٥٩١) Fohlen, op. cit., note 274, p. 48.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 89.

(٥٩٢) راجع ما سبق ، ص ٢٩٢ وما بعدها •

لهم من تنظيم ، انطلاقا أيضا من نفس الأفكار الليبرالية وتمسكا بمبادىء الحرية الفردية[٥٩٣] .

وتأكيدا لهذه المعانى ، حرص المشرع الانجليزى ، كنظيره الفرنسي ، على تحريم التكتلات العمالية : ففى خلال السنين الأولى من القرن الثامن عشر صدرت عدة قوانين تحرم التجمعات العمالية المقصود منها العمل على رفع الأجور ، ولكن هذه القوانين لم تلق نصيبا من التطبيق . لكن مع التطور الصناعى ، وظهور المدن الكبرى ، باتت التكتلات العمالية من القوة بحيث تهدد مصالح الطبقة الرأسمالية . لذلك ، انتهز لبرلمان الانجليزى ، فرصة تقدم اتحاد أصحاب الأعمال في صناعة طواحين الهواء ، بشكوى ضد الاتحاد العمالى لهذه الصناعة ، فأصدر البرلمان الانجليزى قانون عام ١٧٩٩ حرم فيه كل التجمعات أو التكتلات العمالية ، وقد عدل هذا القانون في العام التالى (١٨٠٠) ، وبموجبه يعتبر تكوين أى اتحاد أو جمعية عمالية بقصد تعديل شروط العمل أو رفع الأجور ، جريمة يعاقب عليها قانونا . كما يشكل جريمة أيضا أى محاولة لاغراء العامل ، او ارغامه على الانضمام لمثل هذه الجمعيات[٥٩٤] ، كما يشكل نفس الجريمة أيضا حضور أى اجتماع لهذا الغرض أو جمع أى أموال لتكوين هذه الجمعيات . ويعاقب القانون على هذه الجرائم بثلاث شهور حبس أو بالأشغال الشاقة لمدة شهرين ، اما الأموال التى جمعت فتصادر ، نصفها لصالح الخزانة العامة ، والنصف الآخر لمن قام بالابلاغ عن الجمعية . ومثلما رأينا في فرنسا ، حظر المشرع الانجليزى أيضا جمعيات أصحاب الأعمال ، ولكن لا يخضع المخالفين لهذا الحظر من أصحاب الأعمال الا لعقوبة الغرامة (التافهة) دون عقوبة الحبس .

---

(٥٩٣) عموما ، فان التمسك باهداب تلك المبادىء ، من أجل اخضاع الطبقة العاملة لسيطرة أصحاب الأعمال يبدو جليا من اسم أول تنظيم وضعه المشرع الانجليزى لعلاقات العمل ، واطلق عليه « تنظيم علاقة السادة بالخدم Maître et serviteur » وبموجبه فان فسخ العقد من جانب العامل بارادته المنفردة كان يعرضه للسجن ، بينما لا يوقع على صاحب العمل الذى يفسخ العقد سوى عقوبة الغرامة .

(٥٩٤) Epsztein, op. cit., note 279, p. 90.
T.S. Ashton, op. cit., note 273, pp. 166 et s s.

البند الثالث ــ آثار اطلاق حرية العمل :

كانت هذه الآثار مؤسفة بالنسبة للعمال : ذلك ان الحرية المطلقة تبدو هدفا ساميا ، لو كان البشر على درجة عالية من الكمال ، ولكن الواقع غير ذلك ٠ ففى ظل نظام يقوم على الحرية الفردية المطلقة ، يميل الأقوى الى استخدام قدراته من أجل استغلال الأضعف ٠ وفي نطاق علاقات العمل ، نجد ان صاحب العمل أقوى من العامل من الناحية الاقتصادية ، لذلك يميل صاحب العمل الى استخدام الحرية الفردية واستغلال قدراته الاقتصادية ،من أجل الحصول على أكبر منفعة ممكنة من استغلال العامل ، وعلى أكبر قدر من العمل بأقل أجر ممكن ٠ وحتى لو تصورنا في البداية ، ان ذلك لن يكون الا مسلك بعض أصحاب الأعمال ، فسريعا ما يضطر الآخرين للأخذ بنفس السلوك تحت وطأة « المنافسة الحرة » ٠ لذلك ، فان اعلان مبدأ حرية العمل، وترك تنظيم العلاقة بين العامل وصاحب العمل لاراديتهما الفردية، ترتب عليه في الحقيقة ارغام العمال على قبول شروط عمل مجحفة ، كما سبق ان رايناـ(٥٩٥) ٠

وقد ساعد على تدهور موقف العمال، الحظر الذى فرضه المشرع على تجمعاتهم، قاصدا بذلك عزل « العامل » عن أقرانه ، حتى يواجه صاحب العمل بشكل منفرد ، فترجح كفه ميزان القوى لصالح الأول ، بماله من ثقل اقتصادى ٠ فالعمال كانوا محرومين من التجمع او التشاور او اتخاذ أى موقف موحد في مواجهة رب العمل ، بل ان مجرد تفكير العامل في ترك العمل والبحث عن آخر ، كان ــ في بعض الحالات ــ يمثل جريمة من وجهة نظر الحكومة والطبقة الرأسمالية ، ولعل أبلغ مثال على ذلك ، رد فعل السلطات وأصحاب الأعمال على الاضراب الذى شنه عمال الغزل في مدينة Lodève بفرنسا عام ١٨٤٥(٥٩٦) ٠ فقد قام أحد أصحاب المصانع هناك بادخال تعديلات على أسلوب الانتاج كان يتطلب عددا أطول من ساعات العمل ، ولكنه رفض زيادة أجور العمال بنسبة الزيادة في عدد ساعات العمل ، فاضطر العمال الى ترك مصنعه والبحث عن عمل آخر ٠ وقد جاء بتقرير النيابة في مدينة Montpellier أن ترك العمال لأعمالهم تم دون ان يسبب أى اضطراب

---

(٥٩٥) راجع ما سبق ، ص ٢٨٣ وما بعدها ٠

(٥٩٦) Epszteïn, op. cit., note 279, p. 88.

للأمن العام وبدون ان يكون نتيجة اتفاق مسبق بين هؤلاء العمال • فقد ترك العمال المصنع بطريقة تلقائية ، ولم يحدث وقت الترك أى اجتماع فيما بينهم أو مشاورة • ولكن على أثر ذلك ،قام أصحاب مصانع الغزل في المدينة (عدا واحد منهم فقط) بأغلاق مصانعهم في وجوه العمال ، خوفا من ان يقوم باقى العمال بمديد العون الى العمال الممتنعين عن العمل ،كما كان يتهمهم بذلك أصحاب الأعمال دون ان يتميكنوا من اثبات حصوله بالفعل • وهكذا وجد ما يقرب من ٤ آلاف عامل أنفسهم دون مورد ودون ذنب جنوه • ورغم ركون العمال الى ضبط النفس ومحاولة ايجاد حل سلمى للمشكلة ، الا ان أصحاب الأعمال دفعوا بالسلطة الى اللجوء الى استخدام القوة ، بل الى استخدام القوات المسلحة لقمع تجمعات العمال ، وعلى الرغم من أن « تكتل » أصحاب الأعمال كان واضحا ، ورغم رفضهم لأى مناقشة أو لقبول أى حل ، فان سلطات البوليس والقضاء لم يحاولا بأى شكل التدخل باجراء حاسم ومحاسبة أصحاب الأعمال ، بل انصبت تعليمات السلطات المركزية الى الادارات المختصة بالبلدة على ضرورة « محاسبة العمال حسابا عسيرا ومحاولة التدخل بطريقة ودية لدى أصحاب الأعمال(٥٩٧) » •

وبذلك ، أصبح العمال في طريق مسدود : فقد القى بهم الفكر الليبرالى فرادى في الساحة ليواجهوا الطبقة الرأسمالية الصاعدة ، وحرمهم القانون أيضا من كل محاولة لتجميع قواهم ، ليحولوا ما يشعر به كل منهم منفردا من ضعف ، الى قوة يضفيها عليهم تجمعهم ، وفرض المشرع عقوبات صارمة على كل من يحاول ان يقف عائقا امام « حرية العمل » كما تصورها مشرع الثورة البورجوازية ، وبذلك لم يبق امام العمال مخرجا الا اللجوء الى العمل السرى او استخدام العنف • وهو ما سنراه بعد قليل ، ولكن بعد ان نقف قليلا على الأفكار الاجتماعية والاشتراكية التى سادت في هذه الفترة ، وسمحت بالارتكان عليها فيما بعد للحد من مساوىء النظام الليبرالى « المطلق » •

المطلب الثانى

الأفكار الاشتراكية والاجتماعية

اذا كانت الثورة الفرنسية قد أكدت انتصار المذهب الفردى وكرست مبدأ « الملكية حق مطلق » فان الآثار الاجتماعية لهذه المبادىء لم يكن من الممكن أن تمر

(٥٩٧) Ibid., p. 89.

دون ان تولد تيارات فكرية مضادة ٠ لذلك ، شهدت أوربا في الفترة من ١٨١٥ الى ١٨٤٨ ازدهارا لا مثيل له في الايديولوجيات الاشتراكية ، فلقد أدرك الفلاسفة الاشتراكيين ان الوقت قد حان لتنظيم المجتمع على نحو يخلص الطبقات الضعيفة من أغلالها ٠ لقد اندلعت الثورة الصناعية وازدهر العالم الصناعى بفضل الأفكار الليبرالية ، ولكن تلك الطبقة الجديدة (البروليتاريا) لم ينمو لديها بعد الشعور بـ « الطبقية » ، فوجد المصلحين الاجتماعيين ان من واجبهم اعادة تنظيم هذا العالم الجديد ، على نحو يضمن تحرير هذه الطبقة من الناحية العملية ، وقد انصب نظرهم جميعا على « الملكية » باعتبارها الداء وراء كل المعاناه التى تحملتها الطبقة الضعيفة اقتصاديا ٠

فاذا كانت الليبرالية هى الدعامة الفكرية التى ارتكز عليها النظام الرأسمالى ، فان الاشتراكية هى الايديولوجية التى جاءت في أعقاب الثورة الصناعية لتحاول تحرير الطبقة العاملة من قيودها ٠ لذلك ، فمن السهل على المرء ان يتبين بوضوح العلاقة بين المذاهب الاشتراكية والمشاكل الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية :

فلقد ترتب على هذه المشاكل بالذات ، ميلاد فلسفة جديدة هى الفلسفة الاشتراكية التى كانت ترمى ـ بكافة اتجاهاتها ، الى معالجة المشاكل الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية ٠ لذلك كان من الطبيعى ان تنمو الصلات وتتزايد باضطراد بين الحركة العمالية والمذاهب الاشتراكية ٠

وسنحاول بايجاز يتناسب مع طبقة الدراسة ، ان نبين اولا ما هو مضمون تلك الايديولوجية الجديدة (البند الأول) ونستعرض بعد ذلك أهم مفكرى هذه المدرسة الاجتماعية (البند الثانى) ٠

البند الأول :

الأيديولوجية الاشتراكية : رد فعل للمساوىء الاجتماعية الناشئة عن الثورة الصناعية[٥٩٨] ٠

يبدو الارتباط واضحا بين الايديولوجية الاشتراكية وبين الثورة الصناعية ، اذا لاحظنا أن اهتمام المفكرين بهذه الثورة أنصب اساسا على اثنين من نتائجها :

أولا ، وبصفة اساسية ، النتائج الاجتماعية الوخيمة التى انعكست على الطبقة العاملة ، وقسوة الظروف المعيشية لهذه الطبقة ، مما دعا بعض هؤلاء المفكرين الى التساؤل عن جدوى مثل هذا النظام الاقتصادى اذا كان ثمن نجاحه هو التضحية بهذه الارواح البشرية ، لذلك ، انصب نقد هؤلاء المفكرين على فكرة الحافز الفردى والتنافس الحر والملكية الخاصة ، أى تلك العناصر التى يقوم عليها النظام الاقتصادى الليبرالى ٠

كذلك ، اهتم الفكر الاشتراكى ، من جهة ثانية ، بكثرة الأزمات التى كانت تصيب هذا النظام الاقتصادى الجديد ، وهذه الأزمات تعتبر ظاهرة اقتصادية أكثر منها اجتماعية ، فقد شهد القرن التاسع عشر ، وبصفة دورية أزمة كل عشر سنوات تقريبا ، تصيب النظام الرأسمالى ، فتوقف دوران عجلة الانتاج او تحد من سرعتها ، ويترتب عليها اغلاق المصانع وانتشار البطالة وتبديد الثروة ، ومن هنا جاء تساؤل آخر عن مدى « صلاحية النظام » نفسه ؟ وهل هو حقيقة ـ كما تدعى المدرسة الليبرالية ـ أفضل نظم الانتاج ، او ليس في الامكان استبداله بنظام آخر يمكن من تحاشي تلك الأزمات الدورية التى تسبب كل عشر سنوات تقريبا مشاكل طاحنة ؟؟

من هذه المقدمة يمكننا اذن ان نتفهم مضمون الفكر الاشتراكى ٠ فالفكر الاشتراكى على هذا النحو ، يعنى اعتراضا مزدوجا على النظام الرأسمالى : اما الأول فهو يتمثل في احتجاج أخلاقى ضد مساوىء النظام الاجتماعية ، واما الثانى فهو تفكير موضوعى ضد النظام وما ينتج عنه من أزمات اقتصادية ، تجعله يبدو غير منطقى ٠ وقد انصب اهتمام المفكرين الاشتراكيين في الاجابة على التساؤلات التى يطرحها هذين الاتجاهين ٠ ولكن في ، محاولتهم لحل تلك المشاكل أنصب نقد جميع المفكرين على « محور النظام الليبرالى » أى على دعوته لاطلاق العنان للحافز الفردى ٠لذلك ، يمكن تعريف الفكر الاشتراكى على انه التيار المضاد للايديولوجيةالفردية : فبدلا من اطلاق الحافز الفردى،وجعل الفرد هو «محور

---

(٥٩٨) René Rémond, op. cit., note 293, p. 132.
Felix Ponteil, op. cit., note 441, p. 262.
L. De Riedmatten, — le problème Social à travers l'histoire.
2oed. de l'observateur — Versailles 1957. pp. 225 et s.s.

الاهتمام » تدعو الفلسفة الاشتراكية الى تقييد الحرية الفردية بمقتضيات المصلحة العامة وباحتياجات الجماعة ، فتصبح المصلحة العامة هى محور الاهتمام . لذلك ، ينصب هجوم الفكر الاشتراكى على الفلسفة الفردية ، وبصفة خاصة ، على الأساس الذى تقوم عليه هذه الفلسفة ، ونعني به الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، وللادوات والآلات والمناجم والمحاجر والأراضي ، فهذه الملكية الفردية هى التى تسمح للمالك بالتسلط على الغير ، خاصة على طبقة العمال .

من هذا المنطلق ، يدعو الفكر الاشتراكى الى بناء نظام اجتماعى جديد ، ويركز هذا الفكر في بدايته ، على الجانب الاجتماعى ، ويبتعد عن النشاط السياسي، فالفكر الاشتراكى ، في بدايته على الأقل وحتى عام ١٨٤٨ كان يحارب كل الاتجاهات والأحزاب السياسية ، ويصب اهتمامه على الجانب الاجتماعى وحده ، فوفقا لمفهوم الكتاب الاشتراكيين ، لم يكن حل المشاكل الناجمة عن الثورة الصناعية متوقفا على شكل الدولة (ملكية أو جمهورية) أو على حلول الاقتراع العام محل الاقتراع المقيد ، فهذه المسائل كانت في نظرهم ثانوية ، وتبعد الأنظار عن المشكلة الرئيسية وهى المشكلة الاجتماعية وضرورة اعادة تنظيم المجتمع الانتاجى .

اذن ، فالمدارس الاشتراكية في بداية الأمر ، كانت تركز انتباهها على القضايا الاجتماعية ، وتبعد عن العمل السياسي ، ومن هنا كانت المواجهة بين المفكرين الاشتراكيين ورجال السياسة آنذاك ، فالمفكرين الاشتراكيين كانوا ينظرون الى الساسة ، تقدميين كانوا ام رجعيين نفس النظرة ، كان مبررهم في ذلك تساؤلهم الدائب حول ما يفيد العامل من تغيير النظام السياسي ، طالما ان أصل المشكلة تكمن في نظام الملكية ذاته . لذلك ، امتنع المفكرين الاشتراكيين عن المشاركة في أى عمل سياسي ، وليس ادل على ذلك من موقف برودان Proudhon في الفترة من ١٨٤٨ الى ١٨٥٢ وسلبيته الكاملة تجاه أى عمل سياسي(٥٩٩) .

ولكن الوضع تبدل اعتبارا من عام ١٨٥٠ ، بحيث يمكن القول أن تاريخ الاشتراكية منذ ذلك الوقت ، يتلخص في القول ، ان الفكر الاشتراكى ولد في

---

(٥٩٩) R. Remond, op. cit., Note 293, p. 135.

صورة مدرسة اجتماعية تسعى للاصلاح وتحول شيئا فشيئا الى قوة سياسية تحاول الاستيلاء على السلطة أو ممارستها ٠

هذا التحول من النطاق « الاجتماعى » الى النطاق « السياسي » مرتبط بالتطور الداخلى للفكر الاشتراكى ٠ ذلك ان هناك العديد من المدارس ، والأفكار ، والمفكرين والفلاسفة الاشتراكيين ، بحيث لا يمكن القول ان هناك مدرسة اشتراكية على غرار المدرسة الليبرالية ، بل هناك عشرات من المدارس الاشتراكية ، ولعل هذا التعدد والثراء الفكرى هو أهم ما يميز الايديولوجية الاشتراكية خلال القرن التاسع عشر وعلى الأخص في نصفه الثانى ٠

والملاحظ ، ان هذه المدارس تتفق جميعا فيما بينها على ضرورة احلال الملكية العامة لوسائل الانتاج محل الملكية الفردية ، ولكنها فيما بينها تختلف حول الاساليب الواجب اتباعها لتحقيق هذه النتيجة ، وينبع هذا الاختلاف من اختلاف الفلسفة العامة التى تتبعها هذه المدارس ، كما سنرى بعد قليل : فبعض هؤلاء المفكرين يدعو للتفاؤل ، بينما يميل البعض الآخر للتشاؤم ، والبعض يركز اهتمامه على القطاع الزراعى،وبينما يتمسك البعض الآخر بالجوانب الروحية ويدعو للتمسك بالتقاليد المسيحية، ويأخذ البعض بالنظرة المادية٠ ولكن شيئا فشيئا، تبدأ أحدى هذه المدارس في تدعيم مركزها وتتقدم المدارس الأخرى وتصبح أكثر المدارس الاشتراكية تأثيرا في الحركة العمالية ، وهى المدرسة الماركسية(٦٠٠) ٠ فقد نشأ صراع بين المدارس الاشتراكية المختلفة من جهة ، والمدرسة الماركسية من جهة أخرى ، سواء على الصعيد العالمى من خلال الدولية الاشتراكية الاولى (لندن ١٨٦٤) او الثانية والثالثة (ما بين ١٨٦٤ و ١٨٧٠ في كل من سويسرا وبلجيكا)، أو على الصعيد الوطنى الداخلى حيث بدأ الصراع واضحا في كل بلد على حده بين الاتجاه الماركسي والمدارس الاشتراكية الأخرى ٠

ففى فرنسا ، مثلا ،كان برودان هو المفكر المناوىء للماركسية ، وقد كان لبرودان تأثيرا كبيرا على الحركة العمالية ، خاصة على مؤسسي الدولية الاشتراكية

---

(٦٠٠) L. De Riedmaeten, op. cit., note 598, p. 135.
Felix Ponteil, op. cit., note 441, p. 397.

الأولى ، وأغلب من أشتركوا في كميونة باريس عام ١٨٧١ بينما كان لاسال Lassale مؤسس الحزب الاشتراكي الألماني عام ١٨٦٤ هو أشد اعداء ماركس في المانيا . وقد استمر الصراع بين اتباع لاسال واتباع ماركس حتى عام ١٨٧٥ حين انتصر هؤلاء الآخرين وبسطوا نفوذهم في صفوف الحركة العمالية في ألمانيا .

وهكذا ، واعتبارا من الأعوام ١٨٧٠ - ١٨٨٠ ، انتصر الفكر الماركسي باعتباره الفلسفة المتبعة من الحركات العمالية . واعتبارا من هذا التاريخ أيضا ، بدأت الحركات الاجتماعية الاشتراكية ، تتحول الى أحزاب سياسية(٦٠١) .

وسنحاول ، في الصفحات التالية ، استعراض أهم المفكرين الاشتراكيين ومن خلالهم التعرف على أهم المدارس المشتراكية .

البند الثاني - أهم المفكرين والمدارس الاشتراكية :

يتميز الفكر الاشتراكي كما قلنا ، بتعدد مدارسه ، فهناك العديد من الاسماء التي يمكن ذكرها في هذا المجال(٦٠٢) ، ولكننا سنقتصر هنا على أهم المفكرين الذين اسهموا بأفكارهم في حل المشكلة الاجتماعية . فتناول على التوالي كل من سان سيمون ، فورييه ، لويس بلان ، برودان ، ثم نختتم هذا العرض ، بدراسة للنظرية الماركسية .

---

(٦٠١) وقد شهدت اوروبا بالذات تقدما ملحوظا للاحزاب الاشتراكية : ففي فرنسا استطاع الحزب الاشتراكي ان يحوز في البرلمان ١٠٤ معقدا من ٦٠٠ في انتخابات ١٩١٤ .

وفي المانيا ، حصل الحزب الاشتراكي الديمقراطي على أكبر عدد من المقاعد البرلمانية (١١٠) عام ١٩١٢ وعلى تأييد ٤ ملايين ناخب . وفي انجلترا تكون حزب اشتراكي بناء على دعوة النقابات ، وهو حزب العمل ، الذي دخل الانتخابات لاول مرة عام ١٩٠٦ .

R. Rémond, op. cit., note 293, P. 139.

(٦٠٢) فهناك على سبيل المثال لا الحصر ، وبالاضافة للاسماء المذكورة في المتن .

Cabet الذي كان ينادي بنظام شيوعي يتم فيه الغاء الملكية الخاصة ، وبنوع من المدينة الفاضلة على غرار مدينة ارسطو ، يتم فيها اصدار القوانين المعبرة عن الارادة الشعبية « بواسطة برلمان موسع يضم الفي عضو » .

وهناك أيضا Floran Tristan ، الذي تمت تاثير أفكار سان سيمون وفورييه وروبرت أوين دعا الى انشاء الاتحاد الدولي للعمال .

وهناك أيضا Lamenais, Eugène Sue, George Sand.

وبوشيه Buchez صاحب المدرسة الاشتراكية المسيحية .

انظر في هذا الموضوع بالتفصيل :

Felix Ponteil, op. cit., note 441, pp. 275 et s.s.

(أ) سان سيمون ١٧٦٠ - ١٨٢٥ Saint - Cimon (٦٠٣) :

لعل من الخطأ ، ان نتكلم عن سان سيمون في معرض الحديث عن الأفكار الاشتراكية ، ذلك ان الرجل نفسه لم يكن « اشتراكيا » بالمعنى الصحيح ، انما كان اتباعه هم أصحاب الفكر اشتراكى ، لذلك ، يبدو من الأصوب أن نتكم عن المدرسة « السان سيمونية le Saint - Simonisme » .

(١) المفكر :

ولكن المدرسة ، لا تعدو ان تكون بلورة لأفكار الرجل المفكر . ونقطة البداية لديه ، ان الاقتصاد يعلوا على السياسة . لذلك فبعد ان ظل فترة منشغلا بالأفكار السياسية ، ونوع الدولة وشكل الحكومة ، تحول سان سيمون حوالى عام ١٨١٧ الى الاهتمام أساسا بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، فوضع خطة كاملة لاعادة تنظيم المجتمع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . كان سان سيمون يؤمن ايمانا شديدا بضرورة التطور وبحتمية نجاح الثورة الصناعية ، ولكن المجتمع الصناعى لابد وان يعاد تنظيمه بشكل يحرر الناس من الضغوط(٦٠٤) : فالمجتمع الصناعى الجديد بحاجة الى فلسفة اخلاقية جديدة ، والى مقومات روحية جديدة . ونظرا لأن الفكر المسيحى لم يستطع مقاومة التيارات الفلسفية الجديدة ، فان سان سيمون يبحث عن مقومات اخلاقية تتفق وتطور العلوم . فالمجتمع الجديد في نظره ينبغى ان يرتكز على العمل العلمى والادبى والتجارى والصناعى والزراعى . على ان الغلبة في هذا المجتمع ستكون بالطبع للعمل

---

(٦٠٣) J. Bron, op. cit., Note 287, pp. et s.s.
L. De Riedmatten, op. cie., note 598, pp. 130 ee s.s.
Branciad, op. cit., note 302, pp. 67 et 68.
F. Ponteil, op. cit., note 441, pp. 259 et s.s.

(٦٠٤) وقد ضمن سان سيمون افكاره في العديد من المؤلفات اهمها :
الصناعة (١٨١٧) l'industrie ، السياسية (١٨١٩) (la politique والمنظم (١٨٢٠) l'organisateur ، والنظام الصناعى ١٨٢١ Du Syteme industriel

وقد ظهر فى هذه الكتابات تاثره الواضح ببعض مفكرى عصره وعلى الاخص مؤلفات J. B. Say, B. Constant ، وتبلورت افكاره بشكل نهائى في مؤلفه موسوعة الاقتصاد السياسي Traite d'econonie politique

Felix Ponteil, op. cit., Note 441, p. 259.

الصناعى ، وينبغى ان تقوم الأمة على العمل • وفي ظل هذا المجتمع ، ينبغى القضاء على فكرة الطبقات التى سادت منذ بداية التاريخ ، فالمجتمع الجديد ينبغى ان يرتبط كل شخص فيه بعمل معين بحيث يمكن تقسيم المجتمع الى فئتين متميزتين : العاملين والعاطلين • ولكن فئة العاملين ، تنقسم الى ثلاث أنواع : المنتجين والحكام والكتاب ، ويدخل في تعريف المنتجين كل من العامل وصاحب العمل ، حيث تقوم العلاقة بينهما وفقا لديانة سان سيمون الجديدة القائمة على الانتاج •

لذلك ، ينظر سـان سيمون لبعض فئات المجتمع على انها « عاطلة » ويدخل فيها بالذات الارستقراطية القديمة ورجال الدين وملاك الأراضي الذين لا يعمـلون والعسكريين • ويهاجم هـذه الفئة بشدة ويتهمها بأنها تسعى الى اقامة طبقة اقطاعية من نوع جديد •

غير ان سان سيمون ، في تنظيمه الجديد ، مازال ينظر للطبقة العاملة نظرة شك في مقدرتها على تحقيق مطالبها ، فالجمـاهير في رأيه غير قادرة على تحقيق مطالبها، ولذلك ينبغى ان تتحقق هـذه المصالح على أيدى الغير حتى رغم أنف هذه الطبقـة الضعيفة • ويرى سـان سيمون ان هذا « الغير » هم اصحاب الأعمال ، فعن طريق مساهمتهم وسعيهم لاصلاح أحوال العمال يمكن تحقيق السعادة لهؤلاء الأخيرين • لذلك يدعو سـان سيمون الى دولة ملكية برلمانية تقـوم على العمل ، بحيث يصبح الملك ، في آن واحد ، واحدا من أصحاب الأعمال ولكنه أيضا رئيسا لكل العمال كرمز على زوال الطبقات ، ووحدة الأمة تحت شعار العمـل ، وحتى يتمكن من تكتيل الجهـود من أجل اقامة نظام تسود الأخوة والانسانية ، نظام يكفل التعليم والعمل المثمر للفقـراء • لذلك ، كان شعار سـان سيمون :

« كل شيء للجمـاهير ولا شيء بواسـطة الجمـاهير »

"Tout pour le peuple, Rien par le peuple". ، هـذا المبدأ الذى سيرتكز اليه أصحاب الأعمال حتى نهاية القرن التاسع عشر •

لذلك ، تسـاءل الكثير من الـكتاب وبحق ، هل كان سان سيمـون بالفعل

ثوريا ، أو ختى اشتراكيا(٦٠٥) ؟ عموما ، ايا كانت الاجابة ، فمما لاشك فيه أن أفكار سان سيمون من بعده ، كان لها أثر بعيد على تنظيم المجتمع الصناعى وعلى معالجة المساوىء الاجتماعية لهذا المجتمع ٠

(٢) المدرسة السان سيمونية :

عندما مات سان سيمون عام ١٨٢٥ كانت أفكاره غير معروفة الا من نفر قليل من اتباعه(٦٠٦) ، الذين نجحوا في اعادة ترتيب هذه الأفكار وصياغتها بحيث جعلوا منها منهجا متكاملا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد ٠

ويقوم منهج هذه المدرسة على عدة أفكار أهمها :

أولا :

ان الانسان قد وجد على الأرض ليكون منتجا وليستفيد من استغلال الثروات الطبيعية ٠

ويذهب أنصار سان سيمون ، نفس مذهب رائدهم ، من حيث أنه ينتقد المجتمع القائم ، ولكنهم يوضحون بجلاء ما هو مضمون الاصلاح الذى يبتغونه ، فبالنسبة لهم ، ينصب الاصلاح على الاهتمام باستغلال الثروات الطبيعية الموجودة على الأرض استثمارها بشكل يؤدى الى سعادة الانسانية ٠ هذا الاستغلال ، ينبغى ان يشارك فيه كل الناس ، ويكون ذلك بالعمل ، وعلى الأخص العمل الصناعى ، ينبغى اذن على كل فرد ان يساهم في سعادة المجتمع بالعمل ، فالعمل والانتاج هما الدعامتين اللتين يرتكز عليهما الانسان للسيطرة على الثروات الموجودة في العالم باسره٠وبهذا التعاون الاجتماعى بين الناس، في الانتاج واستغلال الثروات،

---

(٦٠٥) Felix Ponteil, op. cit., note 441, p. 261.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 131.

وأهم هؤلاء من المفكرين ومن رجال الأعمال :
Enfantin, Bazard, Lesseps. Preire, d'Eichtal.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 131.
et Ponteil, op. cit., note 441, p. 261.

(٦٠٦) Ponteil, op. cit., note 441, p. 261.

يمكن اقامة نظام اجتماعى كفيل بالقضاء على تعارض المصالح وصراع الطبقات ٠ فبدلا من الصراع والحرب الدائرة بين الطبقات والأمم ، يمكن ان يحل محلها نظام اجتماعى قائم على التعاون والمحبة ، يرتكز على العمل ، ويقوم على معتقدات أخلاقية وروحية جديدة ٠

ثانيا :

لكن العائق امام هذا التطور هو الملكية الفردية لوسائل الانتاج ٠ لذلك ، ينتقد أنصار سان سيمون هذه الملكية ، من الناحية الاجتماعية ومن وجهة نظر العدالة ٠ فهذه الملكية تسمح لصاحبها بتحقيق الكسب على « حساب عمل الآخرين(٦٠٧) » ، خاصة اذا كان ملاك وسائل الانتاج لا يفعلون أكثر من استغلال هذه الوسائل لتحقيق الارباح ، دون القيام بأى جهد أو عمل انتاجى : فمالك الأرض الذى يحصل على ريعها دون عناء ، وصاحب رأس المال الذى يحصل على الفائدة دون مجهود ، هم من الفئات « العاطلة » التى تستغل عمل الآخرين ٠ ولكن الارباح التى يحققها صاحب المصنع تعد في نظرهم كسبا مشروعا ، لأنه حصل عليها مقابل عمله ومجهوده في تنظيم وادارة المصنع ٠

اما الملكية الفردية المستغلة ، فهى مرفوضة من المدرسة السان سيمونيه ، لانها تكرس مبدأ « استغلال الانسان بواسطة آخر » وتتعارض مع مبدأ العدالة الذى يجب ان يسود في المجتمع الصناعى ، حيث ينبغى ان يكون كل كسب يحققه الانسان نتيجة عمله ومجهوده ، خاصة وان الملكية الفردية لوسائل الانتاج تبدو أحيانا ضد المنطق والأخلاق : فوسائل الانتاج ، وعلى الأصح ملكية هذه الوسائل ، تنتقل من شخص الى آخر بواسطة الصدفة، أى بواسطة الميلاد والارث، بغض النظر عن مقدرة الوارث على استغلال هذه الأموال بكفاءة ، لذلك تطالب المدرسة السان سيمونية بالغاء الارث ، لان بقاءه ، يشكل عقبة امام وضع هذه الأموال بين أيدى أقدر الناس على ادارتها واستغلالها ٠

ثالثا :

لذلك ، يجب ان تكون وسائل الانتاج مملوكة للمجتمع ٠

ونظرا لأن الملكية الفردية لوسائل الانتاج، تتعارض مع مقتضيات النظام الاجتماعى

---

(٦٠٧) Branciard, op. cit., note 302, p. 67.

الجديد ، فانهم يطالبون بان تصبح وسائل الانتاج والاراضي ورؤوس الأموال ملكا للمجتمع ككل (لم تكن فكرة التأميم قد اتضحت بعد) واعتبار هذه الأموال « ثروة اجتماعية» تتم ادارتها بصورة جماعية منظمة ، بواسطة بنك اجتماعى ، يقوم عن طريق فروعه المنتشرة والمتعددة ، بتوزيع الأموال اللازمة للاستثمار ، ويعمل على الربط والتنسيق بين الأنشطة الاقتصادية للأمة ·

رابعـــا :

ازالة العوائق امام حرية التجارة والصناعة ·

ولكن حتى يتحقق هذا المجتمع الجديد ، ويتمكن الانســان من استغلال خيرات الأرض على أفضل وجه ، وتتمكن كل أمة من التخصص في انتاج ما تتميز به نسبيا على الأمم الأخرى ، ينبغى ان تزال كل العوائق ، خاصة الجمــركية ، امام تداول السلع ·

ولكن ذلك لا يكفى ، بل ينبغى الاستفادة من التطـور الصنـاعى ، لتقريب المسافات بين الاقاليم في الدولة الواحدة ، وبين الأمم المتجاورة · لذلك ، عمل اتباع ســان سيمون على المساهمة في انشاء السكك الحديدية ، ودعوا منذ ١٨٣٠ الى انشاء سد على نهر النيل ، وقال Enfantin عن قناة بنما وقناة السويس انهما من صنع « التقدم الصناعى » ·

خامســا :

ضرورة الاهتمام بالتعليم ·

لأن رفع مستوى العمال الأخلاقى والذهنى ، يجب ان يتم بواسطة المدرسة ، لذلك ينبغى الاهتمــام بالتعليم وتوفير الامكانيات الكفيلة برفع مستواه ·

هذا التعليم ينبغى ان يكون اخلاقيا ، علميا ، وصناعيا في آن واحد ، حتى يتحقق قدر من الانسجــام والتناسق بين المجتمع والمدرسة ، فالمجتمع اذا لم يكن متناسقا ، ستكون هناك فجوة كبيرة بين ما تلقنه المدرسة وما يعلمه المجتمــع من دروس · ولكن المجتمع الجديد ، سيساعد المدرسة على تلقين الأجيال دروس النظام الاجتماعى الجديد وسوف تكون هذه الدروس متوافقة مع المبادىء الســائدة في الحيــاة العملية ·

تلك هى المبادىء التى تقوم عليها المدرسة السان سيمونيه ، وقد استطاعت هذه المدرسة دون شك ان تلعب دورا هاما في تنظيم المجتمع الانتاجى ، خاصة خلال الامبراطورية الثانية في فرنسا ، حيث تبوأ العديد من اتباعها ، مراكز قيادية ، فعلى الرغم من هجر بعض مفكريها لها اثر اختلاطها بالأفكار المسيحية ، نجح اتباعها في تطبيق بعض المبادىء التى نادوا بها خاصة فيما يتعلق بتنظيم العمل والقضاء على القيود التى تعوق حرية الصناعة ، وتأكيد مكانة المنتجين في المجتمع الجديد خاصة فئة المهندسين ورجال البنوك ٠

(ب) شارل فورييه ١٧٧٢ ـ ١٨٣٧

يركز فورييه في علاجه للمشكلة الاجتماعية ، على فكرة عدالة توزيع العمل والانتاج ، ولا يركز فورييه على العمل الصناعى (كما كان يفعل سان سيمون) ، بل يهتم بالعمل الزراعى ، ويحلم بمجتمع يعيش الناس فيه أحرارا ومتساوون بفضل ما تنتجه الأرض(٦٠٨) ٠

غير أن فورييه كان يعيبه أنه يطلق لخياله العنان ، ويغرق في الدخول في التفصيلات ورسم الصور الشاعرية لكل ما يعرض له ، محاولا بذلك تصور أفضل الظروف الفكرية والمادية والمعنوية اللازمة لتغيير الطبيعة البشرية وتهذيبها والوصول بها الى درجة خلقية يمكن معها حل المشكلة الاجتماعية والوصول الى تحقيق السعادة التى ارادها الله للانسان على الأرض ٠

وقد قاده خياله الى أن ينقد بشدة كل النظم الاجتماعية ، التى تسبب في نظره شقاء الانسان ، وعلى الأخص التجارة والمضاربة : فالمجتمع المثالى في نظر

---

(٦٠٨) Branciard, op. cit., note 302, p. 69.
F. Ponteil, op. cit., note 441, p. 262.
J. Bron, op. cit., note 287, p. 86.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 123.
F. Boudot : la Coopération en Frame.
les editions ouvrières. Paris 1956, pp. 19 et s.s.

وأنظر باللغة العربية :

أحمد حسن البرعى : الحركة التعاونية ٠٠٠ المرجع السابق الاشارة اليه هامش ٤٤٧ ، ص ٥٥ وما بعدها ٠

فورييه ، هو مجتمع زراعى ، لا يعرف التجار ولا التجارة ، بل ولا يعرف رجال الصناعة الا بالحد الأدنى اللازم لاشباع الحاجات الأساسية للجماعة وقد صاغ فورييه أفكاره هذه في كتاب له اصدره عام ١٨٢٢ تحت عنوان « لائحة الجمعية الاستهلاكية Traité de l'association domestique agricole الزراعية » . وقد اورد فيه ، مع اغراق في التفاصيل ، وصف لتنظيم جماعى معقد أطلق عليه اسم Phalanstère ، وهو عبارة عن مستعمرة تعاونية جماعية يبلغ عدد المشتركين فيها حوالى ١٦٠٠ شخص (أى ٤٠٠ عائلة تقريبا) وتقوم هذه الجمعية على قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ٤٠٠ هكتار ، تتوسطها المساكن والمبنى الاجتماعي الذى يضم صالة المطعم المشتركة والمكتبة وقاعات الدراسة ، وينشأ عليها مبانى المزرعة والمؤسسات الصناعية اللازمة لخدمة الجماعة .

وتعد هذه المستعمرة كما أطلق عليها شارل جيد « منظمة تعاونية » فلا يقف دورها عند حد تقديم السلع الاستهلاكية التى اشتريت بصفة جماعية للأعضاء كما تفعل الجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، بل ان الأعضاء يقومون باستهلاكها معا .

كذلك فان هذه الجماعة لاتشترك فقط في الاستهلاك بل هى في نفس الوقت جمعية انتاجية تقوم بانتاج ما يلزم أعضاءها وبخاصة في ميدان الانتاج الزراعى .

وقد تعرض فورييه في تنظيمه التعاونى لدراسة بعض النظم الاجتماعية التى تؤدى الى حدة المشكلة الاجتماعية وبين كيفية حلها بالطريق التعاونى .

ففيما يتعلق بالملكية ، قرر فورييه أن المستعمرة التعاونية لا تقوم على الأساس الشيوعى ، نظرا لأن الملكية الفردية مباحة والفوارق في الثروات قائمة ، حقيقة أن الحياة في المستعمرة ستكون جماعية ولكن مع وجود تفاوت في مستوى المعيشة ، غير أن هذه الحياة الجماعية ستحقق للمستهلك أكبر قسط من وسائل الترفيه كالتدفئة والاضاءة وغيرها بأقل التكاليف .

وفيما يتعلق بالعمل في المزرعة التعاونية الاستهلاكية ، نادى فورييه بفكرة العمل الجذاب "Le travail attrayant" والذى يقوم على تنظيم العمل بصورة تستبعد نهائيا الارهاق والملل ، وذلك بأن تنقل أماكن العمل من المدن الى الحقول حيث المناظر الخلابة ، وأن تتصف أماكن العمل بالأناقة والنظافة ، وأن يؤدى العمل في مجموعات متجانسة وأن يختفى العمل الأجير "le travail salarié"

ليحل محله العمل الشريك travail associé بحيث يـكون العامل مالكا لأدوات الانتـاج ٠

واقترح فورييه توزيع الناتج في هذا التعليم الاقتصادى الجماعى على أساس النسب الآتية :

٥/١٢ للعمل اليدوى

٤/١٢ لرأس المال

٣/١٢ للمهارة ، أى العمل الذهنى الموضوع في خدمة الانتاج ٠

ويكون لكل عضو أن يساهم في أحد هذه الأقسام الثلاثة أو في بعضها أو فيها جميعا وفقا لاستعداده وظروفه ، وهكذا لن يكون هناك وجود لنظام العمال الأجراء ، اذ يكافأ العامل المشترك عن طريق الحصول على حصة في الفائض ٠

وبهذا التنظيم الذى أراده فورييه ، يـكون الشخص نفسه عاملا وصاحب رأس مال ومستهلك في آن واحد ، وبالتالى يختفى تعارض المصالح الذى كان يقوم مع المشكلة الاجتماعية اذا تعددت هذه الشخصيات ، ولكنها (أى الشخصيـات الثلاث) ستندمج في عالم فورييه وبالتالى تختفى مصالحها المتعارضة ٠

ولا شك أن الأسس التى نادى بها فورييه (مع استبعاد بعض الاغراق في التفاصيل والمبالغات الخيالية) تحوى مجموعة من الأفكار الخصبة كفكرة العمـل الجذاب ، والتضامن بين أفراد الجماعة التعاونية وفـكرة توجيه الأرباح لتحقيق الخدمات الاجتماعية ٠ كل هذه الأفكار لها ولا شك أهميتها وخاصة للقضاء على مساوىء العمل الأجير ، والمضاربات المالية والتجارية التى تعد جميعا الأسبـاب الرئيسية للمشكلة الاجتماعية ٠

غير أن أفكار فورييه هذه لم يكتب لها النجـاح من الناحية العملية[٦٠٩] ٠ ولكن ذلك لا يقلل من أهمية المبادىء التعاونية التى أرساها :

فمن جهة ، تعتبر قواعد التوزيع التى تقوم عليها الجمعيات التعاونية للانتاج

---

(٦٠٩) حاول بعض اتباع فـورييه تحقيق أفـكاره في الحيـاة العملية ، فانشيء في الفترة ما بين ١٧٤١ و ١٨٥٤ بناء على دعاية قام بها امريكيان من اتباعه هما Channing, Brisbane ما لا يقل عن ٢٤ مستعمرة وفقا لتعاليم فورييه ، ولكنها جميعا باءت بالفشل لاسباب مختلفة ٠

في الوقت الحاضر ، مستمدة من أفكار فورييه ، وخاصة من حيث تحول العمل الأجير الى عمل شريك .

كذلك كان لأفكار فورييه أثرها في اقامة مصنع لأجهزة التدفئة انشأه أندرييه جودان André Godin (١٨١٧ - ١٨٨٨) بناحية جيز Guise بفرنسا عام ١٨٥٩ ، ثم حوله الى جمعية تعاونية انتاجية ، والحق به مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم Familistère وتعتبر أحد المعالم التعاونية التى يفر اليها الزوار من كافة البلاد .

(ج) لويس بلان (١٨١٢ - ١٨٨٢)(٦١٠) Souis Blanc

كان بلان رجل سياسة ومصلحا اجتماعيا في آن واحد . فلقد اشترك في الثورة الفرنسية (١٨٤٨) ، وتتسم أفكاره بالواقعية مما جعل لها تأثيرا في صفوف العمال، لدرجة يعزو معها الكتاب نجاح الجمعيات التعاونية للعمال الى الأفكار التى نادى بها بلان .

ولقد ضمن لويس بلان آراءه في كتيب شهير ظهر في عام ١٨٤٠ تحت عنوان :

« تنظيم العمل l'organisation du travail » والذى تناول فيه بوضوح أهم مشاكل الطبقة العاملة وبخاصة ظاهرة التنافس الرأسمالى وما تبعها من مساوىء اجتماعية واجحاف بالطبقات الضعيفة ، ورأى بلان أن حل هذه المشكلة لا يتم الا في تنظيم العمل عن طريق التجمع Association أو بمعنى آخر ، عن طريق التعاون .

ولقد كان وضوح الرؤية لدى بلان ، ودقة تخطيطه سببا في نجاح كتيبة المذكور فأعيد طبعه مرات عديدة وقرأه عدد لا يحصي من القراء .

---

(٦١٠) Branciard, op. cit., note 302, p. 91.
Bron, op. cit., note 287, p. 90.
F. Ponteil, op. cit., note 441, p. 268.

وباللغة العربية :

أحمد حسن البرعى ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤٤٧ ص ٦٠

(١) نقد التنافس الرأسمالى :

يرى لويس بلان أن التنافس الرأسمالى « سبب لشقاء الطبقات الشعبية » ، ولكنهفي نفس الوقت وسيلة يستخدمها افراد الطبقة الرأسمالية لتدمير بعضهم البعض ٠

حقا ان التنافس ، يبدو في أول الأمر ، وكأنه أمر طيب الأثر ، خاصة بما يؤدى اليه من تخفيض الأسعار ، ولكن هذا الأثر « الطيب » مؤقت ، فما ان ينجح البعض في تدمير الآخرين ، حتى تعود الأسعار للارتفاع نتيجة لسيطرة من انتصروا في معركةالتنافس واحتكارهم للسوق ٠

وهكذا يرى لويس بلان في المنافسة ، حرب بين فريقين من الطبقة البورجوازية ، تؤدى في بداية الأمر الى تخفيض الأسعار ، حتى يتمكن أحد الفريقين من القضاء على الآخر ، فيفرض المنتصر قانونه على الطبقات الشعبية الضعيفة ٠

بل ، ان التنافس الرأسمالى ، يعتبر في نظر بلان ، سببا للحرب ليس فقط على الصعيد الوطنى ، بل وأيضا على الصعيد الدولى ٠

(٢) الحل : الورشة الاجتماعية l'Atelier Social

لذلك ، يرى بلان ان الحل يكمن في انشاء ورش اجتماعية يتحد فيها العمال اللذين ينتمون الى مهنة واحدة ويقومون بالانتاج على أساس من التضامن والديمقراطية ٠

ولقد كان بلان أكثر واقعية من أوين وفورييه : فمن جهة لم ينادى باقامة مجتمعات تقوم على أساس من الاكتفاء الذاتى ، ولكنه ، اذ قرر عدم امكان الانفصال عن المجتمع ، نادى بانشاء جمعيات تعاونية للانتاج تمارس نشاطها في وسط المجتمع القائم ٠

ومن جهة أخرى ، أدرك بلان ضعف الطبقة العمالية وقلة أموالها ، لذلك لم ينادى كسابقية بفكرة الاعتماد الكامل على النفس ، بل أنه تقديرا لظروف الطبقة العمالية ، لم يمانع في الالتجاء للدولة لتقوم بتقديم المعونات المادية وتتولى الاشراف على الجمعية في بدايتها حتى يتسنى لهذه الأخيرة تثبيت أقدامها ، فيزول بذلك تدخل الدولة الذى يجب (في نظر بلان) أن يتسم بطابع مؤقت ٠

واقترح بلان توزيع الأرباح التى تحققها الورش الاجتماعية ، بعد استقطاع

حصة للدولة لرد رؤوس الأموال المقترضة منها ، الى ثلاث حصص .

الأولى : حصة للعمــال يتم بها تحسين أجورهم •

والثانية : لتدعيم صندوق للتضامن الاجتماعى لمعاونة المرضي والعاجزين من أعضاء الجمعية •

والثالثة : يتم بها تكوين رأس مال غير قابل للتجزئة أو التصــفية لتدعيم الورش الاجتماعية ومدها بالآلات والأدوات ومد رقعة نشاطها بصورة تكفل تفوقها على الصناعات الخاصة •

ولا شك أن أفكار بلان كان لها الفضل الكبير في نشأة الجمعيات التعــاونية للانتاج وتطورها سواء في داخل فرنسا أم خارجها •

(٤) برودان ١٨٠٩ – ١٨٦٤ Proudhon (٦١١) :

يصعب على المرء ، أن يبرز أفكار برودان في معنى واحد • ذلك ان كتاباته المتعددة(٦١٢) وما حوته من أفكار تناولت كل جوانب الحيــاة في المجتمع وما تثيره من مشاكل كل اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية وثقافية في آن واحد •

---

(٦١١) Branciard, op. cit., note 302, p. 93.
Bron, op. cit., note 287, p. 165.
Ponteil, op. cit., note 441, p. 273.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 133.
P. Silvestre, op. cit., note 491, p. 11.

(٦١٢) وأهمهــا :

١ – اعترافات ثائر — les confessions d'un révolutionnaire

٢ – التصور العام للثورة في القرن التاسع عشر — l'ideé générale de la rèvolution au XIX - siécle

٣ – الحرب والسلام — la guerre et la paix

٤ – العدالة في الثورة — la justice dans la dévolution

٥ – القوة السياسية للطبقة العمالية — la capacité politique desclasses orurierés

– المتناقضات الاقتصادية — la système des contradictions économiques

– ماهى الملكية ؟ — qu'est ce que la propriètè ?

غير ان المرء ، يمكنه ، من تتبع برودان ان يبرز أهم تلك الأفكار والمواقف التي اتخذها خاصة موقفه من العمل والعدالة والملكية والدولة ٠

(١) العمل الانساني ـ أسمى المعاني :

يعتبر العمل الانساني في نظر برودان ، اسمى معاني الحياة البشرية ، وفيه يكمن المعنى الحقيقى للحرية ٠ لأن العمل وحده هو القادر على اثبات ذاتية الانسان ، وهو المصدر الوحيد لتكوين الحقوق على الأشياء ٠ بل ان قيمة الأشياء والمنتجات تستمد من العمل الانسانى المبذول فيها ، لأن العمل هو العنصر الغالب المشترك في كل مراحل الانتاج ٠ لذلك ، فان برودان يحتقر كل ملكية لا يكون مصدرها العمل ، ولكنه يسمح بالملكية التى تأتى نتيجة لاداء العمل وبذل المجهود ٠

ولكن العمل ، لكى يكون منتجا ، لا بد وان يقسم ، ولكن تقسيم العمل وتطور النظام « الآلى » يقضيان على العامل من الناحية المعنوية(٦١٣) ، لذلك فان برودان يهاجم الآلة ، ويرى انها وان استطاعت التخفيف على العامل من ناحية المجهود ، فانها تحل محل العامل شيئا فشيئا وتطحنه ، ولكنها لن تتوقف عند العامل ، بل ستتجاوزه الى صاحب العمل : فنتيجة الآلية هى تخفيض الأجور ، والبطالة ، وزيادة الانتاج ، مع قلة الاستهلاك ، ومن ثم الأزمات الاقتصادية الطاحنة التى يسببها هذا النظام الاقتصادى الجديد ٠ فالآلة في نظر برودان ، تصادر حرية العامل ، وتعود به الى عصر « العبيد » ٠

٢ ـ العدالة :

من هنا ، ينادى برودان بمجتمع أكثر عدالة ، بل ان فكرة العدالة هى القاسم الأعظم المشترك لكل كتاباته ، والعدالة في نظره تعنى ادراك المجتمع بأن كل فرد مساو في القيمة للآخرين ، مما يقتضي قيام العلاقات الاجتماعية بين الأفراد جميعا على أساس من الاحترام المتبادل « للقيمة وللكرامة الانسانية » ، فكرامة أى فرد من أفراد المجتمع متساوية مع كرامة كل فرد آخر ، بغض النظر من أى اعتبار غير الذات الانسانية ٠

فالعلاقة التى تربط بين الناس هى علاقة « أفقية » وليست علاقة « رأسية » ،

---

(٦١٣) راجع ما سبق ص ٢٥١ وما بعدها ٠

فالجميع متساوون ، والعلاقة الرأسمالية أو الرئاسية مرفوضة من جانب برودان ، ومن هنا يجيء رفضه لفكرة الملكية المستغلة ، بل ولفكرة الدولة ذاتها لان العلاقة فيها تقوم بين حكام (أعلى) ومحكومين (أدنى) • مع ملاحظة ، أن السلطة الوحيدة التى يقرها برودان هى السلطة الأبوية في نطاق نظام الأسرة « المقدس » • وما عدا هذا التنظيم الاجتماعى « الأسمى » في نظره فان العلاقة بين الناس هى علاقة تقوم على التعاون المتبادل ولابد فيها من استبعاد أى تنظيم « رئاسي » •

٣ ـ الملكية :

واستطرادا لأفكاره ، فان برودان لا ينكر الملكية ، ولكنه لا يقر منها الا الملكية المستمدة من العمل ، فهى وحدها الملكية المشروعة التى في نظره ينبغى ان تحظى باحترام المجتمع وحمايته • اما الملكية المستغلة ، وعلى الأخص تلك التى تعود على صاحبها بدخل دون ان يبذل مجهودا ، فانها تتنافى مع أبسط القواعد الأخلاقية ، بل ومع طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة على التعاون والعطاء المتبادل بين الناس •

لذلك ، فمن حق كل فرد ان يتملك « ثمار عمله » ، ومن هنا فان برودان ، بقدر ما يحارب الملكية الفردية المستغلة ، يحارب أيضا الشيوعية وعلى الأخص فكرة الملكية الجماعية ، لأن هذه الصورة الأخيرة ، لا تعدو ان تكون بدورها ، سرقة لمجهود الفرد وحرمانا له من ثمرات عمله ، تماما كالملكية الفردية المستغلة ، التى يقول عنها برودان انها السرقة بعينها La propriété c'est le vol [٦١٤] • فالعمل في نظر برودان ـ كما قلنا ـ ينبغى أن يكون المصدر الوحيد لتوزيع الثروة بين الناس ، لذلك فهو لا يعترف الا بالملكية التى تقوم على العمل ، ويدعو الى ملكية صغيرة للفلاح ، غير قابله للتجزئة ولا للحجز عليها تحفظ للفلاح استقلاله •

---

(٦١٤) ولعل تقديس برودان للأسرة وكراهيته لنظام الملكية الجماعية ، يفسر لنا كرهه الشديد وعداوته لماركس وللنظام الشيوعى •

راجع في ذلك :

F. Ponteil, op. cit., note 447, p. 409, No. 202.

٤ ـ موقف برودان من الدولة :

ونظرا لأن العلاقات بين الناس ، ستقوم في تصور برودان على المعونة المتبادلة، والمساواة ، وما يقتضيه ذلك من استبعاد كل سلطة رئاسية ، فان برودان يقف من الدولة ، بل ومن كل تنظيم سياسي موقفا معاديا(٦١٥) ، لذلك لابد من القضاء على الدولة ، بكل تنظيماتها السياسية والادارية لأن الدولة هى أصل « المشكلة الاجتماعية » ، فهى حسب قوله « تشل ، وتسحق وتفرض » لذلك يجب القضاء عليها لصالح النظام الاجتماعى القائم على التعاون المتبادل ، حتى يحتفظ كل فرد بحريته كاملة ٠٠(٦١٦) » وهكذا كان برودان يدعو الى مجتمع يعود بنا الى المجتمعات الأولى ، مجتمع تقوم فيه العلاقات الاجتماعية على أساس من « الفطرة الطبيعية » l'Anarchisme (٦١٧) ولذلك ، نجد برودان ، يسعى الى تحرير الأفراد من « السلطة » ، وعلى الأخص سلطة الدولة ، معتمدا في ذلك على « عقد اجتماعى » من نوع جديد ، عقد بموجبه يرتبط الفرد بالجماعة عاطفيا ، ويتعهد بأن يبذل قصارى جهده في العمل المنتج ، وهذا العقد يكون الانضمام اليه بكامل اختيار الأفراد ويوقع عليه كافة الأفراد ، ولا يظهر فيه أى سلطة عليا فالكل سواسية ٠ وبموجب هذا العقد يتعايش أفراد الجماعة بشكل لاتغليب فيه للمصلحة الفردية على الجماعية ، ولا تغليب للمصلحة الجماعية على الفردية (ولعل هذا هو ما أدى الى اطلاق اسم l'anarchisme على مذهب برودان) وفي داخل هذه الجماعة ، يتم حل المشاكل بواسطة التراضي بين الأطراف بدلا من سلطة الدولة ، بحيث تكون العدالة نتيجة تفهم الأفراد بدلا من كونها مفروضة عليهم ، ويقوم في هذا المجتمع نوع من توازى القوى بين الأفراد بدلا من توازى السلطات ، مجتمع لا محل فيه للطبقات أو للتفرقة بين الناس بسبب « الملكية غير المشروعة » ٠

---

(٦١٥) فنجد مثلا ، حين كان عضوا بالبرلمان في فترة من فترات حياته ، يصوت ضد الدستور « لأنه دستور » ، كما أوضح ذلك في الجريدة التى كان يرأس تحريرها « الشعب le peuple »
Branciard, op. cit., note 302, p. 95.

(٦١٦) L. De Riedmatten, op. cit., noee 598, p. 133.

(٦١٧) والواقع ان الترجمة الحرفية لكلمة Anarchisme هى الفوضوية ، ولكننا آثرنا عدم الأخذ بالمعنى الحرفي للكلمة ، لانه لا يؤدى للمعنى الموضوعى المقصود ، كما وضحنا فى المتن ٠

تلك هى أهم أفكار برودان وتصوره للمجتمع والحلول التى قدمها من أجل حل القضية الاجتماعية ، غير أن دراسة أفكار برودان تقتضي التنبيه الى ما كانت تتسم به كتاباته من غموض ، بل واحيانا من تناقض ، لدرجة قال معها أحد الكتاب ، « ان قراءة برودان تعنى معايشته في مشكلة المتناقضات التى وقع فيها(٦١٨) » .

(هـ) كارل ماركس (١٩١٨-١٨٨٣) Karl Marx

بوصولنا الى ماركس ، نصل لأقوى النظريات الاشتراكية ، من حيث ما لاقته من انتشار وما أدت اليه من تأثير على الحركات العمالية ابان الثورة الصناعية . ان الماركسية أى أفكار ماركس ورفيقه فردريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) تعتبر أهم الأفكار التى عرفها التيار الاشتراكى في محاولته لحل اشكلة الاجتماعية ، فهى ربما لا تضع حلولا من داخل النظام انما تسعى الى الغاء هذا النظام الاقتصادى الجديد ككل ، وحلول نظام آخر ، لا طبقات فيه ، محل النظام الرأسمالى(٦١٩) .

ونقطة البداية في النظرية الماركسية هى « المادية التاريخية » ومؤداها أن العلاقات المادية كانت دائما هى التى تفرض النظام القانونى والنظام السياسي . ان الرأسمالية يشترى قوة العامل ولكن بسعر أقل من قيمتها الحقيقية ، ويحتفظ الرأسمالى لنفسه بفائض القيمة ، ويحاول أن يجعل من هذا الفائض « أكبر قدر ممكن » حتى يحقق لنفسه أعلى كسب ممكن(٦٢٠) . ولكن الطبقة الرأسمالية ، تتحول شيئا فشيئا الى « او ليجارشيه » يقل عددها على الدوام بفعل « التركيز

---

(٦١٨) Branciard, op. cit., note 302, p. 93.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 133.

(٦١٩) تعتبر النظرية الماركسية على درجة من الأهمية بحيث يصعب دراستها فى مؤلف واحد ، ولعل المئات من المؤلفات ، بل الآلاف التى كتبت فيها لم توقف دراسة هذه النظرية ولا توالى التحليلات المتعلقة بها . لذلك ، فنحن فى المتن لا نفعل اكثر من استعراض الحلول التى اتت بها هذه النظرية للمشكلة الاجتماعية التى ولدها النظام الرأسمالى ، وفي حدود ما يتعلق بايضاح هذه المشكلة .

(٦٢٠) L. De Riedmatten, op. cit., note 59, p. 135.
F. Ponteil, op. cit., note 441, p. 397.

الاقتصـــادى » مما يؤدى بها الى أن تلفظ من بين صفوفها من لا يقدر على المنافســة لتلقى به في صفوف البروليتاريا ، ولكنها أى الطبقة الرأسمالية تستمر في استغلال الطبقة العاملة التى يتزايد عددها باستمرار كما يشتد البؤس عليها بفعل التركز الاقتصادى والبطالة والأزمات التى يسببها النظام الرأسمالى • ولكن هذه الطبقة المستغلة ينمو لديها الشعور الطبقى ، وتشعر ان بامكانها استغلال قوتها بواسطة التنظيم ، ويؤدى الظلم الاجتماعى بها لا محالة الى الثورة • وهكذا ، يقرر كارل ماركس ان النظام الرأسمالى نفسه يحمل بذور فنائه ، نظرا لكونه نظاما يغالى في استغلال الطبقة الأضعف اقتصاديا الأكثر عددا • وكانت النظرية الماركسية تقرر ان هذه الثورة ستقع حتما وأولا في البلاد المتقدمة صناعيا ، وتمتد منها للبلاد الأخرى ، بفعل التضامن بين أفراد هذه الطبقة على الصعيد العالمى ، ومن هنا جاءت فكرة ماركس في انشاء الدولية العمالية l'internationale ouvrière والتى يقوم على أساس أن انتماء العمال في العالم أجمع هو أولا لطبقتهم قبل أن يكون لوطنهم •

ولكن ، قبل أن تقع هذه الثورة « الحتمية » ، ويتم القضاء نهائيا على الطبقات والدولة البورجوازية ، لابد من فترة انتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الشيوعى ، تظل فيه الدولة قائمة ، ويكون الحكم فيها للطبقة صاحبة الأكثرية العددية ، أى للعمال ، وهو ما يطلق عليه « ديكتاثورية البروليتاريا » •

اما بالنسبة لوسائل الانتاج ، فانها ستصبح ملكا للجماعة ، وبالنسبة لتوزيع الناتج ، ففى بادىء الأمر سيحصل كل فرد على حاجاته الأساسية على الأقل ، ولكن ما يحصل عليه الفرد في النهاية يكون ثمرة عمله أيضا ، بمعنى أنه في بداية التحول سيكون هناك توزيع غير متكافىء بين الأفراد ، وهو ما يعبر عنه في النظم الاشتراكية بالقول « لكل بحسب عمله ، لكل بحسب حاجاته » • ومن هنا يتضح أن الماركسية تقصر الملكية الجماعية على وسائل الانتاج ، ولكنها لا تمانع في تملك الأفراد للمنتجات الاستهلاكية •

ولكن هذه الأفكار ، التى قال بها ماركس تعرضت لكثير من النقد ، كما أثبت التاريخ عدم صحتها في كثير من جزئياتها : فالتفسير المادى للتاريخ لم يثبت صحته حتى الآن : فالأفكار والتطور الانسانى والاعتبارات الروحية لعبوا جميعا دورا لا يمكن انكاره في تطور الانسانية • كذلك فان فكرة التضامن بين عمال العالم ،

هدمت في كل مرة اشتعلت فيها الحروب ، واتضح ان العمال ـ على عكس ماطالبهم به ماركس ـ كانوا أكثر انتماء للوطن منه للطبقة . بل ان الصراع بين الأجناس البشرية ـ كما نرى الآن ـ أكثر حده من صراع الطبقات .

اما فيما يتعلق بالتركز الاقتصادى ، فانه بالطبع لم يصل الى الدرجة التى توقعها كارل ماركس ، بل مازالت المشروعات المتوسطة والصغيرة في البلاد الصناعية تباشر عملها حتى الآن الى جانب المشروعات الكبرى الاقتصادية .

اما القول بأن الطبقة البورجوازية يقل عددها بفعل التنافس ، فأن مستوى الحياة في البلاد الصناعية المتقدمة ، يجعل الخطر ليس على الطبقة البورجوازية ، وانما على الطبقة العاملة التى يميل أفرادها الى محاكاه الطبقة البورجوازية في أسلوب حياتها(٦٢١) .

وأخيرا ، فان أهم ما يمكن ان يوجه من نقد للنظرية الماركسية ، أنه على عكس ما توقع ماركس تماما ، لم تقع الثورة في أى من البلاد الصناعية المتقدمة ، بل على العكس وقعت الثورة في بلد (الاتحاد السوفيتى) كان وقت وقوعها (١٩١٧) بلد زراعى أكثر منه بلد صناعى . حيث كان عدد العمال في الصناعة لا يجاوز ٥ ٪ من مجموع العمال ، اما الـ ٩٥ ٪ الباقين فكانوا من الفلاحين . ونفس الملاحظة تصدق بالنسبة للصين الشعبية عام ١٩٤٩ .

المطلب الثالث

ردود الفعل لدى العمال : بداية العمل الجماعى

ان أهم ما يلفت النظر ، في زمن تطورت فيه الحياة الاقتصادية تطورا هائلا بفضل الاختراعات والابتكارات ، وتطورت كذلك الأفكار الانسانية ، نقول ان أهم ما يلفت النظر هو رد الفعل سواء لدى الدولة أو لدى الطبقة البورجوازية ، حيث تميز رد الفعل لدى هؤلاء بعدم الاكتراث بالمشكلة الاجتماعية والنظر اليها على اعتبارها مسألة طبيعية لا ينبغى الالتفات اليها ، ولا يعتبر التصدى لحلها أو التخفيف من ويلاتها ، أمر انسانى وضرورة اجتماعية ، انما يعتبر النظر اليها مجرد عمل من أعمال « الخير » .

---

(٦٢١) راجع ما سبق ص ١٩٢ وهامش ٢٩٠ .

تلك ، كانت نظرة الدولة والغالبية العظمى من رجال الأعمال »[٦٢٢] بحيث عبر عن ذلك أحد الكتاب بقوله « ان الاقطاع الجديد ، الارستقراطية الصناعية ، يعتبر أكثر قسوة وغلاظة من اقطاع العصور الوسطى » .

قطعا ، لا يمكن تفسير هذا السلوك غير الانسانى ، على اعتبار أنه نتاج النظريات الليبرالية فحسب ، بل ان يد الاتهام ينبغى أن توجه أولا ناحية النفس البشرية والأنانية الفردية ، وكذلك ، في المقام الثانى ، طبيعة النظام الرأسمالى نفسه[٦٢٣] . ففى هذا النظام ، الذى يخضع لقوانين صارمة من التنافس الحر والذى يرفع فيه شعار « الوقت من ذهب time is money » يوضع الرأسمالى في سباق يقتضي منه ان يتجاهل كل اعتبار انسانى وادبى في سبيل تحقيق النجاح المادى ، فينمو لديه نوع من بلاده الحس يتعارض مع ابداء أى عاطفة نحو الآخرين، ولذلك ، لا يتحرج رجل الأعمال ان يعلن صراحة ، ان اشتغاله بالصناعة كان من أجل « تكوين ثروة » وليس في سبيل القيام بـ « عمل خيرى »[٦٢٤] .

ولكن ، يبدو من غير المعقول ، أن يعلن الرأسمالى صراحة أنه « غير مكترث » بمصير العمال ، خاصة وان المشكلة الاجتماعية واضحة للعيان ، لذلك ، يحاول الرأسمالى أن يتنصل من المسؤولية وان يلقيها على أكتاف الآخرين ، ولم لا يحملها للعمال أنفسهم[٦٢٥] : فالحالة الصحية التى ترددوا اليها ، وظروف المعيشة التى عانوا منها ، لا ترجع الى شروط العمل ، بقدر ما هى المحصلة الطبيعية لعادات العمال وسلوكهم الشخصي ؛ وبهذا التبرير « المفتعل » تحاول الطبقة الرأسمالية

---

(٦٢٢) نقول الغالبية العظمى لأن هناك بعض رجال الأعمال الذين تنبهوا ومنذ وقت مبكر لمساوىء النظام الاجتماعية فحاولوا ان يصدوا لها بالحل (راجع ما سبق ص ٣٠٥) وجاءت هذه الحلول بمبادرات فردية ، بل ان بعضها جاء بصورة جماعية ، حين أخذ بعض رجال الأعمال فى انجلترا يبرمون فيما بينهم اتفاقات لضمان حد أدنى من الأجور .

راجع فى هذا الموضوع :

Epszteïn, op. cit., note 279, p. 77.

Riedmatten, op. cit., note 598, p. 182.

(٦٢٣) Dunham, op. cit., note 273, p. 174.

(٦٢٤) H. Seé op. cit., note 275, p. 5.

(٦٢٥)

أن تنفى عن نفسها أى التزام سبيل حل المشكلة الاجتماعية . اما الدولة ، فانها امام هذا التبرير ، ونزولا على مقتضيات النظريات الليبرالية ، امتنعت أيضا عن التدخل ، حتى لايؤدى تدخلها الى افساد الحياة الاقتصادية ، حسب وجهة نظر مفكرى النظام الجديد .

وبذلك ، لم يعد امام العمال ، كما سبق القول ، الا الاعتماد على أنفسهم ، وهو ما يفسر لنا ردود الفعل لدى الطبقة العاملة : فأمام دولة لا تكترث بشأنهم ، وقانون يحرم عليهم حق التنظيم ، وينظر الى كل منهم نظرة شك فيطالبهم بحمل « دفتر العمل » حتى يراقب تحركاتهم ويتحكم في مصدر رزقهم ، امام كل ذلك ، لم يكن هناك بد من « مخالفة القانون » وتنظيم الصفوف من أجل اكتساب « قوة جماعية » تمكن تلك الطبقة الضعيفة على الصعيد الفردى من تحقيق مطالبها باستخدام قوتها الجماعية .

لذلك ، سواء في انجلترا أو في فرنسا ، تتميز بداية العمل الجماعى في صفوف الطبقة العمالية ، اما بالتجمع في نطاق جمعيات يسمح بها القانون ولكن لتحقيق غرض مخالف للغرض المعلن ، او بتشكيل جمعيات سرية من أجل تحقيق مطالب يحرم القانون التجمع من أجلها ، أى أنه في الحالتين يقع التحايل على القانون ، لأنه يتعدى على الحقوق الطبيعية للطبقة العمالية ويحرمها من حقها في التجمع وتنظيم صفوفها للدفاع عن مصالحها(٦٢٦) . ونستعرض ردود فعل الطبقة العاملة أولا في فرنسا (البند الأول) ، نظرا لأن هذا البلد - كما سبق لنا القول - كان مركز اشعاع الفكر الفردى من جهة ، ولما تميزت به حركته العمالية من صبغة ثورية من جهة أخرى ، ثم نلقى الضوء ، في بند ثان ، على ردود الفعل العمالية في انجلترا ، باعتبار ان هذه الردود كانت بمثابة المقدمة الضرورية لميلاد قانون العمل في البلدان الصناعية .

...

---

(٦٢٦) ونورد فيما يلى البيان الصادر عن جمعية المعونة المتبادلة بمدينة Lyon الفرنسية عام ١٨٢٤ بشأن القانون الذى يحرم اى تجمع للعمال : « ان جمعية المعونة المتبادلة بمدينة ليون ، التى كانت قد آلت على نفسها الابتعاد بمحض ارادتها عن دائرة العمل السياسي ، واعتقدت انها بذلك قد تجنبت اى احتكاك برجال السلطة ، ولكن صدور القانون الذى يحرم الجمعيات اثبت لها انها قد اخطأت . فهذا القانون الرهيب الذى ينتهك اكثر الحقوق قداسة ، يرغم اعضاء الجمعية على قطع الروابط التى تربط فيما بينهم .

البند الأول ـ ردود الفعل العمالية في فرنسا :

تتميز الحركة العمالية في فرنسا بطابعها الثورى[٦٢٧] ، لذلك ، فان تحريم القانون للتجمعات العمالية ، لم يمنع العمال في فرنسا ، من ممارسة العمل السماعى ، سواء في نطاق جمعيات قائمة ومعروفة حتى قبل الثورة الصناعية ، أو في شكل مظاهرات واضرابات تميزت بالعنف .

(أ) صور الجمعيات العمالية في فرنسا في ظل تحريم النقابات العمالية[٦٢٨] :

نظرا لتحريم القانون لكل تجمعات عمالية من شأنها التأثير على علاقات العمل الفردية وعلى مبدأ « حرية العمل » كما تصورته البورجوازية ، لجأ العمال لاستخدام بعض الجمعيات السابقة على الثورة الصناعية ، كاطار لتجمعهم . ولعل أهم صور تلك الجمعيات هى المعروفة باسم le Compagnonnage وهى جمعيات كانت قائمة في ظل النظام الصناعى السابق على استخدام الآلة ، ويمكن اعتبارها جمعيات حرفية كانت تشرف على تلقين أفرادها أصول المهنة ، وتسعى الى ايجاد عمل لهم ، وتلعب في نفس الوقت دور جمعيات المعونة المتبادلة ، فهى تقدم المعونة للمرضى من أعضاء الجمعية أو للمعوزين منهم الذين تلم بهم ضائقة أو لا يجدون

ولكن نظرا لان الحق في المجتمع واقامة الجمعيات هو حق طبيعى لكل الناس ، وهو مصدر لكل تقدم ، ومظهر من مظاهر المدنية ، وليس بأى حال من الأحوال نتيجة القوانين البشرية ، ونظرا لان « الجمعيات العمالية » تعتبر ضرورة ملحة من ضرورات العصر وهى أمر حيوى بالنسبة للعمال ، وان اى تحريم لها يعتبر تجديدا لهذه الطبقة من كل اسلحتها في مواجهة من يستغلون افرادها ، نظرا لكل ذلك فان اعضاء الجمعية يحتجون وبشدة على القوانين التى تحرم الجمعيات ، ويعتبرونها كانها لم تكن ، ولن يرضخوا لها وسيستمرون في عقد اجتماعاتهم مستندين في ذلك الى حقهم الطبيعى ، وسوف يقاومون، بكل حماس يتصف به الرجل الحر، كل المحاولات المحمومة لحرمانهم من هذا الحق الطبيعى» .
Silvestre, op. cit., note 491, p. 8

(٦٢٧) راجع ما سبق ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٦٢٨) Felix Ponteil, op. cit., note 441, p. 254.
Dunham, op. cit., note 273, p. 13.
G. Dupeux, op. cit., note 299, p. 147.
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 185.
Branciard, op. cit., note 302, pp. 59 — 63.

عملا ، ولكن هذه الجمعيات كانت تتناسب مع نظام الطوائف المهنيـة ، السـابق على الثورة الصناعية ، لأنها كانت شائعة على الأخص في المهن السابقة على قيام المصنع الحديث ، علاوة على انها كانت ـ في غالب الأمر ـ تقتصر على الصبيـة المتدرجين ، وكان فيما بينها تنافس أدى ـ مع قيام الثورة الصناعية ـ الى عجز هذه الجمعيات عن ان تلعب أى دور حقيقى فى الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة(٦٢٩) .

لذلك ، نجد ان التجمعات العمالية ، كانت في أغلبها تتم داخل جمعيات المعونة المتبادلة les Sociétés de secours mutuel ، فقد كانت هذه الجمعيات غير خاضعة للتحريم الذى املاه قانون لاشبيلية . ولكنها كانت تتطلب لانشائها اذن الادارة ، ولا يمكنها عقد اجتماعاتها الا بحضور ورئاسة احد ممثلى السلطات العامة، ولا يجوز أن يتجاوز عدد أعضائها مائة عضو(٦٣٠) . وحددت أهداف هذه الجمعيات بانشاء صندوق يقوم على اشتراكات الأعضاء ولا يجوز الانفاق منه الا لمعونة الشـيوخ والمرضي ومصابى العمل من أعضاء الجمعية . وقد ازداد عدد هذه الجمعيات بشكل ملحوظ في فرنسا اعتبارا من ١٧٩١ ، وتزايد نشاطها بشكل ملحوظ خاصة خلال « ملكية يوليو » في حكم لويس ـ فيليب : فمن ١٣٢ جمعية في باريس عام ١٨٢٣ بلغ عدد جمعيات المعـونة المتبـادلة عام ١٨٤٠ أكثر من مائتىْ جمعيـة في باريس وحدها ، و ٨٢ في ليون تضم أكثر من ثلاثة آلاف عضـو ، و ٣٠ في روبيه تضـم حوالى ١٣٠٠ عضو(٦٣١) .

وأهم ما يلفت النظر في هذه الجمعيات ، أنها كانت تقوم على أساس «مهنى» بحيث تضم العاملين في مهنة واحدة ، او غالبا ، في مصنع واحد ، وكانت هذه الظاهرة ملحوظة على الأخص في مدينة ليون .

لذلك ، كان من الطبيعي ان تستخدم هذه الجمعيات « ذات الطابع الانسانى » لاخفـاء جمعيـات سرية ، اطلق عليهـا اسم « جمعيـات المقـاومة Sociétés de Résistence(٦٣٢) التى تعتبر بداية العمـل الجمـاعى من أجل الدفاع عن

---

(٦٢٩) J. Bron, op. cit., note, p. 96.

(٦٣٠) Dupeux, op. cit., note 299, p. 148.

(٦٣١) L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 186.

(٦٣٢) Dunham, op. cit., note p. 13.

مصالح الطبقة العاملة ، هذه الجمعيات لم يكن الهدف منها معاونة المرضي والشيوخ فحسب ، بل ومعاونة العمال حال قيامهم باضراب وتعرضهم للحرمان من الأجر ٠ وقد بدأت هذه الجمعيات تأخذ طابعا مستقلا قاصرة عدد أعضائها على عشرين عضوا ، حتى تتحايل على المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التى كانت تجرم كل جمعية يزيد عددها عن عشرين عضوا ، اذا لم تحصل هذه الجمعية على اذن الادارة أو اذا هى خرجت عن الأهداف المحددة لها ٠

وقد لجأت جمعيات المقاومة الى العمل من داخل جمعيات المعونة المتبادلة ، في أول الأمر ، بحيث كان اعضاء « الجمعية السرية » يكونون فيما بينهم صندوق آخر (غير صندوق الجمعية الأم) ويخصصونه لاعانة المضربين من العمال٠ وحتى ، حين بدأت جمعيات المقاومة تنفصل عن جمعيات المعونة المتبادلة ، فانها ظلت تأخذ من الخارج طابع هذه الأخيرة ، ولكن دون ان تقبل أكثر من عشرين عضوا ، حتى لا تضطر لطلب اذن الادارة ٠

ولكن نظرا لقلة عدد أعضائها ، فان الصلات بين رؤساء هذه الجمعيات كانت دائمة ، لتبادل وجهات النظر والتشاور والتنسيق بين أنشطها في سبيل تحقيق مطالب العمال ، بحيث كانت هذه الجمعيات فى الحقيقة واحدة كبيرة ، قسمت الى عدد كبير من الخلايا ، بقصد التحايل على القانون ٠

ولعل أهم هذه الجمعيات كانت «جمعية واجب المعونة المتبادلة la Société de devoir mutuel التى انشأت في مدينة ليون عام ١٨٢٨ والتى لعبت الدور الأول في احداث ليون عام ١٨٣١ ، كما قام الى جانبها عدة جمعيات أخرى فى مرسيليا ، وروان ، وباريس ٠٠ ، وقد نشطت هذه الجمعيات خاصة فى ظل ملكية يوليو ، حين شعر العمال ان الملك لويس ـ فيليب ابقى على تحريم التنظيمات العمالية وان النظام الجديد بدوره قد أغمض عينيه عن مشاكل العمال ٠ لذلك ، قادت هذه الجمعيات حركة الاضرابات العمالية ، التى بلغت أوجها عام ١٨٤٨ ٠

(ب) الاضرابات العمالية فى فرنسا :

اعتبارا من ١٨٢٥ وحتى ثورة ١٨٤٨ ، عاشت فرنسا فترة من الاضطراب الاجتماعى قبل ان عرفه بلد آخر ٠ لقد شارك العمال فى ثورة ١٨٣٠ وساعدوا على تثبيت أقدام النظام السياسي الجديد ، ظنا منهم ان رجال هذا النظام سيكافئون

الطبقة العاملة على ما قدمته اليهم من معونة . حقا ، ان نزول العمال الى الشارع ومشاركتهم فى المظاهرات ، رغم ما أسفرت عنه هذه الاحداث من نتائج سياسية ، كان فى الأصل لأسباب اقتصادية ، أهمها ، ان الأزمة التى اصابت النظام الاقتصادى الفرنسي ، انعكس أثرها على العمال الذين انتشرت البطالة بين صفوفهم بشكل خطير .

لذلك ، ما ان استتب الأمر للملكية يوليو فى أعقاب ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ، حتى سارع العمال ، يطالبون النظام الجديد بالعمل على حل مشكلة البطالة ، ووضع حد ادنى للأجور ، وتخفيض عدد ساعات العمل وتحديدها .

ولكن ، بدلا من ان تلقى مطالبهم آذانا صاغية ، تعرضت حركتهم الى مقاومة شديدة من جانب السلطة ، تمثلت في استخدام القوات المسلحة (الجيش) ضد أى مظاهرات عمالية ، والقبض على زعماء الحركة وايداعهم السجون ، ومن هنا بدأت المواجهة،وانتشرت الاضرابات العمالية والاضطرابات في كل أنحاء فرنسا(٦٣٣) .

ولعل من أهم هذه الاضرابات ، اضراب عمال الحرير فى ليون الذى أطلق عليه « ثورة ليون l'insurrection Lyonnaise » عام ١٨٣١ ، في اعقاب رفض بعض أصحاب الأعمال رفع أجور العمال وفقا للاتفاق الذى كان قد ابرم بين أصحاب الأعمال والعمال باشراف محافظ ليون (فى نوفمبر ١٨٣١) . وقد قوبل رفض أصحاب الأعمال بمظاهرات صاخبة من جانب العمال تحت شعار !

« الحياة مع العمل أو الموت مع النضال "Vivre en travaillant ou mourir en combattant" وتحت هذا الشعار انقلب الحى الذى يقطنه عمال الحرير في ليون الى مظاهرة دائمة ، سرعان ما انضم اليها عمال الصناعات الأخرى ، حتى وقعت المواجهة بين السلطات والعمال المتظاهرين (يوم ٢٢ نوفمبر) ، فقد خرج الجيش ليقضي على المظاهرة وأطلق الرصاص على المتظاهرين ،الذى نجح البعض منهم فى اختطاف أسلحة بعض الجنود وأطلقوا ، بدورهم ، الرصاص على رجال القوات المسلحة الذين كان يقف الى جانبهم بعض أصحاب الأعمال باسلحتهم النارية الخاصة . ولكن النتائج كانت دامية : أكثر من ٦٠٠ ضحية (فقد بلغ عدد

---

(٦٣٣) Branciard, op. it., note 302, pp. 63 et s.s.

العمال المتظاهرين حوالى ٣٠ ألف عامل) ، وترتب على ذلك رد فعل عنيف من جانب الحكومة ، تمثل في دخول الجيش مدينة Lyon ، والغاء اتفاق الأجور الذى كان عدم تطبيقه سببا فى الاحداث ، وطرد من المدينة أكثر من عشرة آلاف عامل (نظرا لخطورتهم) ، واحيل ٩ متهمين لمحكمة الجنايات ولكن المحكمة برأتهم

واعتبارا من هذا التاريخ ، عاشت فرنسا فى جو من الاضطراب الاجتماعى المستمر ، او كما يقال فى « مظاهرة دائمة » ، أهم مراحلها ، اضراب عمال الخياطة بباريس عام ١٨٣٣ ، بقصد المطالبة بتحديد عدد ساعات العمل اليومية (عشر ساعات فقط) ورفع الأجور ، واحداث ١٨٤٤ في مقاطعة « اللوار » وما اسفرت عنه من نتائج دامية فى منطقة Rive-de-Gier ، وأخيرا موجة الاضطرابات العامة التى سادت جميع أنحاء فرنسا ، عام ١٨٤٧[٦٣٤] ·

ولكن الحكومة ،فى سعيها الحثيث للدفاع عن أصحاب الأعمال ،لم تكتف بتجاهل مطالب العمال ، بل نجدها تسعى الى القضاء على كل تنظيم لهم بعد ان تبينت الكيفية التى يتم بها التحايل على القانون ، على النحو الذى كانت تقوم به « جمعيات المقاومة » ، لذلك ، صدر قانون ١٠ ابريل ١٨٣٤ ، ليشدد من أحكام المادة ٢٩١ من قانون العقوبات ، لتصبح على الوجة التالى : « ان نص المادة ٢٩١ (المتعلق بتحريم الجمعيات العمالية) ينطبق على الجمعيات التى تضم اكثر من عشرين عضوا ، حتى ولو كانت الجمعية مقسمة الى عدة أقسام يضم كل منها عدد أقل ، سواء كانت الجمعية تعقدا اجتماعاتها بصفة دورية منتظمة ، أو بصفة غير منتظمة » ·

وبذلك ، أغلقت جميع السبل امام القيادات العمالية ، ولم يبق امامها الا العمل السرى ، مستعينة في ذلك بالحركات السياسية الثورية ، وخاصة بالحزب الجمهورى

---

(٦٣٤) وليس ادل على اهمية هذه الاضرابات وخطورة ظاهرة الاضراب الاجتماعى في فرنسا فى هذه الفترة ، من بيان ، سوى احصائيات وزارة العدل الفرنسية فى الفترة من ١٨٢٥ الى ١٨٥٢ والمتعلقة بعدد الذين قبض عليهم او صدرت ضدهم احكام بسبب الاضطرابات العمالية والاضرابات : فقد بلغ العدد ذروته عام ١٨٤٠ حيث بلغ عدد المقبوض عليهم ٦٨٢ عامل ، ونظرت بشأنهم ١٣٠ قضية ، وحكم على ٢٢ منهم بالحبس لاكثر من سنة وحكم بالحبس لأقل من سنه على ٤٧٦ عامل ·
Branciard, op. cit., note 302, p. 65.

الفرنسي ، الذى في ظل ملكية يوليو ، كان ينادى بالنظام الجمهورى ، وكان هـذا اللقاء بين الحركة العمالية والحزب الجمهورى وراء ثورة ١٩٤٨ في فرنسا ٠

فلقد بدأت الطبقة العمالية تكتسب ، بفعل المصلحين الاجتماعيين والكتاب الاشتراكيين ، وبفضل ما خاضته من تجارب ، الشعور الطبقى الذى يعتمـد على أيديولوجية محددة تواجه بها الايديولوجية الرأسمالية ، لذلك ما ان اندلعت احداث ثورة ١٨٤٨ حتى انضمت الطبقة العاملة الى الطبقة البورجوازية المتوسطة فى مواجهة الطبقة البورجوازية العليا والمتسلطة على فرنسا منذ ١٨١٥ ، وفى سبيل هدف محدد « اقامة نظام جمهورى اشتراكى » ٠

وترتب على ثورة ١٨٤٨[٦٣٥] ، والاطاحة بالملك لويس ـ فيليب ، واعـلان الجمهورية ، اشتراك ممثلى الطبقة العاملة في الحكومة المؤقتة ، ومنهم على الأخص لويس بلان ، وفي أعقاب هذه الثورة ، لم يحصل العمال مباشرة على ما يطالبون به ، ولكن هذه الثورة كان لها الفضل فى توجيه الأنظار ناحية المشكلة الاجتماعية ، وبداية تدخل الدولة في نطاق علاقات العمل ، وبدء ظهور القوانين المنظمة لهذه العلاقات[٦٣٦] ٠

---

(٦٣٥) Silvestre, op. cit., note 491, p. 13.

(٦٣٦) فقد اعلنت الجمهورية حرية العمـال في اقامة منظماتهم العمـالية ، وتوالى تكوينهـا دون صدور قانون منظم لها بحيث بلغ عددها حوالى ٣٠٠ جمعيـة فى خـلال ايام قليـلة ٠ لذلك ، اعلنت الحكومة حق كل عامل في الحصول على عمل ، ونظرا لان الاضطرابات كانت قد اوقفت العمل فى العديد من المنشآت ، فقد سارعت الحكومة ،تحت تاثير افكار لويس بلان (راجع ما سبق ص ٣٦٠) الى انشاء « ورش قومية » ساعدت على استيعاب اكثر من ١٠٠ الف عامل ، وتوالت بعدها القوانين المنظمة لعدد ساعات العمل (١٠ ساعات ـ قانون ٢ مارس ١٨٤٨) ، وشكلت لجنة لوضع القواعد المنظمـة للعمـل وفقا لأفكار بلان ٠

غير ان تقرير حق الاقتراع العام ، اعطى الأغلبية فى فرنسـا للفلاحين ، ونظـرا للطابع التقليدى لهم ، فقد جاء تشكيل البرلمان على عكس ما توقع العمـال بل ان ممثلى هذه الطبقـة هزموا وانتصرت البورجوازية مرة أخرى ، فكان ان الغيت كل القوانين السابق صـدورها ، والعودة مرة أخـرى لمبـدأ « حرية العمل » الذى يكرس المصالح للطبقة الراسمالية ٠ كذلك حرمت التجمعات العمالية مرة اخرى وتقرر حل جمعيات « المعونة المتبادلة » اذا هى خرجت عن أهدافها ٠

وبذلك يمكن القول ، ان ثورة ١٨٤٨ ، وان كانت لم تحقق ، على الصعيد القانونى مكاسب هامة للعمال ، الا انها صاحبة الفضل ، فى اثارة المشكلة الاجتماعية ، وبداية اهتمام الحـكومة بها ، والمحرك وراء شعور العمال بوجودهم كطبقة وباعتناقهم للأفكار التى نادى بها المصلحين الاجتماعيين ٠
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, pp. 187 — 188.

البند الثانى ـ ردود الفعل العمالية فى انجلترا :

رأينا ان ردود الفعل العمالية فى انجلترا ، ضد استخدام الآلات بالذات ، كانت ، ومنذ بداية الثورة الصناعية ، متسمة بطابع العنف أ تحطيم الآلات ، حرق المصانع ... الخ(٦٣٧) • ونظرا لأن الطبقة العمالية فى انجلترا تكونت فى وقت مبكر عنه فى فرنسا، فان العمل الجماعى بدأ فى انجلترا مبكرا عنه فى فرنسا(٦٣٨) •

وباستعراض بداية العمل الجماعى فى انجلترا ، لا نلقى اختلافا كبيرا فى الشكل ولا الظروف عنه فى فرنسا ، كل ما هناك ان ردود الفعل فى انجلترا كانت أقل ثورية واستمرارية عنها فى فرنسا ، فالاختلاف كان فى قدر الاضطراب الاجتماعى الناجم عن التحرك الجماعى ، وليس فى أشكال هذا التحرك •
ففى انجلترا أيضا ، كان حق التنظيم الجماعى محرما بكافة صورة على العمال(٦٣٩) واضطر هؤلاء في البداية للجوء الى تكوين جمعيات المعونة المتبادلة على غرار ما حصل في فرنسا ، وسميت في انجلترا جمعيات الاصدقاء Friendly Societes وكان هدفها مساعدة المرضي والشيوخ الأعضاء فى الجمعية(٦٤٠) •

ولكن هذه الجمعيات لم تكن كافية للوفاء باحتياجات العمال ، ولذلك ، ورغم الحظر القانونى ، شرع العمال في انجلترا في تكوين جمعياتهم المهنية اعتبارا من سنة ١٧٧٠(٦٤١) ، حين رأوا ان الصناعة الحديثة بدأت تستتب وتحل محل الورش الصناعية القديمة ، وبدأ النظام الصارم فى داخل المصنع الحديث يخضع العمال فرادى دون ان يكون بامكانهم مواجهة صاحب العمل ، حينئذ بدأ العمال يشعرون بضرورة اتحادهم • ولكن البرلمان الانجليزى رفض رفضا قاطعا ، بل واصدر من القوانين ما يجرم به فعل « التجمع أو اقامة الجمعيات » •

---

(٦٣٧) راجع ما سبق ص ٣٣٢ وما بعدها •

(٦٣٨) راجع ما سبق ص ٢٥٦ وما بعدها •

(٦٣٩) راجع ما سبق ص ٣٥٩ وما بعدها •

(٦٤٠) Dunham, op. cit., note 273, p. 13.
Paul Pic, op. cit., note 580, p. 298.

(٦٤١) فتكون عام ١٧٧١ « الاتحاد الوطنى لعمال صناعة القبعات » ، وفى عام ١٧٧٨ « الاتحاد الوطنى لعمال صناعة الأحذية ، وتم الاتصال بين هذه الاتحادات وبعض الجمعيات الأخرى عام ١٨٠٥
L. De Riedmatten, op. cit., note 598, p. 216.

لذلك ، اضطر العمال هنا أيضا ، للعمل تحت ستار جمعيات المعونة المتبادلة ، واستمرت المطالبة باقرار حق العمال في التنظيم الجماعي واصدرت احدى هذه الجمعيات بيانا عام ١٧٩٩ تطالب المشرع بالاعتراف بنقابات العمال ، على اعتبار انه من « الحقوق الطبيعية » ، غير ان هذه المحاولات لم تلق أى استجابة من جانب السلطات[٦٤٢] .

لذلك ، اضطر العمال ، خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وخاصة في الفترة من ١٨٠٠ الى استخدام العنف والاساليب الثورية (تحطيم الآلات الاعتداء على أصحاب الأعمال ، احراق المصانع) . ولعل اشهر هذه الاضرابات ، هو مظاهرة العمال ، من مختلف الصناعات فى أغسطس ١٨١٩ .

ففى اعقاب الآزمة الاقتصادية التى وقعت عام ١٨١٥ ، بدأ العمال في كل انحاء انجلترا ينظمون اجتماعات ومظاهرات للبحث عن الحلول الكفيلة باصلاح حالهم ، وكانت أهم هذه المظاهرات على الاطلاق ، الاجتماع الذى عقد في مانشستر فى ١٦ أغسطس ١٨١٩ وحضره أكثر من ٨٠ ألف عامل جاءوا يستمعون لقياداتهم وهى تقترح برنامجا للاصلاح الاجتماعى . ولم تكن هذه الجموع تحمل أى أسلحة ، سوى ما كان يحمله الشيوخ منهم من عصي للاتكاء عليها . ولكن فى أثناء الاجتماع قررت السلطات انه « غير مشروع » ، وارسلت مجموعة من الجنود لفض الاجتماع والقبض على زعيم العمال ويدعى هانت Hunt . وفى أثناء ذلك ، وقع هرج خشي منه الجنود على أنفسهم فاطلقوا النيران على الجموع المنصرفة والتى كانت تعدو في كل صوب ، ونجم عن ذلك اصابة ٤٠٠ عامل (منهم ١٠٠ عاملة على الأقل) . وقد استحقت سلطات مانشستر الثناء على هذا العمل الوحشي من جانب الحكومة وأصحاب الأعمال ، ولكن هذا الحادث وسع الهوة بين الطبقة العاملة والمالكة ، واتضح من هذا الحادث جليا ، ان استخدام القوة الجماعية ، عن طريق تنظيم قوى ، أصبح امرا لا مفر منه لتحقيق مطالب العمال . وقد اثار هذا الحادث البرلمان ، حيث خشي ان تستمر اعمال العنف ، لذلك أمر البرلمان باجراء تحقيق ، تبين المحققون خلاله ، ان السبب الرئيسي لاستخدام العنف كان « التحريم القانونى » لجمعيات العمال .

---

(٦٤٢) Fohlen, op. cit., note 274, p. 59.

ونزولا على هذه الملاحظة ، اصدر البرلمان الانجليزى عام ١٨٢٤ قانونا ، يتيح للعمــال حق التجمع واقامة الجمعيات ، بشرط الا تستخدم هذه الجمعيات القوة أو التهديد لتحقيق اهدافها ، وان تتعهد باحترام حرية العمل ٠

وفي اعقــاب هذا القانون ، بدأ العمــال في تكوين جمعياتهم المهنية ، فانشأ الاتحــاد العــام لعمال الغزل (١٨٢٩) ، ثم الاتحاد العام لعمال البناء (٣٠ ألف عضو) عام ١٨٣٣ ثم « الاتحاد الوطنى لحماية العمل » عام ١٨٣٤ الذى يعد بمثابة الاتحــاد العام للعمال ٠

ولكن تطور الجمعيات المهنية العمالية فى انجلترا ، تأثر بالطبيعة السياسية التى اتخذتها الحركة العمالية فى انجلترا، تحت اسم «حركة الميثاق "le Chartisme". فحتى عام ١٨٣٧ ، لم تنجح الجمعيــات المهنية في انجلترا في ضم اكثر من ١٠٠ ألف عضو ٠ ذلك ، ان العدد الاكبر من العمــال اتجه ناحيــة حركة « الميثــاق » السياسية[٦٤٣] ٠ وقد قامت هذه الحركة للمطالبة بتحقيق المطالب الاجتمــاعية للعمــال ، ولكن قادة الحركة ادركوا ان قيادة الطبقة العمالية ينبغى ان تنبع من داخلها وان الدفاع عن الحقوق الاجتماعية ، يمر اولا بالطريق السياسي : فحتى يحصل العامل على مقابل عادل للعمل ، لابد وان يكون هناك ممثلين للطبقة العاملة داخل البرلمان ، ولن يتحقق ذلك الا عن طريق تقرير حق الاقتراع العــام ، فهــو السبيل الحقيقى للديمقراطية ، وباقامة النظام الديمقراطى ، سينتهى الأمر حتمــا بانتصار النظام الاشتراكى؛ ولذلك ، اطلق قادة الحركة على مطالبهم اسم « ميثاق الشعب "la charte du peuple" » على غرار الميثاق الأعظم la grande Charte الصادر عن الملك جان عام ١٢١٥ ٠

وقد تضمن هذا الميثاق على الأخص المطالبة بتجديد البرلمان سنويا ، وتقرير حق الاقتراع العــام ، والمساواة بين الدوائر الانتخابية والاقتراع السرى ، وتقرير راتب لعضو البرلمان حتى يتمكن كل فرد من أفراد الشعب يجد في نفسه الكفاءة اللازمة لتمثيل المواطنين ، ان يجد ما يتعيش منه فى حالة انتخابه عضوا بالبرلمان ٠

---

(٦٤٣) Encyclopédie Socialiste, syndicale et coopérative ed. Artistide Quillet-Paris 1912, pp. 187 — 196.
F. Ponteil, op. cit., Note 441, p. 255.
Redor et Rioux, op. cit., note 398, p. 67.

وابان نشر هذا الميثاق ، كان جليا ، ان الشعور الطبقى قد تكون لدى الطبقة العاملة فى انجلترا ، ولكن فكرة « الصراع الطبقى » لم تكن حاضرة فى اذهان قادة الحركة العمالية الانجليزية ، كما كان الأمر لدى العمال فى فرنسا ٠ لذلك ، فان القيادات العمالية فى بادىء الأمر ، لم تكن تمانع التعاون مع الأحزاب البورجوازية، من أجل تحقيق برنامجها ٠

وقد اجتمع اول مؤتمر عمالى لوضع برنامج عملى لتحقيق ماتضمنه الميثاق عام ١٨٣٩ ، وشهد المؤتمر مواجهة عنيفة بين اتجاهين : الاتجاه الأول يدعو الى الطرق السلمية والمفاوضات ، والاتجاه الثانى ، ويدعو الى استخدام القوة عند الاقتضاء ، وقد انتصر هذا الاتجاه الأخير ، فتقدم قادة العمال بطلب للتصريح لهم بشن اضراب عام ، وقوبل طلبهم بالرفض من جانب السلطات ، فانفجر الموقف ووقعت مواجهة بين العمال والسلطات ، أسفرت عن عدد كبير من الجرحى ، والقبض على القيادات العمالية وايداع الكثير منهم السجون ٠

ولكن ذلك لم يكن كافيا للقضاء على الحركة ، بل تجددت الاضطرابات مرة أخرى اعتبارا من عام ١٨٤٠ ، وكانت تواجه من جانب السلطات بنفس درجة العنف ٠

وقد حدث ، فى هذه الفترة ، ونتيجة للقهر الذى ووجهت به الحركة العمالية السياسية ، ان تحول العمال الى تدعيم منظماتهم المهنية ، فأخذت النقابات تزداد قوة ، خاصة ان الازدهار الاقتصادى ، مكن النقابات من تدعيم ميزانياتها والاستعانة بموظفين مدربين ، مما ازعج أصحاب الأعمال ، فبدأت اعتبارا من عام ١٨٥٠ موجه جديدة من محاربة الجمعيات المهنية العمالية ، خاصة من جانب القضاء الذى لم يعدم وسيلة في ايجاد بعض النصوص لمعاقبة قادة النقابات العمالية ٠ وبذلك ، بات واضحا امام الطبقة العاملة الانجليزية ، ان الحرب موجهة ضدها على الصعيدين المهنى والسياسي ٠ فادركت القيادات العمالية الانجليزية ان من الصعب قبول فكرة التحالف مع الأحزاب السياسية البورجوازية ، وبدأت فكرة صراع الطبقات تختمر فى اذهاب العمال ، وعادت الاضطرابات مرة أخرى ، لتثير

---

(٦٤٤) Paul Pic, op. cit., noee 580, p. 299.

انتباه البرلمان ، حتى حدث عام ١٨٦٥ ان وقعت اغتيالات متتالية لعدد من رجال الأعمال فى مدينة Sheffield ، وتركت هذه الأحداث آثارا بالغة الأهمية على الرأى العام ، وأمر البرلمان ، مرة أخرى ، باجراء تحقيق ، تبين من خلاله المحققون ، ان من الأفضل نبذ وسائل القمع ضد العمال ، والاعتراف صراحة ودون أى غموض أو لبس بنقابات العمال ٠ وترتب على ذلك صدور اول قانون ينظم ويسمى صراحة نقابات العمال الانجليزية Trade - Unions فى ٢٩ يونيو ١٨٧١(٦٤٥) ٠

وتجدر الاشارة فى النهاية ، عند استعراض ردود الفعل العمالية فى انجلترا ، الى دور الحركة التعاونية : حقيقة ، فشلت بعض التجارب فى تحقيق هدفها من حيث تخليص العمال من سيطرة رأس المال ، ولكن العمال الانجليز استطاعوا ، بواسطة تجربة ردتشديل الرائدة ان يحققوا نجاحا ملموسا ، فقد بلغ عدد المحلات التابعة لجمعية روتشديل ١٧٠ محلا عام ١٨٣٠ وارتفع العدد الى ٥٠٠ عام ١٨٣٣ وبذلك ، ساهمت الحركة التعاونية فى التخفيف على العمال من ويلات النظام الرأسمالى(٦٤٥) ٠

من ذلك ، يتضح لنا ، ان ردود الفعل لدى الطبقة العاملة الانجليزية كانت أكثر نجاحا في تحقيق مطالبها عن قرينتها الفرنسية : فقد ادركت القيادات العمالية في انجلترا ، ان تحقيق مطالب العمال ، لا يقف عند حد المطالبة به عن طريق التجمعات المهنية واستخدام حق الاضراب ، بل ان الأمر يتطلب التحرك على جميع الجبهات : الجبهة السياسية ، وهو ما يفسر لنا حركة الميثاق ، ثم قيام النقابات العمالية ، فيما بعد ، بانشاء حزب العمل ، والجبهة المهنية ، وتتمثل فى انشاء نقابات العمال وتدعيمها وقيادتها ذاتيا من داخل الطبقة العاملة ، والجبهة الاقتصادية عن طريق اقامة مشروعات اقتصادية (جمعيات تعاونية) تحاول ان تخفف على الطبقة العاملة من مصاعب الحياة ، باستبعاد الارباح التى يحققها الرأسمالى ٠

وربما استطاع هذا التحرك الواعى من جانب الطبقة العاملة الانجليزية ، ان يفسر لنا مدى ما استطاعت الطبقة العاملة فى انجلترا تحقيقه فى وقت مبكر من مكاسب ، رغم ان ما وقع فى انجلترا من اضطرابات وحركات ثورية يقل عما وقع فى فرنسا ٠

---

(٦٤٥) احمد حسنى البرعى ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤٤٧ ، ص ٥١ وما بعدها و ص ٧١ وما بعدها ٠

المبحث الثانى

ميــلاد القــانون الاجتمــاعى

حق التنظيم الجماعى وتنظيم علاقات العمل (٦٤٦)

وقفنا فى المبحث السابق ، عند ردود فعل العمال على اطلاق حرية العمل ، ورأينا ان ردود الفعل هذه اتسمت بالعنف ، حيث لم يكن امام الطبقة العاملة من سلاح سوى استخدام القوة فى مواجهة الطبقة الرأسمالية . عند هذا الحد ، كان من المحتم ، أن تتدخل الدولة لتعيد للعلاقات الاجتماعية المختلة توازنها عن طريق القانون ، فقد كان الظلم المحدق بالطبقة العاملة فادحا لدرجة يصعب معهـا ان تظل الدولة على موقفها الحيادى .

ولكن تدخل الدولة ، لا يمكن ان يعزى فقط لكفاح العمــال ، بل هناك عوامل أخرى ساعدت على ذلك . ويأتى في المقدمة تقرير حق الاقتـراع العـام ، بحيث أصبح للطبقة العاملة دور في اختيار ممثلى الشعب ، فسعى هؤلاء الأخيرين لاكتساب رضاء هذه الطبقة . هذا علاوة على ان تقرير حق الاقتراع العام مكن العمــال من اختيار ممثلين لهم في البرلمان يعرضون وجهــة نظرهم ويتبنون قضاياهم(٦٤٦) .

كذلك ، فان الرأى العام ، تحت تأثير الفــكر الاشتراكى الجديد ، اصبـح

---

(٦٤٦) J. Bron, op. cti., note 287, p. 235.
R. Remond, op. cit., note 293, p. 127.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 182.
Epsztein, op. cit., note 279, p. 90.
Niveau, op. cit., note 122, p. 131.
Amiaud, ip. cit., note 580, p. 29.
Dupeux, op. cit., note 299, p. 194.
Branciard, op. cit., note 302, p. 85.
Silvestre, op. cit., note 491, pp. 18 et s.s.
Hobsbawn, op. cit., note 464, p. 258.

(٦٤٦) R. Rémond, op. cit., note p. 67.
Ch. Moraze, op. cit., note p. 101.

مهيأ ، أكثر من ذى قبل للاعتراف بحق العمال المشروع في قدر من الدخل القومى يكفل لهم حياة كريمة بالنظر للدور الهام الذى يلعبونه في مجال الانتاج ٠

وأخيرا ، فان الطبقة البورجوازية نفسها ، اقتنعت بان عدم حل هذه المشاكل يؤدى الى تزايد « الصراع الطبقى » يوما بعد يوم ، مما يهدد المكاسب التى حققتها هذه الطبقة ، اذا حدث ان نجح العمال فى قلب النظام نزولا على الأفكار الاشتراكية المتطرفة ، وخاصة الماركسية ٠

كل هذه العوامل ، تجمعت ، لتمهد الطريق امام تدخل الدولة في علاقات العمل والاعتراف للعمال بحقهم فى التنظيم الجماعى ، وتنظيم علاقات العمل بواسطة قوانين ، يلزم أصحاب الأعمال باحترامها ، وتكفل حدا أدنى من الضمانات للعامل ٠

وقد انتهزت الطبقة العاملة، فرصة تضافر هذه العوامل ، لتزيد من ضغطها من أجل تحقيق مطالبها المشروعة ، وعلى راسها ، المطالبة بحقها فى التنظيم الجماعى ٠

ولكن الحركات العمالية ، فى كل الدول الصناعية ، ادركت ان المطالبة بحقوقها لا يمكن ان تلقى استجابة ، الا اذا كانت الطبقة العمالية ممثلة على الساحة السياسية ٠ لذلك ، فان مطالب العمال لم تقف عند حد المطالبة بالنقابات المهنية وبقواعد قانون العمل ، بل تجاوزت ذلك الى النضال فى سبيل ضمان دور سياسي فعال للطبقة العاملة ، عن طريق اقامة « أحزاب عمالية » ٠

اما التنظيم المهنى ، فكان القصد من وراءه تحقيق مجموعة من الأهداف القريبة التى تتصل مباشرة بظروف معيشة الطبقة العاملة وحياتها اليومية والمادية، كتحديد ساعات العمل ، وضمان العمالة الكاملة ، ومراعاة المواصفات الصحية وشروط السلامة في اماكن العمل ٠٠٠ الخ ٠٠

اما التنظيم السياسي ، فانه يسعى الى تحقيق الهدف البعيد للطبقة العاملة : تغيير النظام الاقتصادى ، واقامة نظام جديد أكثر عدالة للمجتمع ككل ٠

ونلاحظ ان جميع البيانات الصادرة عن الحركات العمالية في البلاد الصناعية، يتبين منها بجلاء «ازدواجية » التنظيم والهدف المشار اليهما اعلاه(٦٤٧) ٠

---

(٦٤٧) R. Rémond, op. cit., note 293, pp. 129 et 130.

ولكن دراسة الهدف البعيد ، او بمعنى آخر ، دراسة التنظيم السياسى للطبقة العاملة ، يجاوز حدود هذا البحث ، وسنقتصر هنا على بيان الكيفية التى حققت بها الطبقة العاملة اهدافها القريبة ، والمتمثلة فى مولد القانون الاجتماعى ، وخاصة الاعتراف للطبقة العاملة بحقها فى التنظيم الجماعى وتوصلها ، بواسطة هذا التنظيم ، الى الحصول على حقوق الطبقة العاملة ، اى الى تدخل الدولة فى نطاق علاقات العمل بواسطة التشريع ٠

وفى هذا الصدد ، سبق لنا ان بينا بجلاء ، ان ميلاد الطبقة العاملة فى كل بلد ، كان مرتبطا بالظروف الخاصة بهذا البلد(٦٤٨) ، هذه الظروف ستنعكس بلا شك على ميلاد قانون العمل فى كل بلد على حدة ٠ لذلك ، يمكن للباحث ان يتناول ميلاد قانون العمل فى كل بلد على حدة ، ولكن يبقى ان هذا الاسلوب سيطغى عليه الطابع التسجيلى ، وتغيب عنه الدراسة التحليلية ٠ فلقد راينا ، ان ميلاد قانون العمل كان نتيجة لمجموعة من العوامل ، واحدة تقريبا فى كل البلاد الصناعية : اهدار لحقوق الطبقة الاكثر عددا من جانب الطبقة الاكثر غنى ، ونظام سياسي يقوم على اساس ان الدولة لا دخل لها فى العلاقات الاجتماعية ، وتشريع يسلب العمال حقهم الطبيعى فى الدفاع عن انفسهم ، ثم تطور سياسي (تقرير حق الاقتراع العام) وتطور فكرى (ظهور الأفكار الاشتراكية) ، كل ذلك أدى لتدخل الدولة وميلاد القانون الاجتماعى ، لذلك ، فمهما اختلفت ظروف تكوين الطبقة العاملة ، فلابد وان تترك العوامل المشتركة لميلاد قانون العمل بصماتها على ذلك القانون ، وبحيث يمكن استخلاص بعض الخصائص المشتركة لهذا «الوليد» الجديد (المطلب الأول) انطلاقا من دراسة الكيفية التى ظهر بها هذا القانون الجديد فى كل بلد على حدة (المطلب الثانى) ٠

المطلب الأول ـ الخصائص المشتركة لتشريعات العمل فى البلدان الصناعية :

قلنا ، ان الدوافع الى اصدار قوانين العمل في البلدان الصناعية ، كانت واحدة ، لدرجة ان ولدت هذه القوانين متشابهة فى بعض جوانبها ، سواء من حيث الموضوعات التى صدرت هذه القوانين لمعالجتها ، او من حيث انتماء قوانين عدة بلاد الى مجموعة واحدة ، مما يسهل تقسيم قوانين العمل الى عدة نماذج ٠

---

(٦٤٨) راجع ما سبق ، ص ٢٥٥ وما بعدها ٠

البند الأول - تشابه الموضوعات التى يعالجها القانون الاجتماعى[٦٤٩] :

اهتمت قوانين العمل ، في البلدان الصناعية ، بمعالجة عدد من الموضوعات ، أهمها : تنظيم النشاط الصناعى ، الاعتراف بالتنظيمات المهنية وضع القواعد الكفيلة بحماية العامل فى ادائه للعمل ، الحماية القانونية للأجر ، ووضع نظام قضائى (التوفيق والتحكيم) كفيل بحل الخلافات التى تنشأ بين الأطراف (العمال وأصحاب الأعمال) بطريقة سلمية ٠

(أ) تنظيم النشاط الصناعى :

نظرا لغياب القانون عن ميدان هذا النساط الاقتصادى الجديد ، اهتمت التشريعات الاجتماعية الصادرة في البلدان الصناعية ، بتنظيم النشاط الصناعى ، وخاصة بمنح أصحاب الأعمال والعمال والوسائل التى تكفل المشاركة بالرأى والمشورة في اصدار التشريعات المتصلة بالنشاط الصناعى ٠ وتحقيقا لهذا الهدف ، نرى العديد من البلاد الصناعية ، وقد انشأت منذ اواخر القرن الماضي ، او مطلع القرن الحالى ، وزارة للعمل او مصلحة متخصصة في النشاط الصناعى والعمل[٦٥٠] ، كما انشأت فى هذه البلاد مكاتب للعمل مكلفة بتجميع المعلومات والبيانات المتعلقة بالعمل والنشاط الصناعى ووضعها تحت تصرف المشرع ليكون على بينه من أمره

---

(٦٤٩) Paul Pic, op. cit., note 580, p. 79.

(٦٥٠) فقد انشأت وزارة للعمل فى كل من :

المانيا (نوفمبر ١٩١٨) ، بلجيكا (وزارة الصناعة والعمل - ٢٥ مايو ١٨٩٥) - كندا (١٩ مارس ١٩٠٩) فرنسا (٢٦ أكتوبر ١٩٠٦) ، ايطاليا (٣ يونيو ١٩٢٠) البرتغال (مارس ١٩١٦) ٠

كما انشأت مصلحة العمل في كل من :

الارجنتين (٣٠ سبتمبر ١٩١٢) الولايات المتحدة (١٨ مارس ١٩٠٤) وتحولت هذه المصلحة فيما بعد الى وزارة اتحادية للعمل (٤ مارس ١٩١٣) والمكسيك (١٨ ديسمبر ١٩١١) ٠

وانشأت مجالس عليا متخصصة فى موضوعات الصناعة والعمل في كل من :

فرنسا (٢٢ يناير ١٨٩١) ، بلجيكا (٧ أبريل ١٨٩٢) ، ايطاليا (١٥ يناير ١٩٠٢) اسبانيا (٢٣ ابريل ١٩٠٣) ٠

حين اصدار تشريعات متعلقة بهذا النشاط . ويلحق بهذه المكاتب مجموعات استشارية مكونة من ممثلين للحكومة وأصحاب الأعمال والعمال ، يكون لهذه المجموعات رأى استشارى او تكون لآرائها قوة ملزمة باعتبارها هيئة تحكيم .

(ب) الاعتراف بالتنظيمات المهنية وباهمية دورها :

وتسعى التشريعات العمالية فى بدايتها الى الاعتراف بالتنظيمات المهنية للعمال ولأصحاب الأعمال على السواء ، اعترافا منها باهمية الدور الذى يمكن ان تلعبه هذه المنظمات في تحقيق التوازن الاجتماعى بين عنصرى رأس المال والعمل ، وبما تتيحه من امكانيات التوصل الى حل المشاكل فى عالم العمل ، دون مواجهة ، بل بالطرق السلمية .

وقد اختلف الحل الذى أخذت به التشريعات العمالية فى هذا الموضوع ، فبعض التشريعات ، اطلقت حرية تكوين المنظمات النقابية دون عائق او رقابة مسبقة من جانب الادارة ، ومنها القانون الانجليزى (٢٤ يونيو ١٨٧١ و ٢٠ ديسمبر ١٩٠٦، ٧ مارس ١٩١٣) . والقانون الفرنسي (٢١ مارس ١٨٨٤ و ١٢ مارس ١٩٢٠) والقانون البلجيكى (٣١ مارس ١٨٩٨) . وهناك تشريعات أخرى اختارت الاحتفاظ بالنظام القديم وجعل الانضمام للطائفة اجبارى سواء بالنسبة للعامل او لرب العمل ، مع ادخال تعديلات على النظام تتلاءم مع التطورات التى شهدتها الثورة الصناعية ، ومن هذه التشريعات ، التشريع الألمانى (١٨ يوليو ١٨٨١ و ٢٦ يوليو ١٨٩٧) والتشريع المجرى (٢١ مايو ١٨٨٤) والتشريع النمساوى (١٥ مارس ١٨٨٣ و ٢٣ فبراير ١٨٩٧) والتشريع البلغارى (٢ يونيو ١٩٠٣) والتشريع الرومانى (٥ مارس ١٩٠٢ و ٧ فبراير ١٩١٢)(٦٥١) .

(ج) تنظيم قواعد حماية العامل :

وتهدف التشريعات الاجتماعية أيضا ، حماية العامل الأجير ، الذى كان ضحية للمصنع الحديث وللمدينة الصناعية ، بل ان بعض التشريعات تتجاوز هذا الحد ،

---

(٦٥١) راجع فى هذا الموضوع : Boissard, le mouvement corporatif en France et à l'étranger - Paris 1897.

فتمد حمايتها الى كل من يعمل لقاء أجر ، سواء في الصناعة أو في التجارة . وتتمثل هذه الحماية فى وضع القواعد المتعلقة بتنظيم اجهزة السلامة والصحة المهنية فى المنشآت الصناعية(٦٥٢) . هذه الحماية القانونية قد تكون قاصرة على بعض طوائف العمال ، بالنظر لاعتبار السن (القواعد الخاصة بحماية الاحداث) ، او الجنس (القواعد الخاصة بتشغيل النساء)(٦٥٣) وقد تمتد هذه الحماية الى كل العمال ، دون تفرقة ، بقصد حمايتهم من استغلال أصحاب الأعمال ، كتحديد ساعات العمل والاجازات والعطل الرسمية ، وقواعد تشغيل العاملين في المناجم والمحاجر(٦٥٤) .

---

(٦٥٢) كالقانون الفرنسي الصادر فى ١٢ يونيو ١٨٩٣ والمعدل بقانونى ١١ يوليو ١٩٠٣ و ٣١ ديسمبر ١٩١٢ والقانون الالمانى الصادر فى اول يوليو ١٨٩١ والمعدل فى ٣٠ يونيو ١٩٠٠ ، والقانون الانجليزى الصادر فى ٢٧ مايو ١٩٧٨ والمعدل فى ١٧ اغسطس ١٩٠١ والقانون النمساوى الصادر فى ١٧ يونيو ١٨٨٣ والمعدل في ابريل ١٩١٣ ، والقوانين البلجيكية الصادرة في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٩ و ٢ يوليو ١٨٩٩ والقانون الهولندى الصادر فى اول يوليو ١٩٠٩ ، والايطالى الصادر فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٨ وقانون ولاية نيويورك الصادر فى ٢٠ مايو ١٩٠٨ ، والنرويجى الصادر فى ٢٧ يونيو ١٨٩٢ والسويدى الصادر فى ٢٩ يونيو ١٩١٢ . والقوانين السويسرية الصادرة فى ٢٣ مارس ١٨٧٧ و ١٨ يونيو ١٩١٣

(٦٥٣) كالقانون الألمانى (أول يونيو ١٨٩١) المعدل في ٢٨ ديسمبر ١٩٠٨ ، والقوانين الانجليزية الصادرة في ١٧ مايو ١٨٧٨ ، و ٢٨ أغسطس ١٩٠٧ ، و٢٩ مارس ١٩١٢ ، والقوانين البلجيكية الصادرة فى ١٣ ديسمبر ١٨٨٩ و ٢٦ مايو ١٩١٤ ، والقانون الدانمركى (٢٩ ابريل ١٩١٣) ، والقوانين الاسبانية في ١٣ مارس ١٩٠٠ و ١١ يوليو ١٩١٢ والقوانين الفرنسية الصادرة في ٢ نوفمبر ١٨٩٢ و ٣ مارس و ٢٩ ديسمبر ١٩٠٠ ، و ٣٠ ابريل ١٩٠٩ والقوانين الهولندية فى ٥ مايو ١٨٨٩ و ٧ أكتوبر ١٩١١ ، والقانون المجرى فى ٢١ مايو ١٨٨٤ ، والقوانين الايطالية فى ١٩ يونيو ١٩٠٢ و ٢٣ اغسطس ١٩١٣ ، والنيو زيلندى ٤ أغسطس ١٩٠٨ و ٣ ديسمبر ١٩١٠ ، والنرويجى ١٠ سبتمبر ١٩٠٩ والرومانى ١١ ــ ٢٤ فبراير ١٩٠٦، والسويدى ٢٩ يونيو ١٩١٢، والسويسرى ٢٣ مارس ١٨٧٧ و ١٨ يونيو ١٩١٤ وكذلك اغلب قوانين الولايات فى الولايات المتحدة الامريكية (ماساشوشتس ١٢ ابريل ١٩١٢ نيويورك ١٩ ابريل ١٩١٢ ، بنسلفانيا ٢٩ ابريل ١٩٠٩) .

(٦٥٤) كالقانون الفرنسي الصادر فى ٢٩ يونيو ١٩٠٥ ، والانجليزى (١١ ديسمبر ١٩١١) والنمساوى (٢٦ ديسمبر ١٩١١) ، والبلجيكى (٥ يونيو ١٩١٢) والاسبانى (٢٧ ديسمبر ١٩١٠).

ويلاحظ ، ان ضمان تطبيق فعال لهذه القواعد ، كان يقتضي اقامة هيئة مختصة بالتفتيش والرقابة على تطبيقها ، لذلك عمدت أغلب التشريعات الى انشاء هيئة « مفتشي العمل » تختص بمراقبة القوانين العمالية ولها حق توقيع العقوبات على صاحب العمل حال مخالفتها ، بل ان بعض البلاد اقامت هيئات تفتيش « صحية » ، تختص بمراقبة الاحكام الخاصة بالحفاظ على سلامة وصحة العمال وتقديم الخدمات الصحية لهم ، وهى هيئة مستقلة من هيئة مفتشي العمل ، ومن هذه البلاد انجلترا وكندا .

(٤) حماية الأجر :

كذلك ، اهتمت التشريعات الاجتماعية في بداية الأمر ، ليس فقط بحماية العامل نفسه ، وانما مدت هذه الحماية لتشمل « الأجر » باعتبار أهميته الحيوية بالنسبة للعامل . وتتضمن هذه الأحكام ، حماية العامل من تعسف رب العمل ، كعدم انتظامه في اداء الأجر ، او توقيع الخصومات على العامل ، او التلاعب في المبالغ المحصلة من العامل لاداءها الى صندوق التضامن والزمالة ، او أخيرا ، الاتفاقات التى يبرمها أصحاب الأعمال فيما بينهم بقصد خفض أجور العمال(٦٥٥) . كما تشمل هذه الأحكام أيضا حماية أجر العامل فى مواجهة دائنى رب العمل ، وكذلك بين مواجهة دائنى العامل(٦٥٦) . بل ان بعض التشريعات وضعت القواعد الكفيلة بحماية أجر العامل من بعض الأشخاص الذين يخضع لرقاباتهم ، كحماية أجر الزوجة من الزوج ، وحماية أجر القاصر في مواجهة وليه(٦٥٧) .

بل ونجد ان بعض التشريعات ، عملت ومنذ وقت مبكر على وضع حدا أدنى للأجور ، وقد كان للمستعمرات الانجليزية القديمة (استراليا فى عام ١٨٩٤

---

(٦٥٥) القانون الانجليزى (١٦ سبتمبر ٨٨٧) ، والبلجيكى (١٦ اغسطس ١٨٨٧) والنرويجى (٢٧ يونيو ١٨٩٢) ، والفرنسي (٧ ديسمبر ١٩٠٩) .

(٦٥٦) كالقانون الفرنسي (١٢ يناير ١٨٩٥) والألمانى (٢٥ مارس ١٨٩٧) والانجليزى (١٤ يوليو ١٨٧٠) والبلجيكى (١٨ اغسطس ١٨٨٧) والاسبانى (١٢ يوليو ١٩٠٦) والمجرى (١ يونيو ١٨٨١) .

(٦٥٧) كالقانون الانجليزى (١٠ اغسطس ١٨٨٢) والنرويجى (٢٩ مايو ١٨٨٨) والبلجيكى (١٠ فبراير ١٩٠٠) والفرنسي (١٣ يوليو ١٩٠٧) .

وتيوزيلندا فى عام ١٨٩٤ كذلك) • فضل السبق فى هذا المقام ، بينما فضلت الدول الاوربية كفرنسا وانجلترا وبلجيكا ، عدم فرض حد أدنى من الأجور ، الا في تلك المشروعات التى تكون الدولة طرفا فيها •

(هـ) تنظيم هيئات التوفيق والتحكيم فى منازعات العمل :

ومن بين الأهـداف التى توختها التشريعات الاجتمـاعية ، عنـد نشأتها ، اقامة تنظيم كفيل بحل الخلافات الجماعية او الفردية بين أصحاب الأعمال والعمال ، كهيئات التوفيق والتحـكيم فى منازعات العمـل او لجان التصـالح • على ان يتم تشكيل هذه الجان او الهيئات من عدد متساو من ممثلى الاطراف المعنية ويتـولى رئاسة الهيئة المختصة بالفصل في النزاع ، اما أحد أصحاب الأعمال ، او أحد ممثلى العمال ، بصورة دورية ، او ان يختار الطرفين ، شخص أجنبى عن النزاع ، قاض مثلا او احدى الشخصيات العامة ليتولى رئاسة هية التحكيم او لجنة المصلحة[٦٥٨] •

وتجدر الاشـارة ، في النهاية ، الى ان قانون العمل ، عند مولده ، وان كان قد اهتم أساسا بالموضوعات السالف بيانها ، فأنه لم يغفل أيضا ، كل ما من شأنه تحسين ظروف معيشة العمـال ، سواء بوضع القواعد الكفيلة بمساعدة هـذه الطبقة على الادخار ، وخاصة بانشاء دفاتر التوفير الشـعبية ، او بتحسين الظروف المـادية للطبقة العاملة ، من حيث الاهتمام بمشكلة الاسكان ، وبتوفير الـكهرباء والميـاه ••• الخ • كذلك ، اتجهت التشريعات في البـلاد الصـناعية ، لاعطـاء العمال وسيلة يعتمدون عليها لدفع استغلال المشروعات الرأسمالية لهم ، ونقصـد بذلك ، الحركة التعاونية ، بكافة أشكالها « التعاون الانتاجى ، والاستهلاكى ، وجمعيات التسليف »[٦٥٩] ، او بتأمين العامل ضد ما قد يتعرض له من مخاطر تؤثر

---

(٦٥٨) كالقوانين الفرنسية الصادرة فى ١٨ مارس ١٨٠٦، و ١٥ يوليو ١٩٠٥، ٢٧ مارس ١٩٠٧، ١٣ نوفمبـر ١٩٠٨ و ٢٧ مارس ١٩١٧ و ٣٠ مارس ١٩٢٠ • والقـانون النمسـاوى (١٤ مايو ١٨٦٩) والبلجيكى (١٥ مايو ١٩١٠) والاسبانى (٢٢ يوليو ١٩١٢) والهولندى (٢ مايو ١٨٩٧) والاسترالى (١٠ اكتوبر ١٩١٤) والنيوزيلندى (٢٨ اكتوبر ١٩١١) والـكندى (٤ مايو ١٩١٠) والسـويدى (١٥ اكتوبر ١٩١٢) والنرويجى (٦ اغسطس ١٩١٥) والرومانى (٢١ اغسطس ١٩٢٠) •

(٦٥٩) احمد البرعى ، المرجع السابق الاشارة اليه ، هامش ٤٤٧ ، ص ٧٥ وما بعدها •

ومن أمثلة هذه القوانين : قانون التعـاون الانتاجى فى فرنسا (١٨ ديسـمبر ١٩١٥) وقانون التعاون الألمـانى (١٢ أغسطس ١٨٩٦) والانجليزى (١٢ ديسمبر ١٨٩٣) والنمسـاوى (١٩ أبريل ١٨٩٣) والهولندى (١٧ نوفمبر ١٨٧٦) •

على مقدرته على الكسب ، كالمرض او حوادث العمل او الشيخوخة او البطالة ، بحيث نظمت لتشريعات المختلفة كيفية التأمين على العامل ضد هذه المخاطر(٦٦٠) .

البند الثاني ـ نماذج التشريعات الاجتماعية(٦٦١) :

تختلف نماذج التشريعات الاجتماعية ، باختلاف البلاد ، حيث يراعى كل مشرع عند صياغته لقواعد القانون الاجتماعى ، الظروف والتطورات والاوضاع الخاصة ببلدة . ولكن ، باستعراض أحكام تشريعات العمل المختلفة ، يمكن القول ان هناك أوجه للشبه بين بعض هذه التشريعات ، مما يسمح بتقسيمها اجمالا ضمن عدة مجموعات ، أهمها :

(أ) المجموعة اللاتينية :

وتتميز تشريعات هذه المجموعة ، بانها تأخذ بفكرة حركة تكوين النقابات وانها استبعدت نظام الطوائف المهنية ، وأنها كانت اسبق المجموعات التشريعية

---

(٦٦٠) فمنذ أواخر القرن الماضي او مطلع هذا القرن والعديد من تشريعات البلاد الصناعية تقرر مبدأ التأمين الاجبارى ضد حوادث العمل : كالقانون الألمانى (٦ يوليو ١٨٨٤) ، والنمساوى (٢٨ ديسمبر ١٨٨٧) والبلجيكى (٢٤ ديسمبر ١٩٠٣) ، والدانمركى (٢٧ مارس ١٩٠٨) والهولندى (٢ يناير ١٩٠١) والايطالى (٢٩ يونيو ١٩٠٣) ، والنرويجى (٢٣ يوليو ١٨٩٤) والسويدى ٢٩ يونيو ١٩١٢ ، والسويسرى ١٣ يونيو ١٩١١ .

كذلك ، كان التأمين من المرض اجبارى فى كل من المانيا (١٣ يونيو ١٨٨٣) وانجلترا (١٦ ديسمبر ١٩١١) والنمسا (٣٠ مارس ١٨٨٨) وهولندا (٥ يونيو ١٩١٣) ، والمجر (٦ ابريل ١٩٠٩) والنرويج (أول ابريل ١٩١١) ورومانيا (٢٥ يناير ١٩١٢) .

كذلك ، كان التأمين اجباريا فى حالة الشيخوخة أو العجز المبكر ، فى فرنسا (٥ ابريل ١٩١٠) وفى المانيا (٢٢ يونيو ١٨٨٩) ونيوزيلندا (١٨٩٨) ، واستراليا (١٩٠٨) وانجلترا (أول اغسطس ١٩٠٨) وهولندا (٥ يونيو ١٩١٣) واسبانيا (١ مارس ١٩١٩) .

اما التأمين ضد البطالة ، فعرفته انجلترا (١٦ ديسمبر ١٩١١) ، وايطاليا (١٥ أكتوبر ١٩١٩) والنمسا (٢٤ مارس ١٩٢٠) .

هذا ويلاحظ ، ان التأمين ضد هذه المخاطر اصبح ، في اغلب دول العالم اجباريا ، وينتظم قواعده قانون التأمينات الاجتماعية ، الذى يعتبر فرعا من فروع القانون الاجتماعى .

راجع فى هذا الموضوع :

أحمد حسن البرعى : نحو مولد فرع جديد من فروع القانون مجلة القانون والاقتصاد . (تحت الطبع) .

(٦٦١) Paul Pic, op. cit., note 580, pp. 86 et s.s.

في اصدار القوانين التى ترمى لحماية العامل أ وتضم هذه المجموعة فرنسا (التى كانت أسبق دول المجموعة في تحديد عدد ساعات العمل بالنسبة لكافة العمال) وبلجيكا (التى كانت أسبق دول المجموعة في تقرير القواعد الخاصة بحماية الأجر) ، كما تضم أيضا كل من ايطاليا (التى قررت نظام التأمين الاجبارى اعتبارا من عام ١٩١٩) ، واليونان ، والبرتغال والأرجنتين ، وتشكوسلوفاكيا وبولونيا ، فقد تأثرت هذه الدول جميعا ، في نهاية القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن ، بالتشريع الفرنسي ٠

(ب) المجموعة الانجلو ـ أمريكية :

وتقترب تشريعات هذه المجموعة ، من المجموعة اللاتينية ، من حيث ان كليهما يأخذ بفكرة اطلاق حرية تكوين النقابات دون عوائق او اذن مسبق من الادارة ٠ ولكن تشريعات هذه المجموعة وخاصة الاقانون الانجليزى تتميز بانها تقيم نظام للتفتيش والرقابة على تطبيق قوانين العمل ، أكثر صرامة من دول المجموعة اللاتينية ، ويلاحظ ، ان الولايات المتحدة تتميز قوانينها العمالية ، بانها كانت أكثر تقدما فى تنظيمها لهيئات التصالح والتحكيم ، بينما كان للقانون الانجليزى السبق في تقرير نظام التأمينات الاجتماعية ٠

(ج) المجموعة الجرمانية :

وتدخل في هذه المجموعة ، كل من : المانيا والنمسا والمجر والدول الإسكندنافية ٠ وتتميز تشريعات هذه المجموعة ، بانها اعادت تنظيم الطوائف المهنية القديمة ، بما يتناسب والتطورات الحاصلة بعد الثورة الصناعية ، وبأنها حرصت على تقرير نظام التأمين الاجبارى على العمال ضد المخاطر التى يتعرضون لها ٠ ويمكن القول ان التشريع السويسرى يدخل في نطاق هذه المجموعة مع اختلافه عنها من ناحيتين : عدم وجود نظام الطوائف الاجبارية من جهة ، وانه لم يكن في مطلع هذا القرن قد بلغ ما بلغته قوانين هذه المجموعة من تطور في ميدان التأمين الاجبارى على العمال ، من جهة أخرى ٠ وتصدق الملاحظة نفسها بالنسبة للقانون الهولندى الذى كان يتارجح بين المجموعة اللاتينية والمجموعة الجرمانية ٠

ويمكن ان نقرب من هذه المجموعة ، القوانين الرومانية والبلغارية واليوغوسلافية ٠

(ء) المجموعة السلافية Groupe Slave

ويطلق هذا الاسم على مجموعة من الدول (هى روسيا ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا وجزء من يوغوسلافيا وهى بلاد الصرب Serbie) • ونلاحظ ، ان وصف قوانين هذه المجموعة يقع في الفترة السابقة على انضمامها للمعسكر الاشتراكى وتأثر قوانينها بالقانون السوفييتى وتقترب هذه المجموعة ، من المجموعة الجرمانية من حيث انهاابقت على النظام الطائفى مع ادخال بعض التعديلات عليه ليتناسب مع التطور ، ولكنها تتميز بان قوانيها كانت أكثر تقدما بالنسبة لحماية العامل ، ولكنها كانت متأخره في ميدان التأمينات الاجتماعية • وقد ظلت هذه الصفات تميز قوانين البلاد التى لم تقع تحت تأثير الاتحاد السوفييتى ، كفنلندا•

(هـ) مجموعة دول الكومنولث (استراليا ونيوزيلندا) :

وتعتبر هذه المجموعة أكثر المجموعات تقدما ، لانها كانت أولى المجموعات التى وضعت حدا أدنى للأجور في القطاع الصناعى ـ حتى لو لم تكن الدولة طرفا في المشروع ـ كما كانت تشترط لذلك أغلب دول المجموعة اللاتينية ، كما ان هذه المجموعة هى اول من قرر مبدأ التحكيم الاجبارى •

(و) مجموعة بلاد الشرق الاقصي والشرق الأوسط :

وقد كان من الصعب، في أواخر القرن الماضي، بل وأوائل هذا القرن تصنيف دول هذه المجموعة ، ونسبتها الى أحد المجموعات السالفة • فاليابان ، رغم ما عرفته من نهضة صناعية ، كان تشريعها الاجتماعى متخلفا الى حد كبير ويقتصر على بعض نصوص متفرقة متعلقة بحماية العامل في أثناء العمل • اما مصر فلم تعرف حتى عام ١٩٠٩ سوى قانون تشغيل الاحداث في صناعة القطن (٤ يوليو ١٩٠٩) • ولم ينظم القانون التركى حتى السنوات الأولى من هذا القرن سوى بعض القواعد الصحية المتعلقة بحماية العمال • بحيث لم يكن في دول هذه المجموعة ، سوى الهند ، التى كانت قد أصدرت قانون شامل ينظم علاقات العمل والتأمينات الاجبارية اعتبارا من ١٩١١ (٢٤ يونيو ١٩١١) •

تلك هى المجموعات أو النماذج التشريعية التى عرفها قانون العمل عند ميلاده• ولكن وجوه الاختلاف التى لاحظناها بالنسبة لهذه المجموعات لم تكن الا نتيجة

لحداثه العهد بهذا الفرع من فروع القانون ، ولأنه لم يكن يحظى بالوضوح والاستقرار اللذين يحظى بهما القانون المدنى · ولكن مع التطور ، وتقدم الأفكار الاجتماعية ، بدأت قواعد القانون الاجتماعى ، في مختلف دول العالم ، تتقارب وتكتسب طابعا عاما موحدا يندر ان نراه في فروع أخرى · واذا كانت هذه القواعد قد قاربت في الوقت الحالى ، ان تصبح واحدة في أغلب دول العالم ، بفضل منظمة العمل الدولية والاتفاقيات المنظمة للحد الأدنى لقواعد العمل ، فان هذا الأمر كان واضحا منذ بداية هذا القرن ، ان أحكام القانون الاجتماعى في طريقها الى التوحيد ، نظرا لأن الموضوعات التى تقوم بمعالجتها موضوعات متشابهة ـ حيث تجد اساسها في الاعتبارات الانسانية ـ وهى واحدة بلا شك في كل دول العالم ، مع التنبيه ، كما سنبين في خاتمة الدراسة ـ الى ضرورة ان يراعى التشريع الاجتماعى ، الاعتبارات الاقتصادية للبلد الصادر فيه ، وتصدق هذه الملاحظة على الأخص ، بالنسبة للدول النامية ·

المطلب الثانى ـ ميلاد قانون العمل فى بعض البلدان الصناعية :

نستعرض فى هذا المطلب ، ميلاد قانون العمل فى بعض البلدان الصناعية ، وكنا سنقتصر على ايراد أهم هذه البلدان فحسب (انجلترا وفرنسا ، والمانيا ، والولايات المتحدة) ، ولكن كما سبق ان بينا ، فان القوانين الاجتماعية عند ميلادها انقسمت الى عدة نماذج ، لذلك سنحاول فى الصفحات القادمة ، بيان ميلاد قانون العمل فى أهم الدول الصناعية ، مع استعراض مدى تأثيرها على الدول التى ارتبطت بها فى المجال التشريعى وخاصة فى نطاق قانون العمل ·

الابند الأول ـ ميلاد قانون العمل فى انجلترا وبعض دول المجموعة الانجلو ـ أمريكية :

(أ) انجلترا :

١ ـ تنظيم علاقة العمل(٦٦٢) :

اقتضي الأمر ، ما يقرب من ثلاثة ارباع قرن (٧٢ سنة) بين اختراع جون كاى

---

(٦٦٢) M. Niveau, op. cit., note p. 131
Epszteïn, ip. cit., note p. 78.
L. De Riedmatten, op. cit., note 218.

«المكوك الطائر»[٦٦٣] وتدخل الدولة بتشريع ينظم علاقات العمل(١٨٣٢)(٦٦٤)٠ فنقطة الانطلاق فى قانون العمــل الانجليزى ، كانت قانون ٦ ابريل ١٨٠٢ ، الذى كان يرمى الى معالجة ما يتعرض له الأطفال من استغلال وما يتحملونه من معاناه ٠ لذلك جاء القانون متضمنا لبعض القواعد الصحية التى يتعين مراعاتها بالنسبة لتشغيل الأطفال : ضرورة ان تكون اماكن العمل جيدة التهوية ، وان يتم طلاء الحــوائط والأسقف مرتين فى السنة بمادة « الجير Chaux » حماية للأطفــال العاملين من الرطوبة ٠ كما اشترط القانون المذكور الفصل بين اماكن البنــات والاولاد ، واشترط ان يكون لكل طفل سرير خاص به ٠ وقصر القانون عدد ساعات العمل على ١٢ ساعة يوميا ، تبدأ في السادسة صباحا (على الأقل) وتنتهى في التاسعة مساءا (على الأكثر) ٠ كما الزم القانون أصحاب الأعمال ، بضرورة « تعليم الأطفــال وتهذيبهم » ، مع استقطاع الوقت اللازم لذلك ، من ساعات العمل ٠

ونظم القانون وسائل الرقابة على تنفيذ احكامه ، فقرر ان يقوم أحد القضاه واحد رجال الكنيسة بالتفتيش على المصانع ، وأعطى لهما الحق فى دخول المصنع في أى وقت يشاءا ، مع الزامهما بتقديم تقرير دورى (كل ثلاث شهور) للجهات القضائية ، التى كان بامكانها ، فى حالة مخالفة رب العمل لاحكام القــانون ، ان توقع عليه غرامة تتراوح ما بين ٢ ــ ٥ جنيهات استرلينية ، عن كل مخالفة على حدة ، وترتفع هذه الغرامة لتصبــح من ٥ ــ ١٠ جنيهــات اذا رفض رب العمــل استقبال المفتشين او اذا ارتكب ما من شانه ان يعوق عملهم ٠ ويرجع الفضــل في صدور هذا القانون الى روبرت بيل فقــد كان صاحب الاقتــراح الذى عرض على البرلمان ٠ غير ان هذا القانون ، كان محدود النطاق من جهــة (حيث اقتصر على الأطفال الذين أخذوا من الكنائس بموجب قانون الفقراء وعلى مصانع المنسوجات القطنية فحسب ، علاوة على أنه لم يلق تطبيقا فعالا[٦٦٥] ، ولكنه على أى حال ، كان أول القوانين المنظمة لتشغيل الأحداث ، علاوة على انه كان أول قانون يقيم نظام « التفتيش » على العمل ٠

---

(٦٦٣) راجع ما سبق ص ٣١ ٠

(٦٦٤) راجع ما سبق ص ٣٠٦ وما بعدها ٠

(٦٦٥) راجع ما سبق ، ص ٣٠٦ ٠

ولم يكن في نية روبرت بيل ولا البرلمان ، التمادى في تطبيق أحكام هـذا القانون ، فقد قصد منه فقط التخفيف على هؤلاء الأطفال العاملين فى المصانع الكبرى (وفى نطاق صناعة المنسوجات القطنية فحسب) . ولكن ، حتى فى هذا النطاق الضيق لقى القانونمعارضة شديدة من جانب أصحاب الأعمال ، الذين رأوا فى هذا القانون « قيد على الحرية التى يتمتعون بها » ، فتقدموا بعريضة للبرلمان يطالبون بالغاء هذا القانون ، وحين رفض البرلمان طلبهم ، نجح أصحاب الأعمال فى التحايل على القانون ، وذلك باستخدام أطفال دون ان يوقعوا معهم عقد عمل متدرج ، لأن القانون كان يشمل بالحماية « العمال المتدرجين » فحسب . وقد دفع ذلك روبرت بيل الى المطالبة بتعديل القانون ووضع لفظ « الطفل او الحدث » بدلا من « العامل المتدرج » .

عموما ، فان مفتشي العمل أنفسهم ، لم يظهروا اهتماما بشان تطبيق أحكام القانون ، وربما كان ذلك نابعا من « تضامنهم » الطبقى مع أصحاب الأعمال ، كما ان العمال لم يكونوا على دراية بالحقوق التى قررها لهم القانون ، نظرا لان أغلب رجال الأعمال لم ينفذوا الالتزام باعلان نص القانون .

ولكن ، اياكانت العيوب التى شابت هذا القانون (١٨٠٢) ، فانه يظل أول القواعد التشريعية التى خالفت مبدأ «دعه يعمل ....» ، اى أنه اول قانون يخالف المبادىء الليبرالية المطلقة ، وبه ، تأكدت لأول مرة ضرورة تدخل الدولة في الميدان الاجتماعى .

وقد تاكدت أهمية هذا القانون ، من ناحية أنه لفت نظر الرأى العام الى المشاكل التى كانت الطبقة العاملة تعانيها . ذلك ، اعتبارا من عام ١٨١٩ ، توالت الاقتراحات بقوانين لحماية العمال . منها ، على سبيل المثال ، اقتراح اللورد أشلى عام ١٨٣٢ بتحديد عدد ساعات العمل بعشر ساعات يوميا بالنسبة للعمال الذين تقل أعمارهم عن ثمانى عشر عاما ، كما اقترح أيضا تنظيم عمل النساء والأطفال في المناجم والمحاجر . كذلك ، طالب « جون فيلدن » صاحب مصانع الغزل في لا نكشير بخفض عدد ساعات العمل اليومية ، وبضمان ظروف عمل أكثر انسانية

---

(٦٦٦) Epszteïn, op. cit., note 279, p. 78.

للعمال • وقد نبه اللورد روسل الى ضرورة تنظيم العمل ، لان « تجاهل هذه المساوىء ، والاهتمام بجمع المال ، سيترتب عليه ان نصحو يوما لنجد هذه الجموع الغفيرة من العمال وقد ملأها الحقد والكراهية ضد النظام القائم ويسهل حينئذ قيادتها بواسطة قلة متطرفة(٦٦٦) » •

وتحت ضغط هذه النداءات ، وتزايد الأصوات المطالبة بوضع القواعد الكفيلة بحماية الطبقة العمالية ، صدر قانون ١٨٣٣ ، ويعد أول قانون لقى حظه من التطبيق ، وقد عرف باسم « قانون المصانع Factory Act » ، وقد مد نطاقه ليشمل كل صناعة النسيج (وليس المنسوجات القطنية كسابقه) ، وانشأ لأول مرة هيئة تفتيش تابعة للحكومة • وقد قرر هذا القانون خفض عدد ساعات العمل الى تسع ساعات يوميا لمن تقل أعمارهم عن ١٣ سنة ، وحرم العمل الليلى بالنسبة لمن تقل أعمارهم عن ١٨ سنة وحرم تشغيل الاطفال قبل الخامسة والنصف صباحا ولا بعد الثامنة والنصف مساءا ، مع تخصيص ساعتين يوميا لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وتلقى التعاليم الدينية في مدرسة تنشأ خصيصا لهذا الغرض •

وقد لقى هذا القانون بدوره مقاومة من جانب رجال الأعمال ، ولكن هذه المقاومة لم تؤثر على فاعليته(٦٦٧) •

كذلك ، صدر عام ١٨٤٤ قانون « حماية الأطفال والنساء من حوادث العمل » بحيث الزم هذا القانون أصحاب المصانع — كما سبق ان رأينا(٦٦٨) — بضرورة وضع حواجز عند الاجزاء الخطرة من الآلة ، وحرم تكليف النساء والأطفال بتنظيف الآلة في حالة دورانها ، وكلف القانون مفتشي العمل بالاشراف على تطبيق أحكامه واتخاذ اجراءات السلامة المهنية ، والرقابة كذلك على المدارس التى تنشأ بقصد تعليم هؤلاء الأطفال •

تلك كانت أولى القوانين الاجتماعية التى صدرت عن المشرع الانجليزى ، وتوالت بعدها بالطبع مجموعة ضخمة من القوانين الاجتماعية ، وكن تبدوا أهمية القوانين التى أشرنا اليها ، في أنها كانت تعلن عن ميلاد « القانون الاجتماعى » ،

---

(٦٦٧) Ponteil, op. cit., note 441, p. 253.
Niveau, op. cit., note 22, p. 132.

(٦٦٨) راجع ما سبق ، ص ٣٠٧ •

وتعكس بوضوح ان الطبقة الحاكمة بدأت تتنبه الى خطورة مشاكل العمال، وما يمكن ان يترتب على اغفالها من نتائج ، فدفعها ذلك الى محاولة التخفيف وجعل شروط العمل اكثر « انسانية » عن ذى قبل · كذلك ، ساعد التقدم الاقتصادى لانجلترا على تحقيق المزيد من التقدم الاجتماعى : فقد ازداد الاهتمام بالرعاية الصحية للطبقة العاملة ، وكذلك باماكن سكناها · ومع ارتفاع مستوى معيشة العمال ، بات التغلب على مشكلة « ادمان الخمور » اكثر سهولة من ذى قبل ، واصبح « الشاى » في انجلترا هو المشروب القومى ·

وساعدت هذه التطورات على الحد من الصراع الاجتماعى فى انجلترا ، واضحت المفاضات بين العمال وأصحاب الأعمال هي وسيلة حل ما ينشأ بين الطرفين من مشاكل ، فقد اتسمت النقابات الانجليزية ، بميلها الى استخدام الطرق السلمية على نقيض نقابات القارة الاوروبية ، وخاصة النقابات الفرنسية · ومع ذلك ، فقد شهد عام ١٨٨٥ ، في انجلترا بعض الاضطرابات الاجتماعية ، نتيجة لأزمة من أزمات النظام ، ترتب عليها انتشار ظاهرة البطالة وخفض الأجور · ولكن ما ان زالت الأزمة ، حتى عادت الأمور الى سيرتها ، فواصل القانون الاجتماعى تقدمه ، واستمر حل مشاكل العمل ، عن طريق التفاوض بين أصحاب الأعمال ، وبين العمال ، او بمعنى ادق ، تنظيماتهم المهنية وخاصة النقابات ·

٢ - النقابات الانجليزية Trade - Unions (٦٦٩) :

رأينا فيما سبق ، كيف كان حق التنظيم الجماعى محرما على العمال بموجب قانون ١٧٩٩، وكيف اضطر البرلمان الانجليزى تحت تزايد موجات العنف، الى العدول ، فى فترة وجيزة من الزمن ، عن هذا التحريم · فصدر قانون ١٨٢٤

---

(٦٦٩) Paul Pic, op. cit., note p. 207.
R. Remond, op. cit., note p. 126.
Epszteïn, op. cit., note p. 90.
Silvestre, op. cit., note p. 15.
Redor et Rioux, op. cit., note p. 68.
Niveau, op. cit., note p. 134.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 218.

الذى يعطى العمال الحق فى تكوين جمعيات ، بشرط الا تلجأ هذه الجمعيات لاستخدام القوة او التهديد لتحقيق مطالبها ٠

ثم راينا ، كيف اندفعت الحركة العمالية فى انجلترا فى طريق العمل السياسي ، (وخاصة حركة الميثاق) وما ترتب عليه من اندلاع الاضطرابات مرة أخرى وتوقد فكرة الصراع الطبقى في اذهان قادة الحركة العمالية ، مما اضطر الحكومة لاصدار اولقانون يعترف صراحة بنقابات العمال وعرف هذا القانون باسم Trade - Unions act (قانون ٢٩ يونيو ١٨٧١) ٠ وبموجب هذا القانون (الذى تأثر به المشرع الفرنسي عند اصداره لقانون النقابات عام ١٨٨٤) اعتبرت الجمعيات المهنية ، سواء جمعيات العمال ام ارباب الأعمال مشروعة ، ويتمتع الأفراد بحرية مطلقة فى الانضمام او الانسحاب من هذه الجمعيات ، فلا يمكن اجبار احد الأفراد على الانضمام ، ولا يمكن اجباره على البقاء متى اراد الانسحاب ٠

ولا تتمتع هذه النقابات بالشخصية المعنوية الا بعد تسجيلها لدى الجهة الادارية المختصة ، كما تلتزم هذه النقابات بابلاغ نفس الجهة الادارية ، سنويا ، بعدد الاعضاء فيها وما تتوفر عليه من رأس مال ٠

ولا يتدخل القانون الانجليزى فى البنيان الداخلى للنقابات ، ولكن هذه كانت جميعا ـ من حيث البنيان الداخلى ـ خاضع لقواعد موحدة : فالنقابة تدار بواسطة لجنة ، يتم انتخاب اعضائها بالاقتراع السرى ، ويشترك فى التصويت كافة الاعضاء فى النقابة ، وبالنسبة لأموال النقابة فتتم ادارتها بواسطة مندوبين يختارون من جانب الأعضاء خصيصا لهذه المهمة ، ويسألون امام الجمعية العمومية للنقابة ٠ وقد أقر قانون ٧ مارس ١٩١٣ للنقابات صراحة حق المشاركة في النشاط السياسي ، ولكنه اشترط ان تكون ميزانية العمل السياسي (كالمبالغ التى تساهم بها النقابات فى الانتخابات) منفصلة عن ميزانية النقابة ٠ وتحقيقا لذلك ، فان عضو النقابة كان يؤدى لنقابته اشتراكين فى آن واحد « اشتراك العمل السياسي Cotisation politique واشتراك العمل المهنى او الاشتراك النقابى Cotisation Syndicale

وفى اعقاب صدور قانون ١٨٧١ ، أخذت النقابات الانجليزية تتطور من حيث

الحجم ومن حيث النشـاط بشكل ملحوظ(٦٧٠) : فاذا كان عدد اعضـاء النقابات عام ١٨٥٠ (١٥٠ر٠٠٠ عضو) ولم يتجاوز ٣٠٠ ألف عضو عام ١٨٦٠ ، فان هذا الرقم قد قفز الى ١ر٢٠٠ر٠٠٠ عضو عام ١٨٧٤ ، ليبلغ ١ر٥٠٠ر٠٠٠ عام ١٨٩٢ (٢٠ ٪ من عدد العمال و ٤ ٪ من العدد الاجمالي للسكان) ، وبلغ ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ عام ١٩٠٢ ، و ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ عام ١٩١٤ ، و ٦ر٦٢٠ر٠٠٠ عضو عام ١٩١٨ .

وتتميز النقابات الانجليزية بالتركيز الى اقصي حد ، فالبنيان النقـابى يقوم على أساس تجمع كل العاملين فى نفس المهنة فى نقابة واحدة على الصعيد الوطنى ، ويربط بين هذه النقابات ، اتحادات اقليمية ، وعلى رأسها الاتحـاد العـام للنقابات الانجليزية ، ويعتبر « المؤتمر العـام للنقابات Trade Union Congress » الهيئة العليا للحركة النقابية فى انجلترا ، ويمثل هذا المؤتمر العام أهمية قصوى لما له من أثر ، بحيث اطلق عليه « برلمان الحركة العمالية » .

وقد واجهت الحركة النقابية في انجلترا ، عند نشأتها ، مشكلة هامة تمثلت في تسلط مجموعة العمـال « المهرة » على هذه النقابات ، وحرم السواد الأعظم من العمال من عضـويتها ، بحيث انقسمت الطبقة العاملة الانجليزية وتكونت بداخلها « ارستقراطية عمالية » تسيطر وحدها على النقابات وتحول دون انضمام الآخرين اليها ، بما تضعه من شروط انضمام مادية ومهنية .

وكانت هذه الحركة موجهة بالذات ضد العمال الذين لا تتطلب اعمالهم دراية او خبرة فنيـة او تكوين مهنى ، كالحمالين وعمال المـوانى les Dockers . ولكن هؤلاء الأخرين ، فى محاولة منهم للدفاع عن مصالحهم ، قاموا بانشاء نقابات مستقلة خاصة بهم ، واستطاعوا بفضل الاضراب العام الذى شنه عمال الموانىء ، ان يقضوا على هذه التفرقة ، ففتحت أبواب النقابات لكل العمال ، بغض النظر عن تكوينهم المهنى .

وتجدر الملاحظة ، ان النقابات الانجليزية منذ نشأتها وضعت نصب أعينها

---

(٦٧٠) Redor et Rioux, op. cit., note 398, p. 68.
Pic, op. cit., note 580, p. 301.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 219.
Silvestre, op. cit., note 491, p. 23.

أن تحقق لاعضائها مطالبهم المهنية ، وخاصة ، ان تضمن لهم حدا ادنى من الاجور يتناسب مستوى الأسعار ، بحيث تحافظ على ثبات مستوى المعيشة للطبقة العاملة . وتتميز الحركة النقابية الانجليزية ، بانها استطاعت ، ومنذ البداية ان تتفهم حقيقتين مرتبطتين في آن واحد : اما الأولى ، فهى ان مهمة النقابات الدفاع عن المصالح المهنية لاعضائها ، واما الثانية فهى ان الدفاع عن هذه المصالح يعتمد على المؤسسات السياسية ، وأنه لابد وان يكون للعمال تأثير سياسي ليتمكنوا من تحقيق مطالبهم الاقتصادية والمهنية .

لذلك ، نجد ان النقابات قد حددت اهدافها المهنية فى الحفاظ على مستوى معيشة العمال (ضمان حد ادنى من الاجور والحفاظ على التناسب بين الاجور والأسعار) مع العمل المستمرعلى تحسين ظروف العمل والمعيشة للطبقة العاملة ، مع ابتعاد النقابات عن العمل السياسي المباشر . ولكنها (اى النقابات) تعمل على تمثيل الطبقة العاملة سياسيا ، بواسطة حزب عمالى يتولى النشاط السياسي للطبقة العاملة : ففى بداية الأمر ، ساندت النقابات حزب الاحرار les Wighs ضد حزب المحافظين les torys ، ولكن النقابات ، قررت عام ١٩٠٦ ، انشاء حزب عمالى مستقل هو حزب العمال Labour party ، ولكنها تأكيدا لفكرة فصل النشاط المهنى من النشاط السياسي ، قررت ان يكون « الاشتراك المهنى » الذى يؤدى للنقابة ، منفصلا عن الاشتراك « السياسي » الذى يؤدى للحزب ، بحيث يمكن لعضو النقابة ان يؤدى الاشتراك النقابى ، ويرفض أداء الاشتراك الحزبى .

وأخيرا ، مالت النقابات الانجليزية ، منذ نشأتها ، وحتى الآن ، الى الحصول على مطالبها عن طريق المفاوضات مع أصحاب الأعمال ، مع حرصها الدائب ، ان تراعى فى مطالبها عدم الاضرار بالاقتصاد القومى وهى لا تمارس الضغوط للحصول على مكاسب جديدة الا اذا ادركت ان تحقيق هذه المطالب ممكن دون ان يمثل عبئا على الاقتصاد ، والا انعكس أثر الاستجابة لبعض المطالب الجزئية ، على مستوى معيشة الطبقة العاملة ككل . وجدير بالذكر ، ان وصول النقابات الانجليزية الى هذا المستوى من الوعى لم يتأتى الا نتيجة كفاح طويل ، اكتسبت خلاله القيادات النقابية الانجليزية خبرة واسعة مكنتها من حسن تصريف أمورها .

(ب) الولايات المتحدة الأمريكية[٦٧١] :

عرفت الولايات المتحدة الأمريكية ، مبدأ حرية المنظمات العمالية ، منذ وقت مبكر . فقد كان بامكان العمال تكوين نقاباتهم ، فى كل الولايات ، استنادا الى مبدأ « حرية التجمع » المنصوص عليه فى الدستور الفيدرالى .

لذلك ، بدأت الطبقة العمالية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى تكوين منظماتها النقابية منذ وقت مبكر : ففى عام ١٧٨٦ انشأ عمال الطباعة أول نقابة عمالية ، وتلاهم عمال الأحذية عام ١٧٩٤ . وتكون أول اتحاد عمالى فى ولاية « فيلاديلفيا » عام ٨٢٧ وكان يضم ٣٠٠ ألف عضو (عام ١٨٣٦) .

حقا ، ان النظام القانونى للنقابات كان يختلف من ولاية الى أخرى ، ولكن أغلب قوانين الولايات ، متأثرة فى ذلك بالقانون الانجليزى ، كانت تعترف للنقابات - بمجرد تسجيلها لدى الجهة الادارية المختصة - بالشخصية المعنوية .

بل ، نجد ان قوانين بعض الولايات ، توقع عقوبة جنائية على كل صاحب عمل يأتى عملا من شأنه اعاقة العمل النقابى ، مثال ذلك ، قانون ولاية كنكتيكوت Connecticut الصادر فى ٩ يناير ١٨٩٩ ، والذى كان يقضي بمعاقبة كل صاحب عمل يمارس الضغوط على عمالة لمنعهم من الانضمام للنقابة ، بغرامة مقدارها ٢٠٠ دولار والحبس مدة لا تتجاوز ستة أشهر .

وذهبت قوانين بعض الولايات الى منح النقابات حق وضع « شعار النقابة » على المنتجات ، كدليل على صنع هذه المنتجات فى منشأة تحترم القواعد التى تطالب بها النقابات المتعلقة بالشروط الصحية وبشروط العمل بوجه عام .

وحتى عام ١٨٦٠ ، كانت النقابات الأمريكية تعانى من نفس المشكلة التى كانت تعانى منها النقابات الانجليزية ، وهى سيطرة قلة من العمال على النقابات .

---

(٦٧١) F. Ponteil, op. cit., note 441, p. 256.
Pic, op. cit., note 580, p. 306.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 227.
Silvestre, op. cit., note 491, p. 26.

ولكن بالنسبة لأمريكا ، كان الانضمام للنقابة قاصرا ، ليس فقط على « العمال المهرة » بل وايضا على « البيض » منهم ، حيث كانت التفرقة العنصرية ، تحرم انضمام العمال « السود » الى النقابات .

وكرد فعل على هذه التفرقة « المهنية » و « العنصرية » فى آن واحد ، أنشأ العمال « المستبعدين » اتحاد « فرسان العمل Knights of labour عام ١٨٦٩ ، وضم هذا الاتحاد كل العمال ، دون تفرقة ما بسبب نوعية العمل ، او اللون ، او الجنس . وبلغ عدد أعضاء هذا الاتحاد ٧٠٠ ألف عضو . ولكن الأفكار المتطرفة التى سادت هذا الاتحاد ، ومظاهر العنف التى لجأ اليها (وأهمها مظاهرات شيكاغو) أدت الى انفصال أغلب المنظمات العمالية ، والى اختفاءه عام ١٨٨٦ .

ومنذ هذا التاريخ ، انتقلت قيادة الحركة العمالية فى الولايات المتحدة الأمريكية الى « الاتحاد الأمريكى للعمل American Federation of labour » وقد تميز هذا الاتحاد بأنه جمع تحت لواءه نقابات الولايات المتحدة الامريكية وكندا في آن آخذ ، فكان له بذلك طابعا دوليا ، وقد قام بنيان هذا الاتحاد على قاعدة قوامها النقابات المهنية المحلية ، التى تكون فيها بينها اتحاداً مهنيا اقليميا ، ثم اتحاداً وطنيا ، ثم الهيئة الدولية للاتحاد (التى تضم كل من اتحاد نقابات الولايات المتحدة واتحاد النقابات في كندا) ، وقد اعلن هذا الاتحاد أنه يرمى الى تعميم فكرة « الشعار النقابى » على المنتجات الصناعية ، والكفاح في سبيل تطوير التشريعات الاجتماعية لصالح العمال ، واكتساب الرأى العام عن طريق الاعلام والدعاية ، على ان تتم ممارسة كل الأنشطة فى اطار القانون والشرعية .

وقد حرص الاتحاد الامريكى للعمل ، منذ نشأته ، على الاحتفاظ بطابعه « المهنى » ولذلك ، يحرص الاتحاد على تجنب أى علاقة « تنظيمية » او اى شكل من اشكال الارتباط « الدائم » بأى حزب من الأحزاب السياسية ، ولكنه لا يتوانى عن ممارسة كل ضغط ممكن على البرلمان لاجباره على اصدار التشريعات العمالية اللازمة لحماية العمال .

وهكذا نجح الاتحاد ، عام ١٨٨٨ فى استصدار قانون يجعل من حق الحكومة عرض وساطتها لحل خلافات العمل الناشئة بين عمال السكك الحديدية

والشركات التابعة لها، وفي عام ١٨٩٨ صدر قانون آخر يجعل من حق الحكومة التدخل لحل الخلافات العمالية في أى صناعة كانت ٠

كذلك نجح الاتحاد في دفع الحكومة لاتخاذ قرار بانشـــاء وزارة مستقلة للعمل (عام ١٩١٣) بعد ان كانت مدمجة مع وزارة التجارة والعمل منذ عام ١٩٠٣ ٠

وقد عرف الاتحاد تطورا ملحوظا في عدد اعضائه ، اعتبارا من عام ١٩٠٠ ، فقبل ذلك ، وبالتحديد عام ١٨٩٧ اقتصر عدد اعضاؤه على ٢٥٠ ألف عضو ، ثم قفز هذا الرقم الى ٥٧٠ ألف عضو عام ١٩٠٤ ، ليبلغ ٢ مليون عام ١٩١٤ ٠

ويلاحظ ان الحركة النقابية الامريكية ، كمثيلتها الانجليزية ، مالت منذ البداية الى اتباع الاساليب السلمية والتحكيم فى حل منازعات العمــل : فكثيرا مادب الخلاف بين أصحاب الأعمال والعمال ، ولكن درجة الوعى العالية لدى القيادات العمالية الامريكية ، ادت الى ان تبحث هذه القيادات ، فى أغلب الأحيان ، الى حل هذه الخلافات عن طريق المفاوضات والتحكيم ، ولا يســاند الاتحاد اضرابات النقابات الا فى حالة الضرورة القصــوى ، التى يرى الاتحاد أنه لا مفر من اللجوء اليها ٠

(ج) استراليـا نيوزيلنـدا :

رغم ما سبق قوله ، من ان هذه البلاد ، تمثل تشريعاتها ، نموذجا مســتقلا ، الا ان كونها من المستعمرات الانجليــزية القديمة ، فانها قد تأثرت بالتشريعـات والنقابات الانجليزية لحد يسمح بدارستها مع هذا البلد ، مع ملاحظة أن تشريعاتها العمــالية ، فاقت ، فى بعض الجوانب ، التشريع الانجليــزى الذى تأثرت به فى البداية(٦٧٢) ٠

ويرجع السبب فى ذلك(٦٧٣) ، الى ان النقابات الاسترالية والنيوزيلاندية استطاعت ومنذ نشــأتها ، ان تسيطر على الحيــاة السياسية ٠ فقد بدأت النقابات تتكون في المستعمرتين ، اعتبارا من عام ١٨٧٥ ، وعلى غرار النقابات الانجليزية ٠ وفى عــام ١٨٩٠ ، كونت النقــابات « حزب العمــل » ، الذى تولى الحــكم في المستعمرين ، لدرجة ان وصف الــكتاب هذه الظــاهرة بقولهم « ان النقابات لدينا

(٦٧٢) راجع ما سبق ، ص ٤٠٨ ٠

هي التي تصنع التشريعات أكثر من أى هيئة أخرى في البلاد وهي التي تدير البلاد بواسطة الوزراء »(٦٧٣) لذلك ، كان من الطبيعي ان تكون نيوزيلندا واستراليا ، من اولى الدول التي صدرت فيها ، ومنذ وقت مبكر أكثر التشريعات الاجتماعية تقدما : كتحديد الحد الادنى للأجور ، واقامة نظام التحكيم الاجبارى ، وتنظيم العمل في المصانع ، وتحديد ساعات العمل بثماني ساعات يوميا ، وبحيث اكتمل هذا البنيان القانوني في كل من البلدين في خلال السنوات الأولى من هذا القرن(٦٧٤) .

ولذلك ، اطلق الكتاب على استراليا اسم «جنة العمال» . فالعامل الاسترالي كان في الواقع في ظروف جعلته بعيدا عن الانتماء الى هذه الطبقة « العاملة » التي اسهبنا في وصف ظروفها ، وقربته أكثر الى « الطبقة البورجوازية » ، ولعل ذلك يرجع بالذات للظروف التي عرفتها استراليا ، فقد حرص المسؤولون فيها ، منذ البداية ، على عدم فتح ابوابها للمهاجرين ، السود منهم ، والبيض على السواء ، انطلاقا من فكرة مؤداها ، انه يتعين للحفاظ على مستوى المعيشة مرتفعا ، المحافظة على عدد منخفض من السكان ، وهو ما ادى بالبعض لوصف استراليا بانها « القارة الخالية » .

البند الثاني ــ فرنسا وبعض دول المجموعة اللاتينية :

(أ) فرنسا(٦٧٥) :

لعل المثال الفرنسي ، هو خير الأمثلة التي يمكن أن نسوقها للتدليل على مدى ارتباط التشريعات الاجتماعية بالحياة السياسية . فاستعرض قانون العمل

---

(٦٧٣) Pic, op. cit., note 580, p. 305.

(٦٧٤) راجع ما سبق ، ص ٤٠١ وما بعدها .

(٦٧٥) Niveau, op. cit., note 122, pp. 133. et 139.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 182.
R. Remond, op. cit., note 293, p. 127.
Silvestre, op. cit., note 491, pp. 10, 18, 19.
Amiaud, op. cit., nose 580, p. 29.
Pic, op. cit., note 580, p. 512.

في فرنسا ، وحق التنظيم الجماعي ، يبين بوضوح ان مراحل تطور هذا القانون مرت بنفس مراحل التطور السياسي الذى عرفته فرنسا اعتبارا من الثورة الفرنسية ۰ لذلك ، يمكننا دون تردد ، ان نقسم مراحل ميلاد قانون العمل فى فرنسا الى اربع مراحل ، يقابل كل منها مرحلة من مراحل الحياة السياسية في فرنسا ، ويعكس بوضوح العلاقة بين قانون العمل والحياة السياسية(٦٧٦) ۰

١ ـ المرحلة الأولى ـ مرحلة الليبرالية المطلقة وصدور قانون ١٨٤١ :

راينا ، أن الثورة الفرنسية جاءت بالأفكار الليبرالية ، والتى بمقتضاها ، ينبغى ترك العنان للحافز الفردى وللحرية الفردية دون أى قيود ، او تدخل من جانب الدولة(٦٧٧) ۰ ولكن التجاوزات كانت صارخة لدرجة يصعب معها ان تقف الدولة موقف المتفرج ۰ وقد فجر تقرير الدكتور Villermé (الذى اشرنا اليه من قبل)(٦٧٨) المشكلة ، ولفت النظر الى ضرورة تدخل الدولة لحماية الأطفال مما يلاقونه في المصانع من تجاوزات ومعاملة غير انسانية وظروف عمل غير مقبولة ۰

ونتيجة لهذا التقرير ، تحركت الحكومة لأول مرة ، منذ قيام الثورة الفرنسية، فأصدر البرلمان اول قانون اجتماعى فى تاريخ فرنسا ، وهو قانون ٢٢ مارس ١٨٤١ والمتعلق باحكام تشغيل الأطفال فى المصانع(٦٧٩) ۰ وقد جاء هذا القانون، الذى صدر نتيجة لاعتبارات أيديولوجية (انتشار الأفكار الاشتراكية) وسياسية (تقرير حق الاقتراع العام) واقتصادية (تزايد عدد العمال وازدياد دورهم فى الانتاج)،جاء هذا القانون ليعالج العيوب التى كشف عنها تقرير الدكتور Villermé ، لذلك ، حرم القانون تشغيل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثمانى سنوات ، وحدد القانون عدد ساعات العمل اليومية بالنسبة للأطفال ، بثمانى ساعات يوميا لمن

---

(٦٧٦) Branciard, op. cit., note 302, pp. 85 et 107.

(٦٧٧) راجع ما سبق ، ص ١٣٠ وما بعدها ۰

(٦٧٨) راجع ما سبق ، ص ٢٩٥ وما بعدها ۰

(٦٧٩) Amiaud, op. cit., note 580, p. 29.
Pic, op. cit., note 580, p. 512.
Riedmatten, op. cit., note 598, p. 183.

تقل أعمارهم عن ١٢ سنة ، ١٢ ساعة يوميا بالنسبة لمن تتراوح أعمارهم بين ١٢ ـ ١٦ سنة ، وحرم القانون تشغيل الأطفال ليلا ، ما بين الساعة الخامسة مساء والخامسة صباحا ، كما حظر تشغيلهم يوم الأحد • وواضح ان أحكام هذا القانون كانت لا تتناسب اطلاقا مع ما يعانيه العمال ، الأطفال والنساء والرشد منهم ، خاصة ، وأنه حتى بالنسبة للأطفال لم تكن هذه الأحكام تسرى الا بالنسبة للمصانع التي تستخدم اكثر من عشرين عامل على الأقل • ورغم ذلك ، ظل قانون ١٨٤١ ، مجرد « حبر على ورق » ، فلم يلق اى تطبيق فعال ، فقد نص القانون على العقوبات المترتبة على مخالفة احكامه ، ولكنه لم يحدد أى هيئة أو جهة مسؤولة عن الرقابة على تطبيق هذه الأحكام ، لذا ، لم يعمل بأحكامه سوى نفر قليل من أصحاب الأعمال •

ولكن ، على الرغم من « تواضع » أحكام هذا القانون و « عدم فاعليتها » ، الا ان القانون في ذاته ، او بمعنى ادق ، الفكرة التى اوحى بها ، تستحق ان تكون واقعة يؤرخ بها في تاريخ القانون الاجتماعى • فلأول مرة ، ومنذ قيام الثورة الفرنسية ، يتدخل المشرع فى علاقات العمل ، ليقرر بعض الأحكام بقصد حماية الطبقة العاملة • لذلك ، فان هذا القانون لم يصدر الا بعد مناقشات طويلة وساخنة في البرلمان الفرنسي ، فقد اعترض على هذا القانون ، انصار المذهب الحر باعتباره « قيدا يرد على حرية العمل » ، بينما دافع عن هذا القانون ، المسيحيين الاشتراكيين وبعض اعضاء الطبقة الارستقراطية القديمة •

وقد جرت محاولة لتعديل هذا القانون ، حتى يلقى نصيبا أكبر من التطبيق ، بحيث اقترح انشاء هيئة من موظفى الدولة للتفتيش على تطبيق أحكام هذا القانون ، ولكن هذا التعديل ظل يتعثر ، حتى قامت ثورة ١٨٤٨ ، فأطاحت بملكية يوليو ، وقامت فى فرنسا الامبراطورية الثانية ، وبها تبدأ المرحلة الثانية من مراحل تطور التشريع الاجتماعى فى فرنسا •

٢ ـ المرحلة الثانية ـ حماس تشريعى غير فعال(٦٨٠)

تعتبر ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا ، اولى الثورات الاجتماعية ، لذلك ، كان

(٦٨٠)
Amiaud, op. cit., note 580, p. 30.
Branciard, op. cit., note 302, p. 85.

من الطبيعي ان تبدأ هذه الثورة بتقرير حق الاقتراع العام ، وبوضع السلطة فى أيدى أصحاب الفكر الاشتراكى . لذلك نجد ان لويس بلان كان من بين أعضاء الحكومة المؤقتة التى تكونت فى اعقاب الثورة . واتخذت الثورة منذ بدايتها مسلكا مضاد للأفكار الليبرالية الفردية السائدة حتى ذلك الوقت(٦٨١) . لذلك ، يصبح من السهل ان نتفهم ، ان تسارع الحكومة المؤقتة باظهار اهتمامها باحوال العمال وبيان رغبتها فى تنظيم علاقات العمل ، ولكن هذا الاهتمام وهذه الرغبة ، نتيجة لاحداث يونيو عام ١٨٤٨ ، سيظلان مجرد « بيان حماسي » دون نتائج عملية محددة .

ـ مراسيم فبراير ومارس ١٨٤٨ :

غداة تكوين الحكومة المؤقتة ، وتحت تأثير لويس بلان صدرت مجموعة من المراسيم بقوانين des décrets تضع بعض القيود على علاقات العمل وتنظم عقد العمل الفردى ، وكذلك تنظم هذه المراسيم المنافسة بين أصحاب الأعمال .

فقد صدر أول مرسوم فى ٢٦ فبراير ١٨٤٨ لتنظيم علاقات العمل ، وقد كان هذا المرسوم على درجة من الأهمية بحيث يمكن اعتباره بيانا معبرا عن الأفكار التى حملها رجال ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا ، وقد جاء فيه « ان الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية تتعهد بضمان الحياة الكريمة للعامل بواسطة العمل ، وتتعهد بضمان عمل لكل عامل ، وبمنح العمال حق التنظيم الجماعى ليحققوا مطالبهم المشروعة » . ويتضح من هذا الاعلان ، ان الحكومة تتعهد بضمان حق العمل لكل عامل ، وباطلاق حرية اقامة الجمعيات للطبقة العاملة ، وبضمان حد أدنى من « مستوى المعيشة » للعمال .

وقد تبع هذا المرسوم ، مجموعة من المراسيم الأخرى تضع المبادئ المعلنة فيه ، موضع التطبيق . فصدر مرسوم ٢٧ فبراير وكان يقضي باقامة « ورش تابعة للدولة » يعمل فيها العمال الذين لا يجدون عملا ، كما صدر مرسوم آخر يقضي باقامة لجنة دائمة ، عرفت باسم « لجنة لوكسمبرج » ، مكونة من العمال وأصحاب الأعمال لبحث كافة المشاكل المتعلقة بتنظيم علاقات العمل .

---

(٦٨١) René Remond, op. ct., note 293, p. 127.
Niveau, op. cit. note 122, p. 133.

كذلك ، صدر مرسوم بتاريخ ٢٨ فبراير اعلنت فيه الحكومة مبدأ حرية تكوين الجمعيات . وأخيرا مرسوم ٢ مارس الذى حدد عدد ساعات العمل اليومية ، بالنسبة لكل العمال ، بـ ١٠ ساعات فى باريس ، و ١١ ساعة فى الأقاليم ، وجاء فى هـذا المرسوم « ان العمل لعدد كبير من الساعات ، يؤدى ليس فقط الى التاثير على العامل من الناحية الصحية ، بل ويؤثر على امكانياته الذهنية والفكرية ، بما يتعارض والكرامة الانسانية »(٦٨٢) .

- النتائج العملية لمراسيم فبراير ومارس ١٨٤٨ :

ولكن ، رغم أهمية هذه المراسيم ، فان نتائجها العملية كانت محدودة . لقـد عرفت هذه الفترة « حماسا تشريعيا » يستحق الاعجاب ، ولكنه كان للأسف دون نتائج عملية . ذلك ، ان رفع مستوى معيشة العامل وتحسين ظروف العمل يرتبط بالضرورة بالاوضاع الاقتصادية ، ويكون من الأسهل تحقيق هذه النتائج ، على الأخص ، فى أوقات الرخاء الاقتصادى ، بحيث يصعب بالطبع ، الوصول الى هذه النتائج خلال فترات الأزمات ، وخاصة فى فترة يشوبها الاضطراب الاجتمـاعى وتعقب قيام ثورة بدلت نظام الحكم ، وهذا ما تجاهله اعضاء الحكومة المؤقتة .

وترتب على تقرير حق الاقتراع العام ، ان حصل الفلاحين على حق التصويت، ونظر لطابعهم المحافظ ، ولكونهم الاغلبية ، فقد اتت الانتخابات التشريعية ، بنواب في البرلمان معادون للفكر الاشتراكى ، لذلك فان ممثلى التيار الاشتراكى تقلص عددهم الى حد كبير فى الحكومة ، بل واختفوا بعد قليل بصورة نهائية من الحكومة .

وبالنسبة للورش الحكومية ، التى انشأت لتدبير عمل للعاملين فان هـذه الورش فشلت ، فقد تكدس العاملين فيها ، دون ان يدروا ما يجب عليهم عمله ممـا أدى بهذه الجموع الى التذمر ، خاصة ، حين حاولت الحكومة ابعادهم عن باريس . فوقعت اضطرابات دامية ، واضطرت الحكومة الى مواجهتها بعنف ، وأعقب ذلك ، رد فعل تشريعى ، مؤداه ، العدول عن كل الأحكام التى قررتها مراسيم فبـراير ومارس ١٨٤٨ : فقد الغيت الورش الحكومية في ٣ يوليو ١٨٤٨ ، وفي ٩ سبتمبر تم العدول عن المرسوم المحدد لعدد ساعات العمل ، وتقرر ان تصبح ساعات العمل ١٢ ساعة يوميا فى كل انحاء فرنسا .

---

(٦٨٢) Branciard, op. cit., note 302, p. 86.

ولكن ، على الرغم من هذه « الردة التشريعية » ، فان ثورة ١٨٤٨ ستظل أيضا تاريخا لا ينسي في تطور القانون الاجتماعى ، فقد ارست مبدأ حماية الطبقة العاملة على الصعيد السياسي ، وفتحت الطريق بذلك ، امام مسيرة لم تنته ، خاصة، وان تقرير حق الاقتراع العام ، سيصبح سلاحا فى يد الطبقة العاملة ، تستخدمه لتحقيق مطالبها مستقبلا ٠

٣ ـ المرحلة الثالثة ـ التطور البطىء لقانون العمل والاعتراف للعمال بحق التنظيم الجماعى (١٨٤٩ ـ ١٨٩٠) :

وقد شهدت هذه الفترة فى فرنسا ، نظامين سياسيين : هما الامبراطورية الثانية ، ثم الجمهورية التالثة ٠ وقد بدأت الامبراطورية الثانية تاريخها بتحفظ شديد ، بل وبنظرة يشوبها الحذر من الطبقة العاملة ٠ والواقع ان هذا الحذر لم يكن نتيجة أفكار عدائية للطبقة العاملة ، بل على العكس ، فقد كانت جموع العمال والفلاحين هى اول من ساند لويس نابليون بونابرت فى الوصول الى الحكم ، كذلك ، فقد اتبع لويس بونابرت سياسة نابليون من حيث الاعتماد على الجماهير الشعبية فى مواجهة الطبقة البورجوازية ، ولكن اعتبارا من ١٨٥٢ وحتى ١٨٦٠ ، ظل شبح اضطرابات يونيو ١٨٤٨ الدامية عالقا في الأذهان وهو ما يفسر حذر الحكومة تجاه الطبقة العاملة ٠ ولكن هذا الحذر لم يدم طويلا ، فسرعان ما بدأت الامبراطورية الثانية في اصدار القوانين العمالية ٠

ـ الفترة الاولى من الامبراطورية الثانية (١٨٥٢ ـ ١٨٦٠) : نظام بوليسي محكم :

ففى هذه الفترة الأولى من الامبراطورية الثانية، ساد نظام بوليسي، ولم يصدر اى قانون لصالح الطبقة العاملة ، التى أخضعت لهذا النظام ، وصدر نتيجة لذلك بعض القوانين التى تضر بمصالح هذه الطبقة ، منها على سبيل المثال ، اعادة تحريم التجمعات العمالية الذى كانت قد اباحته قوانين الجمهورية الثانية[٦٨٣] ، كذلك ، أعيد العمل بـ « دفتر العمل »[٦٨٤] ٠ ولكن هذه القوانين ، تم تطبيقها باسلوب مخفف ، يدل على تطور الأفكار الاجتماعية ٠ فقانون ٢٢ يونيو ١٨٥٤ ، الذى

---

(٦٨٣) راجع ما سبق ، ص ٤٢٣ ٠

(٦٨٤) راجع ما سبق ، ص ٣٥٧ ٠

يعيد « دفتر العمل » يحرم على صاحب العمل الاحتفاظ بالدفتر حين يقرر العامل ترك العمل بحجة ان العامل لم يؤدى ما حصل عليه من قروض مسبقة من صاحب العمل، وبذلك ازال القانون أهم المساوىء التى كانت تنسب لنظام «دفتر العمل» . ويقيم القانون بالمقابل ، نظاما مؤداه ان يتم استقطاع مستحقات رب العمل السابق من أجر العامل لدى صاحب العمل الجديد ، مع السماح للعامل بترك العمل في أى وقت يشاء .

كذلك ، فان قانون ١٨٤٩ ، الذى اعاد جريمة التجمع ، لم يستطع التفرقة بين تجمعات العمال « وتجمعات اصحاب الأعمال » ، بل جعل الحظر شاملا لهما معا، واخضع مخالفة أحكامه ، من جانب العمال او اصحاب الأعمال لنفس العقوبة .

- الفترة الثانية - لنظام ليبرالى(٦٨٥) :

وفى عام ١٨٦٠ ، تبدأ الفترة الثانية من حياة الامبراطورية الثانية فى فرنسا ، وهى فترة يصفها الكتاب بانها فترة ليبرالية ، بالمقابلة للنظام البوليسي الذى كان سائدا قبلها . ففى هذه الفترة ، وتحت تأثير نابليون الثالث ، الذى كان يسعى الى كسب الجماهير ، ويميل لاعتناق أفكار انسانية يشوبها بعض الفكر الاشتراكى ، بدأت حكومة الامبراطورية الثانية ، تبدى اهتماما متزايدا بالطبقة العاملة .

وقد بدأ هذ الاتجاه يتضح فى مسلك الحكومة تجاه الجمعيات العمالية : لقد كانت هذه الجمعيات - كما راينا ، محرمة خلال الفترة الأولى من الامبراطورية ، فلجأ العمال الى تكوين جمعيات سرية ، ولكن هذه الجمعيات كانت تهاجم خلال الفترة الأولى ويتعرض اعضاؤها الى احكام صارمة . لذلك ، بدأت الحكومة بالعفو عن العمال الذين صدرت ضدهم أحكام ، بل ان الحكومة بدأت تقيم صلات مع قادة هذه الجمعيات للتشاور فى شأن مطالب الطبقة العاملة .

---

(٦٨٥) R. Rémond, op. cit., note 293, p. 127.
Amiaud, op. cit., note 580, p. 34.
Silvestre, op. cit., note 491, p. 18 et p. 19.

ـ قانون ٢٥ مايو ١٨٦٤ ـ الغاء جريمة التجمع والاعتراف بحق الاضراب(٦٨٦) :

ولعل أهم انجازات الامبراطورية الثانية فى نطاق القانون الاجتماعى ، كانت الغاء النصوص التى تجرم «الجمعيات العمالية» ، وتعطى للعمال الحق فى الاضراب. فقد منح قانون ١٨٦٤ للعمال الحق في التجمع والتوقف عن العمل بصورة جماعية، على أثر التشاور فيما بينهم ، أي اعترف القانون للعمال بالحق فى الاضراب ، ولكن حق العمال ، كان يقتصر على التجمعات « المؤقتة » ، دون الحق في اقامة جمعيات « دائمة » ، بمعنى أنه كان من حق العمال ، شن اضراب ، دون ان يكونوا « نقابة »(٦٨٧) .

وعلى الرغم من ذلك ، أى على الرغم من هذا العيب الجسيم الذى شاب القانون ، حيث منح العمال حق الاضراب دون حق اقامة الجمعيات ، فجاء القانون

---

(٦٨٦) Branciard op. cit., note 302, p. 107.

(٦٨٧) فقد الغيت المواد ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ من القانون الجنائى ، وحل محلها الأحكام التالية :

المادة الأولى من قانون ٢٥ مايو لسنة ١٨٦٤ : تلغى المواد ٤١٤ و ٤١٥ و ٤١٦ من القانون الجنائى ويحل محلها الأحكام التالية :

مادة ٤١٤ : يعاقب بالحبس مدة تتراوح من ستة أيام الى ثلاث سنوات وبغرامة تتراوح من ١٦ فرنك الى ٣ آلاف فرنك ، او باحدى هاتين العقوبتين ، كل من حاول بواسطة العنف او التهديد او استعمال الاساليب الاحتيالية التوصل الى وقف العمل او استمرار ايقافه ، بطريقة جماعية ، بقصد رفع الأجور او تخفيضها او بقصد اعاقة حرية الصناعة او العمل .

مادة ٤١٥ ـ اذا وقعت الافعال المشار اليها اعلاه على أثر التشاور الجماعى ، فانه ، يمكن الحكم على المتهمين بوضعهم تحت مراقبة البوليس لمدة تتراوح بين سنتين (كحد ادنى) وخمس سنوات (كحد اقصى) .

مادة ٤١٦ : يعاقب بالحبس مدة تتراوح بين ٦ أيام وثلاث شهور وبغرامة تتراوح بين ١٦ فرنك و ٣٠٠ فرنك ، او باحدى هاتين العقوبتين ، كل عامل او صاحب عمل او مقاول ، توصل بواسطة توقيع الغرامات . او على أثر خطة جماعية متفق عليها ، الى المساس بحرية العمل أو الصناعة .

المادة الثانية : تسرى الأحكام المذكورة اعلاه على ملاك الاراضي الزراعية والعمال الزراعيين .

وبذلك يتضح ان « التجمع » فى ذاته بقصد اعلان المطالب ، لا يشكل جريمة كما كان الأمر سابقا (راجع ما سبق ص ٣٥٢) ، ولكن يقع التجمع تحت طائلة قانون العقوبات اذا صاحبته اعمال عنف او تهديد باستخدام العنف .

راجع فى ذلك ، Silvestre, op. cit., note 491, p. 18.
Dupeux, op. cit., note 299, p. 158.

ممسوخا ، متجاهلا طبيعة الاضراب ، واعتماده اساسا على حرية التنظيم الجماعي، فان هذا القانون لم يصدر دون مقاومة شديدة من البرلمان ٠

ولكن ، على الرغم مما وجه اليه من نقد(٦٨٨) ، فان هذا القانون كان له الفضل في منح العمال سلاحا فعالا يستخدمونه من اجل تحقيق مطالبهم ٠

— الغاء المادة ١٧٨١ من القانون المدني :

ومن الاجراءات التي اتخذت أيضا ، وتعد من قبل التطور في علاقات العمل ، اعادة التوازن في علاقات العمل وتحقيق المساواة بين العامل وصاحب العمل بالغاء نص المادة ١٧٨١ من القانون المدني والتي كانت تقرر أنه في حالة الخلاف بين العامل وصاحب العمل حول مقدار الأجر وادائه ، يؤخذ بقول صاحب العمل(٦٨٩) ٠ ولم يكن لهذه التفرقة من مبرر ، سوى ما كان لأصحاب الأعمال في بداية الثورة الفرنسية من سيطرة مطلقة ، لذلك الغي هذا النص بموجب قانون ١٢ أغسطس ١٨٦٨ ٠

— تطور قانون العمل في ظل الجمهورية الثالثة :

على الرغم من ان الجمهورية الثالثة ، تعتبر النظام السياسي الذى شهد أكبر تطور في قوانين العمل في فرنسا ، الا ان الأمر لم يكن كذلك ، منذ البداية ٠ فلقد شهدت الجمهورية الثالثة ، في بدايتها ، احداث كوميونة باريس (١٨٧١) la Commune de Paris ، فتركت تلك الاحداث بصماتها ولم يكن من السهل

---

(٦٨٨) وقد رد مقرر القانون Emile Ollivier عن النقد الموجه للقانون بقوله « انه لمن المحزن ان تكون ردود الفعل على هذا القانون هو رفض التطور بحجة انه غير مكتمل ، فهذه نظرة تشاؤمية مؤداها رفض كل ما ياتي من جانب الحكومة ، ونقد كل خطواتها ورفض كل ما يصدر عنها من اجراءات ، حتى ولو كان عملا طيبا ، بل على الأخص العمل الطيب لأنه قد يفيد من قاموا باعداده ، وهو ما لايريده الخصوم ٠

اما انا فلست متشائم ، واقبل الخير من اى يد يأتي ٠ فلا اقول : اما كل شيء اولا شيء ٠ بل اقول « شيئا قليلا كل يوم » (٠٠٠) فقد قررنا اليوم حق الاضراب ، وغدا نبيح حق اقامة الجمعيات ٠ انني ارى بشكل واضح في القانون غياب الحق في اقامة الجمعيات ، ولكنني ارى ايضافية الحق في الاضراب، لذلك لا انتقد القانون بالنظر الى ما ينقضه ، ولكنني اتقبله بالنظر الى ما يتضمنه » ٠
Silvestre, op. cit., note 491, p. 19.

(٦٨٩) راجع ما سبق ، ص ٣٥٨ ٠

التغلب على آثارها ، ونشأت ، فى صفوف البرلمانيين الفرنسيين ، حساسية شديدة ضد المطالب العمالية ، خلال عدة سنوات[٦٩٠] • لذلك ، تطلب الامر مرور ثلاث عشرة سنة (١٨٨٤) من الاحداث ، حتى يعترف المشرع للعمال بحق اقامة الجمعيات • ولكن قبل ذلك ، صدرت عدة قوانين عمالية متفرقة أقل أهمية [٦٩١] من تلك التى ستبدأ بقانون الجمعيات عام ١٨٨٤ •

— قانون ٢٢ مارس ١٨٨٤ المتعلق بالنقابات العمالية :
قانون ولدك روسو Waldeck Rousseau

يعتبر هذا القانون من أهم القوانين العمالية التى صدرت فى ظل الجمهورية الثالثة ، بل من أهم القوانين جميعا حتى هذا التاريخ • حيث يتعلق هذا القانون بالنقابات المهنية ، فيسمح للعمال ولأصحاب الأعمال على السواء ، باقامة جمعيات دائمة للدفاع عن مصالحهم المهنية • وقد صدر هذا القانون ، تحت تأثير وزير الداخلية آنذاك ولدك روسو ، واشتهر القانون لذلك باسمه • ويتميز هذا القانون بمسحه ليبرالية واضحة ، ويقرر مبدأ « الحرية النقابية » في اوسع معانيه ، حيث يسمح بانشاء النقابات ، بكل حرية ، فى جميع المهن ، وبأقل قدر من الاجراءات الشكلية • ويتم انشاء النقابات دون اى اذن من جانب الادارة ، وتتمتع كل نقابة بحرية تامة في وضع لوائحها الداخلية ونظمها ، ويقرر القانون أيضا مبدأ الحرية النقابية الفردية ، فكل عامل من حقه ان ينضم الى النقابة ، ولا يمكن اجباره على الانضمام ، ولا يمكن اجباره ايضا على البقاء حتى اراد الانسحاب • وتجرى المناقشات وتتخذ القرارات في داخل النقابة — وفقا لنظامها الداخلى ، ودون أى تدخل من جانب الحكومة ، التى يمكنها ، وفقا للقواعد العامة ، طلب حل النقابة فى حالة مخالفتها للنظام العام[٦٩٢] •

---

(٦٩٠) بل على العكس ، صدر قانون ١٤ مارس ١٨٧٢ ليعاقب جنائيا كل من ينضم الى « الدولية العمالية » ذات الاتجاه الماركسي •
Amiaud, op. cit., note 580, p. 36.

(٦٩١) منها مثلا قانون ١٩ مارس ١٨٧٤ المتعلق بتشغيل النساء والأطفال فى الصناعة ، والذى تضمن احكاما اكثر تقدما من قانون ١٨٤١ ، وخاصة تحريم عمل النساء في المناجم ، وتحريم تشغيل الأطفال قبل بلوغهم ١٢ عام ، وتحريم تشغيل النساء او الأطفال فى الأعمال الليلية •
Branciard, op. cit., noee 302, p. 137.

(٦٩٢) Amiaut, op. cit., note 580, p. 37.
Branciard, op. cit., note 302, p. 137.

وتبدو اهمية هذا القانون واضحة للعيان ، فقد استكملت به الطبقة العمالية الجانب الأكبر من قوتها ، حيث كان حق اقامة الجمعيات مجرما عليها ، وبهذا القانون تجمع بين يدي الطبقة العاملة سلاحى الاضراب والنقابات ، فتم لها بذلك استكمال عناصر قوتها ، ومكنها من استخدام تلك العناصر ، على نحو منظم ، لتحقيق مطالبها ، ولعل ذلك هو ما يفسر لنا ، التطور السريع والمستمر للتشريع الاجتماعى في خلال المرحلة الرابعة من مراحل تطور قانون العمل في فرنسا ٠

٤ ـ المرحلة الرابعة ـ التطور السريع لقانون العمل ١٨٩٠ ـ ١٩٣٦ :
ظهور وتطور اشتراكية الدولة

اعتبارا من عام ١٨٩٠ شهد قانون العمل تطورا سريعا متلاحقا ، إعطاه المكانة التى نعرفها له الآن فى النظام القانونى ٠ هذا التطور وقع نتيجة لكفاح الطبقة العاملة ، وخاصة تحت الضغوط التى مارستها النقابات العمالية ، ولقى هذا الكفاح استجابة في وقت بدأ يتأكد فيه « الطابع الاجتماعى » للدولة وميلها للأخذ ببعض الأفكار الاشتراكية ٠

فمنذ عام ١٨٩٠ ، يمكن القول ، أنه لم يمر عام دون ان يصدر فيه قانون او اكثر لحماية الطبقة العاملة ، فقد حرصت الدولة على التدخل ـ باستمرار ـ فى العلاقة بين رب العمل والعامل ، لمصلحة هذا الأخير ، وهو ما دعانا للقول بـ « ظهور وتطور اشتراكية الدولة » ٠

ولقد شهدت هذه المرحلة بالذات ، عددا لا يمكن حصره من القوانين ، اهمها : قانون ٢ نوفمبر ١٨٩٢ (المتعلق بتنظيم عمل النساء والأطفال في الصناعة) ، قانون ١٨٩٨ بشأن اصابات العمل وكيفية تعويضها، قانون ١٩٠٠ بشأن تمثيل العمال لدى ادارة المنشأة ، قانون ٢٩ يونيو ١٩٠٥ بشأن عدد ساعات العمل فى المناجم ، قانون ١٣ يوليو ١٩٠٦ الذى قرر الراحة الاسبوعية الاجبارية للمستخدمين والعمال ، قانون ٢٢ ديسمبر ١٩١١ بشأن تطبيق معاهدة برن الدولية المتعلقة بالعمل الليلى للنساء العاملات بالصناعة ٠

ويلاحظ بالنسبة لهذه الفترة ، ان التشريعات الاجتماعية قد أخذت تتطور ويتسع مجال تطبيقها ٠

سواء من حيث الموضوعات التى تنظمها ، فقد انعبثت هذه القوانين على موضوعات شتى : الراحة الاسبوعية ، عدد ساعات العمل ، الحماية من اصابات العمل ، تنظيم عمل النساء والأطفال ، التأمينات الاجتماعية ، الاعانات العائلية لأسر العمال ، حماية الأجر ، ... الخ .

او من حيث الأشخاص الذين شملتهم هذه القوانين بالحماية ، فالقوانين العمالية في بدايتها انصبت على حماية الأطفال العاملين في المصانع التى تستخدم ٢٠ عاملا فأكثر . ولكن القوانين الصادرة في ظل الجمهورية الثالثة ، امتدت لتشمل كل العاملين من النساء والأطفال والرجال ، ايا كان موقع عملهم ، في النشاط الصناعى ، او التجارى ، او الزراعى . مثال ذلك قانون اصابات العمل عند صدوره فى ابريل ١٨٩٨ كان لا يطبق الا على العاملين في بعض الصناعات التى اشتهرت بكثرة الحوادث فيها ، ثم مد نطاق احكامه ليشمل جميع العاملين فى المنشآت الصناعية والتجارية عام ١٩٠٦ ، ثم على العمال الزراعيين ١٩٢٢ ، ثم على العاملين فى قطاع الخدمات عام ١٩٢٣ ..

وهكذا ، بدأ قانون العمل ، كفرع مستقل ، تتبلور احكامه بشكل نهائى فى نهاية الجمهورية الثالثة ، ووضع اول مجموعة قانونية (كود) لعلاقات العمل ، واستمر تطور احكام التشريع الاجتماعى فى فرنسا ، خاصة مع اعتناق فرنسا لسياسة الاقتصاد الموجة حين تمكنت الجبهة الشعبية من الوصول الى الحكم عام ١٩٣٦ .

(ب) بلجيكا[٦٩٣] :

اعترف الدستور البلجيكى الصادر عام ١٨٣١ بحرية اقامة الجمعيات ، وبذلك تمكن العمال استنادا لهذا النص من تكوين نقاباتهم . ولكن المشرع البلجيكى لم يعترف بحق الاضراب حتى ١٨٦٦ ، حين صدر قانون ٣٠ ابريل مقررا حق الاضراب بشرط عدم استخدام العنف والتهديد والا وقع المضربين تحت طائلة قانون العقوبات .

---

(٦٩٣) Riedmatten, op. cit., note 598, p. 233.
Paul Pic, op. cit., note 580, p. 309.

غير ان المشرع البلجيكى ، خلافا لقرينه الانجليزى والفرنسي ، لم يعترف للنقابات بالشخصية المعنوية الا فى وقت لاحق وبالتحديد بموجب قانون ٣١ مارس ١٨٩٨ ، وبشرط ان تكون النقابة مهنية ، وتمتنع عن الاتصال بالحركات السياسية، كما يمتنع عليها تمويل المضربين من العمال ٠

وقد نجحت الحركة العمالية البلجيكية ، على الرغم من هذا الحظر ، في اقامة حزب عمالى عام ١٨٧٩ ، اطلق عليه اولا اسم الحزب الاشتراكى البلجيكى ، وتحول بعد ذلك الى « حزب العمل البلجيكى » ٠ وبقيام هذا الحزب ، اصبح عدد الاحزاب فى بلجيكا ثلاث : الحزب الكاثوليكى (محافظ) وحزب الاحرار ، وحزب العمل ٠ وقد تطور هذا الأخير بسرعة وعرف عنه انه اكثر الاحزاب تنظيما فى العالم ، وتميز بنظرته الواقعية للأمور ، ورغبته في المساهمة في البناء ، فقل لجوءه للعنف او للاضرابات ٠ وعمل هذا الحزب على انشاء العديد من « جمعيات المعونة المتبادلة »، وكذلك « الجمعيات التعاونية » ، كما عمل على دعم الحركة النقابية ، التى تضاعف عدد اعضاءها فى ظل حزب العمل : فبلغ عدد الاعضاء ٨٠ ألف عضو عام ١٩٠٢ ، وارتفع هذا العدد الى ١١٦ ألف عضو ١٩١٢ ٠

والى جانب النقابات التابعة لحزب العمل ، كان هناك « النقابات المستقلة » التى بلغ عدد اعضاءها ، ١٠ آلاف عضو ١٩٠٢ ٠ كذلك ، حاول حزب الأحرار اقامة نقابات تابعة له ، ولكنه لم يحقق نجاحا في هذا الميدان ، حيث لم يتجاوز عدد اعضاء هذه النقابات عام ١٩٠٥ ١٨٠٠ عضو ، بل ان الحزب الكاثوليكى حقق نجاحا إكبر فى هذا الميدان ، حيث بلغ عدد أعضاء النقابات التابعة له ٨٠ ألف عضو ، وقد قامت هذه النقابات الكاثوليكية بتكوين لجان تابعة لها ، مهمتها محاربة الحزب الاشتراكى (العمل) والأفكار الاشتراكية ، وبلغ عدد اعضاء هذه اللجان ٢٠ ألف عضو عام ١٩١٠ ٠

وحتى الحرب العالمية الأولى اعتمدت الحكومة اساسا على الحزب الكاثوليكى وحزب الأحرار ، ولكن فى اعقاب الحرب ، وبعد ان تقرر فى بلجيكا حق الاقتراع العام مع اعطاء المرأة حق التصويت ، استطاع الحزب الاشتراكى (العمل) تحقيق نجاح فائق حيث حصل فى البرلمان على ٧٠ مقعدا بينما حصل الكاثوليك على ٧٣ مقعدا والاحرار على ٣٤ مقعدا فقط ، وتشكلت حكومة ائتلافية ، كانت تضم ٥

وزراء كاثوليك ، و ٤ اشتراكيين ، و ٣ وزراء احرار ٠ واستطاع الاشتراكيين ، بذلك ، ان يؤثروا على الحكومة فى نظرتها الى التشريعات العمالية ، فتوالت القوانين المنظمة للعمل ٠

فاعتبارا من ١٨٨٦ ، وبسبب الاضطرابات العمالية ، قرر المشرع اصدار بعض التشريعات الاجتماعية ٠

فقد صدر قانون عام ١٨٨٧ ، وانشئت بموجبه « لجان الصناعة والعمل » في المقاطعات الصناعية ، وهى لجان يمثل فيها العمال واصحاب الأعمال ، بقصد تقديم المشورة والنصح للحكومة بصدد السياسة الاجتماعية الواجب اتباعها ٠

وصدر عام ١٨٩٦ ، قانون يلزم اصحاب الأعمال بان يعلنوا فى مؤسساتهم « لائحة النظام الداخلى » التى يتم وضعها بالتشاور مع العمال ٠

وتأثرا بالقانون الألمانى ، اصدر المشرع البلجيكى في ١٠ مارس ١٩٠٠ قانونا يتضمن الاحكام المنظمة لعقد العمل الفردى ٠

وفي عام ١٩١٩ ، ودون تدخل من المشرع ، بل على اثر اتفاق بين العمال واصحاب الأعمال ، انشأت لجان مكونة من اصحاب الأعمال والعمال ، مهمتها دراسة سياسة الأجور ٠

وفى عام ١٩٢٣ صدر قانون يحدد عدد ساعات العمل الاسبوعية بـ ٤٨ ساعة ، وقد خفض هذا العدد الى ٤٠ ساعة فقط عام ١٩٣٦ ٠

وبموجب قانون ١٩٣٠ صارت « الاعانات العائلية » اجبارية على كل اصحاب الأعمال ٠ وفي عام ١٩٠٠ ، نظم القانون قواعد المعاشات ، وكان الاشتراك فيها في بادىء الأمر اختياريا ، ولكنه صار اجباريا عام ١٩٣٤ ، واصبح التأمين يغطى ايضا مخاطر الوفاة والعجز ٠ اما تأمين المرض فكانت تتولاه جمعيات المعونة المتبادلة ٠

ولذلك ، عمل المشرع البلجيكى على توحيد كافة فروع التأمين فى ظل نظام موحد ، فصدر قانون ١٩٤٤ (٢٨ ديسمبر) موحدا الجهات المسؤولة عن التأمينات الاجتماعية وجعل التأمين شاملا لكل المخاطر التى يتعرض لها العامل مقابل ٢٥ ٪ من اجمالى الأجر ٠

وقد استمر مسار التشريع الاجتماعى فى بلجيكا ، بحيث قيل ان مستوى معيشة العامل البلجيكى وعلى الأخص القوة الشرائية لاجر العامل البلجيكى تعد من اعلى المستويات في اوربا ، بحيث ارتفع مستوى المعيشة في هذا البلد بنسبة ٤٠ ٪ تقريبا ما بين عام ١٩٤٨ و ١٩٥٤ ٠

(ج) ايطاليا(٦٩٤) :

تأثر القانون الايطالى ، كما سبق ان رأينا ، بالتشريعات الاجتماعية الصادرة في فرنسا ؛ ولكن التطور السياسي لهذا البلد ، ادى الى تأخر صدور هذه التشريعات ، الى حد كبير ٠

فقد الغى نظام الطوائف الحرفية فى ايطاليا اعتبارا من ١٨٠١ ٠ ولكن الجمعيات العمالية كان مسموحا بها ، مع احتفاظ السلطة بحقها فى حل هذه الجمعيات ٠ وقد بدأ العمال فى تكوين جمعياتهم ، التى عرفت باسم « جمعيات المقاومة » منذ عام ١٨٥٠ ، ولكن سرعان ما صدر قرار من الحكومة بحل هذه الجمعيات ، كما منع اول اتحاد للعمال في مدينة « جنوا » من عقد اجتماع عام له عام ١٩٠١ ٠ وبذلك لم يكن هناك في ايطاليا تحريم « قانونى » للجمعيات المهنية ، انما منع العمال عملا من تكوين جمعياتهم ٠

هذا ولم تندلع اضرابات فى ايطاليا حتى عام ١٨٩٨ حين قامت مظاهرة عمال السكك الحديدية ، وقد ردت الحكومة على هذه المظاهرة بالقبض على المتظاهرين وتجنيدهم فى صفوف الجيش ٠

لذلك ، لم تتهيأ ايطاليا للاعتراف بالتنظيمات العمالية الا عام ١٩٠٣ حين تكونت نقابة العاملين بالسكك الحديدية ، فاضطرت الحكومة للاعتراف بها ، مع تحريم حق الاضراب عليها ٠

وقد عقد الاتحاد العام للعمال اول مؤتمر له في ميلانو عام ١٩٠٦ ، وكان يضم آنذاك ٦٠٠ نقابة و ٢٥٠ ألف عضو ٠ والى جانب هذا الاتحاد ، قام اتحاد النقابات الكاثوليكية وبلغ عدد اعضاؤه ١٠٤ الف عضو عام ١٩١٢ ٠

---

(٦٩٤) Riedmatten, op. cit., note p. 225.
Paul Pic, op. cit., note p. 313.
Silvestre, op. cit., note p. 37.

وقد تعددت محاولات انشاء حزب عمالى اشتراكى فى ايطاليا ، ولكنها كانت تقابل جميعا بالحل من جانب الحكومة ، خاصة وان هذه الاحزاب كانت جميعا واقعة تحت سيطرة الشيوعيين الفوضويين بقيادة باكونين ، حتى انشىء الحزب الاشتراكى الايطالي عام ١٨٩٥ وازداد تأثيره بشكل مضطرد : فقد حصل عام ١٨٩٢ على ٢٦ ألف صوت وست مقاعد فى البرلمان ، وحصل عام ١٩٠٧ على ١٧٥ ألف صوت و ٣٢ مقعداً فى البرلمان ، وحصل عام ١٩١٢ على ٨٨٣ ألف صوت و ٥٢ مقعدا فى البرلمان

ولكن الحركة العمالية الايطالية ، انقسمت على نفسها ، بانقسام الحزب الاشتراكى بين اتجاهين : الاول ، ويتمثل فى الاشتراكية الدولية التابعة لكارل ماركس ولجناحها المتطرف (الفوضوى) بقيادة باكونين ، واما الثاني فهو الاتجاه الثورى الذى يتبع افكار جورج سورال G. Sorel

ويفسر لنا ، هذا الانقسام على الصعيد السياسي ، فشل الحركة الايطالية في تحقيق مطالبها منذ وقت مبكر ، وتأخر ظهور التشريعات العمالية بها ؛ فحتى اوائل هذا القرن لم يكن قد صدر بايطاليا الا عدد محدد من القوانين العمالية ، أهمها : قانون تنظيم اجهزة السلامة والصحة المهنيــة (٢٢ ديسمبر ١٨٨٨) ، والقواعد الخاصة بتشغيل النساء (١٩ يونيو ١٩٠٣) والتامين الاجبارى ضد الحوادث (٢٩ يونيو ١٩٠٣) .

البند الثالث ـ المانيا وسويسرا :

(أ) المانيــا(٦٩٥) :

يقتضي استعراض تطور التشريع الاجتماعى وحق التنظيم الجماعى فى المانيا بالذات ، ان نخصص بعض الصفحات للتطور السيــاسي في المانيــا ، فالاشتراكية الألمانية ، كان لها تأثيرا كبيرا على الحركات العمالية ، ليس فى المانيا وحدها ، ولكن فى أغلب دول اوربا قبل الحرب العالمية الأولى .

---

(٦٩٥) Riedmatten, op. cit., note 598, p. 221.
Paul Pic, op. cit., note 580, p. 328
Silvestre, op. cit., note 491, p. 42.

فكما حدث فى أغلب البلاد ، ساندت الطبقة العمالية فى أول الأمر ، الحزب الليبرالى ، بقصد تقرير مبدأ الاقتراع العام ، فقد كان تقرير هذا المبدأ علاجا للمشاكل السياسية والاجتماعية على السواء ٠

وفى عام ١٨٦٣ انشيء اول حزب عمالى مستقل ، عرف باسم « الاتحاد العام للعمال الألمان » ٠ بقيادة الاشتراكى « لاسال Lassale » ، واعتنق الحزب فكرة مؤداها ، ان النظام التعاونى هو خير وسيلة يحصل بها العامل على عائد عمله بالكامل ، ويحرم بذلك صاحب راس المال من استغلاله ٠ كذلك ، فان هذا الحـزب تميز بنزعته «الوطنية» ، وهو ما جعله يدخل في مواجهة مع «كارل ماركس» صاحب نظرية الاشتراكية الدولية ، خاصة وان ماركس رغم وجوده خارج المانيا الا انه كان له تأثيرا كبيرا داخلها ، وقد تزايد هذا التأثير بعد وفاة « لاسال » ، حين انشأ اتباع كارل ماركس عام ١٨٦٩ « الحزب الاشتراكى الديمقراطى » الذى انضم للدولية الاشتراكية ، واخذ يحارب « النزعة الوطنية » التى عادت للظهور فى ألمانيا ٠ وقد ظلت المواجهة بين الاتجاه الماركسي وبين اتباع لاسال ، حتى اتحدا عام ١٨٧٥ واتفقا على اعتناق برنامج مشترك ، واتخذ الحزب الجديد اسم « الحـزب الاشتـراكى الديمقراطى » ، ورغم اعلانه بأنه حزب « ماركسي » فقـد سـيطرت عليه النزعة الوطنيـة ٠

وقد ترتب على هذا الاتحاد بين الاتجاهين الاشتراكيين ، ان اكتسبت الحركة الاشتراكية الألمانية قوة وتأثيرا لاحد لهما ، حتى خارج حدود المانيا ، خاصـة فى فرنسـا ٠ فقبل وحدتهما ، حصل اتباع لاسال واتباع ماركس على ٩٠ الف صوت في الانتخابات (١٨٧١) اما بعد اتحادهما فقد ارتفع عدد الاصـوات التى حصلوا عليها عام ١٨٧٤ الى ٣٩٥ الف صوت واستمر تاثيرهـم يتزايد بحيث حصلوا عام ١٨٨٤ على ٥٥٠ ألف صوت، ١٨٨٧ على ٧٦٤ ألف صوت وعام ١٨٩٠ على ٨٦٣ر٤٢٧ر١ صوتا ، وعام ١٩١٤ على ٠٠٠ر٢٥٠ر٤ صوتا ، اى حـوالى ⅓ عدد الأصوات المدلى بها ٠

ويمكننا من هذا العرض ان نتابع تطور النقابات العمالية في ألمانيا : فقـد صـدر اول قانون ينظـم الجمعيـات المهنيـة ، في ٢١ يونيـو ١٨٦٩ ، وعلى اثره بدأت حركة تكوين النقابات ، فبلغ عدد النقابات المهنية المركزية (عام ١٨٧٨)

٢٥ نقابة تضم حوالى ٥٠ الف عضو ٠ ولكن ، في اعقاب الحملة التى شنها بسمارك ضد الطبقة العمالية لم يتبق منها سوى ٤ نقابات عام ١٨٨٢ ٠ ولكن العمال عادوا مرة أخرى الى تكوين نقاباتهم ، يدعمهم في ذلك ، الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى اكتسب ـ كما رأينا ـ بعد الاتحاد، تاييدا شعبيا متزايدا، وهكذا انشيء ، لاول مرة « لاتحاد العام للنقابات الألمانية » وتزايد عدد اعضاؤه باضطراد على الوجه التالى : ٢٧٧ ألف (عام ١٨٩١) ، ٣٢٩ ألف (عام ١٨٩٦) ، ٥٨٠ ألف (عام ١٨٩٩) ، ٧٣٣ ألف (عام ١٩٠٢) ، ٠٠٠ر٣٢٠ر٢ (عام ١٩١١) و ٠٠ر٦٠٠ر٢ (عام ١٩١٣) ٠

والى جانب النقابات المنضمة للاتحاد العام ، وجدت بعض النقابات الثورية المعادية للنظام الديمقراطى ، ولكنها كانت ضعيفة التأثير فلم يتجاوز عدد اعضاؤها ١٥ ألف عضو (عام ١٩٠٦) ، بل ان هذا العدد تناقص الى ٧ آلاف عضو فقط عام ١٩١١ ٠

كذلك ، وجدت بعض النقابات الحرة ، التى كانت تسعى لتحقيق التفاهم بين أصحاب الأعمال والعمال ، مباشرة ، دون حاجة لتدخل الدولة ، وقد بلغ عدد اعضاء هذه النقابات ٣٠ ألف عضو (عام ١٨٦٩) ، و ٥٠ ألف (عام ١٨٨٥) ، وبلغ ١٠٨ ألف عضو عام ١٩١١ ٠

كذلك ، انشأ الحزب الكاثوليكى بعض النقابات التابعة له ، والتى بلغ عدد اعضاءها ٣٥٠ ألف عضو عام ١٩١١ ٠

ويقتضي الأمر ، ان توضح ، ان النقابات الألمانية جميعا (عدا النقابات الثورية) ظلت حتى الحرب العالمية الأولى تابعة للأحزاب السياسية ، ولم تبدأ حركة استقلال هذه النقابات وابتعادها عن الاحزاب الا في اعقاب الحرب العالمية الأولى ٠

وفي ضوء تطور التنظيمات السياسية والمهنية المبين اعلاه ، يمكننا ان نتفهم بسهولة ، ان تكون المانيا من أكثر الدول الصناعية اهتماما بالتشريعات الاجتماعية ومن اسبقها على الأخص في مجال التأمينات الاجتماعية :

فقد صدر اول قانون للتأمين الاجبارى ضد حوادث العمل في المانيا في ٦ يوليو ١٨٨٤ ، وصدر أول قانون للتأمين من الشيخوخة والعجز في ٢٢ يونيو ١٨٨٩ ،

وفي مجال حماية العامل ، صدر قانون تنظيم أجهزة السلامة والصحة المهنية أول يوليو ١٨٩١ (وعدل في ٣٠ يونيو ١٩٠٠) ، كما صدر اول قانون منظم لقواعد تشغيل النساء في أول يونيو ١٨٩١ (وعدل في ٢٨ ديسمبر ١٩٠٨) ، وصدر قانون التعاون في ١٢ اغسطس ١٨٩٦ ، وصدر قانون حماية الأجر في ٢٥ مارس ١٨٩٧ ، كما انشأت في المانيا وزارة العمل في نوفمبر ١٩١٨ .

(ب) سويسرا[٦٩٦] :

تتميز سويسرا، بانها كانت من البلاد الصناعية، التى لم تعرف اعمال العنف، حيث بدأت دراسة مشاكل العمل فيها ، بصورة هادئة ، ومنذ زمن مبكر : ففى ٦ مايو ١٨٣٨ تكونت جمعية من العمال والمفكرين بقصد دراسة المشاكل الاجتماعية ووضع الحلول المناسبة لها . كذلك ، تكون اول اتحاد للنقابات السويسرية منذ ١٨٨٠ ، فتمكنت النقابات من اقامة حوار حر مع اصحاب الأعمال ، بحيث يمكن القول ان سرويسرا لم تشهد اى اضرابات عنيفة ، عدا الاضراب العام الذى شهدته عام ١٩١٨ والذى لم يدم الا بضعة أيام ، وتم دون اى مظهر من مظاهر العنف، لم تعرف سويسرا اى اضطرابات اجتماعية. وتفسير ذلك ، ان السويسريين كانوا دائما ضد « الافكار الاشتراكية » لأنها كانت تاتيهم من الخارج ، ولذلك لم تكون الحركة العمالية السويسرية حزبا اشتراكيا ، بل ساندت دائما « الحزب الراديكالى » ووجدت فيه الكفاية لتحقيق مطالبها. ولذلك، نجد ان « اتحاد النقابات السويسرية » لم يكن له اتجاهات ثورية ماركسية ، بل كان ينادى بتحقيق مطالب العمال بالطرق السلمية . ويلاحظ ان الدستور السويسرى منذ عام ١٨٤٨ (مادة ٤٦) يأخذ بمبدأ حرية النقابات ، ويطلق حرية التكوين دون أى رقابة ولا يلزم النقابات الا بالتزام واحد هو عدم القيام بأى عمل يخل بأمن الدولة .

ولعل ذلك ، هو ما يفسر لنا ، ان المشاكل الاجتماعية في سويسرا ، قد عرفت طريقها للحل بهدوء : فمنذ ١٨٨٧ ، انشأ « المكتب الاتحادى للعمال السويسريين »

---

(٦٩٦) Riedmatten, op. cit., note598, p. 229.
Paul Pic, op. cit., note 580, p. 317.

وانظر كذلك عن النمسا ، نفس المرجع ، ص ٣٢٣ .

بالاضافة الى Silvestre, op. cit., note 491, p. 40.

« والسكرتارية السويسرية لشئون العمال » وكلفا بدارسة المشاكل العمالية واقتراح الحلول المناسبة لها ، وكانا يتمتعان بتمويل ومساعدة الدولة لهما لاداء اعمالهما .

ولذلك ، نجد ان الدولة نادرا ما تتدخل في نطاق علاقات العمل ، حيث يترك الأمر لطرفي العلاقة لتسويتها ، فالسويسريون يؤمنون ، أنه ليس هناك أى داع للثورة من أجل حل المشاكل الاجتماعية ، بل تكفى المفاوضات ، ويبدو ان هذا الأسلوب كان ناجحا في سويسرا . فقد عرف هذا البلد عدد ساعات عمل محدودة بثمانى ساعات يوميا منذ عام ١٩١١ ، كما عرف أيضا التأمين الاجبارى ضد حوادث العمل (١٣ يونيو ١٩١١) ، والتأمين الاختيارى ضد البطالة والمرض في العديد من مقاطعاتها ، كذلك ، عرفت العديد من هذه المقاطعات ، ومنذ مطلع هذا القرن نظام « الاعانات العائلية » .

ولكن الملاحظ ان اغلب هذه الانظمة ليست نتيجة لتدخل الدولة ، بل هى نتاج الاتفاقيات الجماعية التى ابرمت في العديد من هذه المقاطعات واثمرت أيضا العديد من المزايا للعمال ، مثال ذلك ، الاجازة الاسبوعية المدفوعة الأجر ، فهى لم تقرر — في أغلب المقاطعات — بقانون ، انما جاءت نتيجة لاتفاقيات العمل الجماعية .

ويبدو ان الأمر يسير باضطراد نحو امتناع الدولة عن التدخل ، فرغم ما يتمتع به العمال السويسريون من حماية ، تكاد تفوق بعض البلاد الاوربية الأخرى ذات التشريعات العمالية الكثيرة، نجد ان أغلب هذه المزايا تجىء نتيجة لاتفاقيات العمل الجماعية . حقا ، لقد بدأت الدولة في التدخل في علاقات العمل منذ وقت بعيد ، مثال ذلك ، قانون تنظيم أجهزة السلامة والصحة المهنية (٢٣ مارس ١٨٧٧) وقواعد تشغيل النساء والأطفال (٢٣ مارس ١٨٧٧) ولكنها ، بدأت تمتنع عن التدخل بين العمل ورأس المال ، تاركة الأمر لاصحاب الشأن ، ليتولوا حل مشاكلهم بانفسهم ، وقد اثمرت هذه السياسة مع أصحاب الأعمال ومع العمال في سويسرا .

ولعل ذلك يرجع بالطبع لبعض العوامل الأخرى المساعدة ، منها مثلا أن سويسرا على طول تاريخها عرفت « التشغيل الكامل » لطاقاتها ، فقل ان عرفت

البطالة ، بل على العكس كانت دائمـا تستجلب الايدى العاملة • كذلك فان اجر العـامل السويسرى يعتبـر اكثر الاجـور ارتفاعا في العالم (باسـتثناء الولايات المتحـدة الامريكية) ، كما ان ميزانية الحكومة السويسرية كانت دائمـا في حالة توازن ، ممـا سـمح لها بفرض ضرائب معقـولة على المشروعات الصـناعية ، ومكن هذه الأخيرة من المنافسـة على الصعيد الدولى ، ومن منح عمالها أجـورا مرتفعـة •

البند الرابع — الدول الاسكندنافية(٦٩٧) :

نختتم عرضنـا لميـلاد قانون العمـل في البـلاد الصـناعية(٦٩٨) ، بالدول الاسكندنافية ، وهى الدانمارك والنرويج والسـويد • وتشترك هذه البلاد الثلاث، في قاسم مشترك يتعلق بتطورها الاجتماعى ، هو ان هذا التطـور تم في جـو من الحرية ، دون اثارة أى مشاكل او اضطرابات • ذلك ، أن هذه البلاد ، ظلت لفترة طويلة ، واكثر من نصف سكانها من الفلاحين الذين يملكون الأرض ، ويتمتعون بحريتهم واستقلالهم • وعندما بدأت حركة التصنيع ، لم نشـاهد في هذه البلاد ، نفس الظاهرة التى شاهدناها في البلاد الصناعية الأخـرى ، ونعنى بها الهجـرة المكثفة من القرية الى المدينة • كذلك فان اغلب الشركات المسـاهمة في هذه البلاد، كانت الدولة تمتلك فيها الجانب الأكبر ، ولذلك ، لم تلجأ الدولة الى التأميم ، لأنها كانت منذ البداية المالك للمشروعات الكبرى • ثم ان هذه الدول كانت تتمتع ومنذ وقت مبكر ، بقانون اجتماعى متطور •

(أ) الدانمـارك :

عرفت الدانمارك النظـام البرلمانى ، وحق الاقتراع العام للرجال منذ دستور ٥ يونيو ١٨٤٩ • وقد كانت الحكومة في بداية الأمر تعتمـد على حزب المحافظين

---

(٦٩٧) Riedmatten, op. cit., note 598, p. 238.
Paul Pic, op. cit., note 580, p. 316.

(٦٩٨) ولمزيد من المعلومات عن ميلاد قانون العمل فى بعض البلدان الأخرى ، نحيل القـارىء الى
Paul Pic, op. cit., note 580

فقد اورد الكاتب بيانات عن المجر (ص ٣٢٧) ، والاراضي المنخفضة (ص ٣١٢) ودول البلقـان (ص ٣٣٧) والنمسا (ص ٣٢٣) •

حتى ١٩٠١ ، حين انتقل الحكم لثلاث احزاب كونت فيما بينها ائتلاف حاكم : الحزب الفلاجى ، والحزب الراديكالى والحزب الاشتراكى الديمقراطى ، الذى كانت له دائما الأغلبية في البرلمان وفي عدد الوزارات . وتحت تأثير هذا الحزب ، تطورت النقابات وتطور التشريع الاجتماعى . فقد تكونت اولى النقابات منذ عام ١٨٧٠ ، وفي عام ١٨٩٨ تكون اول اتحاد عمالى للنقابات الدانماركية وكان يضم ما يقرب من ٨٥ ٪ من مجموع العمال .

وقد بدأت حركة التشريع منذ عام ١٨٩٩ ، بصدور قانون ينظم عقود العمل الجماعية ، وقانون آخر ينشيء هيئة تحكيم دائمة تتولى مراقبة تطبيق العقود الجماعية ، وكانت هذه الهيئة مشكلة من عدد متساو من العمال واصحاب الاعمال . وفي عام ١٨٩١ صدر اول قانون للتأمين الاجتماعي وهو تأمين اختيارى ضد المرض ثم صدر قانون آخر للتأمين ضد المرض والشيخوخة .

وقد قام المشرع الدانماركى عام ١٩٣٣ باصدار قانون موحد للتأمينات الاجتماعية ضد المخاطر التى يتعرض لها العامل . وتجدر الاشارة بهذا الصدد ، ان الدانمارك تعتبر مع السويد ، البلد الذى يعرف اعلى متوسط لحياة الانسان . وتشتهر الدانمارك ، بانها اكثر البلاد تقدما وتنظيما لاجازات العاملين ، خاصة من حيث تحمل رب العمل لنفقات الاجازة (وليس فقط للأجر) وكذلك من حيث تنظيم الاماكن الصالحة لقضاء العمال لاجازاتهم باسعار معقولة . ويلاحظ ايضا ان هذا البلد يتميز بارتفاع دخول العمال ، وبنوع من المساواة فيما بينهم ، تصل الدولة الى تحقيقه عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخل .

(ب) النرويج :

تكون الحزب العمالى في النرويج منذ عام ١٨٨٧ ، واستطاع منذ عام ١٩٠٣ ان يحصل على بعض المقاعد البرلمانية . ولكن حتى عام ١٩١٨ ، كان حزب الاحرار هو الحزب الحاكم ويسانده بعض الاشتراكيين اعترافا منهم بفضله في تقرير حق الاقتراع العام .

وفي عام ١٩٢٤ انضم الاشتراكيين الى حزب العمل ، وانشأوا « حزب العمال » على غرار حزب العمال البريطانى . ومنذ نشأته ، لفظ هذا الحزب فكرة الصراع الطبقى وادار ظهره للفكر الماركسي .

وبالنسبة لتشريعات العمل ، فقد عرف هذا البلد اول قانون للعمل عام ١٩٠٩ ويتعلق بالتأمين الاجبارى ضد المرض بالنسبة لكل العاملين . كذلك خددت ساعات العمل بـ ١٠ ساعات عام ١٩٠٥ ، وخفضت الى ثمانى ساعات عام ١٩١٨ . وصدر قانون سنة ١٩٤٠ يعطى للعمال الحق في اجازة سنوية مدفوعة الأجر لمدة اسبوعين . وقد اعطى كل شخص بلغ ٧٠ عاما الحق في معاش الشيخوخة بموجب قانون صدر عام ١٩٣٦ وبشرط الا تكون لديه القدرة على الانفاق . وتقرر التأمين الاجبارى ضد البطالة ، عام ١٩٣٨ ، والاعانات العائلية عام ١٩٤٦ .

ويلاحظ ان النرويج ، كالدانمارك تتولى الدولة فيها الرقابة على الشركات الكبرى دون حاجة الى ان تنهج سياسة تدخلية ، وهى لم تلجأ الى استخدام التأميم . كما ان توزيع الدخل في هذا البلد ، يتسم بقدر كبير من العدالة ، بفضل السياسة الضريبية المتبعة .

(ج) السويد :

بدأت حركة التصنيع في السويد ، في وقت متأخر نسبيا ، حوالى عام ١٨٧٠ ، وبدأت معها في نفس الوقت ، الحركة النقابية . ومنذ البداية ، اتصف النقابيين السويد بالاعتدال ، فقد آمنوا ان اللجوء للاضراب ينبغى ان يكون السلاح الأخير ، وان ما يمكن تحقيقه عن طريق الاضراب ، يمكن تحقيقه كذلك ، بواسطة النقابة ، فالعمال عن طريق تجمعهم ، يكتسبون قوة تمكنهم من مواجهة صاحب العمل .

ولكن على الرغم من ذلك ، كانت نظرة رجال الأعمال الى النقابات مشوبة بالحذر وانعدام الثقة ، لذلك كان تطور النقابات السويدية في البداية بطيئا : ففى عام ١٨٩٠ لم يتجاوز عدد الأعضاء في النقابات ٨٤٠٠ عضو ، ولكن سرعان ما تغلبت النقابات على هذا الضعف ، واستطاعت عام ١٨٩٨ أن تضم ٦٠ ألف عضو . وفي نفس التاريخ ، انشيء « الاتحاد العام للعمل » وكان يضم ١٦ نقابة مركزية و ٦٠٤ نقابة فرعية ، واستمر عدد الاعضاء في التزايد : ١١٣ ألف سنة ١٩١٢ ، و ٦٤٣ ألف عام ١٩٣٢ .

وقد مالت النقابات السويدية ، الى استخدام عقد العمل المشترك كوسيلة لحل المشاكل بين العمال واصحاب الأعمال . وقد ساعد على ذلك ، ان نقابات

أصحاب الأعمال بعد فترة من التردد ، وخاصة «اتحاد اصحاب الأعمال السويدى» ، آمنوا بامكانية حل اشاكل عن طريق الاتفاق ، فابرم في عام ١٩٠٨ ، ١٩٧١ اتفاقا تشمل ٩٦٠٠ صاحب عمل و ٢٥٥ ألف عامل ٠

ومن بين التشريعات الاجتماعية (المتقدمة) التى يتعين الاشارة اليها في هـذا البلد ، قانون تحديد عدد ساعات العمل بثمانى ساعات يوميا (١٩١٩) و قانون الاجازة السنوية المدفوعة الأجر (١٩٣٨)وقانون التأمين ضد اصابات العمل(١٩١٦) والتأمين ضد البطالة (١٩٣٤) ، وفي نفس العام صدرت مجموعة من القوانين الاجتماعية تعالج عدة مشاكل اجتماعية ، كالاعانات التى تمنح للعامل في حالة المرض ، وللمرأة العاملة في حالة الوضع ، ومعاشات الشيخوخة والعجز ، والاعانات العائلية .

كما اتخذت الحكومة عدة اجراءات ، قصد منها ضمان المسكن المناسب لأفراد الطبقة العاملة ، وضمان مستوى ادنى من التعليم لأطفال هذه الطبقة ٠

خاتمة

استعرضنا في هذا البحث ، العوامل التى أدت الى قيام الثورة الصناعية، والنتائج الاجتماعية والقانونية التى ترتبت عليها ٠

ومن هذا العرض تبين لنا ، ان الثورة الصناعية قامت ، نتيجة لاجتماع بعض العوامل المادية والفكرية ، وقد تضافرت هذه العوامل من أجل اذكاء الحافز الفردى ، فكان هذا الحافز المحرك الاكبر للنظام الرأسمالى ٠

ولكن هذا النظام ، اذ حقق ازدهارا اقتصاديا ، فانه فشل على الصعيد الاجتماعى : فقد انقسم المجتمع الى طبقات ، ولم يكن التقسيم الطبقى وليد الثورة الصناعية ، ولكن هذه الثورة ، ادت الى تقسيم المجتمع الى طبقات على اساس المركز الاقتصادى الذى يشغله كل فرد ، بعد ان كان التقسيم يقوم على « المركز القانونى » في عهد الاقطاع ٠

ولقد تكونت الطبقة الاضعف اقتصاديا ، الاكثر عددا وهى طبقة العمال (البروليتاريا)في احضان المدينة الصناعية وفي داخل المصنع الحديث ، وقاست ما قاسته من ظروف العمل والمعيشة ، في وقت كانت الطبقة الرأسمالية فيه تجنى ثمار التطور الاقتصادى ٠

وقد استندت الطبقة البورجوازية في استغلالها للطبقة العاملة ، الى الفكر الليبرالى ، واعتمدت عليه لتاكيد الروح الفردية في المجتمع ، ومكنت به صاحب رأس المال من مواجهة العامل منفردا ومجردا من أى سلاح ٠ ومن هنا كان تحريم حق التنظيم الجماعى وامتناع الدولة عن التدخل ، وقد ساهمت كتابات فلاسفة المذهب الفردى في اظهار هذا الوضع وكأنه « الوضع الطبيعى » ٠

ولكن الطبقة العاملة ، مع التطور ، ومع تكاثرعددها ، وتحت تأثير الأفكار الاشتراكية ، وفي سعيها لدفع الظلم عنها ، نظرت حولها ، فوجدت افرادها مجردين من أى وسيلة للدفاع، فعمل أفراد هذه الطبقة على ايجاد قوة «غير قوة سواعدهم» يعتمدون عليها في مواجهتهم لرأس المال ٠ وقد وجد العمال في تضامنهم « القوة

المنشـودة » • من هنا كانت مطالبة العمـال الدائبة بالاعتراف لهم بحق التجمع لمواجهة الآثار التى ترتبت على مبدأ « حرية العمل » •

وقد دار الـكفاح العمالى حول مطلبين اسـاسيين : الاعتراف بحق التنظيم الجماعي للعمـال من جهة ، وتنظيم علاقات العمل من جهة أخرى • وقد نجح العمال منذ منتصف القرن الماضي في تحقيق مطالبهم ، فكان ذلك ايذانا بمـيلاد القـانون الاجتماعى الذى يواصل تطوره حتى الآن[٦٩٩] •

تلك ، في سطور ، هي مقدمات الثورة الصناعية ، ونتائجها •

فما هى الدروس المستفادة منها ؟

لعل من الطبيعى في عالم إنقسـم الى كتـلة رأسمالية ، وكتـلة اشتراكية ومجموعة من الدول اطلق عليها اسم « الدول النامية » ، ان نتشاءل ، هل من الممكن ان تقع هذه الثورة الصناعية مرة أخرى في دول العالم الثالث ؟ او بمعنى آخر ، هل يشترط لوقوع الثورة الصناعية مرة أخرى ، ان تجتمـع نفس العـوامل ثانية في بلد معين حتى تتحقق هذه الثورة ؟

فلنأخذ على سبيل المثال ، المنطقة العربية ، ونستعرض من خلالها العـوامل التى راينا انها كانت سببا في وقوع الثورة الصناعية :

ـ تراكم رأس المال ، ويبـدوا أنه قد توافر خاصـة في دول الخليج العربى وما تحققه من عائدات البترول •

ـ الاختراعات والابتكارات الفنية : وقد بلغت بعض البلاد العـربيه درجة من التقدم يمكن علمائها من بذل العطاء في المجالين الفنى والصناعى ، خاصة ان القول بشراء الابتكارات والاختراعات في الوقت الحالى ، امر صعب ، نظرا لمحاولة الدول المتقدمة احتكار المعرفة في هذه الميادين • •

ـ الثـورة الزراعيـة : وهى لم تتحقق بعـد في أى بلد عربى ، بل ان بلدا كالسوادن للأسف ، لم تستغل امكانياته الزراعية حتى الآن ، فما بالنا نتحدث عن التطور الزراعى في وقت عز علينا فيه استغلال الامكانات المتاحة ولو بالطرق البدائية •

---

(٦٩٩) راجع فى هذا الموضوع : احمد حسن البرعى : نحو مولد نوع جديد من فروع القـانون « القانون الاجتماعى » •

بحيث منشور فى مجلة القانون والإقتصاد (العيد المئوى) ـ تحت الطبع •

اما الشكك الحديدية وأعمال البنوك فهي وان كانت ضرورية للتطور فانها بمجرد ظهور بشائر التحول الاقتصادي ، فلابد وان تتبع هذا التحول لتساير التطور .

اما عن العوامل الفكرية والاجتماعية ، فهذا هو بيت القصيد :

ان العالم العربي ، يعاني من تخلف فكري ، جعله يتوقف عند مرحلة الاقطاع ، ولكنه الاقطاع الذي يتناسب والعصر الحديث .

أنظر الى الحالة التي تردى اليها الفكر العربي . ان الحريات السياسية تكاد تكون معدومة ، ومازالت اغلب دول العالم العربي تعيش في نظام الحاكم الفــرد ، فكيف يمكن اذن للحوافز الفردية ان تنطلق لتحطيم القيود . ان من المتعارف عليه في أغلب البلاد العربية ، ان البورجوازية التجارية تخشى المغامرة في استثمارات طويلة الأجل نظرا لأنها تخشى الغد ، في بلاد تتميز بعدم الاستقرار السياسي . لذلك ، فهي تفضل التجارة « ذات الدورة السريعة لرأس المال » مع الاحتفاظ داخل البلاد بالقدر الأقل من الثروة ، اما القدر الاكبر فهو غالبا مودع او يستثمر في الدول المتقدمة .

ثم ماذا تقول ، عن بلاد الأصل فيها « تحريم الفــائدة » ، بينمــا اثرياؤها ومسؤوليها يودعون اموالهم بفائدة ولكن في دول أجنبية ؟

ان مثل التفكير ، سواء من حيث الاستثمار في بلاد أجنبية ، أو الجهر بتحريم الفائدة والحصول عليها « سرا » ، هذا هو التخلف بعينه ، الذي لا يمكن ان يؤدي الى تطور على الصعيد الاقتصادي .

هذا مثال ، لبعض الدول المتخلفة ، التي تجمعت لديها اغلب العناصر المادية ، ولكن حالتها « الفكرية » حالت دون تقدمها .

ولكننا ، في هذا المثال ، اخذنا الدول الصناعية المتقدمة مقيــاسا ، لذلك ، يحضرنا تساؤل آخر : الا يمكن تحقيق تقدم صناعي دون توافر كل العوامل التي سبق لنا دراستها ؟ اى بمعنى آخر ، هل يمكن الاستغناء من بعض هذه العوامل ؟

ان الاجابة على هذا التساؤل ، تحتاج لدراسة مستقلة ، ولكننا نقتصر على القول أن لدى كل أمة طاقات وامكانيات خاصة بها ، والمطلوب بالنسبة للدول النامية ان تقف على الأسلوب الأمثل لاستغلال طاقاتها الى اقصى حد ممكن ، وان تحاول تطوير قطاعها الصناعي بما يتلاءم وظروفها الخاصة وأمكانياتها .

ففى هذه الدول جميعا ، دون استثناء ، فائض ضخم من الايدى العاملة ، ويمكن باستغلال هذه الطاقة البشرية مثلا ، تعويض النقص في الآلات والمعدات الحديثة • ولكن هذا الاستغلال ، يثير مشكلة تدخل في صميم دراستنا ، وهى علاقة الاقتصاد بالمشاكل الاجتماعية ، وبالقانون الاجتماعى بالذات •

لقد راينا ، ان القانون الاجتماعى في البلدان الصناعية ، لم يولد طفرة واحدة او بقرار حكومى ، فهو لم يجىء من فراغ ، وان ما حصل عليه العمال ، من حماية وامتيازات قررها لهم المشرع او تضمنتها عقود العمل الجماعية ، استغرقت حتى وصلت الى ماهى عليه الآن قرابة قرن من الزمان ، تخللها كفاح عمالي عنيد ومستمر ضد الطبقة البورجوازية ، وبذلك كان القانون الاجتماعى ثمرة تطور استجاب فيه التشريع للظروف الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلاد •

فأين هى ، القوانين الاجتماعية للبلدان النامية ، من هذا التطور ؟

لقد حرصت ، بلاد العالم الثالث ، منذ استقلالها ، على اصدار تشريعات عمالية تتجاوب مع آخر الصيحات في الدول الصناعية المتقدمة ، ولم تنظر الدول النامية الى مدى استجابة أوضاعها الاقتصادية وقدرتها على تحمل اعباء هذا التشريع المتقدم

.ويبدو هذا القول صحيحا ، في بلاد إعتنق اغلبها الفكر الاشتراكى ، بحيث ظهرت الدولة وكانها « اكبر المستثمرين » ، لانها « اكبر الملاك » وتقلص ، نتيجة لذلك ، حجم القطاع الخاص •

وترتب على ذلك ، من جهة ان كل إمتياز جديد للطبقة العاملة يعنى زيادة العبء على ميزانية الدولة ، وانعكاس ذلك — بطريق غير مباشر — على الطبقة التي تقررت تلك الامتيازات لصالحها (فكاننا نعطيها باليمين ونسلبها باليسار) ، كما ترتب عليه ايضا ، من جهة أخرى ، ان زيادة الاعباء الاجتماعية ادت برؤوس الأموال الخاصة الى العزوف عن الاستثمار ، فهل هذه هى النتائج التى ارادت هذه الدول التوصل اليها باصدارها لتشريعات عمالية « متقدمة » ؟

ان أغلب هذه البلاد ، نتيجة لحالتها الفكرية على الأخص ، تعانى من ضعف الانتاج ، وعدم تناسبه مع الامكانيات المتاحة ، مما يؤدى بها الى ضياع الجزء الاكبر من مواردها المتاحة ، دون عائد حقيقى •

لذلك ، فان هذه البلاد ، لا يمكنها ان تضع نفسها في مجال «التقدم الاجتماعى» في نفس المستوى الذى وصلت اليه الدول المتقدمة ، لانها ليست في نفس مستوى هذه الأخيرة من حيث « التقدم الاقتصادى » ٠

ان التقدم الاجتماعى ، بحاجة ماسة الى التقدم الاقتصادى ، فهذا الأخير هو الذى يعول عليه لتمويل متطلبات التقدم الاجتماعى ، والا صار هذا الأخير ، وخاصة القوانين الاجتماعية كلمات جوفاء لا معنى لها : ذلك ان تقرير « الامتيازات الاجتماعية » بتشريع ، دون ان يكون هناك تقدم اقتصادى حقيقى ، معناه ببساطة ، الانتقاص من الموارد المتاحة للاستثمار ، دون انتاج فعلى يغطى الامتيازات الممنوحة، وما يؤدى اليه ذلك ، من مشاكل التضخم والبطالة واللجوء الى القروض الخارجية، وكلها امراض يعرفها اقتصاد دول العالم الثالث(٧٠٠) ٠

ان دول العالم الثالث ، حتى الآن ، لم تستغل طاقاتها المعطلة ، ونعنى بها على الأخص العنصر البشرى ، فقد انبهرت هذه الدول، بما وصلت اليه الدول الصناعية المتقدمة من تطور ، فوضعت الدول النامية ، نصب اعينها ان تدلف الى عالم « التكنولوجيا الحديثة » ، وان تستخدم « الالكترونيات » طفرة واحدة دون ان تمر بالمرحلة الفنية والصناعية الميكانيكية ، التى مرت بها البلاد التى تحققت فيها الثورة الصناعية ، فكانما هى محاولة لنقل طفل من مرحلة الدراسة الابتدائية ، الى الدراسة الجامعية ، دون المرور بمرحلة الدراسة الثانوية ٠

وليت الأمر قد وقف عند حد القفز في الميدان الاقتصادى ، بل حاولت الدول النامية ان تحقق نفس الطفرة في الميدان الاجتماعى ، دون أن تعى انهذا الميدان وخاصة التشريعات الاجتماعية ، مرتبط ارتباطا وثيقا بالاقتصاد ، وان كل تطور اجتماعى بحاجة الى تطور اقتصادى ٠

وبذلك ، نرى ، ان محاولات القفز تسلب البلاد النامية امكانيات التطور الحقيقى ، بحيث اصبحت المشكلة في هذه الدول ، ليس نقص الامكانيات المادية

---

(٧٠٠) فى العلاقة بين التشريعات الاجتماعية ، والتطور الاقتصادى ، انظر :
احمد حسن البرعى ، التعليق على قانون العمل الجديد ٠
مجلة مصر المعاصرة ـــ العدد ٠

فحسب ـ فهذه يمكن بطريقة او باخرى التخفيف منها ـ ولكن التخلف الفكرى هو اساس المشاكل في هذه الدول ، فهي بحاجة الى فكر جديد يتناسب والمشاكل التى تعانى منها • فكر لا يقلد الدول المتقدمة ، وانما يوازن بين الامكانيات المتاحة والحاجة الى التطور ، واذا لزم الأمر الاحتذاء بمثال ، فلنأخذ مثال الدول الصناعية، ولكن ليس فيما وصلت اليه ، بل فيما كانت فيه عند بداية الثورة الصناعيه ، حيث كانت ظروفها متشابهة ، وظروف الدول النامية في الوقت الحاضر ، مع محاولة تجنيب الطبقة العاملة قدر الامكان الظروف اللا انسانية التى عرفتها في البلاد الصناعية ابان الثورة الصناعية ، ولكن مع تحمل هذه الطبقة قدر من التضحيات يتناسب والمصاعب التى تعرفها هذه البلاد ، ويمهد لرخاء الاجيال القادمة ، فهذه البلاد النامية ، اما ان تختار التضحية الآن ، واما ان تحكم على شعوبها واجيالها القادمة بشظف العيش الى الأبد •

تم بحمد الله •

احمد البرعى

القاهرة في ٢٨/١١/١٩٨٢

بيان بالجداول الواردة بالمؤلف

صفحة

صفحة

بيان المراجع

اولا ـ باللغة العربية :

ـ احمد جامع : الراسمالية الناشئة (المرحلة الاولى للنظام الراسمالى ١٧٥٠ ـ ١٨٨٠) ٠
مكتبة التنمية والتخطيط ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

ـ احمد حسن البرعى : نحو مولد فرع جديد من فروع القانون : « القانون الاجتماعى » ٠
« بحث تحت الطبع ـ بمجلة القانون والاقتصاد ـ كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة » (العدد الخاص بالعيد المئوى للكلية) ٠

ـ أحمد حسن البرعى : الحركة التعاونية من الوجهيتين التشريعية والفكرية
الطبعة الثانية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠

ـ أريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادى ٠
ترجمة الدكتور / راشد البراوى ٠
«من الفكر السياسي والاشتراكى» ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

ـ اسماعيل هاشم : محاضرات في التطور الاقتصادى ٠
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨ ٠

ـ الانتقال من الاقطاع الى الراسمالية (مناظرة اشترك فيها موريس دوب ، بول سويزى ٠٠٠ وآخرون) ٠
ترجمة وتقديم / عصام الخفاجى ٠
دارابن خلدون ـ بيروت ـ ١٩٧٩ ٠

ـ البير سوبول : تاريخ الثورة الفرنسية ٠
ترجمة / جورج كوسي ٠
منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ١٩٧٠ ٠

ـ ثروت أنيس الاسنيوطى : الصراع الطبقى وقانون التجار .
دار النهضة العربية ـ القـاهرة .

ـ جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب : عرض اقتصادى تاريخى (تشكيلات ما قبل الرأسمالية والمجتمع الرأسمالى) .
دار الفارابى ـ بيروت ١٩٧٨ .

ـ جورج سـول : المذاهب الاقتصادية الكبرى .
ترجمة الدكتور راشد البراوى .
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٢ .

ـ زوبرتيكى ، كيروف ، متروبولكى : المشاعة ، الرق ، الاقطاع .
« التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ما قبل الرأسماليه » .
ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٨ .

ـ زينب عصمت راشد واحمد عبد الرحيم مصطفى : اصول التاريخ الاوربى الحديث من النهضة الاوربية الى الثورة الفرنسية .
(كتاب مترجم مراجعة الدكتور / أحمد عبد الكريم) .
دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٢ .

ـ عبد الحميد البطـريق : تاريخ اوربا الحـديث (من عصر النهضـة الى مؤتمر فيينا) .
جامعة الرياض ـ الرياض ١٩٧٨ .

ـ عبد الرحمن زكى : حضـارة عصر النهضة .
كتاب مترجم ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦١ .

ـ عبد الكريم احمد : القومية والمذاهب السياسية .
الهيئة العامة للتاليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠ .

ـ فيلسيان شـلاى : تاريخ الملكية .
(ترجمة / صبـاح كنعـان) .
منشور عويدات ـ بيروت ـ ١٩٧٣ .

ـ محمد عبد العزيز عجمية : الوجيز في التطور الاقتصادى ٠
دار الجامعات المصرية ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ٠

ـ نور الدين حاطوم : تاريخ النهضة الاوربية ٠
(الموسوعة التاريخية الحديثة ـ رقم ٣) ٠
دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٨ ٠

ـ نور الدين حاطوم : تاريخ الحركات القومية ٠
(الجزء الثانى : الحرية والقومية) ٠
دار الفكر الحديث ـ لبنان ١٩٦٩ ٠

ـ هنرى باتيفول : فلسفة القانون (ترجمة الدكتور / سموحى فوق العادة)٠
مجموعة « زدنى علما » منشورات عويدات ـ ببيروت باريس ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٠ ٠

ثانيـا ـ باللغـة الفرنسية :

— ADAM Antoine : le mouvement philosophique dans la premierè moitié de XVIII°e Siècle.
Société d'édition d'enseignement supérieur. Paris 1967.

— M. AMIAUD : Cours de législation industrielle les Cour de droit — Paris — 1945 — 1946.

— ANDERSON Matthew : l'Europe au XVIII° Siècle. (1713 — 1783). Histoire de l'Europe. TVIII. ed. Sirey — Paris 1968.

— Ph. ANDRE — VINCENT : les juristes face à la Société du XIX° Siècle à nos jours.
Coll : S.U.P. P.U.F. Paris 1975.

— ARIES Philippe : hisloire des populations françaises.
Coll "histoire", ed du Seuil, Paris 1971.

— T.S. ASHTON : la révolueion induserielle (1760 — 1830) "Civilisation d'hier et d'aujourd hui".
Plon — Paris — 1955.

— A. AUDIGANNE : la lutte industrielle des peuples Paris—Cappelle, 1868.

— AUGE - LARIBE (Michel) : la révolution agricole - Coll. : l'évolution de l'humanité A. Michel - Paris 1955.

— BABELON (Jean) : la renaissance artistique scientifique et littéraire "civilisations, peuples et mondes : la Renaissance" - Publié sous la direction de Roland Mousnier - Lidis - Paris 1966 - 1978.

— BAÏRDCH (P) : Révolution industrielle et sous-développement S.E.D.E.S. 3° éd Paris 1969.

— BARRINGTON (Moore) : les origines sociales de la dictature et de la démocratic - "Traduit de l'anglais par Pierre Clinquart"- Maspero Paris 1979.

— BESNARD (Philippe) : Protestantisme et capitalisme - Coll. V2 A. Colin - Paris 1970.

— BIELER (A.) : La pensée économique et sociale de Calvin Librairie de l'Université - Genève 1959.

— BOURCIER DE CARBON (Luc) : Essai sur l'histoire de la pensée et des doctrines économiques.

T I : de Montchréstien à Karl Marx - éd. Montchrestien - Paris 1971.

— M. BOUVIER-AJAM : Histoire du travail eu France depuis la révolution. L.G.D.J. - paris 1969.

— F. BOUDOT : la Coopération en France. les éditions ouvrières - Pairs 1956.

— M. BRANCIARD : Société française et lutte de classes (1789-1914) T. I.
Chronique Sociale de France - Paris 1967.

— BRAUDEL (Fernand) : Civilisation matérielle et capitalisme.

T. I : (Destin du monde XV° - XVIII° siècles.) — "sous la direclion de Raymond Picard" — Lidis - Paris (1966-1978).

— J.Bron : histoire du mouvement ouvrier français : T. I "le droit à l'existence du début du XIX Siècle à 1884. les éditions ouvrières, Paris 1968.

— Civilisations, peuples et mondes.
"Grande Encyclopédie des civilisations depuis l'antiquité jusqu'à l'époque contemporaine" le XVII° et le XVIII° siècle. Sous la direction de Raymond Picard - Lidis - Paris (1966—1978).

— COCHIN (Augustin) : les sociétés de pensée et la démocratie moderne Etudes d'histoire révolutionnaire, éd, Copernic - Paris 1978.

— Colloques internationaux du C.N.R.S. "sciences humaines".
"l'indusrialisation en Europe au XIX siècle" "Cartographie

et typologie" Lyon 7-10 Octobre 1970 - édition du C.N.R.S. - Paris 1972.

— CROUZET (François) : Agriculture et révolution industrielle "Quelques réflexions" — Cahier d'histoire n° 1 1967 pp. 67 es ss.

— CROUZET : La formation du capital en Grande-Bretagne pendant la révolution industrielle — 2° conférence de l'histoire éonomique Aix 1962. — éd. Mouton - Paris 1965 (pp. 589-642).

— M. DAVID : les travailleurs et le sens de leur histoire édition Cujas - Paris 1967.

— A. DAUMARD : l'évolution des structures Sociales en France à l'époque de l'industrialisation.
Rev. historique. N° 502. Avr - juin 1972. p.p. 325 et s.s.

— DELUMEAU (Jean) : Naissance et affirmation de la réforme P.U.F. Pairs 1973.

— DEMANGEON (A.) : Geographie de la France "économique et —humaine" A. Colin - T II - V. I.

— DENIS (Henri) : Histoire de la pensée économique - Thémis "sciences éconmiques" - P.U.F. 5° éd. Paris 1977.

— DOLFUSS (Ch.) et (E. Geoffroy et Baudry de saunier : histoire de la locomotion terrestre — Rev. l'illustration - Paris 1935 (2 vol.).

— E. DOLLEANS et (G. Dehove) : Histoire du travail en France.
"mouvement ouvrier et législation sociale"
1° Partie : dès origines à 1919.
ed. Thomas Montchrestien - Paris 1953.

— E. DOLLEANS : histoire du mouvement ouvrier (1871 - 1920).
"économie - Société et Civilisations". A. Colin - Paris 1967.

— A - L. DUNHAM : la révolution industrielle eu France. (1815 — 1848).
Marcel Rivière et Cie. - Paris 1953.

— G. Dupeux : la Société française (1789 - 1960) Coll V - A. Colin. Paris 1964.

— Encyclopédie Socialiste, syndicale et Coopérative de l'internationale ouvrière "publicé sous la direction technique de Compère Morel". ed. Artistide Quillet - Paris 1912.

— EPZTEIN (L.) : l'économie et la morale aux débuts du capitalisme industriel en France et en Grande Bretagne — A. Colin - Paris 1966.

— ERNEL (Lord) : Histoire rurale de l'Angleterre - Gallimard, Paris 1952.

— C. FOHLEN : Naissance d'une civilisation industrielle. "Histoire générale du travail". Nouvelle librairie de France - Paris - Sans date.

— C. FOHLEN : Qu'est ce que la révolution industrielle ? "Sciences nouvelles". éditions Laffont - Paris 1971.

— FOUGEYROLLAS : la révolution prolétarienne et les impasses petites - bourgeoises. éditions Anthropos - Paris 1976.

— FREUND (J) : Sociologie de Max-Weber - P.U.F. Paris 1966.

— GARRIGNON - LAGRANGE (Andre) et (Marc Penouil) : Histoire des faits économiques de l'époque contemporaine - Dalloz 1977.

— G. GILDER : Richesse et pauvreté. Tendances actuelles - Albin Michel. Paris - 1981.

— H. ABAKKUK (M.J) : La disparition du paysan anglais Annales (économies, sociétés, civilisations). A. Colin Juillet Août 1965 pp. 649-663.

— H. AZARD (Paul) : la pensée européenne au XVIII° siècle "De Montesquieu à Lessing". - Fayard - Paris 1963.

— Histoire générale des civilisations.

T V : l'époque des lumières (1715-1815) - Par Roland Musiner et Ernest Labrousse - P.U.F. Paris 1967.

— Histoire génnérale des techniques.
"Publiée sous la direction de Maurice Daumas".

T I : Les origines de la civilisation technique (1962).

T II : Les premières étapes du Machinisme (1965).

T III : l'Expansion du Machinisme (1968).
P.U.F. Paris.

— E.J. HOBSBAWN : l'ère des révolutions.
"l'aventure des civilisations". Fayard - Paris 1969.

— J. HOCHARD : nouveau manuel de Droit social.
éditions Neret - Paris sans date.

— IMBERT (J) et (H. Legohérel) : Histoire économique (dés origines à 1789) - Thémis, science économique - P.U.F. 2° éd. Paris 1970.

— IMBERT (J) et (H. Morel, R.J. Dupuy) : la pensée politique dès origines à nosjours - "Textes ee documents" - P.U.F. Paris 1969.

— L. INGNACE : peines et espoirs du prolétariat.
éd du Témoignage - Chrétien Paris 1946.

— P. JACCARD : Histoire sociale du travail de l'antiqué à nos pours. Payot - Paris - 1960.

— UNEF - JOHN : la naissance de la civilisation industrielle et le monde Contomperain.
Economie, socété et civilisation. A. colin - Paris 1954.

— J. M. KEYNES : The economic consequences of the peace.
Londres - Macmillan 1920

— J. KUCZYNSKI : les origines de la classe ouvrière.
"l'univers des connaissances" - Hachette - Paris 1967.

— LAJUGIE (Joseph) : Les doctrines économiques - Que sais-je n°386 p. U.F. 12° éd. Paris 1976.

— G. LEFRANC : Histoire du travail et des travailleurs Flammarion-Pairs 1975.

— LESOURD (J.A.) et (Cl. Gérard) : Nouvelle histoire économique (T. I : le XIX siècle). - Coll. V. A Colin, Paris 1976.

— LEVY - LEBOYER (M) : Les banques européennes et l'industrialisation internationale dans la première moitié du XIX° siècle - P.U.F. Paris 1964.

— LOWER (J.) : Les idées et moeurs au siècle de l'optimisme - Flammarion Paris 1969.

— MANTOUX (Paul) : La révolution industrielle au XVIII° siècle éd. Genin - Paris 1973.

— R. MARX : la révolution industrielle en Grande - Bretagne. Coll V2 A. Colin - Paris 1970.

— MICHEL (Bernard) : Banques et Banquiers en Autriche au début du XX° siècle - Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques Paris 1976.

— Mill (Stuart) : Textes choisis - "Préface de F. Trevoux". - Coll "des grands économistes" - Dalloz - Paris 1953.

— MILLET (Louis) : La pensée de Rousseau - Coll. "Pour connaîere" Bordas - Paris 1966.

— MONTESQUIEU : du principe de la démocratie "Extraits" Lib. de Médicis - Paris 1948.

— MONTESQUIEU : de l'esprit des lois "les grandes thèmes" - Coll. "idées" - Gallimard - Paris 1970.

— Ch. MORAZE : les bourgeois Conquerants. "Destin du Monde". A. Colin. Paris 1957.

— MOUSNIER (Maurice) : Histoire des faits économiques contemporains Sciences économique - Thémis, P.U.F. Paris 1976.

— R. MOUSNIER : les XVI° et XVII° siècles T IV : l'histoire générale des Civilisations P.U.F. - Paris 1967.

— NABILA. - KAMEL : les retombées de Mai 1968 sur le régime juridique des libertés publiques en France.
Thèse - Rennes 1974.

— NIVEAU (Maurice) : Histoires des faits économiques contemporains Sciences économiques - Thémis - P.U.F. Paris 1976.

— NORTHCOTE (Parkinson) : The evolution of political Thought Traduction en français par Louis Evrard "l'évolution de la pensée politique".

T. II : Troisième Partie : la démocratie.
Coll. "idées" - Gallimard - Paris 1965.

— C.N. PARKINSON : l'évolution de la pensée politique.

T III - 3° partie : la démocratie.
Coll "idées" - ed. Gallimard - Paris 1965.

— PASCAL (Georges) : Pour connaître la pensée de Kant - Bordas Paris 1966.

— H. PELLING : Histoire du syndicalisme Britanique.
ed. du seuil - Paris 1967.

— R. PERNOUD : les origines de la bourgeoisie P.U.F. - Que sais - je N° 456 - Paris 1957.

— P. Pic : législation industrielle. 5° ed - A. Rousseau, Paris 1922.

— PIETTRE (André) : Pensée économique et théories contemporaines Précis Dalloz - 6° éd. Paris 1973.

— PIETTRE (André) : Histoire économique 2° éd. - Cujas - Paris 1973.

— POLIN (Raymond) : Politique et philosphie chez Thomas Hobbes. Lib. J. Vrin - Paris 1977.

— F. PONTEIL : histoire générale Contemporaine.
"du milieu du XVIII° siècle à nos jours".
Dalloz - 4° édition - paris 1973.

— PRADES (J) : La sociologie de la religion chez M. Weber "essai d'analyse et de critique de la mèthode" - Louvain - Nauwelaerts, 1966.

— PRELOT (Marcel) et (Georges Lescuyer) : Histoire des idées politiques Précis Dalloz - Dalloz 6° édition Paris 1977.

— D. REDOR et (J. P. Rioux) : la révolution industrielle en Grande. Bretagne.
Profil "Dossier" - Economie, sociologie et sciences sociales Hatier - Paris 1980.

— REINHARD (M) et M. Armengaud et J. Dupaquier) : Histoire générale de la population mondiale - Montchrestien, 3° édition, Paris 1968.

— R. REMOND : introduction à l'histoire de notre temps. (1815-1914).
"Histoire". ed. du seuil - Paris 1974.

— RIOUX (J.P.) : La révolution industrielle (1780-1880) - Coll. "Histoire" éd. du Seuil - Paris 1971.

— ROSTOW (w - w) : Les étapes de la croissance économique Coll. "Points" éd. du Seuil - Paris 1970.

L. De RIEDMATTEN : le problèm socialà travers l'histoire.
2° éd. éditions de l'Observateur Versailles 1957.

— H. SEE : remarques sur l'evéolution du capitalisme.

Revue de synthesè histoire que. TXXXVI (N.S.T. XI).
La renaissnce du livre - Paris 1924.

— SEE (Henri) : Les origines du capitalisme moderne - Lib. A. Colin, Paris 1936.

— P. SILVESTRE : le mouvement ouvrier jusqu'a la deuxième guerre mondiale. A. Colin - Paris 1970.

— SURATTEAU : L'idée nationale de la révolution à nos jours Coll, "S.U.P." P.U.F. Paris 1972.

— TAWNEY (R.H) : La réligion et l'essor du capitalisme — Marcel Rivière - Paris 1951.

— TOUCHARD (Jean) : Histoire des idées politiques.

T I : dès origines au XVIII° siècle (4° éd. 1971).

T II : dès XVIII siècle à nos jours (4° éd. 1975) - P.U.F. Paris.

— A. TOURAINE : la Conscience ouvrière ed du Seuil - Paris 1966.

— M. TRONTI . Ouvriers et Capital ed. Christian bourgeois - Série "cibles". Paris 1977.

— M. VERRON : participation, histoire du travail, developpement et doctrines Sociales.
ed. Polyglottes. Pairs 1968.

— VINCENT (J.M.) : Le capitalisme selon Weber - "l'homme et la société" N° 4, Avril-Juin 1967 pp. 69-77.

— WEBER (Max) : l'éthique protestante et l'esprit du capitalisme "Traduit de l'allemand par Jacques Chavy" - Paris 2° édition 1967.

— WEILL (G) : l'Europe du XIX° siècle et l'idée de nationalité "Préface Henri Berr" - Paris 1938.

— A. WELFGANG : historie du mouvement ouvrier en Europe.
Petite Collection maspero. Paris 1973.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست

تمهيد وتقسيم الدراسة :

الفصل الأول

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفصــل الثالث

الآثار القانونية للثـورة الصـناعية

صفحة

صفحة

صفحة